منشورات اتحاد



القاهـــرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الحادى عشر - المجلد الأول

مارس - ٢٠٠٣م

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الحادى عشر - المجلد الأول
مارس - ٢٠٠٣م

تم الجمع والإخراج الداخلي والخارجي في :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - عمـــارات شركـة الخليـج

تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٢

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

* تصدر مؤقتا سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

*****

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويـــــــــات

كلمة الافتتاح

إذا أخذنا بالرأى القائل فى تعريف التاريخ بأنه العلم الذى يتتبع سيرة الإنسان على مر العصور بدئًا بهبوط آدم وحواء على سطح الأرض وحتى الأيام التى يعيشها المؤرخ ، فإننا نجد أنفسنا أمام مهمة صعبة ربما يتعذر القيام بها على الوجه الأكمل . ذلك أن التاريخ البشرى يشكل دائرة واسعة كبيرة ، أشبه بحلقات متداخلة مليئة بالأحداث ، كل حلقة لها أجواؤها وظروف وجودها وأثرها فى مسيرة الكون ، لأن الله عز وجل لم يخلق الكون ليربطه مخلوقاته فى مكان محدد ، وإنما خلق الأرض ومن عليها وأعدها لتكون ساحة يتحرك عليها مخلوقاته ويتكاثرون فوق سطحها على أشكال شتى إنسان وحيوان ، ذكور وإناث ، شعوب وقبائل،كبير وصغير ، غنى وفقير ، قوى وضعيف ، حاكم ومحكوم .. وترك لكل جماعة قدرًا مرسومًا من متاع الحياة الدنيا ....

ويعنينا فى مجال التاريخ أن تطور الإنسان ونقلته من مرحلة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر جاءت تدريجية ومحكمة . حسبه أنه مزود بعقل يحكمه فى حركاته وسكناته ويرجع إليه فى التمييز بين الخبيث والطيب .

وهكذا مضت مسيرة الإنسان خطوة بعد أخرى ، ولكل خطوة حسناتها وسيئاتها : التاريخ يسجل ، والله عز وجل يثبت فى أم الكتاب ، ويثيب ويعاقب .

وفى إطار هذه المسيرة حفل التاريخ بالخير والشر ، والبناء والهدم وترك لكل جيل من الأجيال المتعاقبة مهمة تسجيل ما يسمعه ويراه ، وما يحب أو يكره سمعه ورؤياه .

اللهم إنا نسألك الهدى والهداية ، وأن نكون خير عون فيما ذهبنا إليه فى دراسة التاريخ .

أستاذ دكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

التأثيرات الحضارية بين مصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية في العصر الحديدي: دراسة نقدية

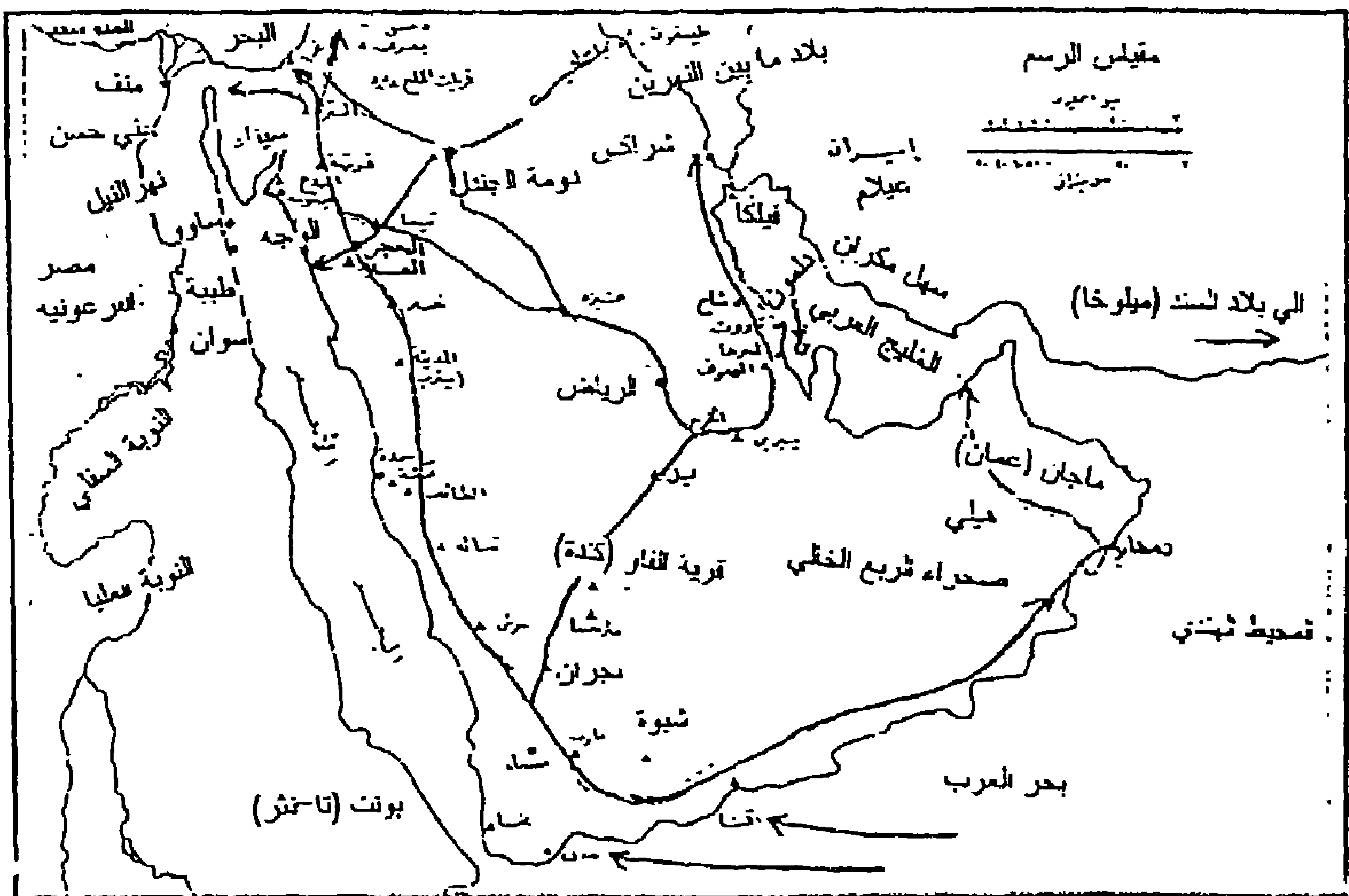
تمهيد:

يتبادر إلى الذهن تساؤلات حول مدى التأثيرات الحضارية المتبادلة بين مصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية ومتى نشأت وماهية الطرق التي انتقلت عبرها والدلائل الأثرية على وجودها مما كان دافعًا وراء هذه الدراسة بحثًا عن إجابة لها تدعيمًا أو نفيًا أو ترجيحًا خلال العصر الحديدي خلال الألف الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد .

وتعكس البقايا الأثرية المبكرة من عصور ما قبل التاريخ احتمالية اتصالات لشبه الجزيرة العربية مع مصر الفرعونية خاصة من العصر الخالكوليثي (الحجري - النحاسي) من منتصف الألف الخامس قبل الميلاد وما تلى إلى الألف الثالث قبل الميلاد تجسدت في بعض التأثيرات السامية (الآسيوية) الحضارية المرجحة في بعض أنماط الفخار وبعض موضوعات فنون النحت على تلك الصلايات التذكارية خاصة مقبض سكين جبل العرقي وفي بعض الرسومات المنقولة عن الأختام الأسطوانية المميزة لحضارة بلاد ما بين النهرين وما قد يرتبط بدور حواف شمال وشمال غرب شبه الجزيرة في حركة النقل لتلك التأثيرات الحضارية إلى وادي النيل (خريطة ١)(١) .

---

* كلية الآثار - جامعة القاهرة .



خريطة (١) : أهم لمواقع الأثرية وخطوط التجارة فى شبه الجزيرة العربية

ويغض النظر عن منطقة الساحل الغربي فإن الخريطة الأثرية لشبه الجزيرة العربية خلال الألفين الثالث والثانى قبل الميلاد تبدو خالية من الدلائل على مراكز حضارية للإنسان بالمكان(٢). ويبدو أن التغيير المناخي والجفاف المتزايد بشبه الجزيرة العربية بدءًا من العصر النيوليثى (الحجري الحديث) فى الألف السادس قبل الميلاد لعب دوراً هامًا فى الفراغ البشرى إلى أواخر العصر البرونزى الحديث بصفة أساسية في أواخر الألف الثانى قبل الميلاد إلى فجر الألف الأول قبل الميلاد . وإذا كانت الدلائل الأثرية فى مناطق الداخل من شبه الجزيرة العربية مازالت ناقصة ولم تكشف مواقعها عما قد تحتويه من آثار مرجحة لمجموعات بشرية قد تكون مازالت بالمكان أو عبره فإن المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية فى بعض مراكز الساحل الغربى من الخليج العربى كانت الصورة بها نسبيًا مختلفة على الأقل من أواخر الألف الثالث قبل الميلاد إلى فجر الألف الثانى قبل الميلاد حيث عكست البقايا الأثرية المكتشفة بالمكان عن ملامح لما يعرف محليًا بالحضارة الدلمونية عثر بين آثارها على ما اعتقده بعض الباحثين آثاراً ممصرة رجحت تأثرًا محتملاً فى الشكل والتنفيذ مع مثيلاتها من الحضارة المصرية القديمة خاصة النمط المصرى المعروف بهيئة الجعل (الجعران) من جزيرة

فيلكا الكويتية والبحرين بصفة رئيسية ، وطريقة التنفيذ لنماذج من النحت لبعض التماثيل أو فى طريقة التنفيذ المعمارية لبعض المنشآت الدينية خاصة ما يعرف باسم معابد باربار البحرين أو تلك الأوانى المرمرية المكتشفة فى جزيرة البحرين ، وإن ظلت إمكانية الاتصال الحضارى، المباشر لمصر الفرعونية ومنطقة الساحل الغربى من الخليج العربى غير مرجحة للبعد الجغرافى بين المكانين ولانعدام الدوافع الاقتصادية المرجحة لمثل هذا الاتصال ولعدم وجود ضغوط بشرية أو غير مباشرة من قبل أهل تلك الحضارة تجاه الحضارة الفرعونية مما جعل الدليل على أى احتكاك عدائى بينهما معدومًا (٣).

وتبدو خلال مرحلة أوائل الألف الثانى قبل الميلاد الموازى تقريبًا العصر البرونزى الوسيط بدورية الأول والثانى MBI-II (٢٠٦٠ - ١٧٠٠ق.م) وللدولة الوسطى والنقلة إلي عصر الانتقال الثانى (مرحلة الهكسوس) فى التاريخ الفرعونى القديم احتمالية مرجحة لعلاقات لمجموعة بشرية على أطراف شمال غرب شبه الجزيرة العربية تجسد فى وصول ٣٧ آسيوى (عامو C3mw) من الآموريين / الكنعانيين بإشراف حاكم الأرض الأجنبية (أو الصحراوية H3st) المدعو ابشا Ibš3 ضمن مناظر مقبرة حاكم إقليم الوعل (بنى حسن بمحافظة المنيا الحالية بوسط صعيد مصر) ، المدعو " خنم حتب " Hnm-htp خلال فترة حكم سنوسرت الثانى من الأسرة الثانية عشرة المصرية قادمين من منطقة جغرافية تضمنتها النصوص المصرية المصاحبة باسم " شوت " Šwt حاملون منتجاتهم معهم وعاكسين ملامح حضارتهم مما يرجح معه احتمالية تواجد بشرى متنقل حول حواف شمال غرب شبه الجزيرة العربية (شكل ١)(٤)، إلى ما يوازى حاليًا المنطقة الجنوبية من المملكة الأردنية الهاشمية فى ضوء ترجيح دراسة د. عبد العزيز صالح احتمالية تطابق موقع شوت من أرض مؤاب (٥)، وبالمثل فى اتفاق مع ما نادى به " نجف " Negev من إمكانية تطابق شوت Šwt (Sheth) التى أوردتها قوائم نصوص اللعنة مع أرض مؤاب (٦).



شكل (١) : المجموعات الآسيوية من مقبرة خنوم حتب ، بنى حسن

عصر الدولة الوسطى / العصر البرونزى الوسيط

ودعم مثل ذلك الرأى " مندنهل " Mendenhall باعتبار أن هؤلاء الآسيويين المصورين فى مقبرة خنوم حتب ليسوا سوى الأسلاف المبكرين لملكة مدين التى كانت لها السيطرة تحت ملكها خلال عصر موسى عليه السلام وغطت مساحة جغرافية شملت المنطقة حول خليج العقبة حتى واحة البدع شمال غرب السعودية وإلى الساحل الغربى من خليج العقبة حتى منتصف وجنوب شبه جزيرة سيناء المصرية (٧)، وإن ظلت أهمية مثل ذلك التطابق لأرض شوت ومؤاب لا يعكس بالضرورة ارتباطًا بتلك المجموعات البشرية المرجح ارتباطها بمناطق شمال غرب شبه الجزيرة العربية فى ضوء ما نعرفه عن الامتداد الجغرافى لملكة شوت / مؤاب فى الإطار الجغرافى للمملكة الأردنية خلال أواخر العصر البرونزى المتأخر إلى العصر الحديدى(٨).

وخلال مرحلة العصر البرونزى الوسيط فى دوره الثالث MB III (١٦٥٠ - ١٥٥٠ق.م) الموازى تقريبًا لعصر الانتقال الثانى (مرحلة الهكسوس) فى التاريخ الفرعونى إلى أوائل العصر البرونزى الحديث (١٥٥٠ - ١٢٠٠ق.م) الموازى تقريبًا لعصر الدولة الحديثة وأوج الحضارة الفرعونية لا تتضح لنا دلائل أثرية ترجح علاقات لشبه الجزيرة العربية مع الحضارة الفرعونية بالرغم مما ذهب إليه البعض من ترجيح لمثل تلك العلاقات (٩). وبالرغم مما كشفت عنه أعمال التنقيب الأثرى الأخيرة فى مراكز الحضارات فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية خلال العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى التى رجحت تجمعات بشرية لها حضارتها المحلية فإن تلك البقايا مع ملاحظة قلة عددها والنشر العلمى لها لم ترجح تأثيرات أجنبية حضارية لها ، ولم تعكس اتصالات لتلك المجموعات البشرية مع مراكز حضارية أخرى مجاورة لها خاصة منطقتى بلاد ما بين النهرين ووادى النيل (١٠). وعلى أى حال فإن ظهور اسم تلك المجموعة البشرية فى النصوص المصرية للفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) من الأسرة الثامنة عشر فى شكل جنبتيو Gnbtyw وما حملوه معهم من منتجات / هدايا (Inw) من الكندر واللبان والمر (البخور / العنتيو Cntyw) والراتنج يعكس احتمالية بدء التواجد البشرى بالمكان وإن ظلت حقيقة واضحة فى طريقة تدوين المصريين لاسمهم تحت مخصص البشر وليس مخصص الأرض مما يعنى عدم معرفة المصريين لمكان ثابت لهم ووطن محدد لهم ذات أهمية فى ضوء ما رجحته دراسة د. عبد العزيز صالح فى الربط بينهم من بعد وبين الجبناتيين (قطبان) المذكورين فى الكتابات الكلاسيكية والحضارة القتبانية المعروفة كأحد أهم الحضارات اليمنية القديمة فى الألف الأول قبل الميلاد (١١).

العلاقات الحضارية لمصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية فى الالف الاول ق.م:

شهدت مرحلة الألف الأول ق.م نشأة العديد من المراكز الحضارية على امتداد المنطقة للساحل الشرقى من البحر الأحمر خاصة شمال غرب شبه الجزيرة العربية (الحجاز) وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية (اليمن) ربما فى ارتباط بمعرفة إنسان المكان لتدجين (استئناس) الجمل والاستفادة من ذلك فى تدشين خطوط تجارية برية لعل من بين أشهرها ما ربط بين بلاد الشام شمالاً واليمن جنوبًا على امتداد الساحل الشرقى من البحر الأحمر وما ارتبط بذلك من قدرة على تسويق أهم منتجات مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية من البخور واللبان والمر والكندر باعتبارها " الذهب الأبيض " لاقتصاديات المكان فى ذلك الزمان بالمقارنة مع الذهب الأسود (البترول) حاليًا ، وبالمثل فى مرحلة متأخرة من النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد فى استخدامه للطرق البحرية خاصة وما ارتبط بذلك من أهمية قصوى لمينائى " قنا " (بير على أو حصن أبو غراب) من الحضارة الحضرمية و " الوجه " على الساحل الشرقى من البحر الأحمر لحضارتى العلا (الحجر) ومدائن صالح (دادان) بصفة رئيسية (خريطة ١)(١٢).

كما شهدت المنطقة أيضا معرفة إنسان المكان لكيفية الاستفادة من الموارد المائية الناجمة عن سقوط الأمطار خاصة باليمن على مدار الفصلين ، وتشييد السدود لعل من بين أشهرها سد مأرب ، ومعرفة نظام الأفلاج وبناء الخزانات والصهاريج لحفظ المياه والاستفادة من حواف الجبال لزراعتها فيما يعرف محليًا باسم الجلول أو الاستفادة من ترسيب الطمى على مجارى الأودية الزراعية العديدة بالمكان خاصة وديان ذبيان وأذنة وحضرموت وبعض مناطق الواحات خاصة تيماء والعلا والجوف فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية(١٣). وحفظت لنا النصوص من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية خاصة بلاد ما بين النهرين ومصر الفرعونية أسماء مرجحة لبعض تلك المجموعات البشرية فى شبه الجزيرة العربية تتطابق على وجه الاحتمال معها خاصة من العصر البرونزى الحديث (المتأخر) إلى العصر الحديدى بصفة رئيسية كان من بينها مثلما سلفت الإشارة الجنبتيو Gnbtyw = القطبانيين والخبستيو Hbstyw = حبشات إحدى القبائل اليمنية بالمكان وعرب أو عريبى Cr(b)/ Cribi أو الأعراب من النصوص الآشورية ومن بعد بصفة مرجحة فى النصوص الفرعونية كصفة ملازمة لأعراب المكان أو البدو فى مناطق حواف شمال وشمال غرب شبه الجزيرة العربية (١٤). وعكست لنا بعض المكتشفات الأثرية من بعض مراكز حضارات شمال غرب وجنوب غرب شبه الجزيرة

العربية وعلى امتداد خط التجارة البرى الرئيسى الواصل ما بين بلاد الشام واليمن تأثيرات حضارية مرجحة لمصر الفرعونية بصفة رئيسية فى العصر الفرعونى ومن بعد خلال العصر البطلمى / الرومانى على المكان خاصة فى مجال اللغة والعقيدة والعمارة والفخاريات والتماثيل بصفة رئيسية مما سوف نتناوله تالياً فيما يختص بالمرحلة الزمنية المرتبطة بالبحث بمزيد من الدراسة والتفصيل .

ومن المعروف فى مجال الدراسات اللغوية المرتبطة باللغة / الكتابة العربية أن الخط المسند تكون من ٢٩ حرفًا : ٢٨ حرف عربى بالإضافة إلى حرف السين الثانى المقتبس من الأبجدية المكتشفة فى سرابيط الخادم بشبه جزيرة سيناء المصرية التى يرجح البعض من الباحثين أنها الأصل للأبجدية الفينيقية / الأوجاريتية [١٥]، وأنها أيضًا محورة عن الخط المصرى القديم ، وأن تلك الكتابة البروتوسينائية Proto-Sinaitic Inscriptions تتشابه مع تلك المدونة على حجر مدين ، وأن تلك الكتابة على حجر مدين تتشابه بدورها مع الكتابات الثمودية والكتابة العربية الجنوبية مما دعى بعض الباحثين ومن بينهم د. عبد المنعم عبد الحليم سيد إلى تأكيد مثل ذلك الاتصال والتشابه اللغوى بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية الجنوبية ، وأن هناك العديد من مظاهر الاشتراك بين اللغة المصرية واللغة العربية الجنوبية خاصة وجود حرف العين بين حروفها وشيوع المصدر الثلاثى بين أفعالها ، وغلبة الفعل المعتل الآخر فيها ، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض أسمائها وصفاتها المؤنثة [١٦]، وفى المحافظة على الخصائص العامة للكتابة البروتوسينائية ومنها الاتجاه الرأسى للكتابة ووجود العلامات المزدوجة والاتجاه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين (شكل ٢) [١٧].

ويلاحظ فى مجال العقيدة التشابة أيضًا فى استخدام الرموز الدينية : الهلال الأفقى للدلالة على القمر وقرص الشمس المشع للدلالة على إله الشمس والنجمة للدلالة على الزهرة فى الارتباط للآلهة المصرية واليمنية القديمة بصفة خاصة ، وفى الإشارة إلى أصول مشتركة مرجحة لبعض الآلهة المصرية مع آلهة جنوبية خاصة ما ارتبط بالإله حورس (الصقر) Hr وترجيح ارتباط أصله اللغوى باللغة العربية الجنوبية والإله مين Min المرجح تشابهه مع الإله الموقه السبئى وربما أيضًا الإله بس [١٨]، وإن رجحت غالبية آراء الباحثين فيما يرتبط بالإله بس أصولاً أفريقية له [١٩]. وقد عثر على قطة برونزية من الآثار السبئية محفوظة فى متحف فيينا نشرها جروهمان A.Grohmann تمثل الإله بس جالسًا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه مما يعكس التمازج فى التصوير بين شكل الإله المصرى والرموز المحلية للعقائد اليمنية القديمة بالمكان [٢٠].

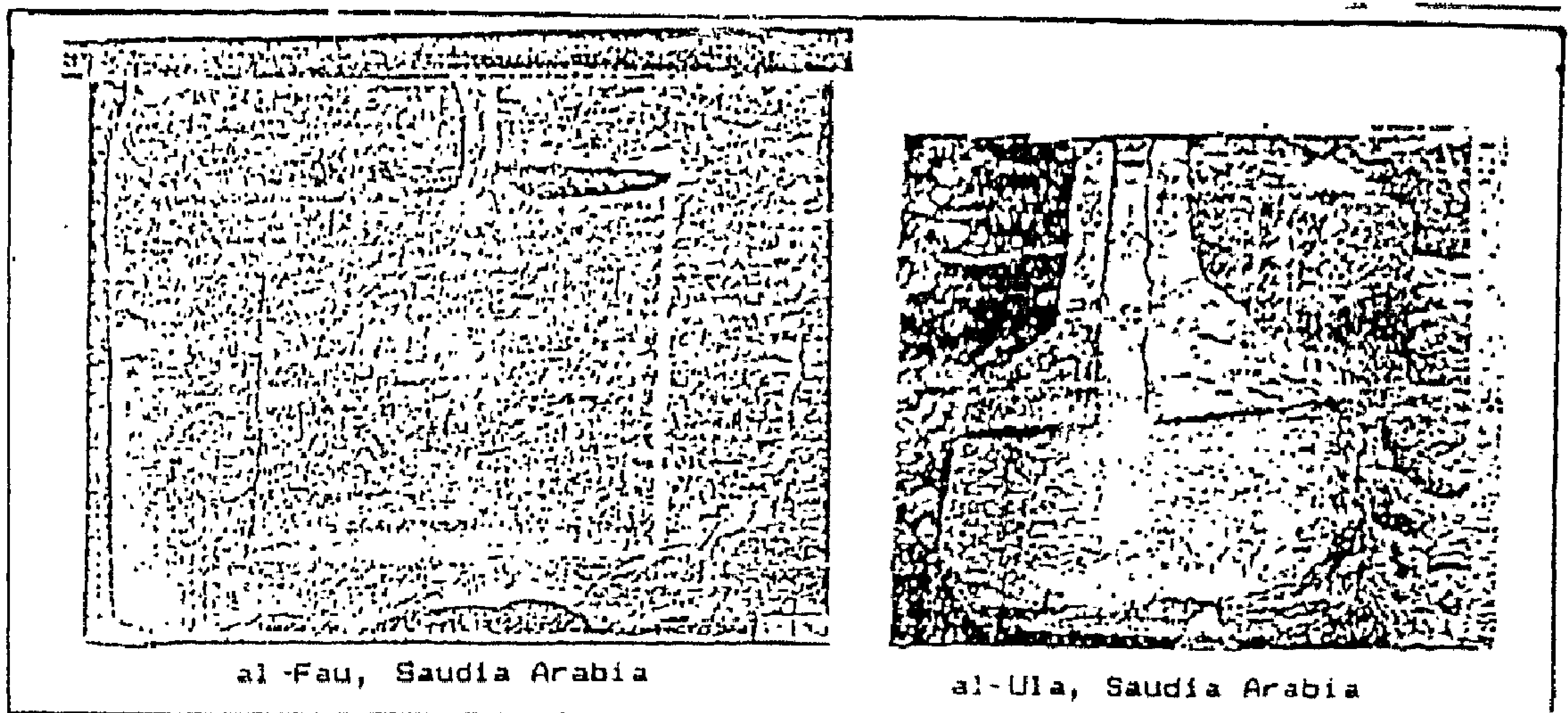
شكل (٢) : الخطوط العربية القديمة

كما يرجع أيضًا شكلاً آخر من أشكال التأثير المصرى الحضارى المرجح بين حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ومصر الفرعونية فى ضوء ما أبانت عنه بعض أعمال الكشف الأثرى فى العقود الثلاث الأخيرة من القرن العشرين الميلادى من وجود " دفنات " جنائزية بهيئة قبور صخرية وأضرحة حجرية خاصة تلك المجموعة من القبور فى شبام (الغراس) التى اشتملت على ودائع هامة محنطة محفوظة حاليًا فى متحف جامعة صنعاء مؤرخة تقريبًا من النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد مثلما يذهب إلى ذلك جان كلود رو ربما تتشابه فى طريقة التنفيذ جزئيًا مع مثيلاتها من الحضارة الفرعونية وإن لم تتضح لنا من خلال النصوص اليمنية القديمة إلى القرن الثالث قبل الميلاد مدى وجود مفهوم " البعث والخلود " المعروف عن العقيدة المصرية القديمة بين أهل المكان آنذاك فى ارتباط بنهجهم للحفاظ على الجسد للمتوفى فى حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (٢١).

كما أن ما أبانت عنه أعمال التنقيب الأثرى فى صرواح ، العاصمة السبئية من وجود "حوض للمياه " قائم الزوايا ومحاط بأعمدة بعضها مثمن وبعضها ذو ستة عشر ضلعًا داخل

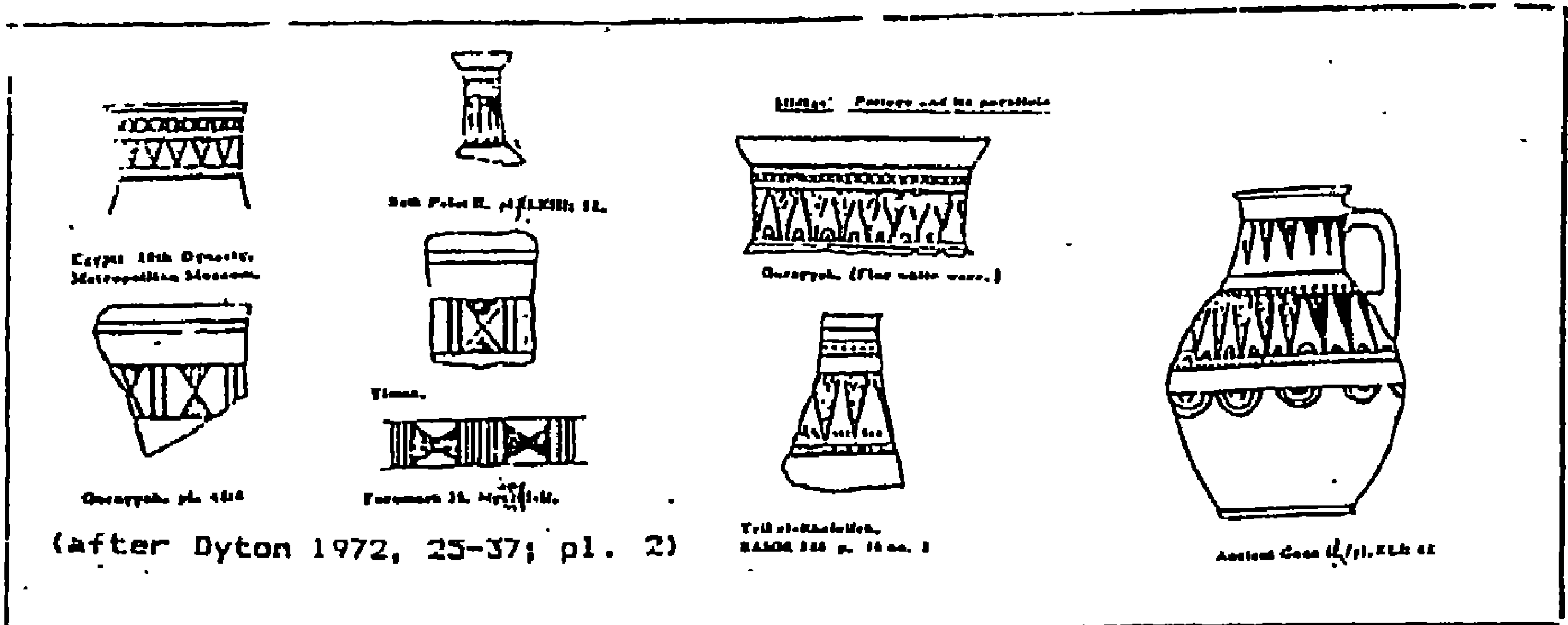
حرم المعبد للإله القمرى بالمكان ما قد يرجح معه تشابه مع الحضارة المصرية بالرغم من ندرة وجود مثل ذلك النمط فى المعابد المصرية فيما عدا ما رجحه د. عبد المنعم عبد الحليم سيد من العثور على مثل ذلك النمط أمام مدخل معبد أبى صير من الأسرة الخامسة الفرعونية(؟)(٣٢).

إضافة إلى ذلك عثر على شكل مقلد لنمط موائد القربان المصرية بهيئة مربعة الشكل من الحجر وبها رسوم محفورة لأنواع الأطعمة وأوانى الشرب وفى وسطها تجويف يبرز من أحد جوانبها على شكل مجرى لتصريف السوائل خاصة ما عثر عليه فى مأرب ومن السوداء (الجوف) من نهاية القرن الثامن ق.م من المرمر البالغ ارتفاعها ١٨ سم وطولها ٤٧ سم (متحف صنعاء(٢٣) ومن موقع العلا(٢٤) ومن الفاو (مملكة كنده) من المملكة العربية السعودية (شكل٣) (٢٥).



شكل (٣) : موائد القربان من حضارات شبه الجزيرة العربية

كما عثر بين أنقاض تمنه حوالى ١٥ ميل شمال خليج العقبة على أنماط فخارية من الطراز الميديناتى المنتمى إلى حضارة مدين والتى كان لها استناداً إلى الآثار والنصوص علاقات مع مصر الفرعونية خلال العصر البرونزى المتأخر / عصر الرعامسة بصفة أساسية يتشابه مع مثيله من الأنماط الفخارية لمصر الفرعونية (شكل ٤) (٢٦).



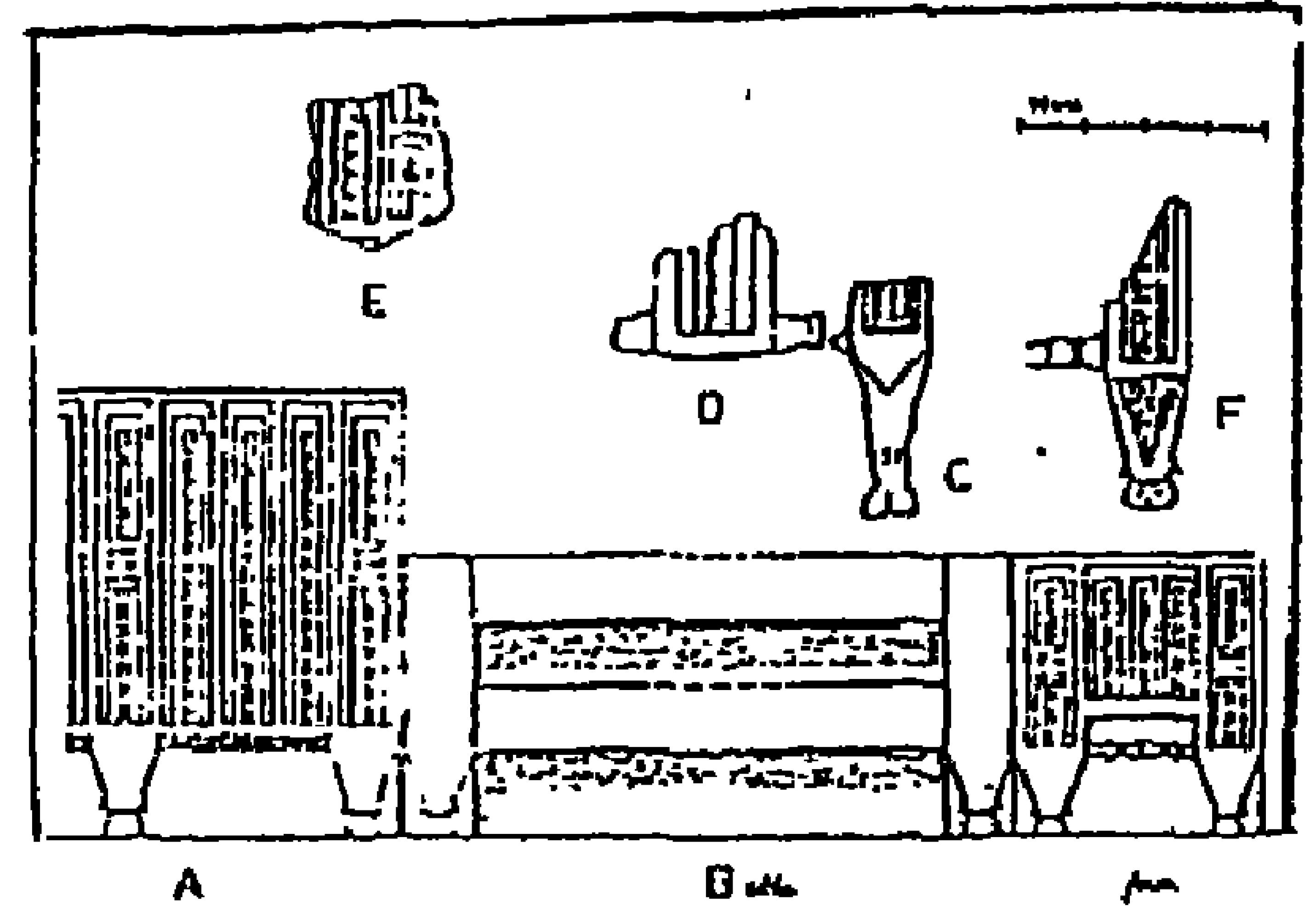
شكل (٤) : أنماط فخارية من حضارة مدين ، العصر البرونزى المتأخر

وبفحص البقايا للأنماط الفخارية المنشورة من مواقع شبه الجزيرة العربية يتضح لنا غلبة الأنماط المحلية عليها فى الصنعة والأشكال وندرة التقليد لأنماط أجنبية الأصل اللهم فيما التأثيرات العبيدية المبكرة من بلاد ما بين النهرين والسندية من حضارة موهنجدارو وهارابا خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ثم من بعد الأنماط الكاشية والبارثيانية خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد فى مراكز الساحل الغربى من الخليج العربى [٢٧]، ثم فى الداخل وبعض مناطق شمال غرب وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية لأنماط ميسينية الأصل من النمط المعروف باسم زمزمية الحاج Pilgrim flask مثلما عثر عليه بين أنقاض قرية الفاو بصفة أساسية المرجح تأريخها من القرن الثالث قبل الميلاد وما تلى ، وبالمثل فى تشابه بعض أنماط الزخارف للفخار النبطي مع مثيلاتها على الفخار المكتشف من هجر بن حميد اليمنى أو الامتداد الجغرافى الحضارى للحضارة النبطية ذاتها إلى ما يقرب من حائل ومدائن صالح (الحجر) فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية مع الأخذ فى الاعتبار أن فخار الحضارة النبطية لم يعرف إلا منذ حوالى القرن الأول قبل الميلاد [٢٨].

ويرجح عدم العثور على أنماط مصرية من الفخار بمواقع شبه الجزيرة العربية ربما لانعدام المواد الخام المرجح اشتمالها عليها والمصدرة من وادى النيل إليها على العكس مما نعرفه عن العديد من الأنماط الفخارية السورية الطابع (شرق حوض البحر المتوسط) من مواقع الحضارة الفرعونية التى احتوت حين تصديرها إلى مصر الفرعونية على الزيوت والنبيذ المرغوب فيه من مصر بصفة رئيسية [٢٩]. وتتناقض تلك الصورة خلال العصر الهيلينستى خارج الإطار الزمنى لموضوع بحثنا الحالى مثلما أبانت عنه تلك البقايا الأثرية التى كشفت

عنها التنقيب الأثرى للبعثة اليمنية السوفيتية المشتركة فى موقع ميناء قنا (بير على أو حصن أبو غراب الحالى) من الحضارة الحضرمية فى القرن الأول ق.م. وما تلى خاصة تلك الجرار الفخارية المعروفة لنمط الأمفورا وبالمثل الأوانى الزجاجية الهيلينستية الطابع والمرغوب فيها من مراكز حضارات العالم القديم آنذاك والمصدر من الإسكندرية ، مركز الحضارة البطلمية(٣٠) . وتظل هناك احتمالية ضعيفة أو مرجحة لتأثير حضارى مصرى مع اليمن فى طريقة تنفيذه لشكل مقبض إناء بهيئة الوعل مشابه لمثيله المصرى من منطقة تل بسطة بشرق الدلتا ولكن بشكل الماعز يقفز برجليه الأماميين (٣١).

كما عكست بعض أنماط الأثاث المنزلى احتمالية تأثرات حضارية لمصر الفرعونية وحضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية خاصة تلك القطع الأثرية التى عثر عليها ونشرت من قبل كل من د. أحمد فخرى وأعيد تركيبها ودراستها من قبل برينيه J.Pirenne باعتبارها قاعدة كرسى العرش اليمنى القديم التى حملت تأثيرات مصرية فى شكل ما يعرف باسم واجهة القصر الملكى (السرخ Srh) أو نظام المشكاوات المعمارى السالف الإشارة إليه فى عمارة بلاد ما بين النهرين (شكل٥) . وتكرر مثل ذلك أيضاً على كتلتين حجريتين عثر عليهما فى البيضاء ، مأرب (حوالى ١٧٠×٤٥سم) ، وعلى إحدى المباخر خلال أعمال حفائر البعثة الأمريكية وبالمثل على أحد المباخر المحفوظة حالياً فى متحف اسطنبول رقم ١٧٧٣ بتركيا(٣٢).

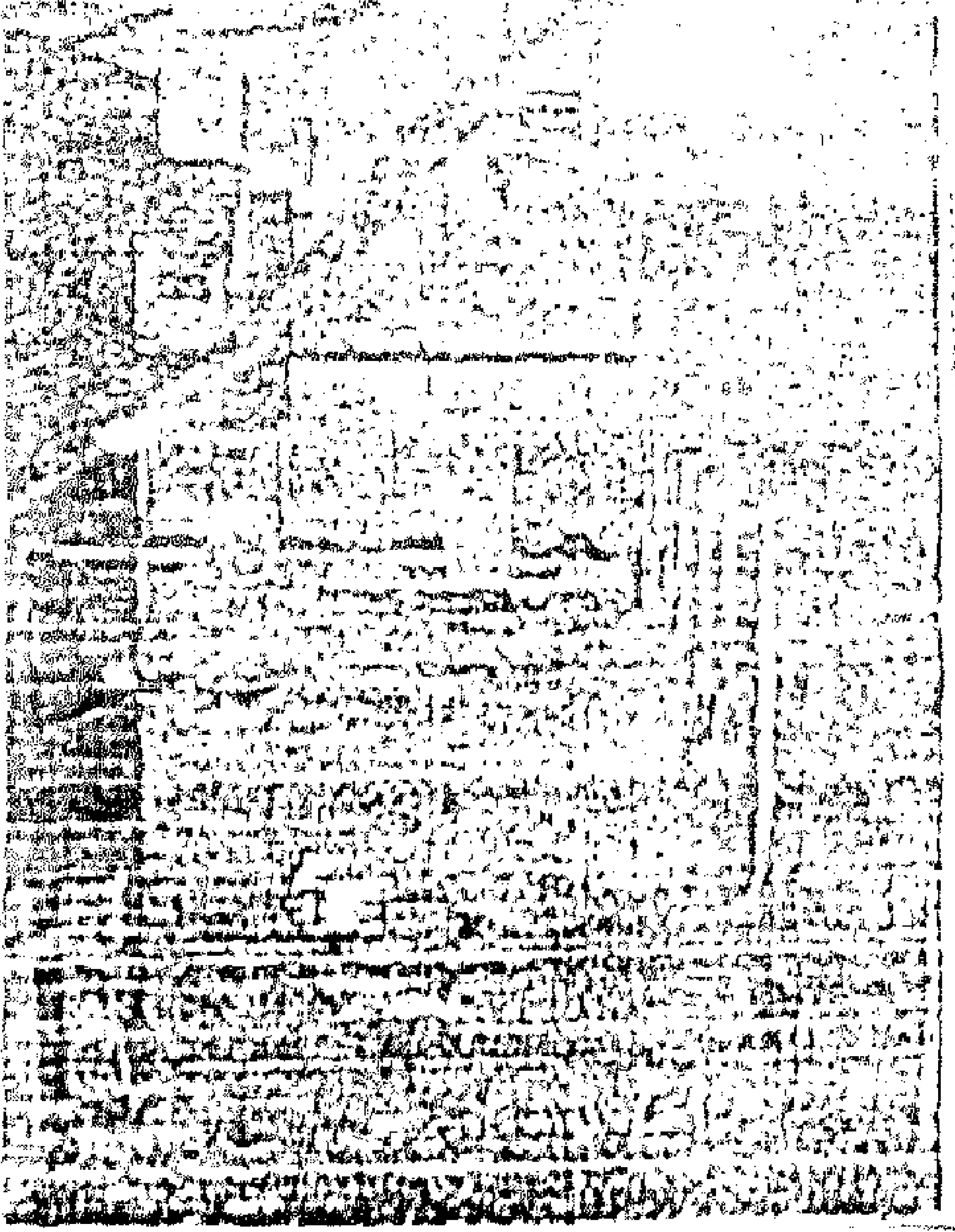


شكل (٥)

واجهة القصر الملكى على كرسى العرش اليمنى

وعكست أنماط المشكاوات (الدخلات والخارجات) Recessed panels على حائط معبد تمنع (هجر كحلان) العاصمة القتبانية شكلاً آخر من أشكال التأثيرات الحضارية المتبادلة لمصر الفرعونية الناقلة عن حضارة بلاد ما بين النهرين لمثل هذا النمط من العمارة القديمة لعل أشهر نماذجها من العمارة الفرعونية سور المجموعة الجنائزية للملك المصرى زوسر (ارى

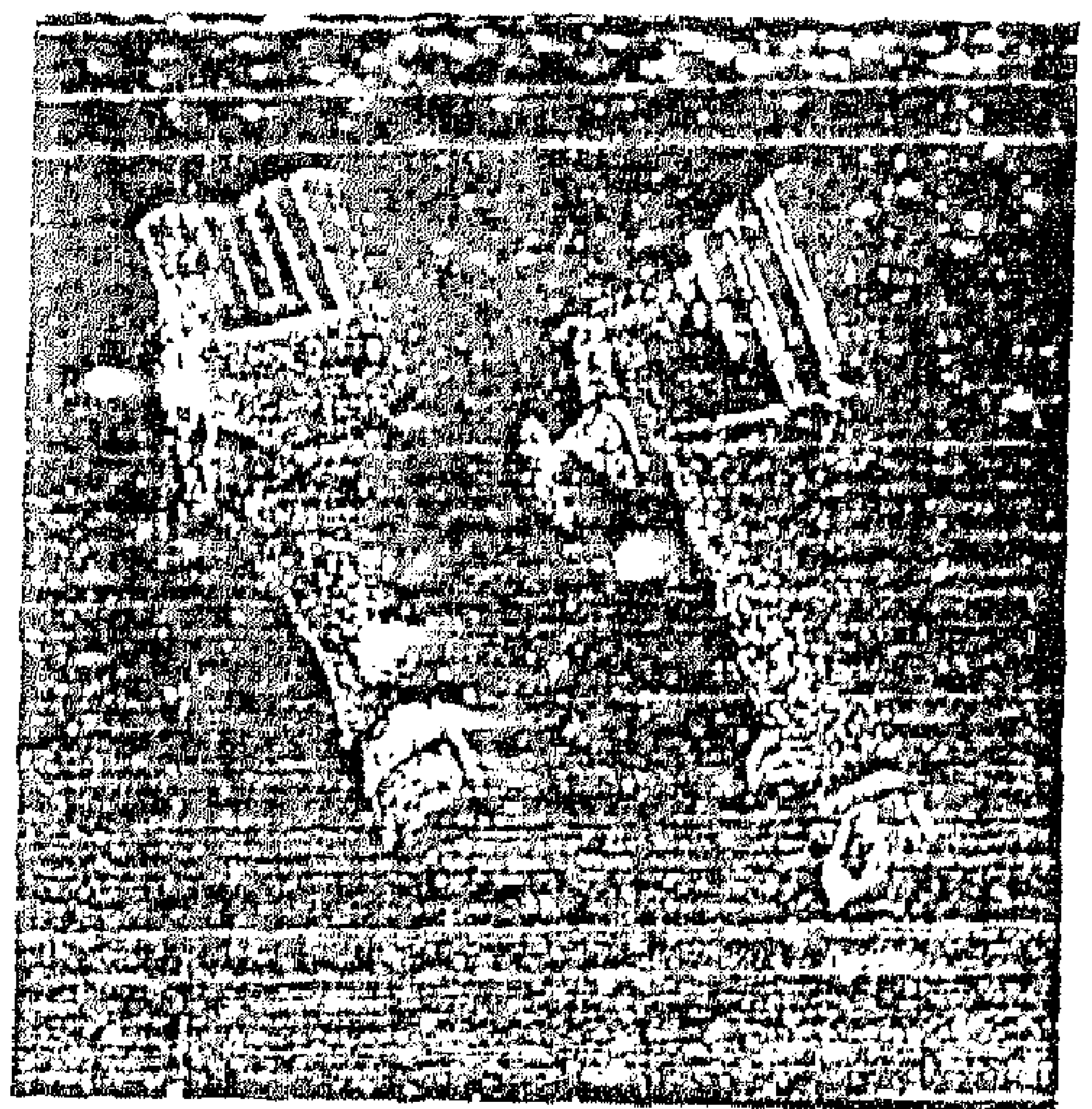
خت نثر) من الأسرة الثالثة بجبانة سقارة الحالية على مبعدة حوالى عشرين كيلو متر جنوب القاهرة الحالية (شكل ٦) (٣٣).



شكل (٦)

التأثير المعمارى فى طراز المشكاوات من الحضارة الفرعونية : بهو الأعمدة والنوافذ الصماء من معبد الموقة اليمن

كما عثر على نمط مشابه لنمط الأثاث ذى القوائم المستوحى من قوائم البقر المعروف منذ الألف الثالث قبل الميلاد سواء من بلاد النهرين أو مصر الفرعونية وذلك فى قوائم قاعدة العرش المكتشفة فى مأرب ، وإن كانت هنا بهيئة قدمى الوعل من المرمر والبالغ ارتفاعها ٤٢ سم وطولها ١٥ سم وبلغت الأخرى ٣٧سم فى الارتفاع و ٢٤ سم فى الطول والمعروضة حالياً فى متحف صنعاء الوطنى مما قد يعكس تأثراً غير مباشر فى طريقة التنفيذ مع مثيلاتها من حضارات الشرق الأدنى القديم (شكل ٧)(٣٤).



شكل (٧)

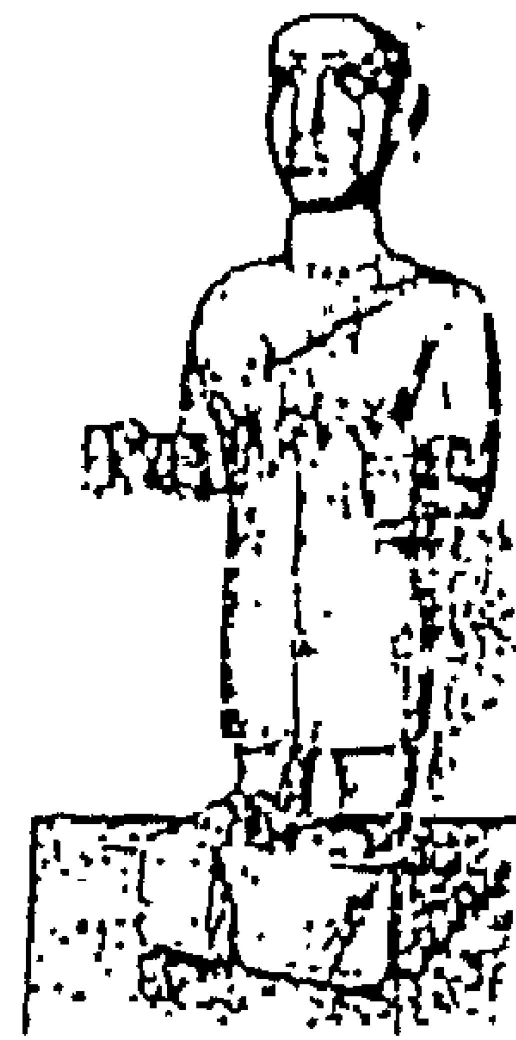
قوائم العرش اليمنى بهيئة الوعل

وفي مجال فنون النحت خاصة فيما يتعلق بالتماثيل بهيئة بشرية فإنه من اللافت للنظر أن معظم النماذج الفنية للتماثيل التي عثر عليها من مواقع حضارات شمال غرب وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية تعود زمنيًا بصفة رئيسية إلى العصر الهيلينستي في القرن الثالث قبل الميلاد وما تلى من مراحل حضارية خاصة تلك المجموعة الممتازة لأسدى تمنع وتمثال مريم (مريام) وغيرها وعاكسة تأثرًا واضحًا بفنون النحت الهيلينستي من مدينة الإسكندرية حاضرة مصر البطلمية وكنتيجة تالية لتزايد الاتصالات البحرية والتجارية نتيجة لحسن الاستغلال الأمثل للاتصالات البحرية عبر قناة سيزوستريس (دارا / فيكاو) المحفورة في منتصف الألف الأول ق.م. مما أدى لربط البحرين المتوسط والأحمر عبرها ومن خلال أفرع نهر النيل بصفة أساسية (٣٥). كما أن تلك المجموعة من التماثيل التي عثر عليها بين أنقاض المواقع الأثرية في شمال غرب شبه الجزيرة العربية من مملكة لحيان ، المستعمرة النبطية آنذاك تعود زمنيًا إلى مرحلة متأخرة من الألف الأول ق.م(٣٦). ولعل ندرة ما تمك العثور عليه من فترة زمنية سابقة على فترة الوجود الهيلينستي بين أنقاض المواقع الأثرية من حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بصفة أساسية ومن مواقع شمال غرب شبه الجزيرة العربية جانبية لا يتيح لنا الكشف عن مظاهر التأثر الحضاري المتبادل المحتمل بين شبه الجزيرة العربية ومصر الفرعونية في الفترة الزمنية محل البحث إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وإن ظلت ملامح التأثر للمدرسة الهيلينستية لفنون النحت بالقواعد النمطية لفنون النحت من مصر الفرعونية واضحة في طريقة التنفيذ خاصة ما يعرف بتزجيج العيون وإظهار الفتوة والشباب بالمبالغة في محيط الصدر والرشاقة في الخصر وفي استقامة اليدين بجوار الجسد أو في تقدم أحدهما قابضة على علامات شرفية أو في تقدم القدم اليسرى عن اليمنى (شكل ٨)(٣٧).



(after Pirenne 1972, 199; fig. 5)

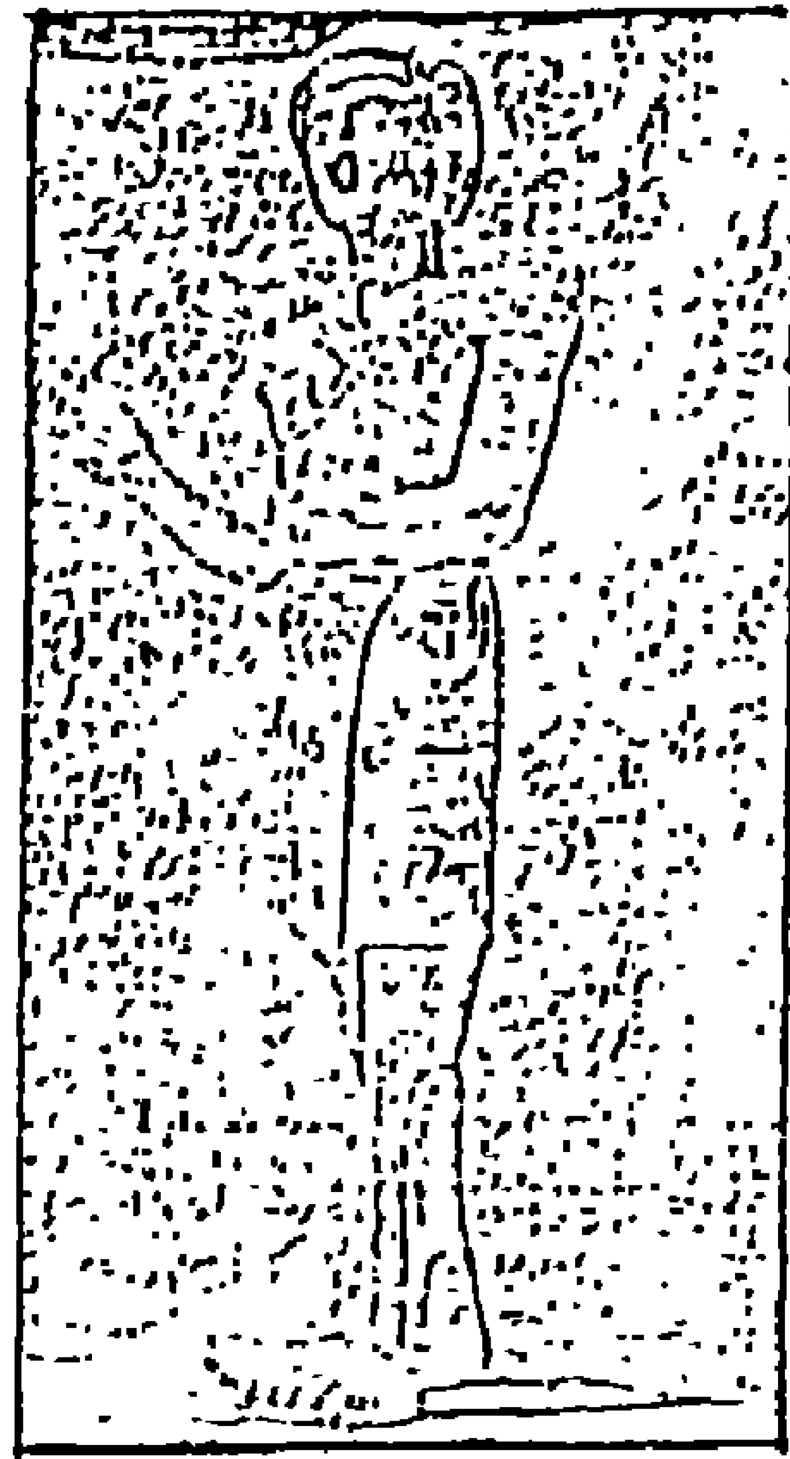




(after Pritchard 1958, 65-66)

شكل (٨) : نماذج من فنون النحت اليمنية القديمة

ويعكس تمثال معدى كرب الذى عثر عليه بين أنقاض معبد أوام مأرب المؤرخ حوالى القرن الرابع ق.م ضمن أعمال حفريات البعثة الأمريكية فى بدايات الخمسينيات من القرن العشرين الميلادى والمصنوع من البرونز البالغ ارتفاعه ٩٣ سم والمحفوظ حاليًا فى متحف صنعاء الوطنى بعض تلك القواعد الفنية المراعاة فى فنون النحت اليمنى القديم فى تأثر بالمدرسة المصرية من إبراز لمحيط الصدر ونحافة الخصر وتقدم اليد ربما للقبض على علامة الشرف وتقديم القدم اليسرى للأمام عن اليمنى وفى ارتدائه لجلد حيوان ربما الفهد أو الأسد الذى يغطى ظهر التمثال مما يذكرنا بما كان يرتديه بعض الكهنة المصريين خاصة طائفة كهنة : " سم " المكلفون بأداء طقوس جنائزية أمام جثة المتوفى(٣٨) أو مشابه فى رأى آخر لزينة الإله الفينيقى بعل ملقار فى القرن السابع ق.م أو الإله الإغريقى هيراكليس من القرن السادس قبل الميلاد (شكل٩)(٣٩).



شكل (٩)

تمثال معدى كرب نموذجًا

لفنون النحت اليمنى القديم

خاتمة البحث:

وبالنظر إلى تلك الدلائل الأثرية التى رجحنا احتمالية تشابه فى الملامح أو تعبيرًا لانعكاس حضارى متبادل بين المراكز الحضارية فى شبه الجزيرة العربية خاصة فى جنوبها الغربى وشمالها الغربى على التوالى بصفة رئيسية نلاحظ نقاطًا جديرة بإلقاء مزيد من الضوء عليها لعل من بين أهمها أن معظم تلك الدلائل على اتصالات حضارية لا تتضح إلا بدءًا من العصر الحديدى وما تلى خلال الألف الأول قبل الميلاد بصفة أساسية فى ارتباط بظهور تلك المراكز الحضارية اليمنية أو مستوطناتها فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية (الحجاز) فى ارتباط

بما تم لحضارة أهل المكان ومعرفتهم بتدجين الجمل وبقدرتهم على تسويق منتجاتهم المحلية الهامة من البخور . ولعل لذلك التأخير فى ظهور بعض التأثيرات الحضارية بين مصر الفرعونية وبعض المراكز الحضارية فى شبه الجزيرة العربية إلى الألف الأول قبل الميلاد ما يبرره فى ضوء المتاح لدينا من الدلائل الأثرية والنصية فى ندرة الوجود البشرى فى مراكز الداخل من شبه الجزيرة العربية ذاتها وفى صعوبة الاتصال ذاته براً فى ضوء طبيعة المكان الصحراوية وبعدها الجغرافى النسبى عن مصر الفرعونية وفى ضوء عدم توافر المواد الخام التى قد تكون عامل جذب اقتصادى لمصر تغريها بالذهاب إلى المكان فى ضوء أن أهم ما كان ينتجه الإقليم أو تحتويه أراضيه تمثل فى البخور (العنتيو) وهو ما حصلت عليه مصر من بلاد بونت الأقرب جغرافياً لها والأيسر فى الوصول إليها بحرياً فى المقام الأول (عبر الملاحة البحرية فى مياه البحر الأحمر) واستثنائياً نهرياً عبر نهر النيل جنوبياً وبرياً من بعد فى جزء من تلك الرحلة فى ضوء قبول معظم الباحثين لموقع بونت فى أفريقيا جغرافياً على الأقل إلى النصف الأول قبل الميلاد فيما يشتمل حالياً على الشواطىء الشرقية للسودان وفى أريتريا مع امتداد غربى وصولاً إلى نهر النيل(٤٠)، وفى أن ما تحتويه مناجم شبه الجزيرة العربية من نحاس المعرف من مناجم ماجان (عمان أو سهل مكران الإيرانى) كان متوافراً فى مناجم مصر ذاتها أو قامت باستيراده من بعد من مناطق نفوذها فى حوض البحر المتوسط خاصة آلاشيا (= قبرص) بصفة رئيسية .

وتتزايد ملامح تلك الاتصالات فى النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد . ولعل السبب فى ذلك يعود إلى تزايد حركة الاتصالات بين المركزين الحضاريين وفى وجود وسيلة اتصال ملاحية جديدة بينهما ارتبطت مع حفر قناة دارا / نيكاو وربما رغبة من القوة العالمية الجديدة آنذاك الأخمينية فى تيسير الربط بين مستعمراتها خاصة مصر الفرعونية وعبر مناطق الترانزيت فى حركة النقل البحرى فى منطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وبالمثل فى غلبة الطابع الاقتصادى على العلاقات المصرية العربية القديمة فى ضوء عدم وجود أى إشارات نصية عكس ذلك ، وأن مثل تلك التأثيرات الحضارية المرجحة بين اليمن / شمال غرب شبه الجزيرة العربية ومصر الفرعونية كانت عبر حركة التجارة البرية فى المقام الأول ، وأنها تأثيرات مباشرة تم النقل لها عن أصول حضارية مصرية أو بمشاركة نحاتين وغيرهم استقدموا من مصر لتنفيذ بعض تلك الأعمال ولصالح حكام تلك المراكز الحضارية مثلما هو الحال على وجه الاحتمال للحضارة اللحيانية / الدادانية فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية بصفة أساسية .

الهوامش

* – كان هذا البحث محل الدراسة فى الأصل موضوعًا لورقة عمل باللغة الإنجليزية شاركت بها ضمن أعمال الندوة العلمية الخامسة بعنوان " مصر والجزيرة العربية عبر العصور ٣–٥ أبريل ١٩٩٣م" التى نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة القاهرة بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب ، ولم يتم للأسف نشرها بعد إلى وقتنا الحاضر . ومن ثم قمت بإدخال العديد من التفصيلات المرتبطة بالموضوع محل البحث – بعد ترجمته إلى اللغة العربية – وتعديل الإطار الزمنى له .

1 - Huzzayin, S. The Place of Egypt in Prehistory, Le Caire: 1941; Massulard, E. Prehistoric et Protohistoric d,Egypt, Paris: 1949 p. 13; Copeland, L and Hous, F. "A Microlithic Flint site in the Wadi Rum, Jordan and a review of the Epi-Palaeolithic of Northern Arabia", Proceedings of the Seminar of the Fifth Seminar for Arabian Studies, 1972, p. 18 .

– علام (شفيق) ، " بعض العوامل الحضارية التى وصلت مصر من البلاد الشرقية فى عصر فجر التاريخ " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٢٣٦ – ٢٤٠ ; شكل ٢٤ – ٢٥ : الناضورى (رشيد) ، " دور عمان الحضارى فى فجر التاريخ" حصاد ندوة الدراسات العمانية ، المجلد الأول ، سلطنة عمان ، وزارة التراث والثقافة ، الطبعة الثانية ، آمون للتجليد والطباعة ، القاهرة : ١٩٨٠م ، ص ٨٢ – ٨٧: خريطة ص ١٠٣ .

2 Parr, P.J. "The Present State of Artchaeological Research in the Arabian Peninsula: Achievements of the Past, and prospects of the Future", Studies in the History of Arabia, Vol. II: Pre-Islamic Arabia, edited by A.Al- ansary, Saudi University Press: 1984, p. 46 ; شاهين (علاء الدين) ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديم ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ص ١٠٩ – ١١٠ ; ص ١٢٧ – ١٣٠ ; ص ١٥٤ – ١٦٠ ; ص ١٨١ – ١٨٢: نفسه ، " المناطق الأثرية والمبانى التاريخية فى دولة الكويت : قضية للمناقشة " ، كتاب ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية ودور كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية فى دول مجلس التعاون الخليجى ، كلية الآداب ، جامعة الكويت فى المدة ٢٧ – ٢٩ مارس ٢٠٠٠م ، ص ٤٩١ – ٥٤٢ .

٣ – كيروم (بول) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثانى قبل الميلاد . المجلد الأول – الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ، ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان سعدون البدر و د. عز الدين إسماعيل غربية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الإعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر) ، ص ١٣٧ : خاتم رقم ٣١٥ – ٣١٦ ؛ شاهين (علاء الدين) ، " فنون النحت من حضارات الساحل الغربى للخليج العربى فى العصور البرونزية إلى نهاية العصر الحديدى " التواصل الحضارى بين أقطار العالم العربى من خلال

الشواهد الأثرية" ، كتاب الملتقى الثانى لجمعية الآثاريين العرب ، الندوة العلمية الأولى فى الفترة من ٦-٧ شعبان ١٤٢٠هـ / ١٤-١٥ نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ١٥٣ - ١٧٢ : ص ١٨١ - ١٩٧ :

Shaheen, A " Egyptianized Artifacts on the Western cost of the Arabian Gulf: A Case of Discussion", Göttinger Miszellen 176 (2000), pp. 89 - 101 .

٤ - Newberry, p. Beni Hasan, Vol. 1, London : 1893, pls. 27; 30-31; Aharoni, Y. The Land of the Bible. A Historical Geography. Translated from Hebrew by A.F. Rainey, Revised and enlarged Edition. The Westminster Press, Philadelphia: 1979, p. 146; Grimal, N.A History of Ancient Egypt, Translated by Ian Shaw, Blackwell, Oxford UK & Cambridge USA : 1988, p. 165 .

5 - Saleh, A " Arabia and the Northern Arabs in Ancient Egyptian Records", Book of the 50th Anniversary of Archaeological Studies in the Cairo University, Part II. Special Issue from Journal of the Faculty of Archaeology, 1978, p. 74; Redford, D.B. Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times, Princeton University Press: 1992, p. 90 .

6 - Negev, A. " Moab," Archaeological Encyclopedia of the Holy Land, Jerusalem Publishing House: 1972, p. 212 .

7 - Mendenhall, G.E. "Qurayya and Midianites". Studies in the History of Arabia Vol. II : Pre-Islamic Arabia edited by A. Al-ansary, Saudi University Press, 1984, p. 137; p. 143 .

٨ - شاهين (علاء الدين ، " مدخل إلى اثار المملكة الأردنية وحتى نهاية العصر الحديدى " مجلة التاريخ والمستقبل يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة المنيا ، المجلد الأول ، العدد الثانى (١٩٩١م) ، ص ١٢ - ٤٢ ؛ خريسات (محمد عبد القادر) وآخرون ، محاضرات في تاريخ الأردن وحضارته ، اربد : ٢٠٠٠م ، ص ٥٠ - ٥٤ .

9 - Masry, A. " Introduction : The Historic Legacy of Saudi Arabia", Atlal I, The Journal of Saudi Arabian Archaeology (1397H/1977), pp. 9-19 .

١٠ - راجع عن أعمال التنقيب : اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى فى باريس ، الطبعة العربية، دمشق : ١٩٩٩م .

١١ - مهران (محمد بيومى) ، " دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة " مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، السعودية ، العدد السادس (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ، ص ٣١٠ -٣١١ ؛

سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر ، " دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض : ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٩ - ٥٤ : Salehm A. 'The Genbtyw of Thutmosis III's Annales and the South Arabian Gebbanite of Classical Writers," BIFAO LXXII (1972) pp. 246 - 62 .

١٢ - سيدوف (الكسندر) ، " قنا ، ميناء كبير بين الهند والبحر المتوسط " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ١٩٢ - ١٩٦ .

- عن الآراء المختلفة المرجحة لعملية تدجين الجمل راجع : شاهين (علاء الدين) ، ترجمة مقالة رينسكى عن " الأصول المرجحة لتدجين الجمل " مقبولة للنشر فى المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة البحرين :

Shaheen, A " MBI_II A in Northwest Arabia," To be puplised in the forthcoming volume of Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo University .

- أما عن الأهمية الاقتصادية للبخور لحضارات المكان فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية راجع : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة " ، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة ، مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٩٣م ، ص ٥٦٥ - ٥٩٥ .

١٣ - شاهين (علاء الدين) ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديم ، ص ١٩٩؛ ص ٢٠٤؛ ص ٢١٠ : ص ٢٢٠ : ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ برونز (أ.) ، " بدايات الرى " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٥٣ - ٥٤ : جانتل (بيير) ، " السيطرة على الرى " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩م ، ص ٧٦ .

١٤ - عن تلك الأسماء المرجحة لمجموعات بشرية فى شبه الجزيرة العربية فى النصوص المصرية راجع : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض : ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٩ - ٥٤ .

١٥ - برو (توفيق) ، تاريخ العرب القديم ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٨م ، ص ٩٦ : مهران (محمد بيومى) " المرجع السابق ، السعودية ، ص ٣١٥ - ٣١٦ : محمد (محمد عبد القادر) ، " العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، مطابع جامعة الرياض ، الرياض : ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٢٤ - ٢٦ : صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة (محاضرات - طبعة مزيدة ومعدلة) ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، القاهرة : ١٩٨٨م ، ص ٣٢ - ٣٩ ؛ برون (فرانسوا) ، "نشوء وصيرورة أبجدية جنوب الجزيرة العربية " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٥٥ - ٥٧ ؛ روبان (كريستيان) ، " حضارة الكتابة" ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٨٤ - ٨٥ .

١٦ – مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام " ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٣٥٦ – ٣٦٢: شكل ٢٦ – ٢٨ . راجع أيضًا : سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " دور سكان سيناء القدماء فى نشأة الخط المسند (اليمنى القديم) " البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٩٣م ، ص ٤٥١ – ٤٦٢ .

١٧ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام " ، ص ٣٦١ .

١٨ – برو (توفيق) ، المرجع السابق ، ص ٩٧ : مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ : محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٦ – ٢٧ : فخرى (أحمد) ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم . مصر والعراق – سوريا – اليمن – إيران . مختارات من الوثائق التاريخية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة : ١٩٨٤م ، ص ١٣٥ – ١٣٦م

١٩ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، " الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر"، ص ٣٣ .

٢٠ – مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

٢١ – دى ميغريه (أليساندرا) ، " الطقوس الجنائزية " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ١٩٥ .

– عن وصف لأعمال فريق بعثة جامعة صنعاء عن موميات شبام الغراس والترميم لها والوصف للأثاث الجنائزى المرافق لها راجع : با سلامة (محمد) ، " موميات شبام الغراس " ، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م، ص ١٧٧ .

٢٢ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم سيد) ، " الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام " ، ص ٣٦٤ .

٢٣ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٣ : لوحة ٣٥ : موللر (والتر) ، " الدين"، اليمن فى بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربى ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ١٢٨.

24 - Nasif, A. Al-Ula. An Historical and Archaeological survey with special reference to its Irrigation system. King University Press: 1988, p. 24; pl. XCII .

٢٥ – الأنصارى (عبد الرحمن) ، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام فى المملكة العربية السعودية ، جامعة الرياض : ١٣٧٧ – ١٤٠٢هـ ، الشكل ص ١٣٦ – ١٣٨ .

26 - Dyton, J.C. " Medianite and Edomite Pottery", Proceedings of the Fifth Seminar for Arabian Studies, London : 1972, p. 26 .

٢٧ – البدر (سليمان سعدون) ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ، الكويت : ١٩٧٤م ؛ نفسه ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد ، الكويت ١٩٨٧م؛ الغزى (عبد العزيز بن سعود) والدوسري (عبد الله بن عبد الرحمن) ، " مجموعة فخارية من موقع " أبو خميس " ، الدارة ، السعودية ، العدد الثالث ، السنة العشرون (ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ١٤١٥هـ) ، ص ٥١ – ٧٠ .

28 - Schmitt-Korte, K. " Nabataean pottery: A Typological and Chronological Framework", Studies in the History of Arabia, book II: Pre-Islamic Arabia, King Saudi University Press: 1984, p. 8; map 6; figs. 31-33 .

– لمزيد من الدراسة عن المجموعات الفخارية فى المملكة العربية السعودية راجع : الغزى (عبد العزيز بن سعود) ، " استعراض للدراسات الأثرية للفخار القديم ى شرقى المملكة العربية السعودية ٣٠٠٠ ق.م–٣٠٠م" ، الدارة ، السعودية ، العدد الثالث ، السنة التاسعة عشر (ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ) ، ص ٥٩ – ٧٥ ؛ نفسه ، " أنماط فخارية جديدة من الموقع (٢١١–٢٢٢) "الإقليم الأوسط " ، الدارة ، العدد الأول ، السنة التاسعة عشر (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٣هـ) ، ص ٩ – ٢٦ ؛ عبد النعيم (محمد) ، آثار ما قبل التاريخ وفجره فى المملكة العربية السعودية ، ترجمة عبد الرحيم محمد خبير ، الرياض : ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ٢٠٨ - ٢٥٧ .

٢٩ – Shaheen, A. "Imported LB Ceramics and their local versions in the Egyptian collection of the University Museum, Philadephia, U.S.A." ، مجلة التاريخ والمستقبل ، يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة المنيا ، المجلد الثالث ، العدد الأول (يناير ١٩٩٣م) ، ص٢–٦٥.

٣٠ – رينسكى (جريا) ، " تاريخ حضرموت وحضارتها : قضايا دراستهما والبحوث الأخيرة " ، الجديد حول الشرق القديم ، ترجمة عن الروسية جابر أبي جابر وخير الضامن ، دار التقدم بموسكو ، ١٩٨٨م، ص ٢٢٣ – ٢٣٨ ؛ سيدوف (الكسندر) ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

٣١ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .

٣٢ – محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ فوكت (بوركهارد) ، مأرب : عاصمة سبأ"، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م، ص ١٠٨ .

٣٣ – صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٨١ – ٨٢ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ ؛ لوحة ٤١ أ – ب .

– من اللافت للنظر أيضًا استمرارية التأثير المصرى القديم على فنون العمارة فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية خاصة منطقة مدائن صالح (الحجر) ، من القرن الأول ق.م حيث يوجد بعض المقابر النبطية يعلوها الكورنيش المصرى ، أحد أهم خصائص العمارة المصرية القديمة ، وإن لم نتناول هنا ذلك بالتفصيل لمراعاة الإطار الزمني للبحث محل الدراسة . راجع على سبيل المثال : السايح (إبراهيم) ، مدائن صالح من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء ، دار البستاني للنشر والتوزيع ، القاهرة : ٢٠٠٠م ، ص ٧٠ – ٧٢ ؛ الأشكال ص ١٩ ؛ ٢٤ ، ٣٤ .

٣٤ – فوكت (بوركهارد) ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٣٥ – محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٩ : لوحة ١٦ : شاهين (علاء الدين) ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ : شكل ٤٧ : نفسه ، ترجمة مقال إريك أبهيل عن " الاتصال الملاحي بين مصر الفرعونية وشبه الجزيرة العربية E.Uphil, " Maritime link between Egypt and Arabia, " Proceedings of the Twenty First Seminar for Arabian Studies, held at Durham on 28th 0 30th July 1987, pp. 163 - 70 مقبول للنشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة البحرين .

– عن فنون النحت من حضارات الساحل الغربي للخليج العربي راجع : شاهين (علاء الدين) ، " فنون النحت من حضارات الساحل الغربي للخليج العربي في العصور البرونزية إلى نهاية العصر الحديدي "، التواصل الحضاري بين أقطار العالم العربي من خلال الشواهد الأثرية ، كتاب الملتقى الثاني لجمعية الآثاريين العرب ، الندوة العلمية الأولى في الفترة من ٦ – ٧ شعبان ١٤٢٠هـ / ١٤ – ١٥ نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ١٥٣ – ١٧٣ : ص ١٨١ – ١٩٧ .

٣٦ – Saleh, A . " Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style," ; Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol.28 (1970), pp. 1-31 . : عبد العزيز صالح، " المزج الحضاري في الآثار القديمة للعلا ومدائن صالح " ، محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٤٠٤ – ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ – ١٩٨٥م ، الإدارة الثقافية ، وزارة الإعلام والثقافة ، دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ٢٩٥ – ٣٠٠ : ص ٣٠٤ .

٣٧ – محمد (محمد عبد القادر) ، المرجع السابق ، ص ٢٨ : لوحة ١٠ – ١٣ : Pritchard, J.B. The Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeto University Press : 1958, figs. 65 - 66; Pirenne, J." Notes d' archéologie Sud-Arabe", Syria 49 (1972), p. 198; figs. 4-6 .

٣٨ – سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، المرجع السابق ، ص ٣٦٦ – ٣٦٧ : لوحة ٣٩ ب .

٣٩ – روبان (كريستان ج) ، تأسيس إمبراطورية . السيطرة السبئية على الممالك الأولى " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٨٨ .

٤٠ – كيتشن (ك.) ، " بلاد البونت : مصر تبحث عن الطيوب " ، اليمن في بلاد ملكة سبأ ، معهد العالم العربي ، باريس ، الطبعة العربية ، دمشق : ١٩٩٩م ، ص ٤٩٠ .

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

صفحة من الصلات بين اليمن والأحباش

أولاً: مقدمة تاريخية :

منذ أقدم العصور جذبت سلع الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وخليج عدن من مواد ترف وبخور وغيرها من السلع الثمينة ، جذبت سكان اليمن من الساحل الآسيوي المقابل ، فكانوا يهاجرون إلى الشاطيء الإفريقي ، حيث يؤسسون مراكز تجارية ساحلية لجلب هذه السلع من منطقة الظهير (المناطق الممتدة وراء الساحل، مثل أريتريا والحبشة والصومال). ولدعم هذه الصلات بين سكان هذا الساحل من مهاجرين يمنيين ومن أهل ظهيرة من وطنيين إفريقيين ، أخذ هؤلاء المهاجرين يرتبطون بصلات المصاهرة مع زعماء قبائل السكان الوطنيين ، بالزواج من بنات هؤلاء الزعماء . ولدينا مثالين على ذلك أحدهما يرجع إلى أقدم العصور (حوالى عام ١٥٠٠ق.م) إذ ورد ضمن مناظر بعثة الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت (الساحل الصومالى فى ذلك الوقت) رسم لأمير بونت وزوجته يمثل هذا الأمير بملامح أسيوية بينما يمثل زوجته بخصائص جسدية إفريقية (Naville 1898, p1 69 .) أما المثال الثانى فمع بعده قليلاً نحو الجنوب ، وبالتحديد على الساحل الجنوبى لجمهورية الصومال والساحل الشمالى لتنزانيا فقد أطلق عليه مؤلف كتاب " الطواف حول البحر الإريترى Ausanite أى الساحل الأوسانى . ولعلها إشارة إلي دولة أوسان " التى

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ بكلية الآداب - الإسكندرية .

كانت تسيطر على الجزء الجنوبي الغربي من اليمن ، هذا المثال الثاني لصلة المصاهرة بين المهاجرين اليمنيين وبين سكان الساحل الإفريقي ورد في كتاب الطواف المشار إليه بعد المثال الأول بحوالي ١٥٠٠ سنة وبالتحديد في القرن الأول الميلادي ، إذ جاء في كتاب " الطواف حول البحر الإريتري Periplus Maris Erythreae المشار إليه أن أهل مدينة " موزا " (ميناء المخا الحالي في جنوب غرب اليمن) كانوا يحكمون أحد الموانى على ساحل إفريقيا الشرقي الذي أسماه مؤلف هذا الكتاب " الساحل الأوساني " كما ذكرنا من قبل " أمير Mapharitis (دولة أو إمارة يمنية قديمة ربما كانت في منطقة " المعافر " الحالية في جنوب غرب اليمن) وكانوا يبعثون إلى الميناء المذكور ربابنة ووكلاء عرب يعرفون المكان ويتزوجون من نسائه ويفهمون لغة سكانه (Huntingford 1980. p. 124) ولاشك أن هذه المصاهرة كان الهدف منها تدعيم الصلات التجارية بين هؤلاء التجار وبين سكان الساحل الإفريقي لتيسير حصولهم على السلع الإفريقية الثمينة من مواد ترف وبخور .

والمهم في موضوعنا هذا أن هذه الهجرات من اليمن إلى الساحل الإفريقي للبحر الأحمر وما يتصل به من ساحل خليج عدن أخذت أعدادها تتزايد بمرور الزمن وخاصة عندما قامت دول مختصرة في اليمن وأقدمها دولة سبأ (ما بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) فقد استوطن المهاجرون السبئيون منذ القرن السادس قبل الميلاد منطقة إريتريا (جواد علي ١٩٦٩، جـ٣ ، ص ٤٥٠) وأخذوا يتوغلون نحو الداخل بحثًا عن الرزق للأعداد المتزايدة من المهاجرين الذين كان من بينهم مهاجرون من قبائل الحبشات والجعز التي كانت تسكن جنوب غرب اليمن (جواد علي ١٩٦٩ ، جـ٣ ، ص ٤٤٩ والخريطة رقم ١ في هذا البحث) وكان من الطبيعي أن يبحث هؤلاء المهاجرون اليمنيون عن المناطق الخصبة التي تشبه في طبيعتها ومناخها بلادهم الأصلية في اليمن ووجدوا ضالتهم في هضبة " تجرى " في شمال الحبشة وكان ذلك حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، وظلت التأثيرات اليمنية واضحة في حضارة المنطقة حتى القرن الرابع ق.م (اليونسكو ١٩٨٥م ، ص ٣٨٣) ، ثم ما لبثت أن ضعفت تحت تأثير الطابع الإفريقي حتى تأسيس دولة أكسوم التي ازدهرت سياسيًا منذ القرن الأول الميلادي كما قلنا .

غير أنه وإن كانت المظاهر الخارجية للحضارة اليمنية القديمة قد ضعفت أو تلاشت إلا أن المظاهر الثقافية لم تمت ، بل ظلت واضحة في حضارة أكسوم مثل الكتابة واللغة وعبادة إله

القمر الذى تغير اسمه من " إيل مُقة " وهو اسم الإله السبئى إلى " محرم " وكذلك إله الزهرة وقد ظل اسمه اليمنى " عثتر " باقيًا (نفس المصدر) .

وبالإضافة إلى هذه المظاهر الثقافية استمرت التأثيرات اليمنية واضحة فى العمارة والتماثيل والأنصاب وشواهد القبور ومحارق البخور وهذه التأثيرات تتضح بوجه خاص فى المنطقة الممتدة من بلدة مطرا (على بعد ٥٥٠ كيلو مترًا إلى الجنوب من مصوع) إلى يحا (على بعد ٦٠٠ كيلو مترًا تقريبًا إلى الجنوب الغربى من مطرا) إلى أكسوم (على بعد ١٥٠ كيلو مترًا إلى الجنوب الغربى من يحا) (الخريطة رقم ٢) ومن الواضح أن الطريق بين هذه المدن هو الطريق الذى سلكه المهاجرون اليمنيون تدريجيًا من الساحل إلى الداخل حيث توجد عاصمتهم أكسوم .

واستمرت دولة أكسوم الحبشية الطابع فى النمو والتوسع فسيطرت على المناطق الممتدة من حدودها حتى الساحل الإريترى وأخذ ملوكها يتطلعون للسيطرة على الساحل اليمنى المقابل أى أن ميزان القوى فى جنوب البحر الأحمر أخذ يميل من الساحل الإفريقى إلى الساحل الأسيوى للبحر الأحمر ، على عكس ما حدث فى القرون السابقة . ويبلغ هذا الميل مداه فى أوائل القرن الثالث الميلادى ابتداء من عهد الملك السبئى " علهان نهفان " (٢٠٥ - ٢٣٠م) عندما عبر الأحباش البحر الأحمر واستقروا على الساجل اليمنى فى المنطقة الممتدة من وادى سهام (عند ميناء الحديدة فى الجنوب) إلى وادى سردد (شمال وادى سهام بخمسين كيلو مترًا تقريبًا) ومن هناك بدءوا فى التوغل نحو الداخل فاستولوا على مدينة ظفار (الخريطة رقم ٣) وهنا بدأ ملوك اليمن فى التصدى لهم ودارت المعارك بينهم وبين الملك " شاعر أوتر " ملك سبأ وذو ريدان (٢٣٠ - ٢٤٠م) ثم بينهم وبين الملك " إيل شرح يحضب " (٢٤٠ - ٢٦٠م) تمكن خلالها هذان الملكان من طرد الأحباش من ظفار ومن وادى سردد ولكن لم يتمكنا من طردهم من معقلهم فى وادى سهام وطردهم من اليمن . وبعد ذلك لم تفصح النقوش عن تطور الصراع بين الأحباش وبين ملوك اليمن فيما عدا عصر الملك الأكسومى " عيزانا " (٣٢٥ - ٣٦٠م) الذى حمل لقب " ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين " مما يشير إلى سيطرته على اليمن وعلى العاصمة مأرب فقد كان " سلحين " اسم قصر الملك السبئى فى مدينة مأرب.

غير أن الصراع الكبير بين اليمن والحبشة الذى حدث فى القرن السادس الميلادى وانتهى بغزو الحبشة لليمن وإخضاعه تمامًا للحكم الحبشى ، وذلك طبقًا لروايات الكتاب المسلمين عن

اضطهاد ملك حمير اليهودى الذى أطلقوا عليه " يوسف ذو نواس " لمسيحى نجران وإحراقهم فى خندق (أو أخدود كما جاء فى سورة البروج طبقًا لتفسير المؤرخين المسلمين) وإرسال ملك الحبشة المسمى عند هؤلاء المؤرخين المسلمين " عنبة " والمسمى فى النقوش الحبشية " كالب إيلا اصبحا " والمسمى عند الكتاب البيزنطيين Elesbaos (٥٢٠ - ٥٤٠م) - وإرساله حملة بحرية بقيادة " أرياط " ومساعده " أبرهة " (طبقًا لرواية المؤرخين المسلمين) وانتحار الملك الحميرى يوسف ذو نواس غرقًا (وهذه المعلومات أكدتها النقوش الحميرية فى جانب واحد فقط هو ما ورد فى نقش على صخور ميناء حصن الغراب فى جنوب حضرموت ومؤداه أن الأحباش قتلوا ملك حمير (RES 2633) (١).

هذا هو مجمل الصلات بين اليمن والحبشة فما هى النتائج الحضارية لهذه الصلات وإلى أى مدى أثرت اليمن حضارياً فى الحبشة وأثر الأحباش فى اليمن ؟ .

كما قلنا فى بداية هذا البحث انتقلت المظاهر الحضارية السبئية إلى الحبشة حيث ظهرت بوضوح فى المنطقة الممتدة من مطرا إلى يحا إلى أكسوم ثم أخذت تتلاشى بالتدريج وإن ظلت بقاياها وآثارها كما سنذكر بعد ..

أما تأثير الحبشة فى اليمن فهو شبه منعدم رغم وجود الأحباش فى اليمن منذ القرن الثالث الميلادى وحتى القرن السابع عندما طردهم الفرس بقيادة " باذان " وعاد حكم اليمنيين لبلادهم بزعامة " سيف بن ذى يزن " . والدليل على انعدام التأثير الحبشى فى اليمن أن أبرهة الحبشى عندما أراد تسجيل نشاطه السلمى على جدران سد مأرب والحربى على صخور بئر مريغان شمال نجران فإنه لم يستخدم الخط الحبشى (الإثيوبى الجعزى) واللغة الحبشية (الجعزية) بل استخدم الخط الحميرى واللغة العربية الجنوبية (بلهجتها السبئية - الحميرية) (Smith 1954, p. 451f; Sayed 1988, pp. 131f.) وهكذا فإذا كان الأحباش قد تمكنوا من غزو اليمن حربياً فإن اليمنيين غزوهم حضارياً .

ثانيا : مظاهر التأثير الحضارى السبئى فى الحبشة :

اتضح هذا التأثير كما أجملنا سابقًا فى المظاهر التالية :

أولاً : الكتابة :

اشتملت الأبجدية الحبشية القديمة على ٢٦ حرفًا عندما اشتقت من الأبجدية السبئية (شكل ١) أو ما يسمى بالخط المسند الجنوبى خلال القرون الثلاث الأولى للميلاد بالإضافة

إلى ثلاثة حروف تمثل أصواتًا غير موجودة في الأبجدية السبئية (Kammerer 1929, p. 238) ثم مرت بالمراحل التالية :

أ - في القرن الأول الميلادي كانت حروف الأبجدية الحبشية القديمة ما تزال قريبة الشبه بالأبجدية السبئية وكانت تتألف من الحروف الساكنة (الصوامت) فقط مثل السبئية وظلت خالية من الحروف المتحركة (الصوائت) حتى منتصف القرن الرابع تقريبًا (Jensen 1958, p. 345) كما احتفظت بالفواصل الرأسية بين الكلمات كما في الأبجدية السبئية . وتظهر هذه الخصائص في نقش مسلة مطرا (شكل ٢) .

ب - أخذت أشكال الحروف تتغير من الشكل المزوى (ذى الزوايا) السائد في حروف الأبجدية السبئية إلى الشكل المستدير الذي ساد فيما بعد في الأبجدية الحبشية المتأخرة المسماة بالأثيوبية أو الجعزية (شكلا ٣ ، ٤) .

جـ - بدأت الحروف المتحركة تظهر في الأبجدية الحبشية والواضح أن ذلك كان بتأثير تغلغل الثقافة الإغريقية في الحبشة منذ أن تحول الملك " عيزانا " للمسيحية في منتصف القرن الرابع الميلادي بعد أن كان وثنيًا (جواد على ١٩٦٩م ، ص ٤٥٢ - ٤٥٣) وذلك بتأثير جاليات يونانية نشرت الثقافة اليونانية في مملكة أسكوم (نفس المصدر) .

د - كان من نتيجة التأثير اليوناني أيضًا أن تغير اتجاه الكتابة الحبشية القديمة من اليمين إلى اليسار وهو الاتجاه الذي ورثته عن الكتابة السبئية إلى الاتجاه من اليسار إلى اليمين مثل الكتابة اليونانية (Diringer 1947, p. 231) ويطلق العلماء عليها في هذه المرحلة النهائية الكتابة الأثيوبية أو الجعزية (شكل ٣) .

ورغم هذا التغير فقد ظلت أشكال الحروف الإثيوبية (الجعزية) تظهر شبهًا كبيرًا مع أشكال الحروف السبئية مما ساعد علماء اللغات السامية في القرن التاسع عشر الميلادي (منذ عام ١٨٤١م) على حل رموز الأبجدية السبئية وغيرها من أبجديات الخط المسند الجنوبي وقراءة النصوص العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) .

والحقيقة إن التغيير في الكتابة الحبشية لم يقتصر على ما ذكرناه وإنما حدث تغيير آخر وخاصة في علاقة الحروف الساكنة بالحروف المتحركة مما جعل الأبجدية الحبشية تتخذ طابعًا مقطعيًا في نطاق الطابع الأبجدي واستمرت هذه الخاصية حتى اليوم وتفاصيل ذلك خارج نطاق بحثنا .

ثانيًا : العمارة الأكسومية وزخارفها :

توجد فى مدينة " يحا " أطلال معبد حول فى عصر لاحق إلى كنيسة مسيحية وهو يشبه معابد مأرب وتمنع فى اليمن من حيث تصميم واجهته ومن حيث ارتفاع المعبد على شكل مصطبة يؤدى إليها درج (شكل ٥ ، وشكل ٦) كم توجد أعمدة متناثرة فى الطريق الممتد من " يحا " إلى " أدوليس " Adulis (جنوب مصوع بأربعة كيلو مترات وتسمى اليوم " عدولى ") وأخرى فى منطقة " حاولتى " (جنوب شرق أكسوم) وهذه الأعمدة تشبه أعمدة معبدى مأرب المسمى أحدهما قديمًا " أوام " وحاليًا " محرم بلقيس والآخر " ب ر أ ن " وحاليًا " عرش بلقيس " (٢).

والمعبدان خاصان بعبادة الإله السبئى " إيل – مُقة " إله القمر . وتيجان هذين المعبدين على شكل أسنان Denticulation (شكل ٧) وهو طراز شائع فى العمارة اليمنية القديمة إذ يوجد أيضًا فى أعمدة معبد الإله " عثتر "(٣) فى مدينة " تمنع " (هجر كحلان حاليًا) عاصمة دولة قتبان (الخريطة رقم ٣) والإله عثتر هو كوكب الزهرة .

وقد ظهرت زخارف الأسنان أيضًا فى محارق البخور الأكسومية ومن ذلك محرق البخور المنشور فى شكل ١٨ حيث تظهر هذه الزخارف فوق شكل القرص والهلال وعلى جانبيه . والزخارف المعمارية الأخرى الغالبة فى العمارة الأكسومية مستمدة من أشكال الوعول والثيران (اليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٤٨) وهى نفس الزخارف الغالبة فى العمارة اليمنية القديمة (الأشكال ٨ ، ٩) .

ثالثًا : المسلات والأنصاب والشواهد :

توجد فى الحبشة أشكال مسلات تشبه من حيث شكلها العام المسلات الفرعونية فى مصر إذ يصل ارتفاع إحداها إلى ٣٣ مترًا (شكل ١٠) وهو نفس ارتفاع أحد مسلات الملك تحوتمس الثالث القائمة الآن فى روما ويزيد على ارتفاع مسلة الملكة حتشبسوت القائمة الآن فى معبد الكرنك بأربعة أمتار مما دعا بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن المسلات الأكسومية تقليد للمسلات الفرعونية من حيث الشكل والوظيفة وأنها نتيجة تأثير حضارى مصرى وصل إلى الحبشة عن طريق النوبة (Kammerer 1929, p. 135) .

والحقيقة إن هذه المسلات الأكسومية تتفق مع المسلات الفرعونية فى شكل البدن فقط وفى أحجامها ولكنها تختلف عنها فى شكل القمة فبينما شكلت قمم المسلات الفرعونية على هيئة هريم رمزًا لعبادة إله الشمس فإن أغلب المسلات الأكسومية مستديرة القمة . وبينما ترمز المسلات الفرعونية إلى عبادة إله الشمس فإن المسلات الأكسومية ترمز لعبادة الأسلاف أو الأجداد ، فهى أقرب إلى النصب أو الشاهد الجنازى ولهذا يطلق عليها بعض الباحثين الشواهد أو اللوحات الشبيهة بالمسلات Stèles Obélisques (Kammerer 1929, p. 228) والدليل على ذلك وجود مسلات فوق المقابر ومثال ذلك وجود مسلة فوق مقبرة فى منطقة "بازن" Bazen فى شرق أكسوم (اليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٧) وترمز هذه المسلات بهذه الصفة إلى الروح أو النفس وهى عقيدة سامية يطلق عليها فى اللغات السامية " نفس " أو "نفش " ne-phesh (Hastings 1925, I, p. 57) . وهى بهذه الوظيفة أقرب إلى الأنصاب التى كانت تقام فوق المقابر فى اليمن (شكل ١١) ومما يؤكد الوظيفة الجنازية للمسلات الأكسومية وجود كتل حجرية كبيرة أمامها (شكل ١٢) كانت مذابح للأضاحى فهى بهذه الصفة تمثل نوعًا من عبادة الأجداد (نفس المصدر) .

أما الدليل على تأثر هذه المسلات بالمؤثرات اليمنية فهو رسم القرص والهلال على قمم بعضها وهى زخارف دينية تتكرر كثيرًا على الأنصاب والشواهد اليمنية (Kammerer 1929, p. 229) بالإضافة إلى استدارة قمتها (يقارن شكل ١١ مع شكل ١٢) .

ومن مظاهر التأثير اليمنى المعمارى فى المسلات الأكسومية نحت جوانب هذه المسلات بأشكال أبواب ونوافذ مصمتة (شكل ١٠) وهى من خصائص الزخارف المعمارية اليمنية وقد تكررت كثيرًا على جوانب محارق البخور اليمنية (شكل ١٤) وتنتشر هذه المسلات على طول الطريق الممتد من أدوليس إلى مطرا إلى أكسوم (الخريطة رقم ٢) وهو الطريق الذى سلكه المهاجرون السبئيون من ساحل البحر الأحمر حتى أكسوم ففى أدوليس كانت توجد مسلة (شكل ١٥) اختفت الآن ولكن ورد وصفها فى كتاب الرحالة " كوزموس جوَّاب المحيط الهندى" Cosmos Indicopleuestes الذى عاش فى القرن السادس الميلادى وتبين من وصف كوزموس لها أنها كانت منقوشة بكتابة إغريقية مما يرجح أن أحد ملوك البطالمة الذين تميزوا بنشاطهم فى البحر الأحمر هو الذى أقامها ولكن اتخاذها الشكل المميز للمسلات الأكسومية يدل على أنها شكلت على نمط إحدى هذه المسلات التى كانت مقامة فى ميناء أدوليس . أما

المسلة الثانية على الطريق من أدوليس إلى أكسوم فهى مسلة مطرا (شكل ١٢) الواقعة فى منتصف هذا الطريق ويلاحظ على هذه المسلة القمة المستديرة ورسم القرص والهلال وهى الخصائص التى تميزت بها الأنصاب اليمنية . (قارن شكل ١١) .

رابعًا : التماثيل :

كشف فى " حاولتى " إلى الشرق من أكسوم عدة تماثيل من بينها تمثال لامرأة (شكل ١٦) (UNESCO 1981, p 1. 13.2a) يشبه إلى حد كبير التماثيل اليمنية ومنها تمثال امرأة قتبانية تدعى " ب ر أ ت "[٤] (شكل ١٧) وجد بين أطلال مدينة تمنع عاصمة دولة قتبان (Doe 1971, p. 48) والتشابه بين هذا التمثال والتمثال الأكسومى يتمثل فى جلسة المرأة وثوبها المنسدل الطويل والقاعدة التى نقش عليها اسم المرأة القتبانية .

خامسًا : محارق البخور :

انتقلت أشكال محارق البخور اليمنية إلى أكسوم فتشابهت الرسوم التى على كل منهما ومن ذلك محرق بخور أكسومى وجد فى بلدة " عدى قلامو " على خط عرض مدينة " يحا " تقريبًا وإلى الشرق منها (الخريطة رقم ٢) ويتشابه هذا المحرق فى شكل قاعدته المخروطية أو التى على شكل هرم ناقص وفى رسم القرص والهلال فى أعلاه (شكل ١٨) مع محارق البخور اليمنية ومنها محرق بخور سبئى (شكلان ١٩) وردت عليه نفس الرسوم بالإضافة إلى نقش أسماء الأشخاص الذين صنعوا المحرق أو أهدوه للإله (الذى ضاع اسمه) والنقش يقرأ:

س ع د م / و س ع د ش م س م / و ر ب إ ل / ب ن و / ب ح ر م

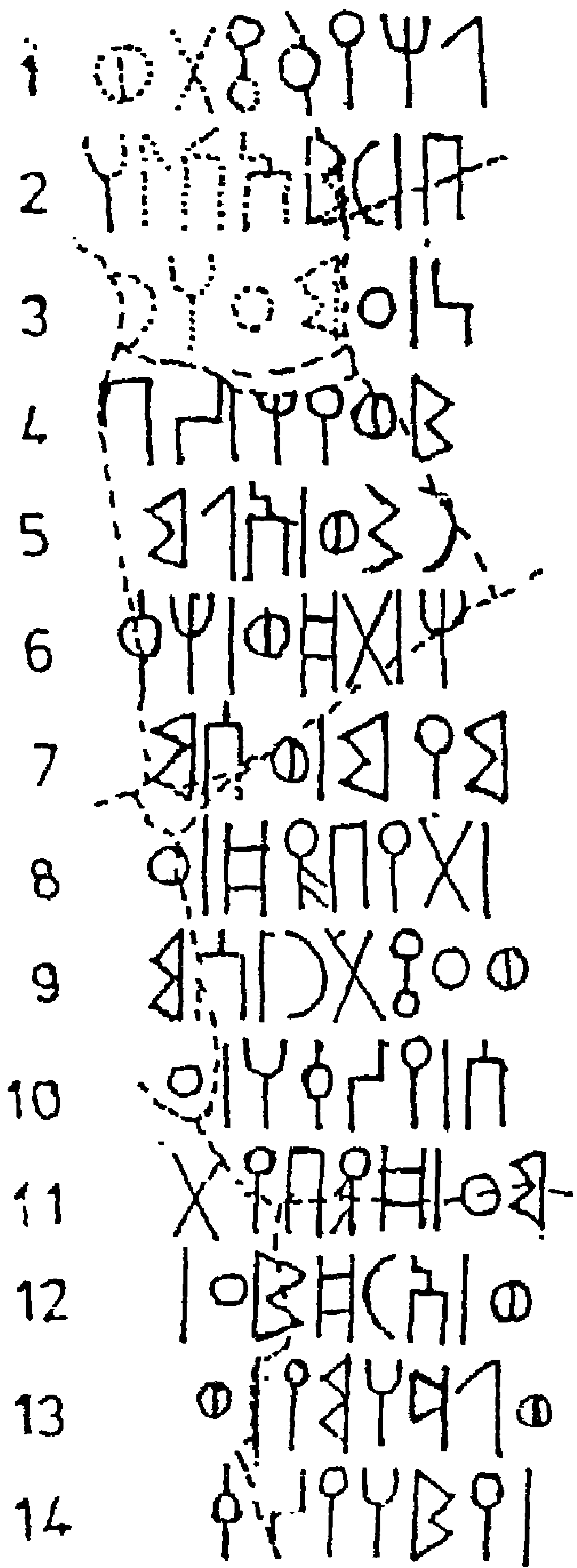
وترجمته : سعد . وسعد شمس ورب إيل بنو بحرم

(أسماء ثلاثة أشخاص) (أى صنعوا) (اسم مكان حروف ناقصة)

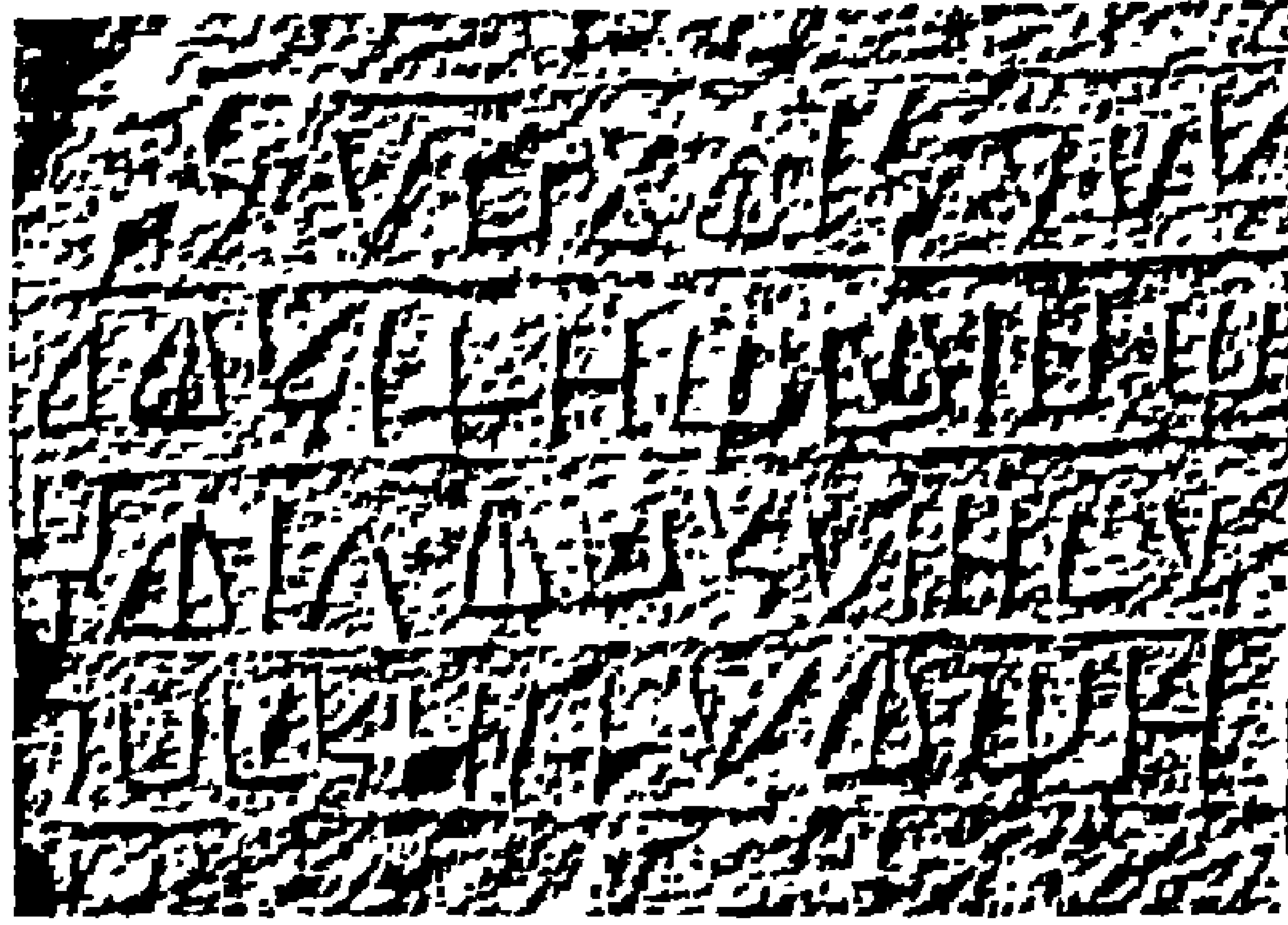
وقد ذكرنا فيما سبق تشابه زخارف الأسنان Denticulation على محرق البخور الأكسومى (شكل ١٨) مع هذه الزخارف على تيجان أعمدة معابد اليمن (شكل ٧) ويلاحظ هنا أيضًا وجود زخارف الأسنان على جانبى المخروط والقرص والهلال .

سادساً : السدود :

يوجد بين أطلال مدينة كوهايتو (شمال مدينة مطرا بقليل) بقايا سد (اليونسكو ١٩٨٥، ص ٣٧٣ - ٣٧٤) يشبه سد مأرب (Doe 1983, p. 189f) في وجود حوض واسع لتجميع المياه أمام كل منهما وفي تدرج جسم السد وإن كان جسم سد كوهايتو على شكل مدرج بينما كان جسم سد مأرب أملس في انحداره من الجانبين ، ويزيد سمك كل من السدين من أعلى لأسفل وإن كان سد كوهايتو شيد من الحجر بينما شيد سد مأرب من الطوب اللبن المكسو بالحجر ، وتزيد أبعاد سد مأرب عن سد كوهايتو إذ يبلغ طول سد مأرب ٦٠٠ متراً بينما لايزيد طول سد كوهايتو عن ٧٦ متراً كما يبلغ ارتفاع سد مأرب ١٨ متراً بينما لايزيد ارتفاع سد كوهايتو عن ثلاثة أمتار .



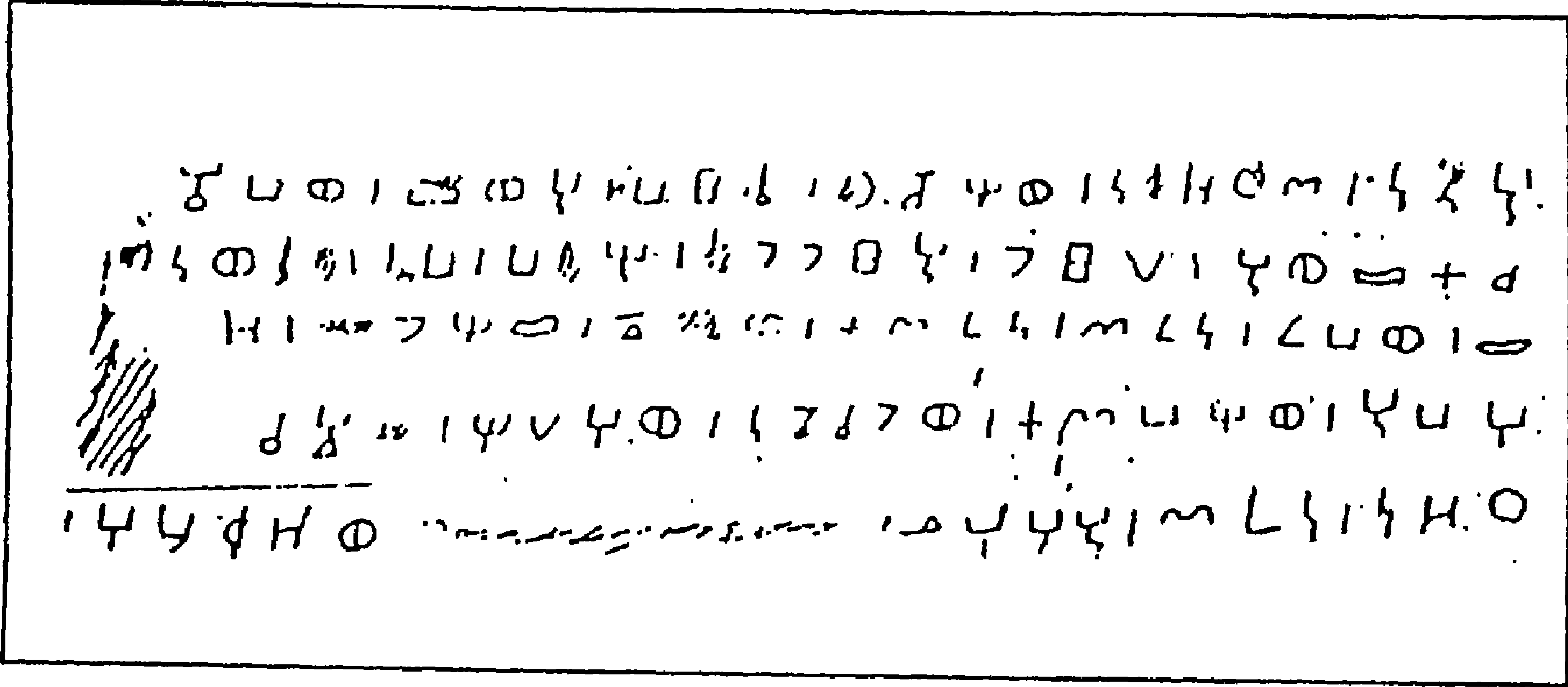
(شكل ١) نموذج للأبجدية العربية الجنوبية المبكرة (الخط المسند الجنوبى) ويتضح فى هذا النقش السبئى خصائص هذا الخط الذى انتقل إلى الحبشة وحروفه كما يبدو خالية من الزخرف الذى بدأ يظهر فى الخط السبئى المتأخر (الحميرى) ويلاحظ على الحروف الشكل المزوى (ذو الزوايا) والخطوط الرأسية التى تفصل بين الكلمات . (عبد المنعم عبد العليم ١٩٩٣ ، ص ٢٩٠ وشكل ٣)



(شكل ٢) نقش مسلة مطرا وهو أقدم نماذج الكتابة الحبشية القديمة ويلاحظ أن الحروف مازال يغلب عليها الشكل المزوى . (Diringer 1947, fig. 112)

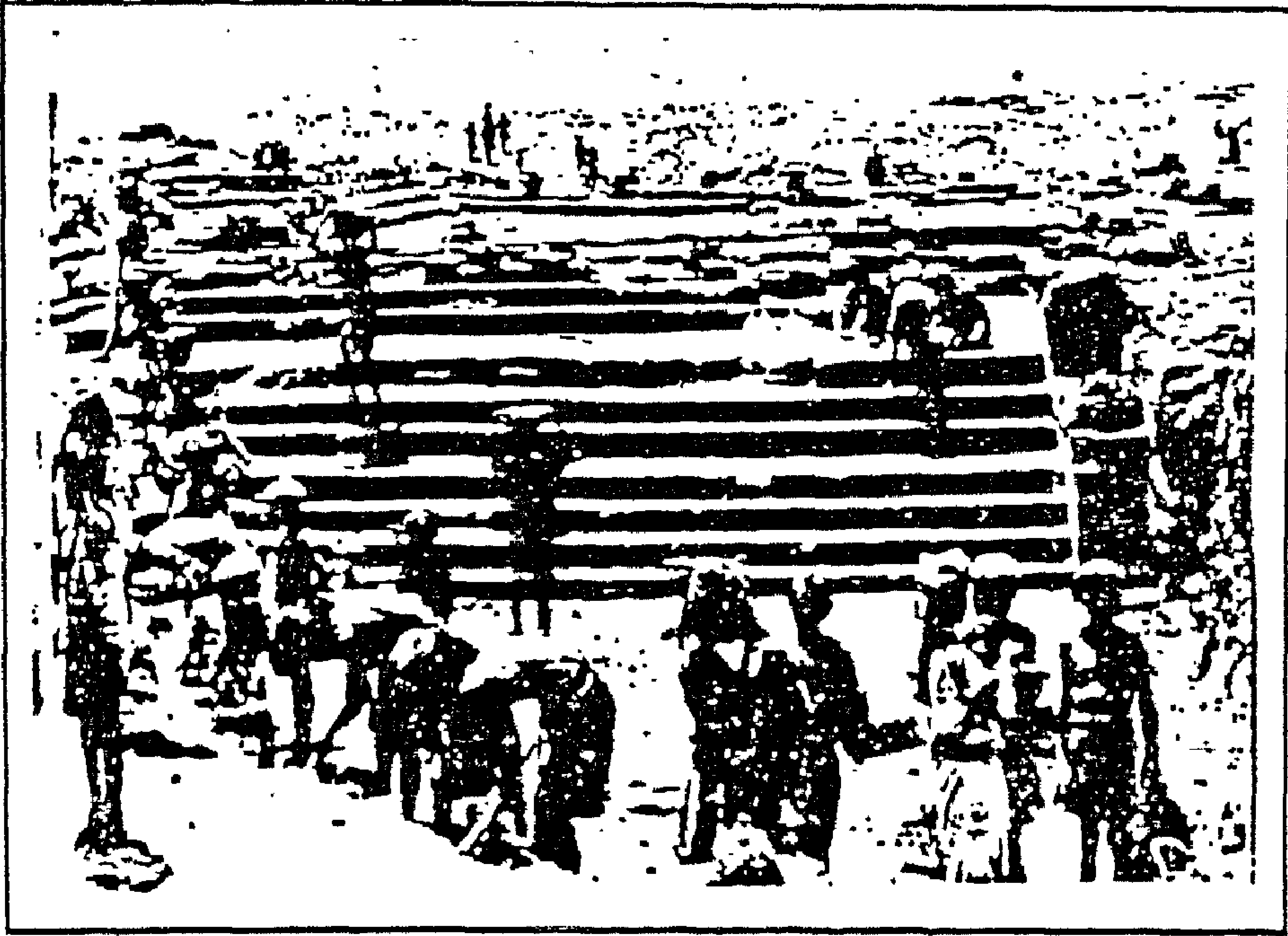
الصوت	الأبجدية السبئية	الحبشية القديمة	الأثيوبية (الجعزية)
أ	𐩱	አ	አ
ب	𐩨	በ	በ
ج	𐩴	ገ	ገ
د	𐩵	ደ	ደ
هـ	𐩠	ሀ	ሀ
و	𐩥	ወ	ወ
ز	𐩸		ዘ
ح	𐩢	ሐ	ሐ
ط	𐩷		ጠ
ى	𐩺	የ	የ
ك	𐩫	ከ	ከ
ل	𐩡	ለ	ለ
م	𐩣	መ	መ
ن	𐩬	ነ	ነ
س	𐩯		
ع	𐩲	ዐ	ዐ
پ/ف	𐩰	ፈ	ፈ
ص	𐩮	ጸ	ጸ
ق	𐩤	ቀ	ቀ
ر	𐩧	ረ	ረ
ش	𐩦	ሠ	ሠ
ت	𐩩	ተ	ተ

(شكل ٢) جدول يوضح تطور اشتقاق الأبجدية الحبشية القديمة من الخط المسند الجنوبي (الأبجدية السبئية) ويلاحظ عليه استمرار الشكل المزوى في الحروف الحبشية وإن كان الشكل المستدير قد ظهر في حروف قليلة وقد غلب هذا الشكل المستدير على حروف الأبجدية الحبشية المتأخرة (الأثيوبية أو الجعزية) (Jensen 1970, fig. 320) .

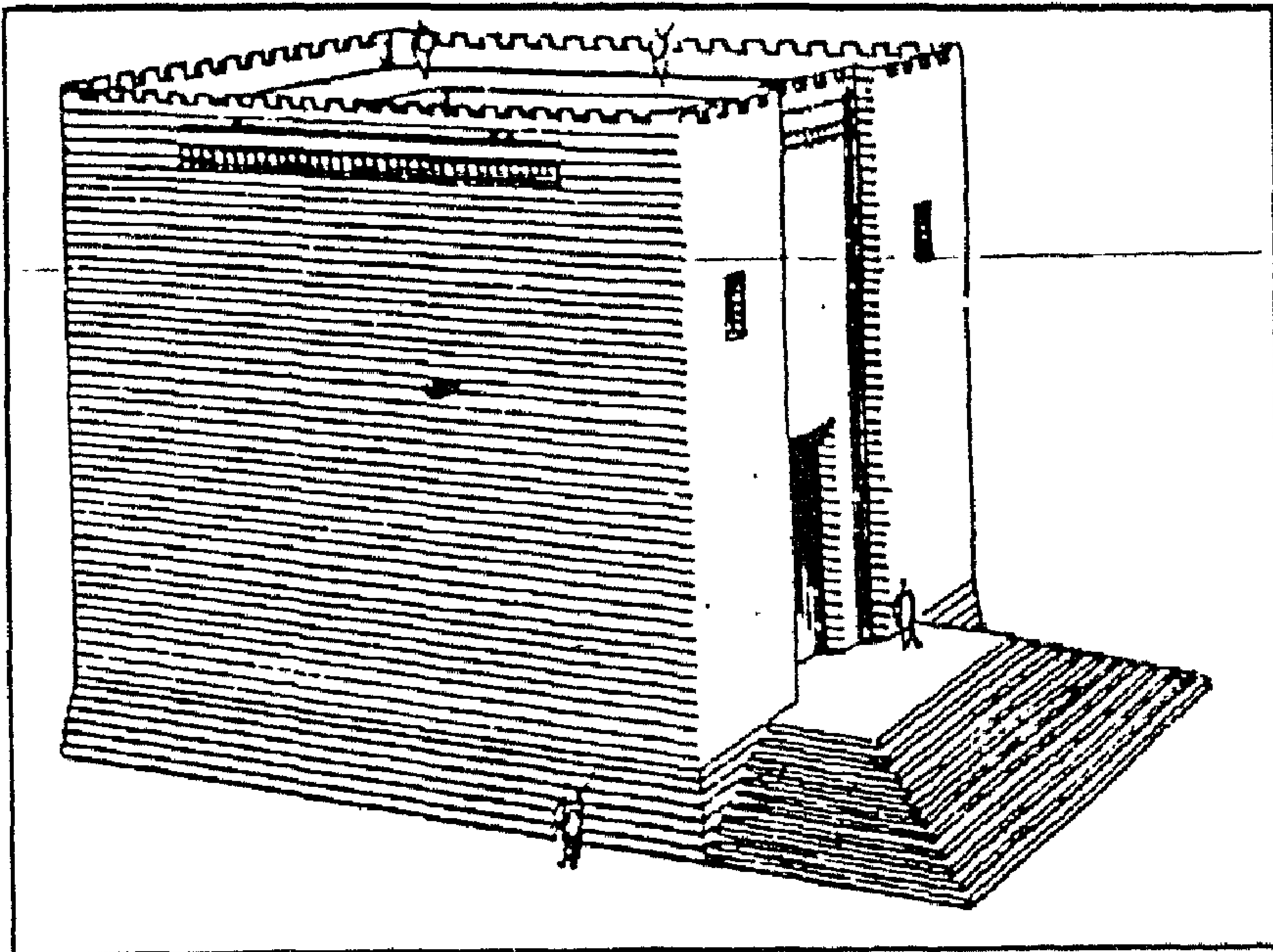


(شكل ٤) نقش الملك "عيزانا" (منتصف القرن الرابع الميلادى) وقد كتب بالأبجدية الحبشية القديمة ويلاحظ فيه الخطوط الرأسية بين الكلمات والاتجاه من اليمين إلى اليسار وهى الخصائص التى ورثتها الأبجدية الحبشية القديمة عن أبجدية الخط المسند ولكن بدأت العلامات تأخذ الشكل المستدير الذى ساد فى الأبجدية الأثيوبية (الجعزية) فيما بعد

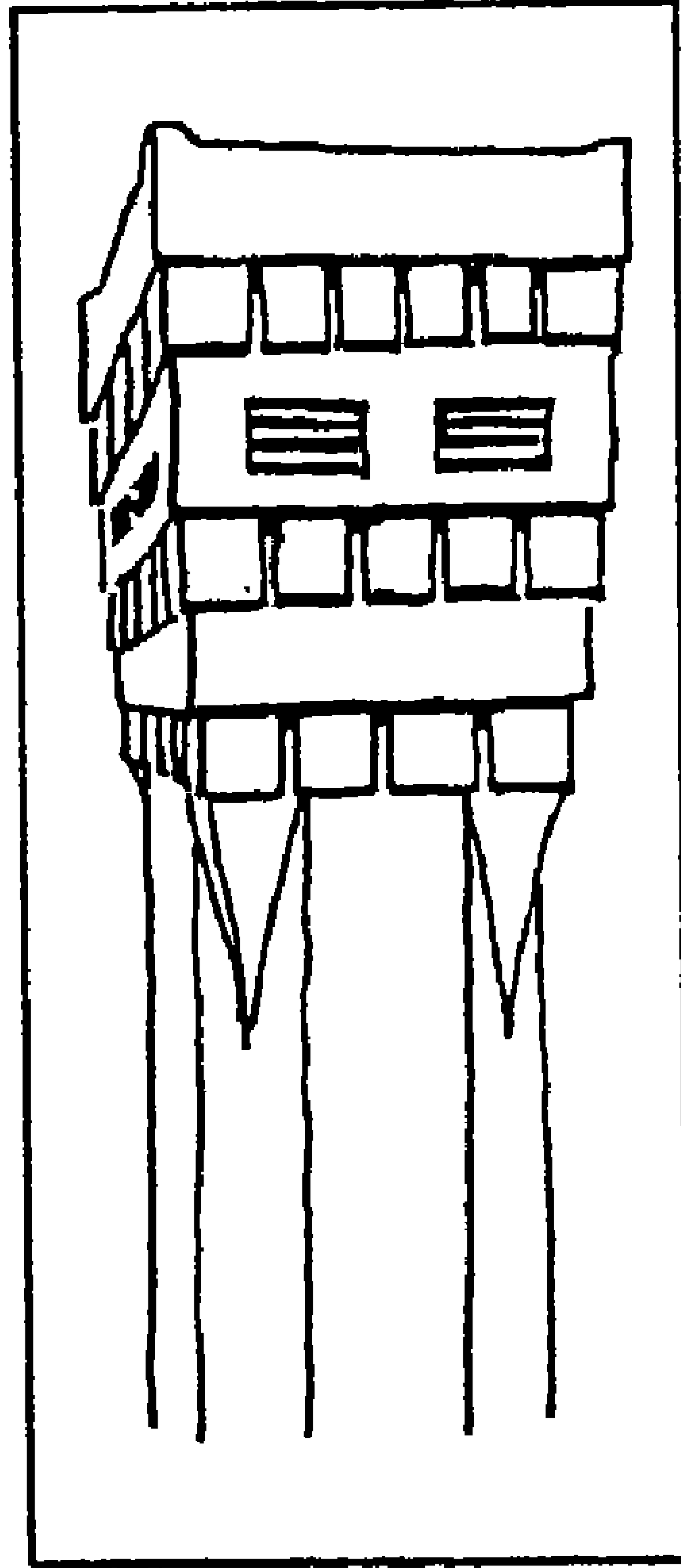
(Jensen 1970, f.g. 329)



(شكل ٥) قاعدة أو مصطبة معبد الإله " عثتر " فى مدينة " تمنع " عاصمة دولة قتبان اليمنية (الخريطة رقم ٣) التى كان المعبد مقاماً عليها وقد زال المعبد ولم يتبق غير المصطبة والدرج المؤدى إليها . (عبد العزيز صالح ١٩٨٠ ، شكل ١٦).

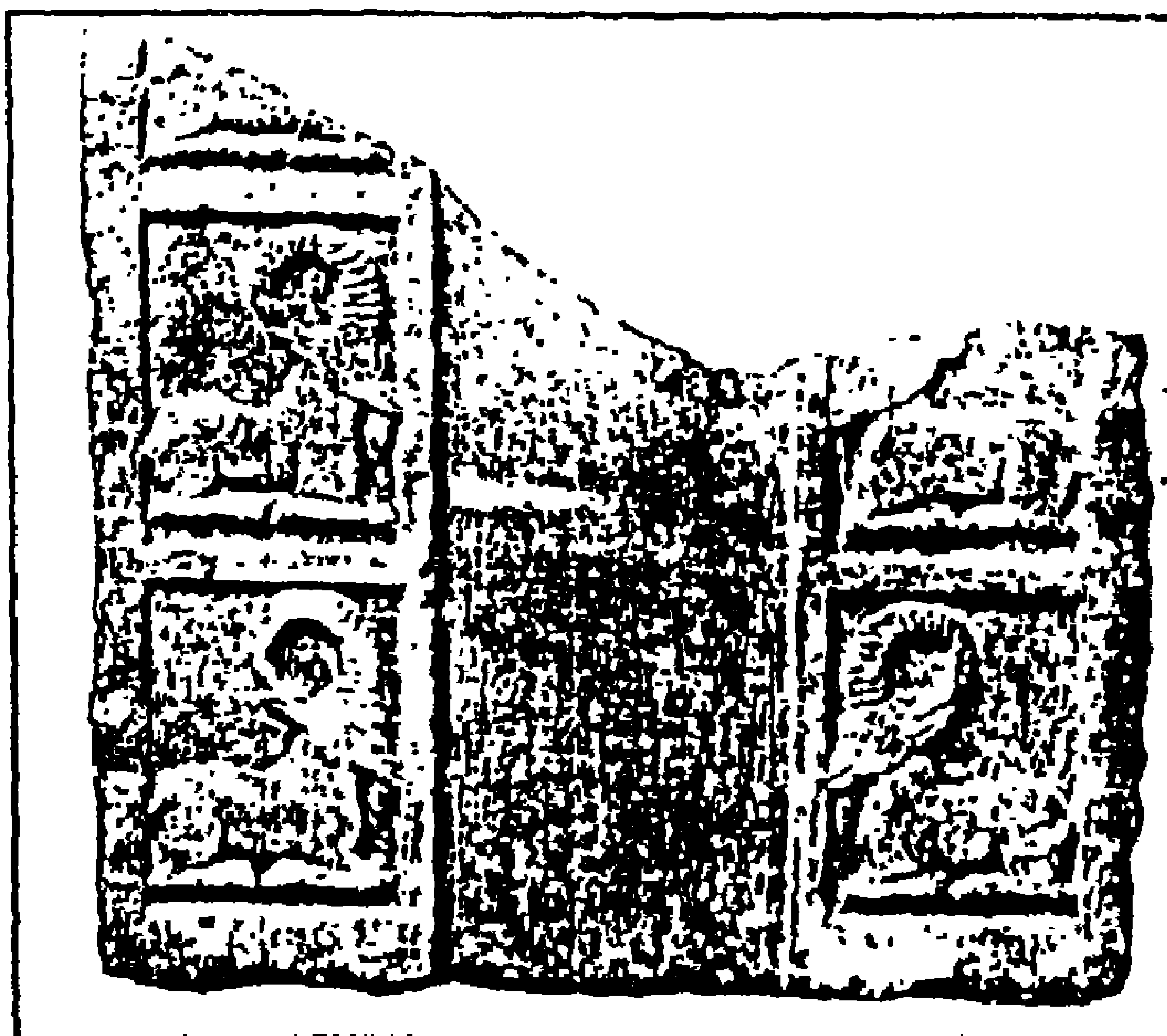


(شكل ٦) منظر تخيلي لمعبد مدينة " يحا " فى الحبشة يوضح ما كان عليه المعبد فى الأصل كما يوضح المصطبة المقام عليها المعبد والدرج المؤدى إليه مما يشبه درج مصطبة معبد " عثتر " القتبانى الموضح فى شكل ٥ . (نلسن ١٩٥٨ ، شكل ٣٩) .



(شكل ٧) زخاف الأسنان **Denticulation** فى تاج عمود مأرب فى اليمن

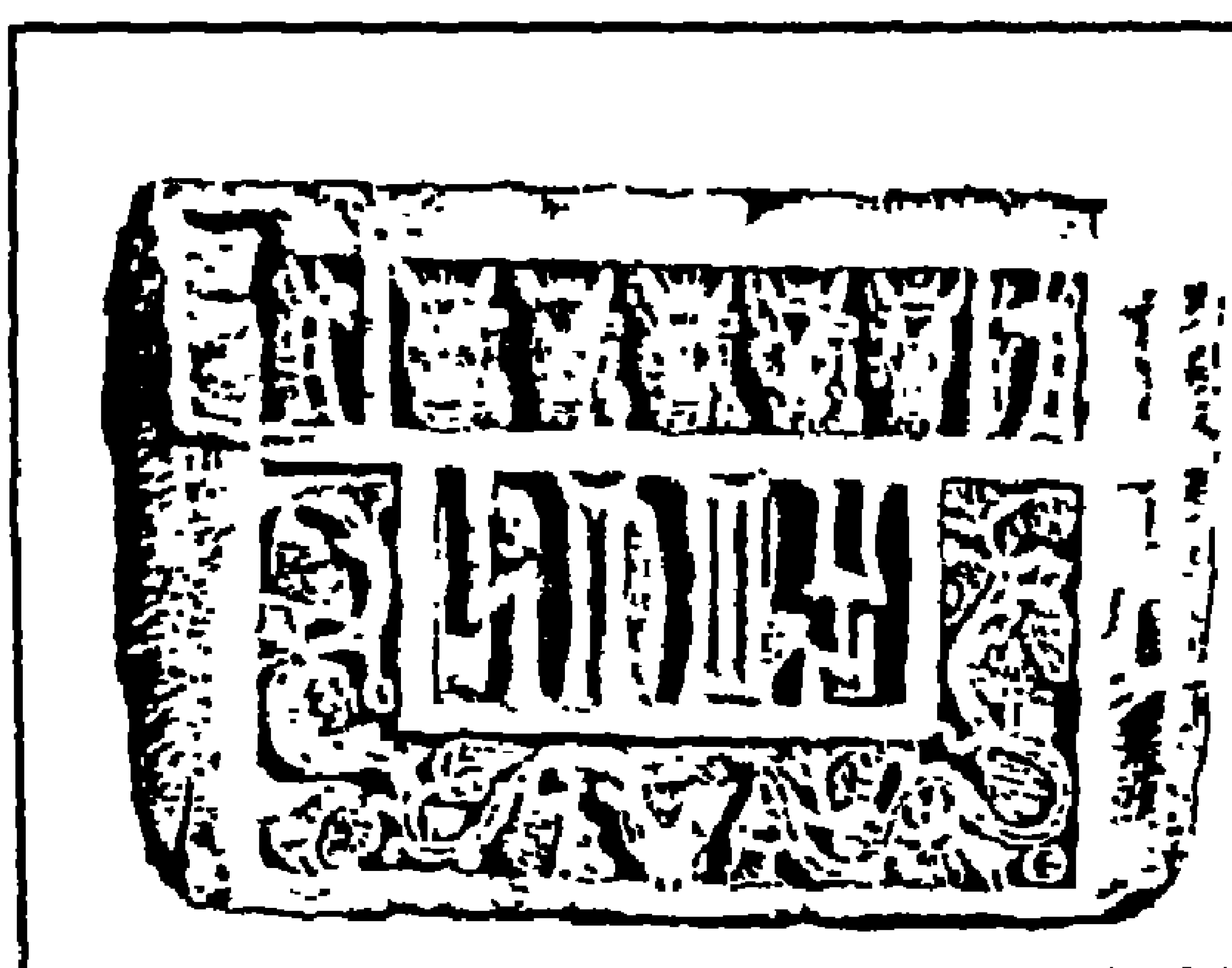
(Doe 1983, figs. 69, 70) وقد انتقلت هذه الزخارف إلى مبانى الحبشة اليمنية

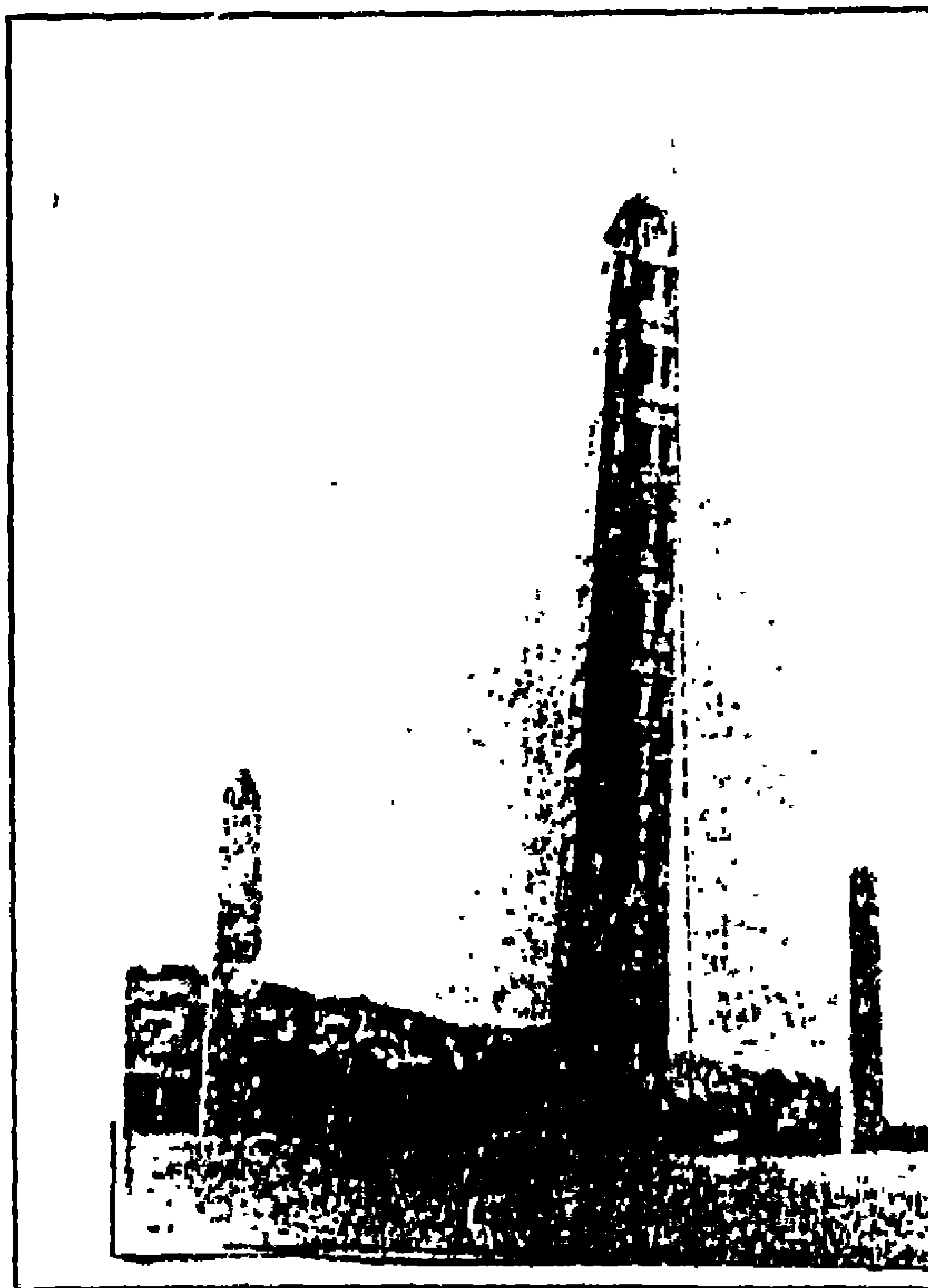


(شكل ٨ ، شكل ٩) زخارف الوعول والثيران كما تبدو على الآثار اليمنية القديمة

(عبد المنعم عبد الحليم ١٩٩٣ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٦)

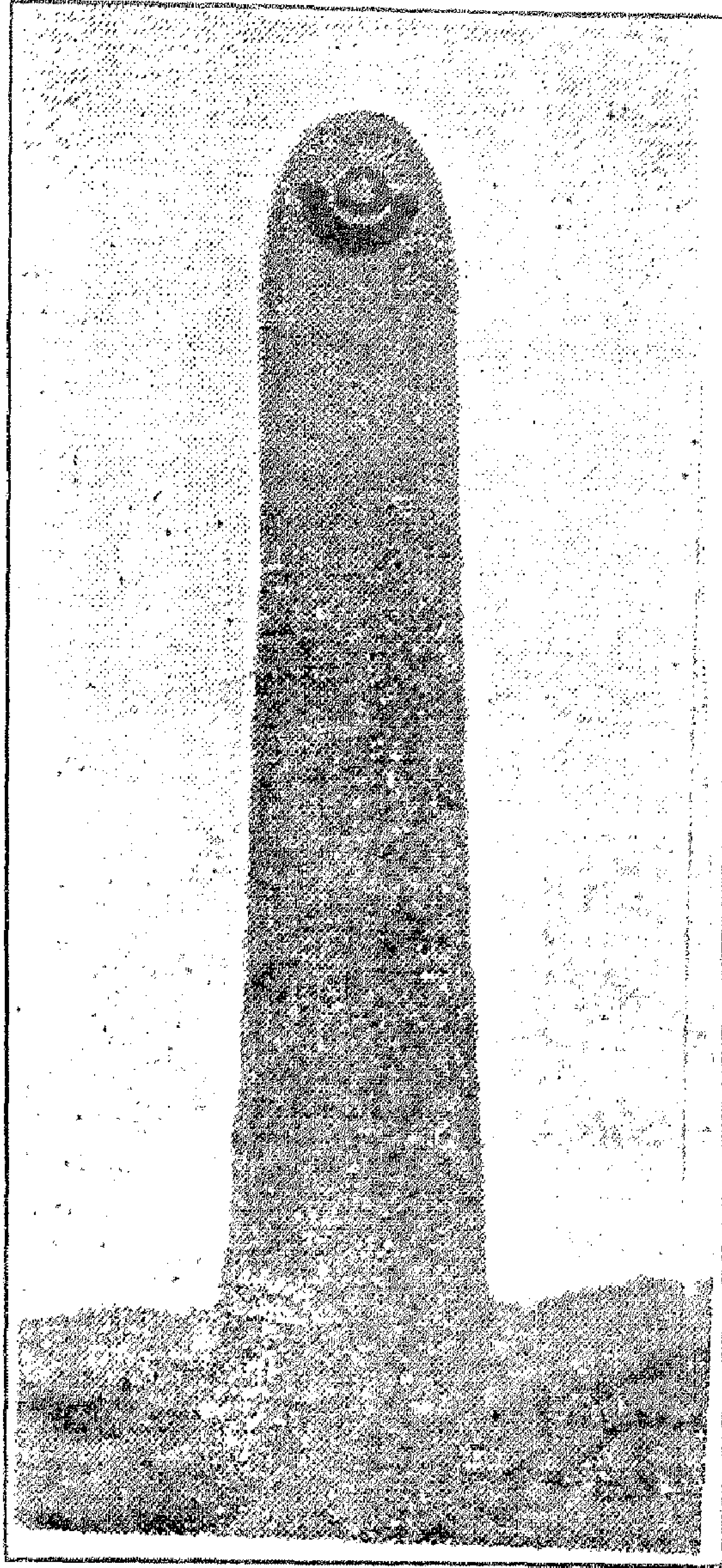
وقد انتقلت بدورها إلى الحبشة وصارت من العناصر المعمارية الرئيسية فى مبانيها .



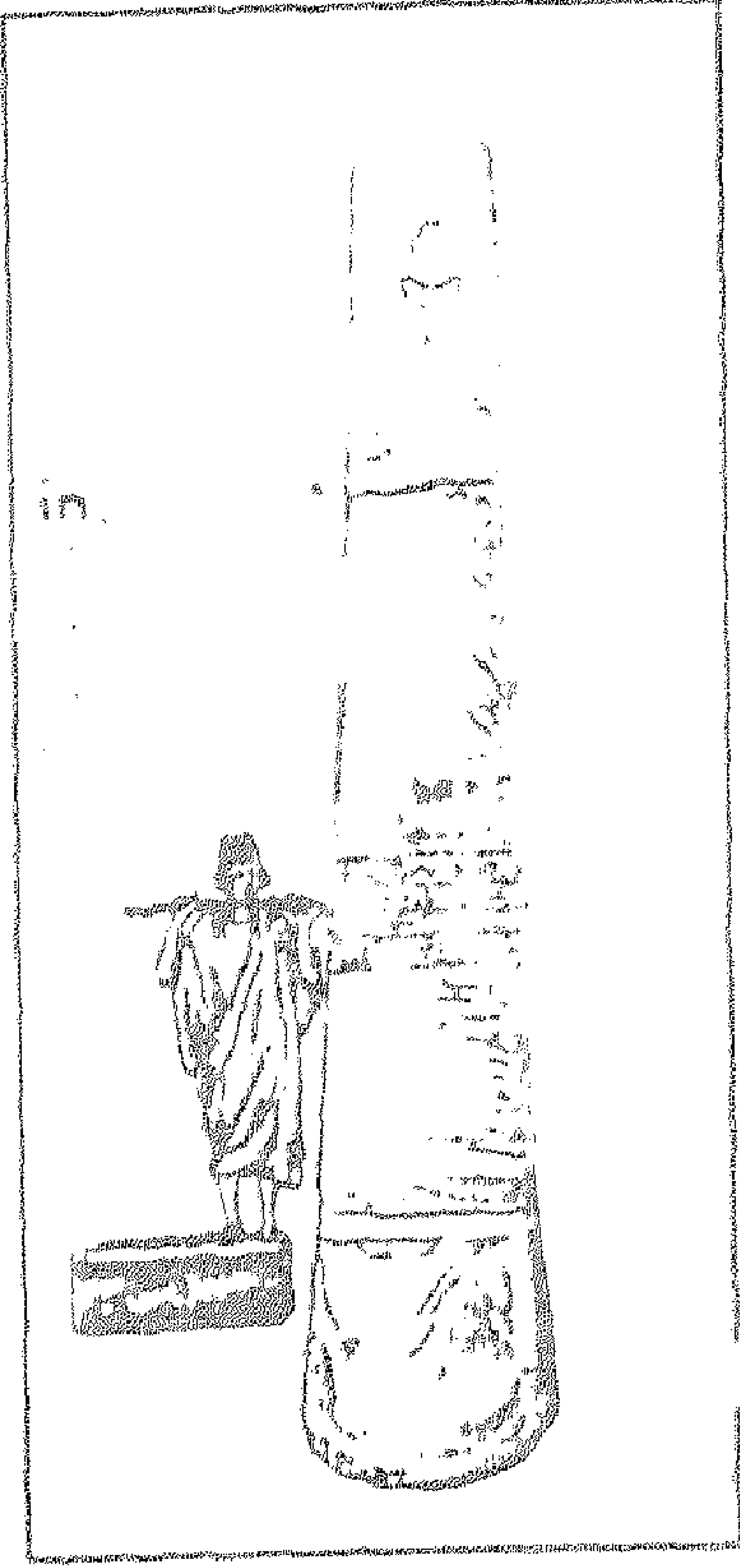


(شكل ١٠) منظر عام لثلاث مسلات (أو أنصاب) في أكسوم
(Conti Rossini 1928, Tav. XXX no. 92)

والمسلة الوسطى يبلغ ارتفاعها ٣٣ متراً وقد حليت جوانبها بزخارف على هيئة أبواب في جزئها السفلى ونوافذ في جزئها العلوى .



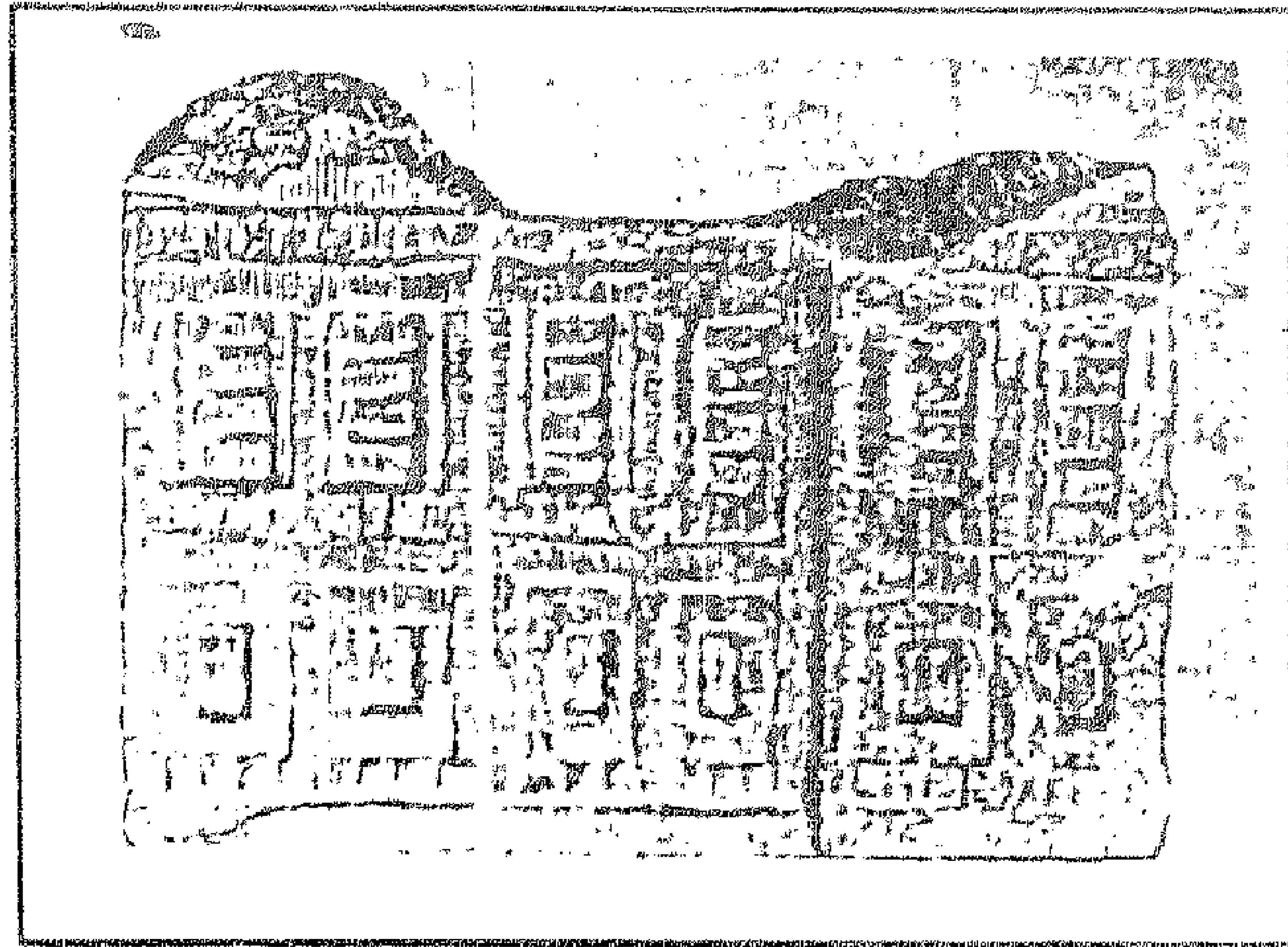
(شكل ١١) نصب على هيئة شبيهة بالمسلة توجد فى مدينة " مأرب " باليمن (جامعة الدول العربية ١٩٧٠ ، صورة رقم ١٦) وكانت مقامة فوق إحدى المقابر مما يدل على أن وظيفتها جنازية وهى بذلك تشبه مسلات أكسوم التى لا شك تأثرت بها فى الشكل (القمة المستديرة) والوظيفة .



(شكل ١٢) نصب على هيئة شبيهة بالمسلة توجد فى مدينة مطرا بالحبشة (Krenker 1913, p. 66) ويلاحظ التشابه الكبير بينها وبين نصب أو مسلة مأرب الموضحة فى شكل ١١ من حيث استدارة القمة ووجود رسم القرص والهلال بالقرب من قمة المسلتين .

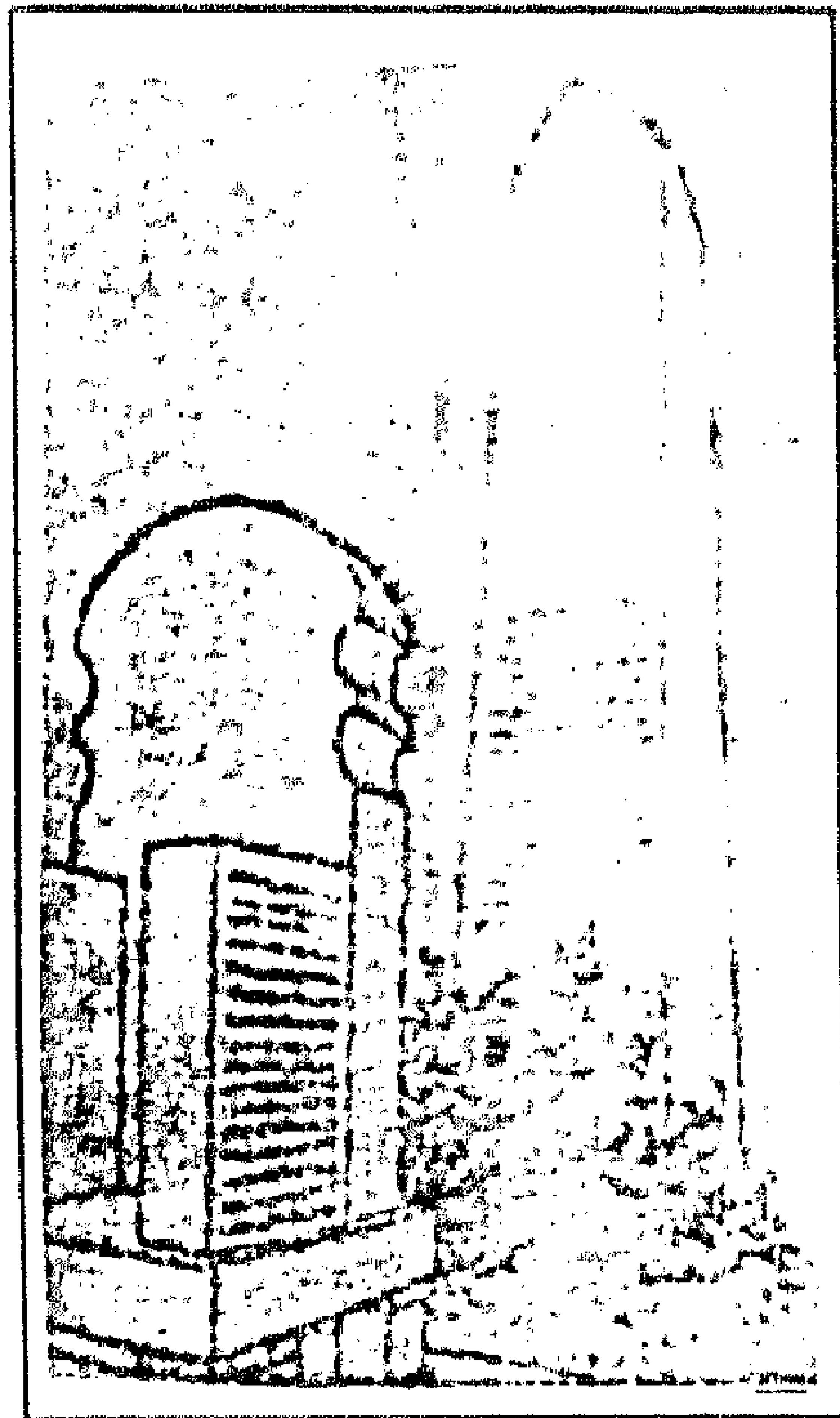


(شكل ١٣) أحد الأنصاب أو المسلات فى مدينة يحا ' بالحبشة (Conti Rossini 1928, Tav. XXVII, no. 87) وتظهر أمامها كتلة حجرية كانت تستخدم مذبحًا للأضاحى (مشار إليه بالسهم) مما يرجح أن هذه الأنصاب كانت ذات وظيفة جنازية هى عبادة الأسلاف أو الأجداد .



(شكل ١٤) حرق بخور سبئي عليه زخارف على هيئة نوافذ تشبه زخارف مسلات أكسوم .

(شكل ١٠) (تلسون ١٩٥٨ ، ص ١٦٠) .



(شكل ١٥) شكل تخيلي لنصب أو مسلة أدوليس التي وصفها الرحالة كوزماس

(**Kammerer 1929, p. 222**)



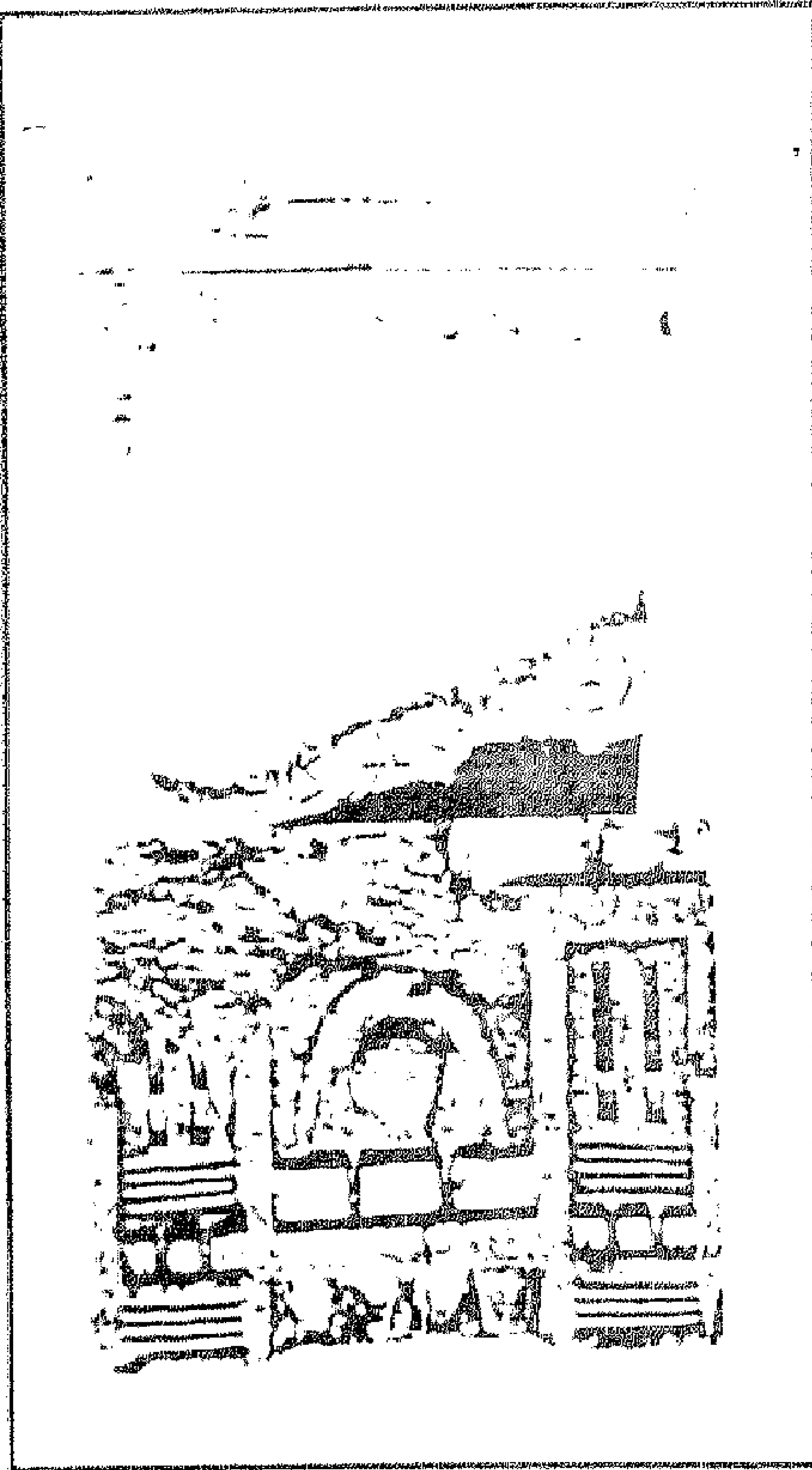
(شكل ١٦) تمثال لامرأة وجد فى " حاولتى " إلى الجنوب الشرق من أكسوم

(UNESCO 1981, P I. 13, 2a)

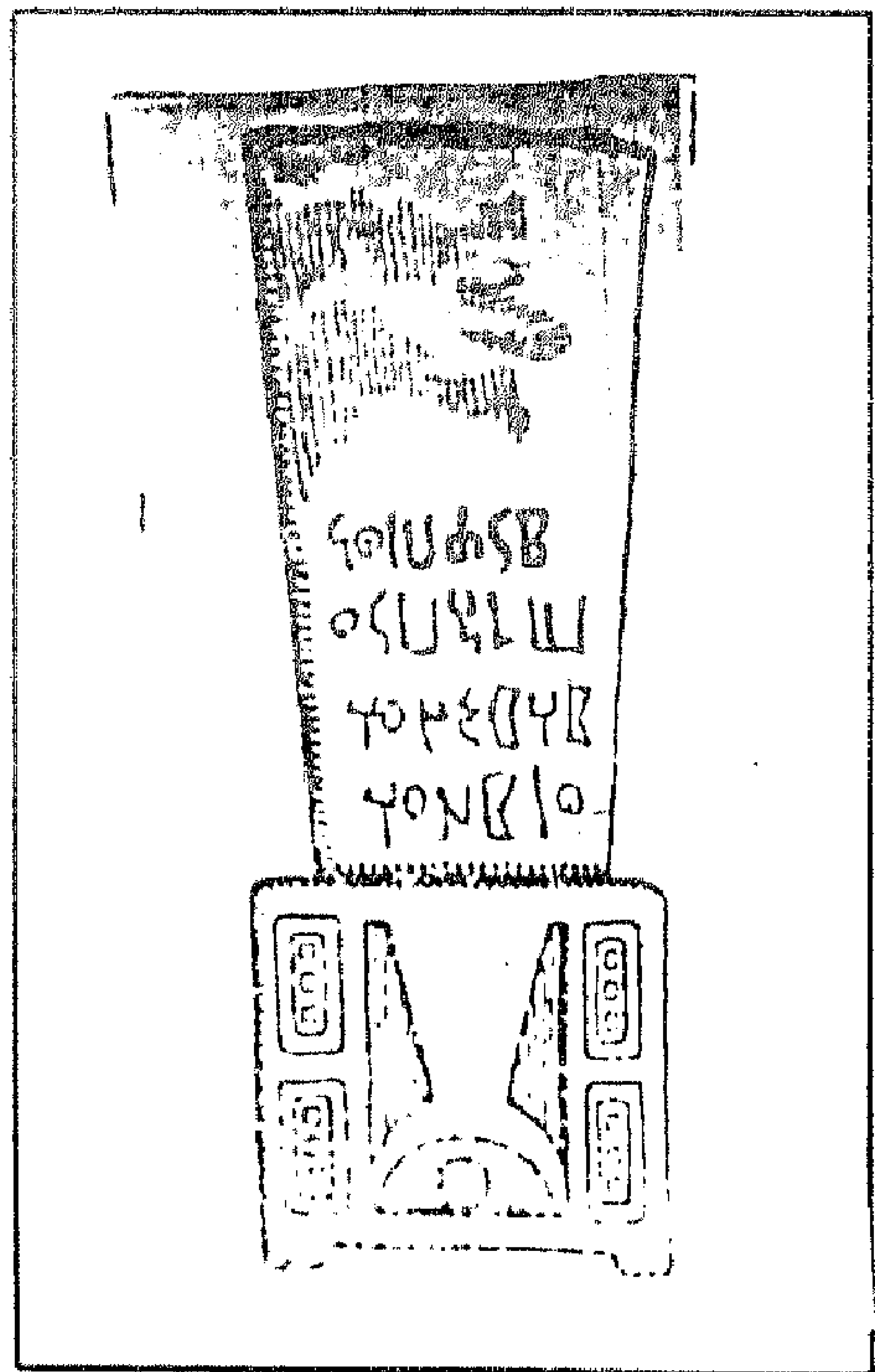
ويلاحظ الشبه الكبير بينه وبين تمثال المرأة القتبانية المسماة " برأت " الممثلة فى شكل ١٧



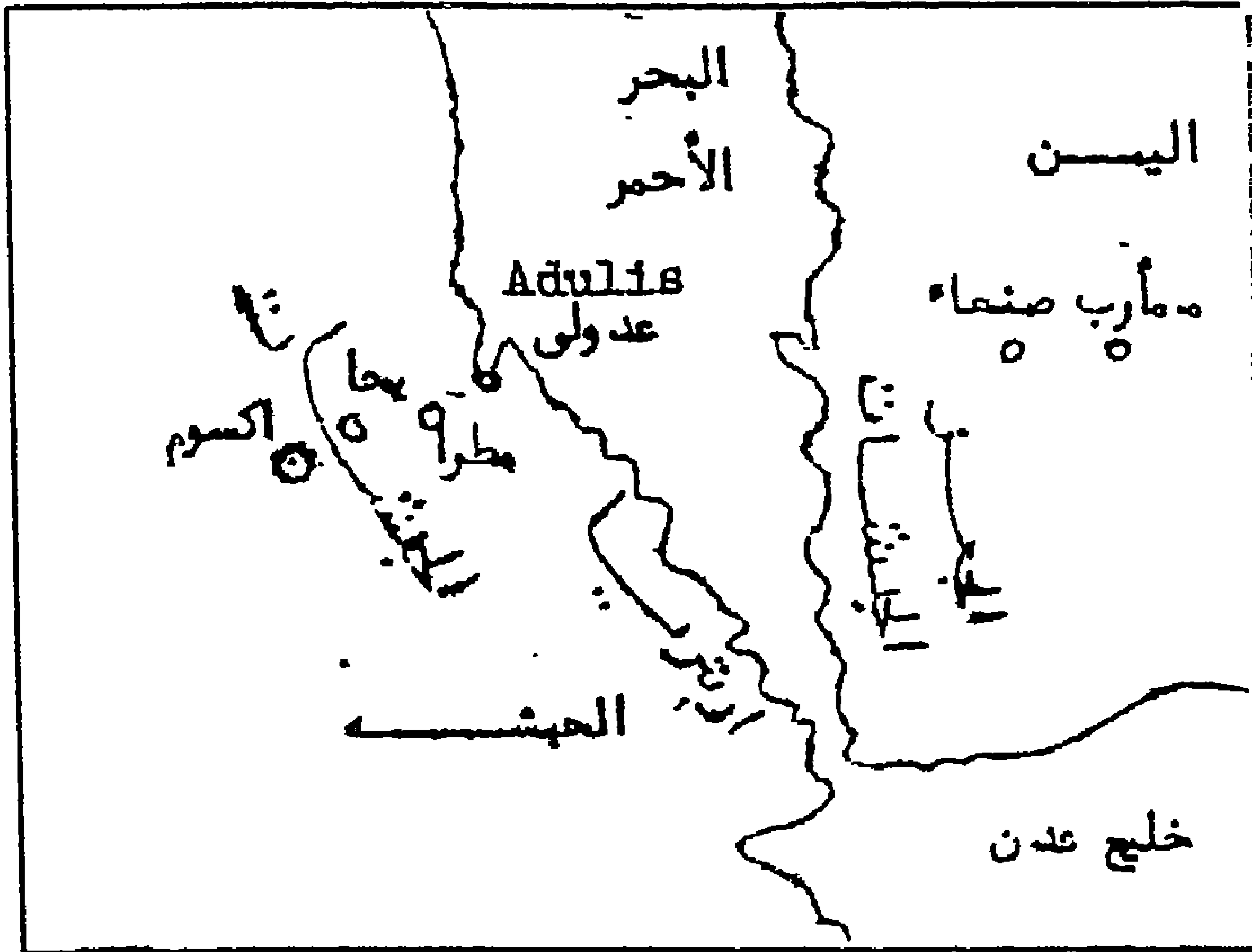
(شكل ١٧) تمثال المرأة القتبانية المسماة " برأت " وقد عثر عليه فى مدينة تمنع (هجر كحلان الحالية) عاصمة قتبان ويتمثل التشابه الكبير بين التمثالين فى جلسة المرأة وثوبها الطويل وفى القاعدة وقد نقش على قاعدة تمثال تمنع اسم المرأة وهو " ب ر أ ت " (Doe 1971, p. 48, fig. 36) .



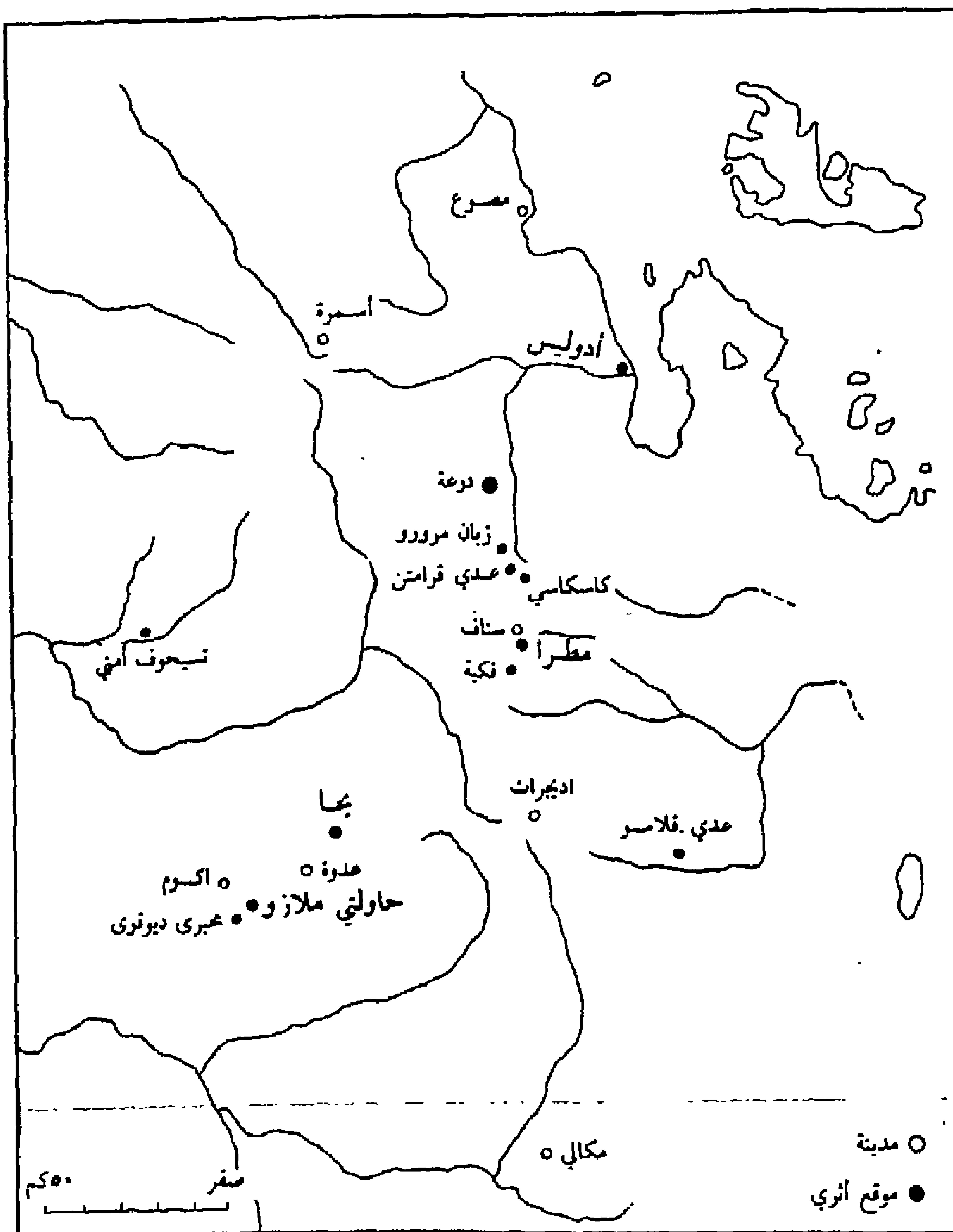
(شكل ١٨) محرق بخور وجد فى بلدة "عدى قلامو " (UNESCO 1981, pI. 13.3) الواقعة إلى الشرق من بلدة " يحا " بالحبشة ويلاحظ التشابه بينه وبين محرق البخور السبئى المنشور فى شكل ١٩ كما يلاحظ فيه زخارف الأسنان Denticulation الشائعة فى الزخارف المعمارية اليمنية .



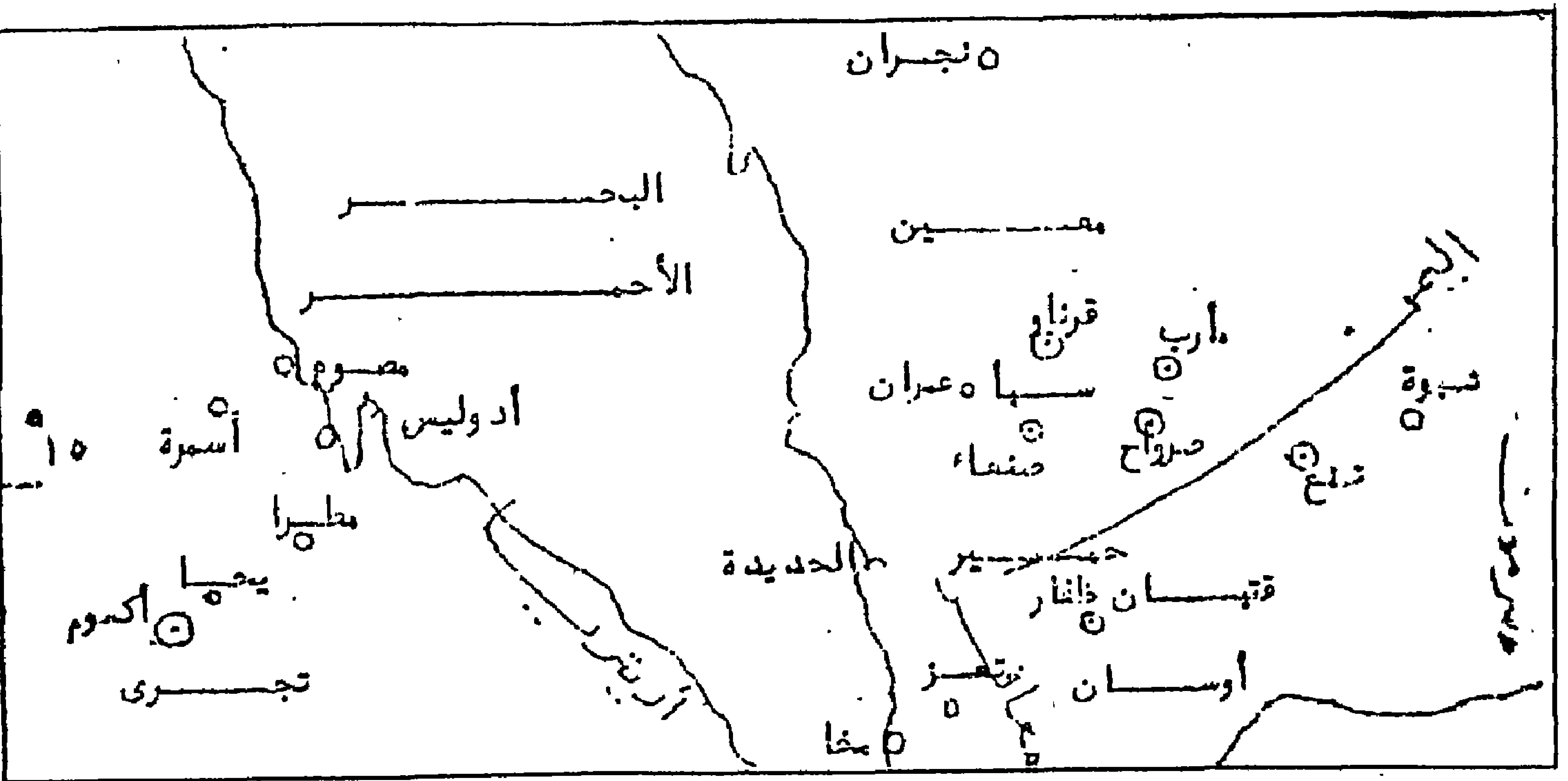
(شكل ١٩) محرق بخور سبئى نصفه السفلى ذو شكل مخروطى أو هرم ناقص وفى الصف العلوى شكل القرص والهلال (Kammerer 1929, I, p.227) وهى الزخارف التى أصبحت عناصر دائمة فى زخارف محارق البخور الأكسومية والزخارف المعمارية بوجه عام



خريطة رقم ١ : مناطق انتشار قبائل الحبشات والجعز من اليمن إلى الحبشة



خريطة رقم ٢ : مراكز ظهور التأثيرات اليمنية في الحضارة الحبشية



خريطة رقم ٢ : المراكز الحضارية فى كل من اليمن والحبشة وعواصم الدول اليمنية القديمة

الهوامش

١ – منذ اكتشاف هذا النص أخطأ أحد الباحثين فى فهم مضمونه وهو Forester وذلك فى كتابه :

Ch. Forester, The Historical Geography of Arabia, II, London, 1844, p. 445. إذ قـــارن الكلمة الأولى منه بأول كلمة وردت فى قصيدة للقزوينى تبدأ بكلمة " سمعنا " ، واعتقد بناء على هذه المقارنة الخاطئة أن النقش هو القصيدة الشعرية التى أشار " القزوينى " إلى وجودها محفورة عى صخرة بالقرب من عدن مدعيًا أنه وردت بها إشارة إلى قوم " عاد " والنبى " هود "

– غير أن الباحثين سرعان ما صححوا هذا الخطأ منذ عام ١٨٧٢م إذ تبين لهم بعد قراءة النقش قراءة صحيحة أن كاتب هذا النقش أحد القواد الذين حاربوا الأحباش تحت قيادة ملك حمير المسمى فى نقش أخر لنفس القائد " يسف أسار يثأر " واسم هذا القائد " سميفع أشوع " وأنه بعد هزيمة الملك الحميرى لجأ إلى منطقة حصن الغراب البعيدة عن متناول الجيش الحبشى . وقد كان سبب خطأ Forester اعتقاده بأن كلمة " سمعنا " الواردة فى بداية رواية القزوينى هى كلمة " سميفع " الواردة فى بداية نقش حصن الغراب . وقد نشر تصحيح هذا الخطأ كما قلنا منذ عام ١٨٧٢ وذلك فى

F. Praetorius, Himjarische Inschrifetn, ZDMG 39, 1872, p. 27-31.

– وأيضًا فى :

H.Mordtmann, New Himjarische Inschrifetn, ZDMG 26, 1885, p. 230 - 234.

– ورغم قدم هذا التصحيح فإن بعض الباحثين اللاحقين لم يفطنوا إليه ومنهم : سيد مظفر الدين نادفى كتابه:

Sayed Muzaffar-Ub-din Nadvi, Historical Geography of the Koran, 1932 .

– فقد تكرر فى هذا الكتاب توحيد نص حصن الغراب بقصيدة " القزوينى " والإشارة إلى قوم " عاد " والنبى " هود " وبالتحديد إلى الاسم التوراتى " عابر " الذى اعتبره مؤلف هذا الكتاب هو النبى " هود" (فى الروايات العربية يعتبر " عابر " أبا للنبى " هود ") .

– وقد تكرر نفس خطأ Forester – أى الإشارة إلى قوم " عاد " والنبى " هود " فى النقش فى ترجمة الكتاب السابق الذكر :

– سيد مظفر الدين نادفى – التاريخ الجغرافى للقرآن الكريم – ترجمة عبد الشافى غنيم ومراجعة حسن جوهر – سلسلة الألف كتاب (٦٧) – القاهرة ١٩٥٦ – ص ١٨٣ .

- بل وظل هذا الخطأ يتردد حتى عام ١٩٨٨ في مقال بعنوان : اللغة والأبجديات لمحمد سالم شجاب والذى نُشر في مجلة الإكليل – العدد الأول – صنعاء ١٩٨٨ – ٧٥ .

٢ – كتب مترجم هذا الفصل فى كتاب " تاريخ إفريقيا " الصادر عن اليونسكو ، كتب اسم هذا المعبد "برعان " وهو خطأ (اليونسكو ١٩٨٥ ص ٣٤٨) لأن الاسم السبئى فى الخط المسند هو " أى " برأن " بينما الكلمة في الأصل الإنجليزى صحيحة وهى (UNESCO 1981,p. 345)Bar' n .

٣ – ورد اسم هذا الإله خطأ فى كل من الأصل الإنجليزى والترجمة العربية لكتاب اليونسكو عن تاريخ إفريقيا إذ كتب فى الأصل الإنجليزى Ashtar وفى الترجمة العربية " عشترت " إلا أن هذا الاسم يكتب بالثاء كما ورد فى نصوص الخط المسند (أى " ع ث ت ر " وليس بالشين أى عشتر لأن عشتر اسم إلهة شمالية أنثى بينما عثتر اسم إله ذكر جنوبى (فى اليمن) راجع .UNESCO 1981, p 345 واليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٤٨).

٤ – كتب مترجم كتاب تاريخ إفريقيا الصادر عن اليونسكو ، كتب اسم هذه المرأة " برعات " (اليونسكو ١٩٨٥ ، ص ٣٥٢) وهو خطأ وصحة الاسم " برأت " وقد ورد صحيحًا فى الأصل الإنجليزى (UNESCO 1981,p. 345)Bar't

المصادر والمراجع

استخدمنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فى المؤلفات الأوربية والأمريكية باسم Harvard References System وذلك لتميزه عن النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم إهدار وقت وجهد القارىء فى تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع . فضلاً عن المساحة التى يوفرها نتيجة لاختصاراته ، وكتابة الاختصارات فى متن البحث .

أولاً : المراجع العربية :

١ – جامعة الدول العربية ١٩٧٠ : جامعة الدول العربية ، المعالم الأثرية فى البلاد العربية ، الجزء الأول ، القاهرة .

٢ – جواد على ١٩٦٩م : جواد على ، المُفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٣ ، بيروت.

٣ – عبد العزيز صالح ١٩٨٠م : عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، القاهرة .

٤ – عبد المنعم عبد الحليم ١٩٩٣ : عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، الإسكندرية .

٥ – نلسن ١٩٥٨ : نلسن ، ديتلف وآخرون ، التاريخ العربى القديم ، ترجمة فؤاد حسنين على ومراجعة زكى محمد حسن ، القاهرة .

٦ – اليونسكو ١٩٨٥ : اليونسكو ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الثانى ، حضارات إفريقيا القديمة إشراف د. جمال مختار ، باريس .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1 - BSOAS : Bulletin of the Schools of Oriental and African Studies .

2 - Conti Rossini 1928 : Conti Rossini, Carlo; Storia d'Etiopia, Parte Prina, Bergamo .

3 - Diringer 1947 : Diringer, David; The Alphabet, A Key to the History of Mankind, London.

4 - Doe 1971 : Doe, Brian; Southern Arabia, Cambridge.

5 - Doe 1983 : Doe, Brian; Monuments of South Arabia, Cambridge .

6 - Hastings 1925 : Hastings, James; (ed.) Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburagh.

7 - Huntingford 1980 : Huntingford, G.W.B; The Periplus of the Erythraean Sea, London.

8 - Jensen 1970 : Jensen, Hans, Sign, Symbol and Script. Transl. by George Unwin, London .

9 - Kammerer 1929 : Kammerer, M. Albert; La Mer Rouge, Tome Premier, M.S.R.G.E. Tome XV .

10 - Kitchen 1994 : Kitchen, K.A. ; Documentary for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.

11 - Krenker 1913 : Kernker, D.; Deutsche Aksum Expedition, B II, Älter Denkmäler Nordabessinien, Berlin .

12 - M.S.R.G.E. : Mémoire de la Societé Royale de Geographie d'Egypte .

13 - Naville 1898 : Naville, E. ; The Temple of Deir El-Bahri, Prat III, London .

14 - PSAS : Proceedings of the Semirar for Arabian Studies, London .

15 - RES : Repertoire d'Epigraphies Semitiques, Paris.

16 - Sayed 1988 : Sayed, Abdel Monem A.H.; "Emendations of the Bir Murayghan Inscription Ry 506 and a new minor Inscription from there " PASA, Vol. 18 .

17 - Smith 1954 : Smith, Sj; "Events in Arabia in the 6th Century A.D." BSOAS, XVI .

18 - UNESCO 1981 : UNESCO, General History of Africa II, Ancient Civilizations of Africa, ed. G.Mokhtar, Paris .

د. رياض مصطفى أحمد شاهين (*)

النشــاط الاقتصــادى
لليهود فى الحجاز قبل الإسلام

ملخص البحث:

تناولت بالدراسة موضوع النشاط الاقتصادى لليهود فى الحجاز قبل الإسلام لما لهذا الجانب من أهمية ، وخصوصاً لفهم الموقف الحاسم الذى اتخذه الرسول محمد ﷺ من هؤلاء اليهود ، والذى انتهى أخيراً بإجلائهم عن مراكزهم ، والقضاء على تجمعاتهم . حيث أن للعامل الاقتصادى أهمية لا تقل عن أهمية العامل الدينى فى الصراع الذى نشب بين اليهود والمسلمين ، فلقد رأى اليهود أن مجىء الإسلام وحلوله بين ظهرانيهم فى المدينة هو نهاية نفوذهم ومكاسبهم الاقتصادية التى حققوها طوال الفترات السابقة .

ولقد حاولت فى بحثى هذا أن أتطرق فى البداية للوجود اليهودى فى الحجاز حيث تناولت موقع الحجاز ، ودلالات هذا الموقع لموطن هؤلاء اليهود ، مبيناً أن اليهود استوطنوا بالأصل مناطق الواحات التى تمتاز بمياهها الكثيرة وتربتها الخصبة ، مما جعل منها محطات مهمة على طرق القوافل التجارية ، بالإضافة إلى أن ذلك أتاح لليهود ممارسة مهنة الزراعة.

وتناولت أيضاً فعاليات اليهود الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، والتى كانوا يمارسونها فى المدينة المنورة ، مما جعلها مجتمع الموارد المتنوعة ، لم يطغ فيها جانب من الجوانب الاقتصادية على الآخر .

---

* أستاذ مشارك فى التاريخ الإسلامى بالجامعة الإسلامية - غزة .

وأخيراً تحدثت عن العلاقات الاقتصادية التي تربط اليهود مع التجمعات السكانية الأخرى التي تسكن المدينة وهم الأوس والخزرج ، وأثر ذلك الجانب الاقتصادي في خلق وإذكاء التنافس الواقع بين الطرفين ، وحاولت أن أربط بينها وبين مواقف الأطراف الخارجية خلال هذه الفترة .

الوجود اليهودي في الحجاز :

أ - موقع الحجاز :

لابد لنا قبل الدخول في تفصيلات الوجود اليهودي في الحجاز من تحديد الإطار الجغرافي لإقليم الحجاز لما لهذا الموقع من انعكاس على دور هذا الإقليم والفعاليات الاقتصادية ، التي مارسها سكانه ، سواء التجارة أو الزراعة .

والذي يلاحظ من الوصف الجغرافي الذي تقدمه لنا كتب الجغرافيا الإسلامية بأن حدوده لم تكن ثابتة ، وغالباً ما تتداخل هذه الحدود بينه وبين أقاليم شبه الجزيرة العربية الأخرى وهي تهامة والعروض واليمن بالإضافة إلى الحجاز(١)، فمن ناحية الامتداد الجغرافي للحجاز نلاحظ بأنه كان يمتد شمالاً حتى تبوك ، ويتراجع من الناحية الجنوبية إلى ما وراء مدينة يثرب(٢). وفي بعض الأحيان تدخل مدينة يثرب مع منطقة نجد المجاورة لها (٣). كما تضاف اليمامة إلى الحجاز مع مكة والطائف(٤). ويكاد معظم الجغرافيين يتفقون على أن الحجاز هي المنطقة المحصورة بين تهامة ونجد(٥) والممتدة على محاذاة البحر الأحمر من العقبة شمالاً وحتى عسير جنوباً وهي عبارة عن سلسلة جبال تعرف بجبال السراة (٦). ويتمشى مع هذا التحديد ما حدده القزويني حيث يقول " بأنه حاجز بين الشام واليمن وهو مسيرة شهر " (٧)، وتحديد المسعودي الذي يحدده بقوله " إنه حاجز بين اليمن والشام والتهائم " (٨). والهمداني " وهو ما حجز بين الشام واليمن "(٩) وما يصفه البكري " ما احتجز به في شرقية من الجبال ، وانحاز إلى ناحيته بين الجبلين " أجا وسلمى " إلى المدينة . ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد ، فذلك كله الحجاز " (١٠).

ويشتمل الحجاز على عدة مدن أهمها مدينة مكة ومدينة يثرب ، والطائف ، وخيبر ، ووادي القرى . ولقد لعبت الاعتبارات الجغرافية والدوافع الاقتصادية دوراً كبيراً في نشوء هذه المدن الحجازية وتطورها . فمن الحجاز كان يمر أحد الروافد الأساسية للتجارة وطريق مهم في

طرق التجارة البرية المعروفة فى تلك الفترة ، وهو الطريق الذى يبتدئ من موانى اليمن غربيًا مخترقًا تهامة الحجاز مارًا بمكة ويثرب حتى يصل إلى أيلة على خليج العقبة ثم موانىء البحر المتوسط شرقًا (١١).

وبعد الحصار الذى لحق بتدمر على أيدى الرومان وتراجعها عن الدور الذى كانت تلعبه فى السابق . كان هذا فرصة للعرب فى الجزيرة بأن يسيطروا تدريجيًا على هذا الطريق ، وساعدهم على ذلك معرفتهم بالبادية ودروبها ، وتعودهم على الحياة فيها . كما ساعدهم على ذلك أيضًا نوعية الحيوان الذى يركبونه ، فالجمل هو الحيوان الوحيد القادر على السير فى الصحراء ولمدة طويلة ونقل التجارة ، وقيامهم بتنظيم القوافل عبر هذه الصحراء (١٢).

وساعد الازدهار التجارى على ازدهار المدن الحجازية والتى نشأت بالأصل كمحطات على طرق القوافل التجارية لتقديم الخدمات التى تحتاجها هذه القوافل من ماء ورعى للإبل حيث ساعدها على هذا الازدهار وجود المياه وحصانة الموقع ، والمتوفر لهذه المحطات جميعها سواء مكة والتى يمكن إعطاء وصفها بعض الخصوصية لوجود الحرم ، ومما استتبع ذلك من مكانة دينية ميزتها عن بقية مدن الحجاز إلا أن يثرب والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى وتيماء هى بالأصل أراضى خصبة لوجود المياه فيها ، حيث توفر هذه المناطق خدمات إسنادية لحركة القوافل مثل التزود بالماء والغذاء المناسب استعدادًا لقطع مسافة أخرى داخل هذه الصحراء .

ب - أصل يهود الحجاز :

أما الخوض فى مسألة الوجود اليهودى فى الجزيرة العربية وفى شمال الحجاز بالذات ، فهى مسألة بالغة التعقيد ، ولا تخلو من منزلقات خطيرة يجب أن نكون حذرين من الخوض فيها ، إلا بالقدر الذى يخدم موضوع البحث وانعكاسات هذا الوجود اليهودى على نشاطاتهم الاقتصادية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام .

إن بعض رواياتنا تؤكد أن اليهود هم من القبائل العربية المتهودة ، فنذكر اليعقوبى أن أشهر قبائل اليهود وهى بنو النضير وبنو قريضة التى استوطنت يثرب تنتميان إلى قبيلة جذام اليمانية التى هاجرت إلى الحجاز ، والتى استقرت - بعد اعتناقها اليهودية - فى مدينة يثرب(١٣) وأما القبيلة الثالثة التى سكنت المدينة وهى قبيلة قينقاع فهى من بقايا الجماعة التى رافقت سيدنا موسى عليه السلام ، للحج (١٤)، حيث تخلفت جماعة منهم ، وسكنت فى موضع سوق قينقاع ، فكانوا أول من سكنوا موضع المدينة (١٥).

ويلاحظ أنه بالمقابل لهذا الرأى هناك رأى آخر فحواه أن اليهود هاجروا إلى الحجاز من بلاد الشام في القرنين الأول والثانى بعد الميلاد بعد نجاح الرومان فى فرض سيطرتهم على بلاد الشام ومصر ، وعلى اليهود ودولة الأنباط فى القرن الثانى بعد الميلاد ، مما أدى إلى هجرة هذه القبائل اليهودية إلى الحجاز ، التى كانت بعيدة عن السلطة الرومانية (١٦).
واستمرت هذه الهجرة اليهودية بشكل متزايد بعد فشل التمرد اليهودى ضد الرومان ، وهى الثورة التى قضى عليها القائد الرومانى تيطس عام (٧٠م) ، وثورة أخرى أفشلها الإمبراطور هادريان بين عامى ١٣٢ - ١٣٥م (١٧).

لقد كانت فلسطين هى الامتداد الطبيعى للحجاز ، وكان من الطبيعى أن يكون هناك اتصال لسكانها بالحجاز ، واتصال مقابل لسكان الحجاز بفلسطين ، وقيام جاليات يهودية بالذهاب إلى الجزيرة العربية للاتجار والإقامة (١٨)، ويجعل ابن الكلبى هذه العلاقة قديمة منذ استيلاء نبوخذنصر على فلسطين ، " حيث أجلى من أجلى وسبى من سبى من بنى إسرائيل فلحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادى القرى وتيماء ويثرب . وكان فى يثرب قوم من جرهم وبقية من العماليق - وهم بنو عملاق بن أرفخسد بن سام بن نوح - قد اتخذوا النخل والزرع فأقاموا معهم ، وخالطوهم فلم يزالوا يكثرون وتقل جرهم والعماليق حتى نفوهم عن يثرب واستولوا عليها " (١٩).

ولكن أبا الفرج الأصفهانى يجعل هذه الهجرة من فلسطين ذات صبغة سياسية حيث يقول:
" ثم ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعًا بالشام فوطئوهم ، وقتلوهم ، ونكحوا نسائهم ، فخرج بنو النضير وبنو قريضة ، وبنو هدل هاربين منهم إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل"(٢٠).

إن هذا التضارب بين هذه الروايات قاد إلى حيرة واسعة بين المؤرخين القدامى والمحدثين الذين حاولوا أن يعرضوا لتاريخ اليهود ، فهناك من يعتبرهم عربيًا ، وبعضهم يعتبر أن بعض القبائل العربية قد تهودت وليس كلها بفعل معاشرتها ومجاورتها لهذه القبائل اليهودية ونرى البعض الآخر يحاول تفسير هذا الاضطراب بأن هناك هجرتين يهوديتين من فلسطين إلى الحجاز ، وأن مهاجرى الدّور الثانى كانوا أكثر سلمية من مهاجرى الدّور الأول حيث يقول إسرائيل ولفنسون " إنهم كانوا مجرد ضيوفًا مضطرين ، نزلوا على أبناء جلدتهم فاستقبلهم هؤلاء بالحفاوة والترحيب إذ كانوا يعلمون أنهم فارون من مخالب النسر الرومانى حيث سهل هذا الامتزاج بين هؤلاء " (٢١).

إن للهجرة اليهودية خلفية سياسية أكثر منها دينية ، عندما هربوا من الاضطهاد في فلسطين والذى وصل ذروته فى العصر الرومانى (٢٢)، وأنه ليس من السهولة تحديد هوية اليهود الحجازيين ومدى جدية انتماء بعضهم للأصل العربى ، وعدم صحة نسبة بعضهم كبنى قينقاع مثلاً إلى العنصر العربى .

ويرى إبراهيم بيضون – أنه بغض النظر عن أصل المنطقة التى وفدوا منها والتى تبقى مجرد فرضيات . كل منها له ما يؤيده يبقى أن نقول : " بأنهم ظلوا جسماً غريباً عن المنطقة ولم يتطبعوا بحياة أهلها إلا بمقدار مصالحهم الخاصة ، وأن العلاقة بين العرب واليهود لم تخلو فى محورها من الاحتقار المتبادل . ولم يتأثر العرب بالديانة اليهودية على الرغم من أنها دين سماوى ، ورغم تفوق اليهود الاقتصادى والسياسى " (٢٣). فإننا نرى أن اليهود هم الذين تأثروا بالعرب وهذا ما سنراه لاحقاً فى ثنايا هذا البحث .

جـ – مواطن اليهود فى الحجاز :

لقد استوطن اليهود أخصب مدن الحجاز ، تلك التى تتوفر فيها الشروط المثلى للإقامة كخصوبة التربة ، وتوفر المياه والموقع الاستراتيجى المهم والمسيطر على الطرق التجارية . وأكبر هذه المواطن اليهودية وأهمها فى الحجاز هى مدينة يثرب التى وصفت على أنها أقل من نصف مكة (٢٤)، وموقعها الاستراتيجى المهم على عقدة المواصلات الرئيسية لتجارة الشام حيث يصفها ياقوت على أنها " حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه " (٢٥). وهى واحة خصبة التربة غزيرة المياه محصورة بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين ، حرة واقم فى الشرق وحرة السويرة فى الغرب . وتحيط بها الوديان فى جهاتها الأربع ، وتسير فيها الأودية مثل وادى بطحان ووادى مهزوز ووادى رانوناء . وتسير أودية المدينة منحدرة من الجنوب إلى الشمال ويسير مع انحدارها مياه الأمطار فيها جنات ذات نخل وبساتين تنبت أشجار الفاكهة"(٢٦).

وتشير الإشارات المتوفرة فى مصادرنا ، بأن اليهود هم أول من استوطنوا يثرب "فلما قدم بنو النضير ، وقريضة وهدل المدينة ، نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها ، وبعثوا رائداً أمروه أن يلتمس لهم منزلاً سواها، فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزوز واديان من حرة على تلاع الأرض عذبة، بها مياه عذبة، تنبت حُرُّ الشجر فرجع إليهم فقال قد وجدت لكم بلداً طيباً نزهاً على حرة يصب منها واديان على تلاع عذبة، ومدرة طيبة فى متأخر الحرة"(٢٧).

إن أشهر القبائل اليهودية التى سكنت يثرب هم بنى النضير وبنى قريضة ، حيث سكنوا حرة واقم فى الناحية الشرقية من يثرب ، وهى أخصب المناطق ، وهم ما يطلق عليهم لقب سكان العوالى (٢٨). وأما قبيلة بنى قينقاع فقد سكنت الجزء الجنوبى الغربى من واحة يثرب(٢٩) . ومنطقة السافلة و أما بقية قبائل اليهود ، فكانت منتشرة فى أماكن متعددة من مناطق يثرب الغنية ، فبنو بهدل (هدل) وبنو عوف كانوا إلى جوار قبيلة بنى قريضة ، وتنزل بنو القصيص وبنو ناغضة بقباء ومنازل بنى مرير وبنى معاوية وبنى ماسكة ، تقع شمالى وادى مهزوز وبنو زعوراء سكنوا منطقة العوالى قرب مشرية أم إبراهيم ... والتى كانت تسمى الملك أو فراقة النمل (٣٠) . وبنو عكرمة (عكوه) وبنو مراية ، سكنوا طرف حرة واقم شمالى منازل بنى حارثة (فى الأوس) ، بينما كانت ثعلبة وجماعات غيرهم من اليهود يسكنون قرية زهوة بناحية واحة العريض . كما كان يعيش فى شمالى يثرب وبقرب جبل أحد جماعات من اليهود(٣١).

إن هذا الاستعراض لمواقع اليهود فى يثرب يثبت أن اليهود كانوا يسكنون أخصب مناطق يثرب وأغناها (٣٢). مما كان له الأثر الفعال فى نشاطهم الاقتصادى فى يثرب . ويمكننا أن نقول وبشىء من الثقة أن اليهود الذين سكنوا الناحية الشرقية من يثرب أو العوالى كما تسميهم مصادرنا ، كانوا يتمتعون بالغنى والمكانة الاجتماعية المرموقة أكثر من غيرهم الذين سكنوا النواحى الأخرى فى يثرب .

وأشهر المواطن اليهودية بعد يثرب هى خيبر التى عرفت قبل الإسلام بأنها ريف الحجاز(٣٣) وهى على ثمانية أميال من المدينة لمن يريد الشام وتشمل هذه المنطقة على سبعة حصون وبها مزارع نخل كثير ، وأسماء حصونها : حصن ناعم ، والقموص ، وحصن أبى الحقيق وحصن الشق ، وحصن النطاة والسلالم وحصن الوطيح ، والكتيبة ، وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن (٣٤).

ومن مواقعهم المشهورة أيضًا فدك ، وسكانها مثل أغلب يهود الحجاز ، امتهنوا الزراعة واشتغلوا بالتجارة وبعض الحرف التى تخص اليهود مثل الصياغة والحدادة ، والنجارة (٣٥).

ووادى القرى وسمى بهذا الاسم لأن به من أوله إلى آخره قرى منظومة ، وكانت قديماً منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله ، ونزلها بعدهم اليهود ، واستخرجوا عظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها (٣٦).

وكانت أيضاً تيماء والتى فيها حصن الأبلق وهو حصن السموءل بن عاديا اليهودى(٣٧)، وكان أيضاً بين أهل مقنا وأيلة فى أيام الرسول قوم من اليهود ، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة فى أعالى الحجاز وعلى ساحل البحر . ومن هؤلاء اليهود بنو جنّة ، وهم يهود مقنا(٣٨)، وبنو عاديا(٣٩) ، وبنو عريضة (٤٠).

ولا يستبعد أن يكون هناك قوم من اليهود بالطائف ، ولكنهم كانوا قلة حيث يتكرهم البلاذرى " حينما صالح أهل الطائف الرسول " : فصالحهم على أن يسلموا ويقرهم على ما فى أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم أن لا يرابوا ولا يشربوا الخمر ، وكانوا أصحاب ربا ، وكان بخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها التجارة ، فوضعت عليهم الجزية . ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف (٤١)، ولا يستبعد أن يكون قد قدم الطائف جاليات يهودية جاءت إليها من اليمن ويثرب إبان الاضطرابات السياسية .

ويظهر أنه كان هناك وجود يهودى فى مكة قبل الإسلام ، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الوجود الذى يظهر أنه كان متعلقاً أساساً بالنشاط التجارى ولا تخرج عن كونها صوراً من الإقامة الفردية . مثل ذلك الإشارة التى ترد عن اليهودى الذى كان يقيم بجوار عبد المطلب بن هاشم ، الذى حرض حرب بن أمية على قتله لنشاطه التجارى الواسع (٤٢).

ويرى جواد على أنه يمكن الإشارة إلى وجود جاليات من اليهود فى المدن التى اشتهرت بالتجارة كبعض موانئ البحر الأحمر وموانئ سواحل العربية الجنوبية ، غير أن وجودهم فى هذه المواضع لم يكن له أثر واضح حيث لم يتجاوز محيط التجارة والاتجار (٤٣).

النشاط الاقتصادى لليهود فى الحجاز :

إن الحديث عن النشاط الاقتصادى لليهود فى الحجاز لا يمكن فصله بأية حال من الأحوال عن الحديث عن النشاط الاقتصادى بشكل عام فى تلك الفترة ، فلقد مارس اليهود جميع الأعمال الاقتصادية التى كانت مألوفة فى عصرهم ، من زراعة وتجارة وصناعة ، وخير صفة يمكن أن نطلقها على مجتمع المدينة فى تلك الفترة ، بأنها مجتمع الموارد المتنوعة ، فلا نرى جانباً يتطور على حساب جانب آخر ، كما هو الحال فى مكة ، حيث نرى أن النشاط الرئيسى الذى ميزها هو النشاط التجارى بحكم موقعها وطبيعتها الصحراوية .

أ – النشاط الزراعى :

إن المواطن التى سكن فيها اليهود هى بالأصل عبارة عن واحات تتوفر فيها الشروط اللازمة لممارسة العمل الزراعى ، الذى لم يكن الوحيد كما لاحظنا ، فيثرب أهم هذه المراكز اليهودية التى لم تتميز بنمط إنتاجى معين . وإن كانت الزراعة أهم أعمدة الحياة الاقتصادية فيها ، فأرضها بركانية تمتاز بخصوبة تربتها ، وتجرى فيها أودية كثيرة تفيض بمياة السيول، التى تتجمع فى الحرات الشرقية والجنوبية فى فترات مختلفة من السنة (٤٤). وكانت هذه الأودية تسيل فيها المياه ، والتى كانت غزارتها تتراوح حتى تصل إلى أكثر من ارتفاع الكعبين، ولكنها كانت تفيض أحيانًا حتى تصل إلى أنصاف النخل (٤٥) . كما يبدو أنه استخدمت الآبار الكثيرة المنتشرة فى يثرب لرى هذه المزروعات ، وكان – قبل الإسلام – يناط بالعبيد مهمة القيام بهذه الأعمال الزراعية (٤٦).

وترد إشارات كثيرة لهذه الآبار ، ويتضح من هذه الإشارات أن ملكية هذه الآبار كانت أصلاً لليهود ، مثل بئر أريس نسبة إلى رجل يهودى يقال له أريس ، ومعناه بلغة أهل الشام الفلاح (٤٧) . ويظهر أن هذه البئر كانت من الضخامة بحيث إن عثمان رضى الله عنه حينما سقط خاتمه " علق عليها اثنا عشر ناضحًا فلم يقدر عليه " (٤٨).

وهناك أيضًا بئر خنافة ، وكانت لخنافة اليهودى(٤٩) ، وبئر رومه ، وكان ليهودى أمر رسول الله ﷺ بشرائها فاشتراها عثمان (٥٠) . وبئر ذروان ، وهى البئر التى ذكر أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله بها ، كما يشار أيضًا لبئر عاضد ، وبئر الأعواف (٥١).

ومن الطرق التى يبدو أنها استخدمت فى تنظيم رى المزروعات وسقاية النخيل ، فقد وردت إشارة إلى الطريقة التى كان الزراع بها يقسمون الماء بينهم " بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقى نخله فتصل إلى جذوره ، بارتفاع الكعبين ، ثم يرسلها إلى من هو أسفل منه فيسقى " (٥٢) . هذا بخصوص الأودية أما إذا انخفض منسوب المياه فى هذه الأودية فكانوا يلجئون إلى استخدام الآبار ، أو يحملون المياه على الجمال النواضح لرى الجهات التى تبعد عن مجرى سيلان المياه (٥٣).

ومن أشهر المزروعات التى تشتهر بها المدينة ، والواحات الأخرى التى استوطنها اليهود فى الحجاز هى أشجار النخيل ، وكانوا يزرعونها فى مغارس كبيرة ، وقد يحوطونها فتكون حدائق وكانت أرض المدينة صالحة لزراعة النخيل ، حتى ليقال إن وديّة النخل تثمر بعد عام واحد من زراعتها (٥٤).

ويظهر أن النخيل كان عصب الحياة الاقتصادية لسكان الحجاز ويعتمد عليه السكان اعتماداً أساسياً فى طعامهم ، والتعامل بينهم ، وكان يتخذ وسيلة لدفع الأجور وتسديد الديون(٥٥). كما كانوا يأكلون جمارها " شحم النخل وهى أعلى الساق تحت الجريد " (٥٦)، بالإضافة لاستخدام جريدها لصناعة المكاتل والقفف من خواصها ، كما كانوا يستخدمونها فى سقف سطوح منازلهم وعرائشهم التى يستظلون بها من الحر " (٥٧). إضافة لاستخدام أشواكها وكرانيفها للوقود ، ويرضخون النوى بالمراضخ حتى يتكسر ، فيكون علفًا للإبل ، وكانت النخلة من الاحترام والمكانة فى تلك الفترة ، والفترة الإسلامية حيث شبه الرسول ﷺ المؤمن الصالح بالنخلة ، كل ما فيه خير (٥٨).

وكان هذا النخل ينتج أنواعاً متفاوتة الجودة من التمور ، وكان أجود هذه الأنواع من التمر نوع يسمى الصيحانى ، وأبن طاب ، وعزق زيد ، والعجوة ، والصيدفان وهو نوع من التمر أحمر وهو أوزن التمر كله ، والخبيب وهو من أجود أنواع التمر . وكان ليهود بنى النضير نوع فاخر من التمر يقال له اللوز ، " أصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحّمة " (٥٩).

ولم تكن زراعة النخيل حكراً على المدينة وحدها من دون واحات الحجاز التى عاش بها اليهود سواء فدك أو خيبر أو تيماء التى كانت غنية بأشجار النخيل ، وتعتمد فى حياتها على هذه الغلة اعتماداً كبيراً جداً ، حتى أن الرسول ﷺ اتخذ من قطع أشجار النخيل وسيلة للضغط والتهديد لإجبار هؤلاء اليهود على الاستسلام فى حروبه معهم ، كما حصل مع بنى النضير التى نزلت فيها الآية الكريمة ، " ما قطعتم من لينة ، أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين " (٦٠).

ويهود خيبر هم الذين قالوا عن أنفسهم : " نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها " (٦١)، و "إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علمًا" (٦٢)، كما كان يهود خيبر فى نظر من حولهم من القبائل العربية هم " أهل النخل " (٦٣). ولا عجب ! فيهود منطقة الحصون ، كانوا أحرص الناس على زرع النخيل وغرسه ، وكانوا أكثر خبرة بزراعته وسقيه(٦٤) فالنخلة عنهم " أحب إليهم من أبكار أولادهم " (٦٥).

كما يظهر أن فتح خيبر قد عادت على المسلمين بثروة هائلة من التمور(٦٦) حيث كانت "موصوفة بكثرة النخل والتمر " بحيث نرى عائشة رضى الله عنها تقول " الآن نشبع التمر " وقول ابن عمر " ما شبعنا حت فتحنا خيبر " (٦٧). وليس أدل على كثرة محصول التمر فى

الواحة الخيبرية من أن نخل وادى الكتيبة كان ينتج ثمانية آلاف وسق من التمر (٦٨)، وأما عن الإنتاج الكلي لمحصول التمر في واحة خيبر في عام ، فإن ابن شبه يذكر في كتابه تاريخ المدينة المنورة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة ليخرص على يهود خيبر النخل ، فخرص عليهم أربعين ألف وسق من التمر (٦٩).

ويأتى الشعير بالمرتبة الثانية بعد النخيل ، وكان يعتمد عليه السكان اعتماداً رئيسياً في غذائهم وكانوا يزرعونه في حقول خاصة ، بالإضافة لزراعته تحت النخيل ، ويظهر أن كمية الإنتاج من الشعير كانت وفيرة (٧٠)، فكان إنتاج وادى النطاة من الشعير وفيراً (٧١)، وما غنمه المسلمون من (دار بني رقمه) يقطع بوفرة إنتاج هذا الوادى (٧٢)، " كما كان يزرع في الكتيبة شعير ، فكان يحصد منها ثلاثة آلاف صاع " (٧٣) . كما وجد في حصن الصعب وهو من حصون النطاة شعيراً كثيراً(٧٤) أما عن الإنتاج الكلي لمحصول الشعير في خيبر لوحدها فقد بلغ حوالي عشرة آلاف صاع(٧٥) وكانت له مخازن في الحصون والأطام والدور ، وكان اليهود يتاجرون بدقيق الشعير ويبيعونه في الأسواق (٧٦).

كذلك زرع اليهود القمح والكروم وكان إنتاجه وفيراً(٧٧) وبعض أنواع الفاكهة الأخرى من رمان وموز وليمون وبطيخ ، كما كانت تزرع بعض الخضروات والبقول . كالقرع واللوبيا والسلق والبصل والثوم والقثاء (٧٨). إذ حرص اليهود على أكلها لما فيها من صحة أبدانهم فيما يعتقدون (٧٩)، ويخبرنا أبو ثعلبة الخشني أنه غزا مع رسول الله ﷺ خيبر ، " فوجدوا في جنانها بصلاً وثوماً فأكلوا منه وهم جياع " ، وفي رواية أخرى " حتى تقرحت أشداقهم ثم نهى النبي ﷺ عن إتيان المسجد لمن أكلها (٨٠). ومن مصادر الثروة الزراعية أيضاً حب ألبان، ومنها كان يحمل إلى سائر البلدان (٨١).

لقد استوطن اليهود كما أسلفنا سابقاً أصلح الأراضي الزراعية في يثرب ويظهر أن هؤلاء اليهود سيطروا على مركز الثروة الاقتصادية والثروة الزراعية في المدينة ، وكانوا من أشهر أهلها غنى وثروة الذين يمتلكون الأراضي الزراعية الواسعة فهذا مخيريق اليهودى حين أسلم أوصى بأمواله للرسول ، وبلغت هذه الأموال سبع حوائط" (٨٢).

ولقد استخدم هؤلاء اليهود الأساليب التي تضمن لهم الربح ، وقاموا بإعطاء الأرض لمن يزرعها على نظام المزارعة ، وحسب جودة هذه الأرض ، وكانوا يزّارعون على الثلث أو على الربع ، وأحياناً على النصف مما تنتجه الأرض (٨٣)، وطبقوا أيضاً نظام المؤاجرة ، حيث

كانت الأرض تؤجر إما مقابل مبلغ محدد من النقود ، أو جزء من المحصول ، أو تقسيم الحقل إلى قسمين ، قسم لصاحب الأرض وقسم للمزارع الذى يقوم بزراعتها (٨٤).

ويلاحظ أنه على الرغم من هذا النشاط الزراعى الواسع لليهود إلا أن حاصلات بعض المناطق مثل المدينة لم تكن لتكفى حاجة سكانها المتزايدة ، بحيث كانوا يستوردون ما يحتاجونه من بلاد الشام ، وتصل بهم الحاجة حداً لأن يشاركوا نبط الشام ، فى الحنطة والشعير والزبيب إلى أجل مسمى ، قد يبلغ سنة أو سنتين ليضمنوا الحصول على ما يحتاجونه منهم (٨٥).

ويظهر أن السيطرة الاقتصادية لليهود على المدينة كانت سبباً فى فقر سكانها الأصليين وحرمانهم ، وسوء أحوالهم الاقتصادية ، ويبدو أن عملية إجلاء اليهود عن المدينة فى عصر الرسول ﷺ كانت تعبيراً عن هذا الوضع السيئ ، ولتضايقهم من السيطرة الاقتصادية لليهود على مجتمع المدينة فى تلك الفترة ، وتركت هذه العملية أثراً إيجابياً على هؤلاء ، وأخذوا لهم رزقاً فى العمل والتجارة (٨٦).

ويرى ولفنسون أن اليهود أسهموا فى تطوير الزراعة وتنوعها " بإدخالهم أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات " (٨٧)، ولكن هذا بتقديرى يعود للبيئة الحجازية نفسها التى وجد اليهود أنفسهم بها ، هذه البيئة التى أسهمت فى إنجاح أية عملية تطوير للعمل الزراعى التى فرضت عليهم هذا النمط الزراعى فى يثرب . وفرضت بالمقابل العمل فى التجارة على مكة . وهذا ينفى قول ولفنسون بأن اليهود كانوا أساتذة الحجاز فى ممارسة العمل الزراعى ، لأنه ينكر بهذا دور القبائل اليمانية ، ذات التراث العريق والخبرة الزراعية الواسعة التى جلبتها معها من اليمن موطنها الأصلى ، وطبقتها فى المدينة ، ولكن يبدو أن الخبرة الوحيدة التى أدخلها يهود الحجاز إليه هى عملية بناء الحصون والآطام . وهى لم تكن معروفة لدى عرب الحجاز ويظهر أن اليهود قد نقلوها معهم من بلاد الشام . وبلغ عددها فى يثرب لوحدها تسعة وخمسين أطماً "(٨٨) .

والآطام كلمة عبرية تعنى حوائط بدون نوافذ من الخارج ، وبالعربية "البناء المرتفع "(٨٩). ولهذه الآطام استخدمات متعددة وتقدم خدمة كبيرة الأهمية لأصحابها فيحتمى فيها السكان عند هجوم العدو ، وتأوى إليها النساء والأطفال عندما يخرج الرجال للحرب كما كانت تستخدم مخازن للغلال والأسلحة ، وتنزل بجوارها القوافل ، وتقام الأسواق على أبواب هذه

الآطام ، ويوجد فى كل أطم بئر يستسقى منه أهله ، إذا هاجمهم العدو . كما كانت هذه الآطام تشتمل على المعابد ودور المدارس ، ليجتمع بها الزعماء للبحث والمشاورة فى كل أمورهم (٩٠). ولقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : [لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ](٩١). لقد كانت لكل قبيلة يهودية آطام اشتهرت بها فمن آطام بنى قينقاع أطم قرع(٩٢)، ومن أشهر آطام بنى النضير حصن كعب بن الأشرف ، وهو الذى أمر الرسول ﷺ بقتله لأنه كان يهجو الرسول ويحرض كفار قريش على الرسول(٩٣) .

وحصن ناضحة ، وحصن عمر بن جحاش ، وحصن البديلة ، وحصن براج ومنور (٩٤)، ومن حصون بنو قريضة ، حصن الزبير بن باطا القرضى ، وحصن كعب بن الأشرف ، ويسمى حصن (بلجان) ، وكذلك حصن الملحة ، والمعرض ، وهو الحصن الذى يلجئون إليه عند الشدة (٩٥). ومن أشهر حصون القبائل اليهودية الأخرى أطم صوار ، والريان ، والعائذان لبنى ثعبه (٩٦). وهناك حصن الشفجان شمالى شرق المدينة قرب وادى قناة (٩٧). ومن أشهر حصون خيبر : الشق والنطاة وماحيز والكتيبة والسلالم والوطيح (٩٨). وحصن ناعم والقموص، وحصن أبى الحقيق (٩٩)، وحصن الأبلق ، وحصن السموءل بن عاديا المشرف على تيماء (١٠٠).

ب – النشاط الصناعى :

كان النشاط الصناعى فى المدينة المنورة متقدمًا عنه فى كافة المدن الحجازية الأخرى وكانت هذه الصناعات ضرورية للأعمال الزراعية ، ثم أنه كان بها صناع مختصون احترفوا أنواعًا من الصناعات وبرعوا بها ، وخصوصًاتلك الصناعات التى يحتاجها الناس فى استخداماتهم اليومية (١٠١).

ومن أشهر هذه المصنوعات تلك التى تعتمد على الإنتاج الزراعى وأهمها صناعة الخمر الذى كانوا يصنعونه من التمر ، والتى كانوا يسمونها الفضيخ ، وكانوا يشربونها ويتاجرون بها ولديهم منها كميات كبيرة يختزنونها فى جرار ، وكانت هذه الصناعة عامة يمارسها العرب واليهود على حد سواء (١٠٢).

كما اشتهرت بصناعة الخوص من سعف النخل ، بالإضافة لصناعة المكاتل والمقاطف والقفف . وأعمال التجارة اللازمة للبيوت من أبواب ونوافذ وأثاث كان أغنياء اليهود يمتلكون الكثير من الأثاث فى بيوتهم ، وكان استعمال الكراسى أمرًا شائعًا حيث يصنعونها من الخشب وأرجلها من الحديد (١٠٣).

ولقد ساعد على تقدم الصناعات الخشبية فى يثرب وفرة أشجار الخشب والطرفاء، والأثل فى منطقة الغابة فى الناحية الشمالية الغربية من المدينة (١٠٤).

وكانت الحدادة إحدى الصناعات القائمة فى المدينة والمرتبطة فى الأعمال الزراعية ، حيث ازدهرت بعض المصنوعات التى تحتاجها طبيعة الأعمال الزراعية التى يمارسها السكان فى نشاطهم الزراعى ، حيث تحتاج الزراعة إلى أدوات مختلفة مثل الفئوس ، والمحاريث ، والمساح والمناجل للحصاد ، وغيرها من الآلات التى كان يمارسها العرب واليهود على حد سواء . وإن كانت الموالى والعبيد أكثر احترافًا لها (١٠٥). وهذا يخالف ما جاء به أحد الباحثين المحدثين فى أن العرب كانوا يأنفون العمل بها ويعتبرونها من المهن الحقيرة (١٠٦). فنرى أن ممارسة هذه المهنة لم تنحصر فقط بالجماعات اليهودية ، ولكنها كانت ممارسة عامة للجميع بدون استثناء .

واشتهر اليهود وخصوصًا يهود بنى قينقاع بالصياغة حيث احترفوها ولم يحترفها أحد من العرب معهم (١٠٧). ومن هذه المصنوعات التى كانوا يصوغونها الأساور والدمالج والخلاخيل والأقرطة والخواتم ، والفتخ والعقود من الذهب ، أو من الجوهر والزمرد ، أو من الجزع الضفاوى ، وهو خرز ثمين به ألوان بيضاء وسوداء ، وكانت هذه الحلى تباع فى سوق خاص بهم(١٠٨).

وجاء فى الأغانى أن النابغة النبيانى أقبل إلى المدينة يريد سوق بنى قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوقًا عظيمة فحاطت به ناقته (١٠٩). وحين فتح رسول الله ﷺ خيبر ، وكان قد اشترط على أهلها أن لا يخفوا عليه شيئًا ويظهر من هذا أن آل أبى الحقيق وهم المهيمنون اقتصاديًا من اليهود فى تلك الفترة كانوا يمتلكون ثروة من هذه المصوغات الذهبية التى لها شهرة واسعة جدًا لدرجة أن بعض أهل مكة كانوا إذا عرسوا يأتوا إليهم ليستعيروا ذلك الحلى لمدة شهر ، وكان ذلك الحلى يكون عند الأكابر ، وهم فى الأغلب من آل أبى الحقيق (١١٠). وكان هذا الكنز عبارة عن مسك جمل ، جله أساور وذهب ودمالج ذهب ، وخلاخل ذهب ، وأقرطة ذهب ونظم من جوهر وزمرد وخواتم ذهب ، وفتح بجزع ظفار مجزع بالذهب (١١١).

وتفوق اليهود أيضًا بصناعة الأسلحة كالدروع التى كانوا من البراعة فيها ، حتى أنه ليقال: إنهم ورثوها عن النبى داود عليه السلام (١١٢)، وكانت السيوف والنبال تصنع بالمدينة ونبال يثرب مشهورة ، وكان من هؤلاء الصناع من يتخصص فى حداء الأسلحة ، وصقل

السيوف[١١٣]. بالإضافة لمصنوعاتهم من أدوات الصيد المختلفة كالفخاخ والشباك ... وأشراك الحديد ، وغير ذلك [١١٤].

ويبدو أن هؤلاء اليهود كانوا يمتلكون ثروة واسعة من هذه الأسلحة ، كانوا يخزنونها فى حصونهم وآطامهم فحين فتح الرسول ﷺ خيبر وجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألف رمح ، وألف وخمسمائة ترس وحجفة [١١٥].

وكذلك وجد المسلمون حينما فتحوا حصون بنو قينقاع كثير من الدروع والسيوف والأقواس ووجدوا سلاحًا كثيرًا وآلة للصياغة [١١٦]. وغنموا كذلك الكثير من الأسلحة حينما فتحوا حصون بنو قريضة [١١٧].

وإلى جانب هذه الصناعات الهامة كانت تقوم صناعة النسيج والتى تمارسه النساء [١١٨]. بالإضافة لذلك وجدت حرف أخرى ، مثل الخياطة والدباغة وأعمال النحت وضرب الطوب[١١٩]، بالإضافة إلى صنع آنية المنازل ، وأدواتها من نحاس وفخار للأكل والشرب ، وما إلى ذلك من مصنوعات [١٢٠].

ومن هذا نلاحظ أن اليهود فى شمال الحجاز كان لهم باع طويل فى النشاط الصناعى حيث مارسوا كافة الحرف المتعلقة بحياتهم وأعمالهم الزراعية ، ومع أن اليهود برعوا فى جوانب معينة فى هذه الصناعة ، بل حتى احتكروها كصناعة الصياغة ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن ممارسة العمل الصناعي بجميع جوانبه لم تكن حكرًا عليهم لوحدهم ، بل شاركهم فيها سكان المدينة الآخرون من العرب .

جـ - النشاط التجارى :

إن الحجاز مكان يشقه شريان التجارة الرئيسى ، الذى تتفرع منه شرايين تتجه باتجاه الشرق والشمال الشرقى ، كما يسير بمحاذاته شريان آخر مهم ، هو طريق البحر الأحمر المؤدى إلى الهند ، لهذا فإن الحجاز كان جسرًا يربط بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط مع اليمن والحبشة والصومال بالسواحل المطلة على المحيط الهندى ، وكان لهذا الطريق أعظم الأثر فى قيام مدن تجارية بالحجاز ، كمحطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحرى [١٢١].

ومما زاد من قيمة هذا الطريق وازدياد مكانته التجارية هو النزاع الفارسى البيزنطى ، ذلك النزاع الذى بلغ أشده فى القرن السادس الميلادى بسيطرة الأحباش واحتلالهم لليمن وما

تلاه بعد ذلك من احتلال فارسى لها . وقيام الحروب المتصلة بين هاتين الإمبراطوريتين حيث أدى هذا لإغلاق طريق التجارة الشرقى ، المار بين العراق إلى بلاد الشام ، بالإضافة لخلو الطريق البحرى عبر البحر الأحمر من السفن الرومية ، ولم تستطع البحرية الحبشية أن تسد هذا الفراغ فيه ، فأصبح ميدانًا لسفن القراصنة (١٢٢)، وساعد هذا على أن يكون الطريق البرى المار عبر الحجاز هو الطريق المفتوح أمام التجارة .

لقد نشطت مكة ويثرب كمحطات تجارية على هذا الطريق التجارى الذى يربط اليمن بالشام، ومع أن الإشارات متوفرة وبكثرة عن النشاط المكى التجارى ، إلا أن هذا لا يمنعنا من الافتراض بأن المدينة شاركت مكة مثل هذا الدور ، وإن كانت لم تختص بالتجارة لوحدها مثلما هو الحال فى مكة بل لها موارد اقتصادية أخرى غير التجارة .

لم يقتصر دور يثرب ومكة التجارى على كونهما محطات تجارية بل شاركتا فى العمل التجارى نفسه فكانتا مدينتين تجاريتين لهما نشاطهما الخاص بهما .

إن طبيعة كون يثرب مدينة محاطة بالقرى والأعراب لابد أن تكون فيها حركة تجارية وأن يكون كثير من أهلها قد تفرغوا للأعمال التجارية (١٢٣)، ومما يؤكد هذا الدور الكثير من الإشارات القرآنية المتعلقة بهذا النشاط التجارى (١٢٤).

وكانت حركة التجارة الداخلية نشطة بين سكان يثرب والقبائل المحيطة بها مما يدفعنا للقول ، بأنه قامت حركة واسعة للتبادل التجارى بين المدينة التى اشتهرت بمنتجاتها الزراعية وصناعاتها وبين هذه القبائل التى كانت تشترى من يثرب ما تحتاجه وتتبادل معها بما تنتجه من منتجات حيوانية من وبر وحليب وسمن .

وكان دور اليهود فى هذا النشاط التجارى الداخلى كبيراً ، فاليهود مارسوا كل أنواع المعاملات التجارية المعروفة فى زمانهم ، ووسعوا نفوذهم الاقتصادى بين القبائل العربية ، ووجهوا كل نشاطهم التجارى لتضخيم ثرواتهم التى اعتمدوا فيها على مختلف المعاملات والقروض الربوية ، كما امتازوا أيضاً ببعض الصناعات المربحة كالصياغة والنسيج ، وكانوا قبل الإسلام من أكثر سكان يثرب نشاطاً فى تجارة البر والشعير والتمر ، واحتكار صناعة الخمر وتجارته ، حيث وفرت تلك التجارة لهم أرباحاً طائلة (١٢٥).

ونشطت فى يثرب بعض الأسواق التجارية الكبيرة ، التى تعتبر مؤشراً على النشاط التجارى الواسع الذى شهدته قبل الإسلام من أشهرها هو سوق بنو قينقاع ، وهو السوق

الذى امتدت شهرته حتى بداية عصر النبوة (١٢٦). ومما يشير لنشاط هؤلاء اليهود التجارى وعدائهم للحركة الإسلامية الجديدة لمحاولة الرسول ﷺ اتخاذ سوق آخر فى موضع بقيع الزبير(١٢٧). وربما أراد الرسول ﷺ بذلك أن يضرب احتكار اليهود لهذه التجارة ، وتحويل مركز الثقل الاقتصادى ليد المسلمين ، وربما أراد بذلك التخلص من العمليات الربوية الواسعة التى كانت تجرى فى ذلك السوق مما يتنافى مع القيم الإسلامية الجديدة التى أراد الرسول ﷺ ترسيخها ، ومما يشعر بالدور الكبير الذى كان يؤديه هذا السوق فى يثرب قبل الإسلام ، وتحول المسلمين إلى سوق جديد حيث بدأ هؤلاء اليهود يشعرون بالخطر يتهدد مصالحهم بقيام الرسول ﷺ بنقل سوق يثرب إلى موضع جديد قائلاً لهم : " هذا سوقكم فلا تضيق ولا يؤخذ فيه خراج " (١٢٨)حيث قام كعب بن الأشرف أحد الزعماء اليهود بإظهار عداوته لهذه الخطوة الجديدة حيث دخل الخيام وقطع أطنابها .

واستمر سوق بنى قينقاع بأداء دوره حتى بعد معركة بدر عام ٢ هـ / ٦٢٣م . فعندما انتصر المسلمون على مشركى مكة ومجاهرة يهود بنى قينقاع بالعداء للرسول ﷺ " ذهب إليهم فى سوقهم ونصحهم بعدم إثارة الفتن " (١٢٩).

ويلاحظ أن هذا السوق كان يؤدى أدواراً أخرى ، فهو مكان للاجتماع والتباحث بالإضافة لدوره الاقتصادى المتميز ، فبنو قينقاع سكنوا الأماكن الأقل أهمية من الناحية الزراعية ، ولكنهم اشتهروا كقوم تجارة وصاغة ، مما أدى إلى تعويضهم عن هذا الحرمان ، واتجاههم نحو العمل الأكثر ربحاً وهى العمليات التجارية وما يتعلق بها من حرف ذات مردود مادى عالٍ كالصياغة ، وعمليات الصيرفة ذات الفوائد الربوية العالية ، وتدل الإشارات المتوفرة على تردد أهل يثرب من المسلمين على هذا السوق لشراء المصوغات الذهبية التى يحتاجونها فهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أراد الزواج من فاطمة الزهراء رضى الله عنها ذهب إلى سوق بنى قينقاع لشراء الحلى الخاصة بالزواج (١٣٠). وكانت حادثة الاعتداء على المرأة المسلمة التى ارتادت هذا السوق لشراء الحلى سبباً مباشراً لإخراج هؤلاء اليهود من المدينة(١٣١) كما يبدو أن المهاجرين الأوائل من المسلمين استطاعوا استغلال خبراتهم التجارية السابقة واستطاعوا الاستفادة من الإمكانيات المتوفرة فى هذا السوق ، حيث نزلوا للعمل فى سوق بنى قينقاع للتخفيف من الأعباء الملقاة على كواهل الأنصار . ولقد استطاع عبد الرحمن بن عوف أن يجمع أموالاً بسرعة من مزاولته التجارة فى هذا السوق ، حيث أدى هذا لغناه فتزوج من الأنصار وأسس له بيتاً مستقلاً (١٣٢). ولقد استطاع هؤلاء المهاجرون الجدد ذوو الخبرة

التجارية السابقة فى مجتمع مكة من التأثير على الحركة التجارية فى يثرب لصالحهم ، ويبدو أن مركز الثقل الاقتصادى قد انتقل إلى أيدى هؤلاء ، مما أدى لأن يجاهر اليهود بعداوتهم علناً للمسلمين بعد، معركة بدر .

وكانت هناك أسواق أخرى فى يثرب وإن كنا غير جازمين بأنها يهودية ، ولكن لا يستبعد أن يكون لهؤلاء نشاطاً تجارياً مميزاً فى هذا الأسواق ، فهناك سوق من ناحية يثرب " وهو ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف " (١٣٣). وسوق فى منطقة العصبة عند قباء وسوق مزاحم قرب مساكن بنى الحبلى قوم عبد الله بن أبى سلول (١٣٤). وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل ، كان بنو سليم يجلبون إليها الخيل والغنم والسمن ، وكان أكثر ما يباع بهذا الأسواق الحيوانات (١٣٥).

ويلاحظ أن هذه الأسواق كانت تقام على أطراف المناطق السكنية والمنطقة التجارية ، ولعل الأمر يعود لأسباب دفاعية واجتماعية (١٣٦).

وكانت السلع التى تباع فى هذه الأسواق متنوعة ، سواء ما تنتجه المدينة نفسها من تمور وشعير وطعام وخمر ، والحطب الذى يجلبه الحطابون من حول المدينة بالإضافة لما يفد إليها من منتجات البادية من صوف وشعير ووبر وسمن ، ومصنوعات المدينة نفسها من مصوغات وحلى ذهبية أو آلات زراعية كمساح ومكائل وكرازين ، أو ما يجلب إليها من الخارج من نبيذ وزيت وحنطة ومنسوجات قطنية وحريرية ، ونمارق ملونة يشتريها أهل النّعمة واليسار ؛ كما كان هناك عطارون يتاجرون فى أنواع العطارة والمسك والروائح العطرية . وكان لكل طائفة من الباعة موضع معلوم فى السوق (١٣٧).

إن المدينة كانت تقع على نفس الطريق التجارى الذى تقع عليه مكة ، وكانت تؤدى نفس الدور الذى تؤديه مكة ، فى المعاملات التجارية فمن هذا يصح الافتراض بأن الإشارات الكثيرة المتوفرة عن السلع المكية يمكن أن تنطبق على يثرب أيضاً .

فلقد كانت ترد إلى هذه المدن حاصلات الهند عبر موانئ الجنوب ... كالذهب والقصدير والفضة والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل كالبهار والفلفل ونحوها ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والزعفران والآنية الفضية والحديد والذهب

والرقيق (١٣٨). ومن حاصلات اليمن البخور واللّبان والمرّ واللادن والعطور والحجارة الكريمة ، كالثيب والعقيقة والجلود ذات الرائحة الطيبة (١٣٩)، ومن حاصلات جزر سومطرة "جزيرة بإندونيسيا" العود والند ومن البحرين اللؤلؤ ومن الشمال القمح والرقيق والزيت والخمر (١٤٠).

كما تحمل من حاصلات الجزيرة العربية نفسها كالعطور من اليمن والزبيب من الطائف ومعادن الحجاز ولم تكن هناك أية قيود مفروضة على نوعية التعامل الاقتصادى داخل هذه الأسواق ، وكانت جميع العمليات التجارية تمارس بدون تحديد ، فيهود بنى قينقاع على ما يبدو عملوا بالصيرفة حيث كانوا يبيعون الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، ويقومون باستبدال النقود ويظهر أنهم كانوا يستغلون بساطة الناس فلا يظهرون لهم مدى جودة هذه العملة ومدى فرق الوزن بين هذه الدنانير والدراهم (١٤١).

كما ازدهرت حرفة السمسرة ، فهناك من كان يتولى البيع نيابة عن أصحاب البضائع ، وخاصة أهل البادية وكثيراً ما كانوا يستغلون جهل هؤلاء الأعراب فيبخسونهم أو يرفعون السعر أو ينقصونه مضاربة(١٤٢) .

كما يلاحظ أن ظاهرة الاحتكار كانت معروفة فى المدينة ، فكان تجار يثرب يتلقون الركبان خارج المدينة ويشترون منهم ما يحملونه من طعام قبل أن يصلوا به إلى السوق حتى لا يعرف الناس ثمنه الحقيقى ، ثم يجمعونه ليحتكروا به السوق ، وأحياناً يبيعونه فى مكانه قبل أن يصلوا إلي السوق إذا تحقق لهم الربح الذى يطلبونه (١٤٣).

ويتضح أن اليهود كانوا يمارسون مختلف العمليات التجارية المربحة ، فكانت ظاهرة الغش والمخادعة ظاهرة موجودة فى الأسواق ، فكانوا يخلطون الحنطة بالشعير ليكثر كيلها ، ويخلطون التمر الردىء بالجيد ويتركون الإبل والغنم والبقر بحليبها أياماً حتى تبدو كثيرة اللبن ثم يبيعونها (١٤٤). وعرفوا أيضًا البيع بالنسيئة فكان الناس يستلفون فى التمر العام والعامين، ويلاحظ بأن ارلوسل ﷺ أقر هذه المعاملات التجارية ، ولكنه وضع لها قواعد اقتصادية سليمة فقال : " من سلف فى تمر فيسلف فى كيل معلوم ، ووزن معلوم " (١٤٥).

وكانت دائرة هذا النشاط تتسع لتشمل تجار بلاد الشام ، وفى هذا إشعار لدور المدينة التجارى فى هذه الفترة " فكنا نسلّفُ بنبط أهل الشام فى الحنطة والشعير والزيت فى كيل معلوم إلى أجل معلوم " (١٤٦).

وعرفوا الرهن أيضًا حتى أن الرسول ﷺ ، نفسه رهن درعه عند يهودى مقابل مُدَّين من شعير وحين أرسل الرسول ﷺ سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف الذى كان يؤذى الرسول ﷺ ، اشترط عليهم أن يرهنوا شيئًا مقابل ما يريدون من شعير (١٤٧).

ولقد وصل الحسّ التجارى بهؤلاء لدرجة أنهم كانوا يجمعوا شحوم الحيوانات الميتة ويبيعونه لأهميته فى طلاء السفن ودهن الجلود والإنارة (١٤٨).

وكانت الربا مظهراً من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية ، ووسيلة من وسائل التعامل فى المجتمع العربى بعامة ، وفى المدن خاصة ، وبرع به اليهود لدرجة كبيرة ، سواء أكان مع أهل المدينة أم مع القادمين إليها . وكان هذا الربا يصل حداً يتجاوز به على القيمة الفعلية للدّين (١٤٩). وترد فى القرآن الكريم إشارات كثيرة تؤكد على اشتغال هؤلاء اليهود بالربا ، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل بقوله تعالى فى سورة النساء { وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } (١٥٠).

وكانت هذه المعاملات الربوية من الشدة والرسوخ لدرجة أن القرآن الكريم تدرج فى تحريمه ، مما يعكس مقدار تمكنه من المعاملات الاقتصادية اليومية ، ففى البداية نهى القرآن عن الربا الفاحش بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(١٥١). ثم جاء تحريمه القاطع بسورة البقرة { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ } (١٥٢).

أما عن نشاط اليهود الخارجى فى التجارة فلدينا إشارات قليلة ، لا تعطى صورة تفصيلية عن مجمل جوانب ذلك النشاط . وتبقى مجرد افتراضات أكثر منها حقائق ثابتة . ويظهر أن اليهود كانوا يشتركون فى تجارة القوافل المكية المارة فى أراضيهم ، ويبدو أن مشاركتهم كانت فى هذه القوافل فعالة مع أن مصادرنا لا تشير من قريب ولابعيد لأية معاهدة أو اتفاقية عقدت بين التجار المكيين والمدنيين وترد إشارة لأحد هؤلاء التجار اليهود وهو أبو رافع الخيبرى، الذى وصلت شهرته التجارية مرتبة عظيمة وكان يرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام ويستورد منها الأقمشة المختلفة (١٥٣).

ويحاول ولفنسون أن يحصر تجارة البلح والشعير والقمح بهم فى شمال الحجاز (١٥٤)، ولكن هذا لا يمنع أن يكون هؤلاء اليهود تجاراً نشيطين مع المناطق الشمالية ، وتخصصوا فى

بعض السلع التى درت عليهم أرباحًا طائلة كتجارة النبيذ مع بلاد الشام ، والتى يظهر أنهم برعوا بها لدرجة كبيرة (١٥٥).

ولقد شكل بعض هؤلاء اليهود منافسًا خطيرًا للتجارة المكية ، حيث ترد إشارات عن إقامة بعض هؤلاء التجار فى مكة مما يجعلنا نعتقد بأنهم ارتبطوا معهم بتحالفات تجارية لحماية تجارتهم وتوفير عنصر الأمن لهم ، ليتاجروا بكل حرية فكان فى جوار عبد المطلب يهودى يقال له أذينة ، وكان اليهودى يتسوق فى أسواق تهامة بماله فغاض ذلك حربًا فألب عليه فتيانًا من قريش ، وقال هذا العلج يقطع إليكم ويخوض بلادكم كثيرًا من غير جوار ولا خيل " (١٥٦).

إن عدم تجانس التركيبة السكانية فى يثرب بين اليهود وبين العرب أوجدت التنافس بين أمكنتها المختلفة ، وغياب الوحدة السياسية أدى لحرمان يثرب فى أن يكون لها دور مميز فى النشاط التجارى قبل الإسلام ، وربما لو تهيأ لها هذا لكانت منافسًا خطيرًا للتجارة المكية ، وخصوصًا أن مواردها الاقتصادية متنوعة بدرجة تختلف كليًا عن مكة . ونلاحظ أنه فيما بعد حينما توفرت لها هذه الوحدة وهذا التجانس أصبحت تشكل منافسًا خطيرًا للتجارة المكية ، واستطاعت أن تحتل مكانها ، وتحولت إلى مركز الثقل الاقتصادى ، واستطاعت أن تهزم مكة اقتصاديًا قبل أن تهزمها سياسيًا ، وبعد أن استقر المسلمون فى المدينة أخذوا بمزاولة التجارة الخارجية وأخذ تجار من المهاجرين القرشيين أمثال طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن زيد يرحلون إلى الشام ويجلبون منها التجارة (١٥٧).

وتعززت هذه المنافسة حينما بدأت سرايا الرسول ﷺ تعترض القوافل القرشية ، مما شكل تهديدًا كبيرًا لقريش ، وتجارتها ، وكانت بداية لانهيارها كقوة تجارية .

العلاقات الاقتصادية اليهودية :

أ - علاقاتهم الداخلية فى يثرب :

يلاحظ أن اليهود كانوا موجودين فى يثرب قبل مجىء الأوس والخزرج إليها ، والتى لا مجال للخوض فى أسبابها وتفاصيلها ، ولكن على ما يبدو أن هذه الهجرات التى قامت بها هذه القبائل الأزدية كانت أسبابها متعددة ، منها اضطراب أحوال اليمن نتيجة للنزاع السياسى بين القبائل ، وتتابع الغزوات الحبشية عليها منذ القرن الثالث الميلادى ، والخراب الاقتصادى نتيجة لانهيار سد مأرب ، وحدوث سيل العرم (١٥٨) . وأخذت هذه القبائل بالهجرة

باتجاه الشمال ، ومنها قبائل الأوس والخزرج الذين هاجروا للمدينة فى فترة كانت أوج السيطرة فيها لصالح اليهود سياسيًا واقتصاديًا ، وبعد استقرار الأوس والخزرج بدءوا بمحاولة السيطرة على المدينة والقضاء على هذا النفوذ اليهودى الواسع حيث يفهم هذا من رواية صاحب الأغانى : "فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزلوا فى حرار وتفرقوا ، وكان منهم من لجأ إلى عفار فى أرض لا ساكن فيها ، فنزلوا به . ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها ، فكانوا مع أهلها ، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق المعاش ، ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم إلا الأعزاف اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات ، والأموال لليهود ، فلبث الأوس بذلك حينًا" (١٥٩).

ويؤكد هذا السمهودى أيضًا حيث يقول " وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدى اليهود ، والعدد والقوة معهم ، فمكثوا ما شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جوارًا وحلفًا يأمن به بعضهم من بعض ، ويمنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا . ولم يزالوا كذلك زمنًا طويلاً ، وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، وخافت قريضة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنكروا لهم حتى قطعوا الحلف (١٦٠). وتسلطوا على المدينة ، فاستعان الأوس والخزرج بأقربائهم على اليهود ، فغلبوهم ، وصارت الغلبة للعرب على المدينة منذ ذلك العهد(١٦١) .

إن هاتين الروايتين تظهران بأن هذه السيطرة الاقتصادية لليهود على يثرب لم تصمد طويلاً أمام عبقرية الأوس والخزرج الاقتصادية التى تنتمى إلى العقلية اليمانية التى لها باع طويل فى الحضارة ، خصوصًا فى المجال الزراعى ، بحيث انتقل مركز الثقل الاقتصادى تدريجًا لأيدى هؤلاء ، والذين أصبحوا منافسًا خطيرًا لنفوذ اليهود ، مما دفع هؤلاء اليهود لإظهار العداوة لهؤلاء القادمين الجدد .

وتحاول هذه الروايات أن تفسر هذا التغير فى شكل العلاقة تفسيرًا ساذجًا لا يخلو من الطرافة ، ولكنه فى الوقت نفسه يظهر مدى تأذى القبائل العربية من هذه السيطرة اليهودية على يثرب . فتعزو هذه الروايات السبب لوجود ملك يهودى مستبد وظالم ، وكانت لا تهدى عروس من الحيين حتى تدخل على " الفيطون " ملك اليهود فيكون هو الذى يفتضها وتحدثنا الروايات أن أخت مالك بن العجلان – أحد رجال العرب – تزوجت رجلاً من قومها ، وفيما مالك فى النادى إذ خرجت أخته فضلاء فنظر إليها أهل المجلس فشق على مالك ، فدخل

وعنفها فقالت ما يصنع بي غداً أعظم ، أهدى إلى غير زوجي ، فلما أمسى اشتمل على السيف ويدخل متنكراً مع النساء وقتل الفبطون وانصرف لدار قومه ... " (١٦٢).

إن هذه الرواية وعلى الرغم من الضعف البارز فى ثناياها كما يرى ولفنسون فى أنها لا تتناسب مع الطبيعة العربية التى تأبى الانحدار لهذا الدّرك من الوحشية والهمجية ، مع ما هو معروف عنهم من عزة ومنعة ، والتضحية بكل شيء فى سبيل العرض ،وحفظ الشرف ، كما أن يهود الحجاز هم أصحاب دين سماوى ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يمكن أن تسمح لهم أخلاقهم بهذه الأعمال اللاأخلاقية (١٦٣).

إن هذا الموقف من مالك بن العجلان يظهر مدى تنمر العرب من السيطرة الاقتصادية لليهود ، وحدة التنافس الاقتصادى ، خصوصاً التنافس التجارى ، حيث دفع هذا أهل يثرب للاستعانة بالقوى الخارجية ، حيث استعان مالك بأبى جبلة الغسانى وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم ، فقال له أبو جبلة : " والله ما نزل قوم منا بلداً إلا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضى إلى قومه ، وقال له أعلمهم أنى سائر إليهم ، فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبى جبلة ... فأمر ببناء حائر واسع ، فبنى ثم أرسل إلى اليهود أن أبا جبلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق من وجوه القوم إلا أتاه، وجعل الرجل يأتى ومعه خاصته وحشمة ، رجاء أن يحيوهم ، فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالاً من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ، ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود ، ثم أمر حجابه أن يأذنوا لهم فى الحائر ويدخلوهم رجلاً رجلاً ، فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك، ويقتلهم الجند الذين فى الحائر حتى أتوا على آخرهم " (١٦٤).

إن هذه الرواية يتضح من فحواها التناقض الواضح ... فاليهود لا يعقل أن يكونوا من السذاجة بحيث يبادوا بهذا الشكل . كما أن أبا جبلة على رأى ولفنسون لم يكن ملكًا ولا يوجد من ملوك غسان ملكًا بهذا الاسم من سلالة آل جفنه .

ولكنه يرجح أنه من المحتمل أن يكون قائدًا جاء إلى يثرب بإيعاز من أحد ملوك آل جفنة . وربما أرادت الأوس أن تعقد حلفًا مع بعض القبائل اليمانية ، والتى أصولها واحدة ، بسبب أن الحلف المعقود بينهم وبين هؤلاء اليهود ، لا يرضى آمالهم وطموحاتهم ، والتى تتجاوز قناعاتهم السابقة بأن يستمروا عمالاً ومساعدين لليهود فى دوائرهم الزراعية والحركة التجارية(١٦٥).

وتظهر هذه الروايات مقدار التنافس التجارى والاقتصادى بين سكان يثرب والعرب واليهود كما تظهر بوضوح مقدار النفوذ التجارى الواسع الذى وصل إليه اليهود خلال هذه الفترة .

إن سيطرة الأحباش على اليمن ، والمضيية التى لحقت باليهود هناك ، والتحالف اليمانى بين الأوس والخزرج وبين أبناء عمومتهم من آل جفنة فى الشمال فى بلاد الشام ، هى العوامل الأساسية التى أدت إلى تراجع السيادة اليهودية فى شمال الحجاز ، وبدأت كفة السيطرة السياسية تنحاز لصالح القبائل اليمانية .

إن هذا الصراع لم تكن الدولة البيزنطية بعيدة عنه ، وهى التى شجعت الغزو الحبشى الحليف لها . حيث تبدوا هذه الحادثة فى جوهرها صراعًا على النفوذ الاقتصادى ، ومحاولة للهيمنة على طرق التجارة التى تعتبر نجران أحد فروعها المهمة والتى تتوزع منها المواصلات إلى الخليج العربى والعراق ، عبر وادى الدواسر ، واليمامة أو إلى الشام عبر الخط البرى التقليدى الذى كان يمر فى المدينة .

ويرى إبراهيم بيضون بخصوص العلاقة بين يهود الحجاز واليمن فى هذه الفترة أن الفصل بين الإقليمين فى هذه المرحلة لا يتفق مع طبيعة التطورات التى شهدتها المنطقة الجنوبية منذ بدايات القرن السادس الميلادى ، ولعل أبرز مؤشرات هذه العلاقة هو اضطهاد حملة الحبشة لليهود والمتهودين فى اليمن ، دفعت بقسم كبير منهم على الأرجح للهجرة نحو الحجاز ، حيث نزلوا فى أحياء خاصة فى يثرب ، وبعض المراكز الأخرى ، أو فى نطاق جاليات تجارية تزلت فى المدن المزدهرة كالطائف أو التجمعات الزراعية الخصبة فى هذا الإقليم(١٦٦).

إن هذا التحول فى شكل العلاقة كان فى مصلحة عرب يثرب ، وأتاح لهم المجال للظهور فى قوة سياسية منافسة لليهودفى المدينة ، وأسهم هذا فى زيادة عزلة اليهود ، وساعد على زيادة الشقاق والخلاف بين طوائفهم المختلفة ، والتى تعزز انقسامها بعد هذا التحول فى وضعهم السياسى ، وأخذت هذه الطوائف تحاول الانحياز لجانب أحد القبائل العربية فى المدينة ، والتحالف معها على حساب الطوائف الأخرى .

إن هذا التراجع فى مكانة اليهود لا يعنى بالضرورة أنهم فقدوا مكانتهم كاملة وفقدوا سيادتهم الاقتصادية ، ولكنهم حافظوا على هذه المكانة حتى ظهور الإسلام ، وساعدهم فى ذلك الخلافات والانقسام الذى حل بالقبيلتين الرئيسيتين فى يثرب الأوس والخزرج ، حيث لا يمكن أن يبرأ اليهود من أنهم لعبوا الدور الأكبر فى خلق هذا الانقسام ، وإذكاء نار الفتنة بين

القبائل العربية ، ويمكننا أن نفهم دوافع القتال بأن العرب كانوا باستمرار يسعون لتحطيم السيطرة الاقتصادية لليهود على المدينة ، فهذا الزعيم الخزرجي عمرو بن النعمان البياضي يعدُ قومه في يوم بُعاث : " والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريضة والنضير على عذب الماء وكريم النخل " (١٦٧).

إن افتقار المدينة لزعامة بارزة ، كما هو الحال في مكة توظف دورها في خدمة مصالحها الاقتصادية في داخل الحجاز وخارجه (١٦٨)، وعدم التجانس السكاني ، والتوتر السائد بين الجماعات اليهودية وغير اليهودية(١٦٩) ، هو الذى حال دون بروز المدينة كما هو الحال فى مكة، مع أنها محطة مثلها على طريق القوافل إلى الشام ، وحتى أنها تملك من تنوع مصادر الثروة الاقتصادية أكثر من مكة .

وإن هذا التفسخ السياسى فى المدينة هو الذى دفع سكانها من العرب لأن يسارعوا بالترحيب بالرسول ﷺ ودعوته إلى المدينة ، ومن منطلق التنافس الاقتصادى والخوف على المصالح ، يمكن فهم موقف اليهود ومقاومتهم للدعوة الإسلامية الجديدة ، التى هددت نفوذهم الى كانوا يتمتعون به قبل مجيء الرسول ﷺ ، وشعورهم بأنهم سيفقدونه حيث دفعهم هذا لإعلان المقاومة للإسلام منذ اليوم الأول لذلك كان لزامًا على الرسول ﷺ ليرسى دولته الجيدة من التخلص من هذا المنافس الأول فى المدينة .

ب – علاقاتهم مع المناطق المجاورة :

يلاحظ أن بعض الباحثين لا يستبعدون وجود شبكة تجارية يهودية مزدهرة فى هذا الوقت حيث يفسر هذا فى رأيهم عدم وجود عمليات تجارية كبيرة بين مكة والمدينة " (١٧٠). ولكن هذا الرأى لا يوجد من الشواهد والدلالات ما يؤيده مما يدفعنا للافتراض بأن اليهود كغيرهم من القبائل الموجودة على هذا الطريق التجارى الذى سيطر عليه التجار القرشيون ، فكانت تقدم خدمات الأمن والحماية ، وتسهم فى العمليات التجارية المتعلقة بذلك ، سواء أكان ذلك أثناء مرور القوافل فى المدينة ، حيث يساعد هذا على قيام حركة تجارية نشطة ، أم بالاشتراك فعليًا بهذه التجارة ومرافقتها .

ومما يؤسف له أن الإشارات المتوفرة لدينا عن علاقة مكة ويثرب قبل الإسلام قليلة ، ولا تكوِّن بمجموعها رأيًا نستطيع الاستدلال بها عليه ، فقريش على ما تشعرنا هذه المصادر كانت تحترم اليهود ، وترى أنهم أهل الكتاب الأول (١٧١)، وكان اليهود بالمقابل يجلون القرشيون ويعتبرونهم سادة العرب وملوك الناس (١٧٢).

وترد بعض الإشارات عن صلة بعض اليهود بالمكيين ومحالفتهم لهم ، وإقامتهم بمكة للاتجار (١٧٣). ولكن هذه الإشارات لا تعطينا مبرراً نستطيع به أن نفترض بأنه كان هناك وجود واسع لليهود في مكة . ويرى جواد علي " أنه من المرجح أنه لم تكن في مكة جالية يهودية كبيرة ، حتى لم يرد في الآيات المكية إشارات لوجود اليهود ، للاحتكاك بينهم وبين الرسول ﷺ ، ومن المحتمل أن المستقرين منهم في مكة لا يتجاوزون أفراداً قلائل " (١٧٤).

كما لا يستبعد أن يكون لليهود علاقات مع الطائف التي كان بها قوم من اليهود طردوا من اليمن أو يثرب ، وجاءوا إلى الطائف وسكنوا بها ، ودفعوا الجزية لسادتها ، ومن بعضهم اشترى معاوية أمواله بالطائف (١٧٥).

كما تذهب مصادرنا بعيداً حيث ترى أن بدايات الزراعة في الطائف كانت على أيدي هؤلاء اليهود " وكان قصي قد مر بيهودية بوادي القرى حين قتل المصدق فأعطته قضبان كرم فغرسها بالطائف فأطعمت ونفعته " (١٧٦).

ولا يستبعد أيضاً أن يكون لليهود علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام حيث كانوا يجلبون من هناك الحبوب والخمور ، ويبدو أنه كانت هناك زيارات متبادلة بينهم وبين تجار بلاد الشام، فترد إشارات من نزول الساقطة في الجاهلية والإسلام بالمدينة ، يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش وما يكون في الشام " (١٧٧). إن ندرة الإشارات المتوفرة عن النشاط اليهودي الخارجي والعلاقات الخارجية قبل الإسلام تجعل الصورة التي نكونها عن ذلك باهتة كثيراً .

الخاتمة :

المحصلة النهائية التي يمكن لنا أن نستخلصها من ملاحظتنا للنشاط اليهودي في الحجاز هو أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل غيرهم من سكان الحجاز مارسوا الأعمال الاقتصادية المألوفة وخصوصاً العمل في الزراعة ، حيث إن اليهود استوطنوا أصلاً في أهم الواحات الزراعية في منطقة الحجاز وسيطروا على هذه الواحات سيطرة تامة إلى الحد الذي تعتبرهم مصادرنا بأنهم أول من سكن هذه البلاد ، وقام بين هذه القبائل اليهودية والقبائل العربية التي جاورتهم خصوصاً في يثرب تنافس اقتصادي واسع قد يشعرنا بتأذي هذه القبائل العربية التي هاجرت من اليمن بعد خراب سد مأرب من هذه السيطرة الاقتصادية لليهود في الحجاز ، ويظهر أنهم استعانوا بقوى خارجية للحد من هذه السيطرة .

إن الموقع الممتاز على طرق القوافل التجارية القادمة من اليمن إلى شمال بلاد الشام لهذه الواحات الزراعية التى استوطن بها اليهود سواءً أكان فى يثرب أم خيبر أم فدك أم وادى القرى أم تيماء جعلت اليهود أيضًا يلعبوا دورًا تفترض أنه لم يكن قليلاً فى النشاط التجارى فى الحجاز ويبدو أنهم كانوا يسهمون فى عمليات البيع والشراء والتبادل التجارى مع هذه القوافل التجارية ولا يستبعد أنهم عقدوا حلفًا مع قريش ، شاركوا بموجبه فى هذه القوافل التجارية القرشية . ولا يستبعد أنهم أقاموا علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام واليمن مثلهم مثل تجار مكة الآخرين . ولكن تبقى معلوماتنا عن هذا النشاط التجارى اليهودى قليلة ، لا تكون بمجموعها صورة واضحة المعالم ، وتظل افتراضات لها ما يبررها من الإشارات الواردة فى مصادرنا ، ويمكن القول إن عداء هؤلاء اليهود للدعوة الإسلامية حال دون وصول أخبارهم إلينا ولكننا نستطيع القول بأن اليهود مارسوا مختلف العمليات الاقتصادية ، التى كانت تمارس فى تلك الفترة . ولا نستطيع أن نحصرهم فى ممارسة مهن معينة بالرغم من أنهم تفوقوا ببعض منها ، كما لم تكن ممارسة العمليات الربوية حكرًا على هؤلاء اليهود ، بل كانت ممارسات عامة فى زمانهم برزوا فى بعض منها .

وأخيرًا لابد من القول بأننى حاولت فى هذا البحث أن أقدم صورة واضحة المعالم لمختلف جوانب النشاط الاقتصادى اليهودى ، وصورة مبسطة عن علاقات هؤلاء اليهود الداخلية فى يثرب والتى امتازت بالتنافس والنزاع سواء أكان قبل الإسلام أم بعده . والتى لا تخلو من دوافع اقتصادية ، وتظهر عدم الرضا من قبل القبائل العربية على هذا التفوق اليهودى وهذه السيطرة على الأراضى الخصبة فى يثرب ، وما يلعبه هؤلاء اليهود من دور فى إذكاء نار الخلاف بين القبيلتين الأساسيتين فى يثرب (الأوس والخزرج) حتى لا توحد وجهات نظرها فى مقاومة اليهود واستمر هذا التنافس حتى استطاع الرسول أن يجلى هؤلاء اليهود عن يثرب، وأكمل خطوته هذه عمر بن الخطاب حيث أبعدهم عن الحجاز كليًا .

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية بين اليهود والمناطق المجاورة فتبقى ناقصة إلى حد كبير لعدم توفر الإشارات التى تدعم افتراضنا بوجود مثل هذه العلاقات ويبقى البحث فى تاريخ الوجود اليهودى فى الحجاز وفعالياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية موضوع بحاجة للدراسة والعناية للخروج بصورة متكاملة عن يهود الحجاز قبل الإسلام وبعده .

الهوامش

١ - المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح ، (ت٣٧٥هـ) ، " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " ، بيروت ، مكتبة خياط ١٩٠٦م ، ص ٦٩ . ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبى عبد الله ، (ت ٦٢٦هـ) ، " معجم البلدان " ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م ، جـ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

٢ - الاصطخرى ، إبراهيم بن محمد الفارسي ، (ت ٣٥٠ هـ) ، " المسالك والمالك " ، تحقيق محمد جابر ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦١م ، ص ٢١ .

٣ - ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، (ت-٣٠٠هـ) ، " المسالك والممالك " ، ليدن ، مطبعة بريل ، سنة ١٩٦٧م ، ص ١٢٨ .

٤ - ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الموصلى ، (ت٣٦٧هـ) ، " صورة الأرض "، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٣٨ . ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح ، يوسف بن يعقوب ، ت (٦٩٠هـ) ، " صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المتبصر " ، تصحيح أوسكر لوفغرين ، ليدن ، بريل، ١٩٥١م ، جزءان ، جـ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٥ - البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) ، " معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع " ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٤ أجزاء ، ١٩٤٥م ، جـ١ ، ص ١١. ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .

٦ - الشريف ، أحمد إبراهيم ، " مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول " ، دار الفكر العربي ، دار وهدان للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م ، ص ١٣ .

٧ - القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (١٢٨٣هـ) ، " آثار البلاد وأخبار العباد " ، بيروت ، دار صادر، ١٩٦٠م ، ص٨٤ .

٨ - المسعودى ، على بن الحسن ، ت (٣٤٦هـ) ، " مروج الذهب ومعادن الجوهر " ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٥م ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

٩ - الهمداني ، الحسن بن أحمد ، ت (٣٣٤هـ) ، " صفة جزيرة العَرب " ، تحقيق محمد عبد الله النجداوى، القاهرة ١٩٥٣م ، ص ٥٠ .

١٠ - البكرى ، " معجم ما استعجم " جـ١ ، ص ٩ .

١١ - الحورانى ، جورج فضلوا ، " العرب والملاحة فى المحيط الهندى " ، ترجمة يعقوب بكر ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ط١ ، ١٩٥٨م ، ص ٥٨ .

١٢ - الشريف ، أحمد إبراهيم ، مكة والمدينة ، ص ١٦ - ١٧ .

١٣ – اليعقوبي ، أحمد بن أبي واضح ، ت (٢٩٢هـ) ، " تاريخ اليعقوبي " ، بيروت دار صادر ، مجلدان ، جـ٢ ، ص ٥٢ .

١٤ – السمهودي ، نور الدين علي بن السيد الشريف أبو المحاسن أحمد الشافعي ، ت (٩١١هـ) ، " وفا الوفا بأخبار دار المصطفى " ، مطبعة الآداب والمؤيد ، مصر ، ١٣٢٦هـ ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

١٥ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٢ .

١٦ – السامرائي ، خليل إبراهيم ، " المظاهر الحضارية للمدينة المنورة وعصر النبوة " ، منشورات مكتبة البسام ، الموصل ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، ص ١٧ .

١٧ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٠٤ – ٣٠٩ .

١٨ – علي ، جواد ، " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " ، دار العلم للملايين ، مكتبة النهضة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٠م ، جـ٦ ، ص ٥١٣ .

١٩ – البلاذري ، أبو الحسن يحيى بن جابر ، ت (٢٧٩هـ) ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨م ، ص ٢٩ .

٢٠ – الأصفهاني ، أبو الفرج ، " كتاب الأغاني " ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٠م ، جـ٢٢ ، ص ٩٩ .

٢١ – ولفنسون ، إسرائيل ، " تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام " ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٢٧م ، ص ١٠ .

٢٢ – الطبري ، محمد بن جرير – ت (٣١٠هـ) ، " تاريخ الرسل والملوك " ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، جـ١ ، ص ٢٨٩ ، السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٦٠ .

٢٣ – بيضون ، إبراهيم ، " الحجاز والدولة الإسلامية " ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م ، ص ٤١ – ٤٢ .

٢٤ – ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٧ .

٢٥ – ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٨٢ .

٢٦ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

٢٧ – أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، جـ٢٢ ، ص ٩٩ .

٢٨ – ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٣٤ . ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر ، ت (٢٩٠هـ)، " الأعلاق النفيسة " دي غويا ، ليدن ، ١٨٩١م ، ص ٦١ . السمهودي ، " وفا الوفا " جـ١ ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

٢٩ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٧ .

٣٠ – ابن سعد ، محمد بن سعد ، ت(٢٣٠هـ) ، " الطبقات الكبرى " دار بيروت ، دار صادر بيروت ١٩٥٧م، بلا طبعة ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

٣١ – السامرائي ، المظاهر الحضارية للمدينة ، ص ١٨ .

٣٢ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٥ . الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٦ .

٣٣ - الواقدى ، المغازى ، جـ٢ ، ص ٧٠٣ .

٣٤ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٠٩ .

٣٥ - البكرى ، معجم ما استعجم ، جـ١ ، ص ٣٢٧ .

٣٦ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٣٢٨ .

٣٧ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

٣٨ - ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ١ ، ص ٢٧٦ .

٣٩ - المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

٤٠ - المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٩ .

٤١ - البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٦٣ . ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ١٠ .

٤٢ - البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

٤٣ - جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٦ ، ص ٥٣٠ .

٤٤ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٨٣ .

٤٥ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٩١ .

٤٦ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٨٢ .

٤٧ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٢٠ .

٤٨ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢١ .

٤٩ - المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢٥ .

٥٠ - ابن قتيبة ، أبى محمد بن عبد الله بن مسلم ، ت (٢٧٦هـ) ، المعارف ، تحقيق ، ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٨٣ .

٥١ - البخارى ، صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، جـ٣ ، ص ١١١ .

٥٢ - السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٢١ - ١٢٧ .

٥٣ - أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى ، جـ١٣ ، ص ١٨ .

٥٤ - الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٥٧ .

٥٥ - البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦٣ - ١٣٧ . الكتانى ، عبد الحى بن عبد الكبير الكتانى ، " نظام الحكومة المدنية المسمى التراتب الإدارية " ، تحقيق حسن جعين ، بيروت ، جزءان ، دار الكتاب العربى ، جـ١ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٣ . السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٥٥ .

٥٦ - البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٧٨ .

٥٧ – الخزاعي التلمساني ، أبو علي الحسن بن محمد ، ت (٧٨٩هـ) ، " تخريج الدلالات السمعية " ، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١م ، ص ٦٦٩ .

٥٨ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٧ .

٥٩ – الواقدي ، محمد بن عمر ، ت (٢٠٧هـ) ، " كتاب المغازي " ، تحقيق مارسدن جوينز ، عالم الكتب، بيروت ، (بلا طبعة وتاريخ) ، جـ١ ، ص ٢٨٩ .

٦٠ – البلاذري ، فتوح ، ص ٣٢ .

٦١ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٩٠ .

٦٢ – البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٦ .

٦٣ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٧٢٩ .

٦٤ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

٦٥ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

٦٦ – ياقوت الحموي ، معجم ، جـ٢ ، ص .

٦٧ – البخاري ، صحيح ، جـ٥ ، ص ١٧٨ .

٦٨ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٩٣ .

٦٩ – ابن شبه ، تفاريخ المدينة المنورة ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

٧٠ – الشريف ، أحمد ، " دور الحجاز في الحياة السياسية والعامة في القرنين الأول والثاني للهجرة " ، ص ٦٠ . سلام ، شافعي محمود سلام ، " النشاط الزراعي في خيبر " ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ٢٦ .

٧١ – ابن كثير ، السيرة النبوية ، جـ٣ ، ص ٣٨٣ .

٧٢ – البكري ، معجم ما استعجم ، جـ٢ ، ص ٥٢٣ .

٧٣ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٩٣ .

٧٤ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ .

٧٥ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٥٨ .

٧٦ – سلام ، النشاط الزراعي ، ص ٢٧ .

٧٧ – السهيلي ، الروض الأنف ، جـ٦ ، ص ٥٢٧ .

٧٨ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٨ .

٧٩ – ابن قتيبة ، (ت ٢٧٦هـ) ، " عيون الأخبار " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، جـ٣ ، ص ٢٧٠ .

٨٠ – عروة بن الزبير ، " مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، ص ١٩٥ . الحلبى ، " إنسان العيون وسيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية " ، بيروت ، ١٩٨٠م ، جـ٢ ، ص ٧٥١ .

٨١ – ابن الفقيه الهمداني ، كتاب البلدان ، ص ٢٥ .

٨٢ – ابن هشام ، عبد الملك ، ت (٢١٣هـ) ، " السيرة النبوية " ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ٤ أجزاء، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، جـ٢ ، ص ١٦٤ .

٨٣ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١٠٧ .

٨٤ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٩ .

٨٥ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٨٥ – ٨٧ .

٨٦ – ابن هشام ، السيرة ، جـ٣ ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ .

٨٧ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٧ .

٨٨ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٥٩ – ١٦٥ . الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٦ . هيكل ، فى منزل الوحى ، ص ٦١٨ .

٨٩ – السامرائى ، المظاهر الحضارية للمدينة ، ص ١٩ .

٩٠ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١١٦ .

٩١ – سورة الحشر ، آية ١٤ .

٩٢ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ١٥٨ . العلى ، صالح أحمد ، خطط المدينة المنورة ، مجلة العرب ، عدد ١٢ ، أيلول ١٩٦٧م ، الرياض ، ص ١٠٧٤.

٩٣ – الواقدى ، المغازى ، جـ١ ، ص ١٨٤ . الطبرى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٨٧ .

٩٤ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

٩٥ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٤ .

٩٦ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

٩٧ – الطبرى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٥٠٥ – ٥٦٨ .

٩٨ – البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٨ – ٣٩ .

٩٩ – ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٤٩ .

١٠٠ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

١٠١ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٥ .

١٠٢ – المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ، (ت ٨٤٥هـ) ، إمتاع الأسماع ، تصحيح محمود محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٤١م ، جـ١ ، ص ٢٤٥ .

١٠٣ – الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ص ١١٥ – ١١٦ .

١٠٤ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب ، ص ٤٠٤ .

١٠٥ – أحمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٧ .

١٠٦ – أحمد با شميل ، غزوة بني قريضة ، ص ٤٧ .

١٠٧ – الواقدي ، المغازي ، جـ١ ، ص ١٢٨ – ١٣٩ .

١٠٨ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٧٧ .

١٠٩ – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، جـ٢١ ، ص ٦٢ .

١١٠ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٦٧١ .

١١١ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٧٣ .

١١٢ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٩٨ .

١١٣ – الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ص ٤٠١ .

١١٤ – المصدر نفسه ، ص ٦٧٦ – ٦٧٧ .

١١٥ – الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٥١٠ .

١١٦ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٤٢ .

١١٧ – ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص ٥٤ .

١١٨ – ابن سعد ، الطبقات ، جـ١ ، ص ٢١٢ . البخاري ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦١ .

١١٩ – الخزاعي ، الدلالات السمعية ، ٦٦٥ – ٦٦٨ .

١٢٠ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٧٨ .

١٢١ – سالم ، السيد عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب والدولة العربية ، جـ٢ ، ص ١٤٠ .

١٢٢ – بيضون ، إبراهيم ، دور الحجاز ، ص ٢٤ . جواد علي ، المفصل ، جـ٧ ، ص ٣٩٢ .

١٢٣ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٤ .

١٢٤ – القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ . سورة النساء ، الآية ٢٩ . سورة التوبة ، الآية ٢٤١ . سورة النور ، الآية ١٦٠ . سورة الجمعة ، الآية ٩ – ١١ .

١٢٥ – محمد أحمد باشميل ، غزوة بني قريضة ، ص ٤٥ – ٤٧ .

١٢٦ – الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٧٩ .

١٢٧ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ . العلي خطط المدينة ، ص ١١٦٣ – ١١٦٥ .

١٢٨ – السمهودي ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ٧٤٧ – ٧٤٨ . الكتاني ، التراتب الإدارية ، جـ٢ ، ص ١٦٣ . العلي ، خطط المدينة ، ص ١١١٨ .

١٢٩ – ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٧٩ .

١٣٠ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١٢ – ١٣ .

١٣١ – الواقدى ، المغازى ، جـ١ ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

١٣٢ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١٩ – ٢٠ .

١٣٣ – العلى ، خطط المدينة المنورة ، ص ١١١٨ .

١٣٤ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ٢ ، ص ٧٤٧ – ٤٧٨ .

١٣٥ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٥٤٤ – ٥٤٥ . البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦٢ .

١٣٦ – السامرائى ، المظاهر الحضارية ، ص ٢٦ .

١٣٧ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٦ .

١٣٨ – عوض الله ، أحمد أبو الفضل ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، ص ١٣١ – ١٣٢ .

١٣٩ – الطبرى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٥٧ . الواقدى ، المغازى ، جـ١ ، ص ٦٥ .

١٤٠ – عوض الله ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٣٢ .

١٤١ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٦٨ . الخزاعى ، الدلالات السمعية ، ص ٦٤٤ .

١٤٢ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ٧١ – ٧٢ .

١٤٣ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٧١ – ٧٣ .

١٤٤ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٥٤٦ .

١٤٥ – البخارى ، صحيح ، جـ٣ ، ص ١١٠ .

١٤٦ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١١٢ .

١٤٧ – المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

١٤٨ – المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١١٠ .

١٤٩ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٨ .

١٥٠ – القرآن الكريم ، سورة النساء ، الآية ١٦١ .

١٥١ – القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية ١٣١ .

١٥٢ – القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ – ٢٧٦ .

١٥٣ – البخارى ، صحيح ، جـ٢ ، ص ١١٦ .

١٥٤ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٨ .

١٥٥ – جواد على ، المفصل ، جـ٦ ، ص ٥٣٥ – ٥٣٦ .

١٥٦ – البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ٧٢ – ٧٣ .

١٥٧ – ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٧ . السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ١٧٤ .

١٥٨ – الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣١٥ .

١٥٩ – أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٩ ، ص ٩٦ .

١٦٠ – السمهودى ، وفا الوفا ، جـ١ ، ص ٨٣ .

١٦١ – المدنى ، توفيق ، المجتمع المدنى والدولة السياسية فى الوطن العربى ، مجلة دراسات ١٩٩٧ ، من موقع File : IIA:]1997. HTM .

١٦٢ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٨٤ .

١٦٣ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٨٤ .

١٦٤ – الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٩ ، ص ٩٧ .

١٦٥ – ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ٨٤ .

١٦٦ – بيضون ، دور الحجاز ، ص ٤٢ .

١٦٧ – الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٥ ، ص ١٥٤ – ١٥٩ .

١٦٨ – بيضون ، دور الحجاز ، ص ٤٤ .

١٦٩ – محمد عبد الحى شعبان ، تاريخ صدور الإسلام والدولة الأموية ، ص ٢٠ .

١٧٠ – المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

١٧١ – ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٣٣٠ .

١٧٢ – المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٤٣١ .

١٧٣ – ابن سعد ، جـ١ ، ص ١٤٤ . البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

١٧٤ – جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٢٣٥ .

١٧٥ – البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٨ .

١٧٦ – البلاذرى ، أنساب ، جـ١ ، ص ٢٧ .

١٧٧ – الواقدى ، المغازى ، جـ١ ، ص ١٦ .

المصادر والمراجع

أ - المصادر :

١ - الأصفهاني ، أبو الفرج علىّ بن الحسين (٣٥٦ هـ / ٩٦٦م) : كتاب الأغاني ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار الثقافة ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٦٠م.

٢ - الاصطخرى ، إبراهيم بن محمد الفارسى ، ت (٣٥٠ هـ / ٩٦١م) : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٣ - البخارى ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) : صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى بيروت ، لبنان .

٤ - البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، ت (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٤ أجزاء ، ١٩٤٥م.

٥ - البلاذرى ، أبى الحسن يحيى بن جابر ، ت (٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) :

- فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م .

- أنساب الأشراف ، الجزء الأول تحقيق محمد حميد الله ، معهد المخطوطات العربية ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٩م.

٦ - الحلبى ، ت (١٠٤٤ هـ / ١٦٣٥م) : إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية " ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ، الجزء الثانى .

٧ - ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حوالى ٣٠٠هـ / ٩١٢م) : المسالك والممالك ، بغداد مكتبة المثنّى .

٨ - الخزاعى التلمسانى ، أبو على الحسن بن محمد، ت (٧٨٩هـ / ١٣٨٧م) : تخريج الدلالات السمعية ، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨١م .

٩ - ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى ، ت (٣٦٧ هـ / ٩٧٧م) : صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

١٠ – الديار البكري ، حسن بن محمد بن الحسن ، ت (٩٦٦هـ / ١٥٥٨م) : تاريخ الخميس، الطبعة الأولى ١٣٠٢هـ ، القاهرة ، مطبعة عثمان عبد الرازق ١٨٨٤م .

١١ – ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر ، ت (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) : الأعلاق النفيسة ، دي غويا ، لندن ١٨٩١م .

١٢ – ابن الزبير ، عروة ، ت (٩٣ هـ / ٧١١م) : " مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم"، جمع وتحقيق محمد الأخطي ، ط١ ، منشورات مكتبة التربية العربية لدول الخليج ، الرياض (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

١٣ – ابن سعد ، محمد بن سعد ، ت (٢٣٠هـ / ٨٤٥م) : الطبقات الكبرى ، دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧م.

١٤ – السهيلي ، ت (٥٨١ هـ / ١١٨٥م) : " الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام " ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١١٧٠م ، الجزء السادس .

١٥ – السمهودي ، نور الدين علي بن السيد الشريف الشافعي ، ت (٩١١هـ / ١٩٧٩م) : وفا الوفا ، بـخبار دار المصطفى ، مطبعة الآداب والمؤيد ، مصر ١٣٢٦هـ .

١٦ – ابن شبة ، ت (٢٦٢ هـ / ٨٧٥م) : " تاريخ المدينة المنورة " ، أربعة أجزاء ، تحقيق فهيم شلتوت ، دار الأصفهاني ، جدة ، (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م) .

١٧ – الطبري ، محمد بن جرير ، ت (٣١٠ هـ / ٩٢٣م) : " تاريخ الرسل والملوك " ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف (بدون تاريخ) .

١٨ – ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم ، ت (٢٧٦ هـ / ٨٨٩م) :

– المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩م.

– " عيون الأخبار " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م.

١٩ – القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، ت (٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت دار صادر ١٩٦٠م .

٢٠ – الكتانى ، عبد الحي بن عبد الكبير ، ت (١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) : نظام الحكومة المدنية المسمى التراتيب الإدارية ، بيروت ، تحقيق حسن جعين ، جزءان دار الكتاب العربى .

٢١ – ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر ، ت (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) : البداية والنهاية فى التاريخ ، دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ١٩٣٢م.

٢٢ – ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ، ت (٦٩٠هـ / ١٢٩١م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المتبصر ، تصحيح أوسكار لوففرين ، ليدن بريل ، جزءان ١٩٥١م.

٢٣ – المسعودى على بن الحسن ، ت (٣٤٦ هـ / ٩٥٧م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٥م.

٢٤ – المقدسى ، محمد بن أحمد بن أبى بكر البشارى ، ت (٣٧٥ هـ / ٩٨٥م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بريل ، ١٩٠٦م.

٢٥ – المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ، (٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) : إمتاع الأسماع ، تصحيح محمود محمد شاكر ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٤١م.

٢٦ – ابن هشام ، عبد الملك ، ت (٢١٨ هـ / ٨٣٣م) : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ٤ أجزاء ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

٢٧ – الهمدانى ، الحسن بن أحمد ، ت (٣٣٤ هـ / ٩٤٦م) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد عبد الله النجدى ، القاهرة ، ١٩٥٣م.

٢٨ – الواقدى ، محمد بن عمر ، ت (٢٠٧ هـ / ٨٢٢م) : كتاب المغازى ، تحقيق مارسدن جونز ، ٤ أجزاء ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون طبعة وتاريخ .

٢٩ – ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبى عبد الله ، ت (٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م.

٣٠ – اليعقوبي ، أحمد بن أبي واضح ، ت (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) : تاريخ اليعقوبي ، مجلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.

ب – المراجع

١ – باشميل ، محمد أحمد : غزوة بني قريظة ، الطبعة الأولى ، دار الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦م.

٢ – بيضون ، د. إبراهيم : الحجاز والدولة الإسلامية ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م.

٣ – الحوراني ، جورج فضل : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، في العصور القديمة ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٤ – سالم ، السيد عبد العزيز :

– تاريخ العرب والعصر الجاهلي ، دار النهضة العربية ، مصر ، الطبعة الأولى، ١٩٧١م .

– دراسات في تاريخ العرب والدولة العربية .

٥ – السامرائي ، خليل إبراهيم : المظاهر الحضارية للمدينة المنورة وعصر النبوة ، منشورات البسام ، الطبعة الأولى ، الموصول ، ١٩٨٤م.

٦ – سلام ، سلام شافعي محمود ، " النشاط الزراعي في خيبر في الجاهلية وحتى نهاية عهد عمر بن الخطاب " ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م.

٧ – الشريف ، أحمد إبراهيم :

– دور الحجاز في الحياة السياسية والعامة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

– مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، دار الفكر العربي ، دار وهران للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م.

٨ – شعبان ، محمد عبد الحي : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، الدار المتحدة للنشر والتوزيع .

٩ – العقيلي ، محمد أرشيد : اليهود في الجزيرة العربية ، الطبعة الوطنية ، عمان ، ١٩٨٠م.

١٠ – علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، مكتبة النهضة بغداد ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠م.

١١ – عوض الله ، أحمد أبو الفضل : مكة في عصر ما قبل الإسلام ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨م.

١٢ – هيكل ، محمد حسين : في منزل الوحي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٥م.

١٣ – وات ، مونتفجري : محمد في المدينة ، تعريب سفيان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، بدون طبعة .

١٤ – ولفنسون ، إسرائيل : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبعة الاعتماد ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٧م.

جـ – الدوريات :

١ – العلي ، صالح أحمد : خطط المدينة المنورة ، مجلة العرب ، عدد ١٢ ، أيلول ١٩٦٧م ، الرياض .

٢ – المدني ، توفيق : المجتمع المدني والدولة السياسية في الوطن العربي ، مجلة دراسات ١٩٩٧م ، (File:11A:]1997.htm) .

د. يحيى بن حمزة الوزنة السليماني (*)

ملامح من حضارة دمشق
(من الفتح الإسلامي حتى العصر الأموي)

تمهيد : دمشق قبل الفتح الإسلامي :

أخذ الطابع العربي يسود دمشق منذ حكمها الأنباط ، فتوالت عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية التي استقرت في المنطقة المحيطة بها ، وظلت على هذه الحال حتى قضى الإمبراطور الروماني تراجان سنة ١٠٥م على إمارة الأنباط ، واستولى عليها(١) طمعًا في السيطرة على الطريق التجاري الذي يمر بها(٢) ولم يتخذ الرومان هذه المدينة حاضرة بسبب تعرضها لغارات القبائل العربية الضاربة في نواحيها (٣).

وقد عمد الرومان فيما بعد إلى إضعاف الإمارات العربية بالشام والقضاء على نفوذها ، إذ غدا استقلالها خطرًا يهدد سلامة إمبراطوريتهم ، وتجلت هذه السياسة مع إمارة تدمر التي خالفت روما ، ونفذت سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أذينه حاكم تدمر في طرد شابور الأول الفارسي من الشام سنة ٢٦٥م . ومنحه الإمبراطور الروماني أوريان لقب " حاكم الشرق " (Dux Orientis) اعترافًا بجهوده وخدماته ، غير أن هذه الإمارة لم تستمر طويلا ، فقد قضى عليها الرومان سنة ٢٧٣م(٤).

---

* قسم التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الشريعة – جامعة أم القرى .

وبينما كان الرومان يعملون على القضاء على نفوذ الإمارات العربية فى بلاد الشام الواحدة بعد الأخرى ، كانت قبيلة أخرى(٥) تدعم لنفسها على أنقاض إمارتى الأنباط وتدمر ، تقيم دولة فى الجنوب الشرقى من دمشق (٦).

كانت بادية الشام أرضًا عربية من أقدم الأزمنة ، فوفد إليها بعض القبائل من البادية ، كما هاجر إليها الضجاعمة (٧)، ونزلوا بالبلقاء وظلوا بها ، إلى أن قدم عليهم الغساسنة ، فطالبهم الضجاعمة بالإتاوة ، وظل الغساسنة يؤدون الإتاوة للضجاعمة حتى تغلبوا عليهم ، وأنشئوا لأنفسهم دولة عرفت بدولة الغساسنة ، واتخذ الغساسنة أكثر من عاصمة لأن – حياتهم كانت غير مستقرة ، ومن عواصمهم بُصرى(٨) وجلق (جنوبى حوران) والجابية (٩).

زاد الاهتمام بمدينة دمشق فى عهد الدولة البيزنطة ، لأن الفرس كانوا يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، فاتخذ البيزنطيون من الغساسنة – الذين كانوا يقيمون فى منطقة دمشق والصحراء القريبة منها – حلفاء لهم لحماية حدود دولتهم من خطر الفرس وغارات البدو . وقد أدت هذه السياسة إلى تقوية الطابع العربى فى دمشق ، فغدت محط أنظار العرب فى الجاهلية يفدون إليها للتجارة (١٠).

حالف الروم الغساسنة على أن يمدوهم بأربعين ألفًا إذا هاجمهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفًا إذا حاربهم الفرس . واعتنق الغساسنة – تحت تأثير ما بينهم وبين البيزنطيين من علاقات المسيحية ، غير أنهم لم يتبعوا المذهب الملكانى – مذهب الدولة البيزنطية – بل اعتنقوا المسيحية على المذهب المنوفستى السائد فى سورية .

كان الحارث الثانى بن جبله (٥٢٩ – ٥٦٩م) من أعظم أمراء الغساسنة شأنًا ، وقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارث إلى مرتبة الملوك ، وبسط سلطانه على كافة القبائل العربية فى بلاد الشام .

قامت بين الغساسنة والمنذر بن ماء السماء – أمير الحيرة – حرب لادعائه ملكية الطريق الممتد من دمشق إلى ما بعد تدمر ، وأوعز كسرى سرًا لأمير الحيرة أن يتوغل فى غزو سورية، فأجابه إلى طلبه ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الحيرة ودولة الغساسنة ، ثم تقدم كسرى وحليفه المنذر فى أراضى سورية وآسيا الصغرى ، وأوشكا على فتح القسطنطينية ، فاستنجد الإمبراطور البيزنطى بالحارث بن جبله ، وطلب منه أن ينضم إلى قائده بليزاريوس فى صد الفرس والمناذرة وفى سنة ٦٤١م حارب الحارث فى العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس ، ولم يحصل من حملته هذه على نتائج تذكر .

لم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال سنة ٥٤٤م ، واستمر القتال بينهما إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً فى واقعة عين أباغ ، أدت إلى دخول قنسرين فى حوزة الحارث بن جبلة (١١).

سافر الحارث بن جبلة فى أواخر عهده سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية لمفاوضة الإمبراطور جستنيان فيمن يخلفه من أولاده على سورية ، وما يتخذ من تدابير لمقاومة أمير الحيرة ، وكان لما شاهده فى العاصمة البيزنطية من مظاهر العظمة والأبهة وقع عظيم فى نفسه (١٢).

استطاع الحارث بن جبلة أثناء إقامته فى القسطنطينية أن يظفر بتعيين يعقوب البردعى أسقفًا على الكنيسة السورية ، وكان يعقوب هذا متحمسًا فى نشر مذهبه حتى أن الكنيسة المنوفستية السورية عرفت بعده باسم اليعقوبية (١٣).

لما توفى الحارث سنة ٥٧٠م خلفه ابنه المنذر ، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى اشتبك فى حرب مع عرب الحيرة ، وكانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة أبيه ، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس بن المنذر ، ثم وقعت جفوة بين المنذر وبيزنطة بسبب مناصرته المذهب المنوفستى – وكانت تؤيد المذهب الملكانى – فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ، فاضطر الروم إلى استرضاء الأمير الغسانى ودعاه الإمبراطور البيزنطى تيبريوس (Tiberius) لزيارة القسطنطينية سنة ٥٨٠م ، فرحب المنذر بهذه الدعوة ، وأحسن الإمبراطور استقباله ، وأنعم عليه بالتاج ، وبذلك سماه بعض مؤرخى العرب " المنذر ملك العرب " (١٤).

على أن الإمبراطور البيزنطى لم يلبث أن ارتاب فى ولائه ونفاه سنة ٥٨٠م إلى صقلية حيث توفى بعد سنتين . وقطعت الحكومة البيزنطية الإتاوة السنوية التى كانت تعطيها للغساسنة ، فسخط أبناء المنذر الأربعة على الإمبراطور البيزنطى ، وشقوا عصا الطاعة على الدولة الرومانية ، ثم توغلوا بزعامة أخيهم الأكبر النعمان بن المنذر الغسانى فى الصحراء ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضى هذه الدولة ، لكن الحكومة البيزنطية تمكنت من أسر النعمان سنة ٥٨٣م(١٥).

تفرقت كلمة العرب فى سورية بعد أن سيق النعمان إلى القسطنطينية وتفككت عرى وحدتهم ، فاختارت كل قبيلة منهم أميرًا لها (١٦).

كما ترتب على انهيار سلطان الغساسنة هجرة بعض القبائل العربية إلى الشام ، ومن أشهرها قبيلة كلب التى امتلكت غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حوران وواحة دومة الجندل وتبوك ، وهيأت لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية التى تخترقها فضلاً عن الينابيع المائية الكثيرة بها ، وورثت هذه القبيلة ما كان للغساسنة من زعامة على عرب الشام فى عهد معاوية وابنه يزيد (١٧).

كما كان لضعف الغساسنة بالشام آثار سيئة على مدينة دمشق إذ غزا الفرس بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس ودمشق سنة ٦١٣ - ٦١٤م(١٨)، غير أن الفرس لم يستمروا طويلاً فى الشام إذ تمكن الإمبراطور هرقل من إجلائهم عن تلك البلاد سنة ٦٢٨م وظهر من الغساسنة إذ ذاك جبلة ابن الأيهم ، ويعد آخر أمراء البيت الغسانى ، وقد اشترك مع الروم فى واقعة اليرموك(١٩) التى انتصر فيها العرب المسلمون .

تعرضت دمشق فى العهد البيزنطى لأحداث هامة كان لها تأثير بالغ فى سكانها من العرب حملهم على التطلع إلى إخوانهم فى شبه الجزيرة العربية ، فقد كان أهل دمشق يتبعون المذهب اليعقوبى ، بينما كانت الدولة البيزنطية تتبع المذهب الملكانى ، ســـول هرقل إنهاء النزاع بين أتباع المذهبين ، ففرض على سكان الإمبراطورية مذهبًا يقول بأن للمسيح مشيئة واحدة(٢٠) ولكن أهل دمشق تمسكوا بمذهبهم اليعقوبى (٢١). وقد آذنت هذه السياسة بزوال عهد السيادة البيزنطية على دمشق ، إذ سرعان ما تحققت الوحدة الدينية والسياسة فى جزيرة العرب ، ورأوا فيهم رمزًا للخلاص من نير الروم واستبداد الكنيسة البيزنطية (٢٢).

الفتح الإسلامى لمدينة دمشق :

شرع المسلمون فى غزو الأطراف الجنوبية لبلاد الشام فى حياة النبى ﷺ ، ولما ولى أبو بكر الخلافة بدأ عمله بإنفاذ حملة أسامة بن زيد التى جهزها الرسول قبل وفاته ، وزودها بخيرة المسلمين من المهاجرين والأنصار (٢٣).

كان أبو بكر يرمى من وراء الإسراع بإرسال هذه الحملة إشعار الخارجين على الحكومة الإسلامية فى المدينة ، بقوتها وثبات مركزها ، هذا فضلاً عن رغبته فى شغل الأنصار الذين كانوا غير راضين عن فوز المهاجرين بالخلافة فى بيعة السقيفة (٢٤).

ويذكر ابن الأثير(٢٥) أنه كان لإنفاذ جيش أسامة أهمية كبيرة للمسلمين ، " فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا".

لكن بعض الصحابة اعترض على إرسال هذه الحملة ، وقالوا للخليفة " انتقضت عليك العرب فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك " فأجابهم أبو بكر بقوله : " لا أرد قضاء اقضى به رسول الله ﷺ ، ولو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبى"(٢٦).

ولما تحرك الجيش خرج أبو بكر لتوديعه ، وأوصى أفراد هذه الحملة بقوله " لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه ؛ وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصاب ، فاخفقوهم بالسيف خفقًا . اندفعوا باسم الله " (٢٧).

سار أسامة على رأس جيشه قاصداً البلقاء ، حتى بلغ أبنى(٢٨) غزا قومًا من قضاعة وأوقع بهم ، وتغلب على كل من تعرض له ، وغنم وعاد منتصرًا إلى المدينة بعد أن قضى فى غزوته ما يقرب من شهرين(٢٩). وبذلك أخذ أسامة الثأر لأبيه ولمن استشهد معه من المسلمين فى مؤتة. وكانت هذه الحملة أولى السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح العرب فيها سورية وفارس وشمال أفريقية (٣٠).

وجه أبو بكر اهتمامه بعد أن فرغ من أهل الردة إلى توجيه الجيوش إلى الشام ليحقق بذلك سياسة التوسع للدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها الرسول قبل وفاته(٣١) فجمع الصحابة فى المسجد وقال لهم : " اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم إيمانًا ويقينًا ، واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عول أن يصرف همته إلى الشام ... ألا وأنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم وما لهم فإن الرسول أنبانى بذلك قبل موته ، فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة وقالوا له : مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت"(٣٢).

كتب أبو بكر إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز ، يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه وفى غنائم الروم . وقد استجاب المسلمون فى جميع أنحاء الجزيرة العربية لنداء الخليفة " فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع " (٣٣)، فاقبلوا ومعهم الذرارى والأموال والنساء والأطفال . وخرج المسلمون لاستقبالهم " وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الأعلام الإسلامية ورفعوا الألوية المحمدية ، فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضًا قوم فى أثر قوم وقبيلة فى أثر قبيلة ، فأنزلهم أبو بكر حول المدينة وجعل كل قبيلة تقيم فى ناحية معينة " (٣٤).

عقد أبو بكر أربعة ألوية لأربعة من قواد المسلمين ، وهم يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وعهد إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح بالمسير إلى حمص ، وطلب إليهم فى حالة اضطرارهم إلى الانضمام لبعض أن تكون القيادة لأمير المنطقة التى فيها التجمع (٣٥).

أوصى أبو بكر الصديق يزيد بن أبى سفيان بقوله : " إذا سرت فلا تضيق على نفسك وعلى أصحابك فى مسيرك وشاور أصحابك فى الأمر " واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم ، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم ، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدًا ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم ، ولا تهدموا صوامع الرهبان، وحاربوا عبدة الصلبان حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " (٣٦).

لما بلغ يزيد بن أبى سفيان تبوك – وهو فى طريقه إلى الشام – أنفذ هرقل إمبراطور الروم جيشًا ليحول دون دخول العرب بلاد الشام ، ودارت بين العرب والروم موقعة انتصر فيها العرب (٣٧).

وعندما سار عمرو بن العاص إلى فلسطين أسرع أميرها سرجيوس لصد غارات العرب ، لكنه هُزم فى موضع يقال له العربة (Araba) ثم فر وقُتل أثناء فراره ، وفى هذه الأثناء كان هرقل إمبراطور الروم فى شمال الشام قد حشد جيشًا كبيرًا لصد القوات العربية (٣٨)، فكتب عمرو بن العاص إلى أبى بكر يستنجده ويخبره بكثرة عدد العدو وعدتهم (٣٩)، وكان أبو بكر إذ ذاك يرى أن فتح الشام أكثر أهمية من فتح العراق (٤٠)، ومن ثم كتب إلى خالد بن الوليد – الذى كان وقتذاك يواصل زحفه فى بلاد العراق – يأمره بالتوجه إلى الشام(٤١)، وأسند إليه قيادة الجيوش العربية فى تلك البلاد (٤٢).

لما أتى خالد بن الوليد كتاب أبى بكر وهو بالحيرة أسند قيادة الجيوش العربية فى العراق إلى المثنى بن حارثة الشيبانى ، وسار فى ربيع الأول سنة ١٣هـ إلى بلاد الشام على رأس نصف الجيش الذى كان يقوده فى العراق (٤٣).

ولما وصل إلى بلدة بصرى – وكان فتحها قد استعصى على شرحبيل ابن حسنة استطاع أن يستولى عليها بمعاونة واليها رومانوس الذى اعتنق الإسلام ، ويسر للعرب أمر دخولها ، وصالح خالد أهل بصرى وأعطاهم أمانًا على دمائهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية (٤٤).

وكان عمرو بن العاص إذ ذاك قد أغار على جنوبى فلسطين حتى بلغ غزة ، فقطع المواصلات بين مدينة بيت المقدس وبين الساحل ، أما هرقل قيصر الروم فقد أعد جيشًا فى ناحية تقع جنوبى دمشق ، وأسند قيادته إلى أخيه تيودور الذى سار جنوبًا للدفاع عن بيت المقدس وغزة ، فخشى خالد بن الوليد هزيمة القوات العربية فى الجنوب ، وأسرع جنوبًا عبر شرق الأردن ، وحشد قواته فى وادى عربة ، ثم زحف إلى فلسطين لمحاربة تيودور ، وفى جمادى الأول سنة ١٣هـ نشبت معركة بين العرب والروم فى أجنادين دارت الدائرة فيها على الروم ، وولى تيودور هاربًا حيث التقى بأخيه هرقل الذى غادر حمص وتراجع إلى إنطاكية(٤٥).

وبانتصار العرب فى أجنادين أصبحت فلسطين كلها فى يدهم وقد نوه عن ذلك سفرنيوس رئيس أساقفة بيت المقدس فى خطاب ألقاه فى الاحتفال بعيد الميلاد سنة ١٣هـ (٦٣٤م) إذ قال : أن المسيحيين أصبحوا لا يستطيعون الحج إلى بيت لحم لأن بلاد فلسطين أصبحت فى قبضة العرب (٤٦).

لما علم أهل الحجاز واليمن ونجد بالانتصارات التى أحرزها المسلمون والغنائم الكثيرة التى غنموها ، تسابقوا فى الخروج إلى الشام لمشاركة إخوانهم فى الجهاد ، فأقبل إلى المدينة عدد غفير منهم ، وطلبوا من أبى بكر أن يأذن لهم بالخروج إلى الشام ، فأذن الخليفة لهم ، وكتب إلى خالد بن الوليد كتابًا جاء فيه : " قد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين ، وأخبرك أن تنزل إلى دمشق حتى يأذن الله بفتحها على يدك ، فإذا تم ذلك ، فسر إلى حمص وإنطاكية والسلام " (٤٧).

تركزت المعارك فى بداية عهد عمر بن الخطاب فى الأردن حيث انتصر العرب على الروم فى بيسان وفحل ، ذلك أن هرقل إمبراطور الروم لما توجه إلى أنطاكية أعد جيشًا كبيرًا التقى بالقوات العربية فى فحل التى كانت تحمى الطريق إلى دمشق – وهدم الروم سدود المياه

ليعرقلوا تحركات العرب [٤٨]، لكنهم رغم ذلك انتصروا على أعدائهم ، وتحصن أهل فحل فى مدينتهم ، فشدد العرب عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان على أن يؤدوا الجزية والخراج فاستجاب العرب لطلبهم ، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، ودخلوا فحل سنة ١٣هـ / ٦٣٤م[٤٩].

مهدت الانتصارات التى أحرزها العرب فى الأردن الطريق إلى دمشق ، فتوجه العرب فى المحرم سنة ١٤هـ إلى دمشق – وكان الروم قد أعادوا تنظيم صفوفهم بعد أن أمدهم هرقل ببعض قواته – ، والتقى العرب بالروم فى مرج الصفر وأوقعوا بهم الهزيمة[٥٠] وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب للزحف إلى دمشق[٥١] فاستولوا على الغوطة وكنائسها عنوة[٥٢] وتحصنت الحاميات البيزنطية فى المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين سائر قواد العرب ، فوزعوا قواتهم على أبواب المدينة الرئيسية لتشديد الحصار عليها ، وحملها على التسليم ، فاختص خالد بن الوليد بالباب الشرقى ، واتخذ من دير صليبا – الذى عرف فيما بعد بدير خالد – مقراً لقيادته ونزل عمرو بن العاص بباب توما ، وشرحبيل بن حسنة بباب الفراديس ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح بباب الجابية [٥٣].

وبينما كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يشترك مع قواد العرب فى محاصرة دمشق وصله كتاب من الخليفة عمر بن الخطاب يتضمن إسناد قيادة الجيوش العربية فى الشام إليه بدلاً من خالد بن الوليد . ومما جاء فى هذا الكتب " قد بلغنا حصاركم لأهل دمشق وقد وليتك جماعة المسلمين ، فبث سراياك فى نواحى أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر فى ذلك برأيك ، ومن حضرك من المسلمين ومن استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت إليه فى حصارك فاحتبسه وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه " [٥٤].

كتم أبو عبيدة عن خالد بن الوليد توليته قيادة الجيوش العربية حتى تم فتح دمشق ، وحينئذ أظهرها له قائلاً : كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو [٥٥]. ولما قرأ خالد بن الوليد كتاب الخليفة قال : (ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين) ، وحارب تحت إمرة أبى عبيدة [٥٦].

ظل العرب يحاصرون مدينة دمشق ستة أشهر متوالية[٥٧] ولم تجد أهالى هذه المدينة منعة حصونهم نفعًا ، كما أنه فى أثناء الحصار كانت بعض القوات العربية بين دمشق وحمص تحول دون وصول أية إمدادات قد تصل إليهم ، فضعفت مقاومتهم ، ووهنت عزيمتهم[٥٨] .

لما اشتد الحصار على أهل دمشق بعثوا إلى هرقل وهو بإنطاكية رسلاً يقولون له : " إن العرب قد حاصرونا وليس لنا بهم طاقة ، وقد قاتلناهم مرارًا ، فإن كان لك فينا وفى السلطان علينا حاجة ، فأمددنا وأعنا وإلا فإنا فى ضيق وجهد فاعذرنا وقد أعطانا القوم الأمان ، ورضوا منا بالجزية اليسيرة (٥٩).

لما رأى أسقف دمشق أن أبا عبيدة بن الجراح على وشك دخول مدينة دمشق من باب الجابية توجه إلى خالد بن الوليد وطلب منه أن يعقد معه صلحًا بقوله : " يا أبا سليمان أن أمركم مقبل ولى عليك عدة ، فصالحنى عن هذه المدينة " ، فأجاب خالد طلبه ، وكتب إليه كتاب صلح لأهل دمشق جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنون لايعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية " (٦٠).

فتح أسقف دمشق على أثر ذلك الباب الشرقى لخالد بن الوليد ، فدخل المدينة فى ربيع الثانى سنة ١٥هـ / ٦٣٦م ، وبصحبته الأسقف ناشرًا كتاب الصلح الذى كتبه خالد بن الوليد له . والتقى خالد بقوات العرب فى دمشق على مقربة من كنيسة المقسلاط (٦١)، وأخبرهم بالصلح الذى كتبه لأهل دمشق ، فأمروا قواتهم بالكف عن القتال(٦٢) وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب بهذا الصلح فوافق عليه (٦٣).

هنك روايات كثيرة تدور حول الفتح العربى لمدينة دمشق يناقض بعضها بعضًا ، ومن أبرز هذه الروايات رواية ابن عساكر(٦٤) التى ذكر فيها أن خالد بن الوليد دخل المدينة من الباب الشرقى عنوة ، فى حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية صلحًا ، وعلى ذلك كان صلح أهل دمشق على أنصاف منازلهم وكنائسهم . وهذه الرواية متأخرة وتناقض كل الروايات الموثوق بها والسابقة عليها فى الزمن ، ورواية البلاذرى أقرب هذه الروايات إلى الصحة (٦٥).

ذكر البلاذرى(٦٦) أن محمد بن سعد(٦٧) روى عن الواقدى قوله : " قرأت كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، ولكن دمشق لما فتحت لحق كثير من أهلها بهرقل وهو بإنطاكية ، فكثر فضول منازلها ، فنزلها المسلمون " . وكان أبو عبيده قد أعطاهم أمانًا لمدة ثلاثة أيام يغادرون خلالها المدينة (٦٨).

قضى العرب شتاء سنة (٦٣٦م) فى دمشق واضطروا إلى الرحيل عنها وعن بعض المدن التى فتحوها لملاقاة الروم فى اليرموك ، بل أعادوا لأهل حمص ما أخذوه من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم (٦٩). ذلك أن هرقل عول على مهاجمة العرب بعد أن بلغه فتحهم دمشق ، فجمع جيشًا كبيرًا من الروم وعرب الشام وأهل الجزيرة وأرمينية ، وأسند قيادة هذا الجيش إلى تيودور (٧٠).

اجتمعت القوات العربية فى المنطقة المعروفة بحوض نهر اليرموك . أما قوات الروم فسارت إلى الواقوصة ، وهاجمت خيالتهم العرب (٧١)، واشتد القتال بين الفريقين ، ولكن حدث أن استهوت عرب الشام بالجيش البيزنطى العصبية العربية ، وانضموا للقوات العربية أثناء القتال وقالوا لهم : " أنتم إخوتنا وبنو أبينا " . كما أن اليأس تسرب إلى جند الروم بعد أن فشلوا مرارًا فى وقف تيار الزحف العربى ، وانتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم فى رجب سنة ١٥هـ / ٦٣٦م(٧٢).

عاد العرب إلى دمشق بعد انتصارهم الرائع فى اليرموك فى خريف هذه السنة ، وفتحوها للمرة الثانية ، وجدد خالد بن الوليد لأهل دمشق كتاب الصلح الذى كان كتبه لهم ، وأثبت فى هذا الكتاب شهادة أبى عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من قواد العرب (٧٣).

ولما بلغ هرقل إيقاع المسلمين بجنده قال فى حسرة وألم : " عليك السلام يا سورية لقد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومى أبدًا إلا خائفًا " (٧٤).

عاد العرب عقب اليرموك إلى المناطق التى كانت تعسكر فيها قواتهم ، فسافر عمرو بن العاص إلى فلسطين ليتم فتحها ، واتجه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن ، وفتح عكا وصور وأخذ يزيد يغزو مدن الشام الغربية ، فاستولى على صيدا وجبيل وبيروت ، أما أبو عبيدة فإنه تقدم شمالاً واسترد المدن التى استولى عليها العرب من قبل ، وامتدت فتوحه إلى حمص وقنسرين وحلب وإنطاكية ، وكان خالد بن الوليد قد سار فى صحبته ، غير أنه ما لبث أن تركه وتوجه إلى المدينة تنفيذًا لأوامر الخليفة ، وظل أبو عبيدة واليًا على سورية كلها (٧٥).

كانت دمشق من بين المدن التى استردها العرب بعد انتصارهم فى اليرموك . وكان خالد قد فتحها فى أول الأمر صلحًا ، ثم اضطر العرب إلى الرحيل عنها ، فاستعاد الروم سلطانهم

عليها ، غير أنهم لم يبقوا بها طويلاً ، فقد عادت إلى قبضة العرب سنة ١٥هـ (٧٦)، ومن ثم أصبح لهم حق التصرف فى أرضها (٧٧).

صالح أبو عبيدة أهل دمشق على أداء الجزية والخراج وتقديم قدر من الطعام لمؤونة المسلمين، كما التزموا بإضافة من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام من أوساط ما يأكلون ولا يحدثوا فى دمشق ولا فيما حولها كنيسة أو ديراً ولا يجددوا ما خرب من كنائسهم مما كان فى خطط المسلمين ولا يأوون فى منازلهم جاسوساً ولا يكتموا على من غش المسلمين (٧٨).

كان أبو عبيدة بن الجراح قد قرر على كل ذمى فى دمشق جزية قدرها ديناراً واحداً تؤدى فى كل سنة يضاف إلى ذلك جريب حنطة وقدر من الخل والزيت لمؤونة المسلمين تؤدى فى كل شهر ، ثم كتب عمر بن الخطاب إليه يأمره بأن يجعل الجزية قدر الطاقة فتؤدى الطبقة العليا أربعة دنانير والطبقة الوسطى دينارين والطبقة الدنيا ديناراً واحداً يضاف إلى ذلك(٧٩) جريب حنطة وثلاثة أقساط زيت وقدر من العسل والخل يؤديها شهرياً كل من يؤدى الجزية (٨٠).

وترك أبو عبيدة أرض دمشق وقراها الزراعية بأيدى أهلها يزرعونها ويؤدون خراجًا عنها . ولما قدم عمر بن الخطاب على الجابية سنة ١٨هـ رفض تقسيم هذه الأرض بين الفاتحين وأبقاها بأيدى أهلها على أن يؤدوا خراجها (٨١).

واختط أبو عبيدة بن الجراح فى دمشق مسجداً صغيراً عقب فتحها(٨٢) وترك لأهل الذمة خمس عشرة كنيسة يؤدون فيها شعائرهم الدينية (٨٣).

عين عمر بن الخطاب يزيد بن أبى سفيان أميرًا على دمشق بعد وفاة أبى عبيدة الجراح ، ولما توفى فى سنة ١٨هـ ضم عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبى سفيان - الذى كان يلى الأردن - ولاية دمشق ، وأقر عثمان بن عفان ولايته عليها ، ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين وجمع له الأجناد كلها ، وبذلك أصبح واليًا على جميع بلاد الشام لسنتين من خلافة عثمان(٨٤) ومما لاشك فيه أن عثمان بن عفان بإطلاقه يد معاوية فى هذه الولاية مهد له سبيل نقل الخلافة إلى أسرة أبى سفيان وتثبيتها فى البيت الأموى (٨٥).

كان معاوية يرى نقل حاضرة الخلافة إلى دمشق حين وفد إلى عثمان سنة ٣٤هـ ، وأيقن أن هناك خطراً يواجه الخليفة ، فقال له : " يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا " لكن عثمان أبى إلا أن يظل فى المدينة(٨٦) .

ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة ، امتنع معاوية عن مبايعته (٨٧)، وظل واليًا على الشام ، واستطاع معاوية أن يصمد فى نزاعه مع على ، بفضل إخلاص أهل الشام ، فقد أثار للتحكيم بعد واقعة صفين للفرقة بين صفوف جيش على ، على حين جنى معاوية بعد هذه الواقعة ثمار جهوده فى إقليم الشام ، وبقاء أهله على الطاعة والولاء له ، إذ لم تلبث الأحداث أن هيأت الجو لمعاوية تمامًا حين انتهت حياة على بن أبى طالب ونزل الحسن بن على سنة ٤١هـ عن الخلافة لمعاوية (٨٨).

وهكذا تحققت أطماع معاوية ، فاستقرت له الخلافة وأصبح صاحب السلطان المطلق فى كافة أنحاء الدولة العربية الإسلامية واتخذ دمشق حاضرة لخلافته بعد أن كانت حاضرة ولاية الشام وحدها ، فانتقلت إليها سياسة الملك (٨٩). وحرص معاوية منذ توليته الخلافة على ألا تعيش القبائل العربية فى الشام فى معزل عن أهلها الأصليين ، وبذلك استطاع أن يكون آمنًا فى حاضرة دولته ، ونقل بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق ، وزاد فى عطاء أهل الشام ، فاطاعوه وظلت دمشق محتفظة بمكانتها كحاضرة طوال العهد الأموى (٩٠).

أدرك العرب منذ أن فتحوا دمشق أن تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم أول ما يجب أن يكفل للمحكومين ، وقد جاء ذلك فى كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق ، فعاشوا فى كنف ولاة المسلمين فى أمن وطمأنينة ، وقام العرب بحماية الأهالى فى مقابل دفع مبلغ معين يؤديه كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية وكانوا يعفون من أدائها إذا اعتنقوا الإسلام ، كما ترك العرب لأهل دمشق الأرض يزرعونها على أن يؤدوا خراجًا عنها (٩١).

كان لانتصار الجيوش العربية على الروم فى بلاد الشام وما تبع ذلك من فتح دمشق أكبر الأثر فى إحياء الصلات القديمة التى كانت تربط بين العرب المقيمين فى دمشق وبين العرب الفاتحين ، وساعدت وحدة الجنس ووحدة اللغة على اندماج الفريقين ، كما أدى الاتصال الاجتماعى بينهما إلى تكوين مجتمع جديد فى دمشق .

كان طبيعيًا ألا يتخذ هذا المجتمع الجديد شكله النهائى فى بضع سنين ، ذلك لأن العرب غادروا أرضهم إلى أرض جديدة وواجهوا فى دمشق أقوامًا يختلفون عنهم فى اللغة والدين والتقاليد ، وكان لابد لهذا المجتمع الجديد فى دمشق وهو فى دور التكوين أن يتخذ صورًا وأشكالاً متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة (٩٢).

كانت اللغة العربية منتشرة فى دمشق قبل الفتح العربى فقد نشرها العرب الذين كانوا يدينون بالوثنية ، ثم العرب الذين دخلوا فى المسيحية بعدهم . ولما فتح العرب المسلمون دمشق، وهاجرت بعض القبائل العربية إليها زادت العربية انتشاراً ورسوخًا فى هذه المدينة ، واضطر أهلها من غير العرب إلى تعلم العربية لأنها لغة الحاكمين (٩٣).

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية فى دمشق أنها لغة الدين الجديد كما أن العرب سعوا إلى جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة . ولم يحارب العرب اللغة اليونانية – لغة السواد الأعظم من سكان دمشق – بل ساروا فى نشر لغتهم سيراً حثيثًا (٩٤).

يعلل بن خلدون(٩٥) انتشار اللغة العربية فى البلاد التى فتحها المسلمون بقوله : " لما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان الفاتحين بالدولة الإسلامية عربيًا هجرت كلها فى جميع ممالكها لأن الناس تبع السلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة " .

كان من عوامل انتشار اللغة العربية فى دمشق تعريب الدواوين الذى بدأ فى عهد عبد الملك بن مروان ، فقد ظلت الدواوين فى دمشق تكتب باليونانية – لغة أهلها – حتى شرع عبد الملك فى صبغ الدولة بصبغة عربية بعد أن استقرت الأمور فيها ، واتسعت خبرة العرب الذين "انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حزق الكتابة" (٩٦). وجاء ذلك تأكيداً لسيادة الدولة العربية التى سار عليها بنو أمية .

يذكر الجهشيارى(٩٧) أنه من الأسباب التى حملت الخليفة عبد الملك على تعريب الدواوين أن سرجون بن منصور الرومى – الذى كان يتقلد ديوان دمشق فى عهد عبد الملك – أمره الخليفة يومًا بشىء فتثاقل فيه وتوانى عنه ، فعاد لطلبه مرة أخرى ، فرأى تفريطًا وتقصيراً ، فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان بن سعد الخشنى – وكان يتقلد ديوان الرسائل – أما ترى إذلال سرجون علينا ، وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا إليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولته إلى العربية ، قال له : فافعل ، وقلده عبد الملك جميع دواوين الشام .

بينما يذكر البلاذرى(٩٨) سببًا آخر لتعريب الدواوين فيقول : ظلت دواوين دمشق تكتب باليونانية حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، فلما كانت سنة ٨١هـ أمر بنقل الدواوين إلى العربية ، ذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج مداداً ليكتب به ، فلم يجد ، فسلك مسلكًا مشينًا أغضب عبد الملك فأمر عبد الملك سليمان بن سعد بنقل الدواوين إلى العربية ، وكافأه فى مقابل ذلك بخراج الأردن سنة .

كان نقل الدواوين إلى العربية بطيئًا ، وقد شرع فيه فى أيام عبد الملك ، واستمر حتى عهد الوليد(٩٩)، ومن المرجح أن يكون هذا هو السبب الذى حدا ببعض المؤرخين أن ينسبوا نقل الدواوين إلى عبد الملك (١٠٠)، بينما ينسبه آخرون إلى الوليد (١٠١).

ساعد تعريب الدواوين على ذيوع اللغة العربية وانتشارها ، فقد أقبل الكتاب من غير العرب على تعلم اللغة العربية حتى يستمروا فى عملهم بالدواوين ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والإدارة والسياسة فضلاً عن كونها لغة الدين والأدب ، والثقافة (١٠٢).

انتشر الإسلام بين عرب الشام الذين يقطنون فى دمشق ونواحيها بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب القادمين من الجزيرة العربية ، وحين وفد عمر بن الخطاب إلى الجابية سنة ١٨هـ ، كانت لخم وجذام قد دخلت فى الإسلام(١٠٣) ومن القبائل التى اعتنقت الإسلام بعد الفتح العربى لمدينة دمشق قبيلة غسان وقبيلة بنى كلب(١٠٤) . وكان انتشار الإسلام بين القبائل المسيحية التى تقيم فى منطقة دمشق أكثر من انتشاره بين سكان هذه المدينة (١٠٥).

من العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام فى دمشق وفود نفر قليل من الصحابة والتابعين إلى هذه المدينة وإقامتهم بها وحماستهم لهداية الناس إلى الدين الحنيف (١٠٦).

كما كان للانتصارات الرائعة التى أحرزها العرب فى بلاد الشام أثر كبير فى جعل المسيحيين يعتقدون أن هذه الانتصارات إنما تمت بعون من الله وأن نجاح المسلمين دليل على صدق دينهم (١٠٧).

كما أدى تدهور حال الكنيسة الشرقية من الناحيتين الخلقية والروحية إلى دخول كثير من أهل دمشق دين الإسلام (١٠٨)، إذ كانت الأحزاب الدينية تناوىء وتضطهد بعضها بعضًا ، مما كان له تأثير كبير فى زعزعة أسس العقيدة الدينية عند المسيحيين ، فلم تعد المسيحية الشرقية – التى مزقتها الانقسامات الداخلية وزعزعت أسسها ودخل اليأس فى نفوس أهلها بسبب هذه الشكوك – قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى قدم مزايا مادية جليلة فضلاً عن مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل .

وكانت المسيحية فى الشام قد تأثرت بالثقافة اليونانية فتحولت إلى عقيدة محفوفة بمذاهب معقدة مليئة بالشكوك ، وكانت الطبقات العليا يشيع فيها الفساد ، والوسطى مثقلة بالضرائب، ولم يكن للأرقاء أمل فى حاضرهم أو مستقبلهم ، فأزال الإسلام هذه المفاسد والخرافات ، ودعا الناس إلى فعل الخير ونبذ الرذائل وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، وآخى بين المؤمنين ، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية (١٠٩).

وعلى الرغم من أن تعصب العرب لبني جنسهم قد أدى في بادىء الأمر إلى عدم تمتع المسلمين الجدد بالمزايا التي كان يتمتع بها العرب ، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة في المجتمع وهم على ولائهم للقبائل العربية التي كانوا قد تعودوا في بادىء الأمر الانضواء تحت لوائها . وفي نهاية القرن الأول الهجري كان المسلمون من غير العرب يتمتعون بنفس المزايا التي كان يتمتع بها العرب (١١٠).

عين الخليفة عمر بن الخطاب في مدينة دمشق رجالاً عهد إليهم تعليم الذين دخلوا في الإسلام حديثًا القرآن وتفقيههم في الدين ، حتى يستطيع المسلمون الجدد أداء شعائرهم الدينية أداءً سليماً والإلمام بقواعد الدين الجديد (١١١).

وكان دخول أهل دمشق في الإسلام عن اختيار وإرادة حرة (١١٢). ويدل كتاب الأمان الذي أعطاه خالد بن الوليد لهم سنة ١٥هـ . على أن العرب لم يحاولوا نشر الإسلام في دمشق بحد السيف ، كذلك كفل العرب لأهل الذمة الحرية الدينية ، وسمحوا لهم بأن يؤدوا شعائرهم وفق مذهبهم اليعقوبي أو النسطوري (١١٣).

وصف خطط دمشق وتطورها :

تتمتع دمشق بمركز جغرافي فريد في نوعه ، إذ تقع في مركز متوسط بين الشرق والغرب كما أنها نقطة يلتقي بها الطريق الذي يخترق سورية من الشمال إلى الجنوب بنهر بردى الذي يجري من الشرق إلى الغرب (١١٤). وقد أدرك الإمبراطور البيزنطي يوليان (Julian) (٣٦١ – ٣٦٣م) أهمية موقعها فكان يسميها " عين الإمبراطورية في سائر إقليم الشرق" (١١٥). وقد وصفها الخليفة عمر بن الخطاب في كتاب بعث به إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح بأنها "حصن الشام وبيت مملكتهم " (١١٦).

أفاض الرحالة العرب في وصف مدينة دمشق ، فذكر اليعقوبي (١١٧) أنها " مدينة الشام في الجاهلية والإسلام وليس لها نظير في جميع مدن الشام " . كما ذكر ابن جبير (١١٨) أنها "جنة الشرق ... وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها ... قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة للقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء على امتداد البصر " . وذكر ياقوت أنها (١١٩) " جنة الأرض لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة " .

شيد الرومان إبان حكمهم لمدينة دمشق (١٠٥ - ٣٩٥م) سوراً لها جرياً على سياستهم في تحصين المدن . وكان هذا السور مستطيلاً يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً تقريباً ، وسمكه خمسة عشر قدماً ، وتوازى جوانبه شوارع المدينة المستقيمة عدا جانبه الشمالى الذى كان يحازى نهر بردى (١٢٠).

كان يعلو أسوار دمشق أبراج بارزة مربعة الشكل يبعد كل برج عن الآخر مسافة قدرها خمسين قدماً تقريباً ، وتيسر هذه الأبراج للمدافعين وبخاصة الرماة سبل الدفاع عن المدينة . وكان يوجد فى عدة مواضع من السور بعض الأبنية الصغيرة وبيوت للسكنى يقيم بها أفراد الحامية التى تعهد إليها حراسة المدينة وأسوارها (١٢١).

كانت أسوار دمشق مبنية بالحجارة الضخمة التى لا يزعزعها شىء ، وكان يصعب اقتحامها وهدمها للدخول منها على الرغم مما تعرضت له فيما سلف من هجمات الفرس أو البيزنطيين . ولم يستطع العرب أثناء محاولتهم فتح دمشق اجتيازها إلا بعد لأى وعناء(١٢٢).

وظلت هذه الأسوار تحمى المدينة طوال عهد الراشدين والأمويين الذين حافظوا عليها . وذكر البلاذرى(١٢٣) أن أسوار دمشق استمرت قائمة حتى هدمها عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بعد زوال العهد الأموى ، بينما يذكر ابن كثير الدمشقى(١٢٤) أنها هدمت سنة ١٢٧هـ حين أرسل مروان بن محمد جيشاً إلى دمشق لإخماد ثورة أهلها .

كان لمدينة دمشق قبل الفتح العربى سبعة أبواب رئيسية صفحت بالحديد لصد غارات الأعداء . ولما كان الجانب الشمالى من المدينة أكثر جهاتها تحصيناً لوجود النهر حوله لذلك أنشىء به ثلاثة أبواب فقط (١٢٥). وأبواب دمشق هى :

١ - الباب الشرقى : وسمى بذلك لوقوعه شرق المدينة ، وقد شُيد هذا الباب إبان الحكم الرومانى فى مستهل القرن الثالث الميلادى ، وكان يتألف من ثلاثة أبواب الأوسط منها كبيرة أحجاره مصقولة ، وكان يوجد على جانبيه بابان صغيران ، وكان الجند وقوافل الجمال ودواب الحمل تمر من الباب الأوسط ، أما البابان الآخران فكانا يستعملان لمرور الناس ، أحدهما للدخول والآخر للخروج (١٢٦). وقد نزل خالد بن الوليد بهذا الباب أثناء حصار العرب لمدينة دمشق (١٢٧).

٢ – باب توما : وينسب إلى توما حاكم دمشق قبيل الفتح العربى . وكان هذا الباب يقع شمال دمشق (١٢٨)، ونزل به عمرو بن العاص أثناء جصار العرب لمدينة دمشق (١٢٩).

٣ – باب السلامة : ويقع فى شمال دمشق وسمى بذلك تفاؤلاً ، لأنه ليس منَ السهولة الهجوم على المدينة من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار (١٣٠).

٤ – باب الفراديس : يقع في شمال دمشق وهو عبارة عن باب ضخم مستطيل ، وينسب إلى قرية تسمى الفراديس (١٣١).

٥ – الباب الصغير : وسمى بذلك لأنه أصغر أبواب دمشق ويقع جنوبها (١٣٢)، وقد دخل يزيد بن أبى سفيان دمشق من هذا الباب (١٣٣).

٦ – باب كيسان : ويقع جنوب الباب الصغير وينسب إلى كيسان مولى معاوية بن أبى سفيان ، وكان يسمى باب يونس قبل الفتح العربى (١٣٤).

٧ – باب الجابية : ويقع غرب دمشق وسمى بذلك نسبة إلي قرية الجابية . وكان يتألف من ثلاثة أبواب ، الأوسط منها كبير وعن جانبيه بابان صغيران ، وبناؤه بالحجارة الضخمة، وكان يخرج من الأبواب الثلاثة ، ثلاثة طرق إلى الباب الشرقى – الأوسط وكان يستعمل لمرور الناس ، والآخران لمرور الركبان (١٣٥)، وقد نزل على هذا الباب أبو عبيدة عامر بن الجراح أثناء حصار العرب لدمشق (١٣٦).

لم تتغير المعالم الرئيسية لمدينة دمشق بعد الفتح العربى عما كانت عليه فى العصر الرومانى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلي وقوعها عند نقطة يلتقى بها الطريق الذى يخترق قلب سورية من الشمال إلى الجنوب ويعبر نهر بردى الذى يجرى من الشرق إلى الغرب ، ومن ثم انتظمت على هذا النحو طرقات المدينة (١٣٧).

كانت دمشق عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل (١٣٨)، تمتد على ضفة نهر بردى اليمنى جنوبيًا ، وكان يوجد فى الركن الشمالى الغربى من المدينة قلعة حصينة زالت ، وظل مكانها شاغرًا ، وقد توالت هجرات القبائل العربية إلى مدينة دمشق عقب الفتح العربى سنة ١٥هـ (٦٣٦م) أقام بعضها فى المنطقة المجاورة لدمشق ، مما أدى إلى اتساع مساحة هذه المدينة وكثرة أحيائها ، واتخذت القبائل التى لم تستقر فى دمشق منازل لها فى ظاهرها حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض ، وترتب على ذلك اتصال العمران من

مدينة دمشق حتى القرى المحيطة بها (١٣٩). كذلك أدت كثرة المهاجرين من العرب إلى هذه المدينة إلى زيادة عدد دورها ، وكان لذلك تأثير كبير على شوارعها المنسقة المتوازية ، ففقدت كثيراً من طابعها (١٤٠).

استقر العرب عقب فتحهم دمشق فى بادىء الأمر فى الطرف الشمالى من المدينة ، وأقاموا فى الدور التى هجرها الروم وبعض سكان دمشق عقب الفتح بالقرب من نهر بردى (١٤١)، وأقام بعض الصحابة فى دور على مقربة من باب توما (١٤٢) شمال دمشق . ثم أنشأ العرب خططهم فيما بعد فى الجهة الغربية من دمشق . واتخذ معاوية قصره (الخضراء) مجاوراً لخطط أصهاره بنى كلب ، واتخذ بنو أمية دوراً مجاورة لقصر الخضراء (١٤٣). أما المسيحيون واليهود فاستقر مقامهم فى الجهة الشرقية من دمشق (١٤٤).

لما نزل العرب دمشق احتفظوا بعاداتهم القبلية ، وتجمعوا فى المدينة حسب تقسيمهم القبلى، فكان لكل قبيلة خطة أو درب أو حى خاص بها يضم منازلها وأسواقها ومساجدها ومنازلها ، وكان أهل دمشق يسمون هذه الأحياء أو الخطط دروباً - وكان يفصل كل درب عن الآخر سور ضمن الأسوار القائمة حول المدينة ، ومن ثم تحولت هذه الدروب إلى مدن صغيرة مسورة داخل دمشق ، وكانت أبواب هذه الدروب تغلق عند نشوب الفتن والاضطرابات الداخلية، فتنقطع بإغلاقها المواصلات بين دروب المدينة (١٤٥).

لم يتوسع معاوية بن أبى سفيان فى تجميل مدينة دمشق بالعمائر ، وإنما قصر اهتمامه على بناء قصره الذى عرف بالخضراء ، كما أن يزيد بن معاوية لم يبذل جهداً فى تحسين المدينة وتجميلها (١٤٦).

ولما انتقلت الخلافة إلى الفرع المروانى من بنى أمية تجلت الرغبة فى العناية بدمشق على اعتبار أنها عاصمة الأمويين ، ومن ثم كثرت بها العمائر كما أنشأ الخلفاء بها الحصون المَنيعة والقلاع ذات القباب البيضاء والقصور والجوامع الفخمة ، وظهرت دمشق فى عهد الوليد بن عبد الملك فى أجمل مظهر ، بما شيده فيها من منشآت وعمائر بديعة (١٤٧)، فقد كان الوليد مولعاً بالعمائر ، حتى أن الناس كانوا يلتقون فى أيامه ، فيسأل بعضهم بعضاً الأبنية والعمارات (١٤٨).

لم يبذل الخلفاء المتأخرون من بنى أمية جهوداً كبيرة لتجميل مدينة دمشق بل إن بعضهم لم يتخذ دمشق مقراً له ، فأقام سليمان بن عبد الملك فى مدينة الرملة (١٤٩)، على حين أقام هشام بن عبد الملك فى الرصافة (١٥٠)، وكان بعض الخلفاء الأمويين يقضى شطراً كبيراً من السنة فى قصورهم بالبادية (١٥١). ومما لا شك فيه أن ترك الأمويين دمشق إلى الصحراء أدى إلى زوال مكانة هذه المدينة (١٥٢).

كان أهم شىء يميز المدينة الإسلامية - المسجد الجامع - فإنشاؤها يظهر طابعها الإسلامى ، وقد أمر عمر بن الخطاب حين قدم إلى الشام سنة ١٨ هـ ألا يتخذ فى المدينة سوى مسجد جامع واحد ، وأراد عمر بذلك المسجد الذى تقام فيه الجمعة ، ولم ينه عن اتخاذ المساجد التى لا تقام فيها الجمعة (١٥٣).

اكتفى العرب بعد فتح دمشق بمسجد متواضع كان يوجد إلى جوار كنيسة القديس يحنا ، وتركوا الكنيسة كلها للنصارى يؤدون فيها شعائرهم الدينية ، أما القول بأن(١٥٤) العرب استولوا عقب الفتح مباشرة عى نصف الكنيسة لإقامة شعائرهم الدينية ، وتركوا النصف الآخر للنصارى مكافأة لهم على استسلامهم ، وأن المسلمين والنصارى كانوا يدخلون من باب واحد هو باب الكنيسة القبلى ، فيأخذ المسلمون يمينهم إلى القسم المخصص لهم ، على حين ينصرف النصارى إلى جهة الغرب لأداء شعائرهم الدينية فهذه كلها روايات متأخرة وغير صحيحة(١٥٥).

كان المسجد القديم بدمشق يجاور قصر الخضراء(١٥٦) وكنيسة القديس يحنا ، يؤيد ذلك ما كتبه الأسقف الغالى أركولف (Arculf) الذى زار الشام فى خلافة معاوية إذ قال : كان فى دمشق كنيسة عظيمة بنيت لتمجيد القديس يحنا المعمدان وهناك أيضاً بيت يؤدى العرب فيه شعائرهم الدينية (١٥٧).

وتوضح الروايات العربية التى تصف الحوادث التى وقعت بعد ذلك أن المسجد القديم كان منفصلاً تمام الانفصال عن الكنيسة ، وأن قصر الخضراء كان مجاوراً لهما .

كان يوجد فى دمشق سقيفة مستطيلة ذات عمد تسمى جيرون(١٥٨) ، يرجع تاريخها إلى العصر الرومانى ، وكان الباب الشرقى للمسجد الجديد الذى شيده الوليد بن عبد الملك ينسب إليها ، واستعملت قطع من تلك السقيفة فى بناء المسجد الجديد (١٥٩).

ومن المرجح أن جيرون هو المسجد القديم (١٦٠)، وليس أدل على ذلك مما أورده الطبرى(١٦١) فقد ذكر أن اليوم الذى اجتمع فيه المسلمون لاختيار خليفة جديد عقب وفاة معاوية الثانى سنة ٦٤هـ عرف باسم يوم جيرون نسبة للمسجد الذى اختير فيه الخليفة .

حاول معاوية بن أبى سفيان بعد أن ازداد عدد المسلمين فى دمشق توسيع بناء المسجد الذى ضاق بالمصلين ، فطلب من نصارى دمشق النزول عن كنيسة القديس يحنا ، فرفضوا إجابة طلبه (١٦٢)، وظل المسجد على حاله حتى آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ . فعاد يطلب من نصارى دمشق النزول عن هذه الكنيسة ، فأتوا إليه بكتاب خالد بن الوليد الذى تضمن أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، فعرض عليهم عبد الملك مالاً كثيراً ليبنوا كنيسة مثلها فى أى موضع يختارونه بدمشق ، فأبوا أن يسلموها إليه (١٦٣).

ولما ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) وجد أن المسلمين فى دمشق فى أشد الحاجة إلى مسجد كبير بعد أن أصبح المسجد الأموى بدمشق لا يتسع للمصلين ، فجمع زعماء النصارى فى هذه المدينة وعرض عليهم رغبته فى إدماج كنيسة يحنا فى المسجد ، وأبدى لهم استعداده فى أن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى فى أى موضع شاءوا بدمشق أو يدفع لهم تعويضًا ماليًا عنها ، وبذل لهم أربعين ألف دينار فأبوا ، فقال لهم الوليد : لئن لم تفعلوا لأهدمنها ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين إن من هدم كنيستنا جن وأصابته عاهة ، فخرج الوليد ، ومعه معول ، فقال : أنا أول من يجن فى الله ، وبدأ الهدم بمعوله ، وتبعه العمال، وأكملوا هدمها (١٦٤).

شرع الوليد بن عبد الملك فى إعادة بناء مسجد دمشق سنة ٨٧هـ (١٦٥)، واستمر بناؤه تسع سنين ، لكنه توفى دون أن يتم بناءه فأتمه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ (١٦٦)، ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة طلب منه نصارى دمشق أن يعيد كنيستهم إليهم وقالوا له : يا أمير المؤمنين قد علمت حال كنيستنا ، ورفعوا إليه العهد الذى تضمن أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن . فأمر عمر بن عبد العزيز برد كنيستهم إليهم ، فأعظم المسلمون ذلك ، وقالوا : أنرد إليهم مسجدنًا وقد أدينا فيه الصلاة وجمعنا فيه ثم يهدم ويعاد كنيسة ؟ (١٦٧).

عرض الفقهاء من أهل دمشق على النصارى أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين – على أن ينزلوا عن كنيسة القديس يحنا ويمتنعوا عن

المطالبة بها ، فرضوا بذلك (١٦٨)، وكتب لهم عمر بن عبد العزيز سجلاً بأنهم آمنون على كنائسهم بدمشق ، والكنائس والديارات خارجها في الغوطة لا تخرب ، وليس لأحد من المسلمين عليها سلطان وأشهد لهم شهوداً على ذلك (١٦٩).

كان للمسجد الأموى بدمشق ثلاث مقصورات الأولى مقصورة معاوية ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، بناها وقاية لنفسه من المتآمرين (١٧٠)، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة محلاة بالرسوم فيها المصحف الذى وجهه عثمان بن عفان إلى الشام والمقصورة الثانية فيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة ، وفى الجانب الغربى من المسجد توجد مقصورة صغيرة (١٧١).

زينت جدران المسجد بالفسيفساء المذهب والملون وغطيت أرضه بالمرمر . أما عمده فكانت من الرخام المختلف الألوان ، ورصع محرابه بالجواهر الثمينة ، ونقش على جدرانه آيات قرآنية(١٧٢)، وينسب إلى الوليد المئذنة الشمالية المعروفة بمئذنة العروس (١٧٣)، وكان المسجد يضاء بكثير من القناديل المصنوعة من الذهب والفضة (١٧٤)، وكتب على حائط المسجد بالذهب: ربنا الله لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة ٨٧هـ (١٧٥).

كان لمسجد دمشق ستة أبواب منها أربعة أبواب رئيسية ، وهى باب الزيادة فى الناحية القبلية من المسجد . وكان قصر معاوية « الخضراء » إلى يسار الخارج منه (١٧٦). وباب الساعات فى الناحية الشرقية من المسجد . وفى الناحية الغربية باب البريد . وفى الناحية الشمالية باب الناطفيين (١٧٧).

أكسب المسجد الأموى مدينة دمشق شهرة كبيرة ، وقد انفق الوليد فى بنائه أموالاً كثيرة ، وبلغ من استياء بعض أهالى دمشق من إنفاق هذه الأموال أن قال بعضهم : أينفق فيؤنا فى نقش الخشب وتزويق الحيطان ، ثم كأنه قد حرمنا أعطياتنا ، واعتل علينا بقلة المال ؟ فلما بلغ الوليد ذلك جمع أهل دمشق ، وقال لهم : قد بلغنى مقالتكم وليس الأمر على ما ظننتم ، ألا وأنى أمرت بإحصاء ما فى بيوت أموالكم ، فأصيب فيه عطاءكم ست عشرة سنة مستقبلية من يومى هذا (١٧٨).

وفى الحق يعد مسجد دمشق آية من آيات الفن العربى والبيزنطى ، وأن فى هذا الوصف الذى ذكره ياقوت (١٧٩)، لمثلاً حياً وبرهاناً ناطقاً على ما بلغه هذا المسجد من إتقان وبهاء هو

جامع المحاسن ، كامل الغرائب ، معدود إحدى العجائب ، قد تزود بعض فرشه بالرخام ، وألف على أحسن تركيب ونظام ... يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً .

اتخذ معاوية بن أبى سفيان قصر الخضراء مقراً له ، ومركزاً لإدارة شئون الحكم ، وكان هذا القصر من المبانى التى شيدت من عصر الرومان فجدده معاوية إبان ولايته على الشام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وبناه معاوية بالطوب أولاً ثم أعاد معاوية بناء الخضراء بالحجارة ، وزينه بالذهب والمرمر والفسيفساء وأحاطه بالحدائق الغناء (١٨٠).

ظل قصر الخضراء مركزاً لإدارة الدولة ، ومقراً للخليفة فى عهد يزيد بن معاوية(١٨١) وخليفته معاوية الثانى ، ولما ولى مروان بن الحكم الخلافة سنة ٦٤هـ تزوج من فاختة بنت أبى هاشم بن عقبة – وكانت زوجة ليزيد بن معاوية – فاتخذ الخضراء مقراً له (١٨٢).

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ كانت الخضراء ملكاً لخالد بن يزيد بن معاوية ، فاشتراها منه الخليفة بأربعين ألف دينار ، واتخذها داراً للخلافة (١٨٣). وظلت على هذه الحال فى عهد الوليد بن عبد الملك . فلما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ٩٦هـ رأى أن يتخذ مقراً آخر له بدلاً من الخضراء التى تداعى بناؤها ، فشيد قصراً بدرب محرز فى موضع سقاية جيرون وجعل له قبة صفراء كالقبة الخضراء التى كانت بدار الخلافة ، واتخذ سليمان من هذا القصر – الذى عرف بالصفراء – مقراً له (١٨٤). وصار هذا القصر داراً للخلافة (١٨٥). حتى اتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة مقراً له بدلاً من دمشق (١٨٦).

اضطربت الأمور فى دمشق بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذى قضى معظم أيام خلافته فى البادية ، وبقى فى الخلافة سنة وشهرين ، ثم قُتل لسوء سيرته سنة ١٢٦هـ(١٨٧) وخلفه يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه إبراهيم ، وفى عهده تجلى الاضطراب فى البيت الأموى ، فلم يكن هناك إجماع على توليته ، فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما (١٨٨)، وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد (١٨٩).

ولما آلت الخلافة إلى مروان بن محمد تعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسرى بدمشق ، وانضمت إليه اليمنية ، فأرسل مروان إلى دمشق جيشاً أخمد الثورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى قام بها اليمنية فى بلاد الشام (١٩٠).

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها إلى خلعه وانضمت إليه اليمنية ، فسار إليه مروان ، وأوقع به الهزيمة(١٩١).

ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمني ، فقد آثر مروان بن محمد أن يتخذ حران حاضرة لدولته بدلاً من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته (١٩٢). وضعف منذ ذلك الوقت شأن دمشق كحاضرة للخلافة الأموية .

أدعو الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن ينفعنا بها يوم الدين ويغفر لنا خطايانا أنه سميع مجيب الدعاء وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الهوامش

1 - Hitti : History of Syria, p. 382 .

2 - Kremer: Orient Under. The caliphs, p. 133 - 134 .

3 - Encyc of Islam, Art Damascus .

4 - Hitti : History of Syria, p. 398 - 396 .

٥ - لما هاجرت الأزد من اليمن على أثر انكسار سد مأرب استقرت إحدى قبائلها بجوار ماء يقال له غسان بالشام ، فسموا " أزدغسان " (زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٨٤) .

6 - Hitti : History of the Arabs, p. 78 .

٧ - الضجاعمة من ولد سليح بن عمرو بن حلوان من قضاعة . وقد هاجرت قبيلة قضاعة إلى الشام حوالى سنة ٢٣٠م أى نهاية تدمر .

(Susseeud : Les Arabs en Syria avant 1 Islam, p. 9)

(Oleary : Arabia befor Muhammad, p. 161 - 162)

٨ - نلدكه : أمراء غسام ، ص ٥٢ - ٥٤ . الجابية قرية من أعمال دمشق (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢، ص ٩١) .

9 - Hitti : History of Syria, p. 78 .

10 - Hitti : History of Syria, p. 78 .

١١ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ١١ .

١٢ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ١١ .

13 - Hitti : History of the Arabs, p. 69 .

14 - Hitti : History of the Arabs, p. 79 - 80 .

15 - Hitti : History of the Arabs, p. 80 .

١٦ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ٣٤ .

17 - Lammens : Etudes sur le regne du calife Moawia, p. 286 - 289 .

١٨ - نلدكه : أمراء غسان ، ص ٤٦ .

19 - Hitti : History of the Arabs, p. 80 .

٢٠ - كان اليعاقبة يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة لها كل الصفات البشرية والإلهية ، بينما يرى أتباع المذهب الملكانى بأن للمسيح طبيعتين بشرية وإلهية لا اختلاط بينهما ، وكل طبيعة تحتفظ بخصائصها. ويرى هرقل أن المسيح يحقق الجانب الإنسانى والجانب الإلهى بقوة إلهية إنسانية واحدة (أرنوك :

الدعوة إلى الإسلام ، ص ٥٢) .

٢١ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ١ ، ص ٢١٥ .

٢٢ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٣ .

٢٣ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ١٨٥ .

24 - Muir, The Caliphate, p. 15 .

٢٥ - الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٣ .

٢٦ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٣ .

٢٧ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٥٤ .

٢٨ - أبنى : موضع بالشام جهة البلقاء ويقال أنها قرية مؤتة (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٩٧) .

٢٩ - المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ١ ، ص ٥٤٠ .

٣٠ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٦ .

٣١ - سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص ٤٢ .

٣٢ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٢ .

٣٣ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٤ .

٣٤ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٣ .

٣٥ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٤ - ١١٥ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص ١٥٥ .

٣٦ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٤ - ٥ .

٣٧ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٦ .

38 - Muir, The Caliphate, p. 66 .

٣٩ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٦ .

40 - Muir, The Caliphate, p. 66 .

٤١ - تاريخ اليعقوبى : جـ١ ، ص ١١٢ .

٤٢ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٦ - ١١٧ .

٤٣ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١١٧ - ١١٨ .

٤٤ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ ١ ، ص ٢١ .

45 - Muir, The Caliphate, p. 70 - 71 .

٤٦ - Muir, The Caliphate, p. 71 : (الحواضر الإسلامية ، م ٢) .

٤٧ - الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٥٢ .

٤٨ – الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٣٤ .

٤٩ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٢ .

٥٠ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٤ .

٥١ – تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، ص ١١٣ .

٥٢ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ .

٥٣ – ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٥ .

٥٤ – الطبرى : تاريخ الأمم والملك ، جـ٣ ، ص ٤٣٥ .

٥٥ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢١ .

٥٦ – ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٢ ، ص ٩٨ .

57 - Muir, The Caliphate, p. 93 .

٥٨ – الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٣٩ .

٥٩ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٥٢ .

٦٠ – الباذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦١ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦٢ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦٣ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ .

٦٤ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٥٥ .

65 - Encyc. Of Islam, Art Damascus .

٦٦ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

٦٧ – محمد بن سعد : كان كاتبًا للواقدى وكان راوية . (فتوح البلدان البلاذرى : تحقيق صلاح الدين المنجد ، جـ١ ، ص ١٨) .

٦٨ – الواقدى : فتوح الشام ، جـ١ ، ص ٦٤ .

٦٩ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤١ .

70 - Muir, The Caliphate, p. 129 - 130 .

71 - Muir, The Caliphate, p. 129 - 130 .

٧٢ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٢ .

٧٣ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

٧٤ – الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٦٥ .

75 - Muir : The Caliphate, p. 130 .

76 - Muir : The Caliphate, p. 136 .

٧٧ - محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ص ٤٦ .

٧٨ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

٧٩ - المد : ربع الصاع ، والصاع مكيال لأهل المدينة (الكرملي : النقود العربية ص ٣٩) .

٨٠ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

٨١ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٨ .

٨٢ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ١ ، ص ٥٢٥ .

٨٣ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٠ .

٨٤ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٣ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

٨٥ - محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ص ٥٩ .

٨٦ - الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ ، ص ٣٤٥ .

٨٧ - الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٢٠ .

٨٨ - الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٢٠ .

٨٩ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٦ .

٩٠ - محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ص ٩٤ .

٩١ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٣ .

٩٢ - فيصل شكري : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، ص ٦٧ .

٩٣ - فيصل شكري : المجتمعات الإسلامية ، ص ٤٧ - ٤٩ .

٩٤ - كرد علي : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ، ص ١٢٢ .

٩٥ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ١ ، ص ٣٦ .

٩٦ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ١ ، ص ٢٠٣ .

٩٧ - كتاب الوزراء والكتاب ، ص ٤٠٤ .

٩٨ - كتاب فتوح البلدان ، ص ٢١٠ .

99 - Hitti : History of the Arabs, p. 117 .

١٠٠ - الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

١٠١ - تاريخ بن الوردي : جـ١ ، ص ١٩٥ .

١٠٢ - كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

١٠٣ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .

١٠٤ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ – ٤٨ .

١٠٥ – فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٧ .

١٠٦ – الدورى : مقدمة فى صدر الإسلام ، ص ٧٩ .

١٠٧ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ – ٧٠ .

١٠٨ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ – ٧٠ .

١٠٩ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ .

١١٠ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦٩ .

١١١ – نفس المصدر ، ص ٥٠ – ٥١ .

١١٢ – فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٧ .

١١٣ – أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٥٤ .

114 - Charlesworth : Trade Routes of the Roman Empire, p. 38 .

115 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 139 .

١١٦ – الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٤٣٧ .

١١٧ – كتاب البلدان ، ص ٣٢ .

١١٨ – رحلة ابن جبير : ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

١١٩ – معجم البلدان : جـ٢ ، ص ١٦٤ .

120 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 141 .

121 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 141 .

١٢٢ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ .

١٢٣ – البلاذرى : فتوح البدان ، ص ١٣٢ .

١٢٤ – البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

125 - Kremer : Orient under the Caliphs, p. 141 .

١٢٦ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٢٧ – ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٥ .

١٢٨ – ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٢٩ – ابن كثير الدمشقى : البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ٢٠ .

١٣٠ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٣١ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٣٢ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

١٣٣ – ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٧ ، ص ٢٠ .

١٣٤ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٣ .

١٣٥ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

١٣٦ – ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ١٥ .

١٣٧ – Encyc. Of Islam, , Art Damascus – كان الشارع الرئيسى فى دمشق اسمه " المستقيم " وكان طوله ١٦٠٠ متر ويمتد من شرق المدينة إلى غربها ويضم على جانبيه ممران أحدهما للمشاة والآخر للركبان .

138 - Muir : The Caliphate, p. 99 .

١٣٩ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

١٤٠ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ . يذكر البلاذرى أن الناس لما اجتمعوا لتشييع جنازة عبد الملك بن مروان وجد الوليد بن عبد الملك أنهم لا يستطيعون السير فى الجنازة بسبب بيت يعترض الطريق ، فأمر بهدمه . (أنساب الأشراف جـ١١ ، ص ٣١٥) .

١٤١ – ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ١ ، ص ٥٩٧ .

١٤٢ – العينى : عقد الجمان القسم الثالث ، جـ١٠ ، ورقة ٢٨٣ .

١٤٣ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ ؛ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢٧ .

١٤٤ – عمان القماطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء ، ص ٧٣ .

١٤٥ – سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٦٥ .

146 - Ency, Of Islam : Art Damascus.

١٤٧ – سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٦٢ .

١٤٨ – ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٩٢ .

١٤٩ – المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

١٥٠ – تاريخ اليعقوبى :

151 - Hitti : History of the Arabs, p. 277 .

152 - Ency, of Islam, Art Damascus .

١٥٣ – ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ١ ، ص ٢٢٠ .

١٥٤ – ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٩ ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

١٥٥ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٧٠ .

١٥٦ - ذكر المسعودى أن معاوية كان ينفذ من قصره مباشرة إلى المسجد فى كل صلاة (مروج الذهب جـ٢، ص ٥٠ - ٥٣) ومما يدل على أن المسجد القديم كان مجاوراً للخضراء أن هشام بن إسماعيل المخزومى قدم دمشق ، وجلس بعد الصبح فى مسجدها ، فسمع عبد الملك بن مروان يقرأ القرآن فى الخضراء . (ابن كثير الدمشقى البداية والنهاية جـ٩ ، ص ١٥٩) .

157 - Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens, p. 159 .

١٥٨ - ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٩ ، ص ١٤٣ .

١٥٩ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٢٢ .

160 - Ency: of Islam, Art Damascus

١٦١ - تاريخ الأمم والملوك ، جـ٥ ، ص ٥٣٣ .

١٦٢ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣١ .

١٦٣ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣١ .

١٦٤ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٢ .

165 - Creswell: Early Muslim Architecture, Part 1, p. 131 .

١٦٦ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ١٩٩ .

١٦٧ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٠٩ .

١٦٨ - البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

١٦٩ - ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ٢ ، ص ٤٤ .

١٧٠ - رحلة بن جبير : ص ٢٥٣ .

١٧١ - رحلة بن جبير : ص ٢٥٣ .

١٧٢ - رحلة بن جبير : ص ٢٤٩ .

173 - Creswell : Farly Muslim Arthitecture, Part 1 , p. 120 .

١٧٤ - المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٦٦ .

١٧٥ - المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٢٠ .

١٧٦ - رحلة بن جبير : ص ٢٥٧ .

١٧٧ - العمرى : مسالك الأبصار ، ص ١٨٨ .

١٧٨ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

١٧٩ - معجم البلدان : جـ٢ ، ص ٤٦٦ .

١٨٠ - ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٣ .

١٨١ – الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ .

١٨٢ – المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

١٨٣ – ابن عساكر : التاريخ الكبير ، جـ١ ، ص ٢٤٨ .

١٨٤ – الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ٤ ، ص ٨ ؛ الديار بكرى : تاريخ الخميس ، جـ٢ ، ص ٣١٤ .

١٨٥ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٩ .

١٨٦ – المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

١٨٧ – السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٦ .

١٨٨ – ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٢٣ .

١٨٩ – الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٣٤ .

١٩٠ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٥٦ .

١٩١ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٥ ، ص ١٥٧ .

١٩٢ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ، ص ٣٤١ .

المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكوم : الكامل فى التاريخ ، ١٣ جزءًا - القاهرة ١٩٥٢م.

٢ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٢٨م.

٣ - أرنولد : Arnold. Tomas W, : The Caliphase ; The Preachlang of Islam – نقله إلى العربية الأساتذة : حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى باسم " الدعوة إلى الإسلام" .

٤ - أسد رستم : الروم وصلاتهم بالعرب ، بيروت ١٩٥٥م .

٥ - الأصبهانى : (ت ٢٥٦هـ / ٩٦٧م) أبو الفرج : كتاب الأغانى ، ١٦ جزءًا - القاهرة ١٩٦٣م.

٦ - الاصطخرى : (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى : المسالك والملك ، تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال - القاهرة ١٩٦١م.

٧ - ابن أبى أصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، (جزءان - القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠هـ) .

٨ - الألوسى : السيد محمود شكرى البغدادى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، (ثلاثة أجزاء - القاهرة ١٩٢٤م) .

٩ - أمير على : سيد Amer Ali Sayed : A Short History of The Saracens ، نقله إلى العربية رياض رأفت باسم : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ، (القاهرة ١٩٢٨م) .

١٠ - أنتونى نتنج : العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام : ترجمة راشد البراوى (القاهرة ١٩٧٤م) .

١١ - أوليرى : دى لوسى : Oleary, De Lucy : Arabia Before Mohammed, London, 1977 .

١٢ – بارتولد : ف Bartold, F : تاريخ الحضارة الإسلامية . نقله إلى العربية حمزة طاهر – (القاهرة ١٩٤٣م) .

١٣ – بروكلمان : كارل Brokelman Carl : " Gesbchte der Islamischen Uolker and Statem " ، نقله إلى العربية الدكتور نبيه فارس والأستاذ منير بعلبكى باسم : " تاريخ الشعوب الإسلامية " ، (دار العلم للملايين – بيروت ١٩٤٨م) .

١٤ – البكرى : (ت ٤٨٧هـ / ١٠٧٩م) أبو عبيد الله بن عبد العزيز : معجم ما ستعجم ، حققه الأستاذ مصطفى السقا (القاهرة ١٩٤٥م) .

١٥ – البلاذرى : (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر :

– فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ هـ .

– أنساب الأشراف الجزء السابع – مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٠٤ ، وجـ ١١ ، القدس ١٩٣٦م .

١٦ – ترنون : أ : أهل الذمة فى الإسلام ، نقله إلى العربية حسن حبشى (القاهرة ١٩٤٩م).

١٧ – الثعالبى : (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م) أبو منصور عبد الملك الثعالبى : لطائف المعارف .

١٨ – الجاحظ : (ت ٣٥٦هـ / ٨٦٩م) أبو عثما عمرو بن بحر

– كتاب : التارج فى أخلاق الملوك ، حققه المرحوم أحمد زكى ، (القاهرة ١٩١٤م) .

– كتاب : البيان والتبيين ، (٤ أجزاء – القاهرة ١٩٣٨م) .

– كتاب : التبصر بالتجارة ، (القاهرة ١٩٣٥م) .

١٩ – جب : هاملتون . أ.ر : Gibb Hamilton A.R. : The Arab Conquests in central Asia, London, 1923 .

٢٠ – ابن جبير : (ت ٦١٤هـ) ، محمد بن أحمد بن جبير : رحلة بن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥م) .

٢١ – الجهشيارى : (ت ٣٣١هـ / ١٩٤٣م) أبو عبد الله محمد بن عيدروس : الوزراء والكتاب، حققه ونشره الأستاذة : مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى . (القاهرة ١٩٣٨م) .

٢٢ – ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) أبو الفرج عبد الرحمن على بن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ، (القاهرة ١٣٣١هـ) .

٢٣ – حتى : فيليب : Hitti, Philip : History of the Arab, London, 1945 ; History of Syria, London, 1950 .

٢٤ – ابن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٩٤٩م) : شهاب الدين بن على العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، (القاهرة ١٣٢٣هـ) .

٢٥ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، (القاهرة ١٩٦٤م) .

٢٦ – حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى فى العصر العباسى (القاهرة ١٩٧٣م) .

٢٧ – حسينى س . أ . ق : Hussini s. A.O : Arab Administration ، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أحمد العدوى باسم : الإدارة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨م) .

٢٨ – حمزة الأصبهانى (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م) أبو عبد الله حمزة ابن الحسن الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، (ليبزج ١٨٢٤م) .

٢٩ – ابن خرداذبة : (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : المسالك والممالك (دى غويه ١٨٨٥م) .

– مختارات من كتاب « اللهو والملاهى » . الملزم الأب أغناطيوس اليسوعى بيروت ١٩٦١م .

٣٠ – ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م – ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد ، : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، (٧ أجزاء – بولاق ١٢٨٤هـ) .

٣١ – ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس ، أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى : وفيات الأعيان ، (جزءان – بولاق ١٢٨٣هـ) .

٣٢ – الدميرى (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) محمد بن موسى كمال الدين ، . حياة الحيوان الكبرى ، (جزءان – القاهرة ١٣٠٩م) .

٣٣ – دوزى : ر . ب . أ Dozy : R.P.A. : Easal our I. History de. Islamisme, Par-. is, 1879

٣٤ – دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام Da Boer .

٣٥ – الدينورى : (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) أبو حنيفة أحمد بن داود : الأخبار الطوال ، (جزءان – ليدن ١٨٨٨م) .

٣٦ – الذهبى : (ت ٧٨٤هـ / ١٣٤٧م – ١٣٤٨م) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، (٥ أجزاء – القاهرة ١٩٥٩م) .

٣٧ – ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، (مجموعة الكتب الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٩١ – ١٨٩٢م) .

٣٨ – روفائيل بابو إسحاق : تاريخ نصارى العراق (بغداد ١٩٤٨م) .

٣٩ – زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، (القاهرة ١٩٤٨م) .

٤٠ – زكى نجيب محمود : جابر بن حيان (القاهرة ١٩٧٥م) .

٤١ – زيدان . جرجى : تاريخ التمدن الإسلامى (٥ أجزاء – القاهرة ١٩٠٢ – ١٩٠٦م) .

٤٢ – ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، تحقيق مصطفى جواد .

٤٧ – ابن سعد (ت ٧٣٠هـ /٨٣٥م) ، محمد : كتاب الطبقات الكبيرة ، (٨ أجزاء – ليدن ١٣٢٢م) ..

د. نعمة علي مرسي (*)

العلم والعلماء فى المشرق وآسيا الوسطى

مقدمة :

ظهر فى آسيا الوسطى العديد من المراكز الثقافية الهامة التى تعتبر منارة للعلم والعلماء ، ومن أهم هذه المراكز بلاط الدولة المأمونية فى خوارزم (١) وقصر شمس المعالى قابوس بن وشمكير (٢) فى طبرستان وجرجان ، وقصر الصاحب بن عباد وزير البويهيين فى الرى وأصفهان (٣) ، بالإضافة إلى قصر السامانيين فى بخارى (٤) .

لقد شهدت العديد من البلاد فى آسيا الوسطى حركة علمية وثقافية واسعة ، انعكس مدارها على الحكام والرعية، فشجع الأمراء العلم والعلماء ، وأجزلوا لهم العطايا والهبات، وأحاطوا أنفسهم بنخبة عظيمة من أشهرهم وأفضلهم ، وبرع الشعراء فى نظم القصائد فى مدح الأمراء ، وتهافت العلماء على القصور الحاكمة ، يصنفون الكتب ويهدونها باسم حكام هذه القصور .

وقد آثرت أن أدرس دولتين ، وهما الدولة المأمونية والدولة الزيارية فى طبرستان وجرجان ، على أساس أنهما ظهرتا فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وأن هناك صلات تجارية قديمة تربط بينهما (٥) ، وتأثر الأهالى فى تلك البلدان بالثقافة الإسلامية ، من الدولة السامانية التى كانت إشعاعا فكريا انتشر فى المنطقة ، لذا فإن المقومات العقائدية حملها السامانيون معهم إلى جانب المقرومات السياسية والفكرية والمؤثرات الثقافية إلى دولتى المأمونيين والزياريين ، كذلك الدولة الخانية فى تركستان بآسيا الوسطى .

---

* - أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد - كلية دار العلوم - جامعة المنيا .

أولا : العلم والعلماء في الدولة المأمونية :

تأسست الدولة المأمونية فى الجرجانية فى الجزء الشمالى من خوارزم ، بينما كان الجزء الجنوبى فى يد الخوارزمشاه وعاصمته مدينة كاث (٦) ، واستطاع حكام الدولة المأمونية ضم الإقليم كله إلى حكمهم وتلقب ملوكهم بلقب الخوارزمشاه (٧) .

ونحن فى الواقع لانعرف شيئا عن نسب المأمونيين ، و لا متى بدأت دولتهم وقد أطلق المؤرخون عليهم المأمونيين ، ونظرا إلى أن أول أمرائهم على إقليم خوارزم بعد توحيده كان يدعى مأمون بن محمد (٨) ، وقد ورد ذكرهم فى تاريخ ابن الأثير (٩) منذ أحداث سنة٣٨٥هـ /٩٩٥ م ، أثناء الصراع القائم بين أحد أمرائهم وهو مأمون بن محمد وأبى عبدالله خوارزمشاه ، فقد تهيأت الظروف السياسية فى تلك الآونة لوالى الجرجانية لإخضاع الجزء الجنوبى فى إقليم خوارزم ، نتيجة لمناصرته لأبى سيمجور أحد أمراء الدولة السامانية(١٠) الذى فر من الأمير نوح بن منصور إلى منطقة هزار أسب (١١) ، على أن الأمير أبن عبدالله خوارزمشاه بادر بمخادعة أبى على وأودعه السجن (١٢) ، وعندما وصلت الأنباء للأمير مأمون بالجرجانية، بادر بتجهيز جيش لمناصرته وللإيقاع بأبى عبدالله خوارزمشاه (١٣) .

وهكذا نجح مأمون بن محمد فى ضم إقليم خوارزم لحكمه ، وتعيين نائب عنه على المنطقة الجنوبية ، فأعاد بذلك الوحدة السياسية للإقليم وورث اللقب الملكى خوارزمشاه(١٤).

ظل المأمونيون تابعين لنفوذ الدولة السامانية سواء أكانوا حكاما لشمال خوارزم أم حكاما للإقليم بأكمله ، لدرجة أن الأمير المستنصر إسماعيل بن نوح لاذ بالفرار من أمام أيلك خان(١٥) إلى بلاط الأمير على بن مأمون فى محاولة منه لإسترجاع بلاده من الخانيين الترك(١٦) ، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجة لقوة الجند الأتراك ، وضعف الأمير نفسه .

وعندما اشتد عود الدولة الغزنوية وارتفع شأن سلطانها محمود ، خضعت الدولة المأمونية لسلطانه ، وأصبحت تحت حمايته (١٧) ، وان كانت هذه التبعية فى بادىء الأمر لم تتخذ صفة رسمية بإقامة الخطبة للسلطان على منابر خوارزم ، إلا أنه كان يحسب لغزنه وسلطانها المكانة العالية وربطت الصداقة والمصاهرة بين الدولتين فقد تزوج الأمير على بن مأمون بأخت السلطان محمود ، ثم بزواج الأمير أبى العباس مأمون من نفس السيدة عقب وفاة أخيه (١٨).

ازداد نفوذ السلطان محمود فى خوارزم شيئا فشيئا ، خاصة فى عهد الأمير أبى العباس مأمون -الملقب بمأمون الثانى -لدرجة أنه طالب بالاستحواذ على السلطة ، وإقامة الخطبة على سائر منابر خوارزم باسمه (١٩) ، مع تقديم الجزية لخزانة غزنه ، وكانت هذه الخطوة عقب رفض الأمير أبى العباس الاشتراك فى إرسال مندوب من قبله لعقد الصلح مع خانات الترك عقب موقعة أوزكندا (٢٠) ، وعلى ذلك دخل فى قلب السلطان محمود الكراهية لأمير خوارزم ، وشعر بعدم إخلاصه له ، وأخذ بنصيحة وزيره أبى القاسم أحمد بن الحسين الميمندى بأن يمتحن إخلاص وولاء المأمونيين بإقامة الخطبة وإعلان التبعية لغزنة(٢١) .

وقد ترتب على ذلك ثورة أهل خوارزم بقيادة أبتكين على أميرهم ، وزحف السلطان محمود بجيشه وضم خوارزم ، وعين حاجبه الكبير ألتونتاش حاكما عليها ، وذلك فى حدود سنه ٤٠٨هـ/١٠١٨ م (٢٢) ، وقد قال الشاعر العنصرى قصيدة باللغة الفارسية تخلد انتصار السلطان محمود جاء فى مطلعها بترجمتها باللغة العربية :

هكـذا السيف الملـكى الأثـــــار وهكذا يفعل العظماء إذا لزم القتال

انظر سيف الملك ولاتقرأ كتب الأولين فإن سيفه أكثر أنباء من الكتب (٢٣)

وعلى ذلك انتهت الدولة المأمونية ، التى حظيت فترة حكمها بنشاط علمى وثقافى كبير ، وكان نظامها الإدارى يعتمد على الوزراء كالوزير أبوالحسن السهيلى الذى تولى الوزارة لعلى بن مأمون ، وبداية عهد الأمير أبو العباس مأمون (٢٤) كذلك تولى أحمد طفان الوزارة للأمير الصغير أبوالحارث محمد بن مأمون ، فما لبث أن نحى الأمير واستولى على مقاليد الحكم يسانده فى ذلك القائد البتكين البخارى (٢٥) .

١-دور الحكام المأمونيين فى تشجيع العلم :

أسهم حكام خوارزم من المأمونيين بدور بارز فى ازدهار الحركة الفكرية والثقافية فى بلادهم، فناصروا العلم ورصدوا الأموال الطائلة فى سبيل تأسيس المكتبات وعينوا الأوقاف لها، ورعوا الشعراء والكتاب والحكماء (٢٦) ، وانبعثت من بلاطهم الإشعاعات الفكرية فتم التأليف والتصنيف سواء باللغة العربية أو باللغة الفارسية ، وأسهم الأمراء وخاصة أبا العباس مأمون بجهود صادقة فى إيواء العلماء والشعراء وتشجيعهم واستدرار مدحهم ، وصارت عاصمتهم موطنا للعلم والأدب ، ومقصدا للشعراء والأدباء ، لرواج سوق الثقافة بها ، فقد نبغ

الكثير من العلماء والأطباء في بلاطهم ، وتمتع بعض أمرائهم بالثقافة ، فكان الأمير أبوالحسن مأمون بن محمد بن مأمون شاعرا مفوها ، له العديد من القصائد (٢٧) ، واشتهر وزراؤهم بحب العلم وأهله ، فكان الوزير أبوالحسين السهيلي من أنبه العلماء ، اشتهر بتشجيع العلم ومصادقة العلماء ، وكان مجلسه عامر بهم ، ومن أمثال أبي علي بن سينا (٢٨) .

استعان المأمونيون في مجالسهم بكثير من العلماء والندماء ، فكانت منادمة الأمير ومجالسته أمرا عظيما وعملا خطيرا ، لأن النديم شاهد على عقل الحاكم وبرهانا على فضله ، والإنسان بفطرته الطبيعية يميل إلى اقتباس أخلاق جليسه ، وبناء على ذلك كان للأمراء المأمونيين رجال مصطفون وجلساء مجربون وندماء مختارون ، كذلك احتوت مجالسهم على كثير من مظاهر البهجة ، خاصة في مجالس الموسيقي والغناء والطرب التي ضمت مطربين حسني الصوت مهرة (٢٩) ، فقد احتلت الموسيقى مكانة بارزة في حياتهم ، وكان الشعر في كثير من الأحيان ينشد في قصورهم على أنغام العزف والموسيقى .

وعلى ذلك فإنه يستفاد بأن ندماء المأمونيين كانوا على درجة كبيرة من العلم والمعرفة فلم يكونوا من المهرجين أو عامة الشعب ، بل كانوا علماء أفاضل نابغين في التأليف والعلم والأدب ، من أمثال أبي منصور الثعالبي صاحب "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" ، الذي عمل نديما فترة طويلة في بلاط الأمير أبي العباس مأمون ، وألف باسمه كتبا ومصنفات علمية كثيرة (٣٠) .

كما ضم مجلس هذا الأمير عالما جليلا فاضلا هو "أبوالريحان البيروني" الذي عمل نديما مايقرب من سبع سنوات في مجلس الأمير ، وحفظ لنا جزء كبيراً من تاريخ هذه الأسرة في كتابه المسمى تاريخ خوارزم أومسامرة خوارزم ، ولكن لسوء الحظ فإن هذا المصنف قد فقد، وما وصل إلينا منه أجزاء متفرقة نقلها المؤرخ البيهقي في تاريخه (٣١) .

اتصف المأمونيون بالكرم والبذخ فكان الأمير أبو العباس مأمون يهب العلماء والشعراء العطايا ببذخ شديد ، ويمنح كل واحد منهم حصانا قيما وكسوة وكيسا من المال به عشرة آلاف درهم (٣٢) .

لقد عظمت مكانة العلماء في بلاط المأمونيين ، وزادت هبات الأمراء وعطاياهم ، وخير دليل على ذلك ارتفاع شأن أبي الريحان البيروني ، فوصل من علوا شأنه أن الأمير أبا العباس

مأمون كان يترجل عن جواده أمامه تقديرا واحتراما للعلم ومكانته العالية ، وكلما استنكر عليه البيروني ذلك كان يقول : "العلم من أشرف الولايات يأتيه كل الورى ولايأتي ..فالعلم يعلو ولايعلى عليه (٣٣) " .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى مكانة البيروني في نفس الأمير أبي العباس ، فقد كان موضع سره ، يستأمنه على خبايا الأمور ، ويرسله لاستقبال الرسل والهدايا وذلك لأن الاتصال بين الأمراء المأمونيين في خوارزم والخليفة العباسي في بغداد كان يتم عن طريق السلطان محمود وبواسطته ، وأن الخلع والهدايا والهبات من الخليفة تأتي عن طريق غزنه(٣٤)، لذا خشي أبوالعباس على نفسه من غضب السلطان عندما أرسل إليه الخليفة القادر بالله مع عهده بالولاية هدية ولواء ، وخطاب يحمل ألقاب للأمير ، حيث لقبه "أميرالدولة وزين الملة" ، فقرر الأمير ألا يستقبل رسول الخليفة المسمى "حسين سالار" كبير الحجاب بعاصمة إمارته ، بل فضل إرسال أبي الريحان البيروني ليستقبله في الصحراء خارج خوارزم ، ويتسلم منه الخلع والألقاب ، مع ستر هذا الأمر ، وعدم إذاعته على الرعية ، خشية وصول أخبارها إلى مسامع السلطان محمود بغزنه (٣٥) ، والذي كان يرعى جانبه ومكانته ، ويبدي لاسمه كثيرا من الاحترام والتواضع إلى درجة أنه كان حين يجلس للشرب ويدعو صفوة رجاله وقواده إلى مجالسه ، فان الأمير كان يأمرهم بالوقوف عند وصولهم للكأس الثالث اجلالا وتقديرا للسلطان محمود الغزنوي (٣٦) .

وتعتبر المكتبات وخزائن الكتب من أهم عوامل النهضة الثقافية في الدولة المأمونية ، فقد اهتم الحكام بإقامة المكتبات ، وإمدادها بأندر الكتب والمحفوظات ، فزخر بلاطهم بخزائن الكتب ، فضلا عن المكتبات الخاصة المملوكة للعلماء والشعراء (٣٧) ، والتي حوت آلاف المصنفات في شتى العلوم والفنون المختلفة ، مما أثرى الحياة الثقافية والأدبية في العصر المأموني .

٢ – بلاط المأمونيين مركزا للعلماء وأهل الفكر :

لقد ضم بلاط المأمونيين نخبة عظيمة من أهل العلم والفكر ، وازدان مجلسهم بالعظماء والشعراء ، حيث تجمع عدد كبير منهم خاصة في عهد الأمير أبي العباس مأمون ، الذي حظي بلاطه بمجموعة بارزة من خيرة العلماء ، يأتي على رأسهم أبي علي بن سينا وأبو الريحان

البيروني ، وأبو نصر العراق ، وأبو الخير الخمار (٣٨) ، الذين برعوا في العديد من العلوم كالطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم العقلية ، وكان الأمير أبو العباس مأمون يرعاهم جميعا رعاية تامة ، ويهبهم الهبات ويجزل لهم العطايا .

ومع ازدياد نفوذ السلطان محمود وارتفاع شأن غزنه االعلمي والسياسي فإن السلطان بدأ في المطالبة بالاستحواذ على هؤلاء العلماء البارزين ، ولكي يستأثر بهم في بلاطه فإنه أمر بإحضارهم من خوارزم على الفور ، وأرسل لهذا الغرض رسولا من قبله هو أبو الفضل حسين بن ميكال ، يحمل رسالة مطولة بهذا الأمر (٣٩) .

ولما كانت الدولة المأمونية في عهد الأمير أبي العباس مأمون ، تدين بالولاء لسلطان غزنه، فإن الأمير خشي على نفسه وعلى دولته من مغبة رفض طلب السلطان ، وفي نفس الوقت لابد له أن يبرهن على صدق إخلاصه وحسن نواياه ، مع رغبته الأكيدة في عدم إرسال هؤلاء العلماء إليه ، لذا تحايل على رسول السلطان في إبقائه بالقصر دون مقابلة من يطلب من العلماء ، حتى أطلعهم على ما حوته رسالة السلطان ، وخيرهم بين الذهاب إليه ، أو الفرار خارج البلاد ، قائلا :"إنني لا أريد أن أبعث بكم إلى السلطان رغما عنكم ، فإذا كنتم لاتريدون الذهاب إليه ، فعليكم أن تدبروا أمركم ، وتنصرفوا قبل أن يراكم مبعوثه في خوارزم(٤٠) .

ومن ثم اختار كل من أبي الريحان البيروني وأبي الخير الخمار وأبي نصر العراق الذهاب إلى بلاط السلطان محمود ، بينما فضل أبو علي بن سينا وأبو سهل الفرار من خوارزم ، فرحلا من فورهما ، وفي الطريق مات أبو سهل ، وواصل ابن سينا فراره حتى مدينة جرجان في دولة قابوس بن وشمكير الزياري (٤١) .

ومن هنا نستنتج أن السلطان محمود كان يتطلع إلى جمع العلماء في بلاطه ، وينظر إلى بلاط خوارزم نظرة الغيرة والحسد ، وعلى الرغم من أن الأمير أبا العباس مأمون كان يبجل العلماء ويقدرهم وأنه مرتبط برباط مصاهرة وصداقة مع السلطان إلا أنه لم يمتلك القوة والنفوذ لحمايتهم .

كذلك ساهم المأمون مساهمة فعالة في إنشاء المؤسسات العلمية ، والتي نهضت بالعلم بصورة واضحة ، فقد أقام المساجد التي تعد المركز الأول لنشر العلوم وتعليم طلاب العلم

ورواد المساجد فى حلقات الدرس الشيء الكثير . والذى يعد من أهم المنشآت المعمارية القاخرة فى البلاد ، ويدل على مدى ما وصل إليه من الكتابة والنقش على الحجر ، وخير شاهد على ذلك منارة المسجد الذى أقيم فى الجرجانية ، ويحمل النقش اسم الأمير ، وتاريخ البناء وهو عام ٤٠١هـ/١٠١٠ م .

٣- أهم العلوم فى خوارزم :

انقسمت دراسة العلوم فى العصر الإسلامى إلى قسمين علوم نقلية وهى العلوم الدينية البحثية كالقرآن الكريم وعلوم السنة المطهرة والفقه وغيرها ، وعلوم عقلية تقوم على دراسة الطبيعة والطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق والآداب وغيرها من العلوم .

ومن البديهى أن علوم الحديث والفقه وحفظ القرآن الكريم كانت فى المرتبة الأولى من اهتمام الأمراء ، خاصة فقه المذاهب السنية الأربعة ، فالمأمونيون كانوا مسلمين على المذهب السني ، مذهب الخلافة العباسية (٤٢) ، وأكثر ماوصل إلى أيدينا من علوم عند المأمونيين هى العلوم العقلية ، لذا سأتناول بعض من هذه العلوم بالشرح :

١- علم التاريخ :

يعد علم التاريخ مستودعا للتجارب البشرية ، والعلاقات الإنسانية ، ودعاية كبرى للتقدم السياسى للأمم والشعوب ، فهو فن يبحث فيه عن وقائع الزمن من حيث التعيين والتوقيت .

ومن أشهر المؤرخين فى الدولة المأمونية " أبو الريحان البيرونى" ، ذلك المؤرخ الذى حظى بمكانة عظيمة فى البلاط ، بإقامته ما يقرب من سبع سنوات فى الجرجانية ، وتأليفه كتابا خاصا عن خوارزم وتاريخها ، أطلق عليه اسم تاريخ خوارزم أو مسامرة خوارزم ، قيل أنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بهذا الإقليم ، خاصة الوقائع التاريخية التى شاهدها بنفسه ، فاعتبر شاهد عيان (٤٣) ، ولقد وصل لنا جزء من هذا التاريخ عن طريق ما نقله المؤرخ البيهقى من حوادث فى تاريخه (٤٤) ولقد أجمع العديد من المستشرقين على أن البيرونى كان مؤرخا يشار إليه بالبنان (٤٥) أمضى فترة من الوقت فى جرجان فى بلاط قابوس بن وشكمير ، ثم عاد مرة أخرى إلى خوارزم ، وشاهد بعينه القضاء على الدولة المأمونية ومقتل الأمير أبى العباس مأمون فى سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م (٤٦) .

٢-علم الطب :

نال هذا العلم اهتماما كبيرا عن غيره من العلوم ، فهو العلم الذى يبحث فيه عن بدن الإنسان من جهة ما يصح وما يمرض لالتماس حفظ الصحة وإزالة المرض ، وقد ارتفع شأن علم الطب فى خوارزم ، وتقدمت وسائل دراسته ، وزخرت مكتبة المأمون آنذاك بما ألفه كثير من الأطباء ، ولا غرابة إذا نال الطب هذه المكانة المتميزة بين العلوم ، فهو إلى جانب أنه مهنة مربحة تدر على صاحبها الثروة فإنها تكسبه صحبة الناس وإجلالهم وتقديرهم . وتدل الإشارات على أن علم الطب لم يزدهر بصورة واضحة فى خوارزم فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، بل بدأت ملامحه فى النمو والتطور على يد العالم الجليل أبى على بن سينا (٤٧) ، الذى أقام فترة فى بلاط المأمونيين فى الجرجانية (٤٨) ، وخصص له الأمير عملا ، ورعاه رعاية تامة ، حتى أصبح له الصدارة بين جلساء مجلس الأمير (٤٩) ، واعتبر الطبيب الأول فى الدولة .

ويعتبر " أبو الريحان البيرونى " من أشهر علماء الطب البارزين فى بلاط المأمونيين ، اشتغل بعلوم الحكمة ، وله نظم جديدة فى صناعة الطب والصيدلة ، وكان معاصرا للشيخ الرئيس ابن سينا وبينهما محادثات ومراسلات (٥٠) .

كذلك اشتهر فى دولتهم العديد من الأطباء المشهورين من أمثال أبى الخير الخمار ، وهو الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام أو بهنام النصرانى الفيلسوف المنطقى الطبيب المشهور ، الذى وضع للأمير أبى العباس مأمون مقالة فى امتحان الأطباء ، وألف كتابا فى خلق الإنسان وتركيب أعضائه (٥١) .

كذلك اشتهر أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحى الجرجانى بعلم الطب والتطبيب فى خوارزم، ولد فى جرجان ، وأتم دراسته فى بغداد ، وهو من أشهر أطباء القرن الرابع الهجرى وأحد أساتذة ابن سينا ، ومن العلماء الذين أحاطهم الأمير أبو العباس مأمون بالرعاية والعناية (٥٢) . ومن أشهر مؤلفاته فى الطب كتاب "المائة فى علم الطب" (٥٣) .

٣- علم الرياضيات :

علم الرياضيات والهندسة من العلوم التى حظيت باهتمام الأمراء المأمونيين وطلاب العلم الذين أقبلوا على الدراسة والتخصص فيها ، وقد نبغ عدد لابأس به من علماء الرياضيات

منهم "أبو النصر بن العراق (٥٤) ". وألف "أبو الريحان البيروني " في علم الرياضيات والهندسة العديد من المؤلفات أشهرها كتاب "التفهيم في علم التنجيم" ، وقد فضل تأليف هذا الكتاب باللغة العربية عن اللغة الفارسية ، لأنها أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته (٥٥) .

٤- علم الفلك والتنجيم :

اهتم المأمونيون بهذا العلم اهتماما واضحا ، خاصة محاولة معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل ولقد نبغ "أبو الريحان البيروني" في هذا العلم وصنف المؤلفات فيه من أهمها كتاب "التفهيم في صناعة التنجيم" ، الذي أهداه إلى السيدة ريحانة الخوارزمية (٥٦) .

وكان لهذا العلم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الأمراء ، الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم ، وقد انتشر في خوارزم بعض العادات كالشعوذة والسحر والاعتقاد في الأرواح الشريرة ، لذا كانت الرعية يستخدمون البخور والأدخنة ، لإبراز الروائح الطيبة معتقدين أن ذلك يبعد عنهم الأرواح الشريرة (٥٧) .

٥- الأدب والشعر:

حظي بلاط خوارزم بكثير من الأدباء والشعراء الذين أورد الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" العديد من أسمائهم ، من أمثال أبي محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاشي أحد أبناء كبار رجال الدولة ، الذي تولى منصبا مرموقا في الديوان بالبلاط ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن حامد أبو القاسم أحمد بن أبي ضرغام (٥٨) .

ومن البديهي أن نوضح أن أبا المنصور الثعالبي نفسه من أدباء هذا البلاط ، فقد أقام بقصر المأمونيين فترة من الوقت ، وعمل نديما للأمير أبي العباس مأمون ، وألف كتابا باسمه(٥٩) .

كذلك كان الأمير أبو الحسن مأمون بن محمد بن مأمون شاعرا نفوها ، يجيد النظم ، وله قصائد كثيرة في المديح . فمن قصائده في مدح الأمير أبي العباس مأمون قصيدة ذكر في أولها :

أغاظني الدهر من إنصافه صنفا   هل كان غيري من الأيام منتصفا

أشكو إلي غير مشكو ليشكيني   هل ينفع الدنف استشفاه الدنفا(٦٠)

وهناك الأديب أبو الفضل شاه بن إبراهيم بن نصر الكاثي ، والمولود في مدينة كاث من نواحي خوارزم وكان هذا الشاعر شديد الحب لإقليمه فقال فيه :

أحـــن إليــه كـل يـوم وليـــــله واشكو فـراقـا قـد أذاب عـظامي

إذا نشأت مـن نحـو خـوارزم مـزنة تداويت من وجدي بماء غمامي(٦١)

ومن الأدباء أيضا الشاعر أبو سعيد أحمد بن شيب الشبيبي الذي جمع بين أدب القلم والسيف واتصل بالدولتين السامانية والبويهية . كما نبغ الشاعر أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي ، الذي انتقل من موطنه طبرستان ، واستقر في خوارزم مدة من الوقت (٦٢) وظهر من الأدباء والشعراء المفوهين شاعر آخر من أفراد الأسرة المأمونية نفسها ، لم يصل إلى كرسي الحكم ، ولكنه كان شاعرا سمح البديهية ، وهو أبو بشر مأمون بن علي الخوارزمي(٦٣).

٤-أشهر العلماء والأدباء في الدولة المأمونية :

برز عدد كبير من العلماء في خوارزم ، وألموا بكثير من فروع الآداب والفنون والعلوم ، فأسهموا بإضافات جديدة في مختلف ميادين العلم والمعرفة يأتي في مقدمتها العالم الجليل والفيلسوف النابغة والطبيب البارع أبو علي بن سينا .

١-أبو علي بن سينا :

ولد في مدينة بلخ ، وانتقل إلى بخارى ، وأقام في الجرجانية ، وبلغت شهرته في الطب والعلاج مبلغا رفيعا بين السلاطين والحكام أمثال الأمير نوح بن منصور الساماني ومجد الدولة البويهي (٦٤) . درس الحساب على يد محمود المساح ، وتعلم علم المنطق والفلسفة والرياضيات على يد الشيخ أبي عبد الله الناتلي ، وصل إلى مرتبة عالية في دراسة علم الطب حتى نال مهارة فائقة في جميع العلوم والفنون ، ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره (٦٥) .

استمر الشيخ ابن سينا في بلاط المأمونيين يحتل مكان الصدارة في مجالس العلماء ولم يترك الأمير أبو العباس مأمون صغيرة أو كبيرة في سبيل رعايته والمحافظة عليه إلا وفرها ، ولكن عندما طالب السلطان محمود بنقل العلماء ومنهم ابن سينا إلى بلاطه بغزنه ، فر هذا العالم إلى جرجان (٦٦) ، واشتغل بالطب في بلاط قابوس ، وألف كتابه الأوسط الجرجاني(٦٧) هذا إلى جانب عدة مصنفات في شتى نواحي العلم والمعرفة ، أشهرها كتاب الشفاء في الحكمة وكتاب القانون في الطب (٦٨) ، وألف بعد رحيله إلى الري كتاب "دانشي

نامه علائى " للأمير علاء الدولة بن كاكويه (٦٩) . توفى ابن سينا فى مدينة أصفهان (٧٠) سنه ٤٢٧هـ/١٠٣٥م .

٢-أبو منصور الثعالبي :

هو أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى ، المتوفى سنه ٤٢٩هـ/١٠٣٨م ، ألف العديد من المؤلفات ، أهداها إلى الأمراء وحكام الأقاليم ، حيث أهدى كتابه "لطائف المعارف" إلى الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة البويهى ، وأهدى كتابه "المبهج" وكتابه "التمثل والمحاضرة" إلى الأمير قابوس بجرجان ، كما أهدى إلى الأمير مأمون عدة كتب منها "النهاية فى الكتابة" ، وكتاب "نثر النظم" ، وكتاب "اللطائف والطرائف" (٧١) ، ويعد كتابه "يتيمة الدهر" من أشهر ما صنف ، فقد جمع فيه كثيرا من الأدباء والشعراء وقصائدهم (٧٢) .

٣-أبو الريحان البيرونى :

ولد البيرونى فى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، وقضى الشطر الأول من حياته فى قصور المأمونيين(٧٣) . ألف البيرونى كتابا علميا بارزا هو "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ، يبحث فى القوانين التى كانت تستعملها الأمم ، ونظم الطوائف والجماعات المختلفة والاحتفالات بالأعياد القومية (٧٤) ، وذلك فى حدود سنة٣٩١هـ/١٠٠٠م .

برزت مكانة البيرونى فى قصر قابوس بجرجان كما برز سابقا فى قصر المأمونيين بخوارزم، فشارك فى المجالس العلمية والأدبية ، وبلغ من علو شأنه أن الأمير الزيارى أفرد له جناحا خاصا فى قصر الإمارة ، ولكنه أبى الإقامة فيه ، وانتقل الى بلاط المأمونيين مرة أخرى(٧٥) لأنه كان نزاعا إلى الحرية والانطلاق من بلاط إلى آخر ، ثم انتقل إلى بلاط السلطان محمود بغزنه وصاحبه فى غزواته إلى بلاد الهند ، فتهيأت الظروف له لدراسة جغرافية وعلوم وديانات وعقائد بلاد الهند ، فألف كتابا عن مظاهر الحياة الاجتماعية والعلمية سماه " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة " (٧٦) ، كما ألف كتاب " قانون المسعودى " الذى أهداه إلى السلطان مسعود الغزنوى ، هذا الكتاب الذى برع البيرونى فى وصف مادته ، فقد استقصى فيه معرفة ماهية الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين، وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه ، ورتبه على حروف المعجم وأطلق عليه كتاب " الصيدلة فى الطب" أو "قانون المسعودى" (٧٧) .

كما أهدى كتابه عن الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود الغزنوى ، وقد أطلق عليه اسم " الجماهر في الجواهر " ، كذلك ألف كتابا فى مقاليد الهيئة وآخر فى تسطيح الكرة(٧٨) . وقد توفى أبو الريحان البيرونى فى حدود سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م(٧٩) .

ثانيا : العلم والعلماء فى دولة آل زيار :

شهد بلاط الزياريين فى طبرستان وجرجان نهضة علمية وثقافية كبيرة ، انبعثت الإشعاعات الفكرية ، من تأليف وتصنيف باللغتين العربية والفارسية ، وإيواء الشعراء وتشجيعهم واستدراء مديحهم (٨٠) حيث اشتهر أمراء تلك الأسرة برعاية العلم والعلماء ، بل أن بعضهم كان من الكتاب والشعراء المفوهين ، خاصة قابوس بن وشمكير الأمير الخامس فى دولتهم.

فقد أسس مرداويج بن زيار الديلمى هذه الدولة فى حدود سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م بالاستيلاء على طبرستان من القائد ماكان بن كاكى الديلمى ، واتجه منها إلى جرجان وأصفهان التى اتخذها مقرا لدولته (٨١) . مال مرداويج إلى إحياء النزعة القومية الإيرانية ، ورغب بالاستقلال ببلدان الخلافة الشرقية ، وطمح إلى إعادة أمجاد الفرس القديمة ، إلا أنه لم تكن لديه القدرة الكافية لإزالة الخلافة العباسية لوجود الخلافات الداخلية بين صفوف جيشه (٨٢) . قتل مرداويج فى سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م على يد قواد جيشه ، وتولى بدلا منه أخوه وشمكير الذى مال إلى استرضاء الخليفة العباسى ، وعقد معاهدة صلح مع القائد السامانى ابن محتاج فى عهد الأميرنوح بن نصر ، فأصبح بذلك مواليا لدولتهم(٨٣) وأصبح من المعروف أن يبادر الأمير الزيارى عند تعيينه بطلب الخلع والعهد من الخليفة ، فعندما عين "بيستون بن وشمكير" ، طلب من الخليفة "المطيع لله" الخلع واللواء ، ومن ثم لقبه الخليفه بظهير الدولة(٨٤) . كذلك اعترف الخليفه الطائع بالأمير "قابوس بن وشمكير" ، ولقبه بشمس المعالى(٨٥) ، ولقب الخليفه القادر بالله الأمير "منوجهر بن قابوس" بلقب فلك المعالى (٨٦) .

وعلى ذلك فإن دولة الزياريين الفارسية الأصل قامت على أكتاف مؤسسها الأول مرداويج وتوارثها إخوة وشمكير وأبناؤه من بعد حتى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، وارتبطت بعلاقات خارجية مع السامانيين وبنى بويه كما ارتبطوا بمصاهرات مع الدولة الغزنوية (٨٧) ، وسقطت دولتهم على يد السلاجقة فى عهد ملكشاه ، فى عهد آخر الأمراء الزياريين المسمى كيلانشاه بن كيكاوس ، الذى اقتصر الحكم فى عهده على منطقة كيلان أو جيلان (٨٨) .

١ - دور الأمراء الزياريين فى الحركة العلمية :

شجع الأمراء الزياريون النهضة العلمية فى البلاد ، وكان بعضهم من العلماء والأدباء المثقفين ، فنجد "شمس المعالى قابوس" الذى تولى الحكم سنة٣٦٦هـ/٩٧٦م وقد ارتقى النثر الفارسى فى دولته وألف العديد من المنظومات لدرجة أن ابن سفنديار [٨٩] يصف نثره بقوله : "ففى نثر قابوس فرائض الفوائد وفى نظمه قلائد الولاية" .

مارس قابوس كتابة المصنفات الأدبية وله مناظرات مع معاصريه من المشاهير فجمع بين عزة الملك وبساطة العلم والحكمة [٩٠] ، وقد بقى لنا من آثاره الأدبية مجموعة من الرسائل جمعها الإمام "أبو الحسن على بن محمد اليزدادى" ، تحت عنوان "قرائن شمس المعالى وكمال البلاغة"[٩١] . وقد أشيد بهذه الرسائل البلاغية ، فقيل عنها " أن أحدا لم يسمع كلاما باللغة العربية مثل رسائل قابوس فى الفصاحة وإبداع المعالى وغرابة الأسجاع مع سهولة الألفاظ وامتزاج الحروف المتجانسة" .

برع الأمير قابوس فى علم النجوم ، ونظم الشعر باللغتين العربية والفارسية [٩٢] ومن أشعاره :-

قل للذى بصروف الدهر عيرنا ... هل عاند الدهر إلا من له خطر
ففى السماء نجوم ما لها عدد ... وليس بكسف إلا الشمس والقمر[٩٤]

ومن شعر الأمير قابوس فى عضد الدولة البويهى عندما أهدى إليه سبعة أقلام قوله :

قد بعثنا إليك سبعة أقلام ... لها فى البهاء حظ عظيم
مرهفات كأنها ألسن الحيات ... قد جاز حدها التقويم[٩٥]

وقد امتاز الأمير قابوس بحسن الخط وبرع فى رسمه وإظهار محاسنه ، فكان الصاحب ابن عباد ، إذا رأى خطه قال :"هذا خط قابوس أم جناح طاووس"[٩٦] وذلك عن طريق المراسلات العديدة التى كانت بين هذا الأمير والوزير البويهى والتى حظيت باهتمام قابوس فخصص كاتبا للإشراف عليها يسمى "عبد السلام" .

وجه الأمير قابوس اهتماما كبيرا لتشجيع الحركة الأدبية والشعرية ، وأجزل العطايا والهبات لهم ، فأطلق للمجتمعين على بابه من الشعراء فى عيدى النيروز والمهرجان الأموال الكثيرة ، وكان يأمر رجال دولته وعلى رأسهم أبو الليث الطبرى بتوزيع العطايا عليهم على حسب مراتبهم ومنازلهم [٩٧] .

ومن أعظم الشعراء فى عهده ، الشاعر أبو عامر الجرجانى ، الذى نظم كثيرا من القصائد فى مدح الأمير منها:

اشيم عفوك والآمال البسطة ومـوقفى منك الأخذ بالكظم (٩٨)

كذلك أشاد الشاعر الملقب بالبجلى بالأمير قابوس ، فعدد فضائله وصفاته فى أبيات منها:

لله شمسان تذكير لخيرهما وللمؤنثة النقصان ملتزم

لو كنت من قبل ترعانا وتحرسنا لما تهدى إلينا الشيب والهرم(٩٩)

وبالرغم مما اتصف به الأمير قابوس من تعسف وشده إلا أنه عفا عن الأستاذ "على بيروزى" أحد كبار شعراء طبرستان فى عهده ، الذى قصد فى بداية حياته بلاط الأمير ، ومدحه بكثير من القصائد ، وألقى شعره باللهجه الطبرية (١٠٠) .

وسوف أتناول أهم الشعراء فى عهد الأمير قابوس فى أثناء الحديث عن علم الأدب والشعر. كذلك اهتم الأمير قابوس بالحركة العلمية وإحياء العلوم والطب ، فرعى العالمين الجليلين أبو الريحان البيرونى وابن سينا اللذين أقاما فى قصر الإمارة فى جرجان . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى الحديث عن الدولة المأمونية .

وقد امتاز الأمير قابوس بتذوق الفن والزخرفة المعمارية ، فقد اهتم بتشييد مقبرته ، فأقامها على نمط خاص ظهر فيه فن العمارة الإيرانى الإسلامى ، على شكل مخروطى ذى أضلاع متعددة ، وهو الطراز الخاص المعروف كثيرا فى البلاد الواقعة على ساحل بحر الخزر، وأنفق الأمير عليها الأموال الطائلة وبالغ فى تحسينها وتجميلها ، فبلغ ارتفاع المقبرة مائة وخمسة وسبعين قدما ، يعتمد على جدران سمك كل واحد منها أربع أذرع مبنية بالآجر (١٠١).

ويعتبر الأمير الزيادى " عنصر المعالى كيكاوس بن إسكندر بن قابوس " ، الذى حكم من سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م إلى ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م من أفضل الأدباء ، فله فضل كبير فى الحركة العلمية والأدبية فى عهده ، فعلى الرغم من أن أكثر كتب التاريخ لا تشير بشىء ذى بال عن حياته وسيرته ، ولا يكاد المؤرخون أن يزيدوا على اسمه غير تأليفه لكتاب النصيحة المعروف بقابوس نامه ، فإن هذا الكتاب يعتبر من أجل الأعمال الأدبية فى عهد هذه الدولة .

ألف الأمير عنصر المعالى كيكاوس هذا الكتاب باللغة الفارسية ، لتقديمه لابنه وولى عهده "كيلانشاه" ، يتضمن نصائح وتعاليم فى الحياة والحكم (١٠٢) ، فجاء هذا المؤلف كمرآة صادقة للمجتمع الإسلامى والحضارة التى سادت فى هذه الفترة .

يعتبر كتاب قابوسنامه من أهم المصنفات الفارسية الإسلامية ، الذى تضمن فى ثناياه الحكايات والقصص ، فهو يحيى سنة المؤلفات الفارسية القديمة ، فسار فى تصنيفه وموضوعه على منوال كتب الرسوم والنصائح الفهلوية وصار هذا المؤلف فتحا جديدا فى الأدب الفارسى الإسلامى ، فألفت على غراره مؤلفات كثيرة من أمثال سياست نامه للوزير نظام الملك الطوسى، وكتاب جهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى (١٠٣) .

وللحقيقة التاريخية فإن عصر هذا الأمير حظى بتصنيف العديد من المصنفات الأدبية الجليلة خاصة باللهجة الطبرية منها ماكان منثورا مثل كتاب "مرز بان نامه" ومنها ما كان منظوما مثل كتاب "نيكى نامه" ، لقد قام الأمير مرزبان بن شروين أحد أمراء الزياريين الذين لم يصلوا إلى كرسى الحكم بتأليف كتاب مرزبان نامه (١٠٤) ، قسم كتابه إلى ثمانية أبواب ، وقد ذكر الأمير مرزبان فى مقدمة كتابه أن سبب تأليفه لهذا الكتاب أنه عندما انتقل الملك من الأمير أنو شيروان إلى أن استقر فيه شيروين ، كان ترتيب مزربان الأخير ولكنه امتاز بالفطنة وحسن السياسة ، فهداه اجتهاده إلى أن يضع كتابا يشتمل على أنواع الحكمة واللطائف ، يظهر فيه لأخيه الملك بعض المؤامرات والحيل التى تحاك فى الخفاء (١٠٥) .

ومن هنا نستفيد أن الأمير عنصر المعالى كيكاوس شارك فى الحركة الثقافية ، وشجع الأدباء ، بالإضافة إلى قرضه للشعر ونظمه للنثر باللغة الفارسية (١٠٦) .

احتوت مجالس الأمراء الزياريين على كثير من مظاهر البهجة والموسيقى والغناء ، كما ضمت أعدادا كبيرة من الندماء ، فكان للأمراء رجال مصطفون وجلساء مجربون ، بل إن الأمراء أنفسهم عمل بعضهم كندماء فى مجالس السلاطين ، فقد جرت العادة بين الأمراء الزياريين على إرسال أبنائهم وأخواتهم إلى البلاط الغزنوى للإقامة والتأدب بأدب الملوك والأمراء ، فقد قضى دارا بن قابوس فترة فى بلاط السلطان محمود (١٠٧) ، كذلك قام الأمير عنصر المعالى كيكاوس نديما لمدة ثمان سنوات فى بلاط السلطان مودود بن مسعود الغزنوى(١٠٨).

٢-اشهر العلوم والعلماء فى الدولة الزيارية :

شهدت الحركة العلمية فى الدولة الزيارية ازدهاراً كبيرا فى عدد من العلوم العقلية والنقلية ومشاركة كبيرة من العلماء والفقهاء يأتى فى مقدمة هذه العلوم :

١-علوم الفقه :

فعلى الرغم من انتشار المذهب الشيعى فى الدولة الزيارية واعتناق الأمراء الإسلام عليه ، فان المذاهب الفقهية السنية ظهرت بين الرعية ، فمنهم من كان حنفيا أو حنبليا إلى جانب الشافعيين ، بالإضافة إلى الكرامية والشيعة (١٠٩) .

ولكن المذهب الشافعى ظهر فيه عدد غير قليل من الفقهاء فى هذه الدولة ، أثروا فى الحياة العقدية والثقافية فى البلاد ، فممن اعتنق هذا المذهب الفقيه "أبوبكر أحمد بن إبراهيم الشافعى الجرجانى" ، المتوفى سنة ٣٧١هـ/٩٨١م ، والفقيه "أبوعبدالله محمد بن الحسن الاستراباذى المعروف بالختن ، الذى اشتهر بالفضل والعلم ، وله وجوه حسنة فى المذهب الشافعى ، شرح كتاب "التلخيص" لأبى العباس ابن القاضى ، وسمع من "أبى نعيم بن عدى"، وتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م (١١٠) .

كما جذبت بغداد الكثير من فقهاء الشافعيين من طبرستان فنقلوا علمهم ومصنفاتهم إليها، من أمثال الفقيه "أبو على الحسين بن القاسم الطبرى الشافعى" ، صاحب كتاب "المحرر"، وكتاب " الإفصاح فى المذهب " ، وكثيرا ما قامت الفتن والمنازعات بين أصحاب المذهب الشافعى والمذاهب السنية الأخرى فى طبرستان (١١١) .

٢-علم التاريخ :

التاريخ من العلوم الهامة التى لا غنى عنها فى معرفة الأمم والشعوب وتاريخ حكامهم ، وظهر فى الدولة الزيارية عدد من المؤرخين على رأسهم مؤرخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة وهو " محمد بن جرير الطبرى " ، صاحب كتاب " تاريخ الأمم والملوك "(١١٢) ، الذى صنف العديد من الكتب فى شتى مجالات العلم والمعرفة ، خاصة فى التفسير والحديث ، مثل كتاب " تفسير القرآن ومعانيه " ، وكتاب " الذيل والمذيل " ، وقد حوت خزانة كتبه على ما قدر بحمل أربعمائة دابة (١١٣).

ومن أبرز مؤرخى الدولة الزيارية المؤرخ " أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران " ، الذى صنف كتاباه سماه " تاريخ أصفهان " ، وكتاب آخر فى علم الحديث سماه " حلية الأولياء " ، وقد توفى هذا المؤرخ فى أصفهان سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م (١١٤).

٣ – علم النحو :

ارتفع شأن اللغة والنحو فى طبرستان ، وذلك لاهتمام الأمراء باللغة العربية والفارسية فى آن واحد ، وتألق الأدب الفارسى بجوار الأدب العربى ، ونما وترعرع فى ظل حكمهم ، بالإضافة إلى الاهتمام بقواعد اللغة العربية وعروضها .

ومن ثم نبغ عدد لابأس به من فقهاء اللغة العربية من أمثال عالم النحو " أبو على الحسن ابن أحمد الاستراباذى" النحوى الأديب ، مصنف كتاب "شرح الفصيح" و"شرح الحماسة"(١١٥)، واشتهر الأديب "أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى" وهو أحد أصحاب عبد القاهر الجرجانى ، وقد أتصف أبو عامر بحسن الخط ، وصحيح الضبط ، ألف عدة كتب منها "البيان فى علم القرآن" ، وكتاب عروق الذهب فى أشعار العرب" ، وكتاب "سلوة الغرباء"(١١٦) ، كذلك اشتهر "أبو الفرج على بن الحسين بن هند الكاتب "بالنحو والبلاغة ، وله رسائل مدونة فى النحو وهو مشهور بجودة الشعر ونظمه ، ومن أشعاره فى الأمير قابوس بن وشمكير قوله :

كفانى من المدام شحيم   صالحتنى النهى وثاب الغريم (١١٧)

٤– علم الفلك والنجوم :

كان لهذا العلم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الأمراء ، الذين اعتمدوا على التنجيم فى تنفيذ سياستهم ، فقد نصح منجم وشمكير "بن زيار" بعدم الخروج إلى الصيد فى يوم وفاته(١١٨) ، كما اهتم الأمير قابوس بعلم النجوم ، فدرس أصوله ، وقد قيل أنه حكم على نفسه فى النجوم أن منيته ستكون على يد ولده ، ومن ثم أبعد ولده دارا عن عاصمته ، إلى غزنه لما كان يرى من عقوقه ، وقرب إليه ابنه منوجهر ، لما كان يراه من طاعته وانقياده إليه ، ولكن جاءت نهايته بالعكس ، فقد قبض عليه رجاله وحبسوه فى قلعة جناشك بجرجان ، وأقاموا بدلا منه فى الحكم ابنه منوجهر(١١٩) .

٥– علم الطب :

اهتم الزياريون اهتماما بالغا بعلم الطب والعلاج ، وأغدقوا على أطبائهم المنح والعطايا ، فصار للأطباء منزلة رفيعة بين رجال البلاط ، مما ساعد على تقدم دراسة علم الطب ونبغ الكثير منهم ، ومن أبرز هؤلاء الأطباء "على بن ربن الطبرى" اليهودى المنجم(١٢٠) ، ذلك

الطبيب الذى تميز فى الطب ، والهندسة ، والرياضيات (١٢١) . ومن أهم مؤلفاته فى الطب كتاب "فردوس الحكمة" ، وهو كتاب مختصر يحتوى على ثلاثين مقالة ، وكل مقالة تحتوى على ثلاثمائة وستين ورقة ، وكتاب فى "حفظ الصحة" ، وآخر فى ترتيب الأغذية(١٢٢) . هذا إلى جانب كتاب "إرفاق الحياة" ، وكتاب "منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير" (١٢٣) .

وقد وصل الطب إلى أعلى مرتبة فى عهد الأمير قابوس بن وشمكير ، حيث أعلى من مكانة الأطباء ورفع من منزلتهم ، ومن أمثال الأطباء "أبوالفرج رشيد عبد الله الاستراباذى" الذى ذكر فى كتاب دمية القصر للباخرزى ، بأنه على درجة كبيرة من العلم والبلاغة وعلى دراية بالنظم والنثر(١٢٤) .

وممن نبغ فى عصر قابوس الطبيب الأديب "أبو الفضائل إسماعيل بن محمد الموسوى الجرجاني" ، الذى وصل إلى درجة عالية فى عالم الطب ، ومن أهم ماقام به ترجمة كتاب القانون لأبى على بن سينا إلى اللغة الفارسية ، كما ألف كتاب "الأغراض"(١٢٥) .

وقد نشأ فى طبرستان الطبيب "أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى" ، ثم انتقل إلى خدمة الأمير "ركن الدولة البويهى" ، ومن مؤلفاته كتاب " الكناش المعروف بالمعالجات البقراطية" ويعتبر هذا الكتاب من أجل الكتب وأنفعها فى عصره(١٢٦) .

ولايفوتنا فى سياق الكلام الإشارة إلى الطبيب ابن سينا وأبى الريحان البيرونى الذين سبق الكلام عنهما فى الحديث عن الدولة المأمونية .

ومن هنا نرى أهمية علم الطب ومدى ما وصلت إليه الحركة العلمية من نهضة فى بلاط الزياريين ، وقد تجلى اهتمامهم فيما أورده قابوس الثانى فى كتابه ، حيث أفرد لهذا العلم بابا كاملا يشرح فيه صنعة الطب ، ووصف صفات الطبيب ، وما يتسم به من علم ومعرفه (١٢٧) .

٦–علم الأدب :

من أهم العلوم التى حظيت بالمنزلة والمكانة العالية فى الشعر والأدب ، وعظمت منزلة الشعراء ، وبرزت مكانتهم فى بلاط قابوس ، مثل الشاعر "قمرى الجرجانى" الذى كتب الشعر باللغة الفارسية(١٢٨) ، والشاعر "أبو مهد مامطير" ، الذى نظم الشعر باللغتين العربية والفارسية ، والشاعر "باربد الجريدى" ، والشاعر "رافعى النيسابورى " وهم يعتبرون من أعظم من مدح وعدد فضائل هذا الأمير الزيارى(١٢٩) .

هذا إلى جانب الشاعر "أبو الحسن على بن محمد اليزدادى" الذى جمع باللغة العربية أقوال ومراسلات الأمير قابوس فى كتاب "قرائن شمس المعالى وكمال البلاغة" .

كذلك حظى بلاط الأمير منوجهر خامس الأمراء الزياريين بالعلماء والأدباء ، فقد كان الأمير على درجة عالية من حب العلم والأدب وتشجيع الحركة العلمية والعطاء ببذخ ، وخير مثال على ذلك مانا له شاعر الطبيعة الملقب بمنوجهرى من مكانة فى بلاطه ، فقد ولد هذا الأديب فى دامغان (١٣٠) ، وأخذ تخلصه -أى لقبه- من اسم الأمير الزيارى ، وهو أول ممدوح له (١٣١) ، وقد تبحر منوجهرى فى اللغة العربية ، ولم يسلك سبيل بعض معاصرية ، من الاقتصار على اقتباس المعنى أو الأسلوب فقط ، بل كان يستعمل الألفاظ العربية الغربية ، والتراكيب النادرة . وقد توفى الشاعر منوجهرى فى حوالى سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م(١٣٢) ، بعد وفاة الأمير منجهر بفترة قصيرة .

ثالثا : العلم والعلماء فى دولة الخانية :

دولة الخانية من الدويلات التركية التى نشأت فى منطقة تركستان (١٣٣) ، ثم توسع حكمها فى بلاد ما وراء النهر على حساب الدولة السامانية ، حيث اقتسموا أملاكها عقب موقعة قطوان مع السلطان محمود الغزنوى ، فأصبح الحد الفاصل بينهما نهر جيحون وبذلك تكون خراسان ضمن ممتلكات السلطان وتكون بخارى وسمرقند ضمن ممتلكات أيلك خان(١٣٤)، المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م .

والملاحظ أن المؤرخين لم يتطرقوا إلى تاريخ تلك الدولة منذ نشأتها ، إلا بعد أن اتصل هؤلاء الحكام اتصالا مباشرا بمن جاورهم من الدول الإسلامية كالسامانيين ، وذلك فى حدود سنة٣١٦هـ/٩٢٨م ، عندما اعتنق "ستوك بغراخان عبد الكريم" الإسلام على المذهب السنى على يد الأمير أبى نصر السامانى . ومن ثم أخذ الخانيون على عاتقهم مهمة نشر الإسلام بين بنى بلدتهم من القبائل التركية الوثنية ، خاصة آرسلان خان الذى استشهد فى إحدى غزواته(١٣٥) ، كما سار خليفته طغان خان على نفس سياسته فى الفتح ، وفتح يوسف قدر خان مدينة ختن وأخضع قبائل الترك شمال وادى نهر ايلى لسلطانه (١٣٦) .

كانت الصلة بين الخانيين والخلافة العباسية صلة اسمية ، مقصورة على الارتباط الروحى ومنح الألقاب وإرسال البنود والرايات ، فلم يتدخل الخليفة فى عزل وتعيين الخانات ، بل إذا

ولى الخان العرش يستبدل اسمه القديم بلقب جديد مرسلا من قبل الخلافة فقد اتخذ هارون بن موسى بغراخان لقب شهاب الدولة ، واتخذ طقغاج خان لقب عماد الدولة ، ثم أضاف اليه لقب ظهر الدعوة ، واتخذ أخر حكامهم لقب طنان هو سلطان أرض الشرق والغرب وبرهان خليفة الله وناصر أمير المؤمنين بالرغم من اقتصار حكمه على مدينة سمرقند فقط (١٣٧) .

والملاحظ أن الخانيون كانوا شديدى التمسك بإسلامهم على المذهب السنى فعملوا على القضاء على أى حركة شيعية ، كما حدث سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م فى عهد بغراخان هارون حينما بايع أهالى ماوراء النهر للخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فتظاهر الخان بقبول الدعوة الشيعية ، حتى اطمأن الدعاة ، ثم أمر بالقبض عليهم وذبحهم عن آخرهم(١٣٨) .

سار الخانيون على مبدأ وراثة العرش بين أبناء أسرتهم ، إلا أن هذه القاعدة لم تطبق على جميع من تولى العرش ، فإن إبراهيم خان بمساندة أمه اغتصب عرش الخانية من أخيه الأكبر جغرى تكين (١٣٩) . كما قام بعض الخانات بتقسيم ممتلكاتهم بين أبنائهم ، مما أفقد السلطة المركزية قوتها ودارت حروب داخلية بين الأمراء والخان الأكبر (١٤٠) ، لذا لابد أن نشير إلى أن دولة الخانية قسمت إلى ثلاث شعب شعبة كاشغر تبدأ بعبد الكريم ستوق بغراخان وتنتهى بيوسف قدر خان سنة٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، والشعبة الثانية تحكم الجهات الغربية وتبدأ بجغراتكين سنة٤٠٦هـ/١٠١٥م وتنتهى بالسلطان عثمان خاز '':: قتل سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، أما الشعبة الثالثة والتى تشمل الجهات الشرقية بنـ ـسستان تبدأ بشمس الملك نصر٤٤٩هـ/١٠٥٧م وتنتهى بمجد بن يوسف ٦٠٧هـ/١٢١٠م .

وقد تعددت عواصم الخانية ، ففى بادىء الأمر اتخذوا مدينة كاشغر ثم بلاساغون ، وبعد ضم بلاد ماوراء النهر لحكمهم اتخذوا من أوزكند مقر لهم ، وفى عهد شمس الملك نصر بن ابراهيم ابن طمغاج خان انتقل إلى ماوراء النهر واتخذ من بخارى حاضرة لملكه (١٤١) .

استعان الخانيون بموظفين فى إدارة الشئون الخاصة بالبلاد كالوزراء وقادة الجيوش ، من أهمهم الوزير أبو المعالى محمود بن زيد فى عهد طغان خان والوزير طغاريبك محمد بن سليمان الكاشغرى (١٤٢) ، وأقاموا دواوين مركزية فى حاضرة ملكهم من أهمها ديوان الرسائل ، الذى عين على رأسه أحمد بن محمد بن يوسف الكاتب فى عهد بغراخان هارون ، أما فى عهد ركن الدين قلج طمغاج خان فإن بهاء الدين محمد بن على الحسن الظهيرى الكاتب صاحب كتاب سندباد نامه كان متولى الإشراف عليه ، المتوفى سنه٥٥٠هـ/١١٥٥م .

أما عن الثقافة والعلم فى الدولة الخانية ، فتعتبر فترة حكمهم من الفترات التى تدهور فيها – إلى حد ما –الفكر فى تركستان وبلاد ماوراء النهر ، التى شهدت ازدهارا ثقافيا فى عهد السامانيين . فلم يكن الترك فى أى مكان تابعين تبعية كاملة لحضارة العرب والإيرانيين، ولم يتخلوا عن لسانهم التركى ، ومع ذلك فإن تأثير المدنية العربية والفارسية كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافية ، فقد كانت اللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية فى دولة الخانية فى بلاد ماوراء النهر فى ميدانى الإدارة والأدب ، وصنف بها العلماء مؤلفاتهم (١٤٤) ، ومن الجدير بالذكر أن الأبجدية الأريغورية أخذت حروفها تتلاشى تديجيا ، لتحل محلها العربية ، وهى الحروف التى كانوا يضربون بها أسماءهم على العملة (١٤٥) .

١–اهتمام الخانيين بالعلم :

اهتم كثير من الخانات بالحياة العلمية فى بلادهم ، كبغراخان الذى اشتهر بالعدل وحسن السيرة ، وامتاز بحبه الشديد للعلماء وأهل الدين ، وقد ألف لهذا الخان باللغة التركية فى كاشغر كتابا سمى "قوتاد غوبيليك" ، بمعنى العلم السعيد ، ألفه شخص يدعى يوسف يعمل حاجبا فى البلاط ، وذلك سنة٤٦٢هـ/١٠٦٩م–١٠٧٠م ، ويعتبر هذا الكتاب قصيدة تعليمية كبرى قصد بها إبراز حكمة الحياة للأمراء والملوك الخانيين (١٤٦) .

ويعتبر الخان شمس الملك نصر من أفضل الملوك الخانية علما ورأيا وسياسة ، فقد درس وأملى الحديث ، وكتب بخطه مصحفا ، وخطب على منبرى بخارى وسمرقند ، وكان فصيحا عالما ، توفى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م (١٤٧) .

وقد اشتهر خضر خان إبراهيم بتشجيعه للشعراء ، وزخر بلاطه بكثير منهم ، واعتبر صديقا لهم ، من أمثال الأمير عمعق والأستاذ الرشيدى وغيرهم (١٤٨) .

كما ألف لبغراخان كتاب قوتا دغو بيليك ، وألف لطمغاج خان باللغة الفارسية كثيرا من الكتب مثل كتاب سندباد نامه الذى هذبه بهاء الدين محمد بن على الظهيرى وأهداه إلى هذا الخان (١٤٩) ، كذلك ألف فى عهد هذا الخان كتاب فى التاريخ يسمى "تاريخ ملوك تركستان" صنفه مجد الدين محمد بن عدنان ، جمع مادته عن تاريخ الخانية ، وتعرض فيه لأصلهم ونشأتهم (١٥٠) .

وفى حقيقة الأمر فإن طمغاج خان نفسه كان على قدر كبير من العلم ، اشتهر بجمال الخط الذى يوصف بالدر المنثور ، يكتب به المصاحف ، وقيل أنه كان يعطى ما يكتب إلى مجهول لبيعه ويتقوت من ثمنه (١٥١) .

ومن أفاضل العلماء في بلاط "القاضي منصور" من أهل هراه ، كان يملك ناصية الفضل والعلم والكتابة والشعر والرسائل ، ولم يكن يروق مجلس علم لايكون فيه ، ورحل من هراه إلى بلاط الخانية بتركستان ، وبقى عدة سنوات حتى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م في بلاطهم ، وعامله الخان بكل تقدير واعتزاز ، وأغدق عليه الهبات الوفية (١٥٢) .

٢-المؤسسات العلمية فى الخانية :

تعددت المؤسسات العلمية في الخانية فى بلاد ماوراء النهر ، وتأتى فى مقدمتها الكتاتيب لحفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة للصغار ، وهناك المسجد وهو أكبر معهد للدراسات الدينية. فلم تكن المساجد للعبادة وحدها بل كانت تؤدى فيها أعمال مختلفة ، فهى مكان للعبادة ومحكمة للتقاضى بالإضافة إلى أنها مكان للدراسة والعلم ، ومن أشهرالمساجد التى بنيت فى عهد الخانيين فى بلاد ماوراء النهر مسجد الجامع فى بخارى ، الذى شيده شمس الملك نصر (١٥٣) ، ومسجد مدينة بيكند تلك البلدة التى اشتهرت بكثرة علمائها وفقهائها (١٥٤) .

وفى قرية اسكحكت أقام أحد عمالها من قبل الخانيين ويطلق عليه اسم "خوان سالار" مسجدا جامعا فى عهد شمس الملك نصر ، ويشاع أن هذا الجامع تعطل فيه الصلاة إلى أن تولى قدر خان جبرائيل بن عمر بن طغرل خان ، الملقب بكولارتكين ، فأمر بهدم المسجد ، واشترى أخشابه من ورثة خوان سالار ، وأقام به مدرسة أطلق عليها اسم مدرسة كولارتكين (١٥٥).

ولما تولى أرسلان خان محمد بن سليمان الحكم سنة٤٩٥هـ/١١٠١م ، شيدعدة مبان هامة فى بخارى من ضمنها توسيع المسجد الذى أنشأه الأمير إسماعيل السامانى فى بخارى سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م ، كذلك أقام مسجدا جامعا من ماله الخاص ، ورباطا للغرباء بجانب قرية اسكجكت ببخارى (١٥٦) .

كذلك انتشرت المدارس فى بلاد ماوراء النهر لتدريس العلوم الدينية والدنيوية ومن هذه المدارس المدرسة التى شيدها أرسلان خان فى بخارى وأوقف عليها ضياع القرى المجاورة

والحمام الذى على باب السراى (١٥٧) . كما أنشأت المدرسة الكولارتكنية ، نسبة للخان قدر خان جبرئيل ، والتى انفق عليها من ماله الخاص (١٥٨) .

ولقد لعبت هذه المدارس دورا هاما فى نشر الدين الإسلامى والمذاهب الفقهية ويشير بارتولد (١٥٩) الى النظام المتبع فى إدارة هذه المدارس بقوله :"بأن هذه المدارس كانت مستقلة عن تدبير الحكومة وسياستها " .

٣-أهم العلوم وأشهر العلماء فى الدولة الخانية :

من أهم العلوم التى اهتم بها الخانيون ببلاد ماوراء النهر العلوم الشرعية ، فقد ظهرت الدراسات الفقهية بصورة واضحة ، حيث وفد المذهب الشافعى وكثرت تلاميذه بها ، وارتفع المذهب الحنفى فى البلاد ، والملاحظ أن المذهب الشافعى وجد طريقه إلى قلوب الفقهاء أكثر من غيره من المذاهب ، فقد اعتنقه كثير من الأئمه وعلى رأسهم الفقيه المؤيد بن الحسن المرفقى، الذى أتبعه العديد من التلاميذ والأتباع (١٦٠) . والفقيه الشافعى يحيى بن أحمد بن زكريا الغاربى ، ويعتبر الفقيه عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالزازيرابين من أهم الفقهاء الشافعيين لتأليفه كتابا فى الفقه سنة ٤٩٤هـ/١١٠٥م (١٦١) .

ومما يدل على مدى حب الخانيين للفقهاء وتشجيعهم ، ما قام به "نصر خان بن طمغان" من إهداء بعض الفقهاء ضياعا قريبة من قرية كارل علويان-التابعة نبخارى ، وكانت هذه الضياع أملاك سلطانية خاصة وذلك لتيسير سبل العيش عليه (١٦٢) .

علم التاريخ:

اهتم الخانيون بتاريخ بلادهم ، وكتابة أيامهم ، فظهر عدد لابأس به من المؤرخين الذين صنفوا فى هذا المجال من أمثال "بهاء الدين محمد بن على بن محمد الحسين الظهيرى" مؤلف سندباد نامه ، الذى قام بتأليف عدة كتب تاريخية ، يأتى فى مقدمتها كتاب "أعراض السياسة فى أغراض الرياسة" ، الذى اشتمل على لطائف كلام الملوك وحكمتهم منذ عهد جمشيد حتى زمان طمغاج خان(١٦٣) ، وألف أيضا كتاب سمع الظهير فى جمع الظهير(١٦٤).

كما اشتهر المؤرخ "أبو لفتوح عبد الغفار بن حسين ألمعى" الذى عاش بمدينة كاشغر فى القرن الخامس الهجرى ، وتوفى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، وله كتاب عن تاريخ كاشغر يبدو أنه ملىء بالأساطير (١٦٥) .

وكان المؤرخ أحمد اليسوى الذى لانعرف عن حياته شيئا إلا من الحكايات الخرافية المتأخرة، والتى ترجعه إلى أحد أولياء الأتراك المسمى "أرسلان بابا" ، من كتب فى تاريخ الخانيين ، فقد ألف كتابا دينيا منظوما أو منثورا باللغة التركية زاعما أن هذا لتعزيز الدين الإسلامى بين الأتراك (١٦٦).

وهناك مؤرخ آخر عاش فى عهد ركن الدين قلج طمغاج خان ، وكتب عن تاريخ ملوك تركستان هو المؤرخ "مجد الدين محمد بن عدنان" وقد استوفى فى كتابه تاريخ الترك والخانيين، إلا أن هذا المصنف مفقود (١٦٧) ، ولم يصل إلى أيدينا فى الوقت الحاضر .

الشعر:

امتاز الحكام الخانيون بتشجيعهم للشعراء والأدباء وفتح بلاطهم لهم ، الذى زخر بالكثير منهم ، فقد شجع خضر خان إبراهيم الشعراء ، واعتبر نفسه صديقا لهم ، وأقام المناظرات فيما بينهم ، وكثيرا ما حاول الإيقاع بين الشاعر عمعق والشاعر الرشيدى (١٦٨) . على عادة السلاطين ، هذا بالإضافة إلى أنه كان جوادا كريما مع شعرائه ، يهبهم بسخاء ، ومن ضمن هباته للشاعر الرشيدى مبلغا كبيرا قدر بملء أربعة أطباق من الذهب (١٦٩) .

ويعتبر الشاعر عمعق البخارى من أشهر شعراء البلاط فى عهد خضر خان ، ويلقب بأمير الشعراء (١٧٠) وهو من بخارى ، رحل إلى سمرقند لطلب العلم ، ومدح كثيرا من أمراء الخانية مثل أحمد خان بن خضر خان ، ومحمود خان بن شمس الملك نصر وغيرهم من الأمراء(١٧١).

وصل الأمير عمعق إلى درجة عالية من الثراء فى ظل حكومة خضر خان ، فكان يمتلك كثيرا من الغلمان الأتراك والجوارى والخيل والأدوات الذهبية والأكسية الفاخرة (١٧٢) ، واتصل بالسلاطين السلاجقة خاصة السلطان سنجر الذى دعاه عدة مرات إلى بلاطه بمرو ، وقام فى إحداهما برثاء ابنة السلطان مهملك خاتون ، ولكنه لم يتمكن من تلبية دعوته عند وفاة أخته ، نظرا لتقدمه فى العمر ، ومن أبياته فى رثاء ابنة سنجر :

فى حين ينبت الورد فى أرض البستان

ذهبت تلك الـوردة المتفتحة واختفت فى التراب

وفى حين يأخذ الغصن من السحاب قطر الماء

أصبح نرجس هذا البستان الجميل بلا ماء (١٧٣)

ولقد اتسم شعر عمعق باختيار أخف الأوزان الشعرية ، وعرف بالسلاسة والعذوبة (١٧٤) ، وتوفي في مدينة سمرقند سنة٥٤٢هـ/١١٤٨م (١٧٥) .

أما عن الشاعر أبو محمد بن محمد رشيدى السمرقندى ، الملقب بسيد الشعراء ، فهو من شعراء بلاط خضر خان ، فإنه مدح كثيرا من ملوك الخانية والسلاجقة ، ونسب إليه منظومة شعرية باسم قهروونا –بمعنى الحب والوفاء –وله مقالة فى البلاغة (١٧٦) .

ومن شعراء بلاط خضر خان أيضا بخارى الساغرجى ، والشطرنجي الذى تعتبر معظم أشعاره مقتطفات فى الحكمة والوعظ (١٧٧) .

كما اشتهر بلاط ركن الدين قلج طمغاج خان بتردد كثير من الشعراء عليه ، من امثال الشهامى ، و هو شهاب الدين أحمد بن المؤيد السمرقندى ، الذى كان أستاذا فى جميع العلوم الدينية ، وله مجلس يعقد كل يوم جمعه للوعظ والإرشاد ، يتلى فى مجلسه بعض أشعار العرب، ومن ممدوحيه قلج طمغاج خان مدحه بقصيدة طويلة تتسم بالسلاسة والعذوبة(١٧٨).

ومن الملاحظ أن هناك عدداً من الشعراء الذين أشادوا بمدح الخانيين فى بلاد ما وراء النهر دون الإقامة في بلاطهم ، من أمثال عثمان المختارى ، وهو من شعراء الغزنويين ، فإنه مدح أربعة من الملوك المعاصرين له ، كأرسلان خان محمد بن سليمان ، وأرسلان بن مسعود ، ويعتبر المختارى من الشعراء المشهوريين فى بلاط غزنه ، وله دواوين فى المدح(١٧٩).

كذلك قدم على ديار الخانيين الشاعر البستى وهو أبو الفتح على بن محمد الكاتب ، الذى أقام بغزنه فترة طويلة فى عهد ناصر الدولة سبكتكين ثم طرده السلطان محمود ، فلجأ إلى الخانيين واستمر فى كنفهم حتى وفاته سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م (١٨٠) ، لما اتصف به حكامهم من بذل الأموال على الشعراء والأدباء وكرمهم الزائد .

خـاتمـة :

وصفوة القول فإننا نستخلص أن الخانيين بذلوا جهدهم للاهتمام بالحياة العلمية ، خاصة بعد افتتاحهم ماوراء النهر ، وتأثرهم بالحضارة السامانية وتركوا أبجديتهم الأيغورية وراءهم ، وشجعوا العلم والأدب فظهر العديد منهم ، وألف باسمهم المصنفات ، وصار بلاطهم مقصدا للشعراء ، خاصة بلاط خضر خان وطمغاج خان .

وقد بلغت الحياة العلمية والأدبية درجة كبيرة من الرقى ، فظهرت فى الدولة المأمونية ودولة آل زيار شخصيات بارزة فى الشعر والأدب والطب والفلك ، مما أدى إلى ظهور نهضة علمية وثقافية كبيرة في آسيا الوسطى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين .

ولم تقتصر الحركة العلمية على ما أنتجته قريحة مشاهير المفكرين ، بل تعداه إلى مشاركة الأمراء فى كلتا الدولتين فى الإنتاج العلمى . ومن ثم فإن الأدب الفارسى الإسلامى ازدهر جنبا إلى جنب مع الأدب العربي ، وصنف الكثير من الأعمال بهاتين اللغتين ، وظهر أدب باللهجة الطبرية منها ما هو منظوم ، ومنها ما هو منثور ، وبرزت فى عهدهما حركة الترجمة والنقل من المؤلفات العربية إلى الفارسية ، وبهذا أثرت الثقافة العربية فى فكر وعلوم آسيا الوسطى ، لدرجة أن ضرب المثل بارتفاع الثقافة والعلم فقيل لم تكن سوق العلم والأدب فى طبرستان أقل رواجا من سوق التجارة .

الهوامش

١- خوارزم : ولاية تشبه المملكة ، وهي ليست اسما للمدينة إنما هي اسم الناحية بجملتها ، (البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣١ ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، دار الناشر بمكتبة الأنجلو المصرية ، على أكبر : لغت نامه ، ص٢ ، ص٥٧٩ ، تهران در جانجانة مؤسسة انتشارات رحاب دانشكاه تهران).
وكلمة خوارزم تنطق باللغة الفارسية خارزم لأن الواو تكتب ولا تنطق (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص٧ ، ص٢٣٩ ، مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦م) .

٢-تولى عرش الزياريين سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م ، وفي عهده انتزع البويهيين جرجان من حكم الزياريين ، فاضطر قابوس للفرار مدة ثمانية عشر عاما في بلاط السامانيين ثم في بلاط محمود الغزنوي (الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٦٦ ، ترجمة د.عفاف السيد زيان ، القاهرة سنة ١٩٨٢).

٣- الصاحب بن عباد : هو إسماعيل بن عباد ، كان كاتبا عند أبي الفضل بن العميد وتلميذا له ، وصاحبه فسمي الصاحب (ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ص٦ ، ص١٧٢ ، دار المستشرق بيروت-لبنان) ، تولى الصاحب الوزارة لمؤيد الدولة البويهي ، وعرف بأنه وحيد عصره وزمانه في العلم والفضل ، جمع من الكتب ما لم يجمعه غيره من الوزراء . له العديد من المؤلفات منها عشر رسائل أطلق عليها رسائل الصاحب بن عباد . توفي الصاحب في حدود سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م .

٤- براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، ص١١٧ ، ١١٨ ،مطبعة السعادة بالقاهرة سنة١٩٥٤م .

٥- حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ، ص١٦١، طبعة دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٦٨م .

٦- كات معناها بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء ، وهي بلدة كبيرة تقع في شرق نهر جيحون ، (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص٧ ، ص٢٠٢) .

٧- من المفيد أن نشير إلى أن حكام خوارزم اتخذوا لأنفسهم لقبا ملكيا خاصا بهم ، وهو لقب "شاه" أضافوه إلى اسم الإقليم فأصبح خوارزمشاه ، هذا اللقب كان معروفا في هذه المنطقة قبل الفتح العربي، واستمر حكام تلك المناطق يتوارثونه جيلا بعد جيل واتخذه المأمونيون بعد توحيد خوارزم كلها تحت حكمهم . (البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣١) .

٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٨ ، علي أكبر : لغت نامه ، جـ٢ ، ص٥٧٩ .

٩- الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، أحداث سنة٣٨٥هـ .

١٠- الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٧٣ ، ميرخواند : روضة الصفا ، ص١٠٨ ، ترجمة د.أحمد عبد القادر الشاذلي ، طبعة الدار المصرية للكتاب القاهرة سنة١٩٨٨م ، بارتولد : تركستان ، ص٤٠٠ .

١١- هزار أسب : قلعة حصينة ومدينة جيدة المياه ، وليس لها إلاطريق واحد على ممر ، بينها وبين خوارزم ثلاثة أيام ، وبها أسواق كثيرة .(ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٨ ، ص٤٦٣) .

١٢- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٣٣، بهامش كتاب ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق سنة ١٩٠٩م ، ميرخواند : روضة الصفا ، ص١٠٧ ، فامبرى : تاريخ بخارى ، ص١٢٢ ، ترجمة أحمد محمود الساداتى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٣- الكرديزى : زين الأخبار ، ص٢٧٤ .

١٤- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٢ ، نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص١٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٣٨٥هـ .

١٥- أيلك خان : هو أبو نصر أيلك خان الملقب بشمس الدولة ، ضرب فى عهده عدة عملات فى بخارى وسمرقند فيما بين عامى ٣٩٠هـ و٤٠٠هـ .

Howorth : The Northern Frontagers of China,P.471.

(Journal of royal Asiatic Saciety,London,1898).

- تمكن أيلك خان من ضم بلاد ماوراء النهر للخانية ، وتولى الجزء الغربى من المملكة ، وذلك بعد وفاة بغراخان ، واتخذ من أوزكند عاصمة لمملكته .

- (القزوينى : تاريخ كزيده ، ص٣٨ ، ترجمة محمود محروس قشطة ، رسالة ماجستير سنة ١٩٦٨م ، وارتبط مع السلطان محمود الغزنوى بعدة عهود ومواثيق ، وتمت المصاهرة بين الطرفين .

- (الكرديزى : زين الأخبار ، ص٢٨٧) .

Howorth : The Northern Frontagers Of China,P.471.

١٦- القزوينى : تاريخ كزيده ، ص ٢٨ ، فامبرى : تاريخ بخارى ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

١٧- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص١٦٨ .

١٨-العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص١٦٩ ، البيهقى ، ص٧٣٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٣٨٧هـ ، على أكبر : لغت نامه ، جـ٢ ، ص٥٨٠ .

- السلطان محمود بن سبكتكين من أعظم سلاطين الدولة الغزنوية ، تولى الحكم بعد عزل أخيه الأصغر إسماعيل ، واتصف بالخبرة الإدارية والكفاءة منذ صغره .

- (الجوزجانى : طبقات ناصرى ، جـ١ ، ص١٧٠ ، طبعة كابل سنة١٣٤٣هـ ش ، خليل الله خليلى : سلطنت غزنويان : ص ٢٠ ، طبعة كابل ١٣٣٣ هـش) ، منح عدة ألقاب كان أولها "سيف الدولة" ، الذى منحه إياه الأمير منصور السامانى .

Nazim : The Life and the Time of Saltan Mohamud of Ghzna, p.30 (Campridge, 1931).

- اتخذ لنفسه لقب " سلطان " ، فكان أول من تلقب بهذا اللقب ، (بروان : تاريخ الأدب فى إيران ، ص ١٢٠) ، وأنعم عليه الخليفة القادر بالله العباسى بلقب " يمين الدولة وأمين الملة" ، وذلك لجهوده المتواصلة فى نشر الإسلام فى شبه القارة الهندية .

Nazim : The Life and the Time,p.77.

- (ميرخواند : روضة الصفا ، ص ١٣٦) .

١٩- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٤ ، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ١٧٦ ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة والنشر والتوزيع بالقاهرة .

٢٠- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٧٣٦ ، القزويني : تاريخ كزيده ، هامش (١) ، ص ٤١ ، بارتولد : تركستان ، ص ٤١٥ ، علي أكبر : لغت نامة جـ٢ ، ص ٥٧٩ .

٢١- العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٤ .

- الوزير أبو القاسم تمتع بقدر كبير من العلم والكفاءة العالية ، وقدم الخدمات الجليلة لبلاده ونظم الدواوين وأدخل اللغة العربية في نظام المراسلات الديوانية .

- (نظام عقيلي : آثار الوزارة ن ص١٥٣ ، تهران سنة١٣٣٧هـ ش) ، ولقب بلقب شمس الكفاءة .

- (العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص١٣٩ ، البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٧ ، الباخرزي : دمية القصر وعصره أهل العصر ، جـ١ ، ص١٤٤ ، تحقيق د.محمد التويخى ، بدون طبعة ولا دار نشر).

٢٢-العتبي : تاريخ اليميني ، جـ٢ ، ص٦٨ ، الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٩٤ ،

Sykes :History of Persia,vol.II,p.26.(London,1930).

- وعلى ذلك انتهت الدولة المأمونية ، وما لبث أن أسست دولة خوارزمية تركية أخرى ، أسسها انوشتكين في حدود سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، (خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، جزء جهارم ، جلد دوم، ص ١٤٩ ، طبعة طهران سنة١٩٣٠م .

٢٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٩ .

٢٤- نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق والصفحة ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي، ص٦٥ ، طبعة الفكر العربي سنة ١٩٤٧م .

٢٥- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٧٦ .

٢٦ - رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ٦٥ .

٢٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص ، ١٦٩

٢٨- استمر الوزير أبوالحسن السهيلي وزيرا للمأمونين طوال عهد الأمير على بن مأمون وبداية حكم أبي العباس مأمون حتى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣عندما هاجر من خوارزم إلى بغداد خوفا من غضب الأمير عليه وتوفي ببغداد سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م (نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق ، ص١٧٠) .

٢٩- الأمير قابوس : قابو سنامه ، المعروف بكتاب النصيحة ، ص٩٦ ، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨م .

٣٠- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٤ .

٣١- البيهقي : نفس المصدر السابق ، ص٧٣٥ .

٣٢- البيهقي : نفس المصدر السابق ، والصفحة .

٣٣- البيهقي : نفس المصدر السابق ، ص٤٣٦ .

٣٤- بارتولد : تركستان ، ص ٤١٥ ، على أكبر لغت نامه ، جـ٢ ، ص ٥٨٠ .

٣٥- بارتولد : نفس المرجع السابق ، ص٤١٥ ، على أكبر : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

٣٦- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٤ ، ٧٣٥ .

٣٧- ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ، جـ٢ ، ص ٢٥٢ ، ازميانه قرن ينجم تا آغاز قرن هفتم هجرى جاب ١٣٥١ هـ ش .

٣٨- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٢٧ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣ ، تهران بنياد فرهنك إيران.

٣٩- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص ٥١ ، براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٢ .

٤٠- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٢٧ .

٤١- خواندمير : حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، جزء جهارم ، جلد دوم ، ص٩٥ .

- وبعد استقرار أبي الريحان البيروني في غزنه ، اتهمه السلطان محمود بالزندقة ، نظرا لاكتشافه لنظرية جديدة ، فأودعه السجن ، لولا شفاعة الوزير أبي القاسم أحمد بن الميمندي لما أطلق سراحه .

- (القزويني : تاريخ كزيدة ، هامش ٢ ، ص٤٢) .

٤٢- بارتولد : تركستان ، ص ٥ ٤ .

٤٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٧ .

٤٤- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٧٣٥ .

٤٥- البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص٢٢٧ ، طبعة بغداد سنة ١٩٣٢م .

٤٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٧ .

٤٧- خواندمير : حبيب االسير في أخبار أفراد البشر ، جزء جهارم جلد دوم ، ص٥٩ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧ .

٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٧٠ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٢٩ ، طبعة دار الحياة ببيروت ، براون : تاريخ الأدب ، ص ١١١ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ٦٢ .

٤٩- خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣٧

٥٠- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٥٩ .

٥١- بهنام لفظة فارسية مركبة من كلمتين به معنى خير ونام اسم أي اسم الخير. ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

٥٢- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٥ ، ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر السابق ، ص٤٣٦ .

٥٣- ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر السابق والصفحة .

٥٤- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٣ .

٥٥- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٨ ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ص١٧ ، ١٨٠، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص٦٤ .

٥٦- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٧ ، رضا زاده شفق : نفس المرجع السابق والصفحة .

٥٧- البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص٢٢٧ .

٥٨- الثعالبي : يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر ، جـ٤ ، ص٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ .

٥٩- البيهقي : تاريخ بخاري ، ص٧٣٤ .

٦٠- الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ١٤٣ .

٦١- الباخرزي : دمية القصر وعصره أهل العصر ، جـ١ ، ٦٥٩ .

٦٢- الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٢٤٢ ، ص٢٣٤ .

٦٣- الباخرزي : دمية العصر ، جـ١ ، ص٦٥٥ .

٦٤- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص٦٧ .

٦٥- خواندمير : دستور الوزراء ، ص٢٢٦ .

٦٦- ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص٢٧٢ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب ، ص, ٦٢

٦٧- خواندمير : دستور الوزراء ، ص٢٢٧ ، فرهنك أدبيات فارس دري ، ص٢٥ .

٦٨- محمد عوني : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص٢٣٥ ، تصحيح إدوارد بروز انكليش ، طبعة ليدن سنة ١٩٠٣م، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب ، ص٦٣ .

٦٩- ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص٢٧٤ ، خواندمير : دستور الوزراء ، ص, ٢٣٣

٧٠- فرهنك أدبيات فارس دري ، ص٢٦ .

٧١- براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص١١٦ .

٧٢- محمد عوني : لباب الألباب ، جـ١ ، ص١٠ .

٧٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٦٤ .

- كلمة بيروني نسبة الى بيرون ، وهي مدينة في السند (ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٥٩) وهذه التسمية معناها البراني ، لأن البيروني باللغة الفارسية بمعنى برا ، وقد قيل أن مقام البيروني في خوارزم كان قليلا ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم .

٧٤- فرهنك أدبيات فارس درى ، ص, ٣

٧٥- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٧ ، ص١٨٢ .

٧٦- ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

٧٧- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٥٩ .

٧٨- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٧ ، ص١٨٢ ، براون : تاريخ إيران ، ص١١٧ .

٧٩- رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص٦٤ .

٨٠- حسن محمود : الإسلام في آسيا الوسطى ، ص١٢٢ .

٨١- المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ومازندران ، ص١٧٣ .

٨٢- العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ١ ، ص٩٢ ، الكرديزى : زين الأخبار ، ص١٣٣ .

٨٣- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٩٧ ، ار ابتداى بنياد طبرستان ما استيلاى آل زيار بتصحيح عباس إقبال ، جايخانة مجلس .

٨٤- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٢٠ .

٨٥- المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ومازندران ، ص١٩٨ .(القزوينى : تاريخ كزيده ، ص٧٧) ، وقد حارب قابوس مؤيد الدولة البويهى ، وطرد من دياره وبقى خارجها فى غزنه فترة من الوقت .

٨٦- العتبى : تاريخ اليمينى ، جـ٢ ، ص٢٣ .

Bosworth :On the Chronology of the Ziyarids in Gurgan and Tabaristan,p.27(Berlin,1964).

٨٧- لمزيد من التفاصيل أنظر كتابنا دولة آل زيار ، ص٢٥ الى ص٥٤ ، طبعة دار الهداية سنة ١٩٨٧م .

٨٨- قابوس : قابوس نامه ، المقدمة ، ص٧ .

٨٩- تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٤٢ ، ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب ، ص١١٨ .

٩٠- الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٥٩ ، ، نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص٩٩ ميراخواند : روضة الصفا ، ص١١٦ .

٩١- الأمير قابوس : قابوسنامه ، المقدمة . ص ٨ ، محمد عونى : لباب الألباب ، جـ١ ، ص٢٩١ .

٩٢- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٤٢ .

٩٣- حسن محمود : الإسلام فى آسيا ، ص١٢٢ .

Sykes :History of Persia,vol.II,p.23.

٩٤- ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ ، المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ومازندان ، ص٨٢ .

ومن شعر قابوس :

خطرات ذكرك تستثير مودتى   فأحس فيها فى الفؤاد دبيبا

لا عضو لى الا وفيه صبابة   فكأن أعضائى خلقن قلوبا

(ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٢١)

٩٥-ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص٢٢٥ .

٩٦-قابوس : قابوسنامه ، المقدمة ، ص٩ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ .

٩٧-ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٢٩ .

٩٨-ابن سفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٢٨ ، ١٢٩ .

٩٩-الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٥٠ .

١٠٠-العتبيى : تاريخ اليميني ، ص١٧ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، أحداث سنة ٤٠٣هـ ، ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٣٧ .

Bosworth :on the Chronology of the Ziyarids in Gurgan and Tabaristan,p.25.

١٠١- ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ١٦ ، ص٢٢٢ .

Sykes : History of Persia, Vol II, p. 23 .

١٠٢-الأمير قابوس : قابوسنامه ، ص٢٠ ، حسن محمود : الإسلام فى آسيا ، ص١٢٢ .

- يطلق على هذا الكتاب عدة أسماء ، منها "قابوسنامه" ، المأخوذ من اسم مؤلفه لأنها معربة كيكاوس (المرعشى : تاريخ طبرستان ورويان ، ص٢٠٠) كما تسميته كتاب النصيحة ، فهى تطابق موضوع الكتاب ، (براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ص٢٤) .

١٠٣- قابوس : قابوسنامه ، المقدمة ، ص٤٢ ، ص٤٤ ، براون : نفس المرجع السابق ، ص٣٤٨ ،

Bosworth :on the Chronology of the Ziyarids in Gurgan and Tabaristan,p.32.

١٠٤ - مرزبان : مرزبان نامه ، ص٥ ، ترجمة أحمد بن محمد بن عرب شاه ، القاهرة سنة ١٢٧٨هـ .

١٠٥- الأمير مرزبان : نفس المصدر السابق ، ص٧ .

١٠٦- فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣٨٢ .

١٠٧- الأمير قابوس : قابوسنامه ، ص١١١ .

- وعندما عاد دارا إلى طبرستان انضم الى سلك الندماء فى بلاط طبرستان ، ولم يغب لحظة عن مجالس أنس ورحلات صيد وأوقات فراغ ولهو وطرب الأمير قابوس (ميرخواند : روضة الصفا ، ص١٢٠) .

١٠٨- العتبى : تاريخ اليمينى ، ص٣٠ ، الكرديزى : زين الأخبار ، ص٢٧٢ .

١٠٩- قابوس : قابوسنامه ، ١٧ .

١١٠- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٠٣ .

١١١- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٧٣ .

١١٢- فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣٢٥ .

١١٣- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص٩١ ، ص٩٢ .

١١٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٩١ ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت -لبنان .

١١٥- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ٨ ، جـ٥ .

١١٦- ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، جـ١٦ ، ص١٩٢ ، ١٩٣ .

١١٧- ياقوت الحموى : نفس المصدر السابق ، جـ ١٨ ، ص١٨٨ .

١١٨- مسكوية : تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص٢٣٣ .

١١٩- العتبى : تاريخ اليمينى ، ص٢٢ ، ميرخواند : روضة الصفا ، ص١١٨ ، ١١٩ . ٠

١٢٠- ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص١٣٩ .

١٢١- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص٤١٤ .

١٢٢- ابن القفطى : أخبار العلماء ، ص١٥٥ .

١٢٣- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤١٤ .

١٢٤- ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٢٧ .

١٢٥- ابن اسفنديار : نفس المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

١٢٦- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٢٧ .

١٢٧- قابوس : قابوسنامه ، ص١٧٦ الى ص١٧٨ .

١٢٨- محمد عوفى : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٩ .

١٢٩- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص٣٦ ، ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، جلد أول ، ص١٢٤ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٨٣ .

١٣٠- دامغان : مدينة كبيرة بين الرى ونيسابور ، وهى قصبة قومس ، بها كثير من الفواكه ، (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٦ ، ٢٧).

١٣١- محمد عوفى : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص٥٢ ، براون : تاريخ الأدب ، ص١٨٩ .

١٣٢- براون : تاريخ الأدب ، ص١٨٩ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص٤٨ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٣٨٦ .

١٣٣- اشتملت دولة الخانية على ممتلكات واسعة فى منطقة تيان شان ، وقاعدتها كاشغر وبلا وحدهم الغربى بلاد ماوراء النهر .

(Howorth :The Northern Frontagers of china.p .467)

- ويرجع أصلهم الى البطل الأسطورى أخر أفرسياب ، بينما يشير البعض الى أنهم من شعوب اليغما. بارتولد : تاريخ الترك ، ص١٣٥ ، مكتبة الأنجلوا المصرية ١٩٥٨م.

(Horworth :Ibid,p.466).

- أطلق على حكامهم لقب الأيلك خانات أو خاقانات التركستان (الظهيري السمرقندي : سندباد نامه ، هامش ١ ، ص٦ ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي ، النهضة المصرية سنة ١٩٧٣م) كما أطلق عليهم اسم القرة خانيون أو القراخانيون ، وقيل أن أول من أطلق عليهم هذا الاسم كان عبدا زنجيا أهداه أحد ملوك إيران إلى أحد ملوك تركستان ، فصار أعجوبة بين الناس ، وقد رفعه الملك واشتهر باسم الملك الأسود (نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٢).

١٣٤- العتبي : تاريخ اليميني ص٢٢٣ ، الكرديزي : زين الأخبار ، ص٢٨٨ ، القزويني : تاريخ كزيده ، ص٢٨ ، بارتولد : تاريخ الترك ، ص٨٦ .

١٣٥- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٠٤ .

Howorth : The Northern Frontagers,p.p.464,468.

Barthold :Four Studies on the History of Central Asia,vol1,p.20 .

١٣٦ - النرشخي : تاريخ بخارى ، هامش ١ ، ص٦٧ ، طبعة دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٥م .

Barthold : ibid, pp. 22-23 .

١٣٧- العتبي : تاريخ اليميني ، ص٩٨ ، الظهيري السمرقندي : سندباد نامه ، ص٣٣ .

١٣٨- بارتولد : تركستان من الفتح العربي ، ص٤٥١ .

١٣٩- Homorth:The Northern Frontagers,p.473.

١٤٠ - دار النزاع بين أيلك خان نصر وبين الأمير طغان الذي استعان بالسلطان محمود الغزنوي .(العتبي: تاريخ اليميني ، ص٩٨) .

١٤١- بلاساغون : بلدة عظيمة في ثغور الترك فيما وراء نهر سيحون قريبة من كاشغر (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٥٨) .

- أوزكندا : إحدى مدن الحدود قليلة الأهمية الواقعة الى الشرق من فرغانة ، لها سور وقهندز وعدة أبواب وبساتين .(ياقوت الحموي : نفس المصدر السابق ، ص٣٧٤) .

- النرشخي : تاريخ بخارى ، ص٤٩ ، بارتولد : تاريخ الترك ص٨٣ ، ص٨٤ .

Barthold :Four Studies,p.22.

١٤٢ - خواندمير : دستور الوزراء ، ص٢٧٧ .

Howorth :The Northern Frontagers,p.491 .

١٤٣ - ضربت عدة عملات باسم الخان ركن الدين قلج طمغاج خان الثعالبي : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٤٠٠ ، الظهيري السمرقندي : سندباد نامه ، ص٤٠ .

Howorth :Ibid ,p.499.

١٤٤ - بارتولد : تاريخ الترك ، ص١٢٣ ، براون : تاريخ الأدب في إيران ، ص٣٧٣ .

١٤٥- بارتولد : نفس المرجع السابق ، ص١٠٧ ، ص ١٠٨ .

١٤٦- بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٩٨ ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢م .

١٤٧- النرشخي : تاريخ بخاری ، ص٤٨ .

١٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص٥٣ ، ٥٤ .

١٤٩- سندباد نامه ، ص٦ ، محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ١ ، ص٩٢ .

١٥٠- نظامي عروضي السمرقندي ، ص١٤٤ .

١٥١- الظهيري السمرقندي : سندباد نامه ، ص٦ .

١٥٢- البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص٦٥٠ ، ٦٥١ . - رحل القاضي منصور من بلاط الخانية إلى غزنه في سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م .

١٥٣- النرشخي : تاريخ بخاری ، ص٢٨ .

١٥٤- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

١٥٥- النرشخي : تاريخ بخاری ، ص٢٩ ، ٧٦ .

156 - Howorth :The Northern Frontagers of China.p.492 .

١٥٧ - النرشخي : تاريخ بخاری ، ص٥٧ .

١٥٨- بارتولد : تركستان ، ص٦٧٠ .

١٥٩- بارتولد : تاريخ الترك ، ص٥٨ .

١٦٠- ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، أحداث سنة ٥٥٣هـ .

١٦١- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٦٦ .

١٦٢- النرشخي : تاريخ بخاری ، ص٤٨ .

١٦٣- نظامي عروضي السمرقندي ، جهار مقاله ، ص١٣٨ ، فرهنك أدبيات فارس دری ، ص ٣٢٣ .

١٦٤- نظامي عروضي السمرقندي ، نفس المصدر السابق ، ص١٤٤ .

١٦٥- بارتولد : تركستان ، ص٨٢ .

١٦٦- بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٩٩ .

١٦٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص١٤٢ .

١٦٨- محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٨١ ، رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١١٧.

١٦٩- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله ، ص٥٥ .

١٧٠- محمد عوفي : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٨١ .

١٧١- فرهنك أدبيات فارس دری ، ص٣٥١ ، ٣٥٢ .

١٧٢- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص٥٤ .

١٧٣- رضا زاده شفق : تاريخ الأدب فى إيران ، ص١١٧ ، ١١٨ .

١٧٤- محمد عونى : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص١٨١ .

١٧٥- براون : تاريخ الأدب من الفردوس ، ص٣٧٣ .

١٧٦- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص١٢٥ ، محمد عونى : لباب الألباب ، جـ٢ ، ص٣٦٢ ، فرهنك أدبيات فارس درى ، ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .

١٧٧- محمد عونى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص١٩٩ .

١٧٨- محمد عونى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص٣٦٢ ، فرهنك أدبيات فارس درى ص٢٥٢ .

١٧٩- نظامى عروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ص١٢٤ .

١٨٠- الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص٢٨٥، ٢٨٦ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية:

١- ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٥م) : أبو الحسن على بن أبو المكارم "الكامل فى التاريخ" ، جـ٧ ، طبعة دار الفكر بيروت ١٩٧٨م .

٢- ابن أبى أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٩٣م) : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" ، تحقيق نزار رضا ، طبعة دار الحياة بيروت .

٣- الباخرزى (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) : على بن الحسن بن على بن أبو الطيب "دمية القصر وعصرة أهل العصر" ، ج١ ، تحقيق ودراسة د.محمد التونجى بدون طباعة .

٤- البيرونى (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) : أبو الريحان محمد بن أحمد "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ، نشر إدوارد سخا ، ليبزج سنة ١٨٧٦م .

٥- الثعالبى (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) : أبو منصور عبد الملك بن محمد "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر" ، تحقيق محمد محى الدين ، جـ٤ ، طبعة مصر ، المكتبة التجارية الكبرى.

٦- حسن أحمد محمود : "الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى" ، طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م .

٧- ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٣٠٥م) : أبو العباس شمس الدين أحمد "وفيات الأعيان وأبناء الزمان" ، حققه إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة بيروت -لبنان .

٨- ابن القفطى (ت٦٤٦هـ/١٢٤٩م) : جمال الدين أبو الحسن على "أخبار الحكماء بأخبار العلماء" ، مكتبة المتنبى بالقاهرة .

٩- ياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى "معجم الأدباء" ، جـ٦ ، جـ١٦ ، جـ١٧ ، دار المستشرق بيروت-لبنان .

١٠- « « « : معجم البلدان" ، ٨أجزاء ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة مصر سنة ١٩٠٦م .

ثانيا : المصادر والمراجع الفارسية :

١١- ابن اسفنديار : بهاء الدين محمد بن حسن "تاريخ طبرستان" ، مجلد أول ، ارابتداى بنياد طبرستان ما استيلاى آل زيار ، بتصحيح عباس أقبال ، جايخانة مجلس .

١٢- البيهقى (ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م) : أبو الفضل البيهقى "تاريخ البيهقى" ، ترجمة يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية .

١٣- الجزجانى (ت٦٩٨هـ/١٣٠٠م) : أبو عثمان منهاج سراج "طبقات ناصرى" ، تصحيح وتعليق عبد الحى حبيبى ، طبعة كابل سنة ١٣٤٣هـ.ش .

١٤- خليل الله خليلى :"سلطنت غزنويان" ، طبعة كابل ١٣٣٢هـ ش .

١٥- خواندمير(ت٩٤٢هـ/١٥٣٥م) : غياث الدين بن همام الدين "حبيب السير فى أخبار أفراد البشر" ، جزء جهارم، جلد دوم ، طبعة طهران سنة ١٩٣٠م .

١٦- « « « : دستور الوزراء" ، ترجمة حربى أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م .

١٧- ذبيح الله صفا : "تاريخ أدبيات در إيران" ، جـ٢ ، از ميانه قرن ينجم أغار قرن هفتم هجرى جاب ١٣٥١هـ.ش .

١٨- رضا زاده شفق : "تاريخ الأدب الفارسي" ، ترجمة محمد موسى هنداوى ، طبعة دار الفكر العربى .

١٩- الظهيرى السمرقندى (ت٥٥٠هـ/١٣٦٨م) : بهاء الدين محمد بن على "سندباد نامة"، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٧٢م .

٢٠- عباس أقبال : "تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الظاهرة حتى نهاية الدولة القاجارية" ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، طبعة دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

٢١- العتبى (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م) : أبو نصر محمد بن عبد الجبار "تاريخ اليمينى" ، بهامش كتاب ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، جـ١٢ ، طبعة بولاق ١٩٠٩م .

٢٢- على أكبر : "لغت نامه" ، جـ٢ ، تهران درجانجاية ، مؤسسة انتشارات وجاب دانشكاة تهران .

٢٣- فرهنك أدبيات فارس درى ، تهران بنيان فرهنك إيران .

٢٤-قابوس (ت٤٦٢هـ/١٠٦٩م) : عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر "قابوسنامة أو كتاب النصيحة" ، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوى ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨م .

٢٥- القزوينى (ت٧٥٠هـ/١٢٤٩م) : حمد الله مستوفى "تاريخ كزيدة" المعروف بالتاريخ المختار ، ترجمة محمود قشطة .

٢٦- الكرديزى (ت٤٤٢هـ/١٠٥٠م) : أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك "زين الأخبار" ترجمة عفاف السيد زيدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٨٢م .

٢٧- محمد عوفى (ت منتصف القرن السابع الهجرى/١٣م : محمد نور الدين عوفى "لباب الألباب" جزءان ، تصحيح ادوار ديروز انكلش ، طبعة بريل فى مدينة ليدن سنة ١٩٣٠م .

٢٨- مرزبان "عامر آل زيار" . مرزبان بن رستم بن شروين "مرزبان نامه" ترجمة أحمد بن محمد بن عربشاه ، طبعة القاهرة سنة ١٢٧٨م .

٢٩- المرعشى : سيد ظهير الدين بن سيد نصير الدين "تاريخ طبرستان ورويان ومازندران" ، مسحة باعتنا واهتمام كمترين بتدكان برنهارد دارن ، بطبغخانه أوكاديميه سنة ١٨٥٠م .

٣٠- ميراخواند (ت٩٠٣هـ/١٤٩٧م) : محمد بن خاوند شاه "روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا" ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، طبعة الدار المصرية للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٨٨م .

٣١- النرشخى (ت٣٤٨هـ/٩٥٩م) : أبو بكر محمد بن جعفر "تاريخ بخارى" ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازى ، طبعة دار المعارف مصر ١٩٦٥م .

٣٢- نظام عقيلي (ت في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري) : سيف الدين حاجي "آثار الوزراء" ، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسيني ، تهران ١٣٣٧هـ.ش .

٣٣- نظامي عروضي السمرقندي(ت٥٥٠هـ/١١٥٥م) : الحسن بن عمر "جهار مقاله" وعليه حواش محمد بن عبد الوهاب القزويني ، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف سنة ١٩٤٩م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

٣٤- بارتولد : "تاريخ الترك في آسيا الوسطى" ترجمة أحمد السعيد سليمان ، مكتبة الأنجلو المصرية١٩٥٨م .

٣٥- » » » : تاريخ الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢م .

٣٦- » » » : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي" ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

37 - Barthold : four studies on the History of central Asia,vol1(leiden Brill,1962).

38 - Bosworth : The Medieval History of Eran Afghanstan and central Asia (Leiden,1977).

٣٩ – براون :"تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي" ، مطبعة السعادة سنة ١٩٥٤م .

٤٠- Howorth : The Northern frontagers of china (journal of the royal Asiatic society ,London,1898).

٤١ – فامبري :"تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر" ، ترجمة أحمد محمود الساداتي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

42 - Nazim : The life and the time of mahmoud of Ghazna, with of arc-word by the by the late sir Tomes Arnold, (Cambridge,1931).

43 - Sykes : History of perisa,vol II(London,1931).

د. حسن خضيرى أحمد (*)

مظاهر النشاط العلمى والدينى فى زبيد فى عصر الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨ هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)

اهمية موقع زبيد :

تقع مدينة زبيد فى أرض الحصيب فى سهل تهامة ، على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب ، من مكة إلى عدن ، فى منتصف المسافة بين مرتفعات اليمن والبحر الأحمر ، على مسيرة ١٦ ميلاً تقريباً من الشاطىء ، وينسب اختطاط مدينة زبيد إلى محمد بن زياد عامل الخليفة المأمون العباسى على اليمن (١)، وكان قد بدأ فى بنائها سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م (٢)، ليتخذ منها مكانًا حصينًا يصلح مقرًا لحكمه ، ولما كان تأسيس مدينة عسكرية جديدة تكون مركزًا للإمارة ، ونقطة تجمع للقوات المقاتلة من الأمور الواجبة لحفظ النظام ، واستتباب الأمن ، فإن اختيار المكان الملائم لهذه المدينة من النواحى الاستراتيجية والمناخية والاقتصادية يكون ألزم وأوجب (٣).

وقد وصف الخزرجى(٤) مدينة زبيد بقوله : " مدينة مدورة الشكل عجيبة الموضع ، على النصف ما بين البحر والجبل " ، ومن جنوبها واديها المبارك المشهور المخصوص بالبركة لدعاء الرسول ﷺ فيه بالبركة . ومن شمالها الجبال الشامخة ، والحصون الباذخة ، والمعاقل المنيعة الرفيعة، ومن غربها البحر الزاخر، والسفن المواخر ، والنخيل الباسقة(٥).

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد - كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

ويبدو أن اختيار ابن زياد لشكل المدينة المدور هذا ، كان مرده إلى عوامل أمنية واستراتيجية واقتصادية في المقام الأول ، حيث أن الشكل الدائرى للمدن يصبح أكثر فائدة وأعم نفعًا من تلك التي تبنى على شكل مربع أو مستطيل ، ففى الشكل الدائرى تختفى الزوايا فى أركان السور اللواتى تحدثها الأسوار المربعة أو المستطيلة [٦]، كما أن هذا التخطيط المستدير يحقق غرضًا اقتصاديًا من ناحية التوفير فى تكاليف البناء ، فمحيط قطعة من الأرض على شكل دائرة أقل من محيط المربع المساوى لها فى المساحة ، والاقتصاد شرط من الشروط الأساسية التى يجب توافرها فى العمارة بمعناها الصحيح[٧] وقد قدر لهذه المدينة بفضل موقعها الاستراتيجي الممتاز ، وجغرافيتها الطبيعية ، ونشاطها الاقتصادى الكثيف ، أن تسهم بدور حيوى وفعال فى شئون اليمن ، يصفها المقدسى[٨] فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى بقوله : " بلد جليل حسن البنيان ، يسمونه بغداد اليمن ، به تجار كبار ، وعلماء وأدباء ، مفيد لمن دخله ، مبارك على من سكنه " ويأتى البكرى[٩] فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، فيذكر أنه ليس باليمن بعد صنعاء أكبر من زبيد ، ولا أغنى أهلاً ولا أكثر خيراً منها ، ويبدى الإدريسى[١٠] فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى حماسًا فى وصفه للمدينة بقوله : " المسافرون إليها كثيرون ، وبها مجتمع التجار من أرض الحجاز ، وأرض الحبشة ، وأرض مصر ، الصاعدون فى مراكب جدة ، وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إلى زبيد، وتخرج منها ضروب الأفاوية الهندية والمتاع الصينى وغيره".

أما ابن بطوطة[١١] الذى زارها فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فيذكر أنه ليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ، ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه ، إحدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة ، كثيرة العمارة ، بها النخل والبساتين والمياه، أملح بلاد اليمن وأجملها ... وعلماء تلك البلاد وفقاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق .

ويصفها ابن الديبع[١٢] فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى بأنها : " بلاد العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء ، والدين والصلاح والخير والفلاح ، ولم نعلم مدينة من مدائن اليمن المعمورات ، ومساكنها المشهورات، ظهر فيها ما ظهر فى مدينة زبيد من العلم والعلماء".

ويتبين من النصوص السابقة أن مدينة زبيد نعمت بتطور حضارى كبير ، نتيجة لازدهارها الاقتصادى ، بفضل وقوعها على طريق التجارة ، حتى غدت مجتمعًا لتجار الحجاز والحبشة

ومصر ، وانعكس ذلك على أهلها ، فصاروا أصحاب ثروة ومال وعلم ، وبذلك يكون العامل الاقتصادى قد لعب دوراً كبيراً فى الازدهار العلمى والدينى لزبيد خلال هذه الحقبة التى نحن بصددها فى الدراسة .

عوامل ازدهار النهضة الثقافية فى زبيد:

تبوأت زبيد مكانة مرموقة فى عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤م)[١٣] ، هذا العصر الذى يعد بحق من أزهى عصور اليمن الإسلامية فى مضمار النشاط العلمى والدينى ، فقد واكبته نهضة ثقافية عظيمة ، بدت فى أوضح مظاهرها فى اهتمام الملوك والأمراء ، وكبار رجالات الدولة بإحاطة أنفسهم بالنابغين من رجال العلم والأدب والفقه ، والاهتمام بهم ، وبذل العطاء السخى لهم [١٤]، فصارت فى عهدهم مدينة زبيد كعبة القصاد من العلماء والمتعلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامى وازدهرت المراكز العلمية والدينية المتعددة فى المساجد ، والأربطة ، والمكتبات ، وفى قصور السلاطين والأمراء[١٥].

على أن طول فترة حكم الدولة الرسولية التى ناهزت قرنين من الزمان ونيف ، فضلاً عن اتساع نفوذها الذى شمل من مكة إلى ظفار [١٦]، حتى أن ميناء زيلع[١٧] على الساحل الأفريقى دخل فى حوزتها ، ولم يخرج عن سلطانها إلا المناطق الزيدية حول صعدة [١٨]، وأدى اتساع الدولة الرسولية إلى ارتقاء نظمها ، نتيجة لتطور المجتمع اليمنى من ناحية ، والاحتكاك بالحضارات الأخرى التى سادت المنطقة من ناحية أخرى ، مما جعل حضارتها تستحكم وتزداد رسوخاً ، ولابن خلدون[١٩] قول فى ذلك : " أن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول ، أنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها ... إذا اتصلت تلك الدولة ، وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحداً بعد واحد ، استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً " .

كما أسهم الاقتصاد المزدهر فى تلبية الحاجات المهمة لخزانة الدولة [٢٠]، فزبيد بخلاف أرض تهامة ، تتميز ببساتينها التى يزرع فيها النخيل والقمح ، والنيلة والنباتات الطبية ، وقد شجع سلاطين بنى رسول الزراعة واهتموا بها ، حيث كانوا يسيطرون على المناطق الأكثر خصباً فى اليمن [٢١]، بيد أن التجارة الدولية الواسعة هى التى وفرت الدخل الأساسى لزبيد، فقد تدفقت البضائع من الهند وسيلان والصين وأفريقيا ، وأعيد تصديرها من اليمن [٢٢]، وكانت عدن من أكبر محطات التبادل التجارى بين عالمى البحر الأحمر والمتوسط ، وعالمى

المحيط الهندى وبحر الصين(٢٣)، يقول المقدسى (٢٤): " والتجارات فى هذا الإقليم مفيدة ، لأن به فرضتي الدنيا ، وسوق مني والبحر المتصل بالصين وجدة ، والجار(٢٥) خزانتي مصر، ووادى القرى مطرح الشام والعراق واليمن ، معدن العصائب والعقيق ، والأدم والرقيق ، وبتجارات الصين تضرب الأمثال " .

وساعد على الازدهار الاقتصادى ، العلاقات الودية التى كانت تربط سلاطين وملوك بنى رسول وغيرهم من الدول ، فيذكر ابن الديبع في حوادث سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ، أنه قدم على السلطان الملك الناصر أحمد الرسولى (٨٠٣ - ٨٢٨هـ / ١٤٠٠ - ١٤٢٤م) ، رسل صاحب الصين بثلاثة مراكب عظيمة فيها من الهدايا النفيسة ، ما قيمته عشرين لكًا من الذهب(٢٦)، ولاشك أن الازدهار الثقافى كان وثيق الصلة بالازدهار الاقتصادى الذى شهدته زبيد فى عصر الدولة الرسولية ، وحمل فى أعطافه جميع المظاهر الدينية والثقافية والحضارية ، مما حدا بالكثير من العلماء والأعلام فى مختلف مجالات النشاط الفكرى ، أن ييمموا وجوههم شطر مدينة زبيد ، فيجدوا من التكريم والتقدير أكثر مما يؤملون ، وفوق ما يتوقعون ، فيقدمون أبدع ما جادت به قرائحهم من مؤلفات .

وساعد على ازدهار النهضة الثقافية فى زبيد ، ما كان عليه سلاطين وملوك بنى رسول من فكر وثقافة ، ودراية كبيرة بالعلوم الدينية والعقلية ، وغيرها من فروع المعارف الأخرى ، واشتغال بعضهم بالتأليف والكتابة ، وتشييدهم للكثير من المنشآت الدينية والعلمية (٢٧)، التى أصبحت سمة بارزة شاهدة على عصرهم ، فقد شيد أول سلاطين هذه الدولة الملك عمر بن على بن رسول (٦٢٦ - ٦٤٧هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤٩م) مدرستين فى زبيد : المنصورية العليا لأصحاب المذهب الشافعى ، والمنصورية السفلى والتى جعلها على قسمين أحدهما لأصحاب أبى حنيفة ، والآخر لأصحاب الحديث (٢٨)، وله أيضًا مدرسة فى حد المنسكية من وادى سهام شمالى مدينة زبيد (٢٩).

وحيث أن دراسة المنشآت الدينية والعلمية التى حفلت بها اليمن فى عصر الدولة الرسولية، وامتد أثرها إلى مكة (٣٠)، من الكثرة بمكان ينوء بها مثل هذا البحث ، فسوف نكتفى بذكر نماذج منها فى مدينة زبيد بوجه خاص ، وذلك لأهميتها الخاصة .

ومهما يقال من أن الرسوليين توسعوا فى إنشاء المدارس الإسلامية ، والتى فاقت كثرتها المساجد ، بقصد تدعيم مذاهب أهل السنة ، وبصفة خاصة المذهب الشافعى ، الذى كان أكثر

المذاهب انتشاراً فى جنوب اليمن ، لمواجهة مذاهب الشيعة ، وأخصها المذهب الزيدى(٣١) فى المناطق الشمالية ، والذى وصل فى كثير من الأحيان إلى صنعاء نفسها عاصمة اليمن (٣٢)، فإنه يجدر بنا أن نضع موضع الاعتبار ، أن التغير الاقتصادى والاجتماعى الذى كانَ يمر به المجتمع اليمنى فى تلك الفترة ، ساعد على إقامة مراكز خاصة بالتعليم يكون الهدف من وجودها أن تستوعب هذا الكم الكبير من الداسات والطلاب ، هذا فضلاً عن اتخاذ هذه المدارس رمزاً ومنبراً للسلطة السياسية ، مما يضفى المهابة على الكيان السياسى الرسولى ، وما يحدثه ذلك فى نفوس العامة من ردود فعل تبلورت فى هيئة النظام الجديد .

نهج الملك المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤هـ / ١٢٤٩ - ١٢٩٥م) نهج أبيه ، فى تشييد المدارس والمساجد ، وساعده على ذلك طول فترة حكمه ، حتى وصفه الوصابى (٣٣): " بأنه كان أعظم ملوك بنى رسول مملكة ، ولقب بالتبع الأكبر " ، فقد كان ملكاً جواداً كريماً ، كثير البذل للأموال ، حسن السياسة (٣٤)، وهو أكثر ملوك بنى رسول إنشاء للمدارس والجوامع (٣٥)، ومن مصنفاته العلمية : الأربعين فى الحديث ، والبيان فى كشف علم الطب للعيان ، وتيسير المطالب فى تسيير الكواكب ، والعقد النفيس فى مفاكهة الجليس ، واللمعة الكافية فى الأدوية الشافية (٣٦)، والمخترع فى فنون الصنع (٣٧)، والمغنى فى البيطرة (٣٨).

لم يقتصر الأمر على سلاطين بنى رسول فى تشييدهم المنشآت الدينية والعلمية ، بل امتد ليشمل أهل بيتهم وذويهم ، ووزرائهم ، وحاشيتهم ومواليهم ، ومن انتسب إليهم ، فقد أنشأت نبيلة ابنة الملك المظفر المدرسة الأشرفية بزبيد (٣٩)، وعمرت ابنته ماء السماء المدرسة الواثقية بزبيد ، ورتبت فيها أيامًا ، ومؤذنًا وقيمًا ومعلمًا ، وأيتامًا يتعلمون القرآن ، ومدرسًا وطلبة يقرءون العلم ، ووقفت عليهم من أملاكها ما يقوم بكفايتهم (٤٠)، كما أنشأت زوجته الحرة مريم، المدرسة السابقية فى زبيد ، وتعرف أيضًا بالعفيفية ومدرسة مريم (٤١)، وشيد خادمه تاج الدين بدر المظفرى ثلاث مدارس بزبيد إحداهم للفقه على المذهب الشافعى والثانية للقراءات السبع ، والثالثة للحديث (٤٢)، كما أنشأ الطواشى نظام الدين مختص بن عبد الله المظفرى ، المدرسة النظامية بزبيد (٤٣)، ووقف عليها وقفًا جليلاً يقوم بكفاية المرسومين عليها ، وليس فى مدارس زبيد أحسن منها وقفًا ، وله أيضًا المسجد المعروف بالنظامى ، الذى يقع جنوب دار السلطان بزبيد (٤٤)، كما أصلح الأمير شهاب الدين غازى بن المعمار سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م منبر الحديث والوعظ بمسجد الأشاعر ، وأوقف عليه دكاكين(٤٥).

ولعل من عوامل ازدهار النهضة الثقافية في زبيد ، أن سلاطين وأمراء بني رسول كانوا من محبي العلم وطلابه ، ويصف لنا الجندي(٤٦) أحد أمراء بني رسول ، وهو محمد بن حسن بن علي بن رسول (ت ٦٧٧ / ١٢٧٨م) بقوله : " ... أحد خيار بني رسول .. اشتغل بقراءة كتب العلم، وكان يستدعي بالفقهاء إلى موضعه ، فيقرأ عليهم ويحسن إليهم .. فقرأ غالب كتب المسموعات ، خاصة من كتب الحديث .. ثم نسخ عدة مجلدات ، ووقف ذلك على أماكن عديدة".

أما السلطان الملك الأشرف الأول ممهد الدين عمر (٦٩٤ - ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م)(٤٧)، كان محبًا لمصاحبة العلماء ، ومجالسة الفقهاء ، وبلغ درجة عالية من المعرفة فى العلوم ، وكان ملمًا بكل فن ، باحثًا فى كل مذهب ، حتى أنه كان يفتى فى عشرة علوم(٤٨)، مما حدا بأحد الباحثين(٤٩) القول : " كان السلطان الأشرف عمر ، عالمًا ، ومبدعًا ومفكرًا علميًا ، فاقت معارفه عصره " ، وله العديد من المؤلفات نذكر منها : الإبدال لما عدم فى الحال ، والاسطرلاب(٥٠)، والإشارة فى العبارة فى علم تعبير الرؤيا (٥١)، أما كتابه الموسوعي : "التبصرة فى علم النجوم " ، فيعتبر إضافة جديدة فى علم الفلك(٥٢) عرض فيه لأحكام النجوم وتأثيرها فى طبائع الإنسان ، وفيضان نهر النيل ، والإبحار من الهند إلى عدن، والأيام والشهور الرومانية والفارسية ، هذا فضلاً عن الأطعمة التى تناسب أهل اليمن(٥٣)، وهذا المصنف يعبر بوضوح عن غزارة علم الأشراف الأول ، وإبداعه ، وتقدمه فى ضروب العلم وجوانب المعرفة .

ويعطينا ابن عبد المجيد(٥٤) وصفًا شائقًا عن السلطان الملك المؤيد داود (٦٩٦ - ٧٢١هـ / ١٢٩٧ - ١٣٣١م) بقوله : " كان ملكًا فاضلاً محبًا للعلوم ، مقربًا لأهلها ، يستميلهم إليه حيث كانوا ويرغب فيهم ، ويرغبهم فيما عنده ... ، وكان محبًا لجمع الكتب والتحف ، جمع من مصنفات العالم على اختلافها وتباينها ما ينيف على مائة ألف مجلدة ، وحملت إليه الكتب والتحف من كل جهة ، وكان عنده مع ذلك زيادة على عشرة نساخ ، ينسخون الكتب ، وترفع إلى خزانته ، بعد مقابلتها وتحريرها " ويعد عصر السلطان الملك المجاهد على بن المؤيد (٧٢١ - ٧٦٤هـ / ١٣٣١- ١٣٦٣م)(٥٥)، أوج ازدهار الثقافة فى زبيد ، فقد كان " أديبًا لبيبًا ، فقيهًا شاعرًا فصيحًا ، مشاركًا فى عدة من فنون العلم (٥٦)، مما حدا بأحد المؤرخين إلى القول : " أنه أعلم بنى رسول " (٥٧)، وله العديد من المؤلفات نذكر منها الأقوال الكافية والفصول الشافية (٥٨)، والتذكرة فى معرفة البيطرة (٥٩)، وكتابه فى الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها (٦٠).

وأما الملك الأفضل (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، " فقد كان من العلم والأدب بمكان[٦١] فقيهًا ، نبيهًا ، عارفًا بالفقه والنحو واللغة والأنساب والتواريخ مشاركًا في غير ذلك[٦٢] ، وله العديد من المصنفات نذكر منها : بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين، وبغية ذوى الهمم فى أنساب العرب والعجم [٦٣]، والعطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية [٦٤]، يحتوى على طبقات فقهاء اليمن ، وكبرائها وملوكها ووزرائها ، وله أيضًا نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء ، ونزهة العيون فى معرفة الطوائف والقرون ، واختصر تاريخ ابن خلكان اختصارًا حسنًا[٦٥] وكتب قاموسًا بخمس لغات [٦٦].

لما اعتلى الملك الأشرف الثانى إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣هـ / ١٣٧٦ - ١٤٠٠م) عرش السلطنة ، وجه جل عنايته إلى تشييد وتجديد العديد من المنشآت الدينية والعلمية فى زبيد ، يقول ابن الديبع [٦٧]: " .. وفى دولته أمر بعمارة المساجد والمدارس بزبيد ، بعد أن كان أكثرها دائرًا لا أثر له " . فقد كان عالمًا جوادًا كريمًا ، يقدر العلم وأهله ، اشتغل بكثير من فنون العلم ، " وكانت نفسه تؤثر العلم والعلماء " [٦٨]، وواكب عصره نهضة علمية مزدهرة ، وتألقت زبيد فى عصره حتى غدت حاضرة ثقافية مزدهرة ، يؤمها طلاب العلم والعلماء من شتى أصقاع العالم الإسلامى [٦٩]، وحسبنا ما ذكره المؤرخون عن الحفاوة التى قوبل بها الإمام اللغوى مجد الدين الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، عندما قدم إلى زبيد سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م فقد بالغ الأشرف فى إكرامه ، وأنزله ضيفًا عليه ، وأغدق عليه العطايا والهبات ، وتصدر الفيروزآبادى للتدريس فى مدينة زبيد [٧٠]، وكان الملك الأشرف أحد من أخذ عنه ، وطاب له المقام فى زبيد ، ثم ولاه الملك الأشرف قضاء الأقضية ، فكان يقضى ويدرس ويؤلف ، وفى زبيد صنف الفيروزأبادى مؤلفه الشهير (القاموس المحيط) فى اللغة[٧١]، وتزوج الملك الأشرف ابنته ، وتوفى الفيروزأبادى فى سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م ، ودفن فى زبيد ، و لا زال قبره يعرف بصاحب القاموس [٧٢]، كما وفد على زبيد الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، فأنزله الأشرف منزلاً كريمًا ، وبالغ فى إكرامه ، وأجرى عليه الأرزاق ، ولما أراد العودة إلى مصر ، ودعه الأشرف ، وحباه بمائة ألف دينار ، هذا فضلاً عن الكثير من التحف ، تقديرًا لعلمه وفضله وتبحره فى العلم [٧٣]، وكان الأشرف يجزل العطاء للعلماء على مؤلفاتهم ، يروى لنا ابن الديبع أن قاضى القضاة ، جمال الدين الريمى (ت٧٩٢هـ / ١٣٩٨م) ، عندما فرغ من تأليف كتابه " التفقيه فى شرح التنبيه"،

الذى يقع فى أربعة وعشرين مجلداً ، حمل إلى الملك الأشرف في سنة (٧٨٨هـ / ١٤٨٣م)، بالزف والطبول ، وسارت بين يديه القضاة والعلماء والأمراء ، فنجازة السلطان باثنى عشر ألف ديناراً ، حملت فى أطباق الفضة ، ملفوفة بأثواب الحرير والديباج (٧٤).

فى ظل هذا المناخ العلمى أصبحت زبيد موئلاً للعلماء وطلاب العلم ، فتلاحقت الآراء وامتزجت الثقافات ، فأخصبت الحياة الفكرية ، وأفرزت روائع الأبحاث فى شتى مناحى المعرفة ، وساهمت بقسط وافر فى بناء الحضارة الإنسانية ، فلم تكن حاضرة تقليدية فحسب، بل كانت حاضرة ثقافية تغص بالعلماء والأدباء والشعراء ، ذاع صيتها فى الأفاق (٧٥).

اهم المراكز العلمية والدينية في زبيد:

تعتبر المساجد من أهم المراكز العلمية والدينية ، ليس فى زبيد فحسب ، بل فى الأمصار الإسلامية جميعها ، وكان المسلمون يحرصون على بناء المساجد الجامعة ، عند إنشائهم للمدن فى الأمصار المفتوحة ، لتقوم بوظائف متعددة ، لعل أبرزها قيامها بدور المدرسة والجامعة فى العصر الحديثة (٧٦)، ومع نمو مدينة زبيد واتساع دائرة الحضارة ، تعددت المراكز العلمية والدينية ، منها ما غلب عليه الصفة الدينية المساجد والخانقاوات والزوايا والأربطة ، ومنها ما استهدف تحقيق رسالة علمية وتعليمية كالمدارس والمكاتب ، ومهما تتباعد أو تتقارب هذه المنشآت التى تميزت بها الحضارة الإسلامية فى أهدافها ، ومهامها وطابعها ، فإن المسجد ظل يتبوأ مكان الصدارة ليبدو فى صورة المؤسسة الأولى فى الإسلام ، التى غدت رمزاً وعنواناً له، ومقراً لعديد من ألوان النشاط التى ارتبطت به وعبرت عنه (٧٧)، ويذكر أحد الفقهاء أن مواضع التدريس ثلاثة : البيت والمدرسة والمسجد ، وذكر أن المسجد أفضلها جميعاً ، لأن الفائدة من التدريس أن تظهر بها سُنة ، أو تخمد بدعة ، أو يتعلم به حكم من أحكام الدين(٧٨)، والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد ، لأنه موضع مجتمع الناس (٧٩).

تعددت المساجد فى زبيد ، وأصبحت من كثرتها تلفت النظر ، حتى أن بعض الباحثين(٨٠) أحصاها فبلغت ٨٢ مسجداً من واقع ما ذكره بعض المؤرخين ، ويعتبر الجامع الكبير من أهم هذه المساجد ، فقد كان حصناً وملاذاً لمذاهب السنة في جنوب اليمن ، ومشعلاً من مشاعل الفكر فى جميع فنون العلم : القرآن وعلومه ، والحديث وأسانيده ومصطلحه ، والفقه وأصوله وفروعه ، وشتى مناحى المعرفة (٨١)، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن هذا المسجد الجامع

أسس فى عهد الدولة الزيادية فى مطلع القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وفى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ، جدد عمارته الحسين بن سلامة ، يقول عنه ابن الديبع (٨٢): " وهو الذى بنى الجوامع الكبار والمنائر الطوال فى المدن .. ومبتدأ عمارته من حضر موت إلى مكة نحو ستين مرحلة ، فى كل مرحلة جامع ومئذنة ومنبر " ، وفى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م قام السلطان طغتكين بن أيوب بتوسعة فى هذا الجامع ، شملت الجناح الشرقى والغربى والمؤخر والمنارة والمنبر (٨٣)، وقد أمدنا المقدسى(٨٤) (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م) بوصف دقيق عن الجامع : "والجامع ناء عن الأسواق ، نظيف مبريق الأرض ، تحت المنبر تقويره ، ليتصل الصف " ، وشهد الجامع الكبير بزبيد منذ نشأته حياة علمية مزدهرة ، وبفضل تشجيع سلاطين بنى رسول للعلم والعلماء ، أصبح هذا الجامع مركزًا للدراسات السنية ، وتحلق فيه مشاهير العلماء من كافة أصقاع العالم الإسلامى (٨٥)، ومن هنا يمكن القول أن الجامع الكبير بزبيد كان بمثابة الجسر الذى عبرت عليه الثقافة العربية فى دراسات علوم القرآن والنحو واللغة ، هذا فضلاً عن العلوم العقلية من المشرق ، إلى كافة أرجاء العالم الإسلامى .

أما مسجد الأشاعر أو جامعة الأشاعرة ، فيعتبر أقدم جامعة إسلامية فى العالم الإسلامى(٨٦)، تذكر المصادر أن أبا موسى الأشعرى وقومه أسسوا هذا المسجد فى العام الثامن للهجرة (٨٧)، وسمى هذا المسجد باسم قبيلة الأشاعر (٨٨)، ثم أعاد ابن زياد بناء هذا المسجد عند تخطيطه لمدينة زبيد فى أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (٨٩)، وفى سنة ٤٢٥هـ / ١٠٣٣م ، بنى الحسين بن سلامة مسجد الأشاعر ، وكتب اسمه على لوحة خشبية شرق المحراب الكبير بالخط الكوفى ، لا تزال ماثلة للعيان إلى الآن فى واجهة الجدار القبلى للأشاعر (٩٠)، كما أنشأ الملك المظفر بن عمر بن رسول (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) منبر الحديث بجامع الأشاعر (٩١)، وفى سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م، أصلح الأمير أبو غازى بن المعمار منبر الوعظ الإرشاد والحديث (٩٢).

تعهد سلاطين بنى رسول هذا المسجد بالتجديد والعمارة ، وخصوه بالكثير من رعايتهم وعنايتهم ، وخصصوا الأموال للإنفاق عليه ، فوقفوا عليه الأحباس (٩٣)، كما أغدقوا العطايا على علمائه وطلابه ، فهؤلاء السلاطين لم يكونوا رعاة للعلوم والآداب فحسب ، بل كانوا هم أنفسهم أيضًا كتابًا وعلماءً ومفكرين ومبدعين(٩٤)، مما هيأ لهذا المسجد أن يتبوأ مكانته العلمية ، ويصبح جامعة إسلامية ، يدرس فيها النحو واللغة والأصول والمصطلح والجبر

والمقابلة ، فضلاً عن العلوم الدينية كالفقه والحديث والقراءات [٩٥]، تخرج منها علماء وفقهاء ومشرعون ، كان لهم إسهامات بارزة فى العلوم والحضارة العربية والإسلامية [٩٦].

وعلى الرغم من أن الجامع الكبير ومسجد الأشاعرة ، كاناً أقدم المساجد فى مدينة زبيد ، وأكثرها ذيوعًا وشهرة ، فقد ظهرت مساجد أخرى ، لعبت دوراً كبيراً فى الحياة العلمية والدينية ، نذكر منها على سبيل المثال : مسجد سرور الفاتك ، ومسجد القائد فرج السحرتى، ومسجد الملاح [٩٧]، ومسجد الهند ، ومسجد الضياء ، ومسجد الحاجة سمح ، ومسجد الحاجة قنديل ، ومسجد الحاجة غصون [٩٨]، .. وغير ذلك كثير .

تعد المدارس من أهم المراكز العلمية فى زبيد ، وغطت أهميتها الدينية والتعليمية والسياسية على أية منشأة إسلامية مشابهة أخرى ، مثل الخانقاة أو الرباط أو الزاوية ، ولم يحتفظ بأهميته ومكانته الخاصة بين مؤسسات الحضارة الإسلامية سوى المسجد الجامع[٩٩].

على أن فكرة نشأة المدارس فى الإسلام ، بدأت منذ عهد الرسول ﷺ ، فعلى الرغم من أن المسجد كان المركز الأساسى للتعليم فى عصره ، لم يحل ذلك دون قيامه ﷺ بالدعوة إلى التعليم فى أماكن أخرى ، فقد أحس أصحاب رسول الله ﷺ ، بحاجتهم إلى أماكن خاصة للتعليم ، وعدم الاكتفاء بالمسجد وحده كمركز تعليمى ، وهذا ما فعله عبد الله بن عباس فى آخريات أيامه ، بعد أن استوطن الطائف ، واتخذ من منزله معهداً لدراسة العلم [١٠٠].

كانت دروس العلم فى اليمن فى صدر الإسلام ، تتم فى الدور السكنية ، كتأثير مباشر قادم من مكة والمدينة والطائف ، وهى التى أطلق عليها أمكان الهجر ، حيث يفد الطلاب عليها لتلقى العلم ، على أيدى العلماء من المتخصصين فى العلوم الدينية ، وفى شتى ميادين الفكر والثقافة ، وانتشرت أماكن الهجر الأولى فى شمال اليمن بوجه خاص ، وذلك لقرب التأثير الدينى القادم من الشمال فى مدينة صعدة ، كهجرة فللة ، وهجرة قطاير ، وهجرة معيتى ، وهجرة باقم ، وهجرة حيدان ، وغيرها ، ويعتقد أحد الباحثين[١٠١] أن هذه الأماكن ، كانت غالبيتها فى الدور السكنية فى أول الأمر ، وكانت نواة للمدرسة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية ، وربما كانت من المقدمات التى أدت بعد ذلك مع مكة والمدينة فى ظهور ما عرف بعد ذلك بدور العلم ، وبيوت الحكمة ، حتى وصل هذا النظام إلى قمة ازدهاره على يد الوزير نظام الملك فى عهد السلاجقة فى مدن نيسابور[١٠٢] وبغداد .

يقـول المقـريزى(١٠٣) " ... والمدارس مما حـدث فى الإسـلام ، ولم تكن تعـرف فى زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة ، ... وأشـهرها ما بنى فى القديم المدرسة النظامية فى بغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها الفقهاء معاليم ، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسى ، وزير ملك شاه ألب أرسلان بن سلجوق فى بغداد ، وشرع فى بنائها سنة ٤٥٧هـ ، وفرغت فى ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ ... فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان ، وما وراء النهر، وفى بلاد الجزيرة وديار بكر " .

ومن المرجح أن التعليم الذى كان منتشراً فى الدور السكنية ، لم يكن يسمى مدارس ، ويبدو أن كلمة مدرسة لم تكن معروفة فى العالم الإسلامى قبل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ومن هنا يمكن القول أن المدرسة هى المكان الذى يتخذ لتلقى علم واحد على أيدى شيوخ موقوفين عليه ، وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد ، وأن يكون ملحقًا به مكان لسكن المدرسين والطلاب ، مع وجود معاليم ، أى مرتبات وجرايات دارة عليهم ، ولمن يقوم بالتدريس فيها ، وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء ، لا من قاعات التدريس والمدرسين(١٠٤) ومهما يكن من أمر فقد ارتبط بناء المدارس إلى حد كبير بتدريس المذاهب الدينية الأربعة ، وقد يدرس مذهب واحد فى المدرسة ، أو أكثر من مذهب واحد (١٠٥)، كما ارتبطت عمارة المدرسة ارتباطًا وثيقًا بوحدات معمارية ثابتة توافرت فى البناء ، وفى مقدمتها الإيوان ، وهو وحدة معمارية مستطيلة الشكل مسدودة من ثلاثة جوانب ، ومفتوحة من ناحية واحدة ، بحيث يطل على الصحن أو الفناء فى المدرسة بواسطة عقد كبير ، وقد تحتوى المدرسة على إيوان واحد أو أكثر ، حتى يصل عدد هذه الأواوين إلى أربعة ، كان يخصص كل منها لمذهب معين (١٠٦)، هذا فضلاً عن بيت الصلاة والمئذنة ومساكن الطلاب (١٠٧).

وإذا كانت العراق قد احتلت مكان الصدارة فى كونها أول الأمصار الإسلامية ، التى عرفت المدرسة بمفهومها الحديث ، فإن اليمن لم تقل عن غيرها ، لأنها كانت طوال التاريخ مركزًا للعلوم والثقافة ، وكانت زبيد محط رحال العلماء ، أقاموا بها وعاشوا بين جنباتها ، من وقت كان الجامع الكبير ومسجد الأشاعر ، يقومان بمهمة التعليم ، ويتخذ مكانًا ومقرًا للدراسة ،

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، الإيمان يمان والحكمة يمانية "(١٠٨)، وفى رواية أخرى عنه : " الفقه يمان والحكمة يمانية "(١٠٩).

وعن نشأة المدرسة في اليمن ، فمن المرجح أن المدارس لم تظهر فيها إلا بعد أن امتد إليها نفوذ الدولة الأيوبية سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م(١١٠)، وبالتحديد فى أواخر فترة حكمهم ، حين شرع الملك المعز إسماعيل بن طغتكين ببناء أول مدرسة يمنية بمدينة زبيد سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م، وهى المدرسة التى عرفت باسم المعزية ، أو مدرسة الميلين (١١١)، ثم استمرت المدارس منذ ذلك الحين فى الانتشار فى عصر الدولة الرسولية .

على أن الحركة النشطة التى قام بها سلاطين بنى رسول فى التوسع فى بناء المدارس ، التى اكتظت بها مدينة زبيد ، وغيرها من مدن الجنوب اليمنى ، وفاقت كثرتها كثرة المساجد ، لعل مردها إلى أمور منها : ما اشتهر عن سلاطين هذه الدولة وملوكها من حبهم للعلم والعلماء، وقد وضح ذلك منذ أن نجح السلطان عمر بن على بن رسول ، أول سلاطين هذه الدولة فى إقامة دولته سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م (١١٢)، هذا فضلاً عن السلطة الرسولية فكانت واعية بأهمية الثقل الدينى والتعليمى ، بل والسياسى الذى كان بإمكان المدارس ، أن تلعبه من خلال احتضان بعض الفقهاء المعارضين للتوجه السياسى الزيدى ، وتثبيت قوة المذاهب السنية، والمذهب الشافعى بوجه خاص فى مواجهة مذاهب الشيعة ، فالتغيرات السياسية والدينية التى عاشتها اليمن من خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادى عشر الميلادى ، كانت تعكس ، وإلى حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها اليمن فى عصر الدولة الرسولية من وراء تشييدها لهذه المدارس ، فالظاهر أنها كانت تهدف كذلك إلى تكوين نخبة جديدة من الفقهاء والقضاة ، يأخذون على عاتقهم مسئولية الدفاع عن مشروعية هذه السلطة ، وتحويل الأنظار إلى المدارس الجديدة ، ومن هنا يمكن القول أن المدارس الرسولية فى زبيد ، قد شكلت إحدى الأدوات الهامة ، التى عولت عليها السلطة الرسولية فى بناء توازناتها الداخلية بتخريجها لكوادر مرتبطة مباشرة بالتوجه الرسولى .

ونذكر من هذه المدارس على سبيل المثال : المدرسة الأشرفية (دار الدملوة) ، والمدرسة التاجية للقراء وأهل الحديث ، ومدرسة الجبرتى ، والمدرسة الشمسية التى شيدتها الدار

الشمسى ابنة السلطان عمر بن على بن رسول ، ورتبت فيها إمامًا ومؤذنًا وقيمًا ، ومعلمًا ، أيتامًا يتعلمون القرآن ، ومدرسًا يدرس حديث رسول الله ﷺ ، ووقفت عليها فى وادى زبيد وقفًا جيداً يقوم بكفاية المرتبين فيها ، ومن بين هذه المدارس فى زبيد نذكر أيضًا المدرسة الظافرية ، والمدرسة الفرحانية ، والمدرسة المنصورية السفلى والمدرسة المنصورية العليا (١١٣)، وهذه نماذج يسيرة مما حفلت به مدينة زبيد من المدارس العديدة .

لم تقتصر المراكز العلمية فى زبيد على المساجد والمدارس ، بل وجدت إلى جانبها منشآت التصوف التى اشتملت على الخانقات والزوايا والأربطة ، وتلازم ظهورها مع ظهور المدارس ، فقد بدأ إنشاء الخانقات فى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ووقفت الأوقاف الكثيرة عليها ، وبدأ الاتجاه السياسى فى اعتمادها أداة من أدوات نشر المذهب السنى ، مما ساعد على انتشارها (١١٤)، واشتدت نزعة التصوف بصفة عامة فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى (١١٥)، وتطورت الخانقات تطورًا كبيرًا فى عصر الدولة الرسولية ، حيث حدث التقارب بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد عدد المتصوفة ، وزاد عدد المتصوفة فى فترة حكم الملك المظفر يوسف بن عمر (٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) الذى ولى أحد رجال الصوفية القضاء (١١٦)، ثم أصبح لهم مكانة مرموقة فى عصر الملك المجاهد على بن المؤيد (ت٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) ، الذى أنشأ خانقاه مستقلة للصوفية بزبيد (١١٧)، كما أنشأ المدرسة المجاهدية فى تعز ، وجعلها مدرسة وجامعًا ، وخانقاه ، ورتب فيها إمامًا وخطيبًا ومؤذنًا ، وقيمًا ومدرسًا ، وطلبة يقرؤن الفقه ، ومنحدثًا وطلبة يقرءون الحديث ، ومعلمًا وأيتامًا يتعلمون القرآن ، وشيخًا ونقيبًا ، وفقراء وطعامًا للواردين (١١٨)، كما أنشأت والدة السلطان المجاهد خانقاه فى زبيد قبالة المدرسة الصلاحية ، والتى تعرف بمدرسة أم السلطان ورتبت فيها شيخًا ونقيبًا ، وفقراء ، ووقفت عليهم وقفًا جيداً (١١٩) كما انتشرت الأربطة فى مدينة زبيد ، وكان الغرض الأساسى من بنائها لتكون سكنًا لطلبة العلم والمنقطعين والغرباء ، لكى يقيموا فيها ، ويبدو أن أربطة زبيد كانت تقع خارج المدينة ، فيذكر الجندى أن رباط النور يقع خارج المدينة من ناحية الجنوب عند تربة الشيخ مسعود (١٢٠)، هذا فضلاً عن الزوايا التى وجدت فى بعض المساجد ، ورتب لها عدة أوقاف مما مكنها من البقاء حتى أيام الجندى(١٢١)، كما انتشرت فى زبيد العديد من خزائن الكتب ، الملحقة بالمساجد والمدارس ، هذا فضلاً عن مكتبات الخاصة من العلماء ، الذين كانوا مولعين بجمع الكتب واستنساخها (١٢٢)، وقد ذكر المؤرخون الكثير

عن اهتمام سلاطين بنى رسول ، وعنايتهم الشديدة باقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات العظيمة(١٢٣).

العلوم العقلية :

نقصد بالعلوم العقلية جميع العلوم التى كانت تشتمل عليها الفلسفة فى القرون الوسطى من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم ، وطبيعيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التى كان يحذقها فلاسفة هذه العصور ، وأول العلماء الذين تضلعوا فى هذه العلوم من أهل اليمن، هو أبا يوسف بن إسحاق الكندى ، فقد صنف فى علوم الفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضيات(١٢٤)، ويذكر ابن النديم أنه زاد فى هذه العلوم فصنف فى الطب والمنطق ، وله ما يقرب من مئتين وأربعين كتاباً(١٢٥)، وأما الثانى فهو أبا محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) ، الذى عكف على دراسة الرياضيات والفلك والنجوم والطب والفلسفة (١٢٦)، والحق أن ما كتبه الهمدانى فى مؤلفاته الموسوعية العديدة ، وفكره ونظرته الشمولية ، جعله يكتسب صفة الفيلسوف ، إلى حد أنه وضع جنباً إلى جنب مع الكندى فيلسوف العرب المشهور (١٢٧).

على أن هذه العلوم لم يقدر لها الانتشار إلا فى عصر الدولة الرسولية ، حيث تألقت علوم الطب والبيطرة والزراعة والهندسة والفلك والملاحة ، بفضل تشجيع سلاطين هذه الدولة العلماء، واهتمامهم بهذه العلوم ، فقد كان لبعضهم علو كعب فيها ، ومن بين من عنى بالطب الملك المظفر شمس الدين يوسف (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) ، الذى ترك ثروة هائلة من الكتب الطبية ومن أشهرها : كتاب البيان فى كشف علم الطب للعيان ، ويقع هذا الكتاب فى مجلدين (١٢٨)، وكتاب المعتمد فى الأدوية المفردة (١٢٩)، وكتاب اللمعة الكافية فى الأدوية الشافية ، وكتاب المغنى فى البيطرة (١٣٠)، ونذكر كذلك ابنه الملك الأشرف عمر (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) فقد كان عالماً بارزاً ، تضلع فى مختلف العلوم ، ومؤلفاته تربو على اثنى عشر كتاباً فى الزراعة والحيوان والطب ، نذكر منها كتابه شفاء العليل فى الطب (١٣١)، أما الملك الأفضل (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) ، فله كثير من المؤلفات نذكر منها على سبيل المثال كتاب اللمعة الكافية فى الأدوية الشافية ، وقاموسه الذى صنفه بخمس لغات العربية والفارسية والإغريقية البيزنطية القديمة والأرمينية والمغولية ، تناول فيه فنون الطبخ والملابس والصحة ، والتشريح (١٣٢)، كما اهتم

علماء الأشاعر بالطب فنبغ منهم عدد غير قليل كان الأزرق القدوة فى مؤلفه تسهيل المنافع ، والإمام إبراهيم بن إسماعيل الحضرمى الذى ألف كتاب فطن الأذهان فى طب الأبدان (١٣٣)، وعمر بن محمد الجبلى الذى تصدر لتدريس الطب بمدرسة زبيد سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م ، وكان قد بلغ فى صناعة الطب مبلغًا لم يصل إليه غيره من الأطباء (١٣٤).

وأما فى مجال الزراعة ، فالمعروف أن الزراعة تمثل عصب الاقتصاد اليمنى ، وأولى الرسوليون الزراعة اهتمامًا كبيرًا ، وألفوا فيها مؤلفات عديدة ، فقد صنف الملك المظفر درج السياسة فى علم الفراسة وما يدل على الخيل من ملاحة وقباحة (١٣٥)، ولابنه الملك الأشرف كتاب التفاحة فى علم الفلاحة(١٣٦) كما صنف الملك المؤيد كتاب الجمهرة فى البيزرة (١٣٧)، وأما الملك الأفضل فله مؤلف قيم أسماه " بغية الفلاحين فى الأشجار المثمرة والرياحين " ، تناول فيه الزراعة وأنواعها وفصولها (١٣٨).

ومن علماء الهندسة القاضى الرشيد أحمد بن أبى الحسين الغسانى ، " كان أوحد عصره فى علم الهندسة " ، ويعزى إليه تخطيط مدينة زبيد ، وتيسير دخول الماء إليها من عين قريبة منها تسقى البساتين حول المدينة (١٣٩)، كما برع فى الكيمياء الملك المظفر شمس الدين يوسف ، وألف فيها كتابه الشهير " المخترع فى فنون من الصنع " الذى يبحث فى الكيمياء والصناعات (١٤٠).

وفى مجال علم الفلك ، فالمعروف أن العرب بصفة عامة ، وأهل اليمن بخاصة لهم دراية واسعة فى هذا المجال ، فأبى عصمة المنجم أحد شيوخ الهمدانى ، كان متفننًا فى العلم(١٤١)، أما الهمدانى فيعتبر علم الفلك دينه وميدانه ، فقد تأثر بأفكار اليونان والهند فى كتابه "سرائر الحكمة " ، وقال عنه القفطى(١٤٢) : " الأديب النحوى ، الطبيب المنجم ... نادرة زمانه وفاضل أوانه " ، وبرع فى هذا العلم الملك المظفر الرسولى ، وصنف فيه كتاب تيسير المطالب فى تسيير الكواكب(١٤٣) ، وكتاب الزيج المظفرى المشهور،(١٤٤) ، وللملك الأشرف عمر مصنفه الشهير "التبصرة فى علم النجوم " الذى طار ذكره فى الأفاق ، ويدل على علو كعبه وتبحره فى هذا العلم(١٤٥) وله أيضًا كتاب الأسطرلاب (١٤٦)، كان من الطبيعى أن يتألق علم الملاحة فى ظل هذا المناخ العلمى ، ومما يجدر ذكره أن هذا العلم برز فى جنوب شبه الجزيرة العربية فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وبدأ يزدهر مع دراسة الرياح والشواطىء

والجزر فى البحر الأحمر ، والمحيط الهندى فالتجارة فى البحر الأحمر وخليج عدن كانت مستمرة طول العام(١٤٧)، وعنى بدراسة هذا العلم عدد غير قليل من أبناء اليمن ، نكتفى بذكر واحد من أشهر ملاحى هذه الفترة ، وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى ، ولا نعرف بالتحديد تاريخ ميلاده أو وفاته ، إلا أنه أمكن تحديد الفترة التى عاش فيها ، وهى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولابن ماجد أراجيز وقصائد تبلغ العشرين ، كانت مخصصة فى علم البحار والفلك والملاحة (١٤٨)، بيد أن واحد من مصنفاته الكبرى يحمل عنوان " كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد " ، يعرض فيه لكتب الملاحة التى قبله ، ويذكر ثلاثة من البحارين هم : سهل بن إبان ومحمد بن شاذان ، وليث بن كهلان ، ونظراً لأهمية هذا الكتاب ، فقد عدّ ابن ماجد واحداً من أعظم ملاحى عصره ، كما أعتبر هذا المؤلف أول مؤلف للمرشدات البحرية فى العصور الحديثة (١٤٩)، ويبدو أن الجغرافيا كانت من العلوم المزدهرة فى مدارس زبيد .

العلوم النقلية :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية ، إنما نشأت بسبب القرآن الكريم ، وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ، وتفهم معانيه ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم موضع اهتمام المسلمين فى جميع الأمصار الإسلامية ، ومنها اليمن ، وكان أكثر تفقه أهل اليمن فى العصر الأول إلى وقت ظهور تصانيف الشافعية(١٥٠) بفقهاء مكة والمدينة (١٥١)، وظل أهل اليمن حتى المائة الثالثة من الهجرة " إما حنفى وهو الغالب ، وإما مالكى"(١٥٢).

على أن شخوص الإمام الشافعى إلى اليمن ، كان سبباً مباشراً فى انتشار مذهبه هناك ، ولم يقدر لمذهب أبى حنيفة أن ينتشر ويستمر فى اليمن بعد المائة الثالثة من سنى الهجرة ، فقد حل مكانه المذهب الشافعى ، وظل سائداً هناك ، وخاصة فيما يعرف باليمن الأسفل إلى وقتنا هذا (١٥٣)، وأوجز المقدسى(١٥٤) مذاهب أهل اليمن فى وقته بقوله : " ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء ، وقرح سنة ، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وهجر وصعدة شيعة " ، وفى موضع آخر قال : " ... والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبى حنيفة ، والجوامع بأيديهم ... ويكبر بزبيد فى العيدين على قول ابن مسعود " (١٥٥).

ومن أوائل رجال المذهب الشافعي الذين ساعدوا على نشره في اليمن الإمام القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي السهفني (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) [١٥٦]، أخذ فقهه وعلمه عن علماء المائة الرابعة ، فأخذ عن محمد بن عبد الله بن على الزرقاني ، ثم انتقل إلى زبيد ، وكان مذهب الشافعي بها معروفًا ، فتلقى عن شيوخها [١٥٧]، وفي الوقت نفسه عرف مذهب الشافعي في تهامة بفضل جهود فقهاء بني أبي عقامة ، الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تهامة [١٥٨]، يقول الجندي[١٥٩] : " ... ولم يزل بنو أبي عقامة قضاة زبيد ، وربما كان في التهائم منذ دخل ابن زياد ، وجدهم محمد بن هارون إلى صدر الدولة المظفرية".

كان علماء زبيد يرحلون في طلب العلم إلى مكة ، ويجاورون بها سنة أو سنتين ، لتلقى العلم عن القاطنين بمكة والواردين عليها ، فتضلعوا من العلوم تضلعًا جيدًا ، حتى كان بعضهم يقول : أنا ابن ثمانية عشر علمًا [١٦٠]. كما نشطت الرحلة العلمية إلى مصر ، التي وصلت إلى الذروة الفكرية والعلمية في ذلك الوقت ، بيد أن حركة العلماء هذه من زبيد وإليها ، أبقت على المدينة في المجرى الرئيسي لحركة العلوم الإسلامية ، واستفادت زبيد في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد من التيارات الفكرية التي نمت في مكة ومصر ، وإذا أردنا أن نعطى صورة واضحة عن النهضة الثقافية في زبيد نجد لزامًا علينا الرجوع إلى كتب الطبقات ، فهي المراجع التي تؤرخ للنهضة الثقافية ، وتتناول العلماء وتترجم لهم ، وتكشف عن آثارهم العلمية ، وتعرف وتفصل أمر شيوخهم وتعرض لمذاهبهم ، وسنقتصر على نماذج لهؤلاء العلماء في مختلف العلوم .

وجه اليمانية جل عنايتهم لدراسة علوم القرآن ، وظهرت مؤلفات قيمة في علوم الدين ، تدل على سعة معرفة مؤلفيها ، نذكر من هؤلاء : أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي الحسين ويعرف بابن الحطاب ، تفقه بابن قاسم ، وتضلع في علوم شتى ، بحيث كان يفضل على فقهاء عصره ، أجمع على ذلك المؤالف والمخالف وكان يقرىء بالقراءات السبع ، وكان نحويًا لغويًا فروعيًا أصوليًا فرضيًا حسابيًا ، تصدر للتدريس في مسجد الأشاعر حتى وفاته بزبيد سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م [١٦١]، ونذكر أيضًا أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن على الجداي الذي برع في علم القراءات والنحو ، كان رأسًا في القراءات السبع ، توفي ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م[١٦٢] أما على بن أبي بكر بن محمد بن شداد الحميري ، فقد كان فقيهًا عالمًا نحويًا لغويًا ، مقرئًا محدثًا ، انتهت إليه رئاسة الإقراء في اليمن ، وكانت إليه الرحلة في علمي القراءات والحديث،

كان يدرس بالمدرسة التاجية للقراء ، وتفقه به جماعة من المقرئين ، وتوفى فى سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م (١٦٣) ، كما برز فى علم القراءات الفقيه العلامة جمال الدين محمد بن عمر الفارقى المشهور بالنهارى ، قرأ بالقراءات السبع ، وتصدر للإقراء فى المدرسة الفرحانية بزبيد ، حيث رتب إمامًا ومدرسًا بها ، وتوفى فى زبيد سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م(١٦٤) ، ونذكر أيضًا على بن صالح الحضرمى ، كان فقيهًا ، عالمًا مقرئًا ، غلب عليه علم القراءات ، حتى كان يعرف بالمقرىء ، وكان يدرس بالمدرسة التاجية للقراء (١٦٥).

نشطت رواية الحديث فى زبيد كما كان عليه الأمر فى الحواضر الإسلامية ، وبرز فيها كوكبة من علماء الحديث نذكر منهم أبا الحسن على بن عبد الله الزيلعى المعروف بالفرضى ، كان فقيهًا ، عالمًا ، مشهورًا وكان مشاركًا فى سائر العلوم الدينية ، وأخصها الفقه والحديث والتفسير ، أخذ الحديث عن الإمام أبى الخير بن منصور ، وأخذ الفقه عن الإمام أحمد بن موسى بن عجيل ، وأحمد بن سليمان الحكمى ، تصدر للتدريس فى المدرسة التاجية للحديث ، وتوفى سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م(١٦٦) ، وأما أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الخير بن منصور الشاخى ، فقد كان فقيهًا وإمامًا ولغويًا ، ومحدثًا ، مشاركًا فى عدة من الفنون ، وكان أبيه شيخ الحديث فى عصره ، وإلى جد أبيه أحمد تنتهى أسانيد الحديث فى قطر اليمن ، تصدر للتدريس فى المدرسة المنصورية العليا بزبيد ، وفى المدرسة المؤيدية فى تعز ، توفى سنة ٧٩١هـ / ١٣٩٤م (١٦٧)، وتكشف لنا كتب الطبقات عن تفوق علم الحديث فى زبيد فى عصر الدولة الرسولية تفوقًا عظيمًا ، فعندما تعرض هذه المصادر لمشاهير المحدثين فى اليمن تذكر " أنه أخذ الحديث عن أهل زبيد " (١٦٨).

أدى تنوع المذاهب الإسلامية فى اليمن إلى تنوع الثقافات الدينية ، وظهور العديد من المؤلفات التى يناقش ويشرح فيها مؤلفوها مذاهبهم ، ويبرزون سماتها ومميزاتها ، ويردون على المذاهب الأخرى ، ويدحضون حجج معارضيهم (١٦٩) ، وشهدت مساجد ومدارس زبيد فى هذه الفترة ظهور كوكبة من العلماء تضلعوا فى علوم الفقه ، نذكر منهم أبا الحسن على بن قاسم بن العليف بن عباس بن سليمان الشراحيلى الحكمى ، قدم زبيد ، وأخذ عن الفقيه عباس بن محمد ، يقول الجندى : " وكان إمامًا كبيرًا من أئمة الدين ، به تفقه غالب الطبقة المتأخرة من نواحى اليمن " (١٧٠)، وقصده الطلبة من نواح مختلفة ، وتفقهوا به وعادوا بلدانهم ، وله مصنفات عديدة منها كتاب الدر فى الفرائض ، وله مختصر سماه الدر يبين به

مشكلات المهذب ، وكان يحفظ التنبيه عن ظهر غيب ، وفضله أكثر من أن يحصر ، تصدر للتدريس في مساجد زبيد ومدارسها ، وتوفي سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م(١٧١) ، ونذكر أيضًا الفقيه أبا بكر بن أحمد بن الفقيه مقبل الدثيني ، كان فقيهًا فاضلاً وخطيبًا كاملاً تولى خطابة زبيد سنين عددًا ، وتوفي سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م (١٧٢) ، ومن بين جلة الفقهاء نذكر أبا العباس أحمد بن سليمان بن أبي بكر الحكمي شهاب الدين ، كان فقيهًا بارعًا فاضلاً عارفًا مشهورًا ، وإليه انتهت رئاسة الفقه والفتوى في زبيد وأعمالها ، وكان يتصدر لتدريس الفقه في المدرسة المنصورية العليا بزبيد ، وتوفي سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م(١٧٣) ، وإذا تحدثنا عن فقهاء زبيد يجب ألا يفوتنا ذكر جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الريمي ، فقد كان أحد الفقهاء المبرزين ، والعلماء المجودين ، انتهت إليه رئاسة الفتوى في اليمن ، وكانت إليه الرحلة من سائر الأقطار ، واختصه السلطان الملك المجاهد بقربه (١٧٤) ، ولعل من أهم مصنفاته كتاب التفقيه في شرح التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي ويقع في ٢٤ مجلدًا ، الذي حمل للملك الأشرف في أطباق من الفضة ملفوفة بأثواب الحرير والديباج ، وكانت له مكتبة من ألفي مجلد في سائر الفنون ، تصدر للتدريس في المدرسة المظفرية والمدرسة المؤيدية ، كما أنشأ مدرسة في زبيد تعرف باسمه ، توفي في زبيد سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م (١٧٥) ، ونذكر أيضًا الفقيه أبا الحسن علي بن عبد الله الشاوري ، كان فقيهًا نبيهًا ، متقنًا ، عارفًا بأصول الفقه وفروعه ، والحديث والقراءات السبع ، والنحو واللغة والعروض ، والفرائض ، تعلم في بداية أمره في عدن ، ثم ارتحل إلى زبيد ، فقرأ القراءات السبع على المقرئ محمد بن عثمان بن شنية ، وعلى المقرئ علي بن أبي بكر بن شداد ، وسمع كثيرًا من أمهات كتب الحديث ، وتفقه على الإمام محمد بن عبد الله الريمي ، وانتهت إليه التدريس والفتوى في زبيد ، وتخرج عليه كثيرون ، ومنهم السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل ، توفي في زبيد سنة ٧٩٨هـ / ١٣٥٩م (١٧٦).

ازدهر التصوف في زبيد في عصر الدولة الرسولية ، وأصبح الرباط مكانًا يلجأ إليه الزهاد والصالحون للمرابطة والعبادة ، وحفظت لنا المصادر التاريخية وكتب الطبقات الكثير من رجالات التصوف في زبيد ، نذكر منهم أبا الربيع سليمان الملقب بالجنيد (ت ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م) ، كان فقيهًا صالحًا ، متعبدًا ورعًا زاهدًا ، ولي قضاء زبيد ، وكان مقصود الزيارة ، مشهورًا باستجابة الدعوة ، وكانت له كرامات يجل قدرها عن الحصر (١٧٧) ، وثمة صوفي

آخر وهو محمد بن على بن محمد بن على (ت ٧٨٨هـ / ١٣٨٤م) ، كان فقيهًا صوفيًا ، عارفًا شيخًا فى الطريقتين ، له مصنفات فى الفقه ومصنفات فى الحقيقة (١٧٨)، وقدم لنا ابن بطوطة وصفًا شائقًا لمتصوفة زبيد ، عندما زار المدينة فى عصر الملك المجاهد الرسولى (٧٢١ - ٧٦٤هـ / ١٣٣١ - ١٣٦٣م) ، حيث التقى بالشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى ، والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الأبيانى ، والفقيه المحدث أبا على الزبيدى ، واجتمع عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى (١٧٩).

على أن التصوف فى زبيد كان له طابع خاص ، فحين حاول متصوفة زبيد أن يفلسفوا الزهد أقاموا التصوف على الحياة الواقعية ، وعلى السلامة الفقهية المذهبية ، وعلى اللياذ بعالم الكرامات ، ومن هنا اجتمع فى التصوف زهد القاضى المتعفف ، وكرامات العابد ، وقد خضع هذا التصوف منذ نشأته لمؤثرين لعل أولهما الحج إلى بيت الله الحرام ، ومشاهدة العبّاد المتقطعين حول البيت ، أما المؤثر الثانى وهو الأقوى ، فهو الحياة الاجتماعية نفسها ، ويذكر الجندى أن سُئل أحد أقطاب التصوف فى زبيد عن الصوفى فأجاب بقوله (١٨٠): "من صفا سره من الكدر ، وامتلأ قلبه من العبر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر " .

ومن نافلة القول أن موقع زبيد الاستراتيجى ، والنشاط الاقتصادى المزدهر فى عصر الدولة الرسولية ، كان له انعكاساته البارزة على التصوف فى زبيد .

وأما فى مجال علوم اللغة العربية ، فقد حفظت لنا كتب الطبقات ، وغيرها من كتب اللغة عددًا غير قليل من علماء وأدباء وشعراء زبيد ، ولاغرو فى ذلك ، يقول نشوان الحميرى (١٨١): "العرب مخصوصة بأمور منها البيان الذى ليس مثله بيان ، واللغة التى ليس مثلها فى السعة لغة ، ... ، وللعرب الشعر الذى لم يشاركهم فيه أحد من العجم " .

ويقول ابن خلدون (١٨٢): " إن الشعر من فنون العرب ... ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلاً يرجعون إليه فى الكثير من علومهم ، ... ، وكانت ملكته مستحكمة فيهم " ، ومن أشهر علماء اللغة تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى ، كان عالمًا ، عارفًا باللغة والنحو ، والفقه والمعانى ، والبيان ، شاعرًا مجيدًا ، كانت له رحلة إلى مصر والشام ، حيث جالس علماءها ، وأخذ عنهم وأخذوا عنه ، وأرخه مؤرخهم ، وحسن ذلك عندهم ، ورتبه السلطان الملك المؤيد لإقراء النحو بمدرسته ، ثم رتبه فى مدرسته

فى زبيد ، وهى التى تعرف بأم عفيف ، ثم صادره الملك المجاهد بمال غير معروف ، فترك اليمن وقصد مصر سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٦م وولى شهادة المارستان ، ودرس فى المشهد النفيسى، وبقى زمانًا يتردد بين دمشق وحلب وطرابلس والقدس إلى أن توفى فى سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٣م(١٨٣)، وترك مصنفات كثيرة فى اللغة منها : إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغوين ، مطرب السمع فى حديث أم زرع ، ومختار الصحاح (١٨٤)، وغيرها ، وثمة عالم لغوى آخر هو أحمد بن عثمان بن أبى بكر بن بصيص الزبيدى ، كان وحيد عصره فى النحو واللغة والعروض ، وإليه انتهت الرئاسة فى طلب النحو ، رحل إليه الناس من سائر أنحاء اليمن ، ومن مصنفاته شرح مقدمة طاهر بن بابشاذ فى النحو ، ومنظومة فى علم الفرائض ، توفى فى زبيد سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م (١٨٥)، وفى مجال الأدب نذكر أبا عبد الله محمد بن أبى قاسم ، كان رأسًا فى الأدب ، وله شرح مقامات الحريرى (١٨٦)، وأما الشعر فقد زها سوقه وبلغ فى فترة البحث مبلغًا عظيمًا من الرقى والازدهار ، بفضل تشجيع سلاطين وأمراء بنى رسول ، وإغداقهم الهبات والعطايا على الشعراء ، حتى غدت قصورهم فى تعز وزبيد تعج بالشعراء والعلماء والأدباء (١٨٧)، ومن بين شعراء زبيد نذكر يوسف بن يعقوب والد المؤرخ الجندى ، فقد كان شاعرًا مفوهًا ، وله قصائد حسان منها قصيدة طويلة فى مدح الفقيه الصوفى أبى العباس أحمد (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) (١٨٨)، نقتبس بعضًا من أبياتها :

هذه ديار أحبتى يا حادى ... انخ المطى فقد بلغت مرادى

وعلى الكثيب الأشرف أنزل فقد ... حللت بمأمنع الأطواد

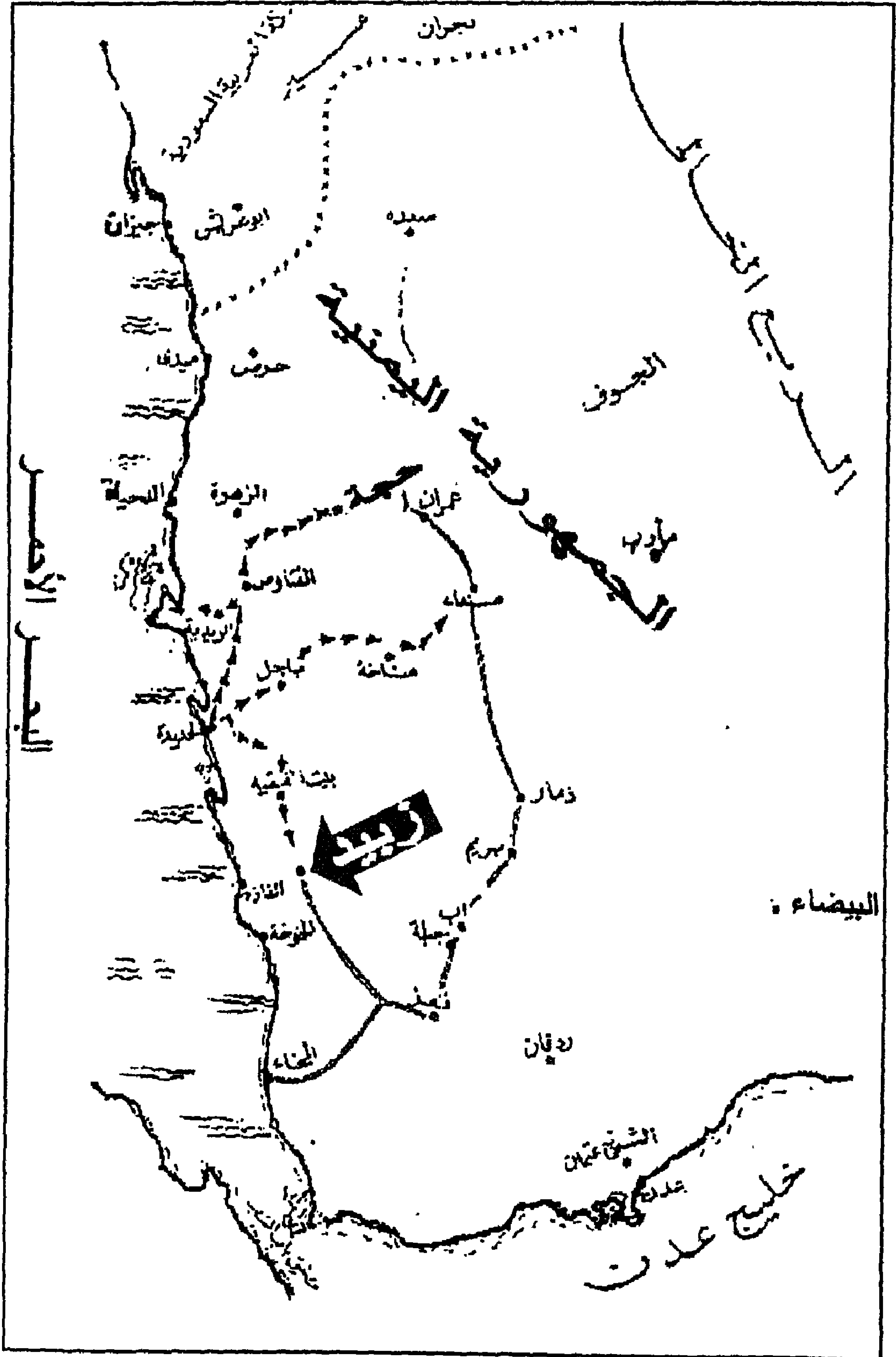
وأشاهد البدر الذى من أمه ... ينجو من الأحزان والأنكاد

ومن شعراء زبيد أبا حفص عمر بن على بن محمد بن أبى بكر العلوى (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) ، كان شاعرًا فصيحًا مفوهًا ، وكانت له خزانة كتب ليس لأحد مثلها يقال أنه كان بها خمسمائة ديوان من الشعر (١٨٩).

ومن الطبيعى أن يكون للمدرسة التاريخية مكانًا فى النهضة الفكرية فى زبيد ، وكان يمثلها عبد الباقى بن عبد المجيد بن عبد الله اليمانى (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٣م) وله كتاب تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن (١٩٠)، ولا يفوتنا ذكر أبى عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندى ، الفقيه المؤرخ ، الذى كان حيًا فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى كان فقيهًا ، فاضلاً ، مفتيًا ، عارفًا مشتغلاً بفنون العلم ، عمل بالتدريس

بمدارس عدن وزبيد ، وتعز وتقلد وظيفة الحسبة فى زبيد ، يقول الجندى [١٩١]: " ... ولما كانت سنة خمس عشرة وسبعمائة محنت بحسبة زبيد ، وكثرة عول ودين وعدم طول " ، ومن مصنفات الجندى فى التاريخ كتاب السلوك فى طبقات العلماء والملوك [١٩٢]، وإذا ذكرنا مشاهير المؤرخين فى زبيد ، لا يفوتنا ذكر المؤرخ والنسابة موفق الدين أبا الحسن على بن الحسن الخزرجى ، كان واسع الاطلاع نابه الفكر ، متضلعًا فى فنون المعارف والعلوم ، متفننًا فى علم الأنساب[١٩٣] ، التقى بالحافظ ابن حجر العسقلانى فى زبيد عندما زارها الأخير فى الفترة من (٧٩٩ - ٨٠١هـ / ١٣٩٧ - ١٣٩٨م) ، وأثنى عليه الحافظ ثناءً حسنًا ، وقال : "... وجمع لبلده تاريخًا كبيرًا ، وآخر على الحروف " [١٩٣]، صنف الخزرجى فى التاريخ مصنفات تشهد على براعته فى تصنيف التاريخ والتراجم والأنساب ، نذكر منها : الكفاية والإعلام فيمن ولى اليمن وسكنها من ملوك الإسلام [١٩٤]، وطراز أعلام الزمن فى طبقات أعيان اليمن ، والعقد الفاخر الحسن فى طبقات أعيان أهل اليمن [١٩٥]، بيد أن من أهم مصنفات الخزرجى يأتى كتاب " العسجد المسبوك والجوهر المحكوك فى أخبار الخلفاء والملوك " ، وكتاب " العقود اللؤلؤية فى أخبار الدولة الرسولية " ، وهذان الكتابان مثار شك فى نسبتهما إليه ، ويرجح بعض الباحثين أن مصنف هذين الكتابين هو الملك الأشرف الثانى (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م)[١٩٦]، بينما يرى أحد المؤرخين المحدثين أن الخزرجى قد يكون هو المصنف لهذين الكتابين ، وذلك بأمر من الملك الرسولى المذكور ، الذى كان مشهورًا بدوره بتآليفه التاريخية[١٩٧] ، توفى الخزرجى فى زبيد سنة ٨١٢هـ / ١٤١٠م [١٩٨]، ومهما يكن من أمر فإن ذلك لا يقلل من قيمته كمؤرخ له آثاره البارزة فى تصنيف التاريخ والأنساب فى اليمن هذا فضلاً عن كونه واحدًا من المؤرخين الأساسيين للدولة الرسولية التى عاصر البعض من سلاطينها .

وهكذا كانت زبيد فى عصر الدولة الرسولية ، أكثر بلاد اليمن فقهاء ومتفقهين وعلماء محققين [١٩٩] ، مدينة العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء ، أم قرى اليمن ومحط رحال العلماء فى كل فن [٢٠٠]، ولابن خلدون[٢٠١] قول فى ذلك : " أن العلوم ، إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة " ، ولا غرو أن أصبحت زبيد فى عصر هذه الدولة مركزًا للإشعاع الفكرى والثقافى ، وكانت بحق واحدة من المدن الإسلامية التى حافظت على معالم الحضارة الإسلامية، وساهمت بجهود علمائها فى بناء الحضارة الإنسانية .



رسم تخطيطي لمدينة زبيد

الهوامش

١ – ابن المجاور ، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الدمشقي (كان حيًا سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المعروف بتاريخ المستبصر ، حققه أوسكر لوفجرين ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٨٢ – ٨٣ ، الجندي ، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (كان حيًا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) : السلوك في طبقات العلماء والملوك تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، جـ١ ، ص ٢٢١ ، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨جـ١ ، ص ١٥١ ، وراجع كذلك :

Enc., of Islam, art (Zabid) .

٢ – ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني (ت ٩٢٤هـ / ١٥٣٣م) : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، القاهرة ١٣٧٤هـ ، جـ١ ، ص ٢٢٢ وراجع :

Croken, Barbara Eileen: Zabid under the Rasulids of Yemen ph.D.Diss., Harvard University, 1990, pp. 52 - 54 .

٣ – طاهر مظفر العميد (الدكتور) : بناء مدينة زبيد في اليمن ، مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد ، العدد ١٢ ، ١٩٧٠م ، ص ٣١٤ .

٤ – الخزرجي ، أبو الحسن علي بن أبي بكر الحسن الخزرجي الأنصاري (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) : (العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك) مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٤٨ (تاريخ) ، ملحق بمقال الدكتور طاهر مظفر العميد (من ص ٢٤٦ – ٣٥٤) مجلة كلية الآداب ببغداد العدد ١٢ ، ١٩٧٠م ، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

٥ – ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص ٣٢٢ .

٦ – طاهر مظفر العميد : بناء مدينة زبيد ، ص ٣٤٣ .

- Lealan Anderson Swanson: Historical considerations in yemen Vernacular Architecture Sulahid Dynasty (439 - 1047) to the modern period, ph.D.diss., Ohio state University, pp. 18-20 .

٧ – محمد عبد الستار عثمان (الدكتور) : المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ أغسطس ١٩٨٨م ، ص ١٤١ .

- Geoffery King: Examples of the secular Architcture of Najd Arbian Studies, Cambridge, 1962, pp. 126 - 128 .

٨ – المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩١م ، ص ٨٤ .

٩ – البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن ، وأندري فيري ، تونس ١٩٩٢م ، جـ١ ، ص ٣٦٥ .

١٠ – الإدريسي ، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤م ، جـ١ ، ص ٥٢ .

١١ – ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

١٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق سويف شلحد ، دار العودة ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٤٧ .

١٣ – ورث بنو رسول ملك اليمن عن أسلافهم الأيوبيين ، إذ كانوا نوابهم عليها في عهد الملك المسعود يوسف بن الكامل ، وأول من ملك منهم الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول ، لما توفي الملك المسعود بمكة استولى نور الدين عمر على زبيد والأعمال التهامية في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ، وأسس السلطنة الرسولية ، وتلقب بالملك المنصور ، وتزوج زوجة الملك المسعود وهي بنت جوزا ، وقد سميت بالدولة الرسولية نسبة إلى محمد ابن هارون الملقب برسول الخليفة العباسي ، وذلك لحملة البريد بين بغداد ودمشق لثقته فيه ، وقد اختلف في نسبهم بين الأصل اليمني التركماني والغساني . (راجع : ابن رسول ، عمر بن يوسف (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) : طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق ك. و . سترستين ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٢٩ – ٣١ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسل ، القاهرة ١٩١١م ، جـ١ ، ص ٤٠ – ٤٩ ، وابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٨٩ وراجع : محمد عبد العال أحمد (الدكتور) : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٢٩ – ٥٦ وراجع أيضاً :

- G.R.Smith, " The Ayyubids and early Rasulids in the Yemen (567 - 694 H/1173-1295 A.D.) London 1978, V.2, pp. 61 - 62 .

١٤ – ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م) : بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، نشره مصطفى حجازي ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ١٣٢ – ١٣٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٣٣٤ ، وراجع :

Croken, Zabid under the Rasulids of yemen, p. 143 .

١٥ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٢٣ ، ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ – ٩٥ ، وراجع القاضي إسماعيل بن الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٧–٩ ، وراجع كذلك :

- Lealan Anderson : Historical Considerations in Yemen, pp. 62 - 63 .

١٦ – ظفار : مدينة علي ساحل حضرموت فيما بينها وبين عمان ، اختطها أحمد بن محمد الحبوضي سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٥٦ ؛ ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٧٥؛ إبراهيم أحمد المقحفي : معجم المدن والقبائل اليمنية ، ص ٢٦٩ .

١٧ – زيلع : مدينة على ساحل البحر الحبشى المتصل بالقلزم ، وهى صغيرة القطر ، كثيرة الناس والمسافر إليها كثير ، وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التى يتصرف بها فى بلاد الحبشة ، ويخرج منها الرقيق والفضة . (الحميرى ، محمد بن عبد المنعم الحميرى ، ت فى أواخر القرن التاسع الهجرى : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٩٠م ، ص ٨٨٢ ؛ ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ .

١٨ – ميشيل توشرر : المخلاف السليماني فى اليمن ، ترجمة الدكتور على محمد زيد ، مجلة دراسات يمنية، العدد الثاني والثلاثون (أبريل – مايو – يونيو ١٩٨٨م) مركز الدراسات والبحوث اليمنى ، صنعاء ، ص ٩٢ ، وراجع أيضاً :

- Croken : Zabid Under the Rasulids of Yemen, 165 - 166 .

* صعدة : مدينة تاريخية في الشمال من صنعاء ، تقع في بلاد خولان ، وكانت تسمى قديماً باسم جميع ، وهى أم قرى بلد قضاعة . وما إليها من همدان ، وكانت عاصمة للدولة الزيدية . (الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (كان حياً فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٤م ، ص ١١٥ – ١١٦ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٤٠٦ ؛ الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، بيروت ١٩٨٤م ، طبعة أولى ، جـ٢ ، ص ٧ ؛ إبراهيم أحمد المقحفي : معجم المدن والقبائل اليمنية ، دار الحكمة ، صنعاء ١٩٨٥م ، ص ٢٤٨ .

١٩ – ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية (د.ت) ، ص ٢٥٩ .

20 - Lealan Anderson : Historical Considerations, p. 63 ; K.N.Chaudhuri: Trade and civilization the Indian Ocean, Cambridge University Press, 1985, p. 107 .

٢١ – ميشيل توشرر : المخلاف السليماني فى اليمن ، ص ٩٢ .

٢٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٧ ؛ ميشيل توشرر : المخلاف السليماني ، ص ٩٢ .

- John Lash Meloy : Mamluk authority, Meccan autonomy and Red sea Trade (797 - 859 / 1395-1455), ph.D.diss., Chicago University, 1998, pp. 63 - 74 .

٢٣ – شوقي عبد القوى عثمان (الدكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ذو الحجة ، ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠م ، ص ٢٤٩ .

٢٤ – المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ ؛ وراجع الإدريسي : نزهة المشتاق ، جـ١ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

٢٥ – الجار : مدينة بالحجاز على ساحل البحر الأحمر مما يلى المدينة ، وهى آهلة عامرة ، والمراكب إليها قاصدة ومقلعة ، وهى مدينة مسورة حسنة البناء ، ولها أسواق ومسجد جامع . (الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٥٣) .

٢٦ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، جـ٢ ، ص ٥٦٥ .

٢٧ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٦٦ – ٤٦٨ ، القاضي إسماعيل بن على الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٧ .

٢٨ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ ، وراجع : عبد الرحمن عبد الله الحضرمي : جامعة الأشاعرة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٥٧ .

٢٩ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ ، القاضي إسماعيل بن على الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٣٩ .

٣٠ – الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد المكى (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩٥٩ – ١٩٦٧، جـ١ ، ص ٣٠٠ – ٣٠٥ ؛ راجع : الكبسي ، محمد بن إسماعيل الكبسي الصنعاني (ت ١٠٣٨هـ / ١٨٩٠م) : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة (د.ت) ، ص ٨٠ .

٣١ – يرجع نشأة المذهب الزيدى إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى ظهر على المسرح السياسي فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م ، وكون أتباعًا يشايعونه سياسيًا ومذهبيًا ، عرفوا بالزيدية . (راجع ترجمته عند : الأصفهان ، أبو الفرج على ابن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) : مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩م ، ص ١٢٧ – ١٥١ ، الحاكم الجشمي ، أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي (ت ٤٩٤هـ / ١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الإمام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ، جـ١ ، ورقة ٥ ، نشوان الحميرى ، أبو سعيد (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحوار العين ، تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٢٣٨ ؛ وراجع : حسن خضيرى أحمد (الدكتور) : قيام الدولة الزيدية فى اليمن ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩٦م ، ص ١٢٥ – ١٣٢ ، وراجع كذلك :

- Madelung W.: Der Imam al-Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubenslhredes Zaidten, Berlin, 1965, pp. 86 - 87 .

٣٢ - مصطفى عبد الله محمد شيحة (الدكتور) : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) ، تاريخ المصريين رقم ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م ، ص ٤٣٥ .

٣٣ - الوصابي ، وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٧٨٢هـ) : الاعتبار في ذكر التواريخ والآثار ، المعروف بتاريخ وصاب ، تحقيق عبد الله الحبشي ١٩٧٩م ، ص ١١٦ - ١١٧ .

٣٤ - ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٩٩ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٧٥ .

٣٥ - ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ وراجع : Croken : Zabid Under the Rasulids, pp. 178-180 .

٣٦ - وينسب هذا الكتاب إلى الملك الأفضل العباسي بن الملك المجاهد (راجع : القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ١٠٨ ، وحاشية رقم ٣ .

٣٧ - توجد منه نسخة خطية في مكتبة الأمبروزيانا رقم (٥٢) : الجندي : السلوك ، جـ١ ، مقدمة المحقق محمد بن علي الأكوع ، ص ٣٩ .

٣٨ - توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٣٧٧ طب (القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس، ص ١٠٨) .

٣٩ - الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٩ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٠ - الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٦٨ ؛ وراجع : القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس ، ص ٢٠١ .

٤١ - الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤٠٨ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٢ - ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٣ - الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٩ ، وراجع : القاضي إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٩٧ .

٤٤ - ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٤٥ - ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ ، وراجع : عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، سنة ٢٠٠٠م ، ص ٥٦ .

٤٦ - الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٦٧ .

٤٧ - ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٩٧ .

٤٨ - القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٨٥ .

49 - Croken : Zabid under the Rasulids, p. 143 .

٥٠ - ابن الديبع : قرة العيون ، جـ٢ ، ص ٥١ ، وراجع : إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص١٨٥.

51 - Croken : Op. Cit., p. 143 .

52 - Lealan Anderson : Historical Considerations, p. 65 .

53 - Ibid., p. 65 ; Croken : Op,Cit., pp. 143 - 144 .

– توجد نسخة من المخطوط فى مكتبة بودلين فى أوكسفورد رقم (٢٣٣) .

٥٤ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٣٢ ؛ وراجع : الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٤٣٤ – ٤٤٠ ؛ ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٤٨هـ ، جـ٢ ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

٥٥ – الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٧ .

٥٦ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٧ ؛ وراجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٢٣٣ .

٥٧ – نفس المصدر ، ص ٩٨ .

٥٨ – توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية رقم ١٥٦ طب ، ونسخة أخرى فى مكتبة لندن (راجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٣٣ ، وكذلك : محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، جـ١ ، ص ٤٠ .

٥٩ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٣٣ .

٦٠ – توجد منه نسخة فى مكتبة الجامع الكبير ، وراجع عن الملك المجاهد الرسولى : الفاسى : العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١١٨ ، ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ٣ ، ص ٤٩ .

٦١ – الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٢٧ – ١٦٣ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٠ ، قرة العيون ، جـ٢ ، ص ١٠٤ ،

٦٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٢ ، وراجع :

- Croken : Zabid under the Rasulids, pp. 142 - 143 .

٦٣ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٢ ؛ وراجع : محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، ص ٤٠ .

٦٤ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٢٤٦ .

٦٥ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٢ ؛ وراجع : عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى ، تاريخ اليمن ، المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، دار اليمن الكبرى ، صنعاء ، ١٩٩٠ – ١٩٩١ ، ص ١٠٢ .

٦٦ – ميشيل توشرر : المخلاف السليمانى فى اليمن ، ص ٩٢ .

٦٧ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٣ – ١٠٤ ؛ مؤلف مجهل – تاريخ الدولة الرسولية فى اليمن ، تحقيق عبد الله الحبشى ، دمشق ١٩٨٤م ، ص ٣٧ – ٤٨ ، وراجع أيضاً :

- Croken : Zabid under the Rasuiids, pp. 165 - 166 .

٦٨ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٤ .

69 - Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٧٠ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٦٣ ، ٣٢٠ ؛ وراجع : الشوكاني ، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ٢ ، ص ٢٨٠.

٧١ – السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر جلال (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت (د.ت) ، جـ١ ، ص ٢٧٤ ؛ بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦م ، جـ٢ ، ص ٢٠ ؛ عبد الرحمن عبد الله الحضرمي : جامعة الأشاعرة ، ص ٥٩ .

٧٢ – السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ ؛ الشواني : البدر الطالع ، جـ٢ ، ص ٢٨٠ ؛ عبد الرحمن ابن عبد الله الحضرمي : جامعة الأشاعرة ، ص ٥٩ .

٧٣ – ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن ١٣٢٥هـ ، جـ١ ، ص ٢–٧ ؛ وراجع : القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٢٧٥ .

٧٤ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

75 - Laelan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٧٦ – أحمد فكري (الدكتور) : : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ١٤٣ – ١٤٤.

٧٧ – سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : العلم بين المسجد والمدرسة ، أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م ، ص ١٥ – ١٦ ؛ محمد حسين الذهبي : المسجد محور النشاط (بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ ، ص ٤٦٠) .

٧٨ – ابن الحاج (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) : المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ١ ، ص ٨٥ (نقلاً عن أستاذنا الدكتور : سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة ، ص ٢٨) .

٧٩ – سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة ، ص ٢٨ .

80 - Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, pp. 40 - 169, 171.

- Elian Al-Haisami : The Big Mosque in Zabid.htm (Al-thowra Newspaper 8/1/98) .

٨١ – عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٤٧ .

٨٢ – ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

٨٣ – عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٤٧ ، وراجع كذلك :

- Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٨٤ – المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٨٤ .

٨٥ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٧٢ ، ص ٤٧٤ ، ص ٤٨٦ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٢٦ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ ؛ مؤلف مجهول : تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٢٨ – ٢٩ .

٨٦ – عبد الرحمن الحضرمي : جامعة الأشاعرة زبيد ، ص ٢٩ – ٤٠ ، وراجع أيضاً :

- http://www.unesco.org .

- The city of Zabid, Unesco Press, December 2000 .

٨٧ – عبد الله بن قيس ويكنى بأبي موسى الأشعري بن سليم بن حضار بن يعرب بن قحطان ، وفد على رسول الله ﷺ سنة ٧هـ ، إثر سماعه بالدعوة الإسلامية ، صحبة عمه أبي عامر ، وعمره سبعة عشر عاماً ، ولما عاد إلى اليمن نشر الإسلام بين قومه الأشاعر في تهامة ، وبنى في زبيد هذا المسجد الذي ينسب إليه . (ابن سمره ، عمر بن علي بن سمره الجعدي) (المتوفى بعد سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٨ – ٢٤ ؛ الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٩٧ .

٨٨ – الأشاعر : قبيلة من اليمن من ولد الأشعر بن أدد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر . راجع : الهمداني : الاكليل ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ ، جـ١٠ ، ص ٢ ، صفة جزيرة العرب .

٨٩ – عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية ، ص ٥٥ .

٩٠ – نص الكتابة : " بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم " ، ومما أمر بعمله الحسين بن سلامة عامله الله بعفوه ، ولذلك له الأجر عند الله جزيل الثواب .. " في شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين وأربعمائة ضاعف الله له الثواب ، وجعله ذخيرة له في يوم المآب ، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . (راجع : عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ، ص ٥٥) .

٩١ – المقداد ، محمد عبد الوهاب المقداد : جامع الأشاعر ، المسمى قرة العيون وانشراح الخواطر فيما حكاه الصالحون في فضل مسجد الأشاعر ، تحقيق عبد الرحمن الحضرمي ، مجلة الإكليل ، صنعاء ، العدد ٣ ، ٤ ، ١٩٨١م ، ص ١١٨ .

٩٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩١ .

٩٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٠ .

94 - Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

٩٥ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٥٨ – ٢٦٨ ، ٢ ٥٤٨ – ٥٥٠ .

96 - Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, p. 171.

- The city of Zabid, Unesco Press.http .

٩٧ – عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي : زبيد ، مساجدها ومدارسها العلمية ، ص ٦٥ – ٧٨ .

٩٨ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٧ – ٩٩ .

– الحاجة غصون إحدى جوارى الملك المجاهد الثلاث وهن : المذكورة ، وقنديل وسمح . (ابن الديبع : الفضل المزيد) ، ص ٩٩ .

٩٩ – أيمن فؤاد سيد (الدكتور) : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى ، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ، ص ٨٩ .

١٠٠ – عفاف سيد محمد صبرة (الدكتورة) : المدارس فى العهد الأيوبى ، تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ، ص ١٤١ .

١٠١ – مصطفى شيحة : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ص ٤١٠ – ٤١١ .

١٠٢ – نيسابور : مدينة من بلاد خراسان ، وهى بلد واسع افتتحه عبد الله بن عامر بن كريز فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سنة ٣٠هـ ، وليس بخراسان مدينة أصح هواء ، ولا أرحب فناء ، ولا أمكن تجارة ، ولا أكثر سابلة ، ولا أغزر فائدة من نيسابور . (المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣١٤ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٨٨) .

١٠٣ – المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٩٩٠م ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ ؛ ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت٦٨١هـ / ١٢٨١م) : وفيات الأعيان ، دراسة الثقاة ، بيروت ١٩٧٢م ، جـ٥ ، ص ١٢٨ .

١٠٤ – أيمن فؤاد سيد : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى ، ص ٩٩ .

١٠٥ – مصطفى شيحة : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ص ٤١٢ .

١٠٦ – مصطفى شيحة : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ص ٤١٣ – ٤١٤ .

١٠٧ – عفاف سيد صبرة : المدارس فى العصر الأيوبى ، ص ١٦٥ – ١٦٦ ، وراجع أيضاً :

- Lealan Anderson : Historical Consideratoions, pp. 68-69 .

١٠٨ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٥ – ٦ ؛ الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٦٤ .

١٠٩ – أورد صاحب نثر الدر المكنون ص ٢٥ ومابعدها ، هذا الحديث برواياته المختلفة ، وطرق أسانيده ، وذكر الكتب التي أوردته . (ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٦ ، حاشية رقم ١) .

١١٠ – القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٥ .

١١١ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ٨٠ – ٨١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٩ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص٤٠٢ – ٤٠٣ ، وراجع : القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٠ .

١١٢ – ابن الديبع : الفضل المزيد : ص ٩٠ ، وراجع :

- Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, pp. 110-114.

١١٣ – القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ١٩٦ ، ١٧٦ ، ٢٨٧ ، ١٥٨ ، ٣٤٦ ، ٢٨٩ ، ٥٣ ، ٥١ .

١١٤ – محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، ص ٢٤٣ ؛ وراجع : الوقفية الغسانية ، القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٧٠ – ٢٧٤ .

١١٥ – حسن الباشا (الدكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٧١٥ .

١١٦ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٢ – ٥١٣ .

١١٧ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٩ .

١١٨ – القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ٢٣٠ .

١١٩ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٣ ؛ وراجع : عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٢١٣ .

١٢٠ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٨٣ .

١٢١ – نفس المصدر ، ص ٣٨٤ .

١٢٢ – نفس المصدر ، ص ٤٦٦ ؛ ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٣٢ ؛ ابن حجر : الدرر ، جـ٢ ، ص ١٠٠ .

١٢٣ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٣٣ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٨ ، وراجع :

- Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, pp. 165-166.

١٢٤ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، جـ ١٨٠ .

١٢٥ – ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٥٠هـ / ١٩٧١م ، ص ٦٢ .

١٢٦ – القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م) : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ١ ، ص ٣١٤ – ٣١٩ ؛ وراجع : حسن

خضيرى أحمد : الهمدانى ومنهجه فى كتابه التاريخ ، مجلة المؤرخ العربى ، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد العاشر ، المجلد الأول ، مارس ٢٠٠٢ ، ص ٤٦٥ – ٤٩٣ .

١٢٧ – حسن خضيرى : الهمدانى ومنهجه فى كتابه التاريخ ، ص ٤٦٧ .

١٢٨ – توجد نسخة من المخطوط فى خزانة عبيكان بالطائف (القاضى إسماعيل الاكوع : المدارس الإسلامية ، ص ١٠٨) .

١٢٩ – ينسب هذا الكتاب للمظفر تارة ، وتارة أخرى إلى ابنه الأشرف عمر ، وقد طبع هذا الكتاب باسم المظفر ، (راجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية ، ص ١٠٨) .

١٣٠ – توجد نسخة من المخطوط فى دار الكتب المصرية رقم (٢٧٧طب) ، وراجع القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٠٨ ، حاشية رقم (٥) .

131 - Croken : Zabid under the Rasulids of Yemen, p. 167 .

١٣٢ – القضاى إسماعيل الأكوع : المدارس اليمنية ، ص ٢٤٧ ، وراجع :

- Lealan Anderson : Historical Consideratoions, p. 67 .

١٣٣ – عبد الرحمن الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، ص ٧٥ ، ويذكر الحضرمى أنه توجد نسخة من الكتاب فى مكتبة العلامة عبد الله محمد السالمى المتوفى سنة ١٣٩٩هـ . (راجع الحضرمى : جامعة الأشاعرة حاشية رقم ١٠) ، ص ٧٥) .

١٣٤ – عبد الرحمن الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، ص ٧٥ .

١٣٥ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٠٨ .

136 - Lealan, Op. Cit., p. 68 .

١٣٧ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية فى اليمن ، ص ٢٠٤ .

١٣٨ – محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، ص ٣٩ : عبد الرحمن الحضرمى : جامعة الأشاعرة ، ص ٧٦ .

١٣٩ – ابن الديبع : بغية المستفيد ، ص ٤٨ .

١٤٠ – محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك للجندى ، ص ٣٩ .

١٤١ – الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، ص ١٠٤ .

١٤٢ القفطى : أنباه الرواة على أنباه النحاه ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

143 - Lealan, Op. Cit., p. 67 .

١٤٤ – توجد منه نسخة خطية فى الخزانة الظاهرية بدمشق راجع : محمد بن على الأكوع : مقدمة كتاب السلوك ، جـ١ ، ص ٤١ .

١٤٥ – ابن الديبع : قرة العيون ، جـ٢ ، ص ١٥ .

146 - Lealan : Op. Cit., p. 65 .

١٤٧ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٢٠١ ، وراجع :

- John Meloy : Mamluk Authority and Red Sea Trade, pp. 72 - 73 .

١٤٨ – شوقي عبد القوى عثمان (الدكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥١، الكويت فى ذى الحجة ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

١٤٩ – نشر هذا المخطوط جبريل فران ، باريس ١٩٢١ – ١٩٢٣ ؛ وراجع : شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى ، ص ٩٧ .

١٥٠ – الشافعية : نسبة إلى محمد بن إدريس بن العباس بن شافع الشافعى ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ، ثم انتقل إلى مكة وتعلم القرآن على سفيان بن عيينة ، ثم خرج إلى المدينة فقرأ على مالك بن أنس الموطأ وحفظه ، وقدم إلى اليمن مع جده لأمه عبيد الله بن الحسن سنة ١٨٠هـ طلبًا للعلم ، فأخذ بها عن قاضى صنعاء هشام بن يوسف الإبناوى . (عن الشافعى راجع : ابن أبى حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م) : آداب الشافعى ومناقب ، تحقيق عبد الغنى عبد الخالق ، القاهرة ١٩٥٣م : ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٣٤ – ١٤ ؛ وراجع : أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، ص ٥٨) .

١٥١ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٤٣ .

١٥٢ – نفس المصدر ، ص ٧٩ .

١٥٣ – أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، ص ٥٨ – ٥٩ .

١٥٤ – المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٩٦ .

١٥٥ – المقدسى : أحسن التقاسيم ، ، ص ٩٦ ، ص ١٤٤ .

١٥٦ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٨٨ – ٩٠ ؛ الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

١٥٧ – أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ، ص ٥٩ – ٦٠ .

١٥٨ – ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ، ص ٢٤١ .

١٥٩ – الجندى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤١ .

١٦٠ – نفس المصدر ، ص ٣٨٩ .

١٦١ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٨ – ٥٥٠ .

١٦٢ – نفس المصدر ، جـ١ ، ص ٤٥٥ .

١٦٣ – بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ١٣٨ ؛ وراجع : القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٨٢ .

١٦٤ – السخاوى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) ، جـ٨ ، ص ٢٦٩ .

١٦٥ – السيوطي : بغية الوعاة ٢٥٢/١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

١٦٦ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٥٤ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤١١ – ٤١٢ .

١٦٧ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٢٧٠ ؛ عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية ، ص ٢٠٦ .

١٦٨ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٨٨ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

١٦٩ – عصام الدين عبد الرءوف الفقي (الدكتور) : اليمن في ظل الإسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٣١٥ .

١٧٠ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٦ .

١٧١ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٧ .

١٧٢ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٨ .

١٧٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٣٥٥ ؛ وراجع : عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ٢٠٥ .

١٧٤ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٨ – ١٩٤ : ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٨ .

١٧٥ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٩٤ – ٢١٨ : ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ١٠٤ ؛ وراجع : إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٢٥٧ – ٢٥٩ .

١٧٦ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، جـ٢ ، ص ١٧٣ .

١٧٧ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٢ – ٥١٣ ؛ وعن رجال التصوف عند الجندي راجع الصفحات : ٣٨٤ – ٢٨٧ ، ٤٤٣ – ٤٤٥ ، ٤٥٥ – ٤٦٠ ، ٤٨١ – ٤٧٨ .

١٧٨ – القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٩٨ .

١٧٩ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٦٥ .

١٨٠ – الجندي : السلوك ، جـ١ ، ص ٣٨٦ .

١٨١ – نشوان الحميري ، نشوان بن سعيد : الحور العين ، ص ٢٧١ .

١٨٢ – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٩ .

١٨٣ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٣٦٢ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٣١٥ – ٣١٧؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ؛ وراجع : مقدمة المحقق مصطفى حجازي لكتاب بهجة الزمن ، ص ٦ – ٩ .

١٨٤ – ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٤٦ – ١٥٠ .

١٨٥ – الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٣٦ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص ٣٣٥ ؛ وراجع أيضًا : القاضي إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ٢٥ – ٢٦ ؛ عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها ، ص ١٥٦ .

١٨٦ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٥٢ .

١٨٧ – الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، جـ٢ ، ص ١٨٨ – ٢١٥ ؛ ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٩٨ ، ١٠٤ .

١٨٨ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٨٦ – ٤٨٧ .

١٨٩ – القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس ، ص ١٩٤ .

١٩٠ – ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢١٥ – ٢١٧ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ؛ وراجع : ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ، ص ١٤٦ – ١٥٠ ؛ وراجع : أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٤م.

١٩١ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٩٧ – ٤٩٨ .

١٩٢ – قام بتحقيق ونشر هذا الكتاب الأستاذ محمد بن على الأكوع الحوالى ، بيروت ، ١٩٨٣م.

١٩٣ – السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢٩٩ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص ٢٠ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ، جـ١ ، ص ١٩ – ٢٠ ؛ ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر ، القاهرة ١٩٧١م ، جـ٢ ، ص ٤٤١ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢١٠ .

١٩٤ – مخطوط بمكتبة خدابخس بتنه بالهند رقم ٢٨٨٣ تاريخ ، وتوجد صورة من المخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١١٨٢ ، وقام الأستاذ راضى دغفوس بتحقيق ونشر الفصول الخمسة الأولى من الكفاية والأعلام ، منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٩م .

١٩٥ – راضى دغفوس : اليمن فى عهد الولاة ، ص ١١ .

١٩٦ – القاضى إسماعيل الأكوع: " أضواء على مؤلفات على بن الحسن الخزرجى مؤرخ اليمن " ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الرابع ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ١٢٣ – ١٢٩ ، حيث نسب كلاً من كتاب العسجد والعقود للملك الأشرف ، ص ١٢٥ ، وراجع أيضاً : راضى دغفوس : اليمن فى عهد الولاة ، ص ١٢ ، حيث يتفق مع رأى القاضى إسماعيل الأكوع فى نسبتهما للملك الأشرف .

١٩٧ – راجع : أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ، ص ١٥٧ .

١٩٨ – أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ، ص ١٥٨ – ١٦٢ .

١٩٩ – الجندى : السلوك ، جـ١ ، ص ٥٤٦ .

٢٠٠ – ابن الديبع : الفضل المزيد ، ص ٤٧ .

٢٠١ – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٠٤ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المخطوطة:

- الحاكم الجشمي ، أبو سعد الحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي (ت ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الإمام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية (ميكروفيلم رقم ٣٠٦) .

ثانيًا : المصادر المطبوعة :

- الإدريسي ، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤م ، ٢ جزء .

- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) : مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٧٤م.

- ابن بطوطة ، أبو عبد الله بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) .

- البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليون ، وأندري فيري ، تونس ١٩٩٢م ، ٢ جزء.

- الجندي ، محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (كان حيًا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت ١٩٨٣م ، جـ١ .

- ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م) : آداب الشافعي ومناقبه ، تحقيق عبد الغني عبد الخالق ، القاهرة ١٩٥٣م.

- ابن الحاج (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) : المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ١ .

– ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) :

– إنباء الغمر بأبناء العمر ، القاهرة ١٩٧١م ، ٢ جزء .

– تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن – الهند ، ١٣٢هـ ، جـ ١ .

– الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٤٨هـ ، جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ .

– الحجرى ، محمد بن أحمد (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى) : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، بيروت ١٩٨٤م ، ٢ جزء .

– الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٠م.

– الخزرجى ، موفق الدين أبو الحسن على بن أبى بكر (ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م) :

– العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى الشريف ، رقم ٨٤ تاريخ ، القسم الخاص ببناء مدينة زبيد ، ملحق بمقال د. طاهر مظفر العميد ، ص ٣٤٦ ٣٥٤ ، مجلة كلية الآداب ببغداد ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٧٠م.

– العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ، القاهرة ١٩١١م ، ٢ جزء .

– ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م) : مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون ، الإسكندرية (د.ت) .

– ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨١م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢م ، جـ٥ .

– ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن عمر الشيبانى (ت ٩٢٤هـ / ١٥٣٣م) :

– قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٧٤هـ .

– الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق الدكتور يوسف شلحد ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٣م.

– ابن رسول ، عمر بن يوسف (ت٦٩٦هـ): طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق كوسترستين ، القاهرة ١٩٨٥م.

– السخاوي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .

– ابن سمرة ، عمر بن علي بن سمرة الجعدي (المتوفي بعد سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، دار القلم ، بيروت (د.ت) .

– السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت (د.ت) .

– الشوكاني ، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ١٩٢٩م ، جـ١ ، جـ٢ .

– ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م) : تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة ١٩٦٥م .

– الفاسي ، تقي الدين بن أحمد المكي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (١–٧) تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٩ – ١٩٦٧م.

– القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : أبناه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ١ .

– الكبسي ، محمد بن إسماعيل الكبسي الصنعاني (ت ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م) : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية مطبعة دار السعادة ، القاهرة (د.ت) .

- ابن المجاور ، جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الدمشقى (كان حيًا سنة ٦٣٠هـ / ١٢٧٢م) : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المعروف بتاريخ المستبصر ، حققه أوسكر لوفجرين ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦م.

- بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) : تاريخ ثغر عدن تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦م ، جـ٢ .

- المقداد ، محمد عبد الوهاب المقداد : جامع الأشاعر المسمى قرة العيون وانشراح الخواطر فيما حكاه الصالحون فى فضل مسجد الأشاعر ، تحقيق وتعليق عبد الرحمن الحضرمى ، مجلة الأكليل ، صنعاء ، العددان ، ٣ ، ٤ ، ١٩٨١ .

- المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المعروف بالبشارى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩١م.

- المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، القاهرة ١٩٩٠م ، ٢ جزء .

- مؤلف مجهول : تاريخ الدولة الرسولية فى اليمن ، تحقيق عبد الله الحبشى ، دمشق ١٩٨٤م.

- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحاق المعروف بالوراق (ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٥٠هـ / ١٩٧١م.

- نشوان الحميرى ، أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، دار أزال للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٥م.

- الوصابى ، وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٧٨٢هـ) : تاريخ وصاب ، الاعتبار فى التواريخ والاثار ، تحقيق عبد الله الحبشى ، دمشق ١٩٧٩م.

- ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م.

- الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (كان حيًا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) :

- الإكليل ، جـ١ ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، القاهرة ١٩٦٣م.

- الإكليل ، جـ١٠ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ .

- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣م.

- ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م.

- يحيى بن الحسي بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٨م ، ٢ جزء .

ثالثًا : المراجع العربية الحديثة :

- إبراهيم أحمد المقحفى : معجم المدن والقبائل اليمنية ، منشورات دار الكلمة ، صنعاء ١٩٨٥م

- أحمد فكرى (الدكتور) : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦٩م ، جـ٢ .

- أيمن فؤاد سيد (الدكتور) : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٨٨م.

- مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٧٤م.

- المدارس فى مصر قبل العصر الفاطمى ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ إبريل ١٩٩١م) ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

- حسن الباشا (الدكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦م.

- حسن خضيرى أحمد (الدكتور) : قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٨٠ - ٢٩٨هـ / ٨٩٣ - ٩١١م) مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩٦م.

- الهمداني ومنهجه فى كتابة التاريخ ، مجلة المؤرخ العربى ، اتحاد مؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد العاشر ، المجلد الأول مارش ٢٠٠٢ م .

- راضى دغفوس (الدكتور) : اليمن فى عصر الولاة ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٩م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : العلم بين المسجد والمدرسة ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية ، (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

- شوقى عبد القوى عثمان (الدكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (١٤ - ٩٠٤هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨م) سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥١ ، الكويت ذو الحجة ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠م .

- طاهر مظفر العميد (الدكتور) : بناء مدينة زبيد فى اليمن ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٧٠م.

- عبد الرحمن الحضرمي : زبيد مساجدها ومدارسها العلمية فى التاريخ ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ، دمشق سنة ٢٠٠٠ .

- جامعة الأشاعرة زبيد ، دار أزال للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٥م.

- عبد الواسع بن يحيى اليماني : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، دار اليمن الكبرى ، صنعاء ١٩٩٠ - ١٩٩١م .

- عصام الدين عبد الرءوف الفقى (الدكتور) : اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٢م.

- عفاف سيد محمد صبرة (الدكتورة) : المدارس فى العصر الأيوبى ، أبحاث ندوة المدارس فى مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

- القاضي إسماعيل بن على الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- أضواء على مؤلفات على بن الحسن الخزرجي ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الرابع ، بغداد ، ١٩٧٧م.

- محمد حسين الذهبي : المسجد محور النشاط ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ .

- محمد عبد الستار عثمان (الدكتور) : المدينة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الكويت في ذى الحجة ١٤٠٨هـ / أغسطس ١٩٨٨م.

- محمد عبد العال أحمد (الدكتور) : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، القاهرة ١٩٨٠م.

- محمد بن على الأكوع الحوالي : مقدمة كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك ، للجندى ، بيروت ١٩٨٣م.

- مصطفى عبد الله محمد شيحة (الدكتور) : دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية المدرسة اليمنية ، أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية (٢٢ - ٢٥ أبريل ١٩٩١م) سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

- ميشيل توشرر (الدكتور) : الخلاف السليماني في اليمن ، نقله إلي العربية الدكتور على محمد زيد ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٣٢ ، أبريل ، مايو ، يونيو ١٩٨٨م ، صنعاء .

رابعًا : المراجع الأجنبية :

1 - Croken, Barbara Eileen : Zabid under the Rasulids of Yemen ph.D.Diss., Harvard University, 1990 .

2 - Elian Al-Haismi : The Big Mosque in Zabid.htm (Al-thowra Newspaper 8/1/98) .

3 - Encycolopaedia of Islam .

4 - The City of Zabid, Unesco press, December 2000 (http:// www.unesco.org) .

5 - Geoffery, King: Examples of the secular Architcture of Najd Arabian Studies, Cambridge, 1962 .

6 - G.R.Smith, " The Ayyubids and early Rasulids in the Yemen (567 - 694 H/1173-1295 A.D.) V.2 , London 1978, .

7 - John, Lash Meloy : Mamluk authority, Meccan autonomy and Red sea Trade (797 - 859H / 1395-1455A.D), ph.D.diss., Chicago University, 1998 .

8 - K.N, Chaudhuri. : Trade and Civilization in the Indian Ocean , Cambridge University press, 1985 .

9 - Lealan Anderson Swanson: Historical considerations in yemeni Vernacular Architecture houses from the Sulayhid Dyansty (439H - 1047A.D) to the modem period, ph.D.diss., Ohio state University, 1997 .

10 - Madelung W.: Der Imam al-Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubensiehra der Zaidten, Berlin, 1965 .

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى (*)

شاهد قبر أحد قضاة مصر فى العصر العثمانى

مما لاشك فيه أن دراسة شواهد القبور الإسلامية ، كشفت النقاب عن أهميتها الكبرى فى علم الآثار ، حيث أنها تُعد بحق توثيقًا تاريخيًا وتسجيلاً أثريًا ، لكل بلد من بلدان العالم ، وكل قطر من أقطار الإسلام ، ومن ثم فهى أصدق قيلاً وأقوى دليلاً ، فى تمثيل حضارة كل عصر من العصور الإسلامية بجميع أحداثه السياسية ، وجوانبه الاجتماعية ودلالاته الدينية (١).

وقد تميزت مصر على مر حقبها التاريخية وعصورها الإسلامية ، بكثرة ما عُثر عليه من شواهد قبور(٢) بباطن أرضها ونتاج حفائرها . تلك الشواهد هى الألواح الحجرية أو القوائم الرخامية التى توضع فوق التركيبة للدلالة على من يرقد فى هذا القبر ، أو للإشارة إلى من دُفن فى هذا اللحد ، وكما هو معلوم لدينا أن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، يحتفظ بأقدم شاهد قبر من الحجر الجيرى ، نقش عليه كتابة باسم ابن حجر ، ومؤرخ سنة ٣١هـ ، وهو يمثل أقدم كتابة على الحجر كشاهد قبر فى مصر الإسلامية (٣).

وعلى الرغم من إجماع آراء الفقهاء ، واتفاق أغلبية العلماء ، على كراهية الإسراف فى تشييد شواهد القبور من حيث النقش عليها خطيًا ، والتأنق بها زخرفيًا ، غير أن المسلمين للأسف لم يلتزموا بما رسمه لهم علماء الإسلام ، ولم يتبعوا ما أفتى به فقهاء الدين ، بل على العكس زادت عنايتهم بزخرفة هذه الشواهد(٤) ، بالعناصر النباتية والخطوط الكتابية والرسوم الهندسية .

---

* كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادى .

ومما يحسب لهم ، أنها تعد بحق – بما نقش على ألواحها ، وكتب على تراكيبها – سجلاً حافلاً بالأحداث التاريخية ، والحياة السياسية ، والمكانة الاجتماعية ، والأوضاع الاقتصادية ، والنصوص التذكارية ، والعبارات الدعائية ، والألقاب الفخرية ، والأنساب العائلية ، ومن ثم انعكس كل هذا على الأساليب الفنية (٥).

ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بمجموعة كبيرة من شواهد القبور الإسلامية التى ترجع إلى عصور مختلفة ، بينما يظهر جليًا واضحًا التأنق الزخرفى ، والثراء المادى فى تلك الألواح الرخامية(٦) لشواهد القبور العثمانية .

وخير ما يحتفظ به متحف الفن الإسلامى بالقاهرة من تلك الشواهد العثمانية ، هو ذلك الشاهد الرخامى ، الذى أتناوله بالدراسة والتحليل ، لما له من طراز فريد ، حيث يعد من الشواهد المهمة دينيًا وتاريخيًا وسياسيًا ، وأيضًا أثريًا ، وكذلك لغويًا (لوحة ١) (٧)، وينفرد هذا الشاهد الرأسى فى أن صاحبه الأمير محمد نبيل ، كان يشغل منصبًا دينيًا وقضائيًا فى القطر المصرى ، وذلك فى النصف الأول من القرن ١٣هـ / ١٩م .

ومن المعروف أن أول سلطة للقضاء (٨)، وتطبيق نصوص التشريع الإسلامى على الوقائع ، كان فى عهد الرسول ﷺ ، فقد استمدها النبى ﷺ ، من المولى عز وجل فى كتابه العزيز بقوله : { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } (٩). ومما هو جدير بالذكر أنه من نتائج الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، كان السلطان يعهد برياسة القضاء لقاضى غير مصرى يعين من قبل الباب العالى بالأستانة ، وبقى الأمر كذلك إلى وقت الاحتلال الفرنسى ، حين قلد الفرنسيون عالم مصرى جليل ، هو الشيخ أحمد العريشى ، القضاء (١٠)، بين المسلمين بالمحكمة وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م ، ويعد هذا هو السبب الذى دفعنى إلى الاهتمام بدراسة وتحليل شاهد قبر نُقش عليه اسم قاضى مصر من قضاة تلك الفترة الزمنية التى عُهد فيها بمنصب تولى القضاء للعثمانيين ، حيث يوضح هذا الشاهد بجلاء ، احتوائه على العديد من الألقاب الجميلة ، والصفات الحميدة لمفتى الديار المصرية ، وقاضى مصر الفتية ، جُمعت من حديقة كلمات اللغة العربية ، وبستان مفردات اللغة التركية ، وزهرات من اللغة الفارسية ، وذلك بما يتناسب مع المكانة الرفيعة والقدر العالى لهذه الشخصية الدينية المتبوأة منصبًا قضائيًا مهمًا (لوحة ٢) .

وهذا الشاهد الرأسي نُقش عليه عبارات جميلة ، وصفات حميدة ، وألفاظ بليغة ، وكلمات مرتبة في اثنا عشرة سطر ، كل سطر داخل منطقة مستطيلة تشغل مساحة الشاهد كله ، وهو خلو من أية زخرفة اللهم القاعدة (لوحة ٣ ، شكل ١) ، وترتيبها كالآتي :

السطر الأول : هو الباقي

السطر الثاني : مفتي دوران اولان عاش افنديمزك أولدى [١١]

السطر الثالث : حفيدى بومير عدنه خرام ايلدى[١٢]

السطر الرابع : ذات[١٣] حسيب وجميل يعني محمد نبيل اولدى

السطر الخامس : صلاح دليل خلد واروب الدكام [١٤]

السطر السادس : امير[١٥] سخندان ايدى فايق الأقران ايدى[١٦]

السطر السابع : ذات بر[١٧] عرفان ايدى نظم ونثر ده بنام[١٨]

السطر الثامن : قاضى مصر ايكن آه[١٩] روحى ايدوب[٢٠] وعزم راه[٢١]

السطر التاسع : قصر جناني بناه[٢٢] ايليه رب الأنام[٢٣]

السطر العاشر : كلدى بو بالا[٢٤] لبيب سويلدى تاريخ فوت[٢٥]

السطر الحادى عشر : مير محمد نبيل جنتى قيلدى مقام [٢٦]

السطر الثاني عشر : ١٢٣٥

وترجمة[٢٧] أسطر وكلمات هذا الشاهد بالترتيب كالآتي :

السطر الأول : الله هو الباقي

السطر الثاني : عاش سيدنا الذى أصبح مفتي الدنيا (العصر)

السطر الثالث : وقد أصبح هذا الأمير سعيداً (متبختراً)

السطر الرابع : يعنى محمد نبيل أصبح شخصية ذات حسب ونسب جميل (أى أصل عريق)

السطر الخامس : لقد امتلك الصلاح ووصل إلى سجل الخلد (لقد أصبح صالح أعماله دليل خلده)

السطر السادس : كان أميراً للكلام ، وكان فائق الأقران .

السطر السابع : كان شخصاً مفعماً بالعرفان ، صاحب اسم فى النثر والنظم (أى أنه كان علماً فى نظم الشعر والنثر) .

السطر الثامن : آه ... أسلم الروح عندما كان قاضى مصر ، وذو عزم (عندما كان قاضياً لمصر كانت روحه سمحة ، وذو عزم)

السطر التاسع : فليسكنه رب الأنام (رب الوجود) قصر الجنات ، (يا إلاهى فلتجعل له قصراً فى الجنة)

السطر العاشر : فجاء تاريخ وفاة هذا الأمير اللبيب مذكوراً

السطر الحادى عشر : فاجعل الجنة مقام (مستقر) الأمير محمد نبيل

السطر الثانى عشر : سنة ١٢٣٥ (أى السنة الهجرية التى توفى فيها الأمير)

وتُعد كلمات السطر الحادى عشر بحساب الجُمل(٢٨) هى تاريخ وفاة الأمير محمد نبيل ، وبيانها كالآتى :

مير (م = ٤٠ + ى = ١٠ + ر = ٢٠٠) = ٢٥٠ +

محمد (م = ٤٠ + ح = ٨ + م = ٤٠ + د = ٤) = ٩٢ +

نبيل (ن = ٥٠ + ب = ٢ + ى = ١٠ + ل = ٣٠) = ٩٢ +

جنتى (ج = ٣ + ن = ٥٠ + ت = ٤٠٠ + ى = ١٠) = ٤٦٣ +

قيلدى (ق = ١٠٠ + ى = ١٠ + ل = ٣٠ + د = ٤ + ى = ١٠) = ١٥٤ +

مقام (م = ٤٠ + ق = ١٠٠ + ا = ١ + م = ٤٠) = ١٨١

إذن المجموع الكلى = ١٢٣٢

للاستدراك هناك : ا = ١ فى كلمة جناتى

ا = ١ فى كلمة أمير

ا = ١ فى كلمة ماقام

إذن يكون حساب الجُمل ١٢٣٥ ، هو ما ينطبق مع تاريخ الوفاة التى نُقشت على شاهد قبر الأمير . بالإضافة إلى الألفاظ الفارسية والتركية التى ورد ذكرها على شاهد هذا القبر .

فإن هناك بعض الألفاظ العربية المهمة التى يجب إيضاحها وتفسيرها عن شخصية الأمير محمد نبيل ، وهى مرتبة حسب ما جاء ذكرها ، ونُقشت كلماتها كالآتى :

مُفتى : هو اسم وظيفة دينية ، ذات مكانة رفيعة وقدر عالى ، حيث يُعد هو والصدر الأعظم من أكبر الشخصيات فى الدولة بعد السلطان (٢٩)، والمفتى هو الذى يفتى فى الأمور الدينية من فقه وشريعة وحديث ، وغيرها من العلوم الدينية ، لذا لابد أن يكون عالمًا متفقهًا فى كل هذه العلوم ، فهو الذى يفتى بإقامة الحق ، وإبطال الباطل ، ويرد على السائلين بخصوص الحلال والحرام(٣٠) .

كما أنه هو الذى تُعرض عليه المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق أحكام الشريعة ، ويتوجه إليه للحصول على حكم منه ، باعتباره رجل الشريعة المُكلف بإبداء الرأى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات ، وهذا الذى يصدره منْ هذه الأمور الجنائية أو غيرها من المسائل المدنية يُسمى فتوى (٣١).

وبناءً على ذلك فهو المفسر الرسمى للشريعة الإسلامية فى الدولة ، وجرت العادة أن يخصص لكل إقليم رئيسى أربعة للمذاهب الأربعة ، بالرغم من أن المذهب الرسمى للدولة العثمانية كان هو المذهب الحنفى (٣٢).

وقد كان للقب المفتى فى العصر العثمانى شأن كبير ، حيث نُعت به كبار العلماء والقضاة ، وأطلق هذا اللقب على شيخ الإسلام باستانبول فى عهد مراد الثانى ، كما أُطلق عليه أيضًا لقب مفتى الأنام فى عهد بايزيد بيلدرم رابع سلاطين آل عثمان ، وذلك للإشراف على جميع العلماء والقضاة ونواب الشرع (٣٣).

وترجع أهمية المفتى فى هذه الفترة إلي كثرة الفتاوى التى اعتمدت عليها قوانين الدولة العثمانية حتى أنه قد أنشيء له فى عهد سليمان القانونى مكتب خاص عُرف بـ (فتوى خانه) لمساعدة المفتى فى إعداد قراراته (٣٤).

وقد كان الإفتاء وظيفة يُعين لها من قبل ولى الأمر أى السلطان العثمانى بالباب العالى ، ومن بعده الوالى المصرى (الباشا) ، وبالرغم من ذلك فللمفتى الحق فى إصدار فتوى بعزل الباشا نفسه ، ولم تكن تلك قاعدة ، فقد كان من سلطة السلطان أن يصرف صاحب اللقب ، عن منصبه حين لا يتجاوب معه ، وهى سلطة لجأ إليها كثير من السلاطين العثمانيين (٣٥).

ومما هو جدير بالذكر أن مفتى القاهرة كان يُعين من قبل شيخ الإسلام أستانبول ، وكان يطلق عليه أيضاً شيخ الإسلام ، وهو لقباً فخرياً وليس وظيفياً ، مثلما كان يُعين المفتيون فى جميع ولايات الدولة ، ومن ثم فقد كان يطلق عليهم هذا اللقب على غرار مفتى أستانبول (٣٦).

أما عن أول من لُقّب بإفتاء السلطنة الشريفة بالديار المصرية ، فهو أبى السرور البكرى ، والذى لُقب أيضاً بشيخ الإسلام ، كما يذكر ابنه فى نزهته الزهية (٣٧). كما لُقب به العديد من علماء الأزهر ومشايخ الإسلام (٣٨).

وقد ورد كثيراً ذكر لفظ المفتى فى الكتابات الأثرية ، كلقب مركب مثل " مفتى المسلمين " ، و " مفتى الشرق " و " مفتى الفرق " (٣٩) ، وهنا على شاهد هذا القبر " مفتى العصر أو الدنيا ".

أفندى : كلمة يونانية الأصل ، عامية الاستخدام من افنديس Efendis ، مأخوذة من الكلمة القديمة Aventus ، وهو من الألقاب الفخرية (٤٠) ، دخلت فى اللغة التركية الأناضولية فى وقت مبكر ، واستعملها الترك فى القرن ٧هـ / ١٣م (٤١) ، وهذه الكلمة تُعنى السيد والصاحب والمالك والولى (٤٢) ، وقد استعملها محمد الفاتح بهذا المعنى " أنا السيد العظيم" (٤٣) وقد استخدم هذا اللقب الفخرى لأصحاب الوظائف الدينية والمدنية ورجال الشريعة والعماء ، وكان لقباً رسمياً لضباط الجيش العثمانى حتى رتبة بكباشى (٤٤).

ولا غرو فى أن العثمانيين كانوا يستعملونه لقباً للرجل يقرأ ويكتب ، ولقباً لبعض كبار الموظفين ، ومن ثم كان لقباً لرئيس الكُتاب " رئيس أفندى " ، وله ديوان خاص يعرف " ديوان افنديسى " (٤٥) ، ولقاضى استانبول (استانبول أفنديس) (٤٦) ، أى أفندى استانبول ، وكذلك كان لقباً للأمراء أولاد السلاطين ، كما أطلق على مشايخ الإسلام .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا اللقب أطلقه الترك على رؤساء الديانات الأخرى ، حيث لُقب به حايم ناحوم أفندى عندما كان حاخاماً فى استانبول ، ثم عين فيما بعد حاخاماً على يهود القاهرة (٤٧) ومن الطريف أن لقب أفندى كانت تُلقب به أيضاً النساء فى العصر العثمانى ، فيقال " خانم أفندى " ولزوجة السلطان " قادين أفندى " (٤٨).

وقد شاع لقب أفندى فى البلاد التى خضعت للنفوذ العثمانى ، حيث استخدم فى مصر لقباً فخرياً لنقيب الأشراف ، وفى ذلك يذكر الجبرتى (٤٩) ، فى أحداث ١٢٢٤هـ فيقول " عمر أفندى نقيب الأشراف " .

كما كان يطلق على القاضى لقب أفندى فى مصر العثمانية (٥٠)، كما يذكرها الجبرتى فى أحداث ١٢٣٥هـ فيقول " وقع الاختيار على محمد أفندى الأسيوطى قاضى أسيوط " (٥١)، وأطلق كذلك على الكثير من المهن والوظائف ، التى كان يشغلها الموظفون المصريون فى العصر العثمانى منها الدفتردار والروزنامجى وأمين عيار الضربخانة (٥٢).

ويكفى للاستدلال على المكانة العالية والسمو الرفيع للقب أفندى فى العصر العثمانى ، أن أطلق المصريون على محمد على باشا " أفندينا " (٥٣)، وأيضًا على الباشوات الذين تولوا الحكم قبله . ومما يؤكد هذا ما ذكره المستشرق الفرنسى " لانكريه "(٥٤) " بأن الأفندية فى مصر يتمتعون بكثير من الاحترام ، بسبب نزاهتهم وتعليمهم ، وتبعًا لتقاليد هذه البلاد ، وكان أغلبهم يتكلمون اللغة التركية بخلاف لغة بلادهم التى يعرفونها جيدًا ، وكل من هؤلاء يمتلك ثروة ، تضعه فى عداد الطبقة الميسورة " .

وقد شاع استخدام هذا اللقب كما يظهر في النقوش الكتابية فى القرن ١٣هـ / ١٩م ، وخاصة على شواهد القبور العثمانية بمدافن مدينة القاهرة (٥٥)، وألغى لقب أفندى فى تركيا سنة ١٩٣٤م ، وبطل استعماله فى مصر بعد سنة ١٩٥٢م(٥٦).

مير : تحريف للفظ أمير ، والأمير هو ذو الأمر أو المتسلط ، وتستخدم هذه اللفظة كاسم وظيفة أو للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخرى (٥٧)، وقد وردت كلمة أمير فى الحديث كثيرًا، وترسم هذه اللفظة اليونانية " أمير أو أمار أو أميراس ، وفى اللاتينية أميرانوس أو أميراليوس ، وينطق بها فى الفارسية عادة مير (٥٨).

وقد استخدم هذا اللقب فى بداية عصر محمد على بنفس استعماله فى العصر العثمانى ، وذلك لقبًا لكبار رجال الدولة ، وأحيانًا كثيرة كان يرد هذا اللقب مخففًا بصيغة " مير " ، كما استخدم بعد ذلك لقبًا لأفراد الأسرة المالكة ، من الرجال والنساء على حد السواء (٥٩)، ووردت هذه الكلمة بدلالات مختلفة فى الكتابات الأثرية على الآثار العربية والإسلامية .

ذات بر وعرفان : ذات أو ذو ، صاحب أو مالك ، وجمعها ذوات ، وقد استعمالها الأتراك ببعض التحريف فى معانيها الأصلية إلى معان مجردة أو اصطلاحية ، وبالرغم من ذلك فهى متصلة بالمعنى الأصلى (٦٠).

وقد ألحقت في تكوين كثير من الألقاب المركبة ، وكان هذا النوع من الألقاب شائعًا في العالم الإسلامي ، خاصة منذ أواخر القرن ١٢هـ / ١٨م ، واستمر هذا اللقب فى القرن ١٣هـ/١٩م بنفس المعنى والمضمون الذى استعمل به طوال العصور الإسلامية (٦١).

والبر هو الصلة والخير والجنة والسعة فى الإحسان ، وجمع هذه الكلمة أبرار وبررة (٦٢)، وقد ورد ذكر كلمة البر فى كثير من الآيات القرآنية (٦٣)، وإضافة بر وعرفان إلى ذات تُعني أن صاحبه تمتع بصلة البر والخير والعرفان مع الناس فى حياته الدنيا ، ومع الله في دنياه وآخره ويكفي للدلالة على ذلك ، أن تُذكر كلمة البر صراحة فى الكثير من سور القرآن الكريم .

قاضى : من المعروف أن أول سلطة للقضاء فى الإسلام كانت فى عهد الرسول ﷺ (٦٤). حيث استمد النبى ﷺ نصوص التشريع الإسلامي على الوقائع من المولى عز وجل ، فى كتابه الكريم بقوله [فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ] (٦٥).

وقد كان يشترط فيمن يُولى القضاء شروطًا كثيرة وهى أن يكون حرًا ، عاقلاً ، بالغًا ، مسلمًا ، عادلاً ، وأن يكون سليم السمع والبصر (ويجوز للقاضى أن يكون ضريرًا) ، وأن يكون عالمًا بالأحكام الشرعية ، عارفًا بأسرار التشريع ، مجتهدًا لا مقلدًا غيره فى تفسير أو تأويل ، وأن يكون رجلاً (٦٦)، وذلك لأن القضاء من المراتب العظيمة الأهمية ، التى لها مساس بحرية الأشخاص وبأموالهم وبحقوقهم .

والقاضى اسم لوظيفة ، عُرفت فى الدولة العباسية ، وكذلك في عصر الغزنويين ، ومن ثم انتقلت إلى السلاجقة ومنهم إلى الأتابكة (٦٧)، بينما استعمل كلقب فخرى فى نهاية العصر الفاطمى ، حيث كان يطلق على الكُتاب والعلماء وموظفى الدولة المدنيين ، سواء أكانوا يشغلون وظيفة القضاء أم غيرها (٦٨).

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الوظيفة استخدمت رسميًا فى مصر ، منذ عصر صلاح الدين الأيوبى فكان صاحبها يحضر بدار العدل ، ويصاحب السلطان فى سفره ، مع قضاة الشافعية والمالكية والحنفية وليس بينهم الحنابلة (٦٩).

أما فى العصر المملوكى ، فقد قام القضاة فى هذا العصر بدور مهم فى المجتمع ، إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية ، وكانت جلسات المحاكم تُعقد فى دور القضاء ، فإن لم توجد فإنها تُعقد عادة فى المساجد (٧٠).

وقد عُرفت وظيفة القضاء فى الدولة العثمانية منذ عصر أورخان ، بينما كان الاهتمام الأكبر برجال القضاء فى عهد السلطان محمد الفاتح ، حيث كان يحرص حرصاً خاصاً على حسن اختيارهم من المضلعين فى الفقه والشريعة والمتصفين بالنزاهة والاستقامة ، وأن يكونوا موضع احترام الناس ، وأن تكفى رواتبهم كفاية تامة ، سداً لسُبل الإغراء والرشوة (٧١)، فلم يكن للقاضى المرتشى عند الفاتح من جزاء غير القتل العنيف الزاجر " (٧٢).

ففى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ، حدث تغيير كبير فى النظام القضائى المصرى فى العصر العثمانى حينما بعث السلطان سليمان القانونى (٧٣) - والذى عُرف بالقانونى لازدياد حركة الفتوحات الإسلامية وكذلك لازدياد حركة التقنين فى عهده - من استانبول ، بمرسوم يقضى بإبطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويقتصر الأمر علي أربعة نواب ، من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود لا غير ، وأن هؤلاء النواب الأربعة يكونون فى المدرسة الصالحية دائمًا ، وأن لا يُعقد عقداً ولا يوقف وقفًا ولا تُكتب وصية ولا عتق ولا تُكتب إجازة ولا حُجة ولا غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تُعرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائمًا .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ، أرسل يقول للقضاة الأربعة : اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنواب قاطبة والوكلاء ، والزموا بيوتكم إلى أن يحضر قاضى العسكر .. فامتثلوا ذلك " (٧٤).

وسرعان ما حضر جلبى العثمانى إلى القاهرة فى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م بمرسوم سلطانى من قبل الباب العالى باستانبول ، ليكون بذلك أول قاضى عسكر للديار المصرية ، وكان من أتباع المذهب الحنفى ، لكونه المذهب الرسمى للدولة (٧٥)، ونستدل من هذا بأن المهمة الموكلة للقضاة فى إقامة العدالة فى مصر ، مرتبطة بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية (٧٦).

أما عن هذا القاضى فقد حصل لأهل مصر منه غاية الضرر للرجال والنساء ، ووقع منه أمور شنيعة ، وصفها ابن إياس(٧٧) بقوله " ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، فتزايد حكمه بالجور بين الناس ... حيث فتك بالناس فتكًا ذريعًا " ويسترسل فى وصفه قائلاً " وقد جمع بين قبح الشكل والفعل ، فإنه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال من العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئًا من الأحكام الشرعية " .

ولا غرو أن بلغ عدد نواب القضاة الأربعة ست وعشرين نائبًا ، عينهم قاضي العسكر جلبي وأناب عنه القاضي صالح العثماني الحنفي (٧٨)، حتى وصل عدد نواب القضاة الأربعة - عن المذاهب الأربعة - في نهاية العصر العثماني بمصر ست وثلاثين قاضيًا بما فيهم قاضي العسكر المكلف بإدارة شئون القضاء في القاهرة ، والذى يعتبر القاضي الأول في الإقليم ، وكل هؤلاء القضاة كانوا يتبعون القسطنطينية مباشرة ، وللأسف فإنهم كانوا يجهلون لغة البلاد بما فيهم قاضي العسكر ، الذى كان يستعين بتراجمة يقرأون له النصوص ويترجمونها كما يبدو لهم (٧٩).

وعلى الرغم من القانون الذى أصدره سليمان القانوني ، بقضي بتجريم بيع وظيفة القضاء، إلا أن ذلك لم يكن معمولاً به ، في أواخر الحكم العثماني ، فقد كانت وظيفة قاضي العسكر ، تشترى من القسطنطينية ، ويدفع التزامها إلى رئيس قضاة الأناضول وشيخ الإسلام ، وكذلك وظائف القضاة الست والثلاثون (٨٠).

وهكذا حرص العثمانيون على عثمنة القضاء المصرى ، وذلك بأن ظل تعيين قاضي القضاة أو كما كان يسمى بقاضي العسكر ، يتم بقرار من السلطان العثماني بناءً على اقتراح شيخ الإسلام ، وفي حالة خلو المنصب من شاغره ، لم يكن من سلطة والى مصر أن يعين قاضيًا ، وإنما يعين قائمقام لقاضي العسكر ، حتى يرسل الباب العالي بالأستانة قاضيًا (٨١).

وقد كان نتيجة طبيعية لنظام من هذا النوع ، أن كل قضاة مصر في العصر العثماني كانوا غرباء على البلاد التي عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الأهمية والمكانة (٨٢). وظل الأمر كذلك إلى أن عهد الفرنسيون لعالم مصرى جليل برئاسة القضاء سنة ١٢٣١هـ ، هو الشيخ أحمد العريشي (٨٣)، وللأسف بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، عادت الأمور إلى سابق عهدها ، واستمر ذلك إلى أن قطعت انجلترا علاقة مصر بالدولة العثمانية في سنة ١٩١٤م(٨٤) . أما عن اختصاصات ومهام قاضي العسكر فهي تنحصر في :

الفصل في القضايا ، اختيار أئمة المساجد ، إدارة الأوقاف الخيرية ، تقسيم التركات ، تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات ، ولهذا فقد نظمت مصاريف القضاء ووضع لها رسومًا ونسبًا تؤخذ من قيمة الأشياء موضوع النزاع ، ولكن للأسف كان هناك بعض القضاة لم يتمتعوا بعرف وأخلاق الوظيفة القضائية ، فكانوا يغالون في فرض رسومًا أكبر من المقرر ، وأحيانًا إتاوات ورشاوى (٨٥).

وقد كان القضاة يلقبون بلقب أفندى فى مكاتباتهم ، ومن ثم كان السلطان يخاطبهم مخاطبة رسمية بلقب " أقضى قضاة المسلمين ... " ، كما تنعتهم بعض الوثائق بشيخ الإسلام(٨٦). وهناك أيضًا مجموعة متنوعة من الألقاب السامية والمراتب العالية والصفات الغالية التى ألحقت بهم (٨٧).

قصر جنانى : أى ساكن قصور الجنان ، وقد ورد هذا اللفظ أحيانًا بالتركية " جنتمكان أى ساكن الجنان " وأحيانًا أخرى بالعربية ، وعبارة " ساكن الجنان " وهى أسلم وأصوب ، ولكن كما هو معروف أن الكلمة التركية كانت منتشرة ودارجة مجرى الاصطلاح الرسمى المعتبر (٨٨).

وقد كان هذا اللقب يطلق على سلاطين آل عثمان بتركيا ، وأسرة محمد على بمصر ، على نقوش شواهد قبورهم فى القرن ١٣هـ / ١٩م ، والمراد هنا التمنى والدعاء بدخول الجنة ، وأن يكون من ساكنيها ، ومن خلال الأمثلة التى وردت عليها هذه العبارات الدعائية ، وتلك النقوش الكتابية يتضح أنها أطلقت عليهم بعد وفاتهم (٨٩).

اللبيب : فعيل من اللُب وهو العقل ، وكان من ألقاب رجال الدولة المدنيين ، ولابد أن يكون كل من المفتى وكذلك القاضى صاحب فكر ورجاحة عقل ، أى أن من يتولى منصب الإفتاء والقضاء يتمتع بتلك الصفات الحميدة (٩٠).

المقام : فى اللغة اسم لموضع القيام ، ولفظ المقام ورد فى القرآن الكريم بهذا المعنى ، يقول المولى عز وجل فى كتابه { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } (٩١)، وهو أحد ألقاب الكناية المكانية (٩٢)، استخدم للإشارة إلى صاحب اللقب تعظيمًا له عن التفوه باسمه .

وقد استعمل هذا اللقب منذ أوائل العصر الأيوبى للسلطان أو من هو فى مكانته ، وظل محتفظًا بمنزلته الرفيعة حتى نهاية العصر المملوكى (٩٣)، ويُعد أقدم استخدام له على نقش رخامى باسم " المقام الشريف " للناصر محمد بن قلاوون ، وأيضًا بنفس الصيغة بمدفن السلطان قايتباى (٩٤). أما فى العصر العثمانى فقد استخدم بمدينة القاهرة ، على النصوص التأسيسية بصيغة " المقام الشريف " لقبًا للسلطان سليمان القانونى ، منقوشًا على سبيل وكتاب خسرو باشا سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م ، ولقبًا لمحمود باشا والى مصر من قبل الدولة العثمانية ، على نقش بمسجد المحمودية سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م (٩٥).

ومن ثم فقد صار هذا اللقب من أرفع الألقاب ، وكان يطلق في أول الأمر على الخليفة بصيغة الجمع " المقامات الشريفة " ، واستمر هذا اللقب محتفظًا بمنزلته الرفيعة طوال العصور الإسلامية ، حيث كان يستعمل للسلطان أو من في منزلته ، ورُتب هذا اللقب ترتيبًا تنازليًا إلى " المقام الشريف " ، " المقام الكريم " ، " المقام العالى " ، " المقام " (٩٦). ورتبه القلقشندى(٩٧) ترتيبًا آخر " المقام الأشرف " ، " المقام الشريف " ، " المقام العالى " .

ويعلو قمة هذا الشاهد الرأسى شكل عمامة ضخمة(٩٨) (شكل ٢) منحوتة في الرخام بهيئة طبيعية ، وكما هو معروف لدينا أن الرسول ﷺ ، كان يعتم بعمامة معروفة باسم السحاب أورثها أو تنازل عنها لعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) .

أما العرب قد عرفوا العمامة منذ القدم ، ويذكر مؤلف مجهول في مخطوطة(٩٩) " أن السنية في القلنسوة كونها منخفضة لا مرتفعة كما يلبسها بعض المتكلفين " ، ويذكر عن أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) " أن الرسول ﷺ كان يلبس قلنسوة بيضاء لاطئة ، أى ملاصقة للرأس " ، ويذكر أدى شير(١٠٠) عن القلنسوة فيقول " يحتمل أن يكون معربة عن الفارسية لكلمة بوش ، وهو مركب (كله) أى رأس ، ومن بوش أى غطاء ، والقلنسوة مأخوذة عن الفرنسية Qulunse ، وعن الفارسية " كلاه " .

ومن المعروف أن العمامة هى لباس الرأس ، وربما كُنى بها عن البيض أو المغفر ، والجمع عمائم وعُمام ، وعُم الرجل ، سُوِّدَ ، لأن تيجان العرب العمائم (١٠١)، ويذهب دوزى(١٠٢) في معجمة بأن كلمة عُمامة ذات تفسير يُعنى كلمة Turbun ، أى المشمذ ، بينما يذكر ابن سيدة(١٠٣) " بأن العمامة ما يلاث على الرأس تكويرًا ، وقد تعمم بها واعتم ، وأنه لحسن العمة وقد عمته " .

ومما هو جدير بالذكر أن الفقهاء في بلاد الأندلس كانوا يلبسون العُمامة بصورة عامة ، بينما كانت عُمامة القضاة أضخم كثيرًا من عُمامة العرب الآخرين ، ومن هذا الوضع كان يسمى الواحد منهم " المُتعمم أو المُعتم أو صاحب عُمامة أو رب العُمامة " ، ومن هنا يحرص المسلمون عامة ورجال الشريعة خاصة على حصر شرفهم في عمائمهم ، ومازال حتى الآن يلبس الشرفاء وأحفاد الرسول ﷺ ، العمامة الخضراء (١٠٤).

ويعد لبس العمامة أو ارتداء غطاء الرأس والتعمم به خاص بالرجال وحدهم ، وفي الشرق بنحت شكل العمامة وتظهر وظيفة صاحبها على شاهد قبره ، وبذلك ترمز إلى نوعه أو جنسه ،

سواء كان رجل أم امرأة ، صغيراً أم كبيراً ، وبهذه الوسيلة أو تلك الطريقة ، يمكننا أن نميز بسهولة مشاهد قبور الرجال من مشاهد قبور النساء ، وذلك لأن شواهد قبور أضرحة النساء ينحت لها إكليل أو تاج أو عمامة ترمز للمرأة (١٠٥).

بالإضافة إلى جمال خط شاهد هذا القبر وأناقة تنسيقه ، فإن عناصره الطبيعية ورسومه الزخرفية التى زينت قاعدته ، قد لعبت دوراً فنيًا كبيراً وجماليًا عظيمًا ، حيث استعمل العثمانيون فى زخارفهم الأسلوب الواقعى ، فى الرسوم الزخرفية التركية فى أستانبول وكذا فى القاهرة (١٠٦).

وتُعد تلك المزهرية التى تزين قاعدة هذا الشاهد ، خير دليل على تمثيل الطبيعة النباتية أصدق تمثيل فى الزهور والورود وأهمها زهرة الرمان والسوسن وزهرة النسرين ، علاوة على الزخرفة بالطراز الشائع ، لفنون الباروك والركوكو ، التى تأثر بها العثمانيون فى أسلوبهم الزخرفى الجديد عن طريق أوربا فى عصر النهضة(١٠٧) (لوحة ٤ ، شكل ٣) .

هذا فضلاً عن البراعم والنوار والأفرع والأوراق النباتية الممتدة فى الإطار السفلى للشاهد، وكذلك العقود الصغيرة المفصصة ، يتدلى منها زهرة اللوتس فى الإطار العلوى للقاعدة ، وقد أضفى كل من الإطارين النباتيين شكلاً جماليًا ومنظراً طبيعياً خفف إلى حد ما من جو وحشة القبور .

وخلاصة القول :

إن دراسة شواهد القبور العثمانية بتراكيبها الرخامية ، هى توثيق تاريخى وتسجيل أثرى، نظراً لاحتوائها على أحداث سياسية وأوضاع اجتماعية وحياة اقتصادية لفترة زمنية مؤرخة ومعلومة .

على الرغم من إجماع آراء الفقهاء ، واتفاق معظم العلماء ، على كراهية العناية بتشييد شواهد القبور ونقش كتابتها ، والتأنق فى زخرفتها ، إلا أن مسلمو العصر العثمانى لم يلتزموا بكل هذا .

لعبت اللغة الفارسية والتركية إلى جانب العربية ، على طراز الخط العثمانى دوراً رئيسيًا فى تسجيل كثير من النصوص التذكارية ، والعبارات الدعائية ، والألقاب الفخرية ، والأنساب العائلية على شاهد قبر هذا القاضى العثمانى .

من المعروف أن أول سلطة للقضاء ، وتطبيق نصوص التشريع الإسلامى على الوقائع ، كان في عهد الرسول ﷺ ، فقد استمدت من الكتاب العزيز والمصحف الشريف .

لقد عمل السلطان سليمان القانونى على عثمنة القضاء فى مصر ، حيث أصدر مرسومًا فى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ، يقضى بأن يكون قاضى قضاة مصر عثمانيًا ، يبعث من استانبول إلى القاهرة وبذلك فإن المهمة الموكلة للقضاة فى إقامة العدالة بمصر ، مرتبطة بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية .

لقد ظل قاضى القضاة فى مصر عثمانيًا ، يُرسل من قبل الباب العالى بالأستانة إلى القاهرة ، إلى أن عهد الفرنسيون فى سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م ، برئاسة القضاء لقاضى مصرى هو الشيخ أحمد العريشى .

مما يؤسف له أن كثيراً من القضاة العثمانيين ، كانوا يجهلون اللغة العربية محادثة وكتابة، مما جعلهم يستعينون بتراجمة يقرءون لهم النصوص ، ويترجمونها كما يحلو لهم .

مما يؤسف له أيضًا ، أن كثيراً من قضاة هذا العصر لم يتمتعوا بعرف وأخلاق الوظيفة القضائية فكانوا يغالون فى فرض رسومًا أكبر من المقررة على القضايا ، وأحيانًا كانوا يتقاضون إتاوات ورشاوى .

لقد كان قاضى مصر ، الامير محمد نبيل ، من قبل السلطنة العثمانية بتركيا ، يتمتع بشخصية ذات حسب ونسب ، أى ذات أصل عريق ، وسمعة طيبة ، وأعمال خالدة فى نظم الشعر وكتابة النثر ، حتى قيل عنه أنه كان أميراً للكلام وفائق الأقران فى عصره ، ومن ثم فقد استحق كل هذا الثناء والإطراء على شاهد قبره ، الذى نقش عليه تلك الصفات العديدة ، والأخلاق الحميدة بكل اللغات العربية والتركية والفارسية .

لقد تبوأ هذا القاضى العثمانى – الأمير محمد نبيل – بالقطر المصرى ، عدة مناصب منها دينية وهو مفتى العصر ، ومنها قضائية وهو قاضى مصر ، كما أنه تمتع بألقاب كثيرة منها فخرية ، ومنها وظيفية ، وذلك فى النصف الأول من القرن ١٣هـ / ١٩م .

لقد توفى الأمير محمد نبيل سنة ١٢٣٥هـ / ١٨١٩م ، وهو يشغل منصب قاضى مصر وذلك فى عهد محمد على باشا .

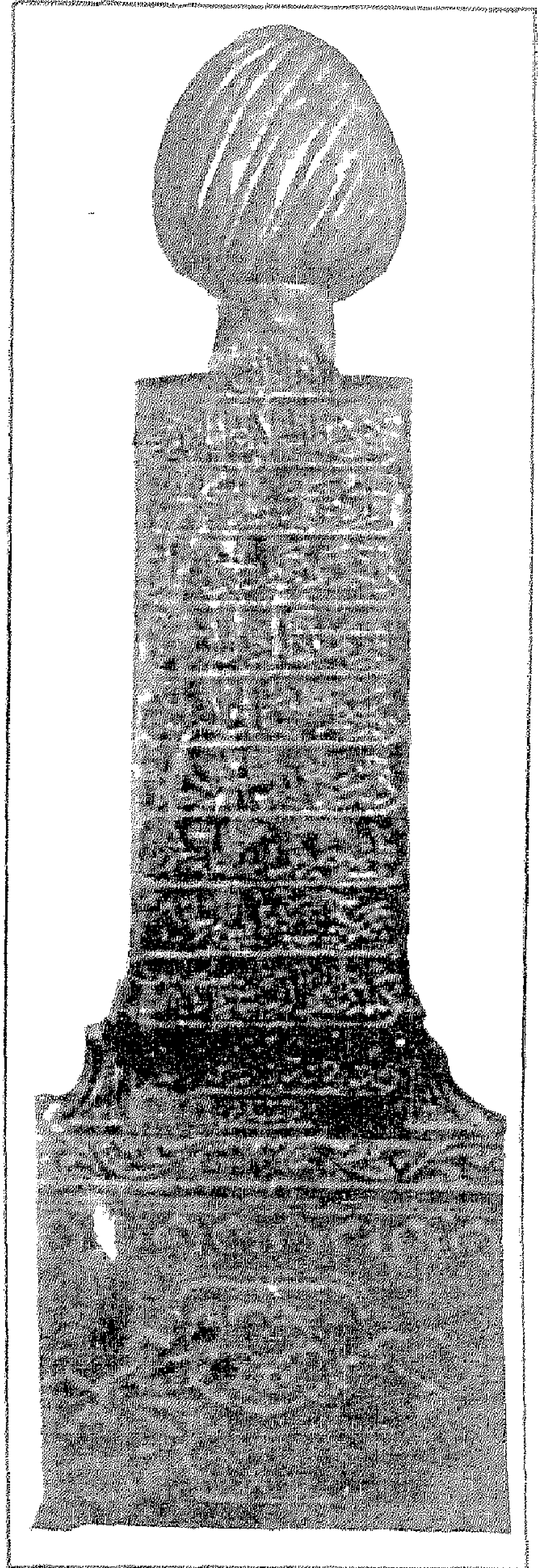
لقد استعمل الفنان فى زخرفة نهاية هذا الشاهد ، الأسلوب الواقعى من حيث العناصر النباتية الممثلة طبيعيًا أصدق تمثيل ، هذا إلى جانب الأسلوب المحور فى زخرفة الطراز الرومى والهاتاى .

لقد لعبت الزهرية الممتلئة بالزهور الطبيعية ، وعلى جانبيها الحزم النباتية ، وبها عناقيد العنب داخل منطقة محددة ، دوراً رئيسياً فى زخرفة القاعدة الرخامية لهذا الشاهد .

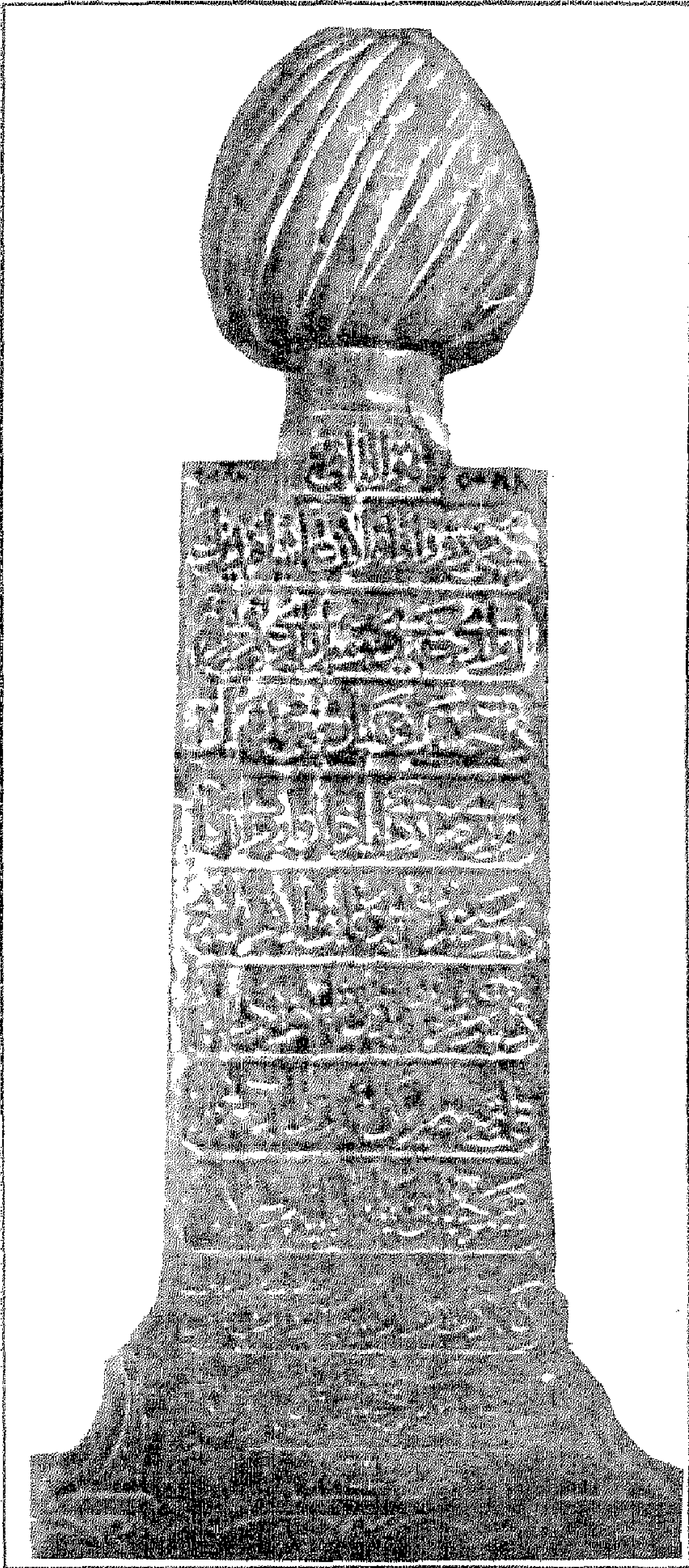
وضحت جلية زخرفة العقود الصغيرة مفصصة الشكل ، بأعلى القاعدة الرخامية لشاهد قبر الأمير محمد نبيل ، على هيئة ستارة تتدلى منها حزم نباتية صغيرة بشكل زهرة اللوتس ، مما أضفى على الشاهد جواً زخرفياً جميلاً ، خفف من وحشة القبر .

لقد استخدم الفنان حساب الجمل فى تاريخ وفاة صاحب شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، إلى جانب ذكر التاريخ الهجرى كتابة .

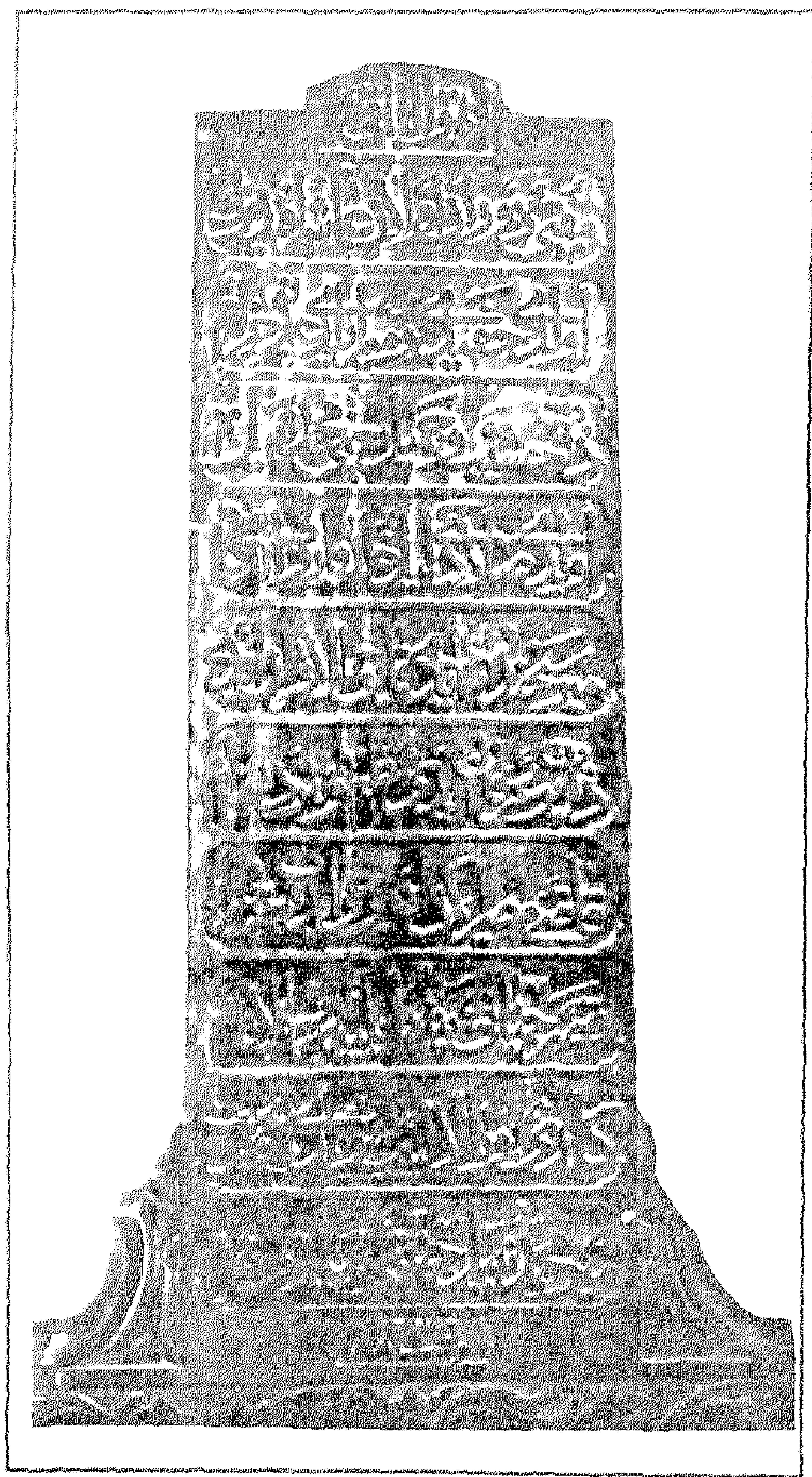
لقد لعبت زخرفة العمامة دوراً مهمًا ، فى معرفة نوع شاهد القبر فى العصر العثمانى بمصر وبرزت أهمية هذه الزخرفة ، فى نقش شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، حيث عبرت تعبيراً صادقًا عن المنصب الوظيفى المهم الذى تبوأه هذا الأمير وهو قاضى مصر .



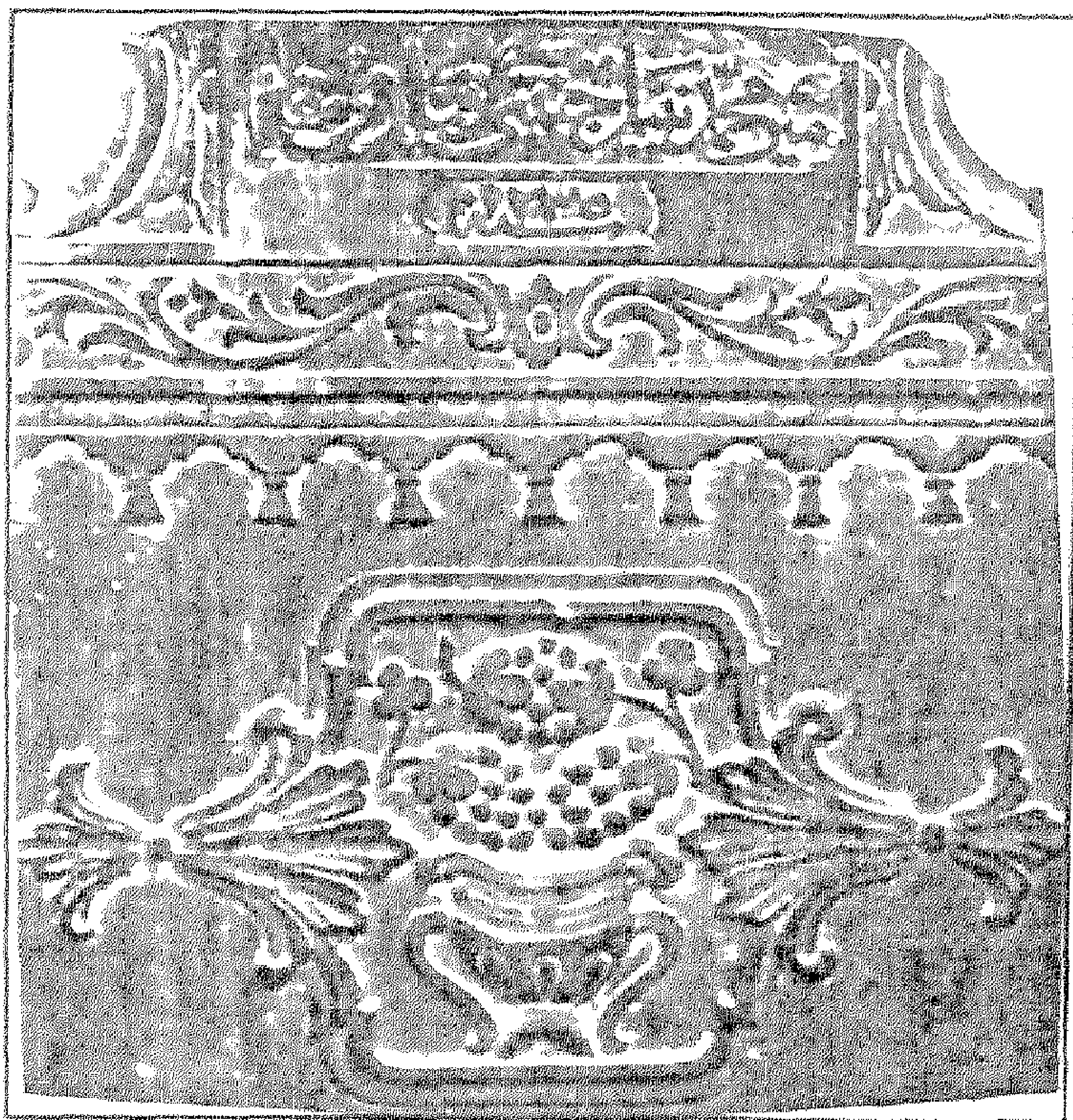
اللوحة (١) : تركيبة رخامية لشاهد قبر الأمير محمد نبيل قاضى مصر فى العصر العثمانى محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، برقم ٢٠٥٨٨ " لم يسبق نشره "



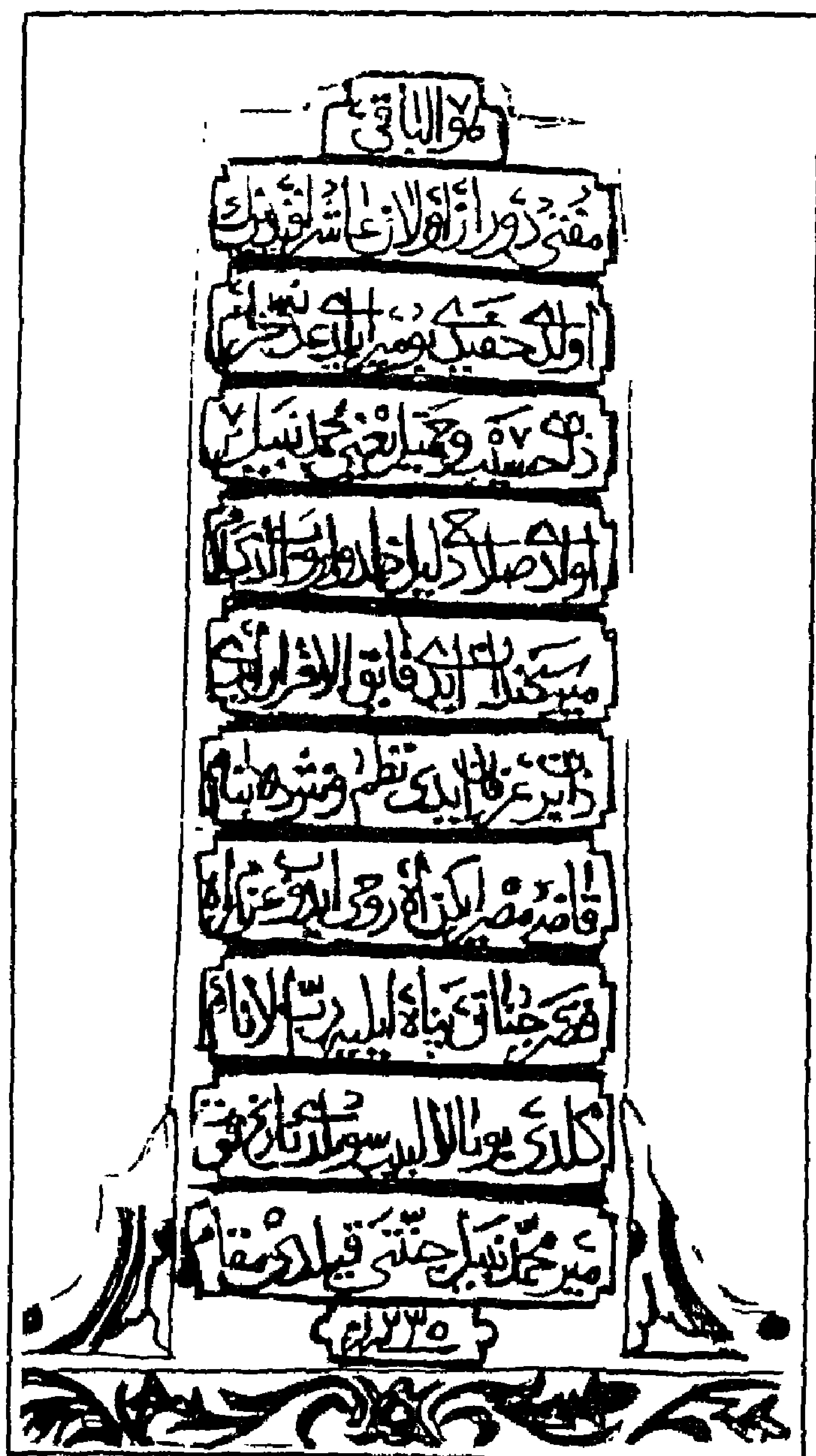
اللوحة (٢) : شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، تعلوه عمامة كبيرة ، رمز قاضى مصر فى العصر العثمانى



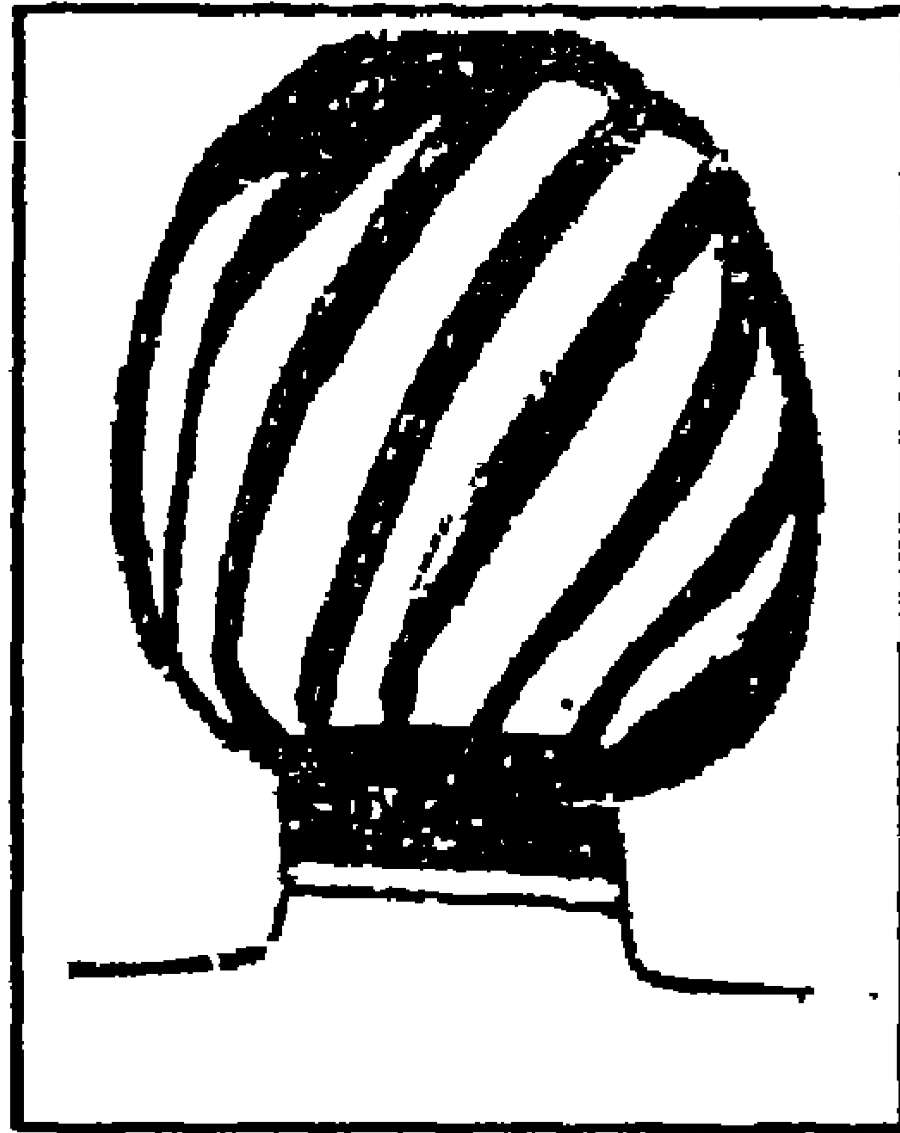
اللوحة (٣) : نقش شاهد قبر الأمير محمد نبيل
باللغة التركية والفارسية والعربية



اللوحة (٤) : الزخرفة النباتية للتركيبة الرخامية لشاهد القبر السابق ،
ممثلة فى زخرفة الباروك والروكوكو



الشكل (١) : يبين البحور الاثنا عشر لشاهد قبر قاضي مصر محمد نبيل



الشكل (٢) : يبين زخرفة عمامة قاضي مصر في العصر العثماني
ممثلة على شاهد قبر الأمير محمد نبيل



الشكل (٣) : يبين زخرفة قاعدة شاهد القبر السابق ، بالزخارف
النباتية التركية من الباروك والروكوكو

الهوامش

١ – مصطفى شيحة ، شواهد قبوور إسلامية ، ص ٩ .

٢ – مما هو جدير بالذكر أن لفظ مشاهد (مشهد) ، قد استخدم لأول مرة عند الشيعة عند مقتل الحسين بن علي " رضي الله عنهما " ، حينما أخفوا الرأس لكي لا تستخدم في التشهير بالخليفة يزيد بن معاوية، ومن ثم ثار باقي آل بيت الإمام علي ، ضد خلفاء بني أمية ، وخشى آل بيت علي ، على أن يظهروا قبورهم حتى لا تُنبش ولهذا أخفوها ، فلما هدأت الأمور أظهر الشيعة قبور الأئمة السابقين ، وسموها مشاهد ، لأن الجميع شهدوا على صحة دفن الإمام علي ، في هذا المكان ، ومن هنا جاءت تسمية مشهد على القبور . مصطفى شيحة ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

٣ – سعاد ماهر ، مدينة أسوان وآثارها في العصر الإسلامي ، ص ٢٢ ، لوحة ٤ .

٤ – مصطفى شيحة ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠ – ١١ .

٥ – مايسة داود ، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية ، ص ٧٧ .

٦ – الرخام MARBLE ، ضرب بلوري من الحجر الجيري متماسك مدكوك لدرجة تسمح بصقله صقلاً شديداً ويكون عادة أبيض أو رمادياً ، ويقتصر وجود الرخام في مصر في الصحراء الشرقية ، كما سجل وجوده في عدة أماكن في هذه الصحراء ، وفي موضع قريب من ساحل البحر الأحمر ، يوجد نوع من الرخام الرمادي السكري اللون ، وأيضاً في جبل الرخام الذي يقع شرق إسنا ، في الطريق بين النيل والبحر الأحمر ، يوجد نوع من الرخام عديم اللون استعمل في العهود الإسلامية . لوكاس ، المواد والصناعات ، ص ٦٦٦ .

٧ – رقم السجل : ٢٠٥٨٨ ، ارتفاع الشاهد بالقاعدة ٢٠٨سم ، عرض الشاهد ٣٨سم ، ارتفاع القاعدة : ٦٦ سم ، سمك البدن : ٨٦سم ، لم يسبق نشره .

٨ – عطية مشرفة ، القضاء في الإسلام ، ص ٧٩ .

٩ – سورة المائدة ، آية ٤٨ .

١٠ – الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ – ٣٥٦ ؛ شفيق غربال ، ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، مج٤ ، جـ١ ، ص ٢٣ ، حاشية ١ .

١١ – مفتي دوران : مفتي العصر أو الدنيا – اولان : الذي (تركية الأصل) – افنديمزك : سيدنا (تركية الأصل) – اولدي : أصبح (تركية الأصل)

١٢ – بومير : هذا الأمير – عدنه : جنة عدن – خرام ايلدي : جعله سعيدا متبختراً (فارسية الأصل) .

١٣ – ذات : أو بمعنى صاحب أو مالك ، وقد استعمل كثير من الألقاب المركبة ، وكان هذا النوع من الألقاب المركبة ، شائعاً في العالم الإسلامي خاصة منذ أواخر القرن ٢هـ / ٨م ، واستمر استخدام هذا اللقب

١٢هـ / ١٩م بنفس المعنى والمفهوم الذى استعمل به طوال العصور الإسلامية : مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف العثمانية ، ص ٣٠٩ .

١٤ – اروب : وصل أو أصبح – الدكام : تقريباً ... امتلك .

١٥ – أمير : استخدم هذا اللقب فى بداية عصر محمد على بنفس استعماله فى العصر العثمانى ، وذلك لقباً لكبار رجال الدولة ، وأحياناً كثيرة كان يرد هذا اللقب مخففاً بصيغة " مير " ، مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

١٦ – سخندان : مصدر فارسى بمعنى الكلام أو الحديث – أيدى : كان .

١٧ – بر : ممتلىء .. مشحون ... مُفعم.

١٨ – بنام : مشهور ... معروف ... صاحب اسم (ذو صيت أو شهرة).

١٩ – ايكن آه : عندما كان .

٢٠ – روحى أيدوب : روح سمحة.

٢١ – عزم راه : أى ذو عزم ،

٢٢ – بناه : كلمة فارسية بمعنى ملجأ ... ملاذ ... التجاء .. مسكن .

٢٣ – الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق ، رب الأنام ، أى رب كل هذه المخلوقات ، ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١ ، ص ١٥٤ .

٢٤ – كلدى : جاء – بالا : كلمة فارسية بمعنى عال .. رفيع .

٢٥ – سويلدى تاريخ فوت : ذكر تاريخ وفاته .

٢٦ – قيلدى مقام : فاجعل مقام (مستقر)

٢٧ – فى الحقيقة ، لقد تفضل مشكوراً الأستاذ الدكتور / الصفصافى أحمد المرسى ، رئيس قسم اللغات الشرقية (لغة تركية) ، بكلية الآداب – جامعة عين شمس ، وقام بمساعدتى فى ترجمة أسطر وكلمات هذا الشاهد على النحو الأكمل ، بالإضافة إلى تقديمه بعض القواميس التركية القديمة والعثمانية الحديثة ، والتى استعنت بها ، ومكنتنى من الترجمة على هذا النحو ، وهى :

– محمد على الإنسى ، قاموس اللغة العثمانية ، الدارى اللامعات فى منتخبات اللغات ، ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م

– شمس الدين سامى ، قاموس تركى ، در سعادت ، ١٣١٥ – ١٣١٧هـ (رومية)

٢٨ – فتح الله محمد الحميرى ، كيفية حساب التواريخ الهجرية الميلادية القبطية ، ص ١١٦ – ١١٨ .

٢٩ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٣ ، حاشية ١ .

٣٠ – شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ؛ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٣ ، ص ١١١٦ – ١١٢٠ .

٣١ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

٣٢ – محمد نور فرحات ، القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني ، ص ٨٦ – ٨٩ .

٣٣ – دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأتراك .

٣٤ – أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ١١٤ .

٣٥ – ليلى عبد اللطيف ، المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، ص ١٠ .

٣٦ – مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف العثمانية ، ص ١٣١ .

٣٧ – ابن أبي السرور البكرى ، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، ص ٣١ : ليلى عبد اللطيف ، تاريخ مؤرخى مصر والشام ، ص ١٣٢ .

٣٨ – أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات ، ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

٣٩ – حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الاثار العربية ، جـ٣ ، ص ١١١٦ – ١١٢٠ .

٤٠ – شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

٤١ – أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى ، ص ٢٠ .

٤٢ – أحمد تيمور ، الرتب والألقاب المصرية ، ص ٦٦ .

٤٣ – أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٤٤ – دائرة معارف البستاني ، جـ٤ ، ص ٧٣ ؛ أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

٤٥ – دائرة المعارف الإسلامية ، مادة رئيس الكتاب .

٤٦ – دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٤ ، ص ٨٧ .

٤٧ – أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٤٨ – مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف ، ص ٢٣٣ .

٤٩ – الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، جـ٤ ، ص ٤٢٧ .

٥٠ – موسوعة وصف مصر ، جـ٥ ، ص ٣٨ .

٥١ – الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٤٠ .

٥٢ – الجبرتى ، نفس المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢١٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ .

٥٣ – أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

٥٤ – موسوعة وصف مصر ، جـ٥ ، ص ٤٥ – ٤٦ .

٥٥ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

٥٦ – أحمد السيعد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

٥٧ – حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ١ ، ص ١١٥ .

٥٨ - دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٤ ، ص ٤٣٢ .

٥٩ - مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

٦٠ - عبد السميع الهراوى ، لغة الإدارة فى مصر ، ١٨٧ .

٦١ - مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٣٠٩ .

٦٢ - القاموس المحيط ، باب الراء ، مادة البر ، ص ٣٦٦ .

٦٣ - سورة البقرة ، الايات : ٤٤ ، ١٧٧ ، ١٨٩ : سورة آل عمران ، الآية : ٩٢ ؛ سورة المائدة ، الآية : ٢ .

٦٤ - عطية مشرفة ، القضاء فى الإسلام ، ص ٧٩ .

٦٥ - سورة المائدة ، الاية : ٤٨ .

٦٦ - عطية مشرفة ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٦٧ - حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٢ ، ص ٨٦٦ .

٦٨ - حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ص ٤٢٤ .

٦٩ - القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ١٩٢ .

٧٠ - سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، ص ٥٥٨ .

٧١ - بالرغم من الامتيازات المادية والأدبية التى تمتع بها القضاة فى العصر العثمانى ، إلا أن بعضهم تفشت بينهم الرشوة والفساد والجور والطمع ، ويؤكد ذلك ما ذكره الجبرتى فى أحداث ١٢٣١هـ ، الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، جـ٤ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

٧٢ - سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، ص ٢٨٥ .

٧٣ - جرجى زيدان ، مصر العثمانية ، ص ١١٣ .

٧٤ - ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

٧٥ - محمد نور فرحات ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٧٦ - موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٣ .

٧٧ - ابن إياس ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

٧٨ - ابن إياس ، نفس المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٤٦٩ .

٧٩ - موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٤ .

٨٠ - المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

٨١ - محمد نور فرحات ، المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٨ .

٨٢ - موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٩ .

٨٣ - الجبرتى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ٣٥٥ - ٣٥٦ .

٨٤ – شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، حاشية ١ .

٨٥ – موسوعة وصف مصر ، جـ١ ، ص ١٩٦ – ١٩٧.

٨٦ – ليلى عبد اللطيف ، والمجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، ص ٢٢٠ ؛ أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات ، ص ٢٨٨ ، حاشية ١١٧ .

٨٧ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ١٤١ – ١٤٢ .

٨٨ – عبد السميع الهراوى ، لغة الإدارة العامة فى مصر ، ص ٥١٢ ، ٥١٤ .

٨٩ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ .

٩٠ – حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص ٤٤١ .

٩١ – سورة آل عمران ، الآية : ٩٦ .

٩٢ – حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ٤٨٢ – ٤٨٧ .

٩٣ – القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ١٩ .

٩٤ – حسنى نويصر ، منشآت السلطان قايتباى الدينية ، ص ٤٨٢ – ٤٨٥ .

٩٥ – مصطفى بركات ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

٩٦ – حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص ٤٨٥ .

٩٧ – القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٩٨ .

٩٨ – ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بمدينة القاهرة ، بشاهد قبر مسجل برقم ١٢٦ ، تزخرف قمته عمامة قاضى أو رجل دين ذو شأن كبير من العصر العثمانى ، وهى مضلعة وتشبه عمامة قاضى مصر الأمير محمد نبيل ، ووجود العمامة بكلا الشاهدين ، يوضح مدى مهابة وأبعاد مكانة رجل الدين فى هذا العصر .

Wiet, Catalogue du Musee Arabe du Cairo, PL.XXXI.

٩٩ – مؤلف مجهول ، رسالة فى بدعة القلنسوة ، ورقة ٨٧ .

١٠٠ – آدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ١٢٨ .

١٠١ – أحمد مطلوب ، معجم الملابس فى لسان العرب ، ص ٨٨ .

١٠٢ – دوزى ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ص ١٩٢ .

١٠٣ – ابن سيدة ، المخصص ، جـ٤ ، ص ٨١ – ٨٢ .

١٠٤ – دوزى ، المرجع السابق ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

١٠٥ – دوزى ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

١٠٦ – اوقطاى أصلان آبا ، فنون الترك وعمائرهم ، ص ٣١٨ .

١٠٧ – سعاد ماهر ، الخزف التركى ، ص ١١٦ .

اللوحات

اللوحة (١) : تركيبة رخامية لشاهد قبر الأمير محمد نبيل قاضى مصر فى العصر العثمانى محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، برقم ٢٠٥٨٨ " لم يسبق نشرة".

اللوحة (٢) : شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، تعلوه عمامة كبيرة ، رمز قاضى مصر فى العصر العثمانى .

اللوحة (٣) : نقش شاهد قبر الأمير محمد نبيل ، باللغة التركية والفارسية والعربية .

اللوحة (٤) : الزخرفة النباتية للتركيبة الرخامية لشاهد القبر السابق ، ممثلة فى زخرفة الباروك والروكوكو .

الأشكال :

الشكل (١) : يبين الاثنا عشر لشاهد قبر قاضى مصر محمد نبيل .

الشكل (٢) يبين زخرفة عمامة قاضى مصر فى العصر العثمانى ممثلة على شاهد قبر الأمير محمد نبيل .

الشكل (٣) : يبين زخرفة قاعدة شاهد القبر السابق ، بالزخارف النباتية التركية من الباروك والركوكو .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة :

- القرآن الكريم .

- مؤلف مجهول ، رسالة فى بدعة القلنسوة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٦ ، ورقة ٧٨ ، رسالة ١٠٧ .

- ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق د. محمد مصطفى ، ٥ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م.

- ابن سيدة ، المخصص ، جـ٤ ، بيروت ، ١٩٦٦م.

- ابن بطوطة ، الرحلة ، دار صادر بيروت ، ١٤٢١هـ / ١٩٩٢م.

- أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن ولى مصر من الوزراء والباشوات ، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨م.

- الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، ٤ أجزاء ، دار الأنوار المحمدية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٦ ، ٤ ، ٧ ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٩م.

ثانياً : القواميس ودوائر المعارف والموسوعات :

- شمس الدين سامى ، قاموس تركى ، دار سعادت ، ١٣١٥ - ١٣١٧هـ (رومية)

- محمد على الأنسى ، قاموس اللغة العثمانية ، الدرارى اللامعات فى منتخب اللغات ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م .

- دائرة المعارف الإسلامية التركية ، أستانبول ، ١٩٦٧م.

- كتاب دائرة المعارف ، البستانى ، مطبعة دار المعارف ، بيروت ، ١٩٨٤م.

- موسوعة وصف مصر ، المصريون المحدثون ، تأليف الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، جـ١ ، ٥ مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢م.

ثالثًا : المراجع العربية :

- أحمد السيد سليمان (دكتور) : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار المعارف ، ١٩٧٩م.

- أحمد تيمور (دكتور) : الرتب والألقاب ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٠م

- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : فى أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ، طبعة أولى ، ١٩٤٨م.

- أحمد مطلوب (دكتور) : معجم الملابس فى لسان العرب ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٥م .

- أدى شير : كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٠٨م.

- أوقطاى أصلان آبا : فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، استانبول ، ١٩٨٧م.

- جرجي زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق د. محمد حرب ، كتاب الهلال ، العدد ٥١٧ ، ١٩٩٤م.

- حسن الباشا (دكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ أجزاء ، القاهرة ٦٥ - ١٩٦٦م .

- الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، الدار الفنية للنشر ، ١٩٨٩م.

- حسنى نويصر (دكتور) : منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط دكتوراه بكلية الآثار جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م.

- دوزى (رينهارت) : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ترجمة أكرم فاضل ، بغداد ، ١٩٧١م.

- سعاد ماهر محمد (دكتور) : مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٧٧م.

- الخزف التركى ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٧٧م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٤م .

- شفيق غربال (دكتور) : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، مجلة كلية الآداب، مج٤ ، جـ١ ، مايو ١٩٣٦م.

- عبد السميع الهراوى (دكتور) : لغة الإدارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٣م.

- عطية مصطفى مشرفة (دكتور) : القضاء فى الإسلام ، شركة الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٦م.

- فتح الله محمد الحميرى : كيفية حساب التواريخ الهجرية الميلادية القبطية ، مطابع دياب ، ١٩٨٤م.

- لوكاس (الفريد) : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة زكى اسكندر ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩١م.

- ليلى عبد اللطيف (دكتورة) : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ، ١٩٨٧م .

- تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، الخانجى ٤ ١٩٨٠م.

- مايسه داود (دكتورة) الكتابات العربية على الآثار الإسلامية من القرن الأول حتى أواخر القرن الثانى عشرة للهجرة ٧-١٨م ، مكتبة الدهضة المصرية ١٩٩١م.

- محمد نور فرحات (دكتور) : القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ، تاريخ المصريين ١٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م.

- مصطفى بركات (دكتور) : الألقاب والوظائف العثمانية ، دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية ، دار غريب ٢٠٠٠م .

- مصطفى عبد الله شيحة (دكتور) : شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

رابعًا : المراجع الأجنبية :

- ARSEVAN, les arts docoratifs turc

- WIET, catalogue du musee arabe du Caire, 1930 .

د.كرم حلمى فرحات (*)

صفحة جديدة من حضارة الإسلام فى إندونيسيا

المقدمة :

يتناول هذا البحث " صدى حضارة الإسلام فى إندونيسيا " ، وهذا الموضوع من الأهمية بمكان إذ يعالج الجوانب الآتية :

أولاً : بيان متى دخل الإسلام هذه الجزر الخضراء المسماة فيما بعد بإندونيسيا .

ثانيًا : العناصر التى حملت الإسلام إلى تلك الجزر من عرب وهنود وصينيين .

ثالثًا : الممالك الإسلامية التى قامت على أرض تلك الجزر .

رابعًا : ما قام به ملوك تلك الجزر من خدمة للإسلام والمسلمين سواء من حيث تطبيق الشرائع الدينية أو الدعوة لنشر الإسلام .

خامسًا : مدى ما أحدثه الإسلام من ثورة حضارية على المسار السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى .

وبناء عليه يتعرض هذا البحث لعدة موضوعات ، منها :

التعريف بكلمة إندونيسيا ، والحديث عن موقعها ومساحتها ، والطبيعة والمناخ والسكان بها ، والأديان الى فيها قبل الإسلام .

ثم يتناول أيضًا الحديث عن دخول الإسلام إندونيسيا ، وانتشاره بها والممالك الإسلامية التى قامت على تلك الجزر ، ثم الحديث عن صدى حضارة الإسلام فى الحياة

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية -معهد الدراسات والبحوث الآسيوية -جامعة الزقازيق .

السياسية بها ، وكذلك صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية ، والحياة الاقتصادية .

التعريف بإندونيسيا:

كلمة " إندونيسيا " مركبة من مقطعين إحداهما " إندو " بمعنى " الهند " والثانية " نيسيا " بمعنى الجزر ، فإندونيسيا معناها " جزر الهند " وتسمى هذه الجزر بأسماء متعددة منها : الجزر الخضراء ، لأن أرضها مكسوة بالخضرة والغابات ، ويطلق عليها " جزر الملايو " وكذلك " جزر الهند الشرقية " ، كما أطلق عليها العرب اسم " جاوة " (١).

وأطلق عليها " جزر الهند الهولندية " و " جزر الهند النيدرلندية " و " جزر السوند " وشملها فى وقت من الأوقات اسم " ملايو " أو " ماليزيا " واسمها اليوم " إندونيسيا " أو على الأصح " هندونيسيا " وإنها لتستحق أيضًا أن نسميها " الجزر الخضراء " لأنه – على حد قول حبيب جاماتى – لا يوجد فى العالم كله جزر يكسو سطحها مثل هذا الثوب الأخضر ، الذى تسربل به تلك المجموعة العجيبة من الجزر الكبيرة والصغيرة الآهلة بالسكان أو الخالية منها ، وعدد الجزر نحو ثلاثة آلاف جزيرة أو أكثر(٢) .

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى أخذ اسم إندونيسيا يغلب على ماعداه من الأسماء(٣) وتنقسم تلك الجزر إلى عدة مجموعات أشهرها : مجموعة جزر " سومطرة وجاوة وبورنيو وسيليبس " وتسمى هذه المجموعة " صُونْدا الكبرى " .

ومجموعة جزر أخرى تقع بين جزيرة " غينيا " الجديدة شرقًا و " جزيرة جاوة " غربًا ، وتسمى " صوندا الصغرى " . ومجموعة أخرى ، هى مجموعة الجزر التى تقع بين " سيليبس " غربًا ، و " غينيا " الجديدة شرقًا ، وتسمى جزر الملوك التى ورد ذكرها فى كتب التاريخ (٤).

فهذه الجزر واسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، يصل امتدادها من الغرب إلى الشرق حوالى ثلاثة آلاف من الأميال ، ويصور الإندونيسيون طول هذه الجبهة أن الأرخبيل الإندونيسى لو فرش على خريطة أوربا وآسيا لكان طرف سومطرة الشمالى عند مدينة " دبلن " عاصمة " إيرلندا " ووصل الطرف الشرقى فى " إيريان " الغربية إلى مدينة " طهران " عاصمة " إيران " (٥).

موقع إندونيسيا ومساحتها :

تمتد إندونيسيا على شكل قوس عظيم بين المحيطين الهندى والهادى وقارتى آسيا واستراليا ، وتعتبر دولة بحرية كبيرة .

تعد هذه الدولة أكبر مجموعة من الجزائر العالمية ، حيث تموج البحار من حولها بالثروة والحياة ، وتقوم على حراستها أشجار نخيل جوز الهند ، الذى ينمو بكثرة فى كافة الجزر الإندونيسية (٦).

تمتد إندونيسيا من خط عرض " ٦ درجة شمالاً " إلى " ١١ درجة جنوبياً " ، ومن خط طول " ٩٥ درجة غربياً إلى ١٤١ درجة شرقاً" .

وتبلغ مساحة الأرض ٧٣٥٠٠٠ سبعمائة وخمسة وثلاثون ألف ميل مربع ، أى مليون وتسعمائة وأربعة آلاف وثلاث مئة وخمسة وأربعون كيلو متراً مربعًا ، ومساحة البحر هى مليون ومائتان وثلاثة وستون ألف ميل مربع (١.٢٦٣.٠٠٠) أى ثلاثة ملايين وثلاث مئة وواحد وثلاثون ألفًا ومائة وسبعون كليو متراً مربعًا ، وأطول مسافة بين الشرق والغرب هى حوالى "٣٢٠٠ ميل "أو " ٥١١٠ كيلو مترات " ، ومن الشمال إلى الجنوب " ١٢٠٠ميل" أى " ١٨٨٨ كيلو متراً " .

وموقع إندونيسيا – بين قارتى آسيا واستراليا والمحيط الباسفيكى والمحيط الإندونيسى – قد جعل من موقعها موقعًا استراتيجيًا هامًا بين دول العالم (٧).

وكثير من تلك الجزر معمور آهل بالسكان ، ولكن الأكثر عدداً منها مازال غير مطروق ، بل لعله لم يزل مجهولاً فى مساحته وثروته الطبيعية ، ولا يرده إلا الحيوانات والنباتات .

تمتد هذه الجزر لمسافات تزيد على ثلاثة آلاف ميل على طول خط الاستواء ، وهى تبدو فى امتدادها كمدرج من الجبال العالية يصل عبر المحيط ما بين آسيا واستراليا .

وينتفع بمساحة إندونيسيا الواسعة من البر والبحر تجمع هائل من السكان يعتنق معظمهم دين الإسلام ، ويصل عددهم أكثر من ٩٢٪ من السكان (٨).

هذه الجزر تتمتع بموقع ممتاز ذى أهمية خاصة ، هذا فضلاً عن وجود المواد الأولية الضخمة والأيدى العاملة التى تستخدم فى استغلال هذه الموارد (٩).

ولإندونيسيا أهمية استراتيجية فى السلم والحرب ، ويرجع ذلك إلى توسط موقعها بين استراليا وآسيا ولسيطرتها على الطرق الموصلة إلى الصين واليابان (١٠).

طبيعة إندونيسيا :

تغلب على إندونيسيا الطبيعة الجبلية ، كما توجد الجبال التى يزيد ارتفاعها على تسعة آلاف قدم ، وتوجد فى إندونيسيا بعض المناطق المنخفضة والسهول والمرتفعات والمناطق الجبلية.

أما الأراضى المنخفضة وهى جزء صغير ، توجد معظمها على طول السواحل فى الجزر الرئيسية وعلى طول وديان الأنهار ، وأحيانًا تجفف السهول المرتفعة والهضاب البحيرات الجبلية لتكون حلقة الاتصال بين الأقاليم الجبلية المرتفعة (١١).

أما الجبال فتكسوها الخضرة السندسية ، ويلفها الجمال الطبيعي الأخاذ وتستغل ارتفاعها فى عمل مدرجات زراعية ، تسقى بواسطة استغلال انحدار المياه من القمم العالية (١٢).

أما المياه الإقليمية لإندونيسيا فهى المساحة البحرية التى تقع فى الحزام البحرى لمسافة "١٢ ميل بحرى " من الخط الرئيسى ، بينما كل البحار والمضايق والخلجان التى تقع داخل النطاق تعتبر بحار داخلية (١٣).

والأنهار فى إندونيسيا صغيرة وليست طويلة إذا قورنت بالأنهار فى قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا ، إلا أن هناك عددًا من الأنهار الصالحة للملاحة مثل أنهار "موسى " و " باتانجهارى" و " اندراجيرى " و " كامبار " فى " سومطرة " ، و " كابواس " و " بارتيو " و " ماهاكام " و "رانجانج " فى " كاليمانتان " ، وأنهار " مامبيرامو " و " ديجول " فى " إيريان الغربية " . و "نهر موسى " صالح للملاحة ويمكن أن تسير فيه السفن التى تبلغ حمولتها حتى عشرة آلاف طن لمسافة ثمانين ميلاً .

أما معظم البحيرات فهى توجد فى الأقاليم الجبلية ، وهى ليست كبيرة . وأهم هذه البحيرات هى بحيرة " تويا " و " مانينديجوا " و " سنجاكاراك " فى " سومطرة " و " تمبه " و " تاوتى " و " سيدنرنج" و " مونتانا " و " بوسو " و " ليمبوتو " و " تواندانو " فى " سولاويسى " و " بينيا " و " سينتانى " فى " إيريان الغربية " ، وهذه البحيرات هى مصدر هام للأسماك ، كما يوجد عدد كبير من المساقط المائية ، والتى تعوق حركة المرور فى الأنهار ، التى هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات فى داخل الأرض من الأجزاء الكبرى من جزر " كاليمانتانى " و "سومطرة " و " إيريان الغربية " (١٤).

مناخ إندونيسيا :

من المعروف أن إندونيسيا تقع فى المنطقة الاستوائية بين خطى عرض ٦° درجة مئوية شمالاً ، و ١١° درجة مئوية جنوبيًا مما جعل مناخها استوائيًا (١٥). حيث يتساوى الليل والنهار إذ تشرق الشمس في الساعة السادسة صباحًا وتغرب فى السادسة مساء تقريبًا ، والأشجار خضراء طول السنة (١٦). إلا أن الرياح الموسمية والرياح التجارية التى تسبب سقوط الأمطار الغزيرة فى فصل الشتاء ، والأمطار الخفيفة في فصل الجفاف كل منهما يمكن اعتباره عاملاً مهمًا من العوامل التى تؤثر في تخفيف درجة الحرارة ، وتغيير طبيعة المناخ الاستوائى ، بجانب المساحات الواسعة من البحار والمحيطات والخلجان التى تطوق إندونيسيا ، ومنها تلك الكثرة الموفورة من القمم الجبلية ، وكذلك الغابات الكثيفة التى تغطى مساحتها – تقريبًا – ثلثى مساحة الأرض .

كل هذا كان له بالغ الأثر في خفض درجة الحرارة ، وقد لوحظ أنها فى المناطق الساحلية غالبًا ما تكون ٢٦° درجة مئوية ، وتنخفض الحرارة بمعدل درجة كلما ارتفعنا عن سطح الأرض ٣٠٠ قدم .

ففى إندونيسيا فصلان مناخيان : أحدهما فصل الجفاف ، ويبدأ من شهر مايو إلى أكتوبر. والآخر : فصل الشتاء ، ويبدأ من شهر نوفمبر إلى شهر أبريل (١٧).

وهذا الاعتدال بالحرارة أثر على نشاط السكان فجعل فيهم الحيوية ، إذ من المعلوم أن النشاط قليل لدى سكان البلاد الشديدة البرودة أو الشديدة الحرارة ، وهذا ما يؤثر بالتالى على الحضارة ، ونحن لانرى حضارات قامت فى المناطق الشمالية الباردة جدًا أو المناطق الاستوائية الشديدة الحرارة ، هذا إذا كانت الحوافز عادية ، ولكن إذا كانت هناك حوافز قوية تنبع من الأعماق كدوافع العقيدة ، فيمكن أن تقوم الحضارة فى أسوأ البقاع صلاحية لها ، فليس فى إندونيسيا موسم خاص للمطر ، وإنما يستمر طيلة العام (١٨).

أما جوها فمتماثل طول العام تقريبًا ، ومع وقوعها فى هذه المنطقة فإن جوها ليس شديد الحرارة ؛ لأنها تتكون من جزر يتخللها البحار ، ثم لأن أرضها مكسوة بالخضرة والغابات مما جعلها تسمى الأرض الخضراء ، فخفت حرارة الشمس وأصبح جوها أقرب إلي الاعتدال ، ولهذا يطلق على جو إندونيسيا " الجو الاستوائى المعتدل " ، ولكن سواحل إندونيسيا أشد حرارة وأعلى رطوبة ، لأنها مناطق منخفضة ، أما الجهات الداخلية المرتفعة فهى أقل حرارة ، ونسبة الرطوبة فيها منخفضة (١٩).

السكان واللغات :

سكان إندونيسيا :

يبلغ عدد سكان إندونيسيا أكثر من (١٨٠ مليون نسمة) ، لذلك تعد سادسة بلاد العالم من حيث تعداد السكان بعد الصين والهند والاتحاد السوفيتي - سابقًا - والولايات المتحدة واليابان ، وأكثر الإندونيسيين من جنس يُدعى الإندونيسي أو الملايوى ، وجنس وافد من الخارج منذ حوالى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وكان يظن أن هذا الجنس وافد من الصين والهند الصينية ، ولكن البحوث الحديثة أثبتت أن المصريين والفينيقيين كانوا من الأجناس المبكرة التى نزلت إندونيسيا للتجارة واستوطنتها (٢٠). ولكن المجموعة العربية هى التى اكتسبت احترامًا بالغًا عند السكان للروابط العقيدية بين الطرفين ، ولأن الإندونيسيين يعدون العرب مثلهم الأعلى لحملهم رسالة الإسلام ونقلها إليهم ، ولهم جمعيات خاصة بهم (٢١).

يعتبر هؤلاء السكان أخلاط من أجناس مختلفة أهمها الجنس الملوى والصينى والهندى والعربى (٢٢).

ولاتزال بإندونيسيا رموز نشأت وتطورت فى مصر ونقلها هؤلاء الرحالة إلى وطنهم الجديد بإندونيسيا ، فهى كغيرها من الأقطار الأخرى قد تعرضت فى شتى العصور لهجرات بشرية متعددة ... ولذا فإن الإندونيسيين نتاج تلك العناصر البشرية المختلفة التى اختلطت دماؤها وامتزجت خصائصها وغلبت خصائص فى بعضها ونقصت فى البعض الآخر ، ومن أجل ذلك يختلف الإندونيسيون اختلافًا بينًا فى بعض الصفات الجنسية ، وإن كانت تجمعهم إلا أقلهم صفات عديدة مشتركة والعناصر البشرية الهامة التى ساهمت فى تكوين الشعب الإندونيسى هى : العنصر الزنجي والعنصر الملايوى وعناصر أخرى كالهنود والصينيين والعرب والأوروبيين (٢٣).

فسكان إندونيسيا موزعون توزيعًا غير منتظم على الجزر الإندونيسية فلون السكان يشبه لون سكان الشرق الأوسط تقريبًا ، وكذلك الشعر الأسود الطويل الناعم ، والعيون السوداء ، وأحيانًا فيها اللون العسلى والقامة أميل إلى القصر مع هيف يقرب من النحول ، والأنف الأفطس قليلاً ، والقواطع البارزة نوعًا ما أحيانًا ، والشباب الإندونيسى ذكى محب للعلم .

أما المرأة الإندونيسية فهى على قدر من الجمال ، ولها نشاط كبير فى كل مجال ، وهى خير عون لزوجها ، وهى دعامة كبيرة من دعامات المجتمع ، ويمتاز الإندونيسيون بالصبر والرضا والهدوء .

ويوجد بإندونيسيا جماعات مختلفة ، جماعات مدنية رفيعة فى المدنية والتقدم ، تجيد لغات أجنبية ، ويجوارها جماعات بدائية (٢٤).

من المعروف أن أكثر من ٩٢٪ من سكان إندونيسيا يعتنقون دين الإسلام ، وعدة ملايين يعتنقون النصرانية ، وباقى السكان يدينون بديانات مختلفة كالبوذية والكونفوشية والهندوسية، فإندونيسيا تمثل أكبر تجمع للمسلمين فى العالم الإسلامى ، ورغم بعد هذه البلاد عن العالم العربى فإنها تحاول على الدوام أن تكون قريبة الصلة به ، وقد أسهم الإسلام بدور كبير فى تكوين هذه الدولة وتوحيدها والإبقاء على كيانها (٢٥).

اللغات فى إندونيسيا :

من المعروف أن إندونيسيا تتكون من آلاف الجزر ، وكانت لكل جزيرة لغتها الخاصة التى تختلف عن غيرها من لغات الجزر الأخرى ، وفى بعض الأحيان تكونت ممالك ضمت مجموعة من الجزر ، ولكن لم توجه عنايتها لتوحيد اللغة ، فقد اتجهت عناية الدول إلى الوحدة السياسية والعسكرية ، وليس للوحدة الثقافية ، ثم إن توحيد اللغة كان عملاً شاقًا بعيد المنال ، ولم يقف الأمر عند اختلاف اللغات باختلاف الجزر ، بل إن الجزيرة الواحدة كانت تعيش فيها جماعات منفصلة بعضها عن بعض ، وتختلف اللغة فى جماعة عنها فى أخرى ، فليس من المبالغة أن يقال إنه كانت بإندو يسيا مئات اللغات قبل أن توجد اللغة الإندونيسية فتضافرت الجهود للحصول على حل لمشكلة اللغة ، وكان الحل يمكن فى اللغة الملايوية التى كانت متداولة بين التجار وأصحاب الأعمال وكثيرين من السكان فى المنطقة بأسرها أي فى جزر الفلبين ، وفي شبه جزيرة الملايو ، وفى أكثر جزر إندونيسيا ، وكانت هذه اللغة تستمد أصولها من اللغات الأصلية بتلك البلاد وتقتبس من اللغات المختلفة كلمات سرعان ما تصبح أصيلة فى هذه اللغة ، وقد ساعد تطور الاتصال التجارى والدينى والثقافى بين سكان هذه المنطقة وبين التجار الهنود والعرب والصينيين على تطور هذه اللغة وازدهارها (٢٦).

فالسكان فى إندونيسيا يتكلمون أكثر من ثلاثين لغة ومائتين وخمسين لهجة مختلفة ويرجع ذلك إلي ترامى أطراف البلاد وتباعد أقسامها وصعوبة المواصلات التى تربط أجزاءها ، وهذه اللغات تنضوى تحت مجموعة اللغة الملايوية الأم وأهم هذه اللغات ، الجاوية والسوندنية والمادورية .

ثم إن انتشار التجارة وتنقل التجار بين الموانى الإندونيسية المختلفة جعل اللغة الملايوية تعم مناطق واسعة على الرغم من بقاء اللغات واللهجات المحلية . وتعرف اللغة الملايوية الإندونيسية بـ " هاسا " وقد كانت تكتب بالأبجدية العربية وحاولت هولندا إلغاء هذه الأبجدية ولكنها لم تجرؤ على ذلك ، وهذه المحاولة تعود لإبعاد الصلة بين الإندونيسيين وبقية العالم الإسلامى وخاصة البلاد العربية ، ولكن عندما ألغيت الخلافة العثمانية واستبدل أتاتورك الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية تجرأت هولندا على ذلك واستعملت الأبجدية اللاتينية للغة " هاسا " الإندونيسية ، وقد عمت هذه اللغة وبهذه الكتابة بين المواطنين واستعملت فى الصحف والمجلات والدوائر الرسمية ، وتجد فيها كثيراً من الكلمات العربية . وفى أيام الحكم الهولندى كانت اللغة الهولندية هى الرسمية ، وتدرس فى المعاهد والمدارس (٢٧).

فاللغة الإندونيسية هى لغة الملايو التى تعد من قرون عديدة لغة التجارة بين جزر إندونيسيا(٢٨).

وهذه اللغة يتكلم بها الشعب الإندونيسى كلغة تخاطب شامل منذ أكثر من ستة قرون ، إذ كانت اللغة الملايوية لغة تفاهم شعبى بين سكان أقاليم إندونيسيا ، والباحث فى اللغة الإندونيسية والدارس لآدابها والمتعمق لمشتقات كلماتها ، يجد أن كثيراً من كلماتها اقتبست من اللغة العربية وأتت عن طريق الإسلام (٢٩).

الأديان فى إندونيسيا قبل الإسلام :

فى عصور التاريخ الأولى ، كان سكان جزر الهند الشرقية - إندونيسيا فيما بعد - يدينون بدين الطبيعة ، أو فلنسميه دين " الروح " أى أنهم كانوا يعتقدون أن الطبيعة مصدر كل شىء ومرجعه ، وأن للأحياء والأشجار أرواحاً تحوم حولها وتحرسها ، وإن كل حركة من حركات الإنسان تسيرها الروح الحائمة حوله ، وكانوا يقدمون القرابين للأشجار والحيوان استرضاء لأرواحها - أو بعبارة أخرى للآلهة القائمة على حراستها .

وفى القرن الخامس الميلادى حمل الصينيون والهنود إلى الجزر الخضراء معتقداتهم الدينية ، أى الديانتين البوذية والبرهمانية ، وانتشرت الديانتان انتشاراً واسعاً عم الجزر كلها أوجلها وشيدت المعابد (٣٠).

فالبوذية لا تعترف بوجود إله ، كما لا تؤمن بالنبوات ولا بالنفس الإنسانية ، وأن الأخرى وهى الهندوكية تؤله مظاهر الطبيعة وتشتمل على أنماط من التعاليم ، وأنماط من السلوك تنفر منها النفس الإنسانية الراقية ، وتنحيه عن ساحتها فضلاً عن الأديان ورسالاتها المقدسة .

فالبرهمانية مملوءة بأسماء الأرباب والشياطين والأرواح والملائكة وعقيدتها الكبرى قائمة على الثالوث المؤلف من " براهما " و " فشنو " و " سيفا " " وفيها للآلهة صفات الذكورة والأنوثة ، فضلاً عن صفات الشخوص ، أما البوذية فقالت : إن القضاء على الآلام لا يكون إلا بالقضاء على الوعى ، والتجرد من لباس الجسد للدخول فى السعادة العليا التى تتاح للمخلوقات ، ولزم من أجل ذلك أن تنكر الواعية فى الإنسان ، (فالنرفانا) أى السعادة العليا هى الإله الذى لا يعى نفسه ولا يعى غيره (٣١).

فالأديان التى كانت بإندونيسيا قبل الإسلام كانت وافدة كالبوذية والهندوكية ، وكانت البوذية عبارة عن عودة إلى الأحجار والأصنام ، وكانت الهندوكية تحمل عادات الهند وتقاليدها مما جعل فيها فرض تقاليد شعب على شعب آخر ، ومن هنا لم يكن للإندونيسيين حماسة التمسك بهاتين الديانتين (٣٢). وهما قائمتان على التقشف الذين يعطى فكرته الكهنة الذين يسترون التعاليم الدينية على حسب إرادتهم ، ويوجهونها على النظام الذى يليق بمكانتهم ، أما الدين الهندوكى فقد أنشأ نظام الطبقات الذى خول الكهنة كل السيطرة على بقية الطبقات ، فهم الرؤساء الذين بيدهم تدمرف أمور الكهنوت ، وهم يؤدون الطقوس الدينية التى تربط الرغبات الإنسانية فى إذلال كلى نحو المعبود الذى منه يستمد الرضا والسعادة والأمن والطمأنينة .

وقد أثرت الديانة البوذية فى هذا النظام إذ محت الفوارق وألغت الطبقات ، وجعلت الدين فلسفة تقشفية بحتة (٣٣).

هذه الأديان كانت تضل الأفكار ، وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعدد النِّحَل ، وتحمل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب ، وعدا ذلك فإن فى هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى فى الحضرة الإلهية ، أما الدين الإسلامى فقد أتى أهالى إندونيسيا بما كانوا يشعرون بالحاجة إليه من المساواة التامة فضلاً عن كون عقيدته صافية واضحة (٣٤).

دخول الإسلام إندونيسيا :

دخل الإسلام جزر إندونيسيا في شكل تدرج سلمي بطيء منذ القرن الأول الهجري – السابع الميلادي ، وذلك على أيدي العرب الذين جابوا هذه البلاد منذ قديم الزمن في تجارتهم البحرية مع الشرق (٣٥).

فالحقيقة أن دخول الإسلام ليس عن طريق الحرب والغزو أو الفتح ، فالروايات المتناثرة هنا وهناك سواء في دوائر المعارف أو المراجع التاريخية القديمة والحديثة تدل على أن الإسلام بدأ يهتم بحركة امتداد الدعوة الإسلامية وبثها في جزر الشرق الأقصى في وقت مبكر ، إبَان عصر الصدر الأول ، حيث سافر أحد دعاة الصحابة الماهرين في شئون الدعوة ويُدعى "رهاب بن رعشة" إلى الصين لنشر الإسلام الحنيف في ربوعها ، وكان ذلك بعد الهجرة ببضع سنوات ، وهناك تعلم اللغة الصينية ودرس عادات القوم وطبائعهم وعقائدهم القديمة ، ثم أخذ يبثُّ فيهم دعوة التوحيد ، فتجمع الناس حوله وأثار أمره إمبراطور الصين آنذاك "شاى تسونج" فأذن له بمقابلته عام ٦٢٨ميلادية ، وهذا التاريخ يوافق السنة السابعة من الهجرة(٣٦).

ويعني ذلك أن سفره إلى الصين ، وبدايته في بث دعوته كان قبل هذا التاريخ ، ومن قبل ذلك كان للعرب علاقات تجارية مع الصين يرجعها بعض الباحثين إلى سنة ٣٠٠ ميلادية (٣٧)، والبعض الآخر إلى ما قبل ذلك .

فليس معنى هذا أن دخول الإسلام وانتشاره في تلك المناطق توسع عربي دوافعه التجارة وسد الجوع والحرمان ، فالعرب لم يجهلوا البحر لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم ، فقد باشروا التجارة قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ودخلوا إندونيسيا في ثوب تجاري لنشر الإسلام ووصلت الدعوة خالصة لوجه الله عز وجل ، فكانت التجارة وسيلة أوصلت إلى الشعب الإندونيسي إشعاعات العقيدة الإسلامية التي تسربت إلى قلوب الناس فارتاحت أفئدتهم لهذه العقيدة (٣٨).

بدأت البذور الأولى تثبت جذورها في تلك الأرض ، واتخذت جميع الوسائل لإدخال الإسلام إلى نفوس الشعب كمعاملة السكان للتعرف على الخُلق الإسلامي لإقبال الناس على هذا الدين، حيث كان التجار المسلمون يشترن العبيد ويعتقونهم ليرفعوا من قيمتهم الشخصية ويدعونهم إلى الإسلام ، كما أنهم يتزوجون من سكان البلاد فتدخل الزوجة في دين زوجها بعد أن تتعرف على حقيقة الإسلام عن قرب ويتبعها بذلك أهلها وأقرباؤها (٣٩).

لقد سهل دخول الإسلام إلى تلك البلاد كون العرب قد دخلوها وهم يتاجرون فى الحرير الصينى من قبل عام ٦٠٠ ميلادية ، أى قبل الهجرة النبوية بحوالى ربع قرن من الزمان ، الأمر الذى سهل فكرة دخول الإسلام إلى تلك الجزر ، عبر طريق التجارة البحرى إلى "كانتون" ، ومن المقبول كذلك أن يسلك طريق القوافل البرية إليها عبر سهول آسيا وجبالها .

فهؤلاء التجار قد وفدوا من الجزيرة العربية ، ومن حضرموت وعدن ومن أبناء الجاليات العربية المنتشرة فى جزر الهند الشرقية ، أو من المنحدرين من أصل عربى ، جاء أباؤهم من حضرموت ، هاجروا أول ما هاجروا إلى جزيرة " سومطرة " و " جاوى " وأسسوا فيها جاليات تكاثرت وازدهرت وسيطرت على التجارة بين جزر الهند الشرقية وسواحل الهند ، وامتد نشاطهم وتشعب فى مختلف الميادين ومرافق الحياة ، وانتقلوا مع الوقت من " سومطرة" و "جاوى " إلى الجزر الأخرى وأنشئوا فيها المتاجر ومراكز المقايضة والمبادلة على منتجات البلاد، وكانت سفنهم تجوب البحار فى كل الجهات (٤٠).

ولما اتسعت الدولة الإسلامية ، وأذاع البيزنطيون عنها أنها دولة عسكرية ، وأنها سوف تسيطر على طرق التجارة العالمية ، أرسل الإمبراطور الصينى " كاوتونج " حوالى عام ٦٥٠ ميلادية الموافق عام ٣ هجرية بعثة إلى المدينة لمقابلة الخليفة عثمان بن عفان والتفاهم معه ، وقد رد عليه الخليفة عثمان بن عفان ببعثة أخرى أرسلها إلى بلاد الصين عام ٦٥١م – ٣١ هـ ثم تلتها بعثة أخرى عام ٧١٣م – ٩٥هـ ثم ثالثة عام ٧٢٦م – ١٠٨هـ(٤١).

كل ذلك يدل على اهتمام عصر الرسول – ﷺ – وعصر الخلفاء الراشدين بتوثيق العلاقات مع جزر الشرق الأقصى ، وبث الدعوة الإسلامية فى ربوعها بواسطة دعاة يسترخصون فى سبيلها كل غال ، من جهد أو مال أو حياة ، فإن أول من أوصل نور الإسلام إلى هناك كان من الدعاة المخلصين للدعوة ، ولم يكن تاجراً . وفى عصر الدولة الأموية اشتد اضطهاد رجال الحكم للعلويين ، فهاجر بعضهم إلى الصين واستوطنوها ومد لهم إمبراطورها يد المساعدة وكان ذلك عام ٧٥٠ ميلادية (٤٢).

ولا يستبعد أن يكون البعض منهم قد ألقى عصا الرحيل فى بعض موانى إندونيسيا فى شمال سومطرة ، حيث يحلو لهم المقام ، وحيث تدل على ذلك سلالاتهم التى ماتزال موجودة هناك حتى اليوم .

ويقول أحد علماء أرخبيل الملايو " عبد الملك كريم أمر الله " : إن دخول الإسلام فى تلك الجزر كان عن طريق رجال من دعاة العرب ، مرّوا بالهند ، وأنهم كانوا يستريحون فى موانى

الهند إبان القرن السابع الميلادى ، وأنهم يأخذون من موانى الهند مقراً للراحة ، كما أنهم يقومون بالزواج من بعض فتيات هذه المنطقة (٤٣).

أما من حيث الفتوحات الإسلامية فقد حارب الأمير " قتيبة بن مسلم " عام (٨٨هـ - ٧٠٦م) أهالى " الصغد " و " فرغانة " التابعين للصين ، ثم عاود محاربتهم فى جهات أخرى عام (٩٦هـ /٧١٤م) .

وفى حوالى عام (١٣٤هـ / ٧٥١م) قامت ثورة فى البلاد الصينية اندلع لهيبها فى كافة أنحاء البلاد ، ولما استفحل أمرها اضطر الإمبراطور " سوتسونج " إلى الاستنجاد بالخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، فأنفذ إليه الخليفة المنصور جيشًا قوامه خمسة آلاف مقاتل من رجاله الأشداء فأحبطوا الثورة وتمكنوا من إعادة الإمبراطور إلى العرش واسترداد عاصمته "سينجان فو " ، ويذكر المؤرخون أن الجنود المسلمين التابعين للخليفة المنصور لم يعودوا إلى بلادهم بعد انتهاء مهمتهم فى الصين بل طاب لهم العيش فى الصين(٤٤). فتزوجوا من النساء الصينيات وأقاموا فى داخل الصين أحياءً إسلامية وتناسلوا ، وكانوا يشترون العبيد أيام المجاعات ويدخلونهم فى الإسلام ، فزاد بذلك عدد المسلمين حتى وصلوا إلى نسبة لا بأس بها من مجموع السكان (٤٥).

وكذلك كانت الوفود تتردد بين الخليفة هارون الرشيد وبين إمبراطور الصين " سوتسونغ " حيث كانت تستقبل هنا وهناك بالحفاوة والترحيب ، مما كان عاملاً مساعدًا ومشجعًا على ازدهار التجارة العربية والدعوة الإسلامية فى ربوع الصين ، بل إن العرب قد تمكنوا من السيطرة على مدينة " كانتون " بأكملها ، ونشروا الإسلام فى الجهات التى حولها .

نخلص من ذلك أن الإسلام قد وصلت أنواره الأولى إلى جزر الشرق الأقصى قبل السنة السابعة من الهجرة النبوية ، يحملها الصحابى الداعية " رهاب بن رعشة " رضى الله عنه .

وأن القرن الأول الهجرى كان حافلاً بالصفحات الناصعة ، التى تسجل العلاقات الطيبة بين العالم الإسلامى فى الغرب ، وبين جزر الصين فى الشرق ، وأن الحكام المسلمين كانوا يدعمون عروش ملوك الصين ، وهؤلاء بدورهم كانوا يردّون هذا الصنيع إلى كل من يقيم لديهم من العرب والمسلمين فلا يقفون فى طريق دعوتهم ، وأن عدة آلاف من جنود العرب المسلمين استحبوا الصين واستوطنوا وتناسلوا فيها .

وكما اهتم المسلمون بجزر الصين اهتموا أيضًا بالهند فى فجر الإسلام ، وحرص الحكام على الدعوة للإسلام فيها ، وأقدم ما وصلنا من أنباء عن دخول الإسلام إلى أرض الهند عندما

بلغ " أن راجـا " أي ملك " مـالابار " عندمـا بلغـه خـبـر الإسـلام أرسل وفـداً إلى بلاد العـرب للتعرف علي الدعوة الجديدة والتقرير عنها ، فلما وصل الوفد إلى المدينة كان النبى ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى ، فقابل الوفد الخليفة أبا بكر الصديق وتبادل معه البحث ، حتى اقتنع الوفد بالإسلام فاعتنقه وعاد به إلى " مالابار " (٤٦).

ومعروف أن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة (٦٣٢م - ١١هـ) وقد تولى أبو بكر الصديق الخلافة من بعده ، وفى ذلك العام وصل الوفد الهندى ، وأسلم ثم عاد إلى قومه بالجنوب الغربي للهند .

ويذكر البلاذرى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولّى على " البحرين " و " عمان " عثمان بن أبى العاص سنة (١٥هـ) ، فوجه أخاه " الحكم " إلى " البحرين " ومضى إلى عمان وأقطع جيشاً إلى " تانة " فلما رجع الجيش كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه بذلك .

ولما ولى " عثمان بن عفان " رضى الله عنه وولىّ " عبد الله بن عامر بن كريز " العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر " الهند " من يعلمه علمه ، وينصرف إليه يخبره ، فوجه " حكيم بن جبلة العبدى " فلما رجع أوفده إلى عثمان بن عفان فسأله عن حال البلاد فأخبره ، فلما كانت سنة (٣٨هـ) وأول سنة (٣٩هـ) فى خلافة على بن أبى طالب كرّم الله وجهه توجه إلي ذلك الثغر " الحارث بن مرة العبدى " بإذن على رضى الله عنه ، فظفر وأصاب ، ثم غزا " المهلب ابن أبى صفرة " فى أيام معاوية سنة ٤٤هـ .

ولما ولى " الحجاج " محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل فى أيام الوليد بن عبد الملك ، غزا السند ، ودخل " البيرون " فصالح أهلها (٤٧).

وكان فتح محمد بن القاسم للسند سنة (٧١٢م/٩٤هـ) ومنذ ذلك التاريخ أصبحت ولاية إسلامية ، وصارت قاعدة لما وقع بعد ذلك من فتوح مباركة ، ففتحت " كوجارت " سنة ٧١٢م و " بروج " سنة ٧٢٤م (٤٨).

مما سبق نستنتج أن الهند درجت علي أديمها في سنة (١١هـ/٦٣٢م) وذلك بإسلام الوفد الملابارى عند الخليفة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وفى الصين كانت قبل ذلك ببضع سنوات على يد الصحابى الداعية " رهاب بن رعشة " سنة (٧هـ/٦٢٨م) .

وإذا كان دخول الإسلام إلى الصين قد بدأ مبكراً ، وكذلك كان حاله فى الهند ، وأن إندونيسيا آنذاك كانت تعتبر جزءاً من الجزر الهندية وبعض الرحالة كانوا يطلقون عليها جزائر الصين ، وآخرون يسمونها جزائر الهند (٤٩).

حيث تقع فى الوسط من طريق المواصلات البحرية بين الهند والصين ، وأن بعض موانيها كانت ملتقى للمسافرين من هنا ومن هناك من الشرق ومن الغرب حتى أطلق على أحد موانيها " ملقا " لأنها كانت محطة التقاء بين الغادين والرائحين .

أفليس من القبول عقلاً بعد ما بيّناه من حقائق أن يكون الإسلام قد دخل إندونيسيا كما دخل غيرها من بلاد الصين أو الهند ، وإن إهمال التاريخ لذكر أخبار الإسلام الأولى فيها بذاتها لم يكن له ما يبرره ، إلا لأنها كانت آنذاك جزراً تابعة للهند ، فالحديث عن الهند فى هذا الصدد يعتبر فى نفس الوقت حديثًا عن جزر أندونيسيا ، فمن هنا اندرجت أخبارها ضمن أبناء الهند أو أبناء الصين ، ويؤيد ذلك ، أن أول من زار إندونيسيا هو من تجار العرب المسلمين فى القرن السابع الميلادى / القرن الأول الهجرى ، حيث حطوا رحالهم فى "سومطرة" فى طريقهم إلى الهند (٥٠).

ويؤيد ذلك صاحب " حاضر العالم الإسلامى "(٥١) حيث قال : فى ابتداء القرن السابع الميلادى زادت التجارة مع الصين على طريق " سيلان " حتى إنه وجد تجار عديدون من العرب فى " كانتون " بالصين فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، لذلك يتقوى الاحتمال بأن العرب قد ذهبوا بتجارتهم إلى بعض الجزائر الهندية الشرقية فى ابتداء القرون الأولى من الهجرة ، كما فعلوا فى أماكن أقرب وأخرى أبعد منها ، بينما بعض هذه الجزائر مثل " سومطرة " واقعة بينهما ، وكما ذكر فى كتب التقويم الصينية أنه فى سنة (٦٧٤م / ٥٥هـ) كانت هناك جالية عربية فى الشاطىء الغربى من " سومطرة " .

وقيل جاء أول المسلمين إلى أندونيسيا فى بداية القرن السابع بينما جاء العرب إلى إندونيسيا قبل ذلك خلال القرن الأول ، وأقاموا أول مركز لهم فى شمال " سومطرة " وأعقب ذلك مباشرة قيام ممالك إسلامية فى " سامدرا " و " باساى " و " بيرلاك " وغيرها (٥٢).

وبناء عليه فإن الوجود الإسلامى ثبت فى " سومطرة " سنة ٥٥هـ ، وليس بعيداً أن يكون وجوده فى " سومطرة " فى وقت قريب جداً من الوقت الذى وصل فيه الصحابى الداعية "رهاب بن رعشة " فى طريقه إلى الصين لتبليغ الرسالة وإعلاء كلمة التوحيد فى بلاد كانت تعبد القوى الطبيعية وأصنامها .

وخلاصة الأمر أن الإسلام دخل هذه البلاد فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى على يد رجال من العرب المسلمين وكانت هجرتهم خالصة لوجه الله عز وجل واستخدموا فى دعوتهم القدوة الطيبة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة (٥٣).

انتشار الإسلام فى إندونيسيا :

دخل الإسلام إندونيسيا خلال القرن السابع والثامن والتاسع الميلادى ، وذلك عن طريق الجماعات التجارية ، والتى كانت تصاحب معها فيما بعد بعض الدعاة والعلماء ، وقد دخل الإسلام أولاً على يد رجال من العرب عن طريق الموانى التجارية فى الهند ثم كثرت رحلات الدعاة إلى هذه البلاد(٥٤).

فكان هناك دعاة من بلاد فارس والهند ومن الإندونيسيين أنفسهم واستمرت هذه الحالة هكذا طوال القرن السابع والثامن حتى التاسع الميلادى ، حتى جاء القرن العاشر الميلادى حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وازدهر الإسلام وانتشر فى جزر إندونيسيا (٥٥). فلعل هذه الجزر الإندونيسية أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار الإسلام بين الأمم التى كانت تدين بغيره قبل وصوله إليها ، ففى كل موضع فيها تصحيح لأوهام من يزعمون أنه دين ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشار الإسلام بغير عنف بل بغير اجتهاد فى الدعوة أكثر الأحيان (٥٦).

وقد بدأت سمات الجماعة الإسلامية تتضح كجاليات لها طقوسها الدينية وتقاليدها الإسلامية ورغم اختلاف الجنسيات التى كانت تكون هذه الجماعات ، فقد كانت تجمعها كلها كلمة واحدة هى الجماعة الإسلامية ، فقد ألف الإسلام بين العرب والفارسيين والملاويّين والإندونيسيين الذين رضوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً .

فقد انتشر الإسلام فيها عن طريق التجار العرب والإندونيسيين على السواء لاسيما فى عهد " هارون الرشيد " حيث كان التجار من الجانبين يلتقون فى موانى الخليج العربى لتبادل التجارة فحلّ الإسلام محل البوذية والوثنية (٥٧).

وتكاد تكون هناك منافسة كريمة بين الهنود والعرب ، وكل منهما صاحب الفضل فى نشر الإسلام فى جزر الملايو وإندونيسيا ، لأنها منافسة ترمى لنيل هدف سام ، بينما كان العرب أسبق فى القيام بنشر الإسلام لأنهم الذين تلقوا الإسلام قبل غيرهم وهم الذين حملوه إلى الشام ومصر والشمال الإفريقى والأندلس وفارس ثم إلى الهند وماوراء النهر وإلى الملايو وإندونيسيا وقد جاء الإسلام إلى إندونيسيا على المذهب الشافعى .

كذلك كان للحضارمة هجرات تاريخية إلى الملايو وإندونيسيا ، فقد رحلوا تجاراً وعلماء ، وكانوا يعرفونها قبل الإسلام ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فى كثير من البلدان والأمكنة

وأن يعاشروا السكان معاشرة أقرب إلى الامتزاج ، وكان لهم دور بارز في نشر الإسلام بإندونيسيا وبالجزر والبلاد المحيطة بها (٥٨).

وعاشت هذه الجماعة الإسلامية بحريتها في ظل ممالك هندوكية مثل " لغكاسوكا " و "جغكالا" و " داها " و " سغهاساري" وفي ظلال هذه الممالك غير المسلمة كان من السهل على المسلمين أن يتصلوا بالصين إما على سبيل النشاط الفردي أو كمبعوثين في سفارات رسمية من هذه الممالك ، كما يرجع تكاثر الجماعة الإسلامية في هذه القرون إلى عوامل ثلاثة : الأول: استقرار العرب والفرس الدعاة ، وتكوين أسر لهم من العائلات الأصلية لسكان هذه الجزر .

الثاني : دخول العبيد في الإسلام ليحصلوا على الحرية ولشعورهم بالوحدة والمساواة بينهم وبين الأسياد في المبادىء الإسلامية ، حيث لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

الثالث : دخول أفواج من أهل البلاد في الإسلام بسبب النشاط والمعاشرة الكريمة التي أبداها المسلمون في خلق كريم ومستوى رفيع من المعاملات والتوادد والوحدة الإسلامية ، وتقدير القيم وأدب التصرف وإعجاب السكان بهذه القيم وهم يتمثلونها عن رضى وإقناع مما جعلهم يقبلونها فوجدوا أنفسهم مسلمين .

وقد ساعدت هذه العوامل على انتشار الإسلام وتوسيع رقعة العقيدة الإسلامية حتى غدت ممالك " بوذا " والديانة الهندوكية في بلاد أرخبيل الملايو تضعف لفساد عقيدتها وفي مقدمة هذه الممالك " مملكة سرى وى جايا " بسومطرة الجنوبية ، فقد أخذت في الضعف والذبول خاصة بعد الحرب الطاحنة التي قامت بينها وبين مملكتي " مادا غكامولان " و " وتشولا ماندالا " ، وقد صادف هذا الضعف في هذه الممالك البوذية يقظة إسلامية في بلاد منبع الإسلام ، إذ نقلت قيادة الإسلام أو الدعوة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة في " عصر المماليك " (٥٩).

لقد أحس سكان البلاد أنهم يعيشون في كنف الإنسانية وبدءوا يحسون بآدميتهم ، حيث انتقلوا بفضل الإسلام من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الهمجية إلى الإنسانية ، ومن البدائية إلى الرقي والحضارة ، فقد قدم لهم الإسلام الحرية والمساواة والعدل والنظام والمحبة (٦٠).

وبانتقال القيادة إلى مصر تأثرت معنويات المسلمين في إندونيسيا فقامت في هذه الفترة أول مملكة إسلامية في " آتشه " بسومطرة الشمالية ، وبدأ الإسلام ينتشر بشكل واضح ،

وأصبح ديناً لبعض الدويلات فى شمال سومطرة فى أواخر القرن الثالث عشر ثم انتشر الإسلام من هذه المنطقة إلى " ملقا " على الساحل الغربى من الملايو بفضل المصاهرة بين سلطان " أتشه" وحاكم " ملقا " (٦١).

ثم تابع مملكة " أتشه " دولة " سامودرا فاساى " وقدم شريف مكة مساعدات إلى هذه المملكة الأخيرة كما قدم لها المسلمون من أصل عربى فى الهند جانباً من المساعدات .

استمر عمر مملكة " فاساى " إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وفى منتصف هذا القرن . قامت مملكة " ملاك " كاستمرار لهذه الدولة وتوسيع سلطانها .

ولقد صادف هذا الانتشار الإسلامى فى هذه الجزر ضعف دولة " بوذا " فى " جاوا " التى كانت تعرف بمملكة " ماجا فاهت " والتى كانت معقل عقيدة الهندوكية وذلك بسبب موت ملكها " فاهت كاجامادا " ، ولقد كان لاتساع رقعة مملكة " فاساى " أثر عظيم فى توطيد دعائم المبادىء الإسلامية فى هذه المنطقة وقوة المسلمين الذين انتشروا فى هذه الديار من تلك الجزر، وقد ساعد على ذلك السياسة الحكيمة التى اتبعها ملوك هذه الدول باتباع سياسة هادئة مع جيرانهم من ملوك الصين الذين اعترفوا لهم بسيادتهم الإسلامية ، فكان لذلك أثره الطيب إذ اتسع سلطان الإسلام وانتشر فى ربوع البلاد حتى وصل إلى جزيرة " مالوكو " فى الطرف الآخر لإندونيسيا من جهة الشرق فى اتجاه قارة استراليا وأحاط بجزيرة " كالمنتان " أكبر جزر إندونيسيا حالياً .

وفى أوائل القرن السادس عشر سقطت " ملاكا " على يد البرتغال وبسقوطها ضاعت إحدى دول الأمة الإسلامية فى أرخبيل الملايو ، وصاحب هذا السقوط إقامة ممالك أخرى فى "أتشه " و " درى " و " دماق " و " بانتام " فى " جاوا " ، وفى نفس الوقت قامت مملكة " جهور" التى تتصل أراضيها برقعة أرض " ملاكا " التى استعمرها البرتغال ، وقد اشتهر فى تلك الفترة عدة سلاطين اشتهروا بنشاطهم الإسلامى منهم :

سلطان " آتشه " السلطان على " المغبط " ، و " رادن " فاتح سومطرة الجنوبية " فالمباغ والسلطان " والى سونجو " فى جاوا ... إلخ .

وخلال القرن السابع عشر دبّ الصراع بين الاستعمار بعضه مع بعض من جانب ومع المسلمين من جانب آخر ، فقام صراع بين البرتغال والإسبان من جهة ، وصراع بين المسلمين

والإنجليز والهولنديين من جهة أخرى ، مما أعطى الفرصة لظهور قيادات إسلامية عليا فى هذا الصراع مثل : السلطان " تشن باياسا " فى " بانتام " ، و السلطان " ترونوجويو " في "مادورا" و السلطان " حسن الدين " فى " مكاسار " .

وكذلك ظهر كتبة من العلماء الأفذاذ منهم : الشيخ " نور الدين رانبرى " فى " آتشه " ، والشيخ " عبد الرؤوف سنغكيل " ، والشيخ " حمزة فانسورى " ، والشيخ " يوسف تاج الخلونى" فى " مكسار " .

وهكذا أظهر الجهاد الإسلامى ضد الاستعمار قدرات الأمة الإسلامية وإمكانياتها فى الحفاظ على وطنها ودينها ، وكانت هذه القدرات تتمثل فى النشاطين الحكومى بقيادة السلاطين ، والشعبى بقيادة العلماء .

وفى القرن الثامن والتاسع عشر كان الصراع العنيف من أجل الحصول على حياة مستقلة فى أرض الوطن وطرد الاستعمار بكل ألوانه وأنماطه وأبعاده خاصة الاستعمار الهولندى والإنجليزى ، وساعد على هذا النشاط حسن الاتصال بحكومة الحجاز ووفود جماعات من شباب العرب من حضرموت .

لقد كان هذا النشاط رصيداً فعالاً للحركة الإسلامية التى تصارع الاستعمار الذى لم يبق فى وجهه إلا نشاط الشعب بقيادة العلماء بعد أن اضمحلت سلطة الملوك والأمراء ، ولو أن بعضهم جاهد الاستعمار بصفة فردية مثل الأمراء من سلالة " بوكسيس " الذى استشهد فى الدفاع عن " ملاكا " ضد البرتغال ، ووليد أمام " بمونجل " و " ديفونكورو " و " بجاوا " ، والسيد " عمر جوهان " وقائد " فوليم " فى آتشه ، والسلطان " داود بدر الدين " فى " فالمباغ " ... إلخ .

ومن العلماء الذين ساهموا فى حركة الاستقلال : الشيخ " أرشد " فى " بانجار ماسين " ، والشيخ " نواوى " فى " بانتام " والشيخ عبد الصمد فى " فالمباغ " ، والسيد عثمان بن يحيى فى " جاكرتا " (٦٢).

فقد كان لانتشار الإسلام أثره العميق فى قيام ممالك إندونيسية متعددة فى تلك الجزر ، مثل مملكة " بنتام " التى أسسها الملك حسن الدين فى " جاوة الغربية " ، ومملكة " متارام " التى أقامها رجل عسكرى يدعى " سنافاتى " فى شرق " جاوة " ، وبذلك أصبحت جزيرة

"جاوة" مركز إشعاع للدين الإسلامى ، وانتقل منها إلى غيرها من الجزر ، ومملكة " آتشه " فى شمال " سومطرة " ومملكة " ديماك " فى وسط " جاوة " والتى أقامها رمضان فاطمى ٨٣٢هـ، ومملكة " بالبانغ " فى جنوبى " سومطرة " وبانتشار الممالك الإسلامية تم القضاء على إمبراطورية " ماجافاهيت " وانتهى حكم الهنود فى تاريخ إندونيسيا (٦٣).

الممالك الإسلامية فى إندونيسيا:

إن أكبر دليل على وجود صدى قوى للإسلام فى إندونيسيا هو إقامة ممالك إسلامية هناك، فكان بعضها واسع الأثر والمدى خطير الشأن ، وكان بعضها محلياً وفى مناطق صغيرة ، لقد بذلت هذه الممالك أقصى ما فى وسعها لصد أى عدوان عليها ، وأصبح الإسلام يمثل القومية والوطنية ضد الزحف العدوانى الذى جاء من أوروبا لينهب ويسلب وينشر المسيحية ، فقاومت إندونيسيا حروباً تعد جزءاً من الحروب الصليبية التى عرفها الشرق عدة مرات وفى عدة ميادين بسبب الزحف الغربى الغاشم .

لقد عملت هذه الممالك على حمل الإسلام للخارج ونشره فى جزر آسيا الجنوبية الشرقية ، وأتاحت الفرصة لتوسع إسلامى هائل جنوب شرق آسيا ، وكان لجهود هذه الممالك أثر كبير فى نشر الإسلام من جهة وإقلاق المستعمر من جهة أخرى ، فمن الممالك الإسلامية التى قامت فى إندونيسيا .

مملكة " فاساى " فى القرن الثالث عشر والرابع عشر : فعندما انتشر الإسلام فى الميناء البحرى " فاساى " أصبحت نقطة ارتكاز مهمة للإسلام فى الساحل الشمالى الشرقى "بسومطرة " ، وربما كانت أقدم نقطة ارتكاز إسلامى فى إندونيسيا (٦٤).

وقد اهتم شريف مكة بوجود المسلمين فى هذه المنطقة " بساحل سومطرة " فأرسل عالمًا جليلاً يسمى " الشيخ إسماعيل " ليرشدهم إلى طريق الله السوى ، حيث زرع هذا الشيخ مفاهيم التصوف الإسلامى ، واشتهر هذا الشيخ بمذهبه وسلوكه وأخلاقه الرفيعة ، واستقر له المقام وبسط تعاليم الدين وفتح الله قلب السلطان على يديه فدخل فى الإسلام راضياً مرضياً، ثم غير هذا السلطان اسمه ولقبه من السلطان " ميره سيلو " إلى الملك الصالح .

قامت فى " فاساى " أول دولة إسلامية وقد تم العثور على حجر فى هذه المنطقة ، وُجدت عليه كتابة بالخط العربى الرقعة مما يفيد أن هذا الحجر كان يحمل اسم أول ملك لهذه الدولة

وتاريخ حكمه ، وكان المكتوب عليه اسم الملك الصالح الأول عام (٦٩٢هـ الموافق ١٢٩٧م) ، وقد رزق هذا الملك بولدين الأول الملك الظاهر والثاني الملك المنصور ، وكان الملك الظاهر على شغف بنشر الإسلام مثل أبيه في البلاد المجاورة لملكته ، وكان حريصًا على نشر الإسلام في ربوع الممالك المجاورة له ، وقد وصفه ابن بطوطة بأنه ملك عظيم المعرفة والبيان وقوة النشاط الإسلامي ، وكانت الدولة في عهده على قدر عظيم من الحياة الاقتصادية المنتعشة بما كان لها من تجارة مع دول المنطقة وخاصة بلاد الصين ، وسارت مملكة " فاساي " مركزًا للدعوة الإسلامية بالإضافة إلى كونها مركزًا تجاريًا ، واشتهرت بأنها المركز الأصيل لنشر الإسلام إلى درجة أنه إذا وجدت مشكلة في المسائل الفقهية في بلد إسلامي مجاور مثل " ملاكا " أو غيرها توجهوا إلى علماء " فاساي " للتعرف على مأربهم الفقهي (٦٥).

وأما الملك المنصور بن الملك الصالح فقد تولى العرش في سنة ١٢٩٧م . ومن هذه المملكة انتشر الإسلام في سومطرة وغيرها(٦٦).

ثم تولى حكم هذه المملكة السلطان زين العابدين ١٣٥٠م بعد أبيه الملك الظاهر ولم تسعفه سنه لأنه كان حدثًا فتولى إدارة أمور الدولة مجلس وصاية من كبار رجالها ، ولم تدم طويلاً حتى صارت هذه المملكة الإسلامية مستعمرة تحت سلطان ملك بوذي في " سيام " ، ولكن الله عوّض أهل هذه البلاد عن مملكة " فاساي " بمملكة " ملقا " الإسلامية في الشاطيء المقابل للدولة القديمة (٦٧).

مملكة " ملقا " وكانت في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وهي مدينة ساحلية وميناء تجاري هام ازدهرت يومًا بعد يوم حتى صارت أهم مركز تجاري في المنطقة ، وكان أميرها هندوسي اسمه " باراميسور " خلفه ابنه " اسكندر شاه " ، وقد أراد هذا الأمير الجديد أن يتزوج رجلاً غير مسلم انطلاقًا من تعاليم الإسلام وشريعته ، فاتجه هذا الأمير "اسكندرشاه " للتعرف على الإسلام ودراسته حتى اعتنقه وأعلن إسلامه وأصبح شديد العناية به ، ودعا رعاياه لاعتناق الإسلام فاستجابوا له ، ومنذ ذلك الحين أصبحت دولة " ملقا " مركزًا للدعوة الإسلامية بجانب كونها مركزًا تجاريًا حافلاً ، وبسبب نشاط الدعوة الإسلامية ، والنشاط التجاري في " ملقا " توسعت رقعتها وضمت ولايات أخرى كثيرة تحيط بها في شبه جزيرة الملايو ، ومن هذه الولايات " كده " و " ترينجايو " و " باهانج " و " جامبيسى " و "بنتانج " وغيرها ، وبذلك أصبحت " ملقا " إمبراطورية واسعة الأرجاء تضم شبه جزيرة الملايو

كلها ، كما تضم جزءًا كبيرًا من " سومطرة " ثم تتابع عليها الملوك المسلمون (٦٨). كالسلطان محمد شاه الذى منذ أن أسلم تأسست الدولة الملقية الإسلامية فى سنة ١٤٠٩م ، وفى عهده كثر مجىء التجار المسلمين من الهنود والفرس والعرب إلى " ملقا " ولم يعش طويلاً حتى مات فى سنة ١٤١١م .

والسلطان المظفر شاه الأول ، كان عادلاً ، حيث أنشأ دستورًا فى البلاد ، وقانونًا لتوحيد العادات والتقاليد ونظام الحكم ، وفى عهده قوى نفوذ الدولة الإسلامية " بملقا " ، فباعتلاء مظفر شاه العرش زصبحت مملكة " ملقا " رأس حربة لتقدم الإسلام وراءها تقدمًا أمكن الوصول إليه بالمقدرة التجارية المتزايدة ، ووطدت " ملقا " اتجاهاتها الإسلامية بالمصاهرات الملكية الحميمة (٦٩).

والسلطان منصور شاه ، اتسعت فى عهده حدود الدولة الإسلامية وزادت الروابط بينه وبين إمبراطور " ماجاهيت " " مما أدى إلى تنازل إمبراطور " ماجاهيت " عن عدة ولايات للسلطان منصور شاه ، وفى عهده قويت الروابط بينه وبين إمبراطور الصين أيضًا ، وازداد انتشار الإسلام فى البلاد التى وقعت تحت نفوذه ، وكان شغوفًا بتعلم أصول الدين والتشريع الإسلامى.

والسلطان على الدين رعيت شاه فى ١٤٧٧م ، حيث نفذ هذا السلطان القانون الخاص بقتل قاطع الطريق مصداقًا لقول الله عز وجل : " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يُقتَّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم" «المائدة – آية (٣٣) » وأصدر أمرًا بحفظ ما يُعثر عليه من الأشياء المسروقة والمفقودة إلى حين ظهور أصحابها ، وساد فى عهده الأمن ، كما حرّم قتل الحكام للجانى إلا بعد إصدار حكم منه بالقتل ، حتى تسود العدالة جميع الرعية ، وبعدله وحُسن تدبيره فى تسيير أمور الحكم اشتهر اسمه فى العالم الإندونيسى وعظم شأن مملكة " ملقا " .

والسلطان محمود شاه الأول ، وهو آخر سلاطين مملكة " ملقا " الإسلامية حيث سقطت "ملقا " واستولى عليها البرتغاليون فى سنة ١٥١١ميلادية بعد معارك دموية (٧٠).

كانت مملكة " ملقا " كغيرها من الممالك الإسلامية ، فبمكانتها الدعوية والتجارية حملت الإسلام للخارج ونشرته فى جزر آسيا الجنوبية الشرقية ، ولم تأت نهاية القرن الرابع عشر

الميلادى حتى كانت مملكة " ملقا " قوية شامخة على شاطىء المضيق المسمى باسمها ، وكانت مؤمنة بالعقيدة الإسلامية كل الإيمان ، وانتشرت هذه العقيدة بسرعة مدهشة إلى كثير من الجزر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ومنذ ذلك الوقت صار الإسلام دين الغالبية العظمى لأهل تلك الجزر (٧١). وقد استمر هذا الحال حتى غزا البرتغاليون " ملقا " وبدأت المعارك بسقوط دولة " ملقا " الإسلامية وسيطرت البرتغال فى ١٥١١م (٧٢).

مملكة " آتشه " وكانت فى ١٥١٤ - ١٩٠٤ ، وتقع هذه المملكة فى شمال سومطرة ، وقد ظهر الإسلام وانتشر بها ومنها منذ عدة قرون قبل بدايتها سنة ١٥١٤م ، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة ، وأعجب بها وبالنشاط الإسلامى فيها ، وأثنى على ما لقى من ترحيب من علماء هذه المنطقة وسلاطينها ، فقال عن سلطانها : " إنه من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعى المذهب ، محب للفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ، ومتواضع ، يأتى إلى صلاة الجمعة وهو ماش على قدميه ، وأهل بلاده شافعية محبون للجهاد يخرجون معه تطوعًا ، وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح (٧٣).

لقد نشأت هذه الدولة عقب سقوط مملكة " ملقا " وجاء تطورها سريعًا عقب نشأتها واتجه اهتمامها إلى جانبين مهمين هما نشر الإسلام ومصارعة الغرب المحتل . وأول سلطان على هذه المملكة هو السلطان " على الدين راعيت شاه الثانى " الذى نذر نفسه للإسلام ومجد الإسلام . وقد تولى من ذرية هذا السلطان مجموعة من السلاطين المسلمين هم : السلطان مظفر شاه الثانى ، والسلطان عبد الجليل الأول ، والسلطان عبد الجليل الثانى ، والسلطان على الدين رعيت الثالث ، وغيرهم من السلاطين المسلمين .

لقد عاشت مملكة " آتشة " أزهى عصورها فى ظل الإسلام ، وأنجبت مجموعة هائلة من العلماء المسلمين استطاعوا أن يقوموا بدور كبير فى شرح الإسلام وتقديمه لسكان المنطقة حتى عانى الغرب أشد المعاناة فى مواجهة " آتشة " مواجهة عسكرية حتى لجأ هؤلاء الغربيون إلى وسائل أخرى لنشر الفتن والدسائس التى تثير بعض الجماعات على الأخرى ، وبذلك فقط استطاعت قوى الشر أن تنتصر على " آتشة " بعد صراع استمر إحدى وثلاثين عامًا من سنة (١٨٧٣ - ١٩٠٤م) (٧٤).

مملكة " ديماك " وهى بمنطقة " جاوة " وكانت فى سنة ١٥١٢ - ١٥٥٢م . فهى من الممالك الإسلامية التى قامت على أنقاض إمبراطورية " ماجاهيت " وقدر لهذه المملكة أن تقود غزوة

ضد بقايا تلك الإمبراطورية ، وأن تحيلها قبيل نهاية القرن الخامس عشر إلى ولاية صغيرة تابعة لجاوة الشرقية وعقب ذلك أسقط البرتغاليون دولة " ملقا " في سنة ١٥١١ميلادية ، وأحست " ديماك " بمسئوليتها تجاه الصراع ضد أعداء الدين والوطن فتعاونت " ديماك " مع الدولة الإسلامية الناشئة آنذاك في رد الغزاة ، ثم حاولت تعويض البرتغاليين عن نشر سلطانهم بإندونيسيا ، وأنشأت صلات قوية مع " آتشة " و " بالمنبج " و " جوهود " و " سولاويسي " : وذلك للوقوف في وجه الاستعمار الغربي ، ولمقاطعة البرتغاليين تجاريًا ، ولمصارعتهم عسكريًا فقد قدمت " ديماك " جهودًا كبيرة لنشر الإسلام بجزر إندونيسيا باعتبار الإسلام قوة تتجمع حولها البطولات للوقوف في وجه الاستعمار (٧٥).

اختار العلماء هذه المنطقة بالذات لأنها مفرق الطرق في جزيرة " جاوة " ولها أهمية استراتيجية في نشر الدعوة الإسلامية ؛ لكونها ملتقى لعديد من الولايات ولبعدها عن مركز الهندوكية في " ماجافاهيت " وشهرتها بين الرحالة أنها مدينة العلم والعرفان ، وأنها المركز الأكبر لنشر الإسلام وقد اعتبر أهلها أن كل هذا المجهود لا يتم إلا بإقامة دولة إسلامية فيها ، وكان رئيس هذه الدولة " رادن فتح الله " الذي أقام فيها أكبر المساجد ليكون المنارة العليا(٧٦).

لقد كان ملوكها من خيرة الأبطال والمجاهدين ، أولهم " رادين فتاح " الذي استقلت الدولة في عهده ، وجاء بعده ابنه " باتي يونس " فتمكن من توسيع مملكته ، ثم جاء بعده في ١٥٢١م " رادين ترينجانو " واستمر حكمه من ١٥٢١م إلى ١٥٤٦م ، وكانت ثمرة عمله الخالدة دخول "جاوة الغربية " الإسلام (٧٧).

مملكة بنتان " جاوة الغربية " وكانت في ١٥٥٢م حتى ١٦٨٤م ، حيث استقلت هذه المملكة عن مملكة " ديماك " وازدهرت خلال حكم السلطان حسن الدين أول ملك لها (١٥٥٢ – ١٥٧٠م) حتى زاد انتشار الإسلام في جاوة ، وتزوج هذا الملك من ابنة ملك " اندرابورا " بسومطرة ، فقويت الصلة بين " جاوة " و " سومطرة " في مواجهة الغزو الغربي .

كما اهتم هذا الملك بجذب التجار المسلمين إلى مملكته مما جعلها بديلاً لمدينة ملقا التجارية، وقد اختير الأمير يوسف أحد أبناء السلطان حسن الدين ليكون خلفًا لوالده الذي ترك من خلفه حضارة ورخاء وازدهارًا نتيجة لسياسته الاقتصادية التي استغل فيها مهارة البرتغال والفرس والعرب والهند جميعًا .

كما وصل الملك " أجونج كرتاياسا " بمملكة " بنتان " إلى غاية المجد حتى استطاع الهولنديون تركيز جهودهم الحربية ضد " بنتان " ولم يستطع العدو هزيمة ملك " بنتان " في ميدان الحرب ، فأعملوا الحيلة لهزيمته داخلياً عن طريق الفتن والوقيعة بينه وبين ابنه فقامت حروب داخلية انتهزتها هولندا لتساعد الابن ضد أبيه حتى جاءت نهاية " بنتان " فى سنة ١٦٨٤م (٧٨).

مملكة متارم وكانت فى ١٥٨٣ - ١٦٤٥م ، ظلت هذه المملكة على الوثنية حتى ١٥٨٣م حتى تولى أمرها رجل مسلم هو " سنوفاتى " واتجه هذا القائد إلى نشر الإسلام فى " جاوة " كلها ، كما اتجه إلى أن يكون منها مملكة واحدة فأرسل الدعاة إلى المناطق المختلفة ، وأرسل الجيوش التى تقاوم اتجاه الوحدة التى كان يرمى إليها ، ومن أجل الحروب الكثيرة التى خاضها هذا القائد ، الذى عُرف عصره بعضر الحروب والمعارك ، حتى جاء حفيده " سلطان أجونج " أى السلطان العظيم الذى حارب كل الذين وقفوا فى طريقه وفى سبيل نشر الإسلام، حتى كثرت البلاد والتابعة له ، ونشر الثقافة الإسلامية فى " جاوة " الوسطى ، واهتم بتنقية الفكر الإسلامى من العناصر الهندوكية واستعمل التاريخ الهجرى واعتنى بالآداب عناية كبيرة، ثم عاجلته المنية فدخلت هولندا فى صراع الأمراء مع بعضهم البعض وهى تدعم هذا الجانب على ذاك حتى ضعفت القوى وتمكنت هولندا فى النهاية من النصر (٧٩).

ومهما يكن من أمر ، فإن الهولنديين قد جاءوا إلى إندونيسيا مستعمرين ولكن استعمارهم كان ذا صفة تجارية بالدرجة الأولى ، وسارت هولندا على سياسة عقد المعاهدات بين الملوك والسلاطين من حين لآخر توطيداً لنفوذها وسيطرتها على هذه الجزر .

ولم ترع هولندا أى تحالف أو عهود بينها وبين الإندونيسيين ، فما أن خلت الساحة من البرتغاليين حتى ظهر طمعهم ونهبهم لخيرات البلاد حاقدين على الإسلام وأهله ، وأحدثت الوقيعة بين الممالك الإسلامية (٨٠).

مملكة " غووا " وكانت فى سنة ١٦٦٧م وقد قامت هذه المملكة فى جزيرة " سلاويسى " وأسهمت بنصيب كبير فى الصراع ضد الزحف الأوروبى وعقب سقوط " ملقا " أصبحت "غووا" ميناءً هاماً للتجار المسلمين ، فانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً فى جزيرة " سلاويسى " وبدأت هذه الجزيرة تتخذ نصيبها فى الصراع ضد هولندا ، ودارت حروب ومنازعات وكان يقود الجيش السلطان حسن الدين الذى حقق انتصارات كبيرة وضم إلى مملكته جزر الملوك وغيرها من الجزر .

ظلت هذه المملكة المسلمة نابضة بالحياة على الرغم من الاستعمار حتى القرن التاسع عشر(٨١) .

شهد الإسلام فى ظل تلك الممالك الإسلامية نهضة علمية اشتد من خلالها ساعد الدعوة الإسلامية وقويت المبادىء الإسلامية وكان هدفها إبعاد الناس عن التقاليد الهندوسية ، وكان لمكة وبعض الدول الإسلامية تأثير روحى على الناس فى إندونيسيا لتطبيق شريعة الله ، وكانت قوة الإسلام دافعًا للشعب الإندونيسى لمقاومة كل مستعمر أو غاصب وخاصة المستعمر الهولندى الذى حرص على عدم تعليم الإندونيسى مما دفع المسلمين إلى إنشاء مراكز للعلم ونشر الإسلام حيث أصبح التعليم مجالاً خصبًا لعلماء الدين المسلمين ، وكانت المساجد هى المراكز الطبيعية التى يشع منها ضياء العلوم الإسلامية ويؤثر فى الشعب الإندونيسى (٨٢).

صدى حضارة الإسلام فى الحياة السياسية فى إندونيسيا :

حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسيم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق ، فقيام أى جماعة متحضرة لا يتصور إلا فى ظل نظام قانونى أو دستورى ، فما بالنا لو كان هذا النظام هو الشريعة الإسلامية التى نصب دستورها الخالق سبحانه وتعالى ، فالدين الإسلامى على عكس الأديان الأخرى عقيدة ونظامًا ، حيث يجمع بين الدين والقانون ، فالتشريع الإسلامى سرعان ما أصبح أساس القانون فى إندونيسيا كغيرها من البلاد الإسلامية ، حيث اعتنق أهلها الإسلام وحل القانون السماوى مكان القانون الوضعى .

أخذ الإسلام مكان العادات والأعراف السائدة التى كانت تنظم المجتمعات بجانب القوانين، ولقد كان أثر التشريع الإسلامى أكثر فاعلية مما قامت به القوانين السابقة ، ذلك لأن من أسلم كان لابد له من أن يلم بالتشريع الإسلامى .

ولقد أصبح انتشار الإسلام بجزر إندونيسيا معناه انتشار القانون السماوى والنظام الإسلامى ، حيث تكونت الممالك الإسلامية فكان بعضها ذا شأن عظيم ، وكان البعض الآخر محليًا وفى مناطق صغيرة ، فبذلت هذه الممالك الإسلامية أقصى ما فى وسعها لنشر الإسلام حتى أصبح يمثل القومية والوطنية ضد أى عدوان (٨٣).

فالأثر السياسى لانتشار الإسلام بإندونيسيا ظهرت ثمرته فى قيام ممالك إسلامية إندونيسية متعددة خاصة فى جزيرة " جاوة " وجزيرة " سومطرة " كما سبق أن بينا ،

وبانتشار هذه الممالك الإسلامية ثم القضاء على إمبراطور " ماجاناهيت " وانتهى حكم الهنود فى تاريخ إندونيسيا وثبت المسلمون أقدامهم (٨٤).

وهناك ما يدل على أن الإسلام صار دين الدولة فى دولة " ترنجانو " على الساحل الشرقى من الملايو قبل ذلك ، كما يبدو من تاريخ الحجر الأثرى الذى عثر عليه هناك ، محفور عليه قوانين رسمية أعلنها الحاكم المسلم ، حرم فيها المحرمات الإسلامية ، ويرجع تاريخ الكتابة إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

لقد شكلت القيم الإسلامية الجوهر الأساسى فى نظام سياسة إندونيسيا وحضارتها بحيث اعتبرت قطاعًا إسلاميًا ، غرس الإسلام أثره الكبير على الصعيد السياسي بإندونيسيا ويبدو ذلك جليًا فى المصطلحات المستعملة لتقديم الأفكار السياسية كالأفكار عن السلطة والملك والصلة بين الملك والشعب وما إلى ذلك من الآراء السياسية فى الحقل السياسى ، ففى هذا الحقل جعل الشعب الإندونيسى الإسلام أساسًا فى تشكيل سلوك سياسة رجال الملكية وباعتبار أن الإسلام أساس للسلوك السياسى يبدو جليًا فى قضايا السياسة الرئيسية وغيرها من الأفكار الهامة التى تبرز فى الأفق السياسى بإندونيسيا ، وبموجب ذلك تقدم أفق إندونيسيا السياسى بعد فكرة الشورى كنظام فى سلوك سياسة ملوك إندونيسيا ، واستمدت هذه الفكرة من تاريخ الإسلام السياسى ، فلعب الإسلام دوره الهام فى تشكيل الملكية وتأسيس نظام الحضارة (٨٥).

أصبحت كل مملكة من الممالك الإسلامية يحكمها أمير أو سلطان شديد العناية بالإسلام ، ويدعو رعاياه لاعتناق الإسلام ، مثل سلطان " ملقا " السلطان إسكندر شاه ، حتى جعل من مملكة " ملقا " مركزًا للدعوة الإسلامية بجانب كونها مركزًا تجاريًا (٨٦).

فقد أثر الإسلام على السلطان ووجهه إلى مهمته الأساسية وهى النظر فى أمور الدين فى ولايته ولاسيما الصلاة والإدارة والسياسة والحكم والدفاع ، وإعداد الجيش وقيادته والحكم والقضاء وتدبير الأموال ، فهى رئاسة عملية ، وحراسة للدين وسياسة للدنيا (٨٧). أو بمعنى آخر رعاية الدين والاشتغال بالسياسة وفن الحكم (٨٨).

اهتم سلاطين الممالك الإسلامية فى إندونيسيا بتنظيم البلاط السلطانى وإعداد المراسم الخاصة بالحياة الملكية ، واقتبس السلطان " محمد شاه " سلطان " ملقا " ما كان شائعًا آنذاك فى البلاد الإسلامية من ألقاب ونظم ، وكان قصر السلطان يتوسط دائرة العاصمة

ويحيط به من قصور كبار الحاشية والحرس ، ومع أنه لم يكن للسلطان مجلس شورى ، فقد كان له موظفون كبار يستشيرهم في مشكلات المجتمع (٨٩).

فتغير الأسماء والألقاب عند ملوك وسلاطين هذه الممالك أمر واضح ، فقد غير السلطان "ميره سيلو" سلطان مملكة "فاساى" بعد دخوله الإسلام – لقبه واسمه إلى اسم ولقب إسلامي وهو : "الملك الصالح" وجاء من بعده ولده الملك الظاهر ، واسمه الملك محمد ، وابنه الثاني الملك المنصور (٩٠). وكذلك سلاطين مملكة "آتشة" حيث اتخذوا لقب سلطان ولقب شاه، وذلك تأثرًا بالحكام المسلمين ، مما جعل الإندونيسيين يتخلون عن الألقاب التي كانت تستعمل قبل وصول الإسلام إليهم ، حيث كانت هذه الألقاب تضع الملك في مكان الإلهي ، وتراه ظل الله على الأرض وهو ما يعارضه التفكير الإسلامي ، مما يدل على أن للإسلام أثر واضح على بعض الجوانب السياسية في ممالك إندونيسيا ، وليس في مثل ذلك فحسب ، بل أتاح انتشار الإسلام في جزيرة "ملقا" فرصة توسع إسلامي هائل في جنوب شرقي آسيا ، كما أتاح فرصة لاقتباس كثير من التشريعات الإسلامية التي سرعان ما كونت القانون الرئيسي لمملكة "ملقا" في جميع الاتجاهات القانونية (٩١).

وقد قام السلطان حسين الذي لقب بالسلطان "على الدين رعيت شاه" الأول بتنفيذ حد الله بقتل قاطع الطريق تنفيذًا لقول ربنا عز وجل { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا ... } (٩٢).

كما بنى هذا السلطان في مفارق الطرق دورًا تحت حراسة عمد البلاد وأصدر أمرًا بحفظ ما يُعثر عليه من الأشياء المسروقة والمفقودة في هذه الدور إلى حين ظهور أصحابها ، وبذلك ساد الأمن في ربوع البلاد ، كما حرم قتل الحكام الجاني إلا بعد صدور حكم منه بالقتل حتى تسود العدالة جميع الرعية . كل ذلك انطلاقًا من تأثير الإسلام وصداه على هؤلاء تأثيرًا مباشرًا حكامًا ومحكومين .

لقد مارس السلطان الإدارة والسياسة والحكم وإنشاء القوانين والدستور الذي تتفق والشريعة الإسلامية التي يدين بها ، فقد أنشأ السلطان المظفر شاه الأول سلطان "ملقا" دستورًا في البلاد ، وقانونًا لتوحيد العادات والتقاليد ونظام الحكم (٩٣).

وفي وقت من الأوقات تولى الحكم والزعامة في بعض الجزر والممالك بإندونيسيا أسر عربية جاء أفرادها من جزيرة العرب أو ولدوا في الهند من أمهات وآباء من العرب (٩٤).

تولت الدولة تدبير شئون الدين ، والغيرة على محافظة الأفراد على شعائر دينهم ، وقد تفرض الإدارة الخاصة بالشئون الدينية عقوبات على من يقصر فى أداء الشعائر كالصلاة أو الصيام ، فنجد فى كل سلطنة أو مملكة إدارة حكومية خاصة للشئون الدينية لها قانونها ومجلسها الذى يفصل فى شئونها ولها مُفْتٍ خاص يصدر قراراته فيما يحول عليه من مسائل وفتاوى ، سواء من الحكومة أو الأفراد . والسلطان فى سلطنته رئيس الشئون الدينية بمقتضى الدستور ، ويدعى باسمه على المنابر فى خطبة الجمعة (٩٥).

وكان لتأثير الإسلام على نظام الحكم صدى واضح ، فقد قام سلطان مملكة " ديماق " واسمه " الشريف فتح الله " بتكوين ما يشبه مجلس الشورى من جماعة من الأولياء يستشيرهم فى أمور الدولة وسياستها ، فعرض على هذه المجموعة ذات مرة يستشيرهم فى الأسلوب السياسى الذى يتبعه فكان الرد عليه أن يتخذ أسلوبًا دبلوماسيًا ، وألا يجنح إلى القوة والقهر – وكان من بين هؤلاء الأولياء من هو دائم النصح له ، والتوجيه – وأن يتذرع بالصبر والهدوء والأناة ، فإن السلاح الروحى أقوى من سلاح الجيش ، والدعوة بالحسنى مقدمة على رفع السيوف مادام هناك سبيل معبد لأداء كلمة الحق وتوصيلها إلى أسماع البشر(٩٦).

إن السياسة التى سلكتها الإدارة السياسية للبلاد الإندونيسية لتبرز صدى الإسلام على أهل تلك البلاد ، كالمحافظة على حسن الجوار والعلاقات المتبادلة بين البلاد المنبثقة من روح الإسلام بأن المسلمين كالجسد الواحد فى التواد والتراحم ، وكأنهم بنيان مرصوص ، حيث شدد الإسلام فى توصيته على علاقة الجوار سواء على مستوى الأفراد أو البلاد ، فقد ظهرت ثمرت الإسلام فى مثل هذه السياسات كما حدث فى مملكة " ملقا " وعلاقاتها مع الممالك الأخرى ، فقد رسمت سياستها على احترام الجيران ورعاية حسن الجوار مهما كان المأزق السياسى عصيبًا ، وقد أثرت مثل هذه العلاقات فى إقامة علاقات دبلوماسية بين الصين والممالك الإندونيسية خاصة مملكة " ملقا " فقد عين القيصر الصينى أحد القادة العسكريين البحريين سفيرًا متجولاً فى منطقة إندونيسيا وكان هذا القائد يسمى " سامغو " ، وقد قام هذا السفير المسلم بمهمته خير قيام فطاف بسبع عشرة دولة بأسطوله البحرى ، وبسبب هذه السياسة الخارجية الحكيمة التى قامت على أساس من الاحترام المتبادل بين الدول المجاورة أصبحت مملكة " ملقا " مركزًا تجاريًا هامًا بين أقطار العالم ، وكانت ملتقى السفن القادمة من بلاد العرب والهند وفارس والصين فازدهرت الحياة فيها ورسخت دعائم المجتمع .

لقد كان هذا الأسلوب بمثابة منهج فى الدعوة الإسلامية حيث حرص سلاطين وملوك وأمراء إندونيسيا على تحسين العلاقات بينها وبين الدول المجاورة ، مما أدى إلى بسط هؤلاء السلاطين والملوك سيطرتهم على رقعة واسعة من الدول فى جو من الأمان والعلاقات الحسنة الطيبة ، مما ساعد على نشر الإسلام ، وكانت مثل هذه النظرة بعيدة المدى ، تدل عل سياسة بارعة وناجحة وهمة عالية وإرادة قوية ، كما فعل السلطان أبو بكر سلطان مملكة " جوهور " فرفع من شأن بلاده ووضعها فى مصاف البلاد الراقية وكان أهم عمل قام به هو تحسين علاقته بالدول المجاورة ، وربط بلاده بجميع الدول برباط متين من الصداقة والمحبة .

كما سمح السلطان المسلم لكل مسلم ليس من أهل بلاده أن يمنح أوسمة الدولة وألقابها إذا حسن إسلامه وتأقلم مع العادات الإسلامية ، كما جعل له الحق فى الوظائف العليا مثل رئاسة الجيش والوزارة .

واهتم السلطان بنفسه بشئون الأمن فأصدر عدة أحكام منها قطع يد السارق ، ونظام الحراسة الليلية ، وكان السلطان يعس بالليل مثلما كان يفعل الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد قام بهذا على سبيل المثال السلطان علاء الدين رعايات سلطان مملكة " ملقا " وكان يتعرف على أحوال المملكة بالليل ثم يصبح فيسأل الحكام وتدور بينهم مساجلات مخجلة لهم حتى عُرف عنه أنه يتفقد أمن الدولة بنفسه ليلاً بمساعدة خدمه الخاص .

لقد كان لاهتمام سلاطين وأمراء إندونيسيا أثر عظيم فى توطيد دعائم المبادىء الإسلامية كما حدث فى مملكة " فاساى " وقد ساعد على ذلك السياسة الحكيمة التى اتبعها سلطان مملكة " فاساى " – على سبيل المثال – باتباع سياسة هادئة مع جيرانهم من ملوك الصين الذين اعترفوا لهم بسيادتهم الإسلامية (٩٧).

وإن أعظم أثر أحدثه الإسلام وجدير بأن نتحدث عنه هو توحيد أجزاء الأمة فقد أعطاها قوة جعلها تقف فى وجه الغرباء والمستعمرين . وبسبب وحدة العقيدة وأثر الإسلام الواضح جاءت تشكيلاتهم السياسية أقوى من غيرها (٩٨).

وكما كان لكل مملكة سلطان يدير شئون البلاد السياسية سواء الداخلية والخارجية ، فقد أنشأ السلطان منصب الوزير ورئيس الوزراء لكى يستعين بهما فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها .

فقد عرفت مملكة " ملقا " بإندونيسيا رئيس وزراء حازقًا قويًا هو " توف بيراق " وكان هذا الرجل شديد الفطنة ، وظل رئيسًا للوزراء تحت حكم أربعة سلاطين ، ونالت " ملقا " خلال هذه المدة نهضة علمية ، واتسعت الدولة فى عهده ، وبعد وفاته تولى شقيقه " تون بوتيه " رئاسة الوزراء ، فواصل نظام أخيه ، حتى استمرت الدولة فى الاتساع والنفوذ (٩٩).

وكما يوجد وزراء ورئيس وزراء للدولة كذلك يوجد الأمراء والكتاب وقائد جيوش وفقهاء وندماء وحكماء وشعراء .

يروى لنا ابن بطوطة موقفًا عن سلطان " جاوة " يضم كل هذه المناصب فيقول : متحدثًا عن مركب السلطان من المسجد إلى داره : ولما خرج السلطان من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه وأهل العلم عن يمينه ، فركب فى ذلك اليوم الفيل وركبنا الخيل وسرنا معًا ، فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكبًا وقد اصطف الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفًا ، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ، ووزراؤه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقعهم ، وكذلك تفعل كل طائفة ، ثم صُف الشرفاء والفقهاء ، ثم صُف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صُف العسكر ثم صُف الفتيان والمماليك (١٠٠).

كان التنظيم السياسى فى الممالك الإندونيسية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنظم الحربية ، وذلك لأن هذه الممالك كانت محاطة بأعدائها من كل جهة ، حيث جعل الإسلام الجهاد ركنًا من أركان الدين وفُرض على المسلمين للدفاع عن أرض الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد ومحاربة المعتدين ، وقد تأثر الإندونيسيون بالنظام الحربى فى الإسلام فاعتمدوا على جيوش تحميهم من الأعداء وتدافع عن الدين والعرض والوطن ، وتكون مهمتها تأييد الحكم والحد من طمع المنافسين ، ويدل على ذلك بعض المواقف التى تثبت أن ممالك إندونيسيا قد أخذت بنظام الإسلام فى تكوين الجيوش ، فقد كان لسلطان مملكة " ملقا " – على سبيل المثال – جيش له أمير ، وهذا الأمير بجانب قيادته للجيش فى الحروب ، كان له دور عند عودة السلطان فى موكبه إلى القصر بعد عودته من المسجد فيقوم بنشر عمامة الملك فى الموكب ، كما يقوم فى يوم العيد حيث يجتمع مع كبار رجال الجيش ومعه كبار رجال الدولة فى قصر السلطان بالملابس الرسمية .

كما أخذ أيضًا سلطان مملكة " ديماق " بنظام الإسلام في تكوين جيش قوى لنشر الدعوة الإسلامية واستخدامه ضد الملوك الذين يعانون المستعمر ، فقد كان لهذا السلطان جيش يرأسه الشريف هداية الله لإسقاط مملكة " فاجاجاران " في جاوا الغربية ، وقد استطاع هذا الجيش المسلم أن يستولى على جميع الموانى والمواقع الهامة فى دولة " فاجاجاران " بالإضافة إلى الاستيلاء على ولاية " بانتام " التى أصبحت دولة إسلامية فيما بعد (١٠١).

فلا مراء في أن جميع الممالك التى ظهرت فى أندونيسيا جعلت لها جيشًا يحميها على غرار الجيش الإسلامي ، ويحمى العقيدة الإسلامية محافظًا على حياة الناس فى أمن وأمان وسلام، وإنه ليعد من صدى حضارة الإسلام التى تهتم بجميع الناس ، حياتهم ومستقبلهم وأمنهم وسلامتهم وسعادتهم .

صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاجتماعية فى إندونيسيا :

يتألف المجتمع الإسلامي من طبقات يقوم على رأسها الخليفة أما فى إندونيسيا فالمجتمع الإسلامي يتألف من طبقات يقوم على رأسها الملك أو السلطان ثم يليه الأمير وكبار رجال الدولة وغيرهم .

فالمجتمع الإندونيسي يتكون من الطبقة الحاكمة وتشمل السلطان وأتباعه ، والطبقة العليا وتشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع ، ثم طبقة الفلاحين والرعاة والحمالين والسقائين والرقيق ، والطوائف الأخرى كالنصارى واليهود والصابئة .

وقد ظهر صدى حضارة الإسلام على هذا المجتمع الأندونيسي متمثلاً فى توحيد الأجناس المختلفة ومزجها معًا في بوتقة واحدة هى بوتقة الإسلام ، دون أن يفرق بين رجل وامرأة ، فكما اهتم بالرجل اهتم بالمرأة فكرمها وضمن لها حريتها وحقها فى ممارسة حقوقها المدنية والعمل في التجارة والصناعة .

نادى الإسلام بالمساواة بين البشر ، ونادى بحرية الرأى ، وانتقال كثير من العادات والتقاليد الكريمة ، كالأخلاق والتسامح والفروسية والشجاعة والمروءة ، وكان لكل هذه المظاهر الإسلامية وغيرها صدى واضح فى إندونيسيا .

استطاع المسلمون الذين دخلوا إندونيسيا سواء فى عمل التجارة أو الرحلات أن يعاملوا أهل البلاد معاملة حسنة تعرض الإسلام فى أحسن صورة للتعرف على الخُلق الإسلامي مما

جعل الشعب الإندونيسي يتمسك بالتقاليد الإسلامية الشرقية الصالحة ، والتعاليم الدينية الإسلامية القويمة حتى أصبحت هذه التقاليد من أبرز خصائص المجتمع الإندونيسي ، فالروابط الأسرية الإندونيسية وثيقة العرى ، يتعاون أفراد الأسرة الواحدة على مواجهة أعباء الحياة ويساعد قويهم ضعيفهم وغنيهم فقيرهم كل فى حدود طاقته وإمكانياته ، وبدافع عميق من الود الخالص والولاء الأكيد للأسرة التى ينتمون إليها ، بل إن هذه الروح تتعدى عادة نطاق الأسرة إلي مجال القرية الواحدة ، فترى أهلها يتعاونون فى السراء والضراء على السواء تحدوهم الرغبة فى خدمة الصالح العام ، سواء فى الزواج أو الوفاة أو الأعياد أو حرث الأرض وريها وزرع المحاصيل وحصاد الزرع وبناء المساكن ومختلف المناسبات الاجتماعية .

بجانب هذا نرى الشعب الإندونسيي يتمسك بالأدب الجم وحسن الخلق والمحافظة على النظافة انطلاقًا من تمسكهم بتعاليم الإسلام فالإسلام يعنى بتقويم المعاملة وتنظيم المجتمع والنظافة والطهارة وفيه بيان أن للفقير حق فى مال الغنى حتى لا تعيش طبقة دون طبقة ، فقد أدرك الكثير من الإندونيسيين أن هذا الدين يعطيهم حقهم ويكفل لهم حريتهم وأن الغنى يؤثر الفقير عندما يقدم له زكاة ماله مما أسعد كثير من الناس (١٠٢).

ومما يدل على أن الإسلام كفل حرية البشر ودعا لتحرير العبيد : أن التجار المسلمين كانوا يشترون العبيد من الإندونيسيين ويعتقونهم ليرفعوا من قيمتهم الشخصية وليبينوا لهم أن الإسلام ينادى بحرية الإنسان وحفظ كرامته ، وقد تأثر الإندونيسيين بوضوح العقيدة الإسلامية ويسرها وبما فيها من المساواة بين المؤمنين على خلاف ما كانوا يعرفونه من فروق فى تلك الديانات الأخرى التى كانت تسود إندونيسيا ، وقد أقبل المسلمون على المؤاخاة بين أهل البلاد بعيداً عن الغايات والأطماع التى كانوا يعرفونها من الغرباء وغيرهم ، حتى وجد الإندونيسيون فى ذلك تقبلاً للانتساب إلى الإسلام وفخراً لهم (١٠٣).

ويتضح صدى حضارة الإسلام على الحياة الاجتماعية للإندونيسيين من خلال ممارستهم أعمال وعادات وتقاليد إسلامية مثل قضاء ليالى رمضان فى تلاوة القرآن الكريم ، والاستماع إلى الحكم والمواعظ ، والاحتفال بالمناسبات والأعياد الدينية كعيد الفطر ، فقد اهتم الإندونيسيون بإحياء عيد الفطر عناية كبيرة ، وتدب الحركة الدائبة فى كل بيت قبل حلول العيد بأيام استعداداً للعيد على مستوى جميع أفراد الأسرة ، ويحرص الإندونيسيون رجالاً ونساء على أداء صلاة عيد الفطر فى المساجد جماعة وللنساء أماكن خاصة بهن ، ويتبادلون الزيارات

بعد الصلاة ، ويغمر البشر والسعادة أرجاء البلاد ، والكل يغدو ويروح في مرح وحبور ، ولا ينسى الأغنياء من الإندونسيين الفقراء منهم وأبناء السبيل انطلاقًا من تعاليم الإسلام الحنيفة ولا ينسون إخراج الزكاة ومد يد العون إلى المحتاجين ، وتوزيع المال على الفقراء (١٠٤)، حيث يفرح الجميع ويلبسون الملابس الجديدة ويبكرون بالذهاب إلى المساجد فى مثل هذا اليوم لصلاة العيد ، وبعدها ينطلقون إلى موائد الطعام والشراب بعد الصلاة ويقضون اليوم فى زيارة بعضهم البعض (١٠٥).

وكذلك عيد الأضحى يحتفل الإندونيسيون به بروح عامرة بالبهجة والسرور وبمظاهر البشر والحفاوة التى يستقبلون بها عيد الفطر وهم يذبحون الأضاحى من الأغنام والماعز والبقر والجاموس ، والعادة عندهم أن يشترك كل سبع عائلات فى الأضحية عملاً بمذهب الإمام الشافعى وهو المذهب السائد عندهم فى كافة أرجاء البلاد (١٠٦).

وكذلك الاحتفال بالمولد النبوى كأنه عيد عندهم ، فيستمر الاحتفال به طوال شهر ربيع الأول حيث تعمر المساجد بحلقات الوعظ والإرشاد ويدعون له الخطباء والعلماء وتقام الموائد فى كثير من الأحيان ، مما يدل على صدى حضارة الإسلام فى تأثيرها على الشعب الإندونيسى (١٠٧).

أما الزكاة عندهم فكان لديه إدارة لجمعها وخاصة زكاة الفطر التى تتسم بالعمل المنظم، وقد تجمع نقداً ، فيقدر قيمة ما يجب عى المسلم إخراجه من الأرز ويضربونه فى عدد أفراد الأسرة فيمر جابى الزكاة على البيوت الإسلامية قبل عيد الفطر بأيام يجمع هذه الزكاة ، ومما يجمع من هذه الزكاة ينفق على المساجد والمدارس الدينية وفى مساعدة الفقراء . أما زكاة المال والزروع وغير ذلك فكانوا يخرجونها من نفس المحصول والغلال ، وتوجد جباة لها فى بعض الممالك الإندونيسية من قبل الدولة ، وليس هناك إجبار للأهالى على أداء الزكاة ، ومن الناس من يؤديها للعلماء الأجلاء وغيرهم ويقومون بتصريفها فى مصارفها المعروفة (١٠٨).

أما الصيام فأغلبهم يصوم شهر رمضان ويحتفلون فيه بالعشر الأواخر باعتبارها أهم أيام السنة وفيها ليلة القدر خير من ألف شهر ، فهم يحرصون عليه كفرض وركن من أركان الإسلام ، ويحرصون أيضًا على إقامة ليالى شهر رمضان بتوجههم إلى المساجد بعد الإفطار حيث يؤدون صلاة العشاء والقيام .

أما الحج فإنهم يقومون بأداء فريضة الحج وكثير من هؤلاء الحجاج يتخلفون في مكة عدة سنوات لتلقي العلم . فأعظم هدف عندهم هو الحج إلى بيت الله الحرام ، حيث يدخر الفرد من قوته ويبيع أعز أملاكه ليؤدي هذه الفريضة (١٠٩).

أما المسجد فكان له صدى كبير وعظيم في حياة الناس مثل المساجد الجامعة في حواضر " جاوة " و " أتشة " ووسط " سومطرة " ومثل المساجد الصغيرة في " جاوة " ووسط "سومطرة" و " أتشة " وغيرها ، فكانت منتشرة بكثرة ، وكما تؤدى فيها الصلاة كذلك يؤمها الناس في العيدين ويجعله الناس أيضاً مكاناً لعقد مجالس القضاء في جميع الخصومات التي يحكم فيها بمقتضى الشريعة وتشمل مسائل النكاح والأسرة والتوريث (١١٠).

أما الزواج عند الإندونيسيين فإنه يتم عن طريق الاتفاق بين الآباء والأخوال وحدهم ، وليس عندهم مغالاة في المهور ، وقد تكون نقدية أو عينية ، وكانوا يفضلون عقد القران في شهر ذي الحجة تيمناً بهذا الشهر المبارك ، وليس الزوج وحده الذي يتحمل نفقات الزواج بل يقاسم في ذلك جميع أفراد الأسرة . فعن طريق الزواج تكونت أسر إسلامية نتيجة زواج المسلمين العرب من إندونيسيات ، وبمرور الزمن كثرت الأسر الإسلامية وانتشرت وأصبحت منارات هدى تنشر الإسلام في ربوع إندونيسيا .

ولما كان الزواج قائم على الرضا والقبول ، فالزوج يقوم عقب العرس مباشرة بما يضمن لزوجته الطلاق بالتعليق إذا أخل بما يجب على الزوج الصالح ، حيث أخذ مسلموا إندونيسيا بالطلاق المعلق إصلاحاً لحال المرأة التي جعلت الشريعة الإسلامية جل أمرها في يد زوجها ، فالطلاق ميسور والزواج ميسور ، ولذلك فإن المشكلات الناتجة عن الزواج والطلاق قليلة وغير معقدة . فالطلاق لا يلجأ إليه الرجل الإندونيسي إلا في الحالات الخطيرة لأنه لا ينظر إلى علاقة الزواج على أنها علاقة بينه وبين زوجته فحسب ، ولكنها علاقة تربط الأسر بعضها ببعض وهو أشرف ما يكون حرصاً على سلامة تلك العلاقة الأخيرة (١١١). ولأن هذا الزواج يجرى بينهما وفقاً للشرع المحمدي (١١٢).

فالمرأة الأندونيسية لها كافة الحقوق المدنية التي يتمتع بها الرجل من تعليم وغيره ، وعامة فإنها تشارك الرجل في كافة ميادين الحياة . والرجل يحترم المرأة بشكل يبدو في بعض الأحيان على جانب من المبالغة ، وتحترم المرأة في العمل كما يحترم الرجل ، وهي تشارك

زوجها في أعماله فتقف بجانبه في الحقول والمراعي والأسواق ، فهي تشارك في جميع نواحي الحياة حتى الحياة السياسية(١١٣).

أما العادات والتقاليد فقد التزموا الإسلام فيها كالامتناع عن أكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، والتزموا بعادة ميلاد الطفل فعندما يولد جرت العادة عندهم أن يمنح المولود اسماً بعد ولادته خلال خمسة أيام أو سبعة أيام ، ويقترن ذلك بإقامة وليمة صغيرة أو عقيقة كما نصت السنة الشريفة ، ويسمون بأسماء عربية أو مشتقة من أصل عربي مثل : محمد وأحمد ويوسف وداود وعيسى وعبد الله وزين العابدين وعائشة ومريم وفاطمة وخديجة وزينب وهكذا(١١٤).

فالحياة في إندونيسيا بوجه عام حياة شرقية إسلامية لأن لها جميع الصفات أو معظم الصفات التي تمتاز بها الحياة الاجتماعية في البلاد الشرقية على العموم من متانة العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة وقوة التضامن في حياتها ، ومتانة الصلة بين الأسر المختلفة ، ومراعاة حسن الجوار بين القرى المختلفة ، وهي إسلامية لأنها اصطبغت إلى حد بعيد بالصبغة الإسلامية مع قرب عهدها بالحضارة الهندوكية إذ لم يمر على استقرار التعاليم الإسلامية في هذه البلاد إلا مدة قصيرة ، ويرجع هذا إلى أن الإندونيسيين أنفسهم قبيل مجيء الإسلام كانوا قد ملوا الحياة القديمة المصطبغة بالصبغة البوذية لما في تعاليمها من تعقيد وعقم وفي نظمها الاجتماعية من تفاوت بين الطبقات المختلفة .

فالدين الإسلامي أتى الإندونيسيين بما كانوا يشعرون بالحاجة إليه من المساواة ، فضلاً عن أن عقيدته صافية واضحة سهلة الشعائر ، فالله واحد لا شريك له والإسلام دينه ، وهو سبحانه المهيمن على الخلق ، وجميع الناس أمامه سواء فلا طبقات ولا فواصل ، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى (١١٥).

لذلك فالأخلاق الإسلامية تتوغل في نفوس الإندونيسيين ، فهم يكرهون الرياء والتظاهر والعلاقات غير الشريفة ، ويحبون التسامح والنظافة ، ويمتازون بمتانة العلاقة بين أفراد الأسرة ، وقوة التضامن في قضاء شئون الأسرة ، فمصاب الفرد مصاب الأسرة ، وفرح الفرد فرح الأسرة .

كما ضرب الإسلام المثل الأعلى في المساواة وبرهن على علو كعب الإنسان في المؤاخاة ، فألف الإسلام بين العرب والعجم ، مما جعل العبيد يدخلون في الإسلام ليحصلوا على الحرية

ولشعورهم بالوحدة بين العبيد والأسياد فى المبادىء الإسلامية ، ولما أبداه المسلمون من خلق كريم ومستوى رفيع من المعاملات والوحدة الإسلامية (١١٦).

صدى حضارة الإسلام فى الحياة الثقافية فى إندونيسيا :

اهتم الإسلام بالعلم وحث على طلبه وجعله فريضة على كل مسلم وكفل الإسلام الحرية العلمية وأحقية كل مسلم فى تلقى العلم ، فاهتم الخلفاء والسلاطين والأمراء والولاة بالعلم ورعايته ، وقد ظهر هذا الاهتمام برعاية المساجد ومجالس العلم والمراكز الإسلامية لنشر العلم والبعثات العلمية إلى إندونيسيا ورعاية التأليف والترجمة ، والعلاقة بين طالب العلم وبين المعلم، والعمل على نشر اللغة العربية .

فالمساجد التى بناها المسلمون بإندونيسيا تعبر عن صدى حضارة الإسلام ، حيث كانت ولاتزال مركزًا لنشر العلم ودراسة القرآن وعلوم الشريعة ، فقد بنى السلطان " عبد الجليل " لـ " عايت شاه الثانى " مساجد لدراسة القرآن والثقافة الإسلامية ، فكل علم ينبع من تلك المساجد يجعل الفكر الإسلامى يتحد ويقوى(١١٧) .

وبفضل تلك المراكز والدروس التى تلقى فيها امتد الإسلام إلى مملكة " جاوة " الشرقية ، وإلى جزر " الملوكو " فقد كان الأمير " رادين باكو " يقوم على رعاية الدروس الدينية ومجالس العلم فى مسجده الذى أسسه " بجاوة " (١١٨).

فمازالت المساجد هى المراكز الأولى لنشر الإسلام وإبراز صدى حضارته ، وقد بنيت على الطراز العربى والأندلسى والعثمانى والهندى والمصرى والعباسى والإيرانى .

ففى " جاوة " و " سومطرة " مساجد تمتاز بضخامتها ودقة زخرفتها ، وما فيها من نفائس مثل مسجد " دماك " بجزيرة " جاوة " والمشهور عنه أنه أول مسجد شيد فى إندونيسيا على أثر دخول الإسلام إليها على أيدى العرب ، ومسجد " ميدات " بجزيرة " سومطرة " ، ومسجد " جيرى " بجزيرة " جاوة " ومسجد " كورس " وغيرها من المساجد (١١٩).

فالمسجد فى إندونيسيا يعطى صدى كبيرًا عن أثر حضارة الإسلام هناك ، فهو المركز الذى يبسط منه الإسلام تأثيره على حياة الشعب جميعها ، فالمساجد منتشرة فى جزر إندونيسيا ، وعن طريقها عرف الناس الإسلام ، وفى المساجد عقدت مجالس القضاء ومسائل النكاح والأسرة والتوريث فى يوم الخميس من كل أسبوع ، فالعلماء فى إندونيسيا كانوا

حريصين كل الحرص على إيجاد طلاب علم يعدونهم للدراسات الدينية من خلال المسجد كمركز من مراكز انتشار العلم بجوار مجالس العلماء والمدارس الإسلامية والمراكز الإسلامية أيضاً (١٢٠).

وإلى جانب المسجد كمركز من مراكز انتشار الإسلام كانت توجد مجالس العلم في أماكن أخرى خارج المسجد مثل مجلس العلم الذى كان يعقده سلطان " جاوة " الملك الظاهر بمقصورة الجامع وكان يحضره الفقهاء ، وكان للقراءة والمذاكرة ، وكان يذاكر فى الفقه على مذهب الإمام الشافعي ولم يزل يذاكر العلم فى حلقته من بعد الجمعة حتى صلاة العصر (١٢١).

وقد توجد مجالس العلم فى منازل العلماء والسلاطين ، حيث جعل بعض السلاطين أماكن خاصة لدراسات الفكر الإسلامى يتعلم فيها أهل البلاد العلوم الإسلامية كالشريعة والتصوف، وقد نقلت الكتب التى يدرسونها من العربية إلى لغة البلاد ، كما يدرسون التفسير والحديث وأصول الفقه وغير ذلك ، وتتراوح مدة الدرس بين سنتين وعشر سنوات أو أكثر تبعاً للغرض الذى يسعى إليه الطالب ، ورغم ما أحدثه أعداء البلاد فى " ملقا " و " أتشة " فقد بقيت هذه المجالس والمدارس القرآنية على مر القرون تؤدى رسالتها الدينية وتخلد التراث الإسلامى(١٢٢).

ومن الزعماء والقادة الذين تقدم بهم العمر من اتجه إلى العلم وبنى داراً للعلم ومسجداً للصلاة وجعل له مجلس علم يقبل عليه الطلاب وقد استقر فيه معلماً وداعية وأستاذاً ، ومن هؤلاء الزعيم القائد الداعية فتح الله الشريف هداية الله ، الذى كان يقوم بنفسه بالدعوة إلى الله ونشر تعاليم الإسلام بين الناس وتبليغهم دين الله عز وجل وأحكام الشريعة (١٢٣).

وتوجد المراكز العلمية لنشر الإسلام أيضاً فى جزر إندونيسيا وذلك بسبب العلماء الأجلاء الذين يعقدون المجالس العلمية ويحضر إليهم طلاب العلم ليتلقوا عنهم ، سواء من نفس البلدة أو من البلاد الأخرى ، ثم يعود هؤلاء الطلاب إلى بلادهم حيث ينقلون أفكار هؤلاء العلماء إلى أهليهم ومواطنيهم ، ومن أهم هذه المراكز مركز " فرساى " ومركز " فرلاق " ، وقد قاما بجهد كبير فى خدمة الدعوة الإسلامية ، ولا ننسى أن نشاط هؤلاء العلماء استمر بعد أن قامت الممالك الإندونيسية .

لقد كان مدى هذه المراكز واسعًا ، وكانت قوية التأثير فى مختلف نواحى البلاد ، واتصلت هذه المراكز بالملوك والزعماء فنالت قوة سياسية بالإضافة إلى قوتها الروحية (١٢٤).

حرص أهل هذه البلاد على دينهم وجاء هذا الحرص متمثلاً فى عنايتهم بتعليم أولادهم ذكوراً أو إناثًا شعائر الدين الإسلامي ، منذ الصغر فعندما يبلغ الطفل الخامسة يجلب له معلم خاص يزوره فى المساء ويعلمه كيفية الصلاة والوضوء والصيام وأركان الإسلام ، ويمرنه على تلاوة القرآن الكريم من المصحف الشريف ، وقد اكسبت هذه العادة غالبية الشعب صحة نطق الحروف العربية التى لا نظير لها فى لغة هؤلاء كالعين والغين والحاء والخاء ، ويعد تمام تمرين الغلام على التلاوة للقرآن كله مناسبة عظيمة للغاية ، فتقام فيها الحفلات والمآدب .

فقد ظهر صدى حضارة الإسلام فى نشر وتعليم القراءة والكتابة وظهر أيضًا فى إيجاد علاقة ثابتة بين المعلم والمتعلم بين الأستاذ والتلميذ حيث يلتقيان فى مكان واحد معين فى مواعيد منظمة لدراسة العلم سواء فى تلاوة القرآن أو دراسة العقيدة الإسلامية أو أبواب العبادات على مذهب الإمام الشافعى أو التصوف مع مبادىء القراءة والكتابة والحساب (١٢٥).

أما المذهب الشافعى فقد وجد فى إندونيسيا منذ دخول الإسلام ، وقد ذكر ابن بطوطة أن ملك " فاساى " وهو الملك الظاهر كان على درجة كبيرة من التقوى وأن مذهب دولته كان شافعيًا ، وكان هذا الملك على قدر كبير من العلم فى مناقشة العلماء ، وكان شغوفًا بنشر الإسلام فى مملكته وفى البلاد المجاورة لملكته وكان حريصًا على نشر الإسلام فى ربوع الممالك المجاورة ، وكان عظيم المعرفة والبيان (١٢٦).

وقد ساعد انتشار هذا المذهب وازدهار العمل الإسلامى على جذب مجموعة من العلماء المسلمين من مصر ومكة والمدينة واليمن والهند إلى مملكة " فاساى " على أنها المركز الأصيل فى إندونيسيا لنشر الإسلام إلى درجة أنه إذا وجدت مشكلة فى المسائل الفقهية فى بلد إسلامى مجاور مثل " ملقا " أو غيرها توجهوا إلى علماء " فاساى " للتعرف على مأربهم الفقهى (١٢٧).

فالشبه الفقهى الدينى بين العرب وبين الإندونيسيين قوى يمارسون جميعًا عباداتهم على المذهب الشافعى ، مما يعطى معنى كبيراً أن العرب صاحبة الفضل فى انتشار الإسلام فى إندونيسيا دون إغفال دور المسلمين الهنود والصينيين (١٢٨).

فمعظم المسلمين متمسكون بالمذهب الشافعى الذى انتقل من حضرموت إلى إندونيسيا عن طريق ساحل " ملبار " الهندى (١٢٩).

كما ظهر صدى حضارة الإسلام فى كثرة البعثات العلمية التى تفد إلى إندونيسيا بغرض تعليم المسلمين هناك ونشر العلم ، حيث اهتم شريف مكة خلال القرن الثالث عشر الميلادى بوجود الأمة الإسلامية فى ساحل " سومطرة " وأرسل عالمًا جليلاً يسمى الشيخ إسماعيل ليرشدهم إلى طريق الله السوى ، فقد اتجه الشيخ إسماعيل إلى " سومطرة " حتى وصل إلى " ملبار " بالهند ثم منها إلى " آتشة " وهناك أرسى هذا الشيخ مفاهيم التصوف الإسلامى . ولقد اشتهر هذا العالم بمذهبه وسلوكه وأخلاقه الرفيعة واستقر له المقام فى هذه المنطقة ، وأخذ فى بسط تعاليمه حتى وصل مريدوه إلى ولاية " فيرق " وهناك فتح الله على يديه قلب السلطان " ميره سيلو " فدخل الإسلام راضيًا مرضيًا ثم غير لقبه واسمه إلى اسم ولقب إسلامى : الملك الصالح .

وفى مملكة " ملقا " فى عصر السلطان منصور شاه ١٤٥٩ - ١٤٧٧م ، ذاع صيت ومكانة الدولة الإسلامية ورحل إلي هذه المملكة مع التجار من " أفغانستان " و " ملبار " وبلاد العرب وفود العلماء من مكة المكرمة وكان بين علمائها وعلماء " فاساى " احترام متبادل وصلة علمية دائمة قائمة على تبادل تفهم مسائل الدين ، وقدساعد على ذلك اتجاه السلطان نفسه الذى كان يهتم بنجاح الإسلام فى مملكته وما تحته من سلطنات أخرى (١٣٠).

وكما وفدت بعثات علمية من لعرب والفرس إلى إندونيسيا كذلك وفد إليها علماء من الهند ، فقد وجد فى كتب القصص الإندونيسية بعض أسماء العلماء الأولين الذين علموا الإندونيسيين مبادىء الإسلام وأصول الدين مثل : " مولانا سادر جاهن " و " مولانا الملك إبراهيم " و " نور الدين إبراهيم " وهذه الأسماء أطلقت كثيرًا على الهنود والفرس (١٣١).

كما وفد كثير من الدعاة إلى مملكة " ملقا " آتين من البلاد العربية وكانت لهؤلاء العلماء هيبة ومكانة ، فذات مرة رفض أحد معلمى السلطان محمود أن يلقى درسه على السلطان لأن السلطان جاء إلى بيته راكبًا أحد الفيلة ، وصرح المعلم قائلاً : إن طالب العلم ينبغى أن يجىء إلى المعلم راجلاً ، كما وجد اتصال مباشر ووثيق بين الأساتذة المسلمين فى مملكة " ملقا " وبين زملائهم فى جزر كثيرة ، وكان النقاش والتفاهم يدور بينهم حول القضايا الإسلامية ، وقد أرسلت مملكة " ملقا " إلى " سومطرة " بعض العلماء لنشر الدين الإسلامى ، وأرسل السلطان " ستوفاتى " المسلم سلطان مملكة " متارم " فى ١٥٨٣ - ١٦٤٥م الدعاة إلى المناطق المختلفة، وذلك لنشر الإسلام (١٣٢).

ولم يكتف التجار المتوجهون إلى إندونيسيا باعتبار دعاة للدين الإسلامى فاصطحبوا معهم دعاة من الصوفية والمرشدين لتعليم المسلمين هناك الصلاة والأدعية والأذكار وتلاوة القرآن(١٣٣).

ليس التجار وحدهم أو العلماء وحدهم الحريصون على نشر الإسلام وتعليم المسلمين أمور الدين ، بل حرص الملوك والسلاطين على نشر الإسلام وتعاليمه ، فالملك الظاهر ملك " فاساى " واسمه الملك محمد (١٢٩٧ - ١٣٢٦م) كان شغوفًا بنشر الإسلام ، وعُرف عنه عظمة بيانه ومدى نشاطه الإسلامى (١٣٤).

إن صدى الحضارة الإسلامية ليظهر جلياً مع كل هذا عندما دخل العرب جزيرة " جاوة" وغيرها من الجزر ، جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الإندونيسيين وأهل الشرق الأقصى ، مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافيا والعروض والأطوال لتحديد الأقاليم ، وكان فن الملاحة بالغًا عند العرب الدرجة العليا من الإتقان ، وكانوا قوامين على الأسفار خبيرين بأحوال الأمم ، وأنهم عرفوا إبرة المغنطيس ، وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ، ويقطعون البحار بمزيد من الجرأة والإقدام ، وقد خُلق العرى بفطرته خبيراً بالعمليات المالية والحسابية بأساليب الأخذ والعطاء (١٣٥).

كما ظهر صدى حضارة الإسلام فى أمر التأليف والترجمة ، ففى التأليف ظهر هذا الصدى عندما كتبوا قصص أبطال الإسلام مثل حكاية إسكندر ذى القرنين ، وحكاية الأمير حمزة ، وحكاية أبو حنيفة والسلطان إبراهيم بن أدهم ، وأصبحت شخصية ذى القرنين شخصية ملكية ولقد اعتبر معظمهم من مبشرى الإسلام حتى ذو القرنين الذى عاش قبل مجىء الإسلام ، ولكنه اعتبر مبشراً بعقيدة سليمة صحيحة ، والنبى إبراهيم عليه السلام ، كان مثالاً للشخصية المقدسة الذى كان يبحث عن وحدانية الله الخالق .

وهناك مجموعة ثانية من الحكايات عن سيدنا محمد ﷺ التى تم التركيز فيها على شخصية النبى ﷺ ، ومجموعة أخرى من قصص الأنبياء التى يرجع أصلها إلى القرآن الكريم وتفسيراته ومن هنا فإن ثروة من القصص العربية جاءت إلى إندونيسيا بعد ترجمتها تحت اسم حكايات الأنبياء ، وهى تحكى قصة الخلق من آدم حتى عيسى عليه السلام ، وظهرت قصص أخرى عن الأنبياء متفردة مثل حكاية سيدنا يوسف عليه السلام .

وبالإضافة إلى ذلك ظهرت مجموعة من الكتاب كتبوا حول الشريعة الإسلامية وأصول الدين والعبادة والمتطلبات اليومية لممارسة العقيدة ، وكان التصوف الإسلامي أكثرها أهمية ، وكان من أحسن الكتاب المعروفين في مجال الدين " حمزة فانسوري " و " شمس الدين ورانيري " وغيرهما ، وكان هؤلاء من الشخصيات الإسلامية الذين يستحقون كل تقدير لجهودهم في غرس العقيدة الإسلامية بين السكان . فقد غطى الكاتب " حمزة فانسوري " جوانب كثيرة في العبادة عن طريق قصائد جميلة يرشد فيها المسلمين لتحقيق الكمال في العبادة ، وقد غطى "شمس الدين " مجالاً كبيراً في كل من الشريعة الإسلامية والمذاهب ، وكثير من هؤلاء بذل الجهد الكبير في سبيل نشر الإسلام وكتابة القصص الديني (١٣٦).

ومن المشاهير الذين دعوا إلى الإسلام وكان لهم الأثر الثقافي الواضح في إندونيسيا الشيخ " عبد العارف " في أوائل القرن السادس الهجري في شمال " سومطرة " ، والشيخ "برهان الدين " الواعظ في غربي الجزيرة وجنوبها ، وفي القرن الثامن الهجري قدم أيضاً الشيخ إسماعيل ونشروا الإسلام في " سومطرة " وأما في " جاوة " فكان أشهرهم التاجر العالم الشيخ إبراهيم الذي كان يعرف باسم الملك إبراهيم وكان مجال عمله في جاوة الشرقية وقد توفي عام ٨٢٢هـ(١٣٧).

فقد كثر تأليف الكتب لخدمة الدين الإسلامي وتعليم المسلمين وتوجيههم وإرشادهم خاصة في الحكايات ذات الصبغة التاريخية أو الأدبية الخيالية كما صيغت الأحكام الشرعية في صورة قوانين لهدى القضاة والحكام (١٣٨).

كما تجاوزت جهود الشيخ عبد الرؤوف سنجل مملكة " أتشة " و " سومطرة " إذ كان له مريدون كثيرون في " جاوة " يتلقون منه العلم في المجالس العلمية ، وكذلك الشيخ " نور الدين الترانيري " وكان هذا الشيخ طموحاً يريد أن يُعلِّم في مناطق عديدة ، وأن يعيش علمه بعده ، فألف كتاباً شهيراً ، كان مصدر هداية للكثيرين ، واسمه " بستان السلاطين " .

كما أنجبت جزيرة " أتشة " مجموعة هائلة من العلماء المسلمين الذين قاموا بدور كبير في شرح الإسلام وتقديمه لسكان تلك الجزر . وقد ألَّف بعضهم مجموعة من الكتب كانت مراجع عظيمة للباحثين والدارسين ، ومنهم الشيخ عبد الرؤوف الذي ترجم تفسير البيضاوي إلى لغة الملايو (١٣٩).

أما الترجمة ، فقد كانت ذائعة الصيت منتشرة ، فقد تُرجمت منذ القديم كتب عربية إلى اللغة الإندونيسية وكتبت بالحروف العربية منها كتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب كليلة ودمنة وغيرها من الكتب وروايات وقصص وعظات دائرة مع الزمن ثابتة فيه ، وجالت مع الأيام راسخة المعانى تستحق الثناء والشكر .

نشطت الترجمة كما نشطت حالة التأليف ، حيث تُرجمت كتب من اللغات الأجنبية ولاسيما الكتب العربية التى تحتهاج إليها إندونيسيا لسد النقص الكبير الذى كان يشعر به الإندونيسيين .

وقد ترجمت الكتب الإسلامية التى تنفع المسلمين مثل كتب التصوف وعلوم الفقه مثل كتاب إحياء علوم الدين للغزالى وكتاب الرسالة القشيرية للإمام القشيرى (١٤٠).

ومن صدى حضارة الإسلام بإندونيسيا انتشار اللغة العربية تلك اللغة التى نزل بها القرآن الذى فيه سر العربية ، ومظهر تقدمها ، حسن أسلوبه ورونقه والحكمة والموعظة وآداب الدنيا لسلامة الآخرة ومراسيم المعاشرة ، ودوام الأخوة وإبقاء الصداقة ، فهو كتاب المسلمين عامة ، وقانون حياتهم الخاصة ، نزل بالعربية فلازمته روحًا ومعنى ، واستمدت منه قوة الحياة ، وقد دخلت اللغة العربية بدخول الإسلام إلى إندونيسيا إذ هى لاتفارق هذا الدين أينما ذهب ، فهما روحان فى جسد واحد ، وهما توءمان من جنس واحد ، وقد أعطت هذه اللغة فكرة جديدة عن الحياة الأدبية التى تأثر بها الأدب الإندونيسى عن كثب، بل سيطرت على هذا الأدب وأصبحت منه الروح المعبرة ، وآثار هذه اللغة باقية فى أسماء هذه الأمة وفى طبائعها وعاداتها وتقاليدها وفى روحها وأخلاقها وفى شعورها وإحساساتها.

فاللغة العربية قد ارتفعت بالإسلام قيمة وسمت به مكانة ، وعزت به منزلة وتلقتها الشعوب دراسة وتعلمًا حتى تأثر بها كثير من الأمم ووضع بها كثير من الكتب العلمية والثقافية والدينية ، واللغة الإندونيسية قد اقتبست واستمدت كثيرًا من اللغة العربية التى أتت عن طريق الإسلام ، إذ جاء بها هذا الدين أثرًا من آثاره الباقية .

فاللغة الإندونيسية تكتب بالحروف العربية واللاتينية غير أن الكتابة العربية قليلة الانتشار فى إندونيسيا بالنسبة للاتينية ، فهم يتلون القرآن الكريم باللغة العربية والنغمة العربية لا اللكنة الصينية أو الهندية ، وقد عمل الإسلام على محو الأمية ونشر مبادىء القراءة والكتابة فى إندونيسيا (١٤١).

صدى حضارة الإسلام في الحياة الاقتصادية في إندونيسيا :

ارتبط الدين بالاقتصاد وهذا شيء يهم الطبقات الفقيرة ، ففي مال الغنى والتاجر نصيب يُعطى للفقراء ، فالغالبية العظمى فى البلاد كانت فقيرة ، والغنى فى يد الكهنة والحكام ومعاونيهم فقط ، والإسلام يعطى الفقير حقه من الغني ، لذلك أقبل الجمهرة من الشعب على هذا الدين الذى يعطيهم هذا الحق ، وقد كان الغنى المسلم يؤثر الفقير المسلم عندما يقدم زكاة ماله ، وارتبط بهذا الدين عدم الطبقات لذلك فأثر الإسلام وصداه على الجانب الاقتصادى فى جزر إندونيسيا واضح جلى ، وذلك من خلال حديثنا عن ازدهار الزراعة والتجارة والصناعة والصيد ، فإندونيسيا صاحبة المكانة الاقتصادية فى الأزمان الغابرة ولم تكن مكتوفة الأيدى أمام الهجمات التى كانت تستهدف اقتصادها ، فكثيراً ما كانت تجمع قوتها لاسترداد مجدها وتسعى جاهدة لتعيش فى صفوف الأمم الاقتصادية المنظمة ، إذ أن حياة الأمم مرتبطة بحياتها الاقتصادية .

ومما يعطى إندونيسيا مكانة تتميز بها عن غيرها أنها وقعت فى تمام خط الاستواء ، وتكونت من عدة جزر منها الكبيرة الآهلة بالسكان مثل " جاوة " و " سومطرة " و " سليبس " و "بورنيو " ومنها متوسطة الحجم وتعد بالمئات ، وصغيرة وهى ألوف كثيرة ، فجوها معتدل إذ يتبادل فى أجزائها نسيم البحر والبر طول العام فلا هو حار فى الصيف ولا بارد فى الشتاء ، ومعظم هذه الجزر كثيرة التعاريج وهى السبب الصالح لإفشاء الموانى لرسو السفن ، وتحفها القارتان العظيمتان وهما آسيا واستراليا ، وتداعب شواطئها الغربية أمواج المحيط الهندى والشرقية المحيط الهادى ، ثم اختلاف سفوح هذه الجزر وارتفاعها عن سطح البحر له تأثيره فى نظم عالم الاقتصاد ، وفى أعالى جبالها وهضابها ، حيث يكون الجو بارداً تنبت فيها مزروعات حوض البحر الأبيض المتوسط وفى شواطئها وما يماثلها فى الانخفاض ، حيث كانت الرطوبة والحرارة ، تزرع كل المحاصيل الزراعية وغير الزراعية ، وفيها دقائق الكنوز من معادن الذهب والفضة والحديد والقصدير وأنواع من الفحم الحجرى ومنابع البترول الغنية ، اجتمعت كل هذه المزايا فى إندونيسيا وزينتها بصفة ممتازة دائمة ولا غرو إذا اتجهت أنظار العالم الاقتصادى إليها (١٤٢).

تؤكد البحوث العلمية أن التجار العرب عرفوا إندونيسيا منذ القرن الثالث الميلادى على الأقل ، وقد تعاملوا مع التجار المحليين فى " جاوة " و " جزائر الملوك " وغيرها من جزر المنطقة

الغنية بالتوابل ، وذلك فى أثناء رحلاتهم إلى الصين وقد دونت السجلات الصينية القديمة ذلك ، وذكرت ما يفيد أن العرب قد اتخذوا لهم أماكن استيطان فى هذه الجزر وفى "كانتون" وكان ذلك حوالى سنة ٣٠٠ ميلادية(١٤٣).

لقد تمسك المجتمع الإندونيسى بالعادات والتقاليد الشرقية الصالحة القويمة كالتعاون فى السراء والضراء وفى كل ناحية من نواحى النشاط البشرى خاصة النشاط الاقتصادى فيظهر هذا التعاون فى حرث الأرض وريها وزراعة المحاصيل وحصاد الزرع وغير ذلك .

فالاقتصاد العربى له تاريخ طويل مع إندونيسيا منذ القرن السابع الميلادى حيث شهد عصراً ذهبياً للتعاون الاقتصادى خاصة التجارة العربية فى بلاد " سيلون " والتى وصلت إلى بلاد الصين فى القرن الثامن الميلادى ، ولقد كانت مدينة " كانتون " إحدى مراكز التجارة العربية القوية فى الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الميلادى ، فقد كان العرب يسيطرون بأساطيلهم التجارية على هذه البلاد فى هذه الجزر دون منافس لهم ، ومنذ القرن الأول الهجرى وجد الإسلام له طريقاً فى قلوب أبناء هذه الجزر (١٤٤).

فالعلاقات الودية التى استمرت عدة قرون بين إندونيسيا والعرب والهند والفرس ساعدت هذه البلاد على السير نحو الحضارة العظيمة .

ازدهار الزراعة : ازدهرت الزراعة فى جزر إندونيسيا فى ظل الإسلام واعتبرت المورد الرئيسى لاقتصاد إندونيسيا ، ومن أهم مصادرها المادية ، بل وكانت العمل الرئيسى لسكان إندونيسيا ، ولم يكن نصيب الزراعة بأقل حظاً من التجارة فى التقدم ، فإن الأرض الواسعة التى كانت مهملة والغابات الواسعة المتروكة حُوِّلت إلى أراضى زراعية خصبة معتمدين على زراعة الأرز والتوابل والجوز الهندى ، وظلت الحالة الزراعية محتفظة بكيانها ، واتصلت إندونيسيا بالشعوب المجاورة وتبادلت معهم المحاصيل الزراعية وحمل الإندونيسيون معهم كل شىء من محاصيلهم وهم يترددون ما بين شواطىء آسيا وموانى إفريقيا الجنوبية والشرقية(١٤٥).

لقد عُرفت جزر إندونيسيا بأنها جزر التوابل المعروفة فى التاريخ ، فإنتاج أرضها من الغزارة بحيث تستطيع الأسر الواحدة أن تعيش على نتاج قطعة صغيرة من الأرض ، وتنمو الزراعات فى تلك الأرض الاستوائية طوال السنة حتى أنها قد تنتج ثلاثة محاصيل فى السنة ، وفى كل مكان فى تلك البلاد تجد أنواع النباتات المختلفة حيث تنمو مزارع قصب السكر وجوز

الهند وزيت النخيل والبن والشاى والفلفل الأسود ، والفاكهة اللذيذة توجد فى كل فصل من فصول السنة .

وتتنوع حياة البنات تنوعًا عجيبًا وتنمو الأزهار البرية متسلقة أشجار الغابات ، وقد ساعد على ذلك غزارة الأمطار واستمرار الحرارة مما يجعل الأشياء خضراء فى الجزء الأكبر من البلاد .

ومن خلال حديثنا عن الزراعة وازدهارها فى جزر إندونيسيا نستعرض تلك الجزر ونعرف مدى جهدها فى الزراعة وازدهارها ، فجزيرة " سومطرة " يبلغ طولها نحو ألف ميل ، وجانبها الغربى مكلل بالجبال ، ثم تنحدر إلى الجانب الشرقى حتى تسير أحراشًا ومستنقعات مع مساحات واسعة اعتاد الإنسان أن يستعملها لفائدته مثل القسم المسمى " ديلى " على مقربة من مدينة " ميدان " حيث استطاع العلماء أن يزرعوا على الأرض التى كانت قاحلة من قبل نوعًا من الدخان السومطرى الذى يحتل قيمة كبيرة فى التجارة العالمية .

وأما الجانب الجنوبى من الجزيرة فقد اتسعت فيه زراعة الأرز الذى يروى بالماء كما فى جزيرة " جاوة " ، وتوجد أيضًا في " سومطرة " مزارع كبيرة للمطاط والسكر وغيرهما من المواد التجارية .

أما جزيرة " بورنيو " فإنها مليئة بالتلال والغابات وتعتبر هذه الجزيرة الثالثة ، أكبر جزر العالم ، فهى بعد جزيرة " جرينلاند " و " نيوجينى " حيث يوجد فى الغرب منها مساحة من الأراضى الزراعية وأكثر أهل الشمال فيها يعيشون على الزراعة المتنقلة ويعيشون عيشة بدائية بجانب صيد الحيوان والأسماك .

أما جزيرة " جاوة " فتخترق أرضها سلسلة من الجبال البركانية ، وفى أقسام منها تجد الأراضى قاحلة ، ولكن فى أماكن أخرى تجد مجموعة من مصاطب وزراعات قصب السكر والشاى والبن والمطاط وغيرها من الحاصلات . فجزيرة " جاوة " زاخرة بالسلع كالفلفل وجوزة الطيب وسنبل الطيب والخلنجان والقرنفل ، وجميع الأنواع الأخرى من التوابل والعقاقير (١٤٦).

إن المساحة القابلة للزراعة تبلغ حوالى ثلاثة ملايين فدان يزرع منها حوالى النصف ، وأهم الحاصلات الزراعية فى البلاد : قصب السكر والمطاط والشاى والبن والأرز والتبغ ونبات الكويرا والبهارات والخشب والخيزران والكابوك والكينين والصمغ والقمح والذرة والنارجيل والفول السودانى والتوابل (١٤٧).

ويعمل أكثر من ٧٠٪ من السكان بالزراعة ويساعدهم على ذلك خصوبة التربة الناتجة عن تحلل البازلت بسبب كثرة البراكين والمياه المتوفرة الناتجة عن غزارة الأمطار ودوامها والحرارة الدائمة إضافة إلى اتساع الأرض (١٤٨).

لقد كانت الحاصلات في بداية القرن الثامن عشر هي المألوفة منذ سنوات فالأرز هو الطعام الأساسي ، والفلفل والتوابل والسكر هي التي تأتي بأكبر دخل ، وكان البن من المنتجات التي نجحت نجاحًا كبيرًا ، إذ وزعت النباتات على زعماء المراكز بقرب " بتافيا " فانتجوا مائة رطل من حبوب البن في سنة ١٧١١م وظلت الكمية تنمو وتنمو إلى عشرة ملايين في السنة (١٤٩). لذلك أصبحت الزراعة هي المهنة الأولى التي يوليها الشعب والحكومة أعظم الرعاية باعتبارها أهم موارد الثروة القومية في البلاد (١٥٠).

تقدم الصناعة : عُرفت إندونيسيا الصناعة منذ فجر تاريخها ، واهتم الإسلام بالعمل على تقدم الصناعة على اعتبار أنها مورد هام من موارد الثروة ، فاهتم الخلفاء والملوك والسلاطين بها انطلاقًا من قول الله عز وجل : { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون } .

فقد اتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها ، فتعمل جمهرة كبيرة من الإندونيسيين في حرف وصناعات قومية عديدة ، بعضها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالغلات الزراعية ومنتجات الغابات وبعضها يقوم على ما يتوفر في البلاد من مواد أولية معدنية ، فبالنظر إلى صناعات إندونيسيا نجد صناعة البترول في المقدمة وتتبعها صناعة المطاط وصناعة الخيزران والقش وصناعة المنسوجات الشعبية والمظلات وصناعة الجلد ، وتقوم تلك الصناعة في " باميكسان " في "مادورا " وفي " ماجيتان " في شرق " جاوة " وفي " جلانج " في وسط " جاوة " هذا علاوة على صناعة الفضة والنحاس التي تعمل منها الأواني المنزلية (١٥١).

فهناك حرفة جمع المطاط من الأشجار ونقله إلى المصانع المجاورة ويعمل في هذه الحرفة آلاف من السكان من نساء وفتيات ورجال وفتيان ومزارع المطاط واسعة الانتشار وعلى الأخص في " جاوة " و " سومطرة " ، ويستخرج سائل عصارة المطاط من جذوع الأشجار ثم تعبأ العصارة في جرار أو أوان كبيرة تحملها العاملات والعمال على رؤسهم إلى المصانع وهناك تتعرض لعدة عمليات كيماوية حتى يصبح المطاط صالحًا للاستعمال كما تهتم إندونيسيا بصناعة الحفر على الخشب وعمل التماثيل والأواني والأثاث والمنازل وكلها من الحرف القومية السائدة في كثير من جهات إندونيسيا ، وكذلك صناعات وطنية عديدة مثل

إقامة المنازل من أجار الخيزران وصنع الأثاث والآلات الموسيقية والمظلات والقبعات والأقفاص والسلال والصناديق والمراوح ومقابض المناجل وعشرات من أدوات أخرى .

كما تزدهر فى إندونيسيا الصناعات الجلدية من حقائب وأحذية لكثرة وجود الماشية والأغنام فى البلاد ، وهناك صناع الفضة المهرة الذين يبهرون العين بمنتجاتهم الفنية الرائعة إنها صناعة تقليدية يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد جيل بعد جيل وهم ينتجون نماذج ممتازة من أطقم القهوة والشاى ، وأوانى الزهر والأطباق والصوانى وغيرها من الأدوات المنزلية .

ولعل صناعة المنسوجات هى الأخرى من الصناعات القديمة التى يزاولها عدد غير قليل من أهالى البلاد ، ويستخدم فى هذه الصناعة القطن ، كما تنتج إندونيسيا أنواعًا شتى من المنسوجات الوطنية ، مثل رداء السيدات الملون وصناعة المظلات والقبعات (١٥٢).

ورغم ذلك فلاتزال الصناعة تؤلف قسمًا بسيطًا من إنتاج البلاد إذ لا تعطى أكثر من عشرة بالمئة من الدخل بينما تعطى الزراعة ٥٦ ٪ منه ويتألف معظم القطاع من معامل صغيرة للتحويل وأخرى للنسيج ، مازال بعضها أنوالاً يدوية ، والنسيج صناعة يدوية قديمة فى إندونيسيا وكذلك الملبوسات التقليدية مشهورة ومطلوبة فى جنوب شرقى آسيا وتقدمت صناعة الأسمنت والسكر وغيرها من الصناعات الأخرى (١٥٣).

وإذا ما نظرنا إلى جزيرة " جاوة الصغرى " نجد أنها تحتوى على كثرة موفورة من الثروات كخشب الصبر وخشب السابان للصباغة وأنواع أخرى من العقاقير (١٥٤).

أما من حيث الثروة المعدنية فى إندونيسيا فيوجد بعض الفحم والبوكسيت وهو مصدر الألمونيوم ، وكمية أقل من الملح والمنجنيز والنيكل والذهب والفضة وغيرها من المعادن ، كما تعتبر الجزر الثلاثة " تيجكا " و " بليتون " و " سنجكب " بين " سومطرة " و " بورنيو " من أغنى موارده ، وظهرت معادن أخرى فقد صار البوكسايت وهو المعدن الذى يخرج منه الألمنيوم ذا أهمية ، وتعتبر إندونيسيا أكبر مصدر للألمونيوم فى آسيا فيما عدا الاتحاد السوفيتى ولازال الإندونيسيون يستخرجون كمية صغيرة من المعدنين الذهب والفضة (١٥٥).

فإندونيسيا غنية فى المعادن كالملح والقصدير والبوكسيت والفحم والمنجنيز والأيودين ، وتعتبر إندونيسيا أهم بلاد الشرق الأقصى فى إنتاج الزيت ، وتوجد آباره فى "سومطرة" و "كاليمانتان " و " جاوة " (١٥٦).

النشاط التجارى : عندما نطلع على تاريخ التجارة فى العالم نجد منطقة جنوب شرق آسيا بها التوابل والبن والبخور والجلود والأخشاب وجوز الهند ، كل هذه الأشياء مطلوبة للشرق الأوسط وكانت الصين سوقًا واسعًا لاستهلاك منتجات الشرق الأوسط من نسيج وتمور وحبوب وهكذا أدرك العالم من قبل الإسلام بعدة قرون ضرورة الصلة الاقتصادية والتجارية عبر الجزيرة العربية إلى جنوب الهند ، فشبه جزيرة الملايو فسومطرة فالصين ، وكانت الرحلة بالمراكب الشراعية بطبيعة الحال ، وكانت بعض هذه السفن التى تحمل التجارة تابعة إلى الغرب وبعضها كان تابعًا لإندونيسيا والصين ، مما يدل على أن التجار العرب عرفوا الملايو وإندونيسيا منذ القرن الثالث الميلادى ، وتعاملوا مع التجار المحليين فى جاوة وجزائر الملوك وغيرها من الجزائر الغنية بالتوابل وقد دونت السجلات الصينية القديمة ذلك ، وذكرت ما يفيد أن العرب قد اتخذوا لهم أماكن استيطان فى هذه الجزر وفى " كانتون " (١٥٧).

فمن المراسى التى كانت المراكب التجارية تقف بها فى طريقها إلى الصين هى " ملابار " و " سيلان " و " مآبد " و " معبر " و " سومطرة " و " جاوة " و " تونكين " (١٥٨).

وقد كون العرب جاليات عربية فى بعض ثغور الملايو و إندونيسيا ، وكانت لهم معرفة بالمدن المهمة الواقعة على سواحل هذه الجزر (١٥٩).

لقد نهضت هذه التجارة بين الصين والهند منذ القرن الأول الميلادى وكانت الملايو و إندونيسيا ملتقى السفن التجارية الواردة من القطربين العظيمين ، فكانت الملايو وإندونيسيا بمثابة محطة كبرى تلتقى عندها السفن وتتناول السلع من الجانبين سواء بالإبحار حولها عن طريق بوغاز ملقا " أو بنقل هذه السلع برًا عبر الجزء الشمالى من الملايو .

لقد لعب العرب دورًا هامًا فى نقل السلع بين الشرق والغرب حتى كثرت أسفار العرب إلى هذه البلاد وعظم الاختلاط بينهم وبين أهلها حتى ظهر الإسلام وحاول العرب نشره بشكل واضح فى " ملقا " وغيرها من الجزر الإندونيسية (١٦٠).

وتوطدت الصلات بين جنوب الجزيرة العربية ومصر من جانب وبين الملايو وإندونيسيا من جانب آخر ، وقامت مراكز فى الملايو وإندونيسيا للعرب ، وقامت مراكز للملايو وإندونيسيا فى جنوب الجزيرة العربية وفى مصر ، وأصبحت السفن التجارية يقودها ويتاجر عليها عرب مسلمون ، وأصبح كثير من المراكز العربية بجزر الملايو وإندونيسيا مراكز إسلامية(١٦١).

من المعروف أن الإسلام ارتبط بالاقتصاد ، فجعل فى مال الغنى نصيباً يعطى للفقير ، مما جعل الكثير من الإندونيسيين يقبلون على الإسلام طمعاً فى حصولهم على حقوقهم الإنسانية ، لقد أعلن الإسلام عن نفسه فى كل اتجاه ، ثم إن بعض التجار كانوا يتمنون الهداية للناس ويرغبون فى إبعادهم عن عبادة غير الله وتوجيههم إلى عبادة الواحد الأحد ، فبذلوا من جهدهم ووقتهم للدعوة .

فالتجار العرب أنشئوا أسراً إسلامية فى هذه الجزر منذ ذلك العهد المبكر للإسلام ، وأصبحت تلك البيوت الإسلامية المزدوجة الجنسية منارات يهتدى بها السكان .

واستمرت العلاقات التجارية بين العرب وإندونيسيا حتى زار عدد من التجار الإندونيسيين بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ورأوا هناك الحضارة الإسلامية فى أزهى مظاهرها فجذبتهم إلى دين الإسلام ، وعندما عادوا إلى إندونيسيا كانوا شديدى الحماسة فى نشر هذا الدين وتقوية أصوله فى بلادهم . وظهر صدى هذا الإسلام العظيم فى الحياة الاقتصادية حيث تعلم أهل البلاد من التاجر العربى – الذى تحكمه مبادىء وقيم وأخلاق الإسلام – أصول التجارة وطرق البيع والشراء والمساومة ، وتحديد أثمان السلع والحبوب ، وتأسيس المستودعات التى تعتبر الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشترى وتعلموا طريقة الحوالة التى كانت عند العرب

لقد تعلم أهل جزيرة " جاوة " الكثير من الأمور التجارية والاقتصادية على أيدى العرب الذين بمجيئهم انتشر الحضارة الإسلامية بين أهل " جاوة " حيث جاءوا بمعلومات كانت مجهولة عند الإندونيسيين وعند أهل الشرق الأقصى ، حتى أضحت هذه الجزيرة أرقى الجزر واتقن أهلها التجارة والزراعة وتربية الماشية والصناعات اليدوية وبناء السفن وأصبحت حرفة الملاحة وصيد الأسماك لا يباريهم فيها أحد (١٦٢).

أقام الإسلام مبدأ الاحترام المتبادل بين جزر إندونيسيا ، حيث جعل كثيراً من الجزر الإندونيسية زائعة الصيت فى التجارة مثل جزيرة " ملقا " فرحل إليها التجار المسلمون والعلماء من أفغانستان ومكة ، وأقام بهذا الرحيل مبدأ الاحترام المتبادل حيث كان بين علماء "ملقا " أو علماء " فاساى " احترام وصلة علمية دائمة ، ففى عهد السلطان منصور شاه ت ٨٨٢هـ سلطان " ملقا " نشطت التجارة العربية الإسلامية حتى شملت مملكة " ماجافاهيت "

فى " جاوة " ووصلت إلي أطراف إندونيسيا ، بسبب ما أضفاه الإسلام على هذه الجزر من صبغة إسلامية كان لها أكبر الأثر فى تقدم الحياة الاقتصادية بإندونيسيا (١٦٣).

وجعل ميناء " ملقا " محط كثير من الأنظار ، حيث تميز هذا الميناء – كميناء اقتصادى كبير – بسبب موقع " ملقا " المهم على المضيق الذى ازدهر من القرن السابع الميلادى وازداد ازدهاراً تجارياً فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة التسهيلات التى يقدمها الميناء للتجار ، ومن ثم توافد التجار إلى " ملقا " من الشرق والغرب عبر مضيق " ملقا " إما للبيع والشراء أو التجارة (١٦٤).

كما كانت مدينة " كانتون " إحدى المراكز العربية القوية للتجارة فى الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر ، حيث عثر على بعض المذكرات الصينية التى تضم بين طياتها : أنه فى القرن السابع الميلادي كان يوجد داعية عربى فى " سومطرة الشمالية " مما يدل على أن العلاقات العربية الإندونيسية ممتدة الجذور منذ زمن بعيد ، وأن الإسلام له صدى بعيد فى تلك الجزر ويتضح ذلك من خلال الوحدة الاقتصادية التى قام بها يبين المقاطعات التى تعد ركيزة ودعامة من دعائم بناء الدولة الإسلامية فى مملكة " اتشة " (١٦٥).

فقد كان لتعاليم الإسلام أثر طيب فى تكوين روح إندونيسيا العالمية وغرس روح السلام والنشاط والتضحية ، وجعلهم يحققون نجاحاً كبيراً ، وأحرزوا ثروات ضخمة ، وجعل العرب ينتقلون من " سومطرة " إلى " جاوة " إلى الجزر الأخرى وأنشئوا المتاجر ومراكز المقايضة والمبادلة على منتجات البلاد وكانت سفنهم تجوب البحار فى كل الجهات ، واتسع منذ ذلك الحين التبادل التجارى بين الجزر وموانى جنوب الهند والخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، كما انتظم سفر القوافل ذهاباً وإياباً بين موانى البحر المتوسط وموانى الخليج العربى فى القرن الرابع عشر وبعده ، مما أدى إلى تعميم الدين الإسلامى فى معظم جزر إندونيسيا وإنشاء المساجد بها والتكايا ودور التدريس الدينى (١٦٦). وتوالت الملوك والسلاطين المسلمين على ولاية هذه الممالك فظهر على أيديهم صدى حضارة الإسلام فى الناحية الاقتصادية وازدهارها ، ووجود أحياء فى تلك الممالك مستقلة لجنسيات التجار المتعاملين ، كما فى مملكة " ملقا " على سبيل المثال ، فهناك منطقة للتجار القادمين من " جاوة " وأخرى للتجار القادمين من الصين ، وثالثة للتجار القادمين من الهند ، ورابعة للتجار القادمين من بلاد العرب وهكذا (١٦٧).

الخاتمة :

الحق الذى لا مراء فيه أن وجود الإسلام فى إندونيسيا كان سبباً كبيراً فى ازدهارها على جميع المستويات ، سواء السياسى أو الاجتماعى أو الثقافى أو الاقتصادى ، مما يعطى أكبر دليل على صدى حضارة الإسلام فى إندونيسيا سواء فى نظم الحكم والإدارة فقامت ممالك إسلامية بحكم ونظام يعيش تحت مظلة الإسلام ، تولى حكمها وإدارتها حكام مسلمون ، أقاموا علاقات مع الدول الإسلامية وغيرها واستمدوا منها الدعوة ورجالها وتعاليم الدين وشرائعه العظيمة . وقوّوا الروابط بينهم وبين إخوانهم وجيرانهم . وجعلوا الإسلام يسود مكان الأعراف والعادات والتقاليد القديمة ، وجعلوا الإسلام عقيدة ونظام سماوى ينظم العلاقات بين الحاكم والمحكوم وبين الأفراد والجماعات .

كما ظهر هذا الصدى العظيم فى الحياة الاجتماعية ، حيث عمل الإسلام على إذابة الفوارق بين الناس وألغى نظام الطبقات الذى يجعل من الناس سادة وعبيد وكفل لهم حرية التعبير ، وحرية الإرادة ، وجعلهم يحسون بإنسانيتهم ، وبيّن لغير المسلمين أن حياة السلام هى طبيعة الإسلام ، وأنه يحمى كل الطوائف ولا يظلم أحداً ، وشرع للأسرة أحكاماً تضمن لها السعادة ودوام الحياة وجعل لكل فرد حقوق وعليه واجبات ، وعمل على تنظيم المجتمع ودعاه إلى حسن الخلق والأمانة والنظافة وحسن الجوار وحب الآخرين ونشر روح التعاون والإخاء والمحافظة على المصلحة العامة ، وجعل لهم مناسبات سعيدة عوضهم بها عن عادات وتقاليد جاهلية قديمة جعل لهم عيد الفطر وعيد الأضحى وغير ذلك من المناسبات الإسلامية التى أسعدتهم .

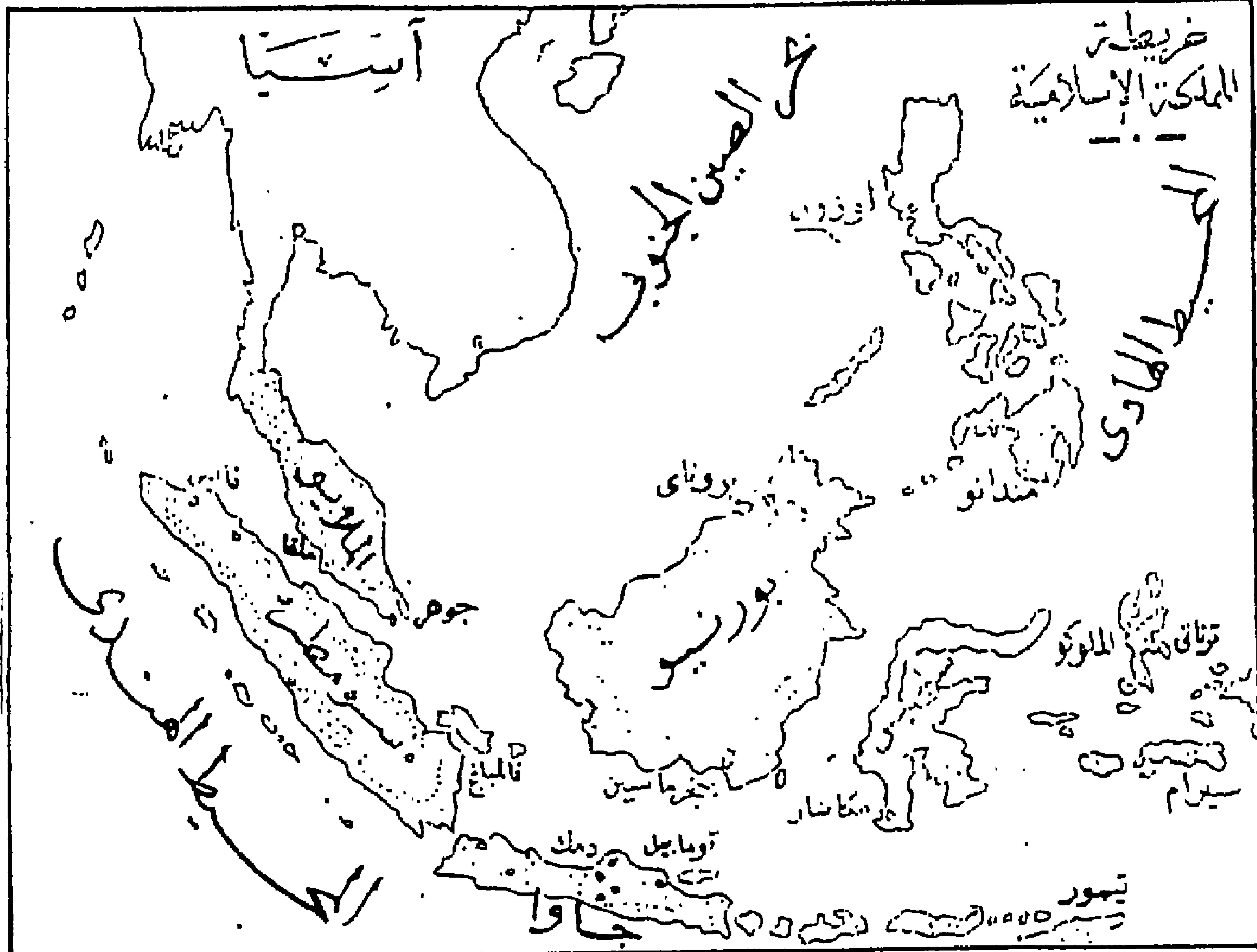
كما ظهر هذا الصدى أيضاً فى الحياة الثقافية ، فحث أهل إندونيسيا على العلم وكفل لهم حرية التعليم وأحقية كل مسلم فى طلب العلم ، فأنشئت المساجد التى بمثابة أماكن للعبادة ودور للقضاء ومجالس لحل المشكلات الأسرية والفصل فى الخلافات الاجتماعية . وأماكن لدروس العلم والتعليم .

وأتى العلماء من كل مكان إلى إندونيسيا لتعليم أهلها ونشر الإسلام فيها ورعت الدولة الإسلامية طلاب العلم وعملت على إنشاء المساجد والمراكز الإسلامية ، والبعثات العلمية إلى إندونيسيا ومن إندونيسيا إلى بلاد العالم الإسلامى ، وتم رعاية التأليف والترجمة والاهتمام باللغة العربية ، وتحفيظ القرآن وإنشاء مكاتب لتحفيظ القرآن ودراسته ومعرفة معانيه

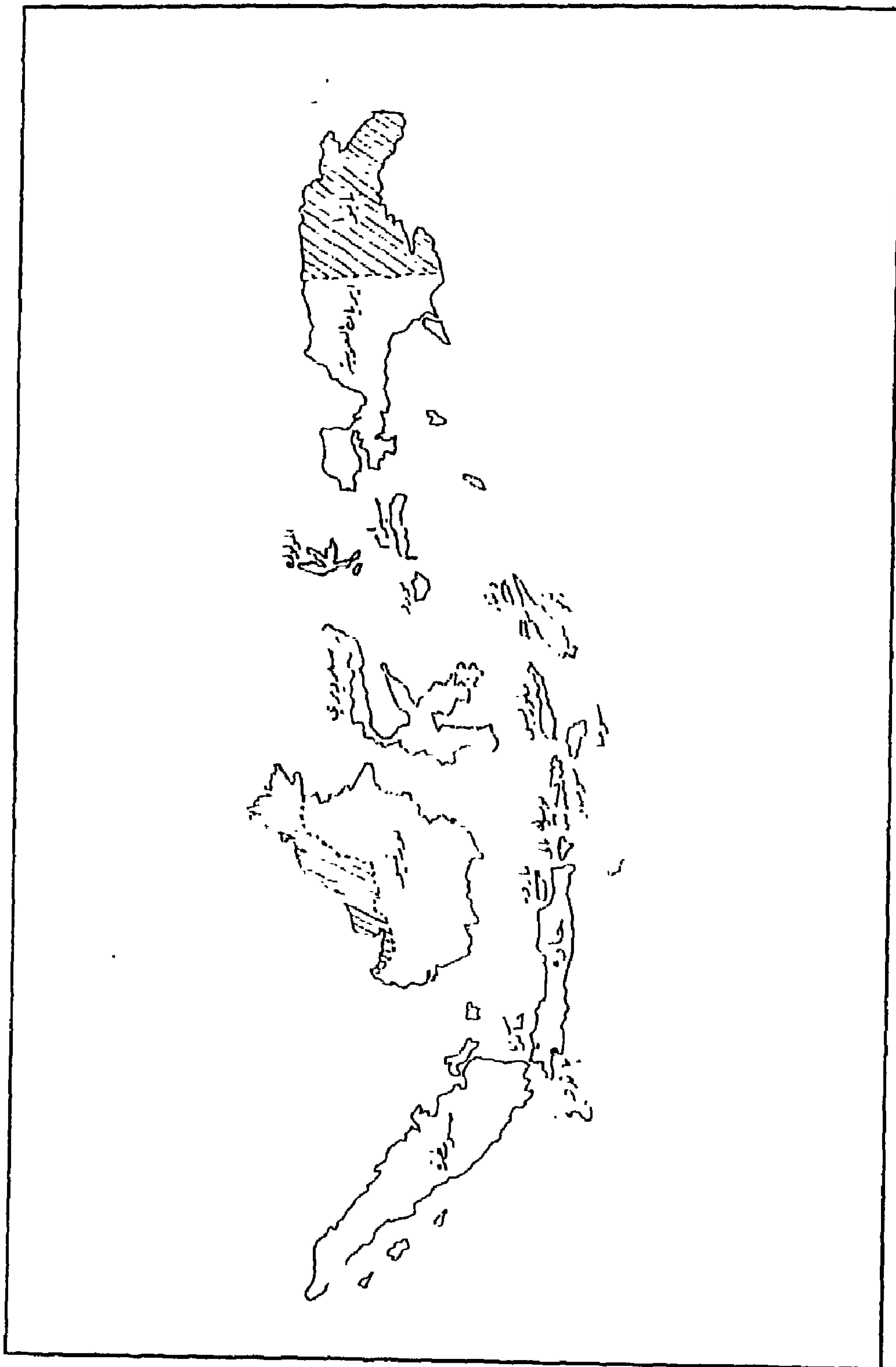
وتفسيره، كما ظهر هذا الصدى فى حرص أهل البلاد على تعليم أبنائهم - ذكوراً وإناثًا - شعائر الدين الإسلامى منذ الصغر . وقد انتشر المذهب الشافعى الذى انتقل من عند العرب ، واهتم الجميع بنشر وتعليم القراءة والكتابة بالعربية الفصحى ، التى ارتفعت بالإسلام قيمة وسمت به مكانة وعزت به منزلة .

كما ظهر صدى حضارة الإسلام فى الحياة الاقتصادية ، حيث ارتبط الدين بالاقتصاد وجعل الاهتمام بالطبقات الفقيرة أكثر من غيرها ، وجعل للفقير حقوقًا عند الغنى ، وأوجب على الغنى أداء حق الفقير المتمثل فى الزكاة ، سواء زكاة الفطر أو زكاة المال . ويبين الإسلام روح التعامل الاقتصادى على المسار الزراعى والصناعى والتجارى فجعل مبدأ الأمانة فى التعامل والصدق ، وجعل الثواب والعقاب ، وبين للناس أن كل عمل يعمله الإنسان سوف يعرض على الله وأنه سوف يجزى بنفس جنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، وبيّن أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وجعل الإسلام العلاقات العربية الإندونيسية أكثر ارتباطًا وازدهاراً من ذى قبل ، حيث حث الناس على روح العمل الدؤوب والتعاون بين الأفراد ، ومد يد العون والمساعدة بين الأسر والجماعات على مستوى جميع المجالات الزراعية والصناعية .

كما أقام الإسلام مبدأ الاحترام المتبادل بين الأفراد والجماعات الذى سرى بين الإندونيسيين حتى أصبح منتشراً بين الممالك والجزر الإندونيسية ونشطت التجارة العربية الإسلامية فى إندونيسيا ، وتعلم التجار الإندونيسيون من التجار العرب روح المعاملة الإسلامية فى البيع والشراء والمبادلة وطرق التخزين وغير ذلك من الأمور الهامة اللازمة لأعمال التجارة . مما يجعلنا نقول : لقد ظهر صدى الإسلام فى الحضارة الإندونيسية ظهوراً جليًا على جميع المسارات وفى جميع نواحى الحياة .



خريطة للمملكة الإسلامية سنة ١٥٠٠ نقلاً عن رسم البروفيسور «بيير» في كتابه «تاريخ الشرق»



إندونيسيا

الهوامش

١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤١٣ .

٢ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ص ٥ ، ٦ .

٣ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ص ١٦٩ .

٤ – محمود شاكر : جغرافية العالم الإسلامي ، ص ٨٤ .

٥ – عبد الرحمن تكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥١ ؛ أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤١٥ .

٦ – حسن محمد جوهر ، وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٢٧ .

٧ – وزارة الإعلام الإندونيسي : إندونيسيا ، ص ٧ .

٨ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ١٨ – ٢٠ .

٩ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، ص ١٧٠ .

١٠ – عطية محمد : إندونيسيا المجاهدة ، ص ٦ .

١١ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ٩ .

١٢ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ٢٢ .

١٣ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ١٠ .

١٤ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ١٣ .

١٥ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ٢٢ .

١٦ – قسم الاستعلامات بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ١٢ .

١٧ – محمد أحمد السنباطي : حضارتنا في إندونيسيا ، ص ٢٢ – ٢٤ .

١٨ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ١٧ .

١٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤١٥ ، ٤١٦ .

٢٠ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤١٩ ، ٤٢٠ .

٢١ – محمود شاكر : إندونيسا ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

٢٢ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٥٤ .

٢٣ – حسن محمد جوهر ، وعبد الحميد بيومي : إندونيسيا ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

٢٤ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٢٠ – ٤٢١ .

٢٥ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا الحديث ، ص ١٧٠ .

٢٦ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/٤٢١ – ٤٢٤ .

٢٧ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٧٨ – ٧٩ .

٢٨ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ٥٤ .

٢٩ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا ، ص ٣٠ ، ٤٠ .

٣٠ – حبيب جاماتى : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ، ص ٩٥ .

٣١ – محمد أحمد السنباطى : حضارتنا فى إندونيسيا ، ص ١١٧ – ١١٩ .

٣٢ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٤٧ .

٣٣ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحريرى والإسلامى ، ص ١٣ .

٣٤ – لوثروب ستودارد : حضارة العالم الإسلامى ١ / ٣٤٨ .

٣٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٤٩ : ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ص ٣٠ .

٣٦ – محمد أحمد السنباطى : حضارتنا فى إندونيسيا ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ : ومحمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين مادة الصين .

٣٧ – قيصر أديب : الإسلام فى الشرق الأقصى ، ص ٢٧ .

٣٨ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٣٨ – ٤٠ : وفؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحريرى والإسلامى ، ص ١٣ .

٣٩ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٤٠ – حبيب جاماتى : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

٤١ – هارى هازارد : أطلس التاريخ الإسلامى ، ص ٤٢ .

٤٢ – محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين مادة " الصين " .

٤٣ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ص ٤٢ .

٤٤ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ٧٢ .

٤٥ – هارى هازارد : أطلس التاريخ الإسلامى ، ص ٤٢ .

٤٦ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ٠١ .

٤٧ – البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٥٣٦ .

٤٨ – هارى هازارد : أطلس التاريخ الإسلامى ، ص ٤٢ .

٤٩ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ١/ ٣٤٥ ، ٣٤٦ ؛ عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ١٥٦ .

٥٠ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٤٩ ؛ هارى هازارد : أطلس التاريخ الإسلامى ، ص٤٢ .

٥١ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ٣٦٦/١ .

٥٢ – وزارة الاستعلامات بإندونيسيا : إندونيسيا ، ص ١٩ .

٥٣ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٤٧ .

٥٤ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ٥٧ .

٥٥ – عبد الرؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٥٥ .

٥٦ – عباس العقاد : الإسلام فى القرن العشرين ، ص ٤٨ .

٥٧ – إسماعيل أحمد ياغى ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامى ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

٥٨ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٥٧ – ٤٥٩ .

٥٩ – عبد الرؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٥٥ ، ٥٦ ؛ إسماعيل أحمد ياغى : تاريخ شرق آسيا ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

٦٠ – على الطنطاوى : إندونيسيا ، ص ٣٥ .

٦١ – محمد عبد الرؤوف : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٨٢ ؛ عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ٥٧ .

٦٢ – عبد الرؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٥٧ – ٥٩ .

٦٣ – إسماعيل أحمد ياغى ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامى ، ٢٢٤/١ .

64 - Harrison : South East Asia. P. 77 .

٦٥ – عبد الرؤوف شلبى : الإسلام ى أرخبيل الملايو ، ص ٦٢ – ٦٣ .

٦٦ – المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٤ .

٦٧ – عبد الرؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٦٤ .

٦٨ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، ٤٦٦/٨ – ٤٦٩ .

69 - Harrison : South East Asia. pp. 85-86 .

٧٠ – المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، ص ٥٥ – ٥٧ .

71 - The Land and Peaple of Indonesia, p. 56 .

٧٢ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، ٤٧٣/٨ .

٧٣ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ .

٧٤ – عبد الله عباس ناستيوم : تاريخ الملايو العظمى ١٠٥/١ ؛ المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٩ – ٦٤ .

٧٥ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٤٨١/٨ .

٧٦ – عبد الرؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٩٠ .

٧٧ – المركز العام لجمعيات إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ص ٦٥ .

٧٨ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤٨٣ ؛ وعبد الرؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ١٠٨ .

٧٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٨٤ – ٤٨٥ .

٨٠ – إسماعيل أحمد ياغي : تاريخ شرق آسيا ، ص ١٧٨ – ١٧٩ نقلاً عن كتاب " آسيا والسيطرة الغربية تأليف بانيكار ، ص ٥٦ ، ٥٨ .

وكتاب : Panikar, K.M. : Malabar and the Sutch, Bombay 1930 .

٨١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٨٦ .

82 - Cobden, Richard, Political writings of cobden, London, 1867 . vol. 2, p. 25 - 106 .

٨٣ – إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامي ١/٢٢٤ .

٨٤ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٦١ .

٨٥ – ستوديا إسلاميكا : مجلة إندونيسية للدراسات الإسلامية السنة الثامنة العدد الثاني لسنة ٢٠٠١م ، ص ٣ ، ٤ .

٨٦ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤٦٦ – ٤٦٧ .

٨٧ – الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٣ .

٨٨ – عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ٣١ .

٨٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤٧٠ .

٩٠ – رؤوف شلبي : أرخبيل الملايو ، ص ٦٢ .

٩١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٤٧٢ ، ٤٧٩ .

٩٢ – المائدة الآية (٣٣) .

٩٣ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٥ – ٥٧ .

٩٤ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ٤١ .

٩٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥١ .

٩٦ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

٩٧ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٦٢ – ٦٣ ؛ رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٧٠ – ٧٦ .

٩٨ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ١/٣٥٠ ، ٣٥٤ .

٩٩ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٧١ – ٤٧٢ .

١٠٠ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٢٠ .

١٠١ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٦٨ ، ١٠٠ .

١٠٢ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ص ٥١ – ٥٢ ؛ وأحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، ٤٤٨/٨ .

١٠٣ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٢٧ – ٢٩ .

١٠٤ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ص ٥٤ – ٥٦ ؛ دنيس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ١٨٧ .

١٠٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٧ .

١٠٦ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيونى : إندونيسيا ، ص ٥٦ – ٥٧ .

١٠٧ – دينس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ١٨٧ ؛ حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ص ٥٧ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٧ .

١٠٨ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٨ ؛ إبراهيم خورشيد وآخرون : دائرة المعارف ٤١٦/١١ – ٤١٧ .

١٠٩ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ص ٥٣ ، ٥٤ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٥ .

١١٠ – إبراهيم خورشيد وآخرون : دائرة المعارف ، ١١ / ٤١٨ .

١١١ – حبيب جاماتى : الجزر الخضراء ، ص ١١٣ ؛ حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ص ٦١ ، ٦٤ ؛ المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ١٣١ ؛ أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٦٠ .

١١٢ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ١ / ٣٤٨ .

١١٣ حبيب جاماتى : الجزر الخضراء ، ص ١١٢ ، ١١٣ ؛ المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ١٣٢ ، ١٤١ ؛ حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ص ٦٥ .

١١٤ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد : إندونيسيا ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

١١٥ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص١٢٨ ؛ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ١ / ٣٤٨ .

١١٦ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، فؤاد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحررى والإسلامى ، ص ٢١ ؛ رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

١١٧ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ١٢٣ .

١١٨ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٥٢ .

١١٩ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

١٢٠ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥٣ .

١٢١ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

١٢٢ – دائرة المعارف الإسلامية ١١ / ٤١٦ ، ٤١٨ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٢٣ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ١٠٦ .

١٢٤ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، ٨/٤٦١ ، ٤٦٤ .

١٢٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٢٦ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦١٨ .

١٢٧ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٦٣ .

١٢٨ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥١ .

١٢٩ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم ، ص ٥٩ .

١٣٠ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٥ .

١٣١ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٤٨ .

١٣٢ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٨٤ .

١٣٣ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٤ .

١٣٤ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، ص ٦٣ .

١٣٥ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

١٣٦ – وزارة الاستعلامات بإندونيسيا : إندونيسيا ، ص ٩٠ – ٩٢ .

١٣٧ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

١٣٨ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٧ .

١٣٩ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

١٤٠ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا ، ص ٦٤ ، ٧٠ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ١٥٥ – ١٥٧ .

١٤١ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا ، ص ٢١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ؛ محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٥١ ، ١٥٦ .

١٤٢ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

١٤٣ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٤٥١ .

١٤٤ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٣٥ .

١٤٥ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا : إندونيسيا الثائرة ، ص ٨٩ .

١٤٦ – دينس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ٣٧ – ٤٠ ؛ وماركو بولو : رحلات ماركو باولو : ٣/٢٥ .

١٤٧ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٦٠ ؛ محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٨٧ – ٩٠.

١٤٨ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٨٧ – ٨٨ .

١٤٩ – دينس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

١٥٠ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد ، ص ٧٠ .

١٥١ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٧١ .

١٥٢ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي ، ص ٧٠ – ٧٥ .

١٥٣ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ص ٩٧ .

١٥٤ – ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ٣/٢٩ .

١٥٥ – دينس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ص ٢١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

١٥٦ – عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم اليوم ، ص ٦٠ ، ٦١ .

١٥٧ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٠ ، ٤٥١ .

١٥٨ – بدر الدين الصيني : العلاقات بين العرب والصين ، ص ١١٠ .

١٥٩ – عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام في الهند ، ص ٦٠ .

١٦٠ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ص ٨١ – ٨٢ .

١٦١ – أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٣ – ٤٥٤ .

١٦٢ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ؛ أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٤٥٤ – ٤٥٦ .

١٦٣ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

164 - Muhammad yasoff Hashim : The Malay Sultanate of Malacca Kuala Lumpur 1992 , pp. 180 - 206 .

١٦٥ – رؤوف شلبي : الإسلام في أرخبيل الملايو ، ص ٣٥ ، ١١٠ ، ١١١ .

١٦٦ – حبيب جاماتي : الجزر الخضراء ، ص ٤٠ ، ٩٦ .

١٦٧ – رأفت الشيخ : ملقا ودورها التجاري في جنوب آسيا ، ص ٦ – ٧ .

قائمة المراجع

١ – إبراهيم خورشيد وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، ط. دار الشعب . بدون تاريخ .

٢ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٣ – إسماعيل أحمد ياغى : تاريخ شرق آسيا الحديث ، ط. مكتبة العبيكان – الرياض ، ١٩٩٤م.

٤ – بدر الدين الصينى : العلاقات بين العرب والصين ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠م.

٥ – ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ط. دارصادر بيروت . بدون تاريخ .

٦ – البلاذرى أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، ط. مكتبة النهضة المصرية . بدون تاريخ .

٧ – حبيب جاماتى : الجزر الخضراء " هندونيسيا " ط. دار المعارف – مصر ، ١٩٥٧م.

٨ – حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومى : إندونيسيا ، ط. دار المعارف – مصر ، ١٩٥٩م.

٩ – ديتس سميث : إندونيسيا شعبها وأرضها ، ترجمة حسن محمود ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢م.

١٠ – رأفت الشيخ : ملقا ودورها التجارى فى جنوب آسيا ، بحث مقدم إلى مؤتمر التاريخ الاقتصادى للمسلمين – مركز صالح كامل – جامعة الأزهر ٢٥–٢٧أبريل عام ١٩٩٨م.

١١ – رؤوف شلبى : الإسلام فى أرخبيل الملايو ، طبعة خاصة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٧٥م ، مطبعة السعادة .

١٢ – ستوديا إسلاميكا : مجلة إندونيسية للدراسات الإسلامية . ط. إندونيسيا ، السنة الثامنة ، العدد الثانى لسنة ٢٠٠١م ، المقال بعنوان : تأثير الإسلام فى العالم الملايوى .

١٣ – عباس محمود العقاد : الإسلام فى القرن العشرين ، ط. نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٤ – عبد الرحمن زكى : المسلمون فى العالم اليوم " آسيا الإسلامية " ، ط. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩م.

١٥ – عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى . ط. مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الخامسة ، ١٩٨٦م.

١٦ – عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠م.

١٧ – عطية محمد : إندونيسيا المجاهدة ، ط. دار الطباعة المصرية الحديثة ، ١٩٤٨م.

١٨ – فؤاد محمد فخر الدين : تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحريرى والإسلامى ، ط. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

١٩ – قيصر أديب : الإسلام فى الشرق الأقصى ، ترجمة نبيل صبحى ، ط. بيروت ، ١٩٦٦م.

٢٠ – قسم الاستعلامات والعلاقات العامة بسفارة إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا ، طبعة القاهرة ١٩٧٧م.

٢١ – لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، ط. دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٣م.

٢٢ – ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م.

٢٣ – الماوردى على بن محمد البصرى : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط. دار الفكر – القاهرة ، ١٩٨٣م.

٢٤ – محمد أحمد السنباطى : حضارتنا فى إندونيسيا ، ط. دار القلم – الكويت ، ١٩٨٢م.

٢٥ – محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ، ط. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م.

٢٦ – محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ، مادة " الصين " ط. بدون تاريخ .

٢٧ – محمود شاكر : إندونيسيا ، ط. المكتب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الثامنة ١٩٨٧م.

٢٨ – المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا بالقاهرة : إندونيسيا الثائرة ، ط. القاهرة . المركز العام لجمعيات استقلال إندونيسيا ، ١٩٤٦م.

٢٩ – هارى هازارد : أطلس التاريخ الإسلامي ، ترجمة وتحقيق إبراهيم خورشيد ط. بيروت. بدون تاريخ .

30 - Colden, Richard, Political writings of cobden, London. 1867 .

31 -Harrison : South East Asia. 1954 .

32 - Muhammad yasoff Hashim : The Malay Sultanate of Malacca Kuala Lumpur. 1992 .

33 - Panikar, K.M. : Malabar and the Sutch, Bombay 1930.

34 - Studia Islamika. Indonesian Journal for Islamic Studies : Jagat Durban-udin : The Mahing of Islamic Political Tradition in the Malay world. Volume, 8, Number 2, 2001 .

35 - Datus Smith : The Land and People of Indonesia1961 .

أ.د. السيد حسين جلال (*)

الحضـــارة العـــربيـــة الإســـلاميـــة
ودورها فى حركة الكشوف الجغرافية

تمثل حركة الكشوف الجغرافية التى تمت فى عصر النهضة الأوروبية ، واستمرت قرنًا ونصف من الزمان ، منعطفًا هامًا فى تاريخ الإنسانية ، فقد أصبح هناك عالم جديد وعالم قديم وبدأت حركة التوسع الاستعمارى الأوروبى التى اتخذت فى مطلعها روحًا صليبية ضد المسلمين وقد حاول البعض أن يرجع حركة الكشوف الجغرافية الكبرى إلى حيوية وتطلع غير عادى من شعوب أوروبا وإلي حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعى فى الجنس، إلا أن الأمر غير ذلك ، فالحقيقة ترجع إلى اقتباساتهم العلمية من الحضارة العربية الإسلامية ، التى هى بحق جزء فاعل فى حضارة البشرية قديمًا وحديثًا .

وقد اندفعت أوروبا الغربية للكشوف الجغرافية بسبب عدة عوامل أهمها :

حضارى:

تمثل فى حب المغامرة والكشف عن المجهول الذى ساد عصر النهضة الأوروبية ، وهذه الحضارة بدورها نتاج الاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية .

سياسى:

نمو الشعور القومى والوعى بالذات الوطنية بسبب ضغوط القوى الخارجية المعادية .

---

* أستاذ بكلية الآداب – فرع دمنهور – جامعة الإسكندرية .

دينى:

كان هدف كل من الإسبان والبرتغال هو تعقب المسلمين بعد خروجهم من الأندلس والقضاء على آخر معاقلهم على الساحل الإفريقى ، بل وتطويق المسلمين كما اعتقد الأمير هنرى الملاح بأن نهر السنغال قد يقوده إلى منابع نهر النيل وإلي بلاد الحبشة المسيحية وبذلك يفتح طريق مائى عبر إفريقيا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر ومن ثم إلى الهند وبذلك يحصر الإسلام فى إفريقيا من الشمال والجنوب بدول مسيحية ويصير البحر المتوسط آمنًا للملاحة المسيحية (١).

واتخذت هذه الموجة صبغة صليبية ، وقد باركت البابوية هذا العمل العدائى ضد المسلمين واعتبرت كل من يستشهد فى سبيل تحقيق هذا الهدف من شهداء الكنيسة . بل ذهب الأمر بتشجيع البابوات لحركة الكشوف الجغرافية بإصدارهم المراسيم والقوانين . ففى سنة ١٤٥٤م تلقى الأمير هنرى الملاح من البابا نيقولا الخامس تفويضًا بأن له الحق فى جميع الكشوف التى يكشفها حتى بلاد الهند(٢) كذلك أصدر البابا كاليكتوس الثالث فى ١٤٥٦/٣/١٣م مرسومًا بابويًا يؤكد المنحة التى وهبها نيقولا الخامس وبذلك تمكن هنرى من الحصول على كل شىء . وفى ٩ يونيو ١٤٩٤م أبركت معاهدة توردسيلاس : Tordesilas بين إسبانيا والبرتغال حددت خطًا فاصلاً بين ممتلكاتها يقع إلى الغرب من جزر رأس فردى بنحو ٧٠ فرسخًا على خط طول : ٣٧َ ٤٦ْ . وقد أيد البابا الإسكندر السادس هذه الاتفاقية (٣).

وقد أيد الملوك والأمراء فى كل من إسبانيا والبرتغال هذا العمل ورصدوا له مبالغ ضخمة للإنفاق منها على الحملات التى تتجه ضد المسلمين فكانت موجات الغزو الأوروبى تحت هذا الستار الصليبى عاملاً كبيرًا فى تقويض جزء من الحضارة الإسلامية فى القارة الإفريقية والمحيط الهندى والسواحل العربية(٤) ، وكان ارتباط الأهداف الدينية للاستعمار الأوروبى ، ارتباطًا وثيقًا بتلك المفاهيم الوطنية المتعلقة بممتلكات ما وراء البحار (٥).

اقتصادى:

أدى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م فى يد الأتراك العثمانيين إلى ارتباك التجارة وانهيار طرقها البرية والبحرية بين آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود والأناضول والمضايق . وبعد الاستيلاء على مصر والشام وشمال إفريقيا واليمن ، ووقوع الطرق البرية والبحرية فى يد

الأتراك العثمانيين ، وأصبح على التجار الأوروبين إذا أرادوا الوصول إلى أى مكان فى الشرق، أن يمروا بأرض عثمانية ، ولابد لهم من الحصول على تصاريح من السلطات العثمانية.

وهكذا أصبحت الطرق من أوروبا لشرق البحر المتوسط فى ظل السيد الجديد وتحت إشرافه(٦).

أسباب انطلاق حركة الكشوف الجغرافية من شبه جزيرة إيبريا:

لم تنطلق حركة الكشوف الجغرافية من الأندلس من فراغ ولكن كان وراء ذلك الأمر خلفية تاريخية وحضارية قامت واستمدت جذورها من الحضارة العربية الإسلامية .

استقر العرب فى إسبانيا قرابة ثمانية قرون (٧١١ - ١٤٩٢م) وكانت إسبانيا خلالها مركزًا للاتصال بين آسيا وإفريقيا من جهة وأوروبا من جهة أخرى .

وقد كان العلم العربى من القرن الثامن حتى أواخر القرن الرابع عشر ، أرقى علم فى العالم متفوقًا فى ذلك على العلم فى الغرب والصين .

وكان العلماء المسلمون فى كل حقل تقريبًا فى طليعة التقدم العلمى ، وكانت الحقائق والنظريات والتصورات العلمية التى تضمها رسائلهم العلمية أرقى ما يمكن الحصول عليه فى أى مكان فى العالم (٧).

كانت المعاهد العلمية الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية مجمع العلوم والمعارف الرفيعة فى تلك العصور ، وقصدها الطلاب من كل فج ، وكانت مكتباتها تضم أنفس الكتب والمصنفات فى مختلف العلوم والفنون (٨) . وقد بلغت سبعون مكتبة عامة (٩)، وكانت الأندلس مركزًا رئيسًا لحركة الترجمة فى أوروبا ومكان التقاء حضارة الشرق والغرب حيث وجدت عليها تربة خصبة للانطلاق إلى كشف المجهول فى عالم البحار والمحيطات والقارات .

أهمية الموقع الجغرافى لشبه جزيرة إيبريا:

تتميز السواحل هنا بطولها وامتدادها ، فهى تطل على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى مما جعلها عرضة باستمرار للغزو البحرى . وقد أدرك المسلمون منذ بادىء الأمر ورسموا لأنفسهم سياسة بحرية اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التى كانت منتشرة على تلك السواحل مثل : طرطوشة وطراكونة ودانية ولقنت وبجانة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وغيرها (١٠).

كذلك بنى الأندلسيون ميناء " سلا " على المحيط الأطلسى بتصميم المعلم " أبو عبد الله محمد بن على " من أهل أشبيلية . وكذلك كانت هناك داراً للصناعة فى دانية بشرق الأندلس على البحر وأخرى فى شلطيش وتقع فى غرب إشبيلية وفى مالقة والدويرة والصويرة كانت تبنى فيها الحراريق والشوانى (١١).

مظاهر إسهامات الحضارة العربية الإسلامية في الكشوف الجغرافية :

اعتمدت الكشوف الجغرافية على علوم ومعارف متعددة مثل : الجغرافيا والفلك والملاحة البحرية وغيرها من العلوم التى أبدع فيها المسلمون واقتباس الأوروبيون لهذه الحضارة العربية الإسلامية . وسأتناول باختصار هذه العلوم :

أولاً : تقدم الفكر الجغرافى لدى العلماء المسلمين :

ساد الاعتقاد الخاطىء لدى الجغرافيين المسيحيين أن الأرض مسطحة ومن ثم فقد رسم العالم على شكل تخطيطى كما يظهر فى خريطة العالم المعروفة باسم Orbis Terranum أو The Wheel Map والتى اعتقد عند رسمها أن الله خلق الأرض فى شكل منظم وأنه وضع القدس فى وسطها ، كما رسم العالم على شكل حرف O وظهر البحر الأسود وكذلك البحر الأحمر والبحر المتوسط فى وسطها على شكل حرف T واحتلت آسيا النصف الشمالى من الخريطة ، بينما شغلت أوروبا النصف الأيسر من الجزء السفلى المقابل لقارة أوروبا (١٢).

وقد رفع القساوسة أصواتهم محذرين بأن البحث فى طبيعة الأرض وموضعها لايعود على الإنسانية بشىء يحقق آمالها فى الحياة الأخرى ، كما سخروا من فكرة كروية الأرض .

وأصبحت الجغرافيا فى حاجة إلى فكر متحرر ويد أمينة تتعهدها ، ولم يكن حينذاك أفضل من المسلمين ولا أحق منهم للقيام بهذا العمل . وهكذا قادوا مسيرة تقدم علم الجغرافيا فى العصور الوسطى (١٣).

كانت لدى الجغرافيين المسلمين فكرة واضحة عن العالم المعمور نتيجة للفتوح الإسلامية وحركة التجارة العربية والحج وأيضاً جهود الرحالة المسلمون علاوة على أن الإسلام يحث على طلب العلم ومن ثم قدم الجغرافيون المسلمون إسهامات جليلة فى تقدم العلوم الجغرافية بكافة تخصصاتها .

نجح الجغرافيون المسلمون[١٤] فى تحديد مواقع مدن كثيرة بالنسبة لخطوط الطول ، وقسموا العالم المعروف إلى أقاليم على أساس اختلاف طول الليل والنهار كلما بعدنا عن خط الاستواء . وقد اعتقد الجغرافيون المسلمون أن الماء يغطى مساحة كبيرة من الكرة الأرضية وأنه يحف باليابس على هيئة بحر مظلم وكانت لديهم فكرة صحيحة وواضحة عن بحر الروم (المتوسط) وبعض سواحل المحيط . كما عرفوا الجهات الأصلية (١٥).

وقد ذكر المستشرق " كريمورز " أن للنظرية الإسلامية الحق أن تدعى بأنها أسهمت فى كشف العالم الجديد (١٦) . فقد ترجمت كتب الإدريسى إلى اللاتينية حيث تعلمت منها أوروبا علم الجغرافية فى العصور الوسطى (١٧).

كروية الأرض :

استدل المسلمون عن طريق رحلاتهم البحرية على كروية الأرض ، لأن المغادر والقادم للساحل تتراءى له الأشياء فى الساحل تباعًا . وكان ابن خردانبة قد تصور أن الأرض مستديرة تشبه الكرة وأنها موضوعة فى السماء كما توضع المحا فى جوف البيضة . وقد ذكر أن محيط الأرض ٩٠٠٠ فرسخ (الفرسخ = ١٢ ألف ذراع والذراع يساوى ١٨ بوصة) (١٨). وهذا يساوى ٥٢٦٥٠كم .

العرب وقياس محيط الأرض :

ومن أهم أعمال العرب فى الجغرافيا الفلكية هى محاولة قياس درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الأرض . وبلغ متوسط قياس الدرجة ٥٦٣/٢ ميل تقريبًا (والميل العربى = ١٩٧٣,٢مترًا) فإن طول الدرجة عند فلكي المأمون = ١١١,٨١٥ كيلو مترًا وطول محيط الأرض ٤١٢٤٨ كم ، وهو رقم قريب من الحقيقة (١٩) . ويعد قياس العرب أول قياس حقيقى أجرى كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من الصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحيين فى العمل (٢٠).

كذلك هناك نظرية أبو الريحان البيرونى (ت١٠٤٨م) لإيجاد مقدار محيط الأرض بالتقريب أن ذلك العالم الأجل جعل فى آخر كتابه الإسطرلاب فصلاً فى معرفة مقدار استدارة الأرض واستنبط أن مقدار درجة من خط نصف النهار ٥٨ ميلاً تقريبًا (٢١).

وبانتشار الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية انتشر أيضاً فى أوروبا معرفة مقدار الدرجة على القياس المأمونى أى ٢/٣ ٥٦ ميل ، كما أن العرب عند نقل الكتب اليونانية والسريانية ، ما كانوا انتبهوا لاختلاف أجناس الميل فوقعوا فى أخطاء كبيرة ، كذلك الإفرنج فى القرن الرابع عشر والخامس عشر للمسيح ، لم يلتفتوا إلى مخالفة أميالهم للميل العربى فأخطئوا فى حساباتهم خطأ شديداً ومنهم كرستوفر كولومبس (مكتشف أمريكا) فإنه بفرض أن طول الدرجة ٢/٣ ٥٦ميل ، إيطالى(٢٢) قد بعد بين سواحل أوروبا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل مما هو فى الحقيقة بقدر عظيم جداً ، فلا يبعد أنه لولا غلطة كهذه لم يكن رأى من الممكن أن يصل إلى بلاد الصين راكباً الإوقيانوس فى سفن صغيرة لاتنقل من الزاد ما يكفيه مدة عدة أشهر فامتنع عن سفرة ذلك العجيب الذى هداه لكشف القارة الأمريكية ، فياله من خطأ عاد على الورى بالمنافع العظيمة (٢٣).

دوران الأرض :

سبق العرب كلاً من كيبلر وكوبرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضى وفى نظرية دوران الأرض ، وإن اذياج الأزفونش العاشر المسماة (الأذياج الأذفونشية) مأخوذة عن العرب (٢٤). وعلى الرغم من تقدير المسلمين لأفكار اليونانيين ، إلا أنهم نبذوا فكرة ثبوت الأرض ، وأعلن معظم العلماء المسلمين البارزين أن الأرض تدور ومن هؤلاء البيرونى ، فلقد أكد (أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها) (٢٥).

ثانياً : الخرائط الملاحية :

صنع المسلمون خارطات بحرية ممتازة للإرشاد الملاحى والدليل على ذلك أن الأميرال البرتغالى الفنسو البوكيرك (Alfonso E Lbuqurque) أرفق فى تقرير له لملك البرتغال عام ١٥١٢م خارطة بحرية كبيرة لملاح من جاوة موضحاً عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج الفارسى وجزائر الملوك ومسالك ملاحية إلى الصين وجزيرة (فرموزا). كما أن فاسكو دا جاما نفسه يقرر أنه قد وجد الملاحين العرب على الساحل الإفريقى يستخدمون البوصلة وآلات دقيقة ملاحية وخارطات بحرية (٢٦).

وقد بلغ من ثقة الجغرافيين والرحالة الأوروبين بدقة الخرائط العربية للبحار الجنوبية فى عصر الكشوف البحرية أنهم كانوا يعدون الحصول على واحدة منها أقرب إلى اقتناء النفائس النادرة . وقد ذكر المستشرق الفرنسى (رينو) أن الملاح والرحالة البرتغالى (ألفونسو

البوكيرك) مدين بنجاح رحلاته فى المحيط الهندى والخليج العربى - إلى حد كبير - لخريطة من عمل ربان عربى يدعى (عمر) (٢٧).

كما ذكر (السير توماس رد) أنه قابل فى جزيرة مدغشقر سنة ١٤١٥ ربانًا عربيًا (يدعى المعلم إبراهيم) أصلح له الخريطة التى كان يحملها عن ملامح تلك المنطقة (٢٨).

ثالثًا : الملاحة الفلكية وتطورها عند المسلمين :

علم الفلك من العلوم التى اهتمت بها البشرية لارتباطها فى العصور القديمة بالتنجيم ومعرفة الطوالع . وتظهر أهمية علم الفلك من حيث تأثيره على الملاحة البحرية وظهور علم (الملاحة الفلكية) ويرجع علم الفلك فى العصور الوسطى لأصول يونانية وشرقية وسكندرية وأوروبية وعربية (٢٩).

نقل الفرغانى - فى القرن التاسع الميلادى - علم الفلك لبطلمموس إلى العربية . وكان علم الفلك من أحب الدراسات إلى العرب بعد الرياضيات . فالنجوم منذ الأيام القديمة هى هادى العرب فى الصحراء (٣٠).

وتقدم المسلمون فى هذا المضمار تقدمًا فاقوا فيه أساتذتهم ، فأقيمت المراصد الفلكية(٣١) زمن المأمون فى كثير من نواحى الدولة . ونجح المسلمون بفضل تبادل الملاحظات فى مراجعة جداول بطلميوس الفلكية ، وتحديدهم بشكل دقيق ميل سمت الشمس وكذلك مدارها ومدار القمر والكواكب . وحدد البيرونى بطريقة بارعة - كما ذكرنا من قل - محيط الكرة الأرضية ، كما حدد المسلمون فى جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة فى المساجد بفضل علم الفلك وعلم الرياضيات الذى ارتبط بعلم الفلك وتفوق فيه العرب والمسلمون أيضًا . وكان معلما أوروبا فى هذا الميدان اثنين من أقدم الفلكيين المسلمين وهما : الفرغانى والبتانى (٩٢٩م) اللذين تمتعًا بشهرة ذائعة فى أوروبا تحت اسم (الفرجانوس) Alfraganius و (الباتيجينوس) Alba-tegniues . والمصطلحات الفلكية ذات الأصل العربى أكبر دليل على دور العرب الحضارى فى علم الفلك (٣٢).

ويؤكد جوستاف لوبون : أن العرب هم الذين نشروا علم الفلك فى العالم كله بالحقيقة (٣٣). وظل علم الفلك عند المسلمين محفوظًا له مكان الصدارة حتى منتصف القرن السادس عشر حينما حل نظام كوبرينكس الفلكى محل النماذج الفلكية التى وضعها ابن الشاطر ومدرسة

مراغة الفلكية وقد اعتمد ملاحو المحيط الهندى من المسلمين على الاسترشاد بالأجرام السماوية كما فعل أحمد بن ماجد ويظهر ذلك فى استخدام الإسطرلاب والبوصلة والكوادرانت(٣٤).

هذا ويلاحظ أنه عندما استمرت الكشوف الجغرافية تتوغل جنوباً غاب النجم القطبى فى الأفق ، وعندما اقتربوا من خط الاستواء فقدوا رؤيته تماماً ، وأصبح من الصعوبة تحديد خط العرض فى نصف الكرة الجنوبى فكان ذلك صدمة لملاحى أوروبا فى القرن الخامس عشر(٣٥).

وفى عام ١٤٨٤م استشار الملك جون الثانى مجموعة من رجال الفلك ، فقالوا أن خط العرض يمكن حسابه عن طريق ملاحظة ارتفاع الشمس فى منتصف النهار ، ونتيجة لهذا الحساب فإن الملاحين سيكونون فى حاجة إلى جداول تبين الميل الزاوى للشمس وهنا كان لدراسة الفلك عند المسلمين عن السماء أهميتها وفاعليتها ، فعن طريق اليهود أمكن ترجمة ونقل جداول الارتفاعات على يد برتغالى يهودى اسمه : إبرهام زاكوتا (Abraham Zacuta) عام ١٤٧٨م – وكان أستاذ لعلم الفلك فى جامعة سلامنكا بإسبانيا salamanka ، وهاجر نتيجة لطرد اليهود من إسبانيا إلى لشبونة وعمل فى خدمة البلاط الملكى كرجل فلك وكتب جداوله بالعبرية (٣٦).

وفى المؤتمر الذى أقامه الملك جون الثانى ، تمت ترجمة هذه الجداول إلى اللاتينية ثم بعد ذلك بفترة قصيرة نشرت باللغة البرتغالية كجزء من رسالة عامة عن الملاحة بعنوان : Oregi-mento Du Astrolabio ، فكان ذلك أول دراسة علمية وعلامة على التقدم فى علم الملاحة الفلكية . وقامت البرتغال عام ١٤٨٥ بإرسال بعثة إلى غينيا بحراً لاختبار العلم الجديد الخاص بمعرفة خط العرض .

فكان فى بداية القرن الخامس عشر من الصعوبة بمكان على الملاح الأوروبى تحديد موقعه بدقة لأنه لم تكن لديه الوسائل العلمية الخاصة بذلك ، فإذا فقد ولو مرة واحدة رؤيته للساحل سبب له ذلك خطراً شديداً ، لذلك كان الملاح باستمرار يضع نظره على الساحل .

أما فى نهاية القرن الخامس عشر أصبح لدى ملاحى عصر النهضة الأوروبية وسائل عديدة لكشف خطوط العرض بتقديرات متفق عليها عن الطول الجغرافى لدرجة العرض (٣٧) . كما كان لديه خرائط يمكن تسجيل ملاحظاته عليها ، وقد استفاد هؤلاء الملاحون بلا شك من

التراث الجغرافى والخبرة الملاحية والفلكية وأدوات الرصد والقياس ألتى كانت لدى المسلمين فى الأندلس وفى المحيط الهندى والبحر المتوسط .

ثالثاً : آلات الرصد والقياس :

استفاد ربابنة السفن من آلات الرصد والقياس التى ابتكرها المسلمون وأدخلوا عليها تعديلات قيمة منذ عرفوا الملاحة فى عرض المحيط ، وعلى هذا فإن حركة الكشوف الجغرافية استفادت كثيراً من هذه الآلات ونجملها فيما يلى :

١ – الإسطرلاب (٣٨):

وهى آلة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم ولم يصنع منه أحسن مما صنع العرب بشهادة أوروبا نفسها . وفى متحف باريس إسطرلاب من صنع أحمد بن خلف من منتصف القرن العاشر الميلادى ، يفوق فى صناعته وتدريجه ما صنع من هذه الآلة فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

والإسطرلاب عبارة عن قرص مستدير مقسم إلى ٣٦٠درجة به ذراع متحرك مثبت من المركز ، ومؤشر يتخذ الموضع العمودى على الأفق . ولاستعماله يحرك الملاح الذراع على الدائرة ليقيس الزاوية بين النجم القطبى مثلاً والاتجاه الرأسى الذى يدل عليه المؤشر . وعلى ذلك تكون الزاوية المكملة للزاوية المحصورة بين الذراع والمؤشر مساوية لارتفاع القطب فوق الأفق (٣٩).

ويؤكد ول ديورانت فى كتابة قصة الحضارة أن المسلمين قد ادخلوا على الإسطرلاب تحسينات كثيرة ووصل منها إلى أوروبا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر الميلادى . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية (٤٠).

وقد استعمل البرتغال الإسطرلاب ربما لأول مرة فى عام ١٤٥٥م وأثناء رحلاتهم على الساحل الغربى لإفريقيا ، كما استعمل ملاحهم ديجو جوميز Diego Gomez ربع الدائرة فى عام ١٤٦٢م(٤١).

٢ – ربع الدائرة (الكوادرانت) (٤٢):

وهى آلة تمثل قوساً قدره ٩٠ درجة من الإسطرلاب ، وتقيس ارتفاع الأجرام فوق الأفق هى الأخرى عن طريق قياس زاوية الظل أيضاً . ومن ربع الدائرة عرف الأوروبيون فى القرن

السابع عشر سدس الدائرة أى (آلة السدس) Sextant المعروفة حاليًا فى الملاحة والتى ابتكرها إسحق نيوتن .

ويلاحظ أن الإسطرلاب وآلة ربع الدائرة اختراع عربى بالنسبة للأوروبيين ، فقد نقلوا فكرتيهما عن العرب إبان الحروب الصليبية وإن شاع استعمال هذه الآلات عند الفرس والهنود من قبل . ويعتمد كل من الإسطرلاب وربع الدائرة فى قياس زاوية ارتفاع النجم فوق الأفق على الخيط والثقل المدلى من المركز والذى يتخذ دائمًا الوضع الرأسى بالنسبة للأفق (٤٣).

وفى عصر الكشوف الجغرافية لم يكن لدى الإسبان والبرتغال سوى الإسطرلاب وربع الدائرة فى تحديد خط العرض أو رصد ارتفاع النجوم فى السماء ، هذا فى الوقت الذى أبطل فيه العرب استعمال هاتين الآلتين ، اللهم إلا لتحقيق أرصادهم أثناء رسو السفينة فى ميناء أو جزيرة ، بل استعملوا آلات أخرى من ابتكارهم تلائم طبيعة القياس من على ظهر المركب فى البحر ، ومن ثم فقد اعتمد العرب فى قياسهم لارتفاع النجوم على آلات أخرى تتفق وهذه الفكرة ، وقد سبق العرب البرتغال فى هذه التفكير وفى استعمال هذه الآلات (٤٤).

كما أنه فى المقابلة التى تمت بين فاسكو داجاما ومرشده الربان المسلم فى مالندى يذكر لنا المؤرخين البرتغال كيف أن الملاح البرتغالى قد أخذته الدهشة حين اطلع على الآلات التى يقيس بها العرب ارتفاع النجوم ، وهو نفسه لم يكن لديه سوى إسطرلابات خشبية وأرباع الدوائر (٤٥).

٣ – القياس بالأصابع :

أوجد ابن ماجد صلة بين تقسيم دائرة الأفق إلى ٣٢ جزءًا تماثل أخنان البوصة وبين استخدام قبضة اليد والذراع مبسوطة فى اتجاه البصر أمام الراصد . فقبضة اليد من الخنصر إلى الإبهام والذراع ممدودة إلى الأمام تمثل $\frac{١}{٣٢}$ جزء من محيط الدائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف فلو استقبلنا الشمال لأمكن باستخدام قبضة اليد فقط التعرف على أى اتجاه آخر فى دائرة الأفق (٤٦).

٤ – آلة الكمال(٤٧) :

وهى خشبة على شكل متوازى مستطيلات يتصل من وسطها خيط مدرج بعقد تختلف المسافة بين كل عقدة وأخرى حسب نظام زاوية الارتفاع . ولاستعمال هذه الآلة يثبت الراصد الضلع الأسفل لمتوازى المستطيلات على الأفق بحيث يماسه الضلع الأعلى ويماسه النجم

المرصود وهو فى هذه الحالة يقرب الخشبة أو يبعدها حتى يحصل على هذا الوضع ثم يقرأ مباشرة عدد العقد التى بين العين أو طرف الأنف ووسط الخشبة . ويوضح هذا العدد ارتفاع النجم بالأصابع . وهذه القاعدة مبنية على حساب المثلثات ، ومنها يمكن معرفة خط العرض برصد النجم القطبى (٤٨).

٥ – آلة البلستى (٤٩):

وهى تشبه الألواح أو الخشبات سالفة الذكر ، غير أنه قد استعيض عن الخيط المعقود فيها بمسطرة مضلعة من الخشب أو الأبنوس ومدرجة إلى أصابع ينزلق عليها مربع القياس .

٦ – آلة الأربليت (٥٠):

وهو نوع آخر من عصا القياس يستخدم من الأمام أو من الخلف لرصد ارتفاع النجوم أو الشمس نهاراً يشبه إلى حد كبير البلستى ، ويعتمد تدريجه أيضاً على الربع المجيب ، ويطلق على هذه الآلة أحياناً اسم " الصليب الهندسى " وأحياناً أخرى " عصا يعقوب " . وكل هذه الآلات فى الواقع مردها إلى عصا الخوارزمى . وجدير بالذكر أن البرتغال قد نقلت فكرة هذه الآلة وكذلك البلستى عن العرب فى القرن الخامس عشر الميلادى (٥١).

٧ – وردة الرياح العربية (٥٢):

وهى تمثل دائرة الأفق ويوضح عليها الجهات الأربع ، وتعرف هذه الدائرة باسم (وردة الرياح) وتنقسم إلى ٣٢ قسماً متساوياً معروفة باسم (الأخنان)(٥٣) أو المنزل ، وهذا هو نفس التقسيم الذى استعمل فى (الحقة) والدائرة وبيت الإبرة المعروفة حالياً باسم البوصلة الملاحية وكان التقسيم للتعرف على الجهة التى تهب منها الرياح . ويعتمد هذا التقسيم العربى على مطالع ومغارب نجوم ملاحية معينة . أما الشمال فيشير إليه قطب (الجاه) والجنوب فيشير إليه قطب (السهيل) وأما الشرق فيشير إليه مطلع الطائر وأما الغرب فيشير إليه مغيب الطائر(٥٤) وقد نقل البرتغال فى القرن السادس عشر هذه الدورة عن الملاحين العرب كما أشار إلى ذلك دى سوسيرا (٥٥).

٨ – البوصلة الملاحية أو بيت الإبرة :

ظهرت البوصلة الملاحية أولاً عند أهل الصين والعرب ، وتنقسم إلى الإبرة المغناطيسية نفسها ثم تقسيم دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية والأقسام الصغيرة المتساوية التى بين كل جهتين منها وذلك على ورقة أو لوح وهو ما يعرف باسم (وردة الرياح) السابق ذكرها ، وهى أسبق فى الوجود وفى الاستعمال فى الملاحة من الإبرة المغناطيسية .

واستعان الملاحون المسلمون في المحيط الهندى ببيت الإبرة منذ وقت متقدم ولا يمكن الحكم على أن الصينيين قد سبقوا العرب إلى استخدام البوصلة فى الملاحة ، بل إن المرجح أن العرب عرفوا خواص الحجر المغناطيسى أثناء تجارتهم مع الصينيين ، ثم طبقوا الفكرة لمعرفة الاتجاه أثناء سير السفينة في البحر . وعلى أية حال فقد سبق الشرق أوروبا بثمانية قرون على الأقل فى الاستعانة ببيت الإبرة فى التعرف على الجهات الأربع الأصلية .

رابعًا : فنون الملاحة البحرية :

الملاحة الساحلية : قد سبقت الملاحة فى أعمال البحار أو البحر المفتوح (open sea) بقرون عديدة ، فالملاحة الساحلية تعتمد على ملازمة الساحل طول الوقت والتعرف على معالمه البارزة مثل رؤوس الخلجان والجبال والتلال وما إليها للتحرك من مكان لآخر .

الملاحة فى البحار المفتوحة : تعتمد بالدرجة الأولى على معرفة الاتجاه فى عرض البحر سواء بالشمس نهارًا أو بالكواكب والنجوم ليلاً أى بالملاحة الفلكية . وقد عرف عرب الجنوب الملاحة الفلكية قبل الإسلام بقرون . وكانت مراكب العرب والفرس تحمل التجارة إلى موانى كمبوديا والصين خلال القرن الثامن والتاسع الميلادى (٥٧).

المرشدات الملاحية : وعرفت أيضًا باسم (الرهنامات)(٥٨) وقد دون أحمد بن ماجد كثيرًا من هذه المرشدات على صورة أراجيز .

علم الإشارات البحرية : وهو يعتمد إلى حد كبير على ملاحظة الأسماك والطحالب وحشائش البحر وأنواع الطيور ولون المياه وفى أحيان كثيرة على سبر العمق أيضًا للتعرف على البعد أو القرب من الشاطىء أو على معرفة سواحل أو جزر بعينها ، أيضًا معالم الساحل المشهورة من جبال وجونات وشعاب مرجانية . وقد استغل الربابنة المسلمون ، مثل أحمد بن ماجد والمهرى ، هذه الإشارات البحرية فى التعرف على الطريق الملاحى . وعن المسلمين نقل الملاحون الأوروبيين الكثير من هذه الإشارات التى يسرت لهم الملاحة فى نصف الكرة الغربى فيما بعد . بدليل أن الملاح الإسبانى (بيرو دى كويروس) يكاد ينقل حرفيًا بعد قرن من الزمان تعاليم أحمد بن ماجد . فالملاح الإسبانى يقرر فى عام ١٦٠٦م فى رحلة له فى المحيط الهادى علامات قرب البرور ومنها (الأوساخ والأجسام الصافية) التى تحملها الأنهار إلى مصابها وكذلك أنواع الطيور ولون ماء البحر ، وهى أمور قد تكلم عنها أحمد بن ماجد بتفصيل كبير فيما أسماه (علم الإشارات البحرية) (٥٩).

خامسًا : دور السفن فى حركة الكشوف الجغرافية :

بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى استفاد العرب من الأمم السابقة التى كان لها باع طويل فى صناعة السفن والملاحة البحرية وهم أحفاد المصريين القدماء والفينيقيين والفرس القدامى وأهل الصين الذين سبقوا العرب فى صنع المراكب الشراعية الكبيرة . وسرعان ما أتقنوا صناعة بناء السفن وجلبوا لصناعة السفن الأخشاب الملائمة من غابات آسيا ومن الهند ومن جزر إندونيسيا والملايو ومن ساحل إفريقيا الشرقي ، وصنعوا لهم طرازًا خاصًا من السفن الكبيرة لها أشرعة مثلثة الشكل ، وقد ورد ذكرها فى مؤلفات أحمد بن ماجد وفى رحلة التاجر سليمان المهرى .

أسطول المحيط الهندى :

نجد سيادة العرب الملاحية ومعرفتهم بأسرار الملاحة ومواكبة ذلك لانتشار الإسلام على سواحل وجزر المحيط الهندى ووجود الجاليات الإسلامية فى أغلب موانى المحيط (٦٠).

وكانت السفن الإسلامية سهلة الاستعمال ويمكن الاعتماد عليها وهى صالحة للملاحة وكانت تمخر عباب المحيط الهندى فى القرن الخامس عشر أحسن صنعة وتصميمًا من أى سفينة أوروبية في ذلك الوقت (٦١). وقد تفوق ملاحو المحيط الهندى على ملاحى البحر المتوسط فى العصور الوسطى وحتى قبل عصر الكشوف الجغرافية التى قام بها البرتغاليون والإسبان فى أدوات الملاحة أو قياسات النجوم ومعرفة الانحراف وقياس المراحل والدوائر الملاحية ، كما يتضح من نصوص ابن ماجد وسليمان المهرى ، وأيضًا مؤرخى البرتغال : كاستنهيدا ودى باروش عن رحلة فاسكو داجاما إلى الهند .

أسطول حوض البحر المتوسط :

سيطر المسلمون ، إبان العصور الوسطى ، على معظم سواحل وجزر حوض البحر المتوسط وأضحى لهم قواعد بحرية ممتدة من شرقه إلى غربه : فى عكا والإسكندرية وجزيرة كريت وتونس وصقلية وبارى Bari وجارليانو وطارنت بجنوب إيطاليا وعند ساحل نابلى فى جزيرة بونتزا Pontza وفى جنوب فرنسا على ساحل بروفانس فى فراكسنتم Fraxinetum وكذلك فى جزيرة كامرج وجزيرة ماجلون غربى نهر الرون ، هذا بالإضافة إلى قواعد جزر البليار : (ميورقة ومينورقة ويابسة) وقواعد سواحل إسبانيا (٦٢).

وبانتقال الجزر الهامة فى البحر المتوسط إلى أيدى المسلمين فضلاً عن أغلب سواحله توافر لهم الحصول على المواد الأولية اللازمة لبناء السفن مثل الخشب والحديد من صقلية وشمالى إفريقيا وغربى تونس والأندلس قرب طرطوشة وأيضًا عن طريق التجارة مع البندقية حصلوا على الأخشاب والحديد رغم احتجاجات البابوية على المتاجرة مع المسلمين فى المواد الحربية(٦٣).

وهكذا أصبح حوض البحر المتوسط بحيرة إسلامية وظل كذلك حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . وأن قوة الأسطول الإسلامى منذ العهد الأموى فصاعداً ، ثم قوة الأسطول المصرى زمن الفاطميين ، ونشاط أبى الحسين مجاهد الدانى العامرى فى القرن الحادى عشر الميلادى من قواعده فى جزر البليار وسردانية ، كل ذلك أتاح للمسلمين السيطرة على معظم حوض البحر المتوسط (٦٤).

الأسطول الأندلسى :

يهمنا الحديث عن أسطول الأندلس فى العصر الإسلامى باعتباره نواة الأسطول البرتغالى والإسبانى فى مرحلة الحملات الكشفية فى نهاية القرن الخامس عشر .

وكانت أهم دور الصناعة بالمغرب والأندلس تلك التى أنشئت فى ثغور بجاية وسبتة وطنجة والجزيرة الخضراء وطرطوشة ودانية (٦٥) . وكانت معظم أخشاب السفن يؤتى بها من جبال طرطوشة ووادى بجاية ، وفى جزيرة سلطيش الغربية من ساحل الأندلس ازدهرت صناعة السفن الحديدية على نحو لم يكن له مثيل فى ذلك الزمن (٦٦).

وكان الأسطول التجارى الأمدلسى يزيد على ألف سفينة ، ويقوم بحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقيا وآسيا . وكانت السفن القادمة من مائة ثغر يزدحم موانى برشلونة وقرطاجة وبلنسية وملقة وقادس وإشبيلية (٦٧).

تركزت أغلبية القواعد البحرية فى إسبانيا على طول الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوشية وبلنسية وكان ذلك للعداء المستحكم بين مسلمى إسبانيا وبين دول الفرنجة . وكانت مدينة المرية Almaria فى الجنوب الشرقى من إسبانيا ، هى القاعدة الرئيسية للبحرية الأندلسية وفيها معظم دور الصناعة ، كذلك وجد بها أسطول دائم تألف من ٢٠٠ سفينة ويليها فى الأهمية قاعدة بجاية Bovgie وطراكونة أو (طرقونة) ثم طرطوشة ولقنت شمالى مرسية وكذلك شريش وطرش وشلب وقرطاجنة (٦٨).

أسطول المحيط الأطلسى الإسلامى :

كانت له قاعدة هى الأشبونة أو لشبونة وفى كل قاعدة دار صناعة وإدارة خاصة وفى وقت السلم يرابط عدد من السفن فى هذه القواعد ، وهذه تتجمع كلها فى مكان واحد وقت الحرب ، ولكل سفينة قبطان مسئول عن الأسلحة والمحاربين ورئيس للبحارة (يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه فى مرفئه(٦٩)) وكانت أجور رجال البحرية مرتفعة ويعتبر أمير البحر فى دولة بنى أمية بالأندلس أحد الكبار الأربعة الذين تعتمد عليه الدولة ويقال له (قسيم الخليفة) فى السلطان ، فهذا يحكم البر وذاك يحكم البحر (٧٠).

البرتغال والإسبان يقتبسون الفن البحرى الإسلامى :

اقتبس البرتغال والإسبان من العرب أنواع السفن من حيث التصميم والتشغيل ، كما اقتبسوا الشراع المثلث من العرب – كما سنرى – وكذلك الخارطات الملاحية والملاحة الفلكية والإسطرلاب وآلة الربع ووردة الرياح والبوصلة الملاحية إلى غير ذلك . أضف إلى ذلك أن أهل المغرب الإسلامى كانوا يحولون السفن التى يستولون عليها من أعدائهم الأوروبيين إلى سفن إسلامية ومن ثم فإن الاقتباس من كلا الجانبين كان متاحًا فى الفن البحرى .

تجهيزات السفن الإسلامية :

تميزت السفن الإسلامية فى عصر السيادة بتجهيزاتها المتفوقة وسأتناول هنا بعض هذه التجهيزات التى اقتبسها الأوروبيون عامة وإسبانيا والبرتغال بخاصة وكان لها أثرها الحاسم فى نجاح حركة الكشوف الجغرافية ، وسأركز هنا على الشراع المثلث باعتباره قوة محركة للسفن فى ذلك العصر .

الشراع المثلث :

كان الشراع المصرى القديم قائم الزوايا (مربع أو مستطيل) وكذلك كان الشراع العربى فى أول الأمر ثم تحول إلى الشكل المثلث ليوفر للسفينة حرية أكبر لتفادى الشعاب المرجانية التى تزخر بها شواطىء البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وأيضًا لسهولة تحويل مسار السفينة بسبب كثرة تغير الرياح فيها . والحقيقة أن فكرة الشراع المثلث فكرة مصرية قديمة(٧١) فقد ظهر هذا الشراع فى السفن النيلية ولكن قمته كانت لأسفل أى أنه كان على شكل (مثلث مقلوب) وكانوا يستخدمونه فى السفن النيلية وفى السفن البحرية لأنه يوفر للملاحين أو

المحاربين حرية أكبر فى تحويل اتجاه السفينة لإمكان الإبحار عكس اتجاه الرياح الشمالية السائدة فى مصر فى حالة السفن النيلية أو لاختراق صفوف سفن الأعداء فى حالة السفن الحربية .

وقد انتقل الشراع المصرى ذو الشكل المثلث المقلوب إلى أحد شعوب البحر الأحمر القديمة الذى يطلق المصريون على بلادهم اسم " بونت " وظهر ذلك في رسوم على جدران مزار مقبرة ترجع لعصر الأسرة ١٨ الفرعونية (حوالى القرن ١٥ ق.م) .

وربما أخذ العرب فكرة الشراع المثلث من هذا الشكل ، ولكنهم جعلوا طرفه المدبب لأعلى وليس لأسفل كما هو الحال فى الشراع المصرى (٧٢).

تميز شراع السفن العربية بأنه مثلث ، وكان هذا الشراع هو المساهمة العربية من حيث تطوير علم بناء السفن . ويذكر بارى(٧٣) أن هذا الشراع المثلث كان مميزاً للسفن الإسلامية كما يميزهم الهلال نفسه . ولكن رغم مزاياه فله بعض العيوب وهى أن مناورة الدوران بالنسبة لهذه السفينة صعبة ، فرياح المحيط الهندى قلما تجعل السفينة فى حاجة إلى الدوران ، وإذا أراد الربان تغيير مساره بالدوران وجد صعوبة فى ذلك (٧٤).

وكان البحارة فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى قد تعلموا فن الإبحار فى وجه الريح بالأشرعة المربعة التى كانت أكثر شيوعًا فى الشمال ، من الشراع المثلث الخاص بحوض البحر المتوسط الذى كان قد جاء من الشرق الأدنى ليحل فى ذلك الجزء من البحار محل الشراع المربع القديم (٧٥).

فكانت السفن الأوروبية سنة ١٤٠٠م مزودة بشراع مربع الشكل وعندما تكون الرياح خلف السفينة تدفعها للأمام وتسير فى طريقها ، وإذا كانت الرياح عكسية تبقى السفينة فى الميناء غير قادرة على الإبحار (٧٦). وكان فى مقدور هذه السفينة حمل عدد آخر من الأشرعة ، إلا أن سفن ذلك العصر لم تزد هذه الأشرعة وظلت تسير بشراع واحد ، حاملة عدداً كبيراً من الرجال والبضائع الضخمة ، وكانت رحلاتها لمسافات قصيرة وبرياح معتدلة ، ولم تلعب تلك السفن أي دور فى حركة الكشوف الجغرافية المبكرة لعدم صلاحيتها لهذا العمل .

أما البرتغال فقد فضلت سفنًا أخرى صغيرة شراعية ، وكان شكل الشراع مثلثًا : (Lateen Caravel) وكان للعرب فضل كبير فى هذا المجال ، مما حدا بأحد المؤرخين

الأجانب (بارى) بأن يصف فضل العرب الكبير فى هذا المجال على البرتغال بقوله : " وكان العرب هنا معلميهم أيضًا " (٧٧) : " Here Too The Arabs Were Their Teachers "

وهناك تقرير كتبة بيللوك عن استخدام المسلمين للشراع المثلث يقول فيه : " وإبان نهضتهم فى القرن السابع ترك العرب صحراءهم واتجهوا إلى البحر ، وأصبحوا بعد وقت قصير من ركوب البحر ، كما هو الحال فى الفلسفة ، أساتذة لرعاياهم الجدد ، وأخذوا ذلك الشراع الذى وجدوه فى جميع المناطق التى قهروها ، وخففوا العارضة الأفقية وأطالوها ، كما رفعوا مقدمة الشراع عاليًا ، وشدوا أسفله إلى تحت ، وسرعان ما كان لديهم الشراع المثلث الذى ربما يبقى ، على حين ينثر كل دليل آخر على طاقتهم القاهرة . فبمثل هذا الشراع قادوا أسطولهم الأول مما جعلهم يستولون بسرعة على جزر البحر المتوسط "(٧٨) ويرى البعض أن الشراع المثلث عرف فى القرن التاسع الميلادى (٧٩).

وقد اتسمت بعض سفن المحيط الهندى باستخدامها الشراع الممتد بطول السفينة وقد مر هذا الشراع بعدة مراحل حتى وصل إلى صورته المثلثة فى السفن العربية (٨٠).

والشراع المثلث المعروف فى البحر المتوسط بالشراع اللاتينى ليس لاتينيًا على الإطلاق ، ذلك أن العرب هم الذين أدخلوه فى البحر المتوسط حيث كان الشراع المربع ذا الكفاءة الأقل أثناء هبوب الرياح ، بينما تميز الشراع المثلث من غيره بأنه يستثمر الرياح أفضل وأسرع(٨١).

ويذكر البعض أن الشراع المثلث الذى نقله العرب للبحر المتوسط عرف فى اللغات الأوروبية باسم عربى هو (الميزان) وكانت السفن المزدوجة الصارى المثلثة القلع مقصوراً على البحر المتوسط .

وميزة هذا النوع من السفن هى قدرته على الإبحار عكس اتجاه الريح ، فى حين لم يكن بوسع القرقور الضخم ذى الأشرعة المربعة الذى عرفه البحر المتوسط غير الإبحار فى اتجاه الريح . وقد اقتبس صناع السفن الأوروبيين الشراع اللاتينى وطوره ، وهو ما مكنهم فيما بعد من بناء سفن أكبر حجمًا وقادرة على عبور المحيط الأطلسى ، وعلى النهوض بغيرّ ذلك من رحلات الاستكشاف العظيمة ، وقد تحققت أهم الإنجازات فيما بين عامى ١٤٠٠م ، ١٤٩٠م على يد صناع السفن البرتغاليين والإسبان فقد زادوا أولاً من عدد الصوارى فى مؤخرة السفن وبهذا زيد من مساحة الأشرعة بحيث باتت تكفى لدفع سفن كبيرة الحجم نسبيًا (٨٢).

وسائل الاتصال :

استخدم الحمام الزاجل على السفن الإسلامية كوسيلة اتصال سريع بين مختلف وحدات الأسطول أو مع القيادة العامة فى البر ، فكان يطير لمسافات بعيدة يحمل الأخبار . كذلك كان ضمن معدات أسطول صقلية أسراب من الحمام للاتصال السريع (٨٣).

أنواع السفن الإسلامية :

اختلف شكل السفن الإسلامية من بحر لآخر ، فسفن البحر الأحمر مثلاً تختلف عن سفن البحر المتوسط وأيضًا عن سفن المحيط الهندى . فسفن البحر المتوسط ذات مسامير لذلك سميت بالمسمارية ، أم سفن البحر الأحمر فكانت تخاط بالألياف خوفًا من أن يأكل المسامير أو الخوف من جبال المغناطيس - كما اعتقد البعض - التى قد تجذب السفن للقاع (٨٤). ولقد كان لاتساع التجارة في العالم الإسلامى فى عصر الازدهار علاوة على الصدام البحرى مع الغرب المسيحى أثره فى ظهور أنواع عديدة من السفن الإسلامية من حيث الشكل والحجم والتشغيل . وبلغ من تفنن العرب فى صناعة السفن أنهم كانوا يصنعون منها عشرات الأنواع وقد أطلق على كل منها اسم معين يختلف باختلاف حجمها وشكلها وطريقة صنعها والغرض الذى تصنع من أجله والمناطق التى تستخدم فيها .

وامتد أثر ذلك الفكر الهندسى فى العصر الحديث (٨٥)، حيث اقتبس هذا الفن الهندسى البحرى الإسلامى فى تصميم وتشغيل هذه السفن وطبقها فى السفن الحديثة نذكر بعضًا منها :

١ - سفن الدحرجة : **RO/RO** (٨٦).

عرف هذا النوع من السفن فى العصر الإسلامى باسم : " الطريدة " ، وجمعها طرايد وطرائد وطرادات . وقد وصفها الزبيدى فقال : " الطراد ، سفينة صغيرة سريعة السير والمجرى والعامة تقول (تطريدة) وقد وضعها (النويرى السكندرى) فى قائمة السفن التى تستعمل فى البحر المتوسط ، وأضاف جديدا فى وصفها حين قال : " وأما الطرايد فإنها مفتوحة المواخير ، أى المؤخرة ، بأبواب تفتح وتغلق معتدة لحمل الخيل بسبب الحرب " (٨٧).

كما وصفها ابن بطوطة قبله بقوله : " ... وكان عندنا طريدتان مفتوحتى المواخير فيها الخيل بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرج ويخرج ... إلخ " (٨٨).

ويضعها . ابن منكلى ، فى قائمة مراكب البحر المتوسط . ويذكر ابن مماتى : " أنها سفينة برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً . كما يذكر ابن واصل أن الطريدة كانت تحمل إلى جانب الخيل راكبين " (أى مترجلين) ويحدد ابن منكلى حمولة الطريدة بثمانين فرساً (٨٩).

وكانت سبتة فى أيام السلطان أبى الحسن المرينى مركزاً لبناء وإصلاح الطريدة ، (شكل ١٠) ومعنى ذلك أن هذا النوع من السفن عرفه الغرب والأندلس الإسلاميين ، ويؤكد الدكتور العبادى أن الطريدة كانت تستعمل فى المغرب الإسلامى والأندلس لتكون هى سفينة القائد الأعلى فى الأسطول الحربى . ويستدل من النصوص أن الطريدة لم تستعمل إلا فى نقل الخيول والفرسان فحسب ، أى أنها لا تشارك فى القتال الذى قد يدور فى البحر ، وجواز استعمال الناس لها فى أسفارهم البحرية مع ما تحمله من أمتعتهم ، فهى أشبه بالسفن التجارية التى قد تنقلب إلى نوع من المراكب الحربية المقاتلة فى وقت الحاجة (٩٠).

أما السفن الأوروبية التى استخدمت فى نقل الصليبيين – فى العصور الوسطى – فكانت تتسع الواحدة منها لثمانمائة شخص ، وكانت بعض السفن تجهز لنقل الجياد ، وكانت هذه تدخل السفينة من خلال فتحات فى جانبى السفينة ثم تعلق الجياد بأحزمة حول بطونها فى الأماكن المعدة لها . وكان الغرض من ذلك إتاحة الفرص للجياد لتحريك قوائمها وتنشيط الدورة الدموية فى أجسامها خلال تلك الرحلة الطويلة . وكان الفراغ المخصص لكل جواد هو ٧٦,٥ سنتيمتر (٩١).

وبعد ذلك اقتبس الأوروبيون من المسلمين سفن الطريدة فى العصور الوسطى (شكل ١١) واشتقوا اسمها من العربية فسموه بالإسبانية Tarida وفى الإيطالية : Tartan وفى الفرنسية: Tartane وفى الإنجليزية : Tartan (٩٢).

٢ – سفن نقل الغلال **Bulk Carrier** :

عرف هذا النوع فى السفن الإسلامية باسم : " حمالة " وجمعها " حمالات " وهى من المراكب المتخصصة فى حمل الغلال ، وكانت كذلك من ملحقات الأسطول الحربى مخصص لنقل مؤنة الجيش وزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول . ويذكر ، أبو شامة ، ضخامة هذا النوع من السفن الذى يسع الواحد منها نحو ١٢٥٠ رجلاً (٩٣) أى أن هذا النوع من السفن يندرج أيضاً تحت بند " سفن الإمداد والتموين " (Supply Vessels).

٣ – سفن الروافد Feeder Vessels :

يعرف فى السفن الإسلامية باسم : قياسة وجمعها قياسات وقيايس ، وهى من سفن النقل والشحن النيلية وكانت القياسة تنقل البضائع من السفن الراسية فى الموانى إلى داخل البلاد عن طريق النيل (٩٤). استفاد مهندسو السفن من هذه الفكرة وطبقوها على سفن صغيرة تعرف فى العالم البحرى اليوم باسم سفن الروافد وهى تنقل البضائع من السفن العملاقة ذات الغاطس الكبير وتدخل إلى الموانى ومصبات الأنهار حيث يسمح لها غاطسها البسيط بالإبحار فيها .

٤ – سفن نقل الركاب Passenger Vessels :

ويطلق عليها اسم جاكر أو الذهبية والجاكر نوع من السفن المستعملة فى المحيط الهندى لنقل المسافرين ، وتزود عادة بالمقاتلة لحماية ركابه من هجمات لصوص البحر (القراصنة) ، وقد ذكره ابن بطوطة فى معرض كلامه عن سلطان قندهار بالهند بقوله : " وكان فيه خمسون راميًا وخمسون بين المقاتلة الجشية وهم زعماء هذا البحر " (٩٥).

٥ – سفن نقل الحيوانات Cattle Carriers :

وهى سفن متخصصة فى نقل الحيوانات مثل الجمال والخيول وما إليها ، فمثلاً السفينة التى تنقل الجمال يطلق عليها اسم (جميلة) وهى من أنواع الزوارق الكبيرة ذات مؤخرة مربعة وهناك نوع من السفن تسمى : (قربلة وقربيلة) وتنقل الخيول وتسمى بنفس الاسم فى الإسبانية Carabla وبالفرنسية Caravella وتفسر المعاجم الفرنسية هذا النوع بأنه من السفن التركية أو الإيطالية أو الإسبانية أو البرتغالية وله أربعة صوارى وأشرع لاتينية (أى مثلثة) وتضيف هذا المعاجم أن كولومبس اكتشف أمريكا بأربعة من هذه المراكب(٩٦) .

٦ – سفن النزهة أو السياحة : Cruise Vessels :

سميت هذه السفن بأسماء متعددة مثل : الأهورة والزلال والحراقة والطيار . فقد استعملت الأهورة فى النزهات البحرية للأمراء وعند سيرها تحفها مراكب فيها الأتباع والندماء وأصحاف القصف واللهو (٩٧). أما سفن (الزلال) وجمعها (زلالات) فهى نوع من السفن العراقية النهرية كانت معروفة فى بغداد أيام الخلفاء وكانت تستخدم فى النزهات النهرية والملاهى ولسماع الغناء (٩٨).

٧ – المعديات أو العبارات Ferries :

وقد كانت تسمى (شختور) أو (شختورة) وجمعها (شخاتير) وهى من المراكب النيلية التى استعملت فى عبور الناس للنيل (من الشط للشط الآخر) كما يطلق عليها اسم : (المعادى) ، وأيضاً نجد (المعبر) وهى نوع من السفن الصغيرة يعبر على ظهرها العساكر من شاطىء لآخر أو من مكان لآخر زمن الحرب (٩٩).

٨ – السفن الحربية War Ships :

تنوعت أشكالها وأحجامها ، وجهزت بمعدات القتال المختلفة حسب الغرض الذى بنيت من أجله ولقد بلغ الصناع المسلمون ذروة الإتقان فى تشييد السفن الحربية الكبرى : كالشوانى والحراريق والبطس والبوارج والقراقير والشلنديات والغراب وغيرها ، وكانوا يتخنون فيها الأبراج العظيمة ويشحنونها بالأزواد والأسلحة وغيرها من أدوات الحرب ، وتحمل آلاف من المقاتلين وتجعل على طبقات ، يخصص كل طبقة منها لفئة من الجند (١٠٠).

٩ – السفن الفارغة والسفن المحملة :

تهتم الموانى البحرية والممرات الملاحية فى الوقت الحاضر بتعريف حالة السفينة عند دخولها الميناء فارغة (IN Ballast) أى لا تحمل أية شحنة ، أو محملة : Looded لتحديد فئة الرسوم عليها . ونجد نفس الأمر بالنسبة للسفن الإسلامية ، فقد أطلق اسم : " الخن أو الجراب " على السفينة الفارغة ، واسم " غامد " أو " آمد " أو " غامدة " و " آمدة " على السفينة المحملة .

خامساً : بعض مظاهر الأثر اللغوى العربى على اللغات الأوروبية فى فنون وعلوم البحار :

عند دراسة اللغات الأوروبية نجد العديد من الكلمات العربية بين مفرداتها وبالأخص فى الألفاظ البحرية ومصطلحات فى الملاحة وفى العلوم الجغرافية والفلكية وأسماء السفن إلى غير ذلك من العلوم بالفنون التى أبدعها المسلمون فى العصور الوسطى . وكم نحن بحاجة إلى "معجم لغوى حضارى " لمثل هذه الكلمات العربية التى اقتبسها الأوروبيون ، فهى أوثق دليل على مكانة الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى . وسأذكر هنا بعض الأمثلة فقط لهذه الكلمات :

* كلمة طن : (Ton) وهى وحدة قياس حمولة السفينة ، وجاءت هذه الكلمة من الكلمة العربية (دَن) وجمعها (دِنان) وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها ، ويعرف الدن بأنه برميل

النبيذ . وكانت سعة السفن فيما مضى تقاس بمقدرتها على حمل عدد محدد من الدنان ، وقد تحورت الكلمة في اللغات الأوروبية إلى (طن) ، وهى كما نرى مشتقة من كلمة (دن) . فإذا كانت السفينة مثلاً تتسع لحمل ٥٠٠ برميل نبيذ ، قلنا أن حمولتها ٥٠٠ دن . وقد استخدم الدن (الطن) كوحدة لتسجيل سعة فراغات السفينة على أساس أن الدن (الطن) ١٠٠ قدم٣ أو ٢,٣٨ متر مكعب ودخلت هذه الكلمة كافة اللغات الأوروبية .

* القرقور : وهى السفينة الطويلة العظيمة وجمعها قراقير ، دخلت اللغة الإنجليزية باسم : Carrack والبرتغالية Carcora وبالإيطالية Carraca وبالفرنسية Carraque .

* الفلك : أو الفلوكة : بالإيطالية Feluca وبالفرنسية Failauque وبالألمانية Feluke وبالإنجليزية Falluca .

* الماعون : بالإيطالية Maonna وبالفرنسية Mahonne .

* الرمث : بالفرنسية Rames .

* الميزان : ويطلق على أحد قلوع السفينة وعلى الصارى الذى يركب عليه ، بالإيطالية Mezana وبالفرنسية Maisaine وبالألمانية Basahm .

* الشباك : بالإيطالية Schibecco وبالفرنسية Chebc .

* الأمراس : وهى جمع مرس وهى حبال السفينة ، وتسمى بالإيطالية ammassa وبالفرنسية amasse . ويقول العرب (أمر السفينة) أي ربطها بالمر وهو نوع من الحبال .

* أمير البحر : بالإنجليزية admiral .

ومن أسماء الرياح وما يتصل بها مثل : السموم والرياح الموسمية ومن مصطلحات التجارة البحرية مثل كلمة العوار والحوالة والوصل والنولون (النول) ومن مصطلحات فن الملاحة مثل: الهول والرصف وكلا (أى رسا) ومنها المقلا أى المرسى ومن النجوم الملاحية مثل : الثور والرجل والمرقب والمرفق والحمل وفم الحوت والدب والذنب وابط الجوزاء وآخر النهر والديران والقائد والفايس والطائر .. إلخ كلها دخلت اللغات الأوروبية بنفس منطوقها باللغة العربية .

كشف الطريق البحرى إلى الهند :

بذلت البرتغال قصارى جهدها للتعرف على علوم العرب الملاحية والفلكية و الإفادة منها قبل أن يقدموا على مغامرتهم الملاحية الكبرى بالدوران حول إفريقيا ، وقد سبق الحديث عن إسهامات العرب والمسلمين فى كافة المجالات الفكرية والحضارية المرتبطة بالملاحة البحرية .

وتجدر الإشارة إلى دور اليهود في إسبانيا في عملية نقل التراث الفكري الإسلامي للبرتغال ، ففي عام ١٤٩٢م وهو نهاية حكم المسلمين في الأندلس ، صدر مرسوم بطرد اليهود من إسبانيا فشرد أكثر من مائة وخمسون ألف يهودي في حين اعتنق خمسون ألف يهودي المسيحية (١٠٢).

وقد توجه يهود إسبانيا إلى البرتغال وأخذوا معهم علوم المسلمين الملاحية وجداولهم الفلكية وكانوا قد نقلوها من العربية إلى العبرية واحتفظوا لأنفسهم بأسرارها ، ومن بين هذه العلوم علم " المرشدات الملاحية " والخارطات المعروفة باسم " البروتولانات " وكانت مدرسة قشتالة تعد من المدارس الرائدة في هذا العلم (١٠٣). كذلك لعب التجار اليهود دوراً هاماً في نقل المعلومات العربية إلى البرتغال منذ أمد بعيد . فيحدثنا ابن خرداذبة (٨٤٦م) عن التجار اليهود الرذانية الذين كانوا يعيشون في الأندلس ويتكلمون اللغات : العربية والفارسية والإفرنجية والصقلبية ، ويقومون برحلات بين المشرق والمغرب لهذا الغرض " براً وبحراً "(١٠٤). أضف إلى ذلك دورهم في ترجمة العديد من الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية .

كذلك نجد من هؤلاء الجواسيس اليهود المأجورين من استطاع الحصول على خارطات عربية من المحيط الهندي وقدمها للبرتغال . فمن الثابت أن بعثة من هؤلاء التجار البرتغال وعلى رأسهم الفونسو دي بايفا : (Alfonso De Paiva) و بيرو دي كوفيلهام : (Pero de cavlham) ذهبوا إلى مصر سراً .

وسافر من القلزم إلى عدن على إحدى المراكب العربية ، ويقال أنهم أخذوا مركباً عربياً من عدن بعد أن تظاهروا بالإسلام ووصلوا إلى الهند قبل فاسكو دا جاما بعشر سنوات ، حيث زار كوفيلهام قاليقوت و جوا ، ومن هناك عاد إلى سفالة على ساحل إفريقيا الشرقي (على خط عرض ٢٠ْ جنوبياً) وعرف بذلك سر بلاد التوابل في هذه الرحلة ، التي كان قد استقى المعلومات عنها من مصر قبل رحيله . ويقال أن كوفيلهام كان خبيراً بأغلب لغات الشرق . وعند عودته من هذه الرحلة إلى مصر ، علم بموت صديقه دي بايفا والتقى بالقاهرة بيهوديين آخرين هما : الحاخام إبراهام دي بيا ويوسف لاميجو ، وكانا هما أيضاً في مهمة سرية خاصة من البرتغال ، لابد أنها كانت للتجسس وجمع المعلومات . وقد أبحر دي كوفيلهام مرة أخرى مع الحاخام ويوسف لاميجو إلى هرمز ومن هناك تفرقا . وقد استعان دي كوفيلهام في هذه الرحلة بكتاب ابن بطوطة ثم ذهب من هرمز إلى زيلع ومنها إلي الحبشة . وتمكن من

العودة إلى مصر ثم إلى البرتغال . وقد أحضر معه فى هذه الرحلة خارطات ملاحية عربية من المحيط الهندى (١٠٥). كذلك من بين الذين ذهبوا إلى لشبونة رجل يدعى " مارتن بهايم " Martin Behaim وكان خبيراً بالجداول الفلكية والملاحية وأسس فى لشبونة مدرسة للرياضيات والفلك عرفت فى ذلك الوقت باسم " الجونتا " Junta وقد ساعدت هذه الجماعة على إمداد فاسكو دا جاما فيما بعد بالجداول الفلكية الخاصة بالملاحة حول إفريقيا (١٠٦).

المعهد البحرى فى ساجرس Sagres :

أقام الأمير هنرى الملاح فى عام ١٤١٨م أول معهد أبحاث جغرافى فى العالم فى راس سانت فنسنت فى البرتغال فى ساجرس ، وبنى قلعة ومرصداً وقصراً ومبانى لحفظ الخرائط والمخطوطات ومساكن للمدرسين الذين استعان بهم وكانوا من الأقطار التى تقع على حوض البحر المتوسط ، بعضهم مسلمون وبعضهم يهود وإيطاليون ، ذلك أن الأمير هنرى قد فتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التى يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربى لإفريقيا ، فعزم على كشف تلك البلاد وضمها للبرتغال (١٠٧).

وأصبح لدى البرتغاليين صورة واضحة عن الطريق البحرى للهند ، فالمحيط الأطلسى متصل بالمحيط الهندى ، وهى حقيقة أكدها الجغرافيون المسلمون من قبل (البيرونى والمراكشى وابن خلدون) ، علاوة على المعلومات التى حصلوا عليها من الجواسيس اليهود ، كما سبق ذكره ، فقامت الحملات البرتغالية تكشف الساحل الغربى لإفريقيا فى مراحل متعاقبة (١٠٨). وقد ذكر العلامة الإيطالى (فرامورو) فى مصوره الجغرافى الذى وضعه عام ١٤٥٧م أن ملاحًا عربيًا أبحر حوالى سنة ١٤٢٠م من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر فى المحيط الأطلسى (١٠٩).

وفى مذكرات فاسكو دا جاما نجده يعترف بتقدم المعارف البحرية للملاحين العرب الذين قابلهم على شواطىء إفريقيا الشرقية وبدقة الآلات البحرية التى كانوا يستخدمونها وإفادته منها ، وأنه أرسل بعض هذه الآلات البحرية والمخطوطات العربية التى حصل عليها من إحدى السفن إلى الملك (مانويل) البرتغالى (١١٠).

أما المؤرخ البرتغالى ج . دى باروش(١١١) فقد ذكر أن فاسكو دى جاما التقى سنة ١٤٩٨م فى ميناء مالیندى(١١٢) بملاح مسلم يدعى المعلم كانا أو كاناكا (١١٣) وجد معه عدداً كبيراً من الخرائط والآلات البحرية . كما دهش داجاما لمعلومات الربان المسلم خاصة بعد أن

أطلعه على خرائط وآلات عربية تستعمل فى رصد النجوم ، وسرعان ما أيقن فاسكو دا جاما أنه قد عثر فى شخص الربان المسلم على كنز ثمين مما دفعه إلى الإبحار فوراً إلى الهند دون تباطؤ - يوم ٢٤ أبريل ١٤٩٨ - فوصل كلكتا بعد ٢٢ يومًا دون عناء . ومن المعروف أن فاسكو دا جاما لم يترك مذكرات لرحلته بخط يده ، وقد أرّخ لهذه الرحلة الكتاب البرتغال القدامى أمثال : لوبيز كاستنهيدا وخوا دى باروش Joa de Barros السابق ذكره . ومن المعلوم أن زلزالاً أصاب البرتغال فى عام ١٧٥٥م ودمر جانبًا كبيرًا من قصر الهند فى برشلونة وفقدت بسببه كثير من الوثائق الأصلية والخرائط التى كانت محفوظة فى أرشيف المستعمرات البرتغالية . ومن هنا جاء اختلاف الروايات حول تفاصيل رحلة دا جاما الأولى إلى الهند ، وحول اسم الربان الذى قاده إليها (١١٤).

كشف العالم الجديد :

إن مبدأ كروية الأرض - السابق الإشارة إليه - والذى رسخه الفكر الجغرافى الإسلامى داحضًا به النظريات الأسطورية اللاهوتية للكون والأرض ، هو المبدأ الذى لم يكن من الممكن كشف العالم الجديد بدونه . فقد شهد القرن الرابع الهجرى بروز هذه النظرية فى الأندلس على يد أبى عبيدة مسلم البلنسى (من أهل بلنسية) فى شرق الأندلس (١١٥).

وكان استيلاء المسيحيين علي طليطلة عام ١٠٨٥م قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية وأبقى على الاعتقاد بكروية الأرض (١١٦).

وبالنسبة للنشاط الإسلامى فى المحيط الأطلسى نجد أن السفن الإسلامية قد أبحرت فى مياه المحيط الأطلسى ، فقد حدث بعد أن نزل أهل اسكندناوة فى إسبانيا عام ٢٢٩هـ (٨٤٤م) أن كانت الأساطيل الأموية تجوب شواطىء الأطلسى وربما بلغت خليج بسكاية ، وفى سنة ٩٦٦م هاجم القراصنة الدانمركيون ساحل إسبانيا عند لشبونة وقصر أبى دانس فلقيهم الأسطول الأموى وهزمهم عند شلطيش . وفي عام ٩٩٧م جاء الأسطول بجند المنصور المشاة من ميناء الأطلسى إلى برتغال بالبحر (١١٧).

كذلك نجد رحلة قام بها يحيى الغزال إلى بلاط " ملك اسكندناوة " بعد سنة ٨٤٤م(١١٨) ونقرأ أيضًا عن خشخاش القرطبى ، الذى أقلع على متن سفن فى البحر المحيط وعاد بغنائم ثمينة وأيضًا عن مغامرى لشبونة " المغررين " وقد سمى شارع باسمهم فى مسقط رأسهم(١١٩). كذلك خبرًا عن قيام السفن الأندلسية بصيد الحيتان فى جوار إيرلندا (١٢٠).

وتذكر دائرة المعارف الفرنسية صراحة أن كولومبس اعتمد على الخرائط التى وضعها الجغرافيون المسلمون فى رحلته التى أوصلته إلى العالم الجديد (١٢١).

ويذكر البعض أن طبيب فلورنسي يدعى باولو توسكانيلي قد بعث بخطاب فى عام ١٤٧٤م لملك البرتغال " ألفونسو الخامس " يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول إفريقيا ، وذلك بالسفر بحراً لمسافة ٥٠٠٠ ميل غرباً . وكتب كولومبس إلى توسكانيلى وتلقى منه رداً مشجعاً ونضجت الفكرة في ذهنه .

بعض الدراسات الحديثة التى تؤكد سبق العرب للوصل إلى العالم الجديد:

نشرت مجلة " النيوزويك " الأمريكية فى عددها الصادر فى أبريل ١٩٦٠م ، أن أمريكا كانت معروفة للعرب ، وأن الوثائق التى عثر عليها تثبت أن العرب وصلوا قبل سنة ١١٠٠م إلى عدة مواضع على الساحل الأمريكى ولا غرابة فى ذلك فإن المصادر العربية تحفظ لنا عدة محاولات إسلامية جرت للوصول إلى أمريكا منها محاولة خشخاش والفتية المغررين – السابق ذكرها .

وكثير من المفكرين العرب المحدثون والمعاصرون يؤيدون فكرة وصول العرب لأمريكا قبل كولومبس ويقولون أن كشف كولومبس لأمريكا كان على هدى من معلومات العرب السابقة ومغامرات بعضهم . وقد مال بعض الباحثين الأجانب إلى احتضان هذا الرأى . فالعالم الفرنسى " جوتيه " يقرر أن تحقيق الدوران حول إفريقيا بواسطة فاسكو دا جاما وكشف أمريكا على يد كولومبس كان متعذراً بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب ، وأن هذين الكشفين العظيمين تما بعقول العرب ومواردهم وأشخاصهم تحت إمرة النصارى (١٢٣). ويميل الدكتور زكى محمد حسن إلى الاعتقاد بأن قصة هؤلاء الأخوة لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى ولعل كولومبس كان يعرفها ويعرف قصصاً أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضة (١٢٤).

أما عباس محمود العقاد فيرى أنه من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العرب تلقى كولومبس صورته عن الكرة الأرضية (١٢٥). ولكن العقاد يقف من قصة الأخوة المغررين موقفاً آخر ، حيث يشكك فيها ويعتبرها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك (١٢٦).

وقد كتب الدكتور جيفرس الأستاذ بجامعة " ويتواتر ستراند " الأمريكية من أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولومبس بنحو ثلاثة قرون أو أربعة ، مستنداً إلى أن المزروعات الإفريقية دخلت إلى أمريكا على يد العرب (١٢٧).

كذلك أكد المؤرخ كوندى فى إشارات له ضمن مؤلفاته أن الأسطول الإسلامى أبحر فى القرن الرابع الهجرى من ميناء لشبونة لكشف جزر (أسورس) وبعض جزر الأنتيل ، فكان أول من مزق الحجب عن المناطق المجهولة فى المحيط الأطلسى . وقال فتزلر الألمانى : " إن العرب قاموا برحلات بحرية متعددة قبل البرتغاليين لا لكشف سواحل إفريقيا الغربية فحسب بل للولوج فى البحر أيضاً مع العلم بأن الانتشار الإسلامى فى إفريقيا بلغ غايته القصوى فى القرن الثالث الهجرى وامتد جنوبياً فى غرب القارة إلى منديجو " (١٢٨).

ابن الوردى(١٢٩) يصف أمريكا قبل اكتشافها :

عاش ابن الوردى قبل كولومبس بفترة وله كتاب فى الجغرافيا الوصفية (مؤلف فى حلب سنة ٧١٥هـ / ١٣٣٥م) يذكر أنه يوجد وراء جزر الخالدات (أى كناريا) جزائر وصفها وصفاً يكاد ينطبق على أمريكا . ويغلب الظن أن كولومبس قد استلهم هذا الكتاب ، فقد انتشرت نسخ خطية كثيرة منه فى أوروبا منذ تأليفه ، ووجدت ٩ نسخ خطية منه فى المكتبة الوطنية بباريس وحدها . وفى هذا الصدد يقول ملطبرون فى جغرافيته : " ألف ابن الوردى كتاباً فى الجغرافيا أطنب فيه الكلام عن إفريقيا وبلاد العرب والشام ، ولكنه أوجز فيما يتعلق بأوروبا والهند وشمال آسيا " (١٣٠).

وكانت جغرافيا ابن الوردى معروفة فى أوروبا منذ وقت مبكر وليس من المستبعد أن يكون كولومبس قد اطلع عليها ودرس الخرائط الملحقة بها . وقد اعترف كولومبس نفسه بأن العرب فى مصنفات بعض علمائهم هم الذين أوعزوا إليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط . إذ أورد ذلك المؤرخ الفرنسى رونان فى كتابه : " ابن رشد ومذهبه " وقال أن كولومبس قد ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بذلك (١٣١).

هذا وقد أكد الدكتور هوى لزلى – أستاذ علم النباتات بجامعة بنسلفانيا – وهو من أصل صينى ، مستنداً فى بحثه إلى وثائق محفوظة فى الصين ويعود عهدها للقرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين أن المسلمين وصلوا إلى السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية من الطرف الغربى للعالم الإسلامى وبالتحديد من الدار البيضاء .

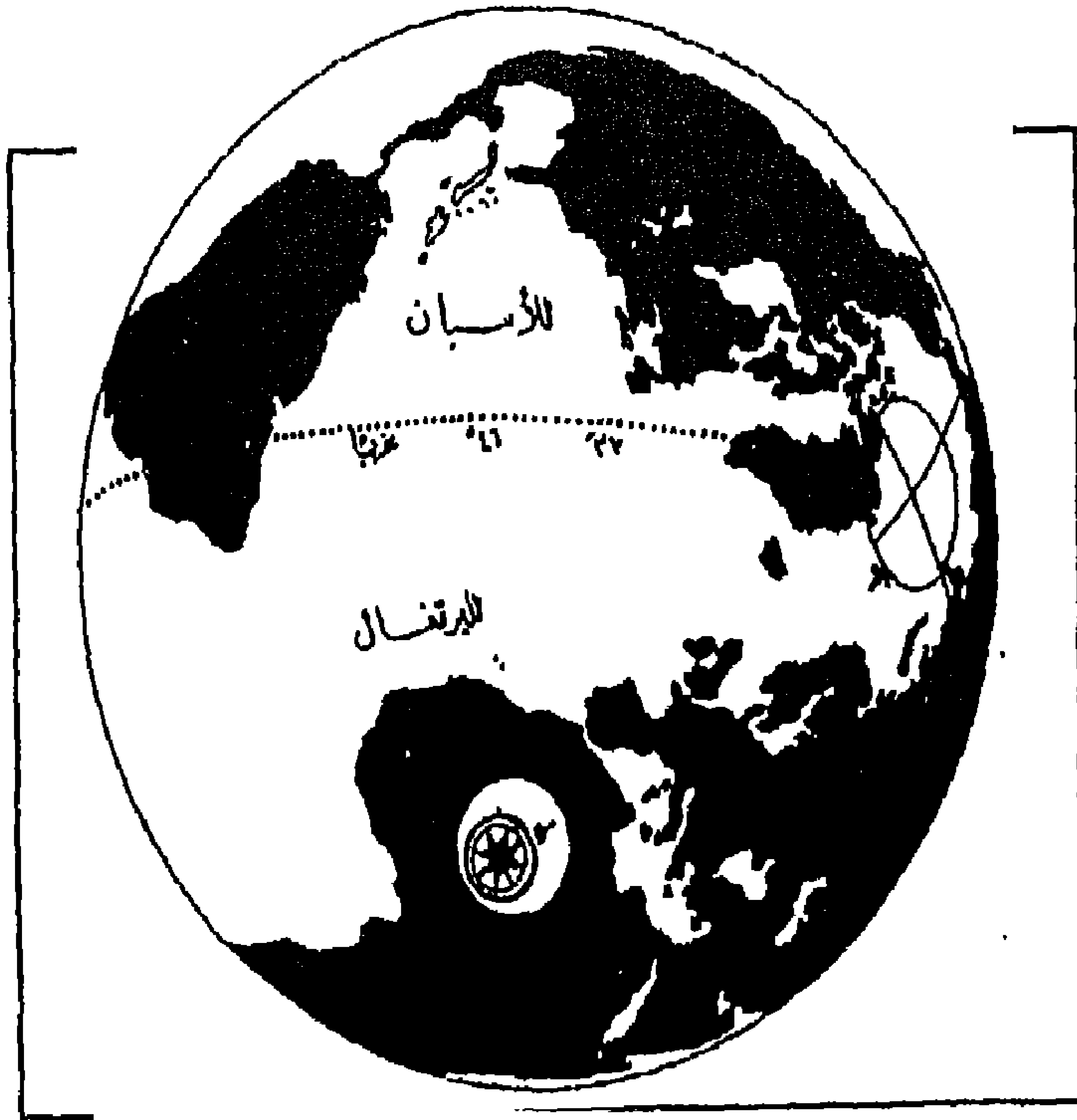
وقد توصل لهذا الرأى بعد أن أنفق ثمانية أعوام فى تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات فى شتى أنحاء العالم (١٣٢).

أيضاً جاء فى مجلة " الشرق " البرازيلية أن الدكتور " برزينو مادوريا دوبينيو " أحد كبار المسؤولين ، قد وضع تقريراً رفعه إلى حكومته أشار فيه إلى وجود مسلمين برازيليين يقطنون مجاهل ولاية " باهيا " البرازيلية منذ زمن بعيد ويعرفون باسم " الوفائيين " أو قبيلة الوفاء وعددهم كبير ، ويقول الدكتور برزينو أن هؤلاء المسلمين دخلوا البرازيل منذ قرون قادمين إليها من إفريقيا ومن المحتمل أن يكون مسلمو المكسيك والبرازيل السابق ذكرهم من المسلمين الذين انطلقوا فى القرن الرابع الهجرى فى أكثر من مائة سفينة كشفية عبر المحيط الأطلسى غرباً ولم تعد . وقد يكون بعضها قد وصل إلى أمريكا وأثروا سكناها .

وذكر كثير من الباحثين وجود مستعمرات عربية فى إفريقيا بين سنتى ١١٥٠ - ١٢٠٠م وأن سبب وجود هذه المستعمرات يرجع إلى الانتشار العربى فى إفريقيا ، الذى بلغ غايته القصوى فى القرن التاسع الميلادى وامتد جنوباً فى غرب القارة إلى منديجو ومنها إلى (مشوكان) على خليج المكسيك (١٣٣).

وقد أيد هذه النظرية كل من الدكتور (لن شينج ينج) أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ، والدكتور " ريتشارد ودلف " الذى قال : " الآن ينبغى على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم وليبدأوا من هذه المنطقة " ومما يؤكد هذه الدراسات وجود نبات البطاطا فى جزر الكاريبى حين وصل كولومبس وهى زراعة إفريقية الأصل . كذلك وجود زراعة الذرة واليوكا فى إفريقيا قبل مولد كولومبس بكثير وهما زراعتان معروفتان وأن القلقشندى الذى كتب صبح الأعشى قبل قرن من كولومبس يذكر عن أهل تكرور قوله : "وعندهم الذرة وهى أكثر حبوبهم " (١٣٤).

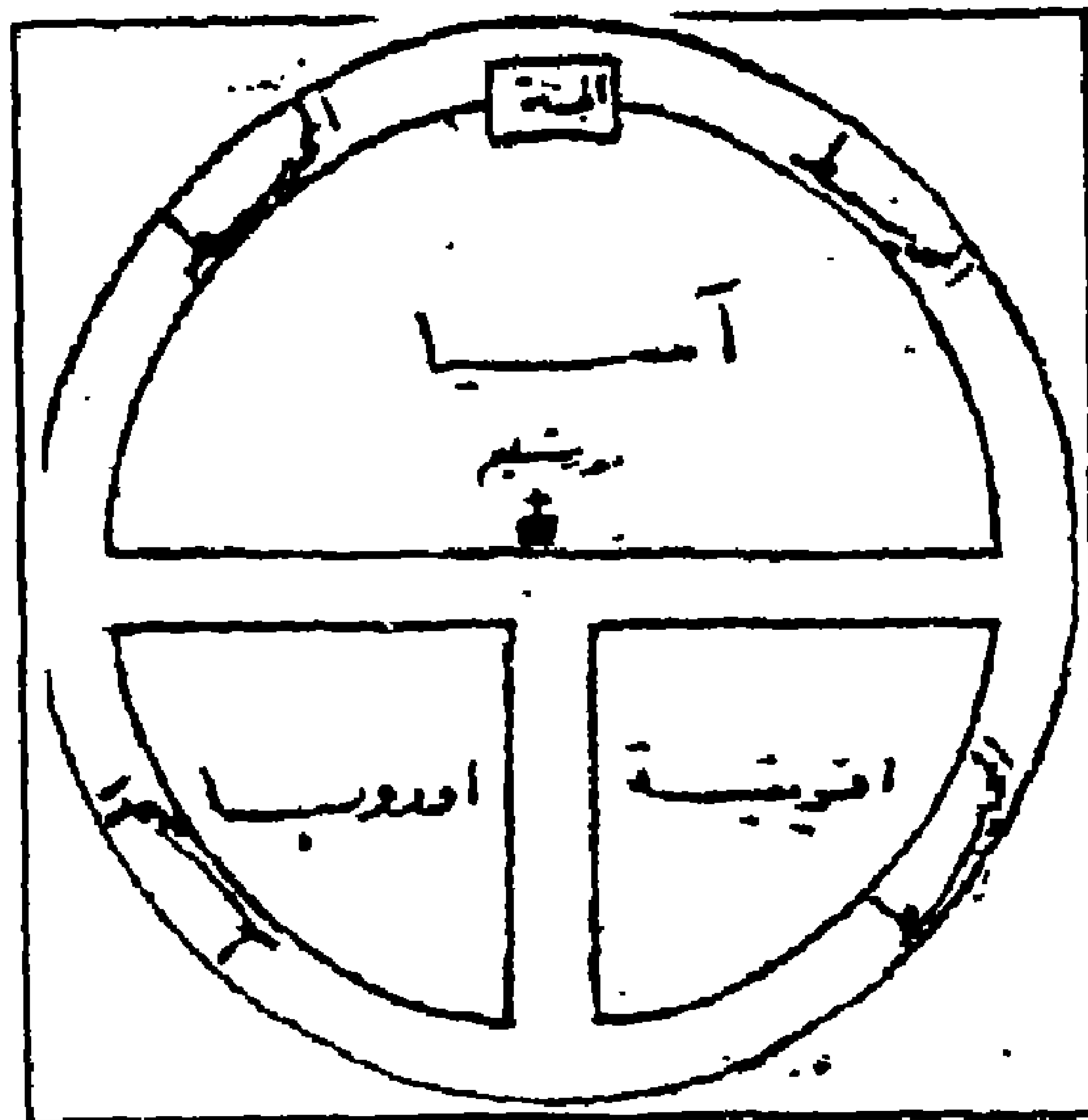
أضف إلى ذلك اكتشاف جماجم ترتبط بالمجموعة الحامية فى بعض كهوف جزر بهاما وتعود لأكثر من عشر قرون .



شكل رقم (١)

معاهد توردسيلاس سنة ١٤٩٤م

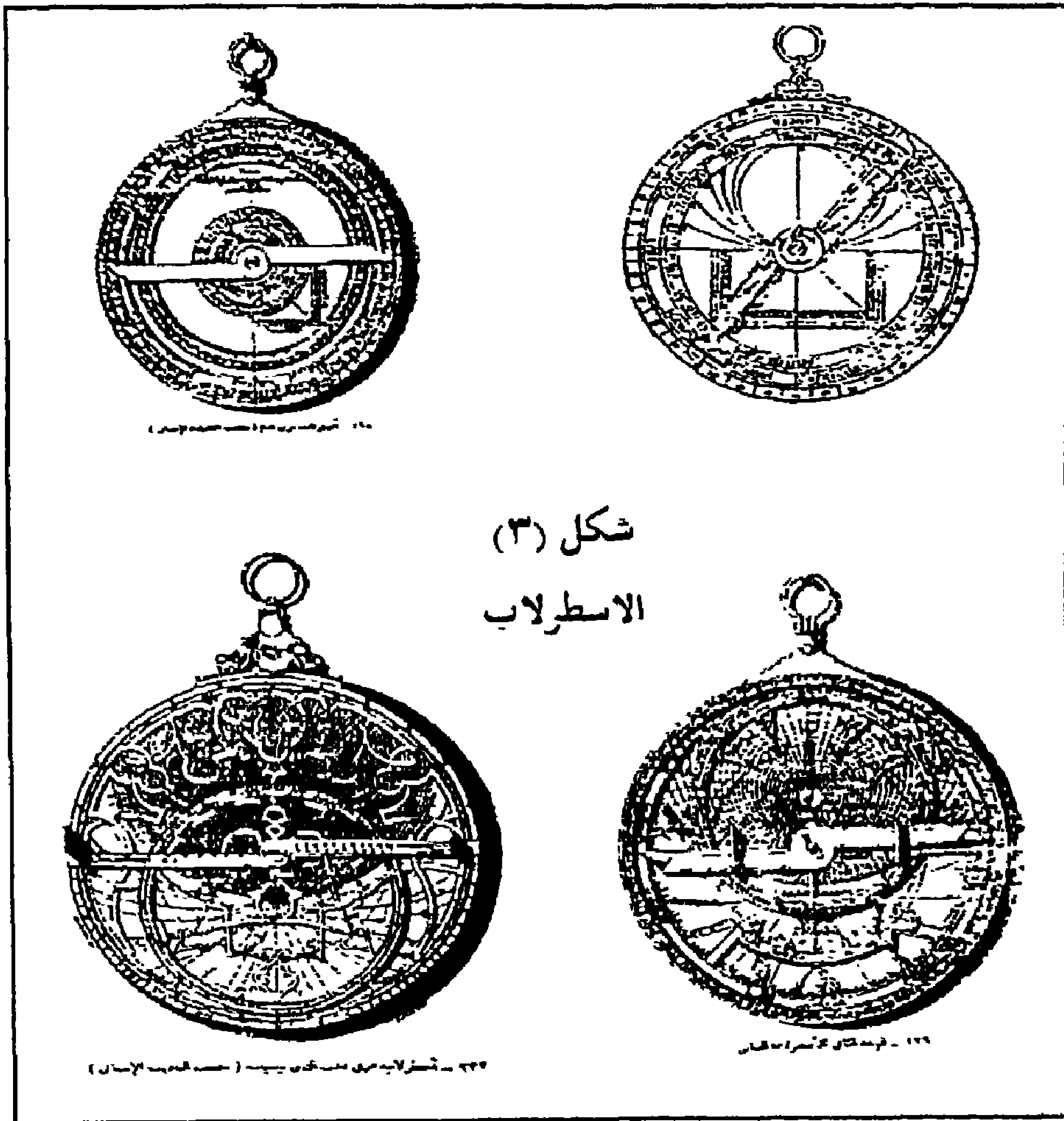
نقلاً عن : د. محمد محمود محمدين – الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١٩٤



شكل رقم (٢)

خريطة العالم المعروفة باسم T in O

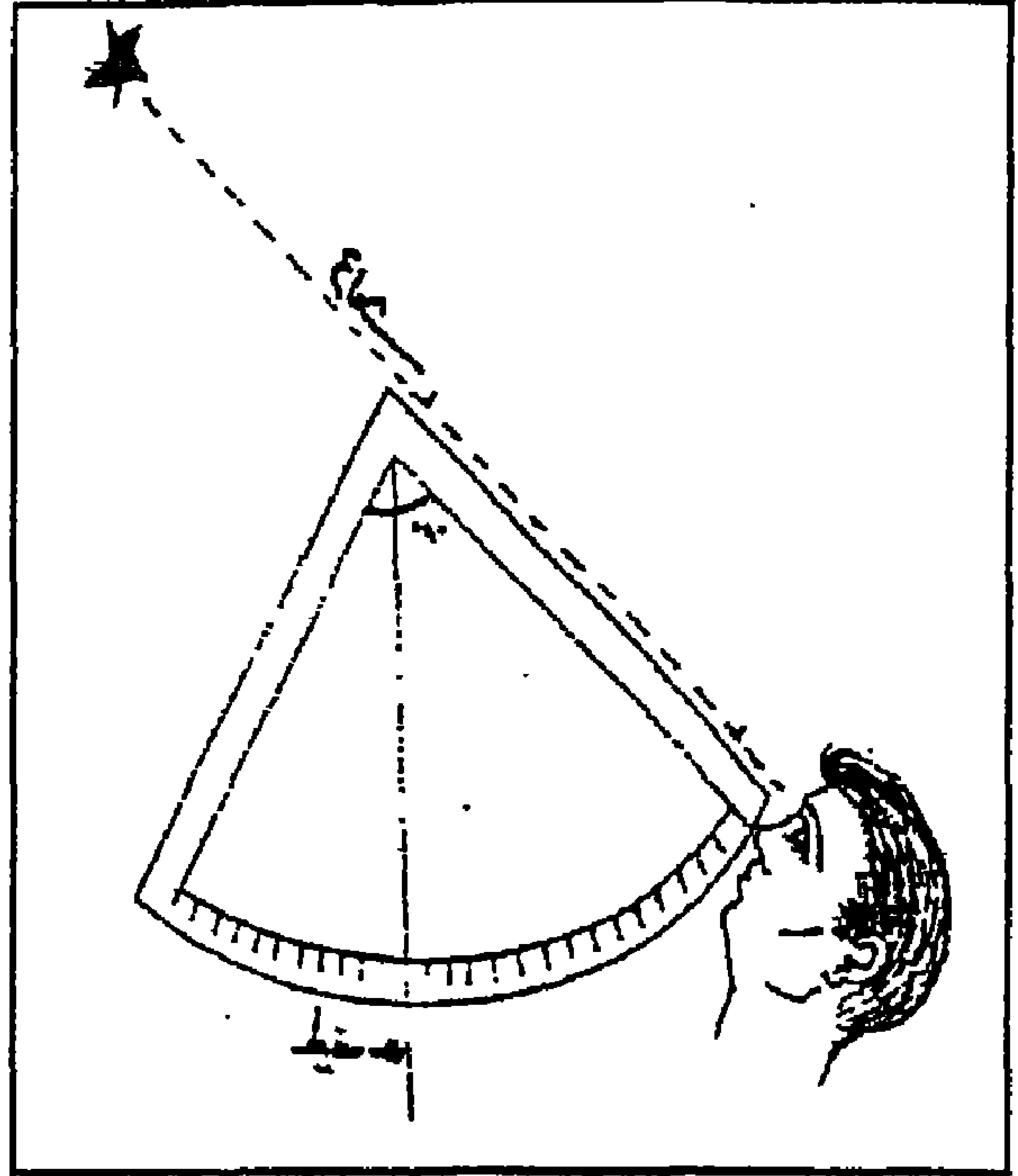
نقلاً عن : د. محمد محمود محمدين – الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١١٠



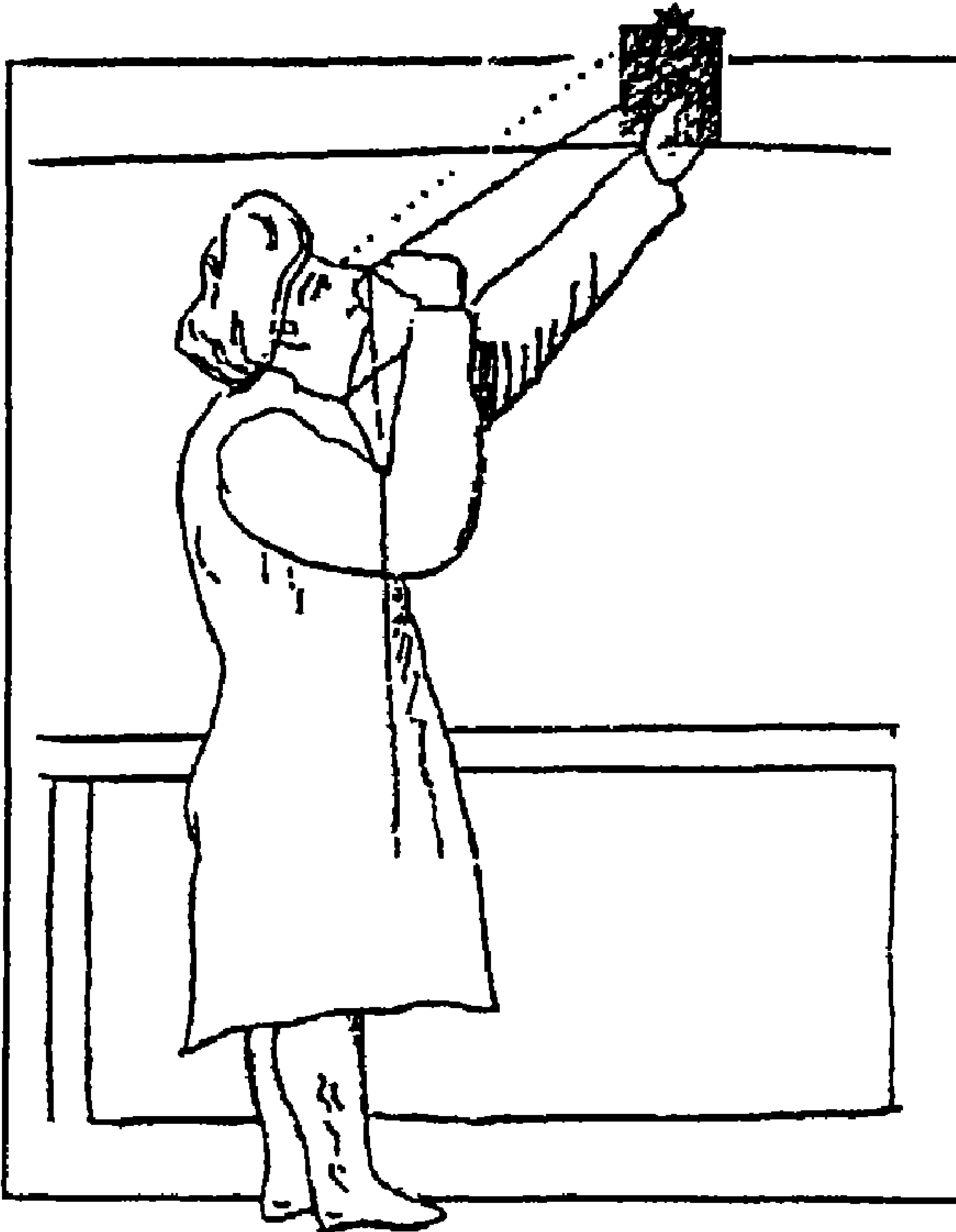
شكل رقم (٣) الإسطرلاب

نقلاً عن : غوستاف لوبون ، حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر

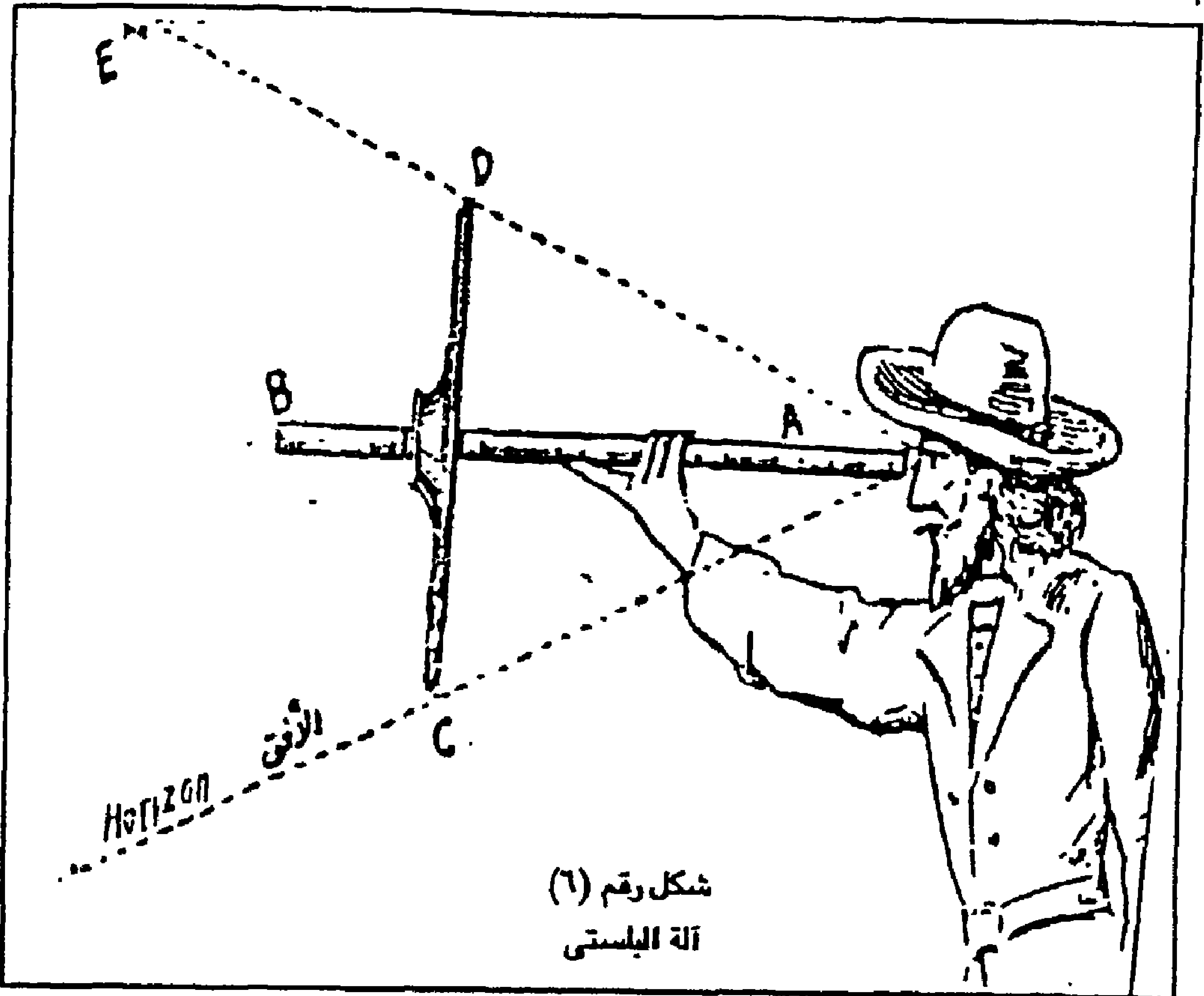
مكتبة الأسرة (٢٠٠٢) ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢



شكل رقم (٤)
الكوادرنت
نقلاً عن : د. أنور عبد العليم
المعارف البحرية ص ٢١٣ ، ٢١٤

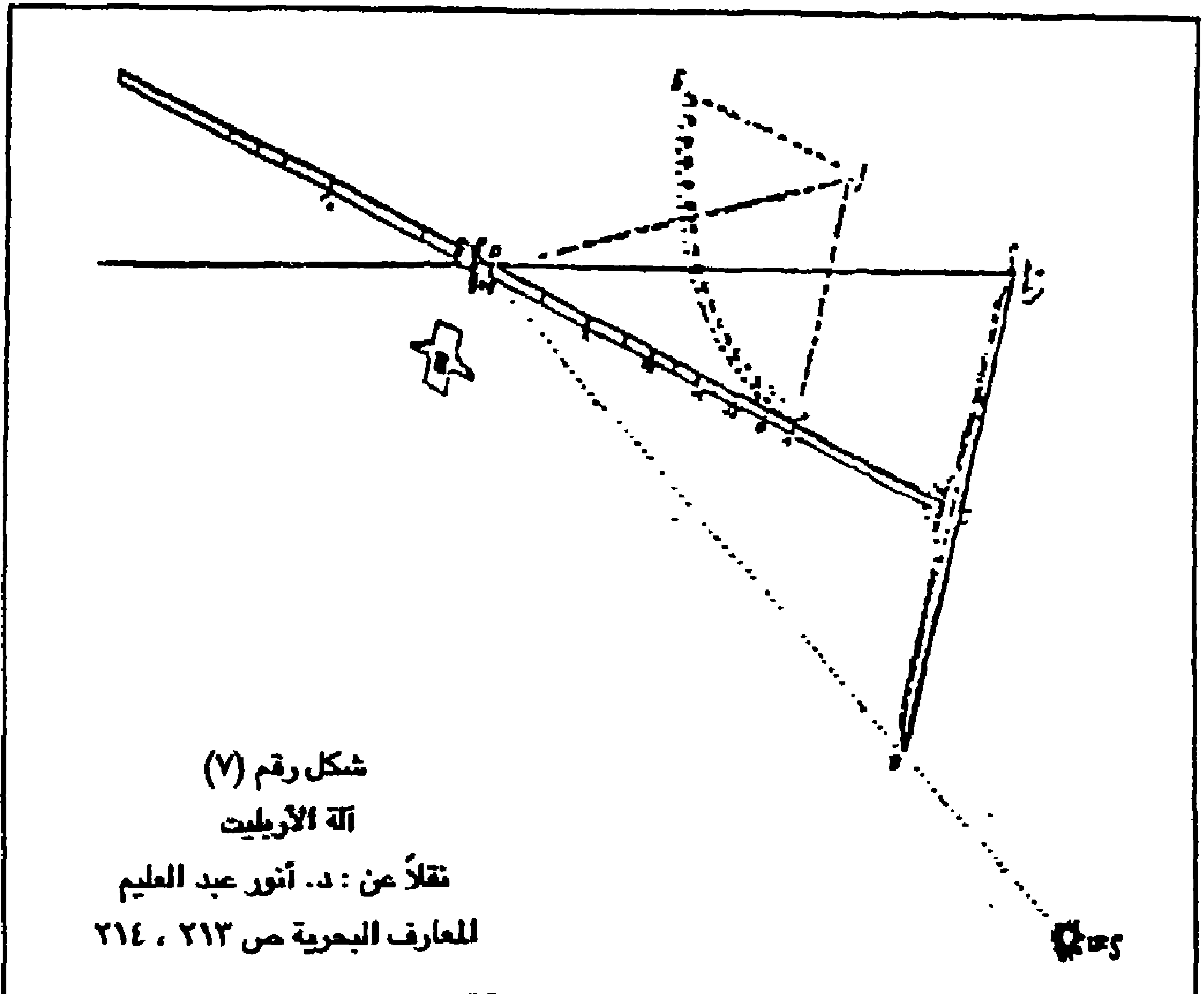


شكل رقم (٥)
آلة الكمال
نقلاً عن : د. أنور عبد العليم
المعارف البحرية ص ٢١٣ ، ٢١٤



شكل رقم (٦)

آلة البلستى

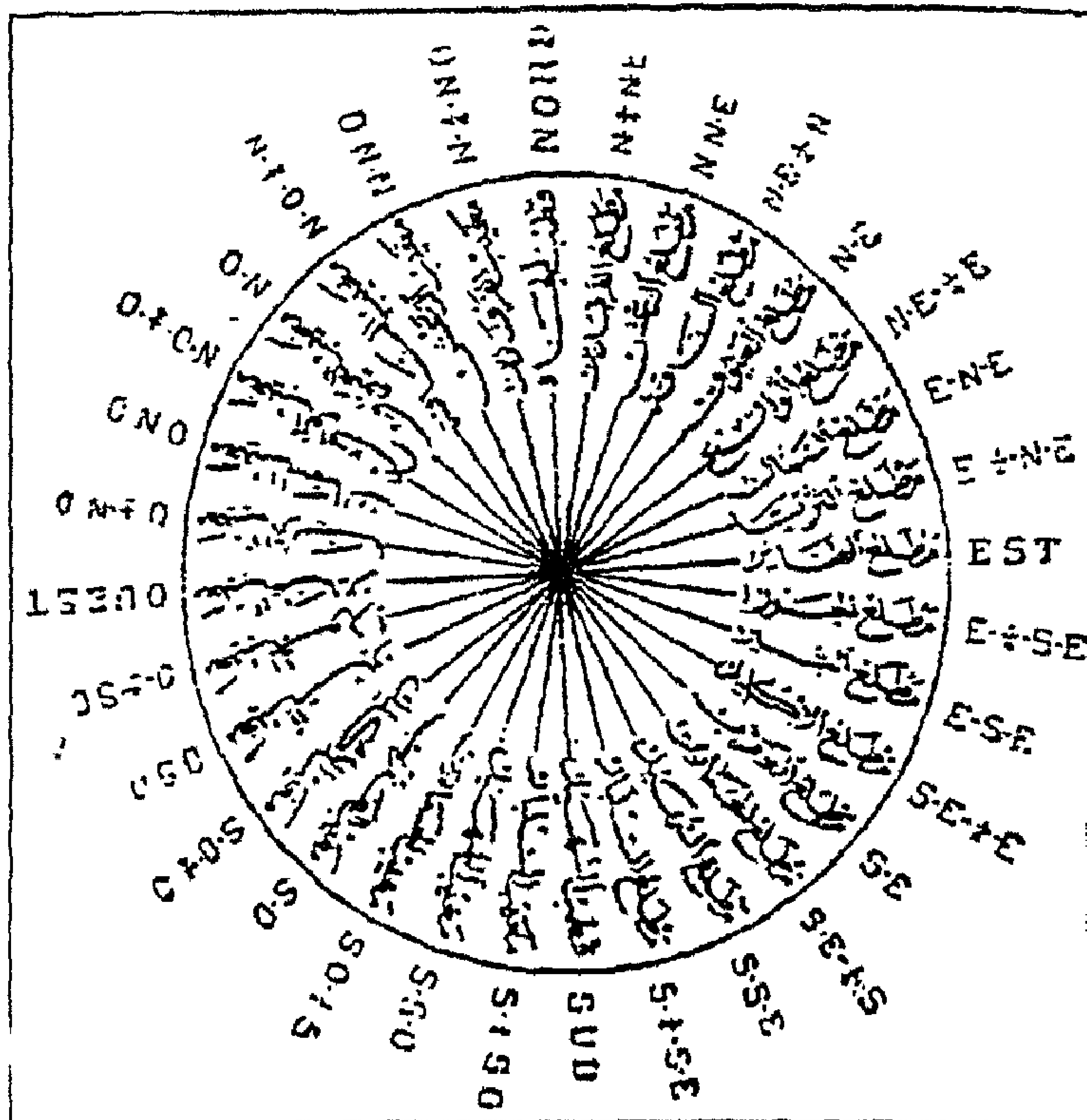


شكل رقم (٧)

آلة الأربليت

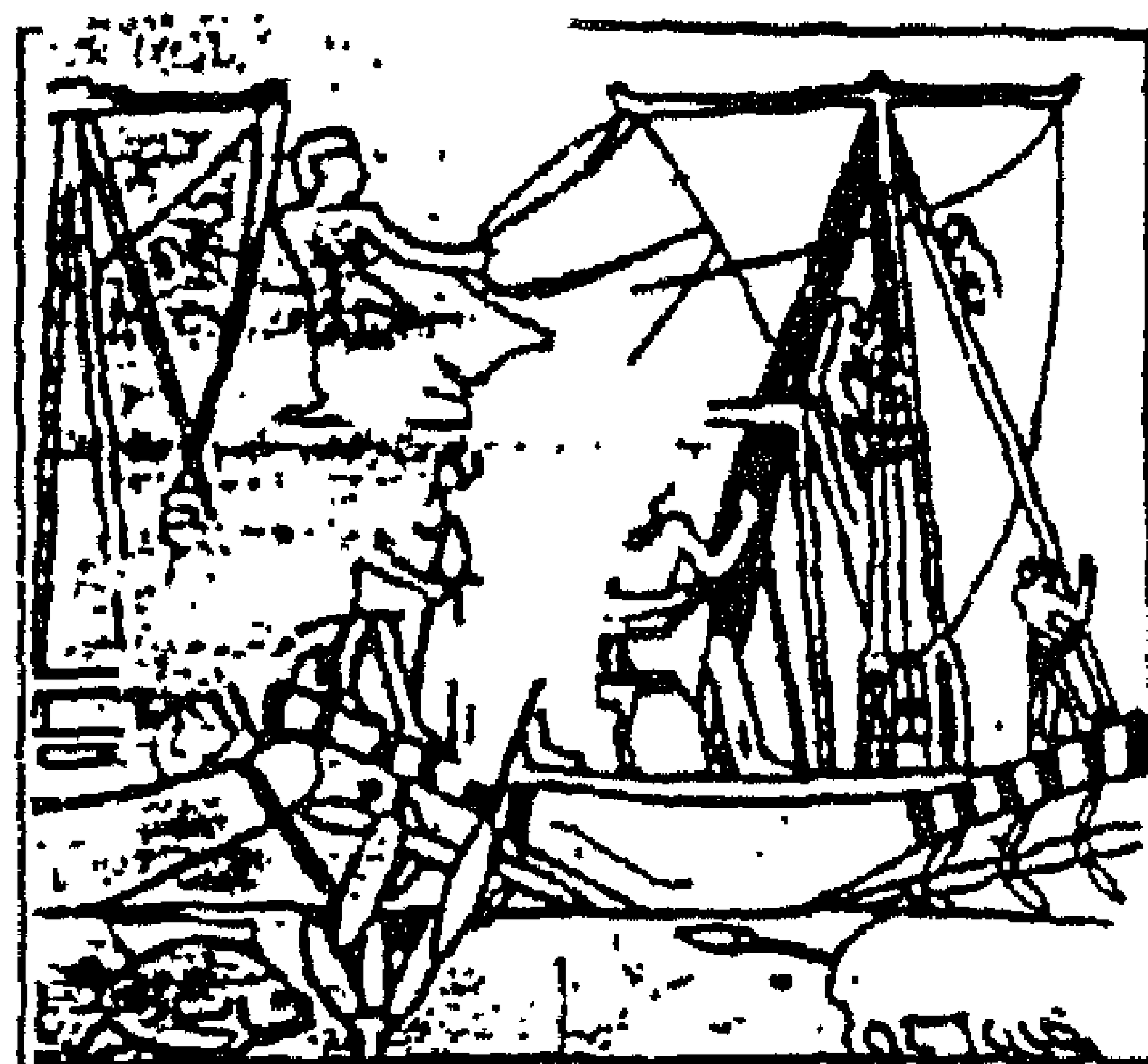
نقلاً عن : د. أنور عبد العليم

المعارف البحرية ص ٢١٣ ، ٢١٤

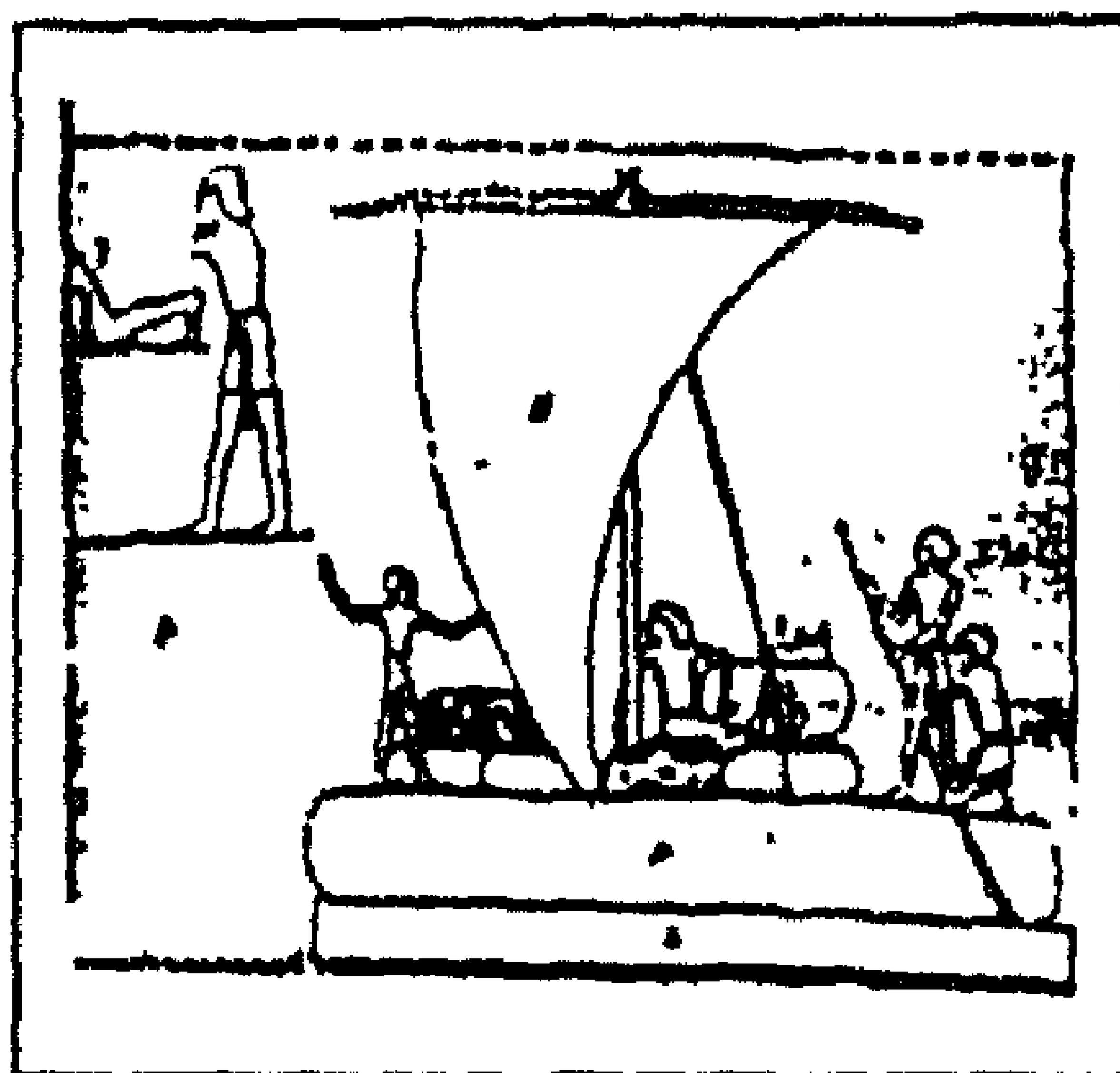


شكل رقم (٨)
نقلاً عن : د. أنور عبد العليم
المعارف البحرية ص ٢٠٨

تقسيم وردة الرياح العربية إلى ٣٢ قسمًا فلكيًا ومقابل اتجاه كل قسم على البوصلة الملاحية



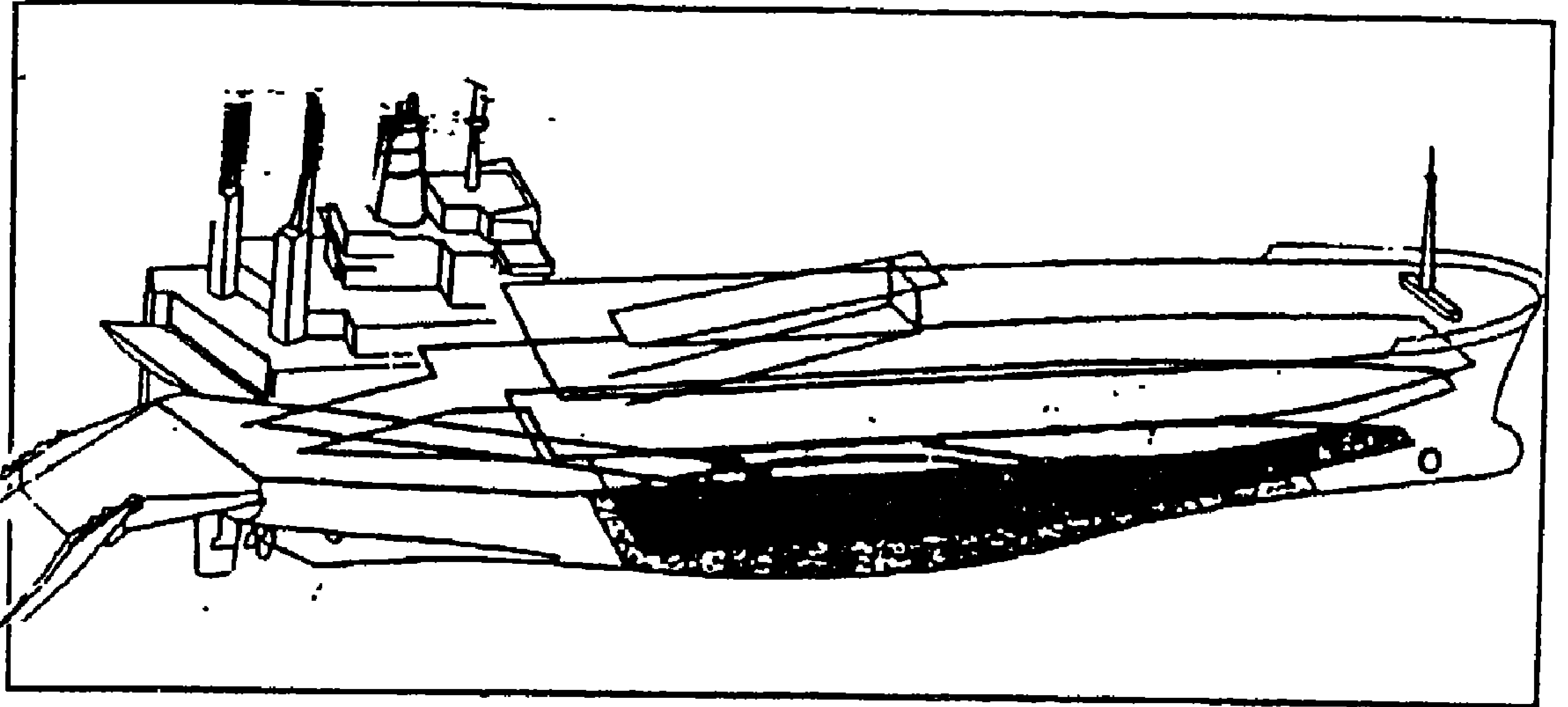
الشراع المصرى الذى على شكل مثلث مقلوب وقد ظهر فى رسوم السفن النيلية على الاثار المصرية



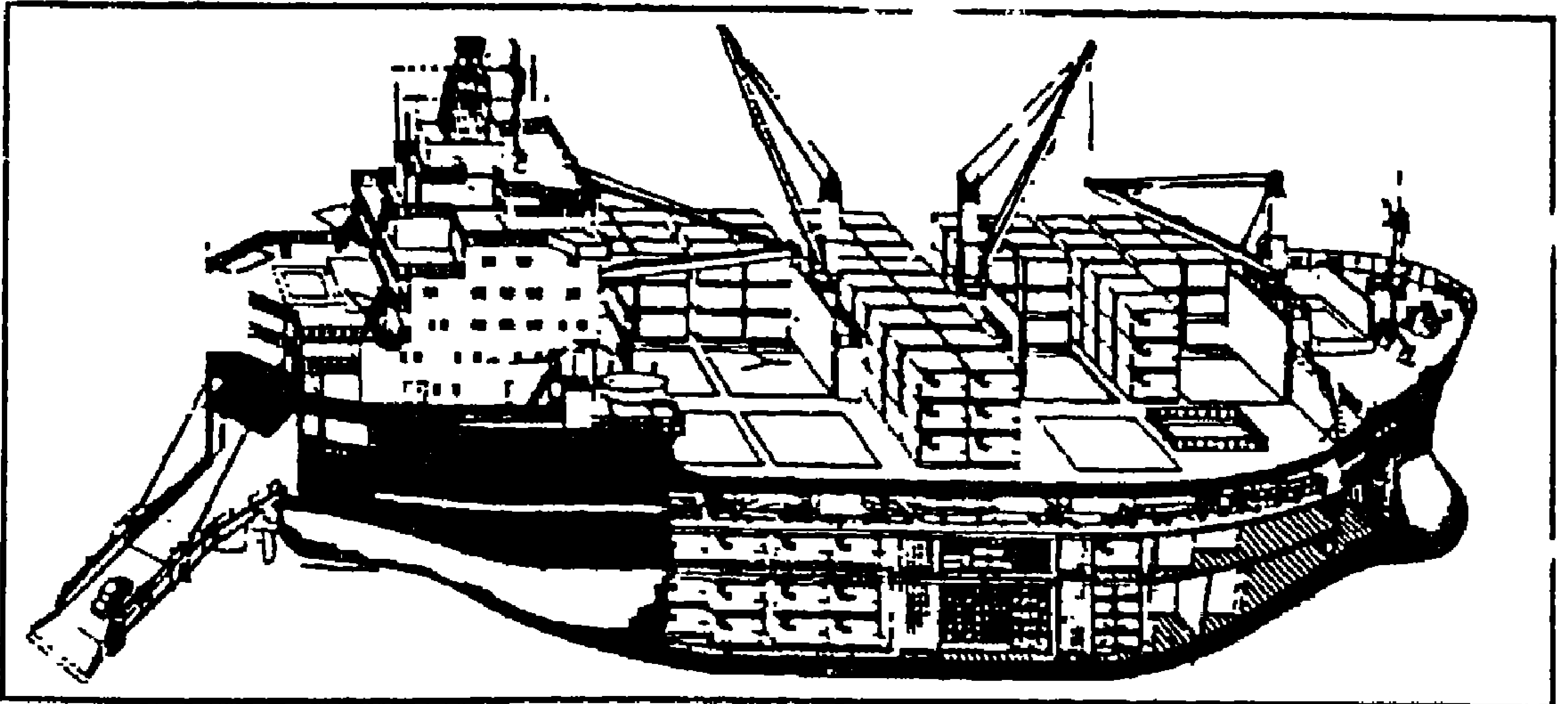
الشراع الذى على شكل مثلث مقلوب وقد استعاره الشعب الذى أطلق المصريون على بلاده الاسم "بونت" وهو من سكان الصومال ويبدو أن فكرة الشراع المثلث الذى ظهر بعد ذلك فى السفن العربية استوحيت فكرته من الشراع المصرى عن طريق هؤلاء "البونتيين".

شكل رقم (٩)

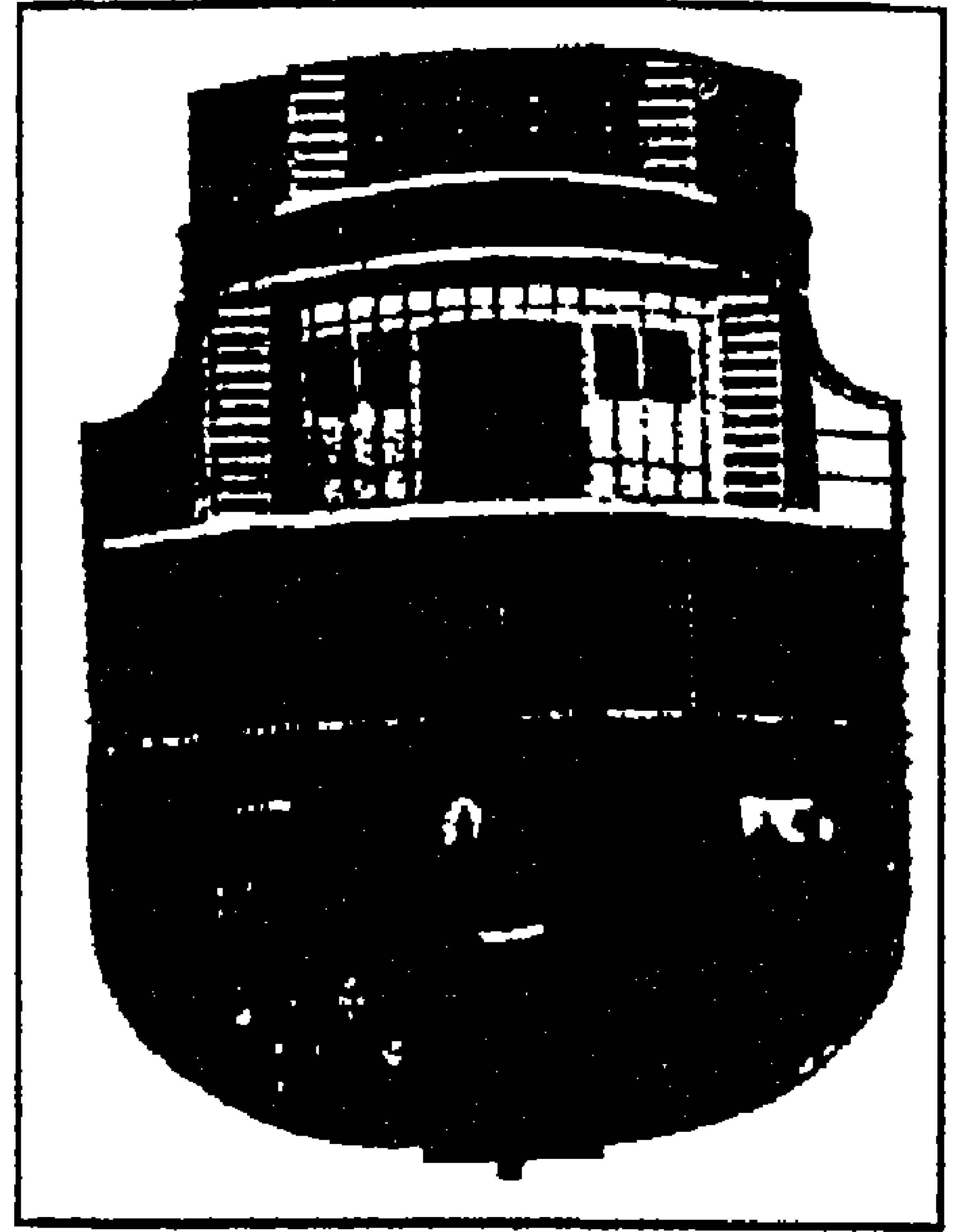
نقلاً عن د. عبد العليم عبد الحليم ، الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية فى البحر الأحمر، بحث منشور فى مجلد اتحاد المؤرخين العرب عن: الحضارة الإسلامية وعن البحار (١٩٩٤م)، ص ٨٦



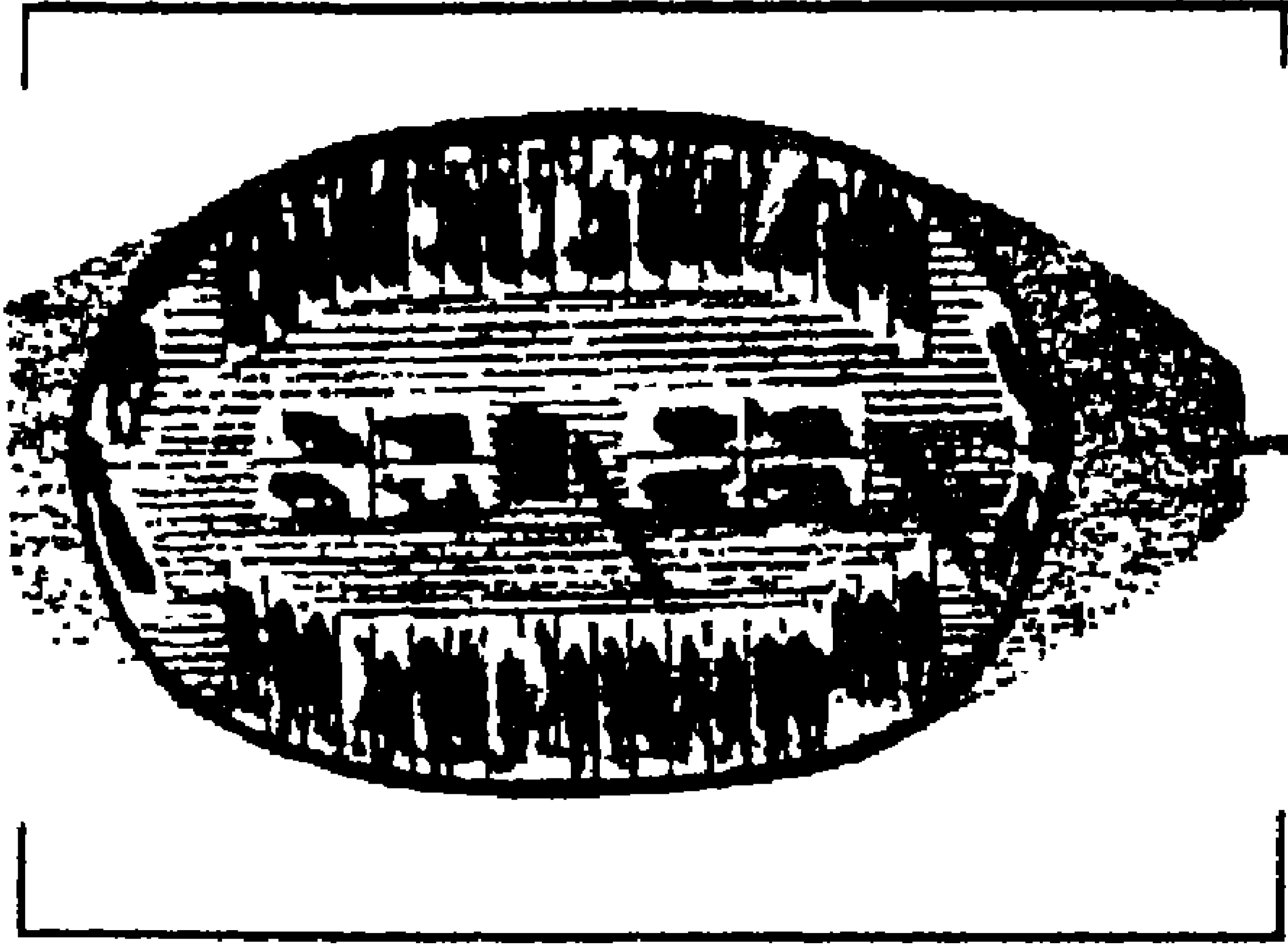
شكل رقم (١٠) ، سفينة مدرجة RO/RO
نقلاً عن مجلة : SEA TRADE عدد (مايو ١٩٩٠) ، ص ٩٥



نقلاً عن : جورجيو فينياتي
تاريخ السفن ، ترجمة أحمد الإدرقلي ، ص ٢٧ ، ٢٨



قطاع عرضى فى إحدى
سفن الحملات الصليبية



الطريقة التى كانت تصطف
بها الخيول فوق ظهر السفينة

شكل رقم (١١)
سفن بفتحات جانبية لنقل الخيل

الهوامش

١ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد ١٢ جزء ٢٣ ، ص ٥٢ .

٢ – راجع نص المرسوم فى كتاب : بانيكار ، آسيا الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، دار المعارف ، ١٩٦٢م ، ص ٢٧ – ٢٨ .

3 - Parry , J.H, Europe and a wider world, London, 1966. p. 48 .

٤ – بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ص ص ٢٤ – ٢٥ .

٥ – جارى . ب . ناتشر ، الحمر والبيض والسود ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، عدد رقم (١٩١) ، ص ٤٥ .

٦ – د. نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ص ١٦١ – ١٨٥ .

٧ – توبى . أ. هف ، فجر العلم الحديث (الإسلام – الصين – الغرب) ، ط٢ ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم ٢٦٠ ، ترجمة د. محمد عصفور ، ص ٦٥ .

٨ – محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، وهو العصر الرابع من الكتاب : دولة الإسلام فى الأندلس . مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ط٤ ، ١٩٨٧م ، ص ٤٣٩ .

٩ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع . الجزء الثالث عشر ، ص ٣٣٩ .

١٠ – د. أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط١ الإسكندرية ١٩٦٨م ، ص ٢٤٦ : وانظر أيضاً : د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية وتطور الملاحة البحرية ، بحث منشور فى مجلد : تاريخ البحرية المصرية . جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م ، ص ١٧١ .

١١ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية ، ص ١٧٢ .

١٢ – د. يسرى الجوهرى ، الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٧٦م ، ص ص ٦٨ – ٦٩ ; وانظر الشكل رقم ٢ عن T-IN-O ، وانظر أيضاً د. محمد محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م ، ص ص ١٠٩ – ١١١ .

١٣ – د. محمد محمدين ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

١٤ – وهم كوكبة أثرت الفكر الجغرافى فى العصور الوسطى ، نذكر بعضهم حسب الترتيب التاريخى : الخوارزمى ، سليمان السيرافى ، ابن خرداذبة ، ابن فضلان ، اليعقوبى ، البلخى ، البتانى ، الاصطخرى ، المسعودى البكرى ، ابن حوقل ، المقدسى ، الإدريسى ، ناصرى خسرو ، أبو حامد الغرناطى ، الهروى ، ابن جبير ، ياقوت الحموى ، عبد اللطيف البغدادى ، ابن سعيد ، القزوينى ، العبدرى ، أبو الفدا ، ابن بطوطة ، ابن خلدون . راجع : مصطفى الشهابى ، الجغرافيون العرب .

١٥ – د. يسرى الجوهرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٣٥ – ١٣٧ .

١٦ – د. محمد محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١٢٦ .

١٧ – جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م ، ص ٤٧٠ .

١٨ – د. يسرى الجوهرى ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، ص ١١٠ .

١٩ – محيط الأرض = ٤٠٠٧٠كم .

٢٠ – كرونيلينو ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى . أستاذ بالجامعة المصرية وبجامعة بلرم بإيطاليا ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٣م ، ص ٢٨٩ .

٢١ – كرونيلينو ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

٢٢ – كان الميل الإيطالى فى ذلك الوقت = ١٥٨٩ متراً فكان أصغر من الميل العربى بمقدار ٣٨٤ متراً فإذا ضربنا ١٥٨٩ × $\frac{٢}{٣}$ ٥٦ وجدنا أن طول الدرجة = ٨٩٧١٠٠٧ متراً وهذا المقدار أقل مما أرادته العرب بمقدار ٢٢كم . نيلينو ، المرجع السابق ، هامش رقم ٢٩٣ .

٢٣ – المرجع السابق ، ص ٢٩٣ : وانظر أيضاً : غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ و ص ٤٥٨ .

٢٤ – ليفى بروفنسال ، حضارة العرب ، ص ٤٦٢ .

٢٥ – د. محمد محمدين ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

٢٦ – د. أنور عبد العليم ، أحمد بن ماجد الملاح ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٣ ، القاهرة ، مارس ١٩٦٧م ، ص ٣٣ .

٢٧ – إبراهيم محمد الفحام ، فضل العرب فى ارتقاء المعارف البحرية ، ص ١٧ .

٢٨ – المرجع السابق ، ص ١٧ . ولمزيد من التفاصيل عن تطور الخرائط الملاحية عند الأوروبيين ، راجع : د. السيد حسين جلال . فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى للهند (١٤١٥ – ١٤٩٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية (العدد رقم ٥١٢) ، القاهرة ١٩٩٥م ، ص ص ٦٦ – ٦٩ .

٢٩ – د. السيد حسين جلال ، فضل المسلمين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ .

٣٠ – (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) صدق الله العظيم ، الآية رقم ١٦ من سورة النحل .

٣١ – المرصد شكل من أشكال المؤسسات العلمية فى الإسلام ومن أهم المراصد مرصد مراغة فى المشرق علاوة على المراصد التى امتدت بطول العالم الإسلامى حتى الأندلس غرباً .

٣٢ – راجع فى آخر البحث (المصطلحات العربية البحرية والفلكية فى اللغات الأوربية) وراجع أيضاً كل من : الحضارة العربية ، ترجمة د. إبراهيم العدوى ومراجعة د. حسين مؤنس ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦م ، العدد ٨٨ ، ص ١١٠ .

٣٣ – جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٩ .

٣٤ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٣٥ ، راجع ص ٧ من البحث عن آلات الرصد والقياس.

35 - Parry , op. Cit. p. 17 .

٣٦ – Ibid ولمزيد من التفاصيل عن دور اليهود فى نقل العلوم الملاحية والفلكية عند العرب إلى البرتغال والإسبان ، راجع ص ١٨ ، ١٩ من البحث .

37 - Ibid .

٣٨ – انظر الشكل رقم (٣) .

٣٩ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ص ٣٣ – ٣٤ .

٤٠ – ول . ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع جزء ١٣ ، ص ص ١٨٢ – ١٨٣ .

٤١ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد ، ص ٣٤ .

٤٢ – انظر شكل رقم (٤) .

٤٣ – د. أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

٤٤ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية فى الفترة ما بين القرن التاسع والحادى عشر الميلادى ، بحث فى كتاب تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٢١٢ .

٤٥ – المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

٤٦ – المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

٤٧ – انظر شكل رقم (٥) .

٤٨ – المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

٤٩ – انظر شكل رقم (٦) .

٥٠ – انظر شكل رقم (٧) .

٥١ – المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

٥٢ – انظر شكل رقم (٨) .

٥٣ – وهى كلمة فارسية .

٥٤ – المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

٥٥ – المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

٥٦ – د. أنور عبد العليم ، بن ماجد الملاح ، ص ص ٣٩ – ٤٠ .

٥٧ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية ، ص ٢٠١ .

٥٨ – لفظ راهنامه فى الواقع فارسى الأصل مشتق من كلمتى ، راه ، و ، نامه ، والأولى بمعنى طريق والثانية بمعنى كتاب أى ، كتاب الطريق ، ومعناه المرشد الذى يهتدى به الربابنة فى البحر فى معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك . وقد شاع استعمال هذه الكلمات فى اللغة العربية .

٥٩ – د. أنور عبد العليم ، المعارف البحرية ، ص ٢٠١ .

٦٠ – د. شوقي عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٦٦١ – ١٤٩٨م) سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم (١٥١) ص ٦٨ .

61 - Parry, op. cit.p. 21 .

٦٢ – د. إبراهيم على طرخان ، المسلمون فى أوربا في العصور الوسطى ، سلسلة الألف كتاب الأول – القاهرة ١٩٦٦م ، ص ص ٦٦ – ٦٧ .

٦٣ – أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

٦٤ – د. إبراهيم طرخان ، المسلمون في أوربا ، ص ص ٧٤ – ٧٥ .

٦٥ – إبراهيم محمد الفحام ، فضل العرب فى ارتقاء المعارف البحرية . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، العدد ١١٠ ، ص ٢٧ .

٦٦ – المرجع السابق ، ص ص ٢٧ – ٢٨ .

٦٧ – ول . ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥ .

٦٨ – وجدت ٣ مدن بهذا الاسم : واحدة تقع فى إفريقيا قرب تونس الحالية ، والثانية والثالثة بالأندلس هما: قرطاجنة الجزيرة عند مدخل جبل طارق وقرطاجنة الخلفاء فى إقليم مرسية . راجع حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩م ، ص ص ١٢٢ – ١٢٣ ؛ وراجع أيضًا : إبراهيم طرخان ، المسلمون فى أوربا ، ص ص ٦٤ – ٦٦ .

٦٩ – مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٨٢ .

٧٠ – أرشيبالد لويس ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

٧١ – راجع الشكل رقم (٩) .

٧٢ – د. عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية فى البحر الأحمر ، من منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ندوة نوفمبر ١٩٩٣م ، مجلد عن الحضارة الإسلامية وعالم البحار ١٩٩٤م ، ص ص ٧٩ – ٨٠ .

٧٣ – أستاذ التاريخ البحرى بجامعة هارفارد .

74 - Parry, op. cit. p. 21 .

٧٥ – ج . فوريس ، تاريخ العلم والتكنولوجيا ، جـ١ سلسلة الألف كتاب ، ص ١٢٤ .

76 - Parry , op. cit., p. 21 .

77 - Ibid.

٧٨ – د. محمود على فهمى ، التنظيم البحرى الإسلامى فى شرق البحر المتوسط من القرن السابع حتى العاشر الميلادى ، ترجمة قاسم عبده . لبنان ١٩٨١م ، ص ١٣٣ .

٧٩ – د. شوقي عبد القوي عثمان ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة . مرجع سبق ذكره ، ص٥٥ .

80 - K.M. Panikar, India and the Indian ocean London, 1980. p. 30 .

81 - Toussait, a., History of Indian ocean. London. 1970 , p. 59 .

٨٢ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، المجلد الثاني ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، مدينة نصر ١٩٩٩ ، ص ٥٠٦ .

٨٣ – المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ، وراجع أيضاً : د. حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ سنة ١٩٥١ ، ص ١١٢ .

٨٤ – راجع تفاصيل هذا الموضوع في د. سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص ٣٦٨ ؛ آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٢١٤ ، القزويني ، عجائب المخلوقات ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

٨٥ – لمزيد من التفاصيل من أنواع السفن في العصر الحديث ، راجع للمؤلف كتاب : السفينة وصناعة النقل البحري ، دار المعارف ١٩٨٥م.

٨٦ – اختصار لكلمة : Roll on / Roll off أي الشحن والتفريغ بالعجل والدحرجة وليس عن طريق الأوناش : وهي من أحدث أنواع السفن وتتميز بسرعة الشحن والتفريغ في الموانى وانظر شكل رقم (١٠) .

٨٧ – درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م ، ص ٨٩ .

٨٨ – رحلة ابن بطوطة ، جـ٤ ، ص ١٠٧ .

٨٩ – درويش النخيلي ، السفن الإسلامية ، ص ٨٩ .

٩٠ – درويش النخيلي ، السفن الإسلامية ، ص ٩٠ – ٩١ .

٩١ – جورجيو فينباتي ، تاريخ السفن ، ترجمة أحمد الأورفلي . الناشر : ادريتريد جينيف ، ١٩٧٦م ، ص ص ٢٦ – ٢٧ . وانظر شكل رقم (١١) .

٩٢ – درويش النخيلي ، السفن الإسلامية ، ص ٩٠ .

٩٣ – المرجع السابق ، ص ٤٠ .

٩٤ – المرجع السابق ، ص ٢١ .

٩٥ – المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

٩٧ – المرجع السابق ، ص ٧ .

٩٨ – المرجع السابق ، ص ٥٧ .

٩٩ – د سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص ٣٦٩ ؛ د. أنور عبد العليم ، البحرية المصرية ، ص ١٢٦ .

١٠٠ – إبراهيم القحام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

١٠١ – المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ٣٦٤ ومختار الصحاح ، ص ٢١٢ باب الدال والقاموس المحيط للفيروزبادي جـ٣ ، فصل الدال باب النون : " وعاء ضخم للخمر ونحوها . وجمعها دنان ، والدنانة هي صناعة الدنان " . " الراقود العظيم وهو دن كبير عميق " .

١٠٢ – د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا في العصور الوسطى ، جـ١ ، الطبعة الأولى ١٩٥٨م ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٥٢٩ .

١٠٣ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد ، ص ٤٤ .

١٠٤ – المرجع السابق ، ص ٤٢ .

105 - A.Kammerer, La Mer Rouge depuis l'entiqutie. Paris 1935. T.2.p. 43., cf. Parry, op. cit. p. 34 .

١٠٦ – د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٤٤ ، وراجع أيضًا د. السيد حسين جلال ، فضل المسلمين في كشف الطريق البحري للهند ، ص ١٧ .

١٠٧ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد التاسع عشر جزء ٢٣ ، ص ص ٥٠ – ٥٧ ؛ وراجع أيضًا : د. محمد محمود محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون ، ص ص ١٨٦ – ١٨٧ ، وكذلك فرجريف ، الجغرافيا والسيادة العالمية ، مرجع سبق ذكره ص ص ١١٩ – ١٢٠ .

١٠٨ – راجع بالتفصيل هذه المراحل الخمس التي بدأت من عام ١٤١٥ وانتهت في عام ١٤٩٨ بالوصول إلى قاليقوط بالهند . وفي كتابنا : فضل المسلمين في كشف الطريق البحري للهند ، ص ص ١١١ – ١٣٥ .

١٠٩ – إبراهيم محمد الفحام ، فضل العرب في ارتقاء المعارف البحرية ، ص ٤٨ .

١١٠ – المرجع السابق ، ص ٤٩ .

١١١ – في كتابه آسيا البرتغالية ، راجع د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٤٨ .

١١٢ – يقع جنوب شمالي ممباسا ، بشاطىء إفريقيا الشرقي .

١١٣ – لفظ كانا أو كاناكا تعني باللغة السنسكريتية " الحاسب " أو " المنجم " والمقصود هنا الخبير بالملاحة الفلكية . د. أنور عبد العليم ، ابن ماجد ، ص ٤٩ .

١١٤ – المرجع السابق ، ص ص ٤٨ – ٤٩ ، وحول موضوع إرشاد أحمد بن ماجد لدى جاما ، راجع للمؤلف كتاب فضل المسلمين ، ص ص ١٣٧ – ١٥٤ .

١١٥ – د. عبد الحليم عويس ، دور العرب في اكتشافات كولومبس ، مجلة الخفجي ، ص ٥٧ .

١١٦ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السابع ، جـ٣ ، ص ٣٨٦ .

١١٧ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس ، ص ٢٠٧ .

١١٨ – وقد اختلف في تحديد مكانها بين جتلند وإيرلنده . المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

١١٩ – المسعودي ، مروج الذهب جـ١ ، ص ٢٥٨ ، وراجع أيضًا : دائرة المعارف الإسلامية ، ص ٣٠٨ .

١٢٠ – القزويني ، عجائب المخلوقات جـ ٢ ، ص ٣٨٨ ، وتجدر الإشارة إلى أن العرب أطلقوا على المحيط الأطلسي اسم : بحر الظلمة أو الظلمات والبحر المحيط الأعظم والأوقيانوس . والبحر الغربي تمييزاً له عن البحر الشرقي .

١٢١ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الثاني عشر جـ٢٣ ، ص ص ١٢٦ – ١٣٠ .

١٢٢ – المرجع السابق ، ص ١٦١ .

١٢٣ – محمد كرد علي ، الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٢ ، وأيضاً : محمد عبد الغني حسن ، الجغرافيون العرب ، ص ١٦٥ .

١٢٤ – د. زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٥٠ .

١٢٥ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٤٧ .

١٢٦ – المرجع السابق ، ص ٥٣ .

١٢٧ – محمد عبد الغني حسن ، الشريف الإدريسي ، ص ص ١٦٨ – ١٦٩ .

١٢٨ – د. خالد عزب ، المسلمون واكتشاف الأمريكتين (بعد ٥٠٠ عام على الاكتشاف الرسمي) دار الصحوة للنشر القاهرة ١٩٩٣ ، ص ص ٤٨ – ٤٩ .

١٢٩ – اسمه : سراج الدين أبو حفص عمر ، فقيه شافعي توفي في (سبتمبر ١٤٥٧م) وهو مؤلف كتاب : " خريدة العجائب وفريدة الغرائب " مصر ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، ص ٤١٥ .

١٣٠ – ملطبرون ، الجغرافيا العمومية ، ص ١٤٤ ، ترجمة رفاعة الطهطاوي ، مصر ١٢٤٥هـ ، وراجع : إحسان جعفر ، ابن الوردي يصف أمريكا قبل اكتشافها مجلة الفيصل العدد ١٧٩ ، جمادى الأول ١٤١٢هـ (ديسمبر ١٩٩١) .

١٣١ – خالد عزب ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

١٣٢ – المرجع السابق ، ص ٧٧ .

١٣٣ – المرجع السابق ، ص ٧٦ .

١٣٤ – محمد رشيد الفيل ، أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، ص ٧ .

د. أحمد تونى عبد اللطيف (*)

الحياة الثقافية فى دولة سلاجقة الروم

مقدمة :

الحضارة بمعناها العام : تراث ونتاج مشترك بين الأمم المختلفة ، وبالطبع يقاس فضل كل منها بقدر ما أسهمت به فى هذا النتاج المشترك .

ولاشك فى أن الحضارة تجسيد للنشاط العقلى عند الإنسان ، وتاريخ الحضارة هو ذلك السجل لتطور هذا العقل ، ومدى فاعليته فى مختلف نواحى الحياة : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والإدارية ، والحربية ، والعمرانية .

فالحضارة إذن هى فعل تام متحرك ، مظهره أخذ وعطاء ، وباطنه تواصل بين القديم والحديث .

ومما لاشك فيه أن موقع الحضارة العربية الإسلامية من الحضارة العالمية واضح وجلى، فهى بسماتها الخاصة : كالشمولية ، والنزعة الإنسانية ، والنزعة العقلية ، والنزعة العلمية ، والشورى .. قد أضافت لبنة قوية فى صرح الحضارة العالمية ، مما حدا بأحد كتاب أوروبا (جوستاف لوبون) فى كتابه " حضارة العرب " أن يقول : " لقد اختبر العرب مسائل العلم وجربوها، وكانوا أول من أدرك هذا المنهج فى العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً، وإذا قيل إن " بيكون" أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركنا المباحث العلمية الحديثة، فالإنصاف يقتضى بأن نعترف أن الفضل فى ذلك للعرب وحدهم" .

وتؤكد العالمة الألمانية " زيغريد هونكة Sigrid Hunke " هذا المعنى فسطرت كتاباً بعنوان " شمس العرب تسطع على الغرب " ضمنت فيه مباحث متعددة عن فضل العرب على حضارة الغرب .

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية دار العلوم بالمنيا .

ولقد اختص بحثنا هذا بكلماته البسيطة " الحياة الثقافية فى دولة سلاجقة الروم " تلك الدولة التى نشأت فى أرض آسيا الصغرى البيزنطية الثقافة ، المسيحية العقيدة .

وسلاجقة الروم هم فرع من الأتراك السلاجقة المتعددين كسلاجقة الشام ، والسلاجقة العظام بإيران والعراق ، وسلاجقة ركمان ، وهم أتراك اعتنقوا الإسلام على المذهب السنى .

ومما يجدر ذكره أن هذه الدولة اصطدمت بحكم وجودها فى آسيا الصغرى بالحملات الصليبية فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلادى وحاولت اجتياز أراضيها فأحدث الاحتكاك تأثيراً وتأثراً لا شك فيه .

ومن المعروف أن الحروب الصليبية تعد من المنافذ الحضارية التى انتقلت عبرها حضارة الشرق الإسلامى إلى أوروبا كغيرها من المنافذ .

ولقد ألمحت فى هذا البحث إلى دور سلاطين سلاجقة الروم فى إثراء الحياة الثقافية لبلادهم بما يلا يدع مجالاً للشك فى أنها إضافة إلى الحضارة العالمية لاسيما وبلادهم ممراً ثقافيًا بين الشرق والغرب .

وقد تمثل هذا الدور فى : تشييد المدارس نبراس العلم ومعاقل الثقافة كمدرسة "صيرجالى" وقره طاى Karatay وإينجة منارلى Inge Minareli والخاتونية ، وجيفتة منارلى Giftc Minareli ، وكوك مدرسة وغيرها

ولاشك أن هذه المدارس اضطلعت بدور كبير فى تقديم العلم إلى الطلاب الوافدين إلى تلك البلاد والذين حملوا معهم ثقافات بلادهم فأثروا وتأثروا ، أفادوا واستفادوا .

وإضافة إلى دور سلاطين سلاجقة الروم فى تشييد المدارس ، أكرموا وفادة العلماء الذين زاروا بلادهم ناقلين لها ومنها ثمرات العلم أمثال : السهروردى ت ٥٨٧هـ ، ومحيى الدين بن عربى ت ٦٣٨هـ ، وجلال الدين الرومى ت ٦٧٢هـ ، وسلطان ولد ت ٧١٢هـ ، وحسنون الرهاوى ت ٦٢٥هـ ، وابن كرابا ت ٦٣٢ هـ ، وابن الخطاب ت ٦٤٦هـ ، وتاج الدين الأرموى ت ٦٥٣هـ ، وسراج الدين الأرموى ت ٦٨٢هـ ، وصفى الدين الأرموى ت ٧١٥هـ .

فضلاً عن علماء كانوا من نتاج المنطقة مثل " صدر الدين القونوى ، ويونس إمره " .

وبنظرة سريعة على هذه الأسماء ومواطنها نلاحظ أنها جاءت من بلاد متنوعة محملة ثقافات بلادها فأفادت واستفادت ، وكان من نتاجها ظهور " صدر الدين القونوى " كثمرة لغرس محيى الدين بن عربى ، ويونس إمره كغرس لجلال الدين الرومى وولده سلطان ولد .

ولعل هذه الثقافات المتنوعة ما بين الفلسفة وعلم الكلام ، والتصوف ، والطب ، والرياضيات، والشعر ، تعد إضافة إلى حضارة سلاجقة الروم بصفة خاصة ، والحضارة الإنسانية بصفة عامة ،.كدليل على الدور الإسلامى والعرب فى هذه الحضارة .

الحياة الثقافية فى دولة سلاجقة الروم:

لا نخطىء إذا قلنا أن الثقافة هى الوجه المشرق للدولة ، والتعبير الحقيقى عن واقعها الحضارى ، ولقد تنبه سلاطين " سلاجقة الروم " إلى تلك الحقيقة منذ أن وطئت أقدامهم آسيا الصغرى ، فهم يعلمون تمام العلم أنهم أقاموا دولتهم فى بيئة بيزنطية الثقافة مسيحية العقيدة ومن هنا كان لابد لهم من التعبير عن واقعهم الحضارى الإسلامى داخل تلك البيئة البيزنطية ، فعملوا على نشر الثقافة فى ربوع بلادهم – لاسيما الثقافتين العربية والفارسية عمادا الحضارة الإسلامية آنذاك – لإثبات وجودهم ، وتحقيق ذاتهم – ومما يؤيد هذا الاتجاه تشييدهم للمدارس ، وإكرامهم وفادة العلماء والمفكرين ، كما سيتضح ذلك من خلال تلك الدراسة .

أولاً : تشييد المدارس فى بلاد سلاجقة الروم :

لا يخامرنا شك فى أن المدارس نبراس العلم ، ومنار الثقافة الذى يبدد ظلمة الحياة ، وشعاع الفكر الذى يربط بين الماضى والحاضر ليصنع المستقبل ، ومن هذا المنطق فقد شيد سلاطين سلاجقة الروم المدارس فى بلادهم لتكون أثرًا ناطقًا على رقى دولتهم ثقافيًا ، ودليلاً شاهدًا على مواكبتها لركب الحضارة آنذاك .

ومن أشهر هذه المدارس التى يلمسها الدارس للحياة الثقافية فى بلاد سلاجقة الروم ، مدرسة " صيرجالى " التى شيدت عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م بمدينة قونية فى عهد السلطان غياث الدين كيخسرو الثانى بن علاء الدين كيقباد الأول ، كما يتضح ذلك من نقش بمدخلها يقول نصّه " رسم بعمارة هذه المدرسة المباركة فى دولة السلطان الأعظم ظل الله فى العالم غياث الدنيا والدين علاء الإسلام والمسلمين أبو الفتح كيخسرو بن كيقباد قسيم أمير المؤمنين الفقير إلى رحمة ربه بدر الدين بن مصلح أدام الله توفيقه ، وقفها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب أبى حنيفة النعمان سنة أربعين وستمائة " (١).

ويفهم من ذلك النص أن تلك المدرسة قد شيدت لتدريس المذهب الحنفى بمدينة قونية ، والجدير بالذكر أن ابن بطوطة[٢] في رحلته قد أكد وجود هذا المذهب في بلاد سلاجقة الروم إذ يقول عند زيارته لها " وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبى حنيفة " .

ونلاحظ أيضًا إلى جانب مدرسة (صيرجالى) بقونية مدرستين أخريين ، الأولى مدرسة قره طاى Karatay ويرجع تاريخ تشييدها إلى عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى، وقد سميت تلك المدرسة باسم بانيها (قره طاى بن عبد الله) والأخرى مدرسة إينجة منارلى Ince Minareli أى ذات المئذنة الرشيقة ، وقد شيدت هذه المدرسة عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس الثانى وأخيه ركن الدين قليج أرسلان الرابع ، ومشيدها كيلوك بن عبد الله Keluk b Abdl-la[٣].

كما نلاحظ بمدينة أرزن الروم المدرسة الخاتونية ، وتنسب هذه المدرسة التى شيدت فى عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م إلى ابنة السلطان علاء الدين كيقباد الثانى كما تقول بذلك رايس Rice[٤].

وفضلاً عما تقدم ذكره يوجد بمدينة سيواس مدرستان ، الأولي جيفتة منارلى Gifte Mi-nareli ويقصد بها المدرسة ذات المئذنتين ، وكان إنشاؤها فى عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م . والثانية كوك مدرسة بمعنى المدرسة الزرقاء ، وقد شيدت فى عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م أو ٦٧١هـ / ١٢٧٢م بواسطة كيلوك بن عبد الله ، كما أكدت ذلك رايس Rice[٥].

هذا بالإضافة إلى بعض المدارس التى رآها ابن بطوطة فى بلاد سلاجقة الروم أثناء تجواله بها وأشار إليها فى رحلته ، كمدرسة أنطالية ، وإكريدور ، وبركى وغيرها .

وهكذا رأينا انتشار المدارس فى بلاد سلاجقة الروم لتكون أبلغ دليل على عنايتهم بالثقافة .

ثانيًا : أشهر العلماء الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم :

لقد وفد إلى بلاد سلاجقة الروم لفيف من العلماء الذين أثروا حياتها الثقافية إثراءً كبيرًا ، نخص بالذكر منهم : شهاب الدين السهروردى ، ومحيى الدين بن عربى ، وجلال الدين الرومى فى مجال " الفلسفة والتصوف الإسلامى " وحسنون الرهاوى ، وابن كرابا ، وابن الخطاب فى مجال " الطب " ، وتاج الدين الأرموى ، وسراج الدين الأرموى وصفى الدين الهندى الأرموى أيضًا فى مجال " المنطق وعلم الكلام وأصول الفقه " . وسوف نلقى ضوءًا تاريخيًا على كل من هؤلاء العلماء لنتعرف على فكرهم ، ونقف على مؤلفاتهم .

١ - شهاب الدين السهروردى ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م :

هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب بشهاب الدين السهروردى ، ولد ببلدة سهرورد على مقربة من زنجان من أعمال أذربيجان بعراق العجم فيما بين عامى ٥٤٤هـ / ١١٤٩م أو ٥٥٠هـ / ١١٥٥م . وأميرك اسم أعجمى بمعنى أمير وهو تصغير لأمير ، فالكاف التى تلحق بآخر الاسم فى الأعجمية تكون للتصغير (٧).

ويعرف السهروردى هذا فى كتب التراجم والسير (بالسهروردى المقتول) تمييزًا له عن غيره ممن تلقبوا بلقب السهروردى ، فهناك عبد القاهر بن عبد الله السهروردى ، وهو فقيه صوفى حنفى المذهب ولد بمدينة سهرورد عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م وتوفى ببغداد فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ومن أشهر مؤلفاته : (آداب المريدين) ، (شرح أسماء الله الحسنى) . وهناك أيضًا شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله السهروردى فقيه صوفى شافعى المذهب ، ولد بسهرورد فى عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م وتوفى عام ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م . ومن أشهر مؤلفاته كتابا : (عوارف المعارف) ، (كشف النصائح الإمامية وكشف الفضائح اليونانية) . وقد أهداهما للخليفة العباسى الناصر لدين الله (٨).

أما السهروردى المقتول فمن أشهر أعماله كتابه (حكمة الإشراق) القائل بالنور والظلمة ، وقد تلقى حكيمنا هذا علومه الأولى فى الحكمة وأصول الفقه بمدينة مراغة من أعمال أذربيجان على الشيخ مجد الدين الجيلى كما قال بذلك كل من ياقوت(٩) وابن خلكان (١٠)، ثم تنقل السهروردى بعد ذلك بين العديد من البلدان فزار أصفهان - وفيها قرأ كتاب البصائر النصرية لابن سهلان الساوى - ومن بعدها زار بغداد وحلب وغيرها من البلدان (١١)، فحصل الكثير من العلوم ، ونهل من مناهلها الأصلية ، وتلقاها بنفسه عن شيوخها .

والجدير بالذكر أن شهاب الدين السهروردى قد تأثر كثيراً بشروح ابن سينا لأرسطو ، لكنه خالف ابن سينا فى المنهج ، فبينما كان ابن سينا يستغل التصوف فى تكملة بعض آراء أرسطو أو التوسع فيه مستعينًا ببعض نظريات الأفلاطونية المحدثة ، نرى السهروردى يذكر صراحة آراء المشائيين وتسير فى كتبه جنبًا إلى جنب مع فلسفة التصوف(١٢)، مما يدل على جرأته وتحرر فكره .

وقد اتسعت ثقافة السهروردى فشملت إلى جانب العلوم الإسلامية – من فقه وأصول وعلم كلام – الحكمة اليونانية والأفلاطونية المحدثة ، فضلاً عن التصوف ومجاهدة النفس ورياضتها حتى صفت روحه وسما فكره وأصبح أوحد زمانه . قال عنه ياقوت(١٣) فى كتابه (معجم الأدباء) إنه كان " أديبًا شاعرًا حكيمًا متفننًا نظارًا لم يناظره مناظر إلا خصمه (غلبه) وأفحمه " . وقال عنه أخلص تلاميذه الشهرزورى(١٤) فى كتابه (نزهة الأرواح وروضة الأفراح) ، أنه " كان يجمع بين الحكمتين أعنى الزوقية والبحثية " . وقال عنه ابن أبى أصيبعة(١٥) فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) " كان أوحداً فى العلوم الحكمية جامعًا للفنون الفلسفية " .

ولقد صنف السهروردى العديد من المؤلفات التى ناهزت الخمسين مؤلفًا نذكر منها على سبيل المثال : حكمة الإشراق ، والمشارع والمطارحات والتلويحات ، واللمحات ، والألواح العمادية ، والهياكل النورية ، والمقاومات والرمز المومي ، والمبدأ والمعاد ، وبستان القلوب ، وطوارق الأنوار ، والتنقيحات فى الأصول وكلمة التصوف ، والبارقات الإلهية ، والنفحات السماوية ، ولوامع الأنوار ، والرقم القدسى ، واعتقاد الحكماء ، وكتاب الصبر ، ورسالة العشق ، ورسالة درحالة طفولية ، ورسالة المعراج ، ورسالة روزى اجماعت صوفيان ، ورسالة عقل ، ورسالة برتونامة ، ورسالة غربة غربية ، ورسالة الطير ، ورسالة غاية المبتدى ، وأدعية متفرقة ، وشرح الإشارات وغيرها (١٦).

وقد كتب السهروردى بعض هذه المصنفات باللغة العربية ، وبعضًا باللغة الفارسية ، كما ترجم إلى الفارسية ما صنفه بالعربية .

أما أشهر هذه المصنفات جميعًا فهو كتاب (حكمة الإشراق) ، وقد قسم السهروردى هذا الكتاب إلى قسمين تناول فى قسمه الأول المنطق وعده تمهيداً للقسم الثانى ، وسماه (ضوابط الفكر) وجعله فى مقالات ثلاث : الأولى فى المعارف والتعريف ، والثانية فى الحجج ومبادئها ، والثالثة فى المغالطات وبعض الحكومات بين أحرف إشراقية وبين بعض أحرف مشّائية . أما القسم الثانى فجعله بعنوان : (الأنوار الإلهية ، ونور الأنوار ومبادى الوجود وترتيبها) ، وكان هذا القسم فى خمس مقالات ، الأولى فى النور وحقيقته ونور الأنوار وما يصدر عنه أولاً ، والثانية فى ترتيب الوجود ، والثالثة فى كيفية فعل نور الأنوار ، والأنوار القاهرة ، والرابعة فى تقسيم البرازخ ، والخامسة فى المعاد والنبوات والمنامات (١٧).

كما كان للحكماء عند السهروردى مراتب على النحو التالى : حكيم إلهى متوغل فى التـأله عديم البحث ، كأكثر الأنبياء والأولياء من الصوفية أمثال أبى يزيد البسطامى ، وسهل بن عبد الله التسترى ، والحلاج ، وحكيم بحاث عديم التأله وهو كالمشائين من أتباع أرسطو والفارابى وابن سينا ، وحكيم إلهى متوغل فى التأله والبحث ، وحكيم إلهى متوغل فى التأله متوسط فى البحث ، وحكيم إلهى متوغل فى التأله ضعيف فى البحث ، وحكيم متوغل فى البحث متوسط فى التأله ، وحكيم متوغل فى البحث ضعيف فى التأله (١٨).

وعلى ذلك تكون أرقى مراتب الحكماء وأسماها عند السهروردى هى مرتبة الحكيم الإلهى المتوغل فى التـأله والبحث معًا ، وهو الحكيم الإشراقى الذى يجمع بين الحكمتين الزوقيـة والبحثية ولاشك أن تلك الصفات تنطبق على السهروردى نفسه مما أثار عليه حقد خصومه .

وأما نور الأنوار عند حكيمنا الإشراقى الذى هو مبدأ مذهبه فيقول عنه : " نور الأنوار نور محيط ؛ لأنه يحيط بجميع الأنوار لشدة ظهوره وكمال إشراقه ونفوذه فيها لِلُطفِهِ ، وهو قيوم لقيام الجميع به ، وهو مقدس لأنه منزه عن جميع صفات النقص ، وهو الأعظم الأعلى إذ لا أعظم ولا أعلى منه بين الأنوار جميعًا ، وهو قهار لأنه يقهر ما دونه من الأنوار ، وذلك لشدة إشراقه وقوة لمعانه ، وهو غنى مطلق إذ ليس وراءه شيء يفتقر إليه ، ولا دونه شيء يستغنى عنه ، وهو قبل هذا كله وبعد هذا كله واحد " (١٩).

وعلى ذلك يكون نور الأنوار عند السهروردى هو واجب الوجود لذاته وبقدرته وما عداه فهو واجب به مفتقر إليه .

بقى لنا بعد هذا العرض أن نقول : إن الحكيم الإشراقى الذى توقد ذهنه ذكاء وتوهج فكره علمًا زار بلاد سلاجقة الروم كما شهد بذلك تلميذه الشهرزورى(٢٠) إذ يقول فى (نزهة الأرواح) عن شيخه أنه كان : " يحب المقام بديار بكر وفى بعض الأوقات يقيم بالشام وفى بعضها فى الروم " .

ومما يجدر ذكره أن هذا الفيلسوف الكبير قد وفد إلى بلاد سلاجقة الروم فى عهد السلطان قليج أرسلان الثانى بن مسعود الأول بن قليج أرسلان الأول بن سليمان بن قتلمش ، وقد طاب له المقام بمدينة نيكسار حيث ألف فيها (رسالة برتونامه) وهى مختصر بالفارسية فى الحكمة تناول فيها السهروردى بعض الاصطلاحات ، وبرتونامه يقصد بها (كتاب الشعاع) ، وقد قدم السهروردى تلك الرسالة لوالى نيكسار آنذاك الأمير ناصر الدين بركياروق

بن قليج أرسلان الثانى ، وجدير بالملاحظة أن الأمير بركياروق هذا وأخاه ركن الدين سليمان شاه الثانى كان من مقدمى تلامذة شهاب الدين السهروردى [٢١].

وبعد أن قضى السهروردى بعض الوقت فى بلاد سلاجقة الروم عاد إلى بلاد الشام وأقام بمدينة حلب ، وأثناء ذلك ناظر علماء وفقهاء تلك المدينة فبذهم جميعًا وفند آراءهم ، وعندئذ أثار هؤلاء العلماء والفقهاء حفيظة صاحب حلب - الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى - عليه فقتلته بمشورة أبيه صلاح الدين فى الخامس من رجب عام ٥٨٧هـ الموافق التاسع والعشرين من يوليو عام ١١٩١م [٢٢].

وعلى الرغم من مقتل السهروردى فى بلاد الشام ، فإن زيارته لبلاد سلاجقة الروم وإقامته فى بعض مدنها ؛ كانت بمثابة البرزخ الذى انطلقت من خلاله العديد من أنواع الثقافات العربية والفارسية واليونانية إلى تلك البلاد ، وإن كان السهروردى قد انتفى وجوده جسدًا فإنه بقى روحًا وفكرًا وعلمًا .

٢ - محى الدين بن عربى ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م :

هو أبو بكر محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى الأندلسى الملقب (بمحيى الدين) ، والشهير بابن عربى من غير أداة التعريف تمييزًا له عن القاضى أبى بكر بن العربى ، وقد ولد ذلك الصوفى الكبير - الذى شاعت شهرته فى الآفاق - بمدينة مُرسية إحدى مدن شرق الأندلس فى السابع عشر من رمضان عام ٥٦٠هـ / الثامن والعشرين من يوليو عام ١١٦٥م [٢٣].

وما أن بلغ ابن عربى الثامنة من عمره حتى رحل إلى مدينة إشبيلية بغرب الأندلس حيث أقام بها حوالى ثلاثين عامًا درس فيها الحديث والفقه وغير ذلك من العلوم ، كما درس قسمًا من هذه العلوم بمدينة سبتة على الشاطىء المغربى المقابل لبلاد الأندلس ،وأثناء رحلته الدراسية تلك وبالتحديد فى عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م زار مدينة تونس [٢٤]، ويبدو أن تلك الزيارة كانت تمهيدًا لرحلته الكبرى إلى بلاد الشرق الإسلامى التى بدأها فى عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م .

ففى هذا العام زار محيى الدين بن عربى مدينة تونس للمرة الثانية ، وأثناء إقامته بها شرع فى تأليف كتابه (إنشاء الدوائر والجداول) الذى شرح فيه مذهبه فى الكون بالأشكال الهندسية لكنه توقف عن إنهاء كتابه هذا وواصل سيره إلى الشرق الإسلامى مارًا بمصر حتى

بلغ الغاية من رحلته بوصوله إلى مكة ، وربما أتم كتابه إنشاء الدوائر بها ، وهناك أيضاً ألف ابن عربى العديد من كتبه كترجمان الأشواق ، ومشكاة الأنوار والدرة الفاخرة . وبعد أن قضى بمكة حوالى ثلاثة أعوام توجه إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية وذلك فى عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م ، كما زار مصر فى عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م ، وفى عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، عاد ثانية إلى مكة كما يقول بذلك أسين بلثيوس (٢٥).

وفى عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م توجه محيى الدين بن عربى إلى بلاد سلاجقة الروم ، ثم عاد منها إلى بغداد فى عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م ، وفى تلك الأثناء التقى مع الشيخ الصوفى الكبير شهاب الدين أبى حفص عمر بن عبد الله السهروردى صاحب كتاب (عوارف المعارف) الذى وصف ابن عربى بأنه (بحر الحقائق) كما نقل ذلك صاحب الشذرات (٢٦). وفى عام ٦١١هـ / ١٢١٤م زار ابن عربى مكة للمرة الثالثة ، ومنها توجه فى بداية عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م إلى مدينة حلب ، وأخيراً استقر به المقام فى مدينة دمشق من بلاد الشام (٢٧).

وقبل أن نتحدث عن زيارة ابن عربى لبلاد سلاجقة الروم ، نتوقف قليلاً أمام ثقافة ذلك العالم ، وبعض آرائه ونظرياته ، وأهم مصنفاته العلمية يقول الدكتور أبو العلا عفيفى(٢٨) فى تصديره لكتاب (فصوص الحكم) لمحيى الدين بن عربى :

إن هذا الكتاب الذى " قرر مذهب وحدة الوجود فى صورته النهائية ، ووضع لها مصطلحاً صوفياً كاملاً استمده من كل مصدر وسعه أن يستمد منه ، كالقرآن والحديث وعلم الكلام والفلسفة المشائية ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة الغنوصية المسيحية ، والرواقية وفلسفة فيلون اليهودى ، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخوان الصفا ومتصوفة الإسلام المتقدمين عليه . ولكنه صبغ هذه المصطلحات جميعاً بصبغته الخاصة وأعطى لكل منها معنى جديداً يتفق مع روح مذهبه العام فى وحده الوجود " .

وهكذا رأينا كيف تعددت المصادر والمناهل التى ارتشف منها محيى الدين بن عربى ثقافته، وعلى ذلك فليس من المستغرب أن يؤتى هذا العالم الكبير بسطة فى الفكر والخيال ، وعمقاً فى الحس الروحى .

أما مذهبه الذى اعتنقه ونافح عنه كثيراً فهو (وحدة الوجود Pantheism) ويرى ابن عربى فى هذا المذهب أن الوجود كله واحد ، وأنه ليس إلا مظهراً للذات العلية ، وما التعدد

والكثرة إلا أمر قد قضت به الحواس الظاهرة ، والعقل الإنسانى القاصر عن أن يدرك الوحدة الذاتية للأشياء أو يدرك المجموع مجموع (٢٩).

ولقد نطق ابن عربى بهذا المذهب فى كل مؤلفاته فيقول فى فتوحاته المكية :

لما بدأت لست أبديه — علمت أنى عين البدء من فيه
فكنت أشهده فى كل نازلة — وكان يشهدنى إذ كنت أخفيه(٣٠)

ويقول :

إن الوجود بجود الحق مرتبط — وكلنا فيه مسرور ومغتبط
إن الذى توجد الأعيان همته — هو الوجود الذى بالجود يرتبط(٣١)

ويقول :

فليس الظهور سوى ما ظهر — وليس البطون سوى ما استتر
فأين الذهاب وأين الإياب — وأين القرار وأين المقر(٣٢)

ويقول :

إنما الجمع وجود ليس فى الجمع افتراق — إنما الفراق الذى فيه له بنا اتفاق
فله فى الحكم فينا من وجودنا اشتقاق — ولنا عليه حكم قيده فيه انطلاق(٣٣)

وكذلك يقول ابن عربى فى كتابه (فصوص الحكم) فى قصة الإدريسى (٣٤):

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا — وليس خلقًا بذاك الوجه فادكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته — وليس يدريه إلا من له بصر

وهكذا نرى مذهب وحدة الوجود الذى شاع فى كل ما نطق به ابن عربى .

وأما عن مصنفات ابن عربى التى تربو على المائتى كتابًا فمن أشهرها كتابه (الفتوحات المكية) ، تلك الموسوعة الصوفية العظيمة الأثر التى جمع فيها علوم التصوف فى خمسمائة وستين بابًا ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة من هذه الموسوعة تضمن ملخصًا كاملاً لما ورد فيها . وكذلك من مصنفاته الشهيرة كتابه (فصوص الحكم) الذى يعد من أعظم مؤلفات ابن عربى ، ويتكون هذا الكتاب من سبعة وعشرين فصلاً

يدور كل منها حول حقيقة نبى من الأنبياء ، كما هو واضح فإن هدف ابن عربى من ذلك كان البحث عن طبيعة الوجود بوجه عام ، وصلة الوجود الممكن (العالم) بالوجود الواجب (الله).

هذا بالإضافة إلى العديد من مؤلفاته التي لا تقل أهمية عن هذين الكتابين ، كتفسيره للقرآن الكريم ، ومحاضرة الأبرار ، وإنشاء الدوائر ، وعقلة المستوفز ، وعنقاء مغرب ، وترجمان الأشواق ، وكتاب الأخلاق ، وديوان فى الأشعار الصوفية ، وكتاب الأمر المحكم ، وكتاب فى مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ، ومشاهد الأسرار ، ورسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار (٣٥).

ويهمنا بعد هذا العرض أن نقول : أنه فى عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م توجه محيى الدين بن عربى بما يحمله من علم غزير وفكر متحرر إلى بلاد سلاجقة الروم صوب مدينة قونية العاصمة، وكان ذلك فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس الأول بن غياث الدين كيخسرو الأول (٦٠٧ – ٦١٦هـ / ١٢١٠ – ١٢١٩م) ، فقوبل هناك بالحفاوة والتكريم كما أشار إلى ذلك أسين بلاثيوس(٣٦) فى كتابه (ابن عربى حياته ومذهبه) إذ يقول : إن السلطان عز الدين كيكاوس الأول " خرج بنفسه لاستقبال ابن عربى بالإكبار والحفاوة " . ولم تتوقف حفاوة السلطان عز الدين كيكاوس الأول بابن عربى عند استقباله إياه وترحيبه به ، بل امتدت إلى منحه دار فخمة للإقامة بها ، مما يؤكد ما ذهبنا إليه فى صدر حديثنا عن الحياة الثقافية من إكرام سلاطين سلاجقة الروم لمن ارتاد بلادهم من العلماء .

ويلاحظ أن المقام قد طاب لمحيى الدين بن عربى بمدينة قونية فألف أثناء وجوده بها كتابين هما – مشاهد الأسرار ، ورسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار – كما أنه كان فى أوقات فراغه " يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانتفاع بتعاليمه والاقتداء به " (٣٧). فبدأت أفكاره وآراؤه تنتشر بأرجاء دولة سلاجقة الروم ، وكثر طلابه الذين أخذوا العلم عنه ونهلوا من منهله ، ولعل صدر الدين القونوى كان أشهر هؤلاء الطلاب .

ولم يكتف ابن عربى لنشر مذهبه وأفكاره فى بلاد سلاجقة الروم بتوافد الطلاب إليه وأخذ العلم عنه بمدينة قونية ؛ بل قام برحلة سياحية داخل تلك البلاد زار خلالها قيسارية وملطية ، وسيواس ، وأرزن الروم وغيرها (٣٨) ، وبعد أن قضى قرابة عام فى بلاد سلاجقة الروم توجه عائداً إلى بغداد وذلك فى عام ٦٠٨هـ / ١٢١٤م كما قلنا من قبل .

لكن فيما يبدو أن العلاقة بين محيي الدين بن عربي وعز الدين كيكاوس الأول سلطان سلاجقة الروم قد توطدت ، إذ يذكر ابن عربي(٣٩) في كتابه (الفتوحات المكية) في باب الوصايا ، أن كيكاوس الأول قد أرسل إليه أثناء إقامته ببغداد في عام ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ، رسالة يستشيره فيها في أمور دولته ، فرد عليه في ذلك العام برسالة مطولة ينصحه فيها نصح الأب لابنه .

وإن كان بلاثيوس(٤٠) يرى في هذه الرسالة أن محيي الدين بن عربي قد طلب من كيكاوس الأول معاملة النصارى القاطنين بدولته معاملة تخلو من الود والتسامح ، وأن يطبق عليهم القوانين الصارمة . فإننا نرى من جانبنا أن هذا الرأي يتنافى تماماً مع مذهب وحدة الوجود الذي كان يدين ابن عربي ، ويبدو أن بلاثيوس نظر إلى تلك الرسالة نظرة جزئية لا تتفق مع النظرة الكلية الشمولية التي يقول بها ابن عربي ، فأدت تلك النظرة إلى تركيز بلاثيوس علي السلبيات دون الإيجابيات .

فمن أقوال ابن عربي لكيكاوس الأول في هذه الرسالة " وأنت يا هذا بلاشك من أئمة المسلمين وقد قلدك الله هذا الأمر ، وأقامك نائباً في بلاده ، ومتحكماً بما توفق إليه في عباده ، ووضع لك ميزاناً مستقيماً تقيمه منهم ، وأوضح لك حجة بيضاء تمشي عليها وتدعوهم إليها ، على هذا الشرط ولاك ، وعليه بايعناك " (٤١) . ومن أقواله أيضاً : " ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم وإظهار المعاصي وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة فإن الله أقوى منك ، فيتحكمون فيهم بالجهالة والأغراض ، وأنت المسئول عن ذلك ، فيا هذا قد أحسن الله إليك ، وخلع خلع النيابة عليك . فأنت نائب الله في خلقه وظله الممدود في أرضه ، فانصف المظلوم من الظالم " (٤٢).

وهكذا نرى ابن عربي في رسالته لكيكاوس الأول قد طلب منه العدل في رعيته ومراعاة حق الله ، لأنه نائبه في أرضه وخليفته في عباده . وإن كان ابن عربي في جانب آخر من تلك الرسالة قد طلب من كيكاوس الأول تطبيق الشريعة الإسلامية في معاملة أهل الذمة بدولته ، فإن ذلك لم يكن قسوة من محيي الدين على النصارى لأن تطبيق الشريعة الإسلامية رحمة لكل من الحاكم والمحكوم .

ومما يجدر ذكره أن محيي الدين بن عربي انتقل بعد ذلك من بغداد إلى دمشق وظل مقيماً بها حتى أدركته الوفاة في شهر ربيع الثاني عام ٦٣٨هـ الموافق اكتوبر من عام ١٢٤٠م(٤٣).

وطالما أننا قد تحدثنا عن ابن عربي وزيارته لبلاد سلاجقة الروم ، فإنه من الواجب علينا في هذا المقام أن نشير إلى إحدى ثمار غرسه بتلك البلاد ونقصد بذلك أشهر طلابه بمدينة قونية صد الدين القونوى ، ولنا معه وقفة يسيرة .

٣ - صدر الدين القونوى ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م :

قال عنه السبكي(٤٤) في طبقاته هو " محمد بن اسحق الشيخ الزاهد ، صدر الدين القونوى صاحب التصانيف في التصوف " والقونوى نسبة إلى قونية عاصمة بلاد سلاجقة الروم ولقد تتلمذ القونوى هذا على أستاذه محيي الدين بن عربي أثناء وجوده بمدينة قونية في عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ، ومما تجدر الإشارة إليه أن محيي الدين بن عربي كان قد تزوج من أم صدر الدين المذكور (٤٥)، وبالتالي تربى صدر الدين في كنف محيي الدين وأخذ عنه الكثير من علمه وأفكاره .

يقول صدر الدين عن شيخه " كان شيخنا ابن عربي متمكنًا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضيين على ثلاثة أنحاء : إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسداً في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التي كانت له في حياته الدنيا ، وإن شاء الله أحضره في نومه ، وإن شاء انسلخ عن هيكله واجتمع به . وهو أكثر القوم كلاماً في الطريق " كما جاء في شذرات الذهب لابن العماد (٤٦).

ومن تلك الكلمات نرى تأثر القونوى الواضح بشيخه ابن عربي في فكرة الحلول والاتحاد .

والجدير بالذكر أن صدر الدين القونوى كان من أكبر مروجي مذهب أستاذه ابن عربي : إذ قام بإلقاء المحاضرات والدروس عنه وعن كتبه لا سيما كتابه فصوص الحكم بكل من دمشق وقونية ، وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى(٤٧) في كتابه (الإنسان الكامل في الإسلام) نقلاً عن شيدر فإن هذه الدروس " لقيت رواجاً هائلاً " . وبها " تأثرت شخصيتان عظيمتان من حملة لواء الشعر الفارسي في القرن الثالث عشر (السابع الهجري) ، هما فخر الدين العراقي ، وأوحد الدين الكرماني " .

وهكذا رأينا صدر الدين القونوى لم يكتف بإلقاء الدروس والمحاضرات عن أستاذه ابن عربي بمدينة قونية فحسب ، بل رحل إلى بلاد الشام لإلقاء المزيد من المحاضرات والدروس عن شيخه ، ثم عاد ثانية إلى قونية عاصمة سلاجقة الروم - مما كان له أعظم الأثر في الشعر

الفارسي آنذاك . حتى قال الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه السالف الذكر أن " ثمت موجزاً رائعاً عظيم المكانة من الناحية الشعرية يتمثل فيه الأسلوب الجديد الذى أوجده مذهب ابن عربى فى الشعر الصوفى الفارسى ، كتب سنة ٧١٠هـ / ١٢١٠م ويوجد له عدة مخطوطات ، ألا وهو ديوان جلشن راز لمحمود شبستري " (٤٨).

وقد صنف صدر الدين القونوى العديد من الكتب لعل من أشهرها : شروحه لفصوص الحكم ، وشرح الأسماء الحسنى ، ولطائف الأعلام فى إشارات أهل الإلهام ، والنفحات الإلهية القدسية ، وبرزخ البرازخ ، والرسالة المرشدية فى أحكام الصفات الإلهية ، والرسالة الهادية(٤٩).

هذا بالإضافة إلى كتاب (مراتب الوجود) الذى قسم فيه القونوى الوجود إلى أربعين مرتبة وجعل الأخيرة منها للإنسان الكامل الذى قال فيه " إنه الجامع للحقائق الحقية والحقائق الخلقية ، جملة وتفصيلاً ، حكماً ووجوداً ، بالذات والصفات ، لزوماً وعرضاً ، حقيقة ومجازاً . وكل ما رأيته أو سمعته فى الخارج فهو عبارة عن رقيقة من رقائق الإنسان ، واسم لحقيقة من حقائق الإنسان . فالإنسان هو الحق ، وهو الذات ، وهو الصفات ، وهو العرش ، وهو الكرسى، وهو اللوح ، وهو القلم ، وهو الملك ، وهو الجن ، وهو السموات وكواكبها ، وهو الأرضون وما فيها ، وهو العالم الدنياوى ، وهو العالم الأخراوى ، وهو الوجود وما حواه ، وهو الحق ، وهو الخلق ، وهو القديم . وهو الحادث . فلله در من عرف نفسه معرفتى إياها : لأنه عرف ربه معرفته لنفسه " (٥٠).

وعلى ضوء تلك الكلمات التى أوردها لنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه (الإنسان الكامل) نقلاً عن مخطوط (مراتب الوجود) للصدر القونوى ، يتضح لنا سير التلميذ على درب أستاذه ، فالقونوني معتنق لمذهب شيخه ابن عربى المعروف بوحدة الوجود ولعل كلمات المخطوط التى أوردناها آنفاً تنطق بأقوى دليل على ذلك .

وفى عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م توفى الشيخ صدر الدين القونوى بمدينة قونية على رواية الذهبى(٥١) فى كتابه دول الإسلام ، بعد أن أثرى الحياة الثقافية بمؤلفاته لا فى بلاد سلاجقة الروم وحدها بل وفى بلاد الشام أيضاً .

نعود بعد ذلك إلى مواصلة الحديث عن أشهر العلماء الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم وأثروا حياتها الثقافية ، فنتوقف أمام جلال الدين الرومى ومآثره الخالدة .

٤ – جلال الدين الرومي :

لقد وفد جلال الدين الرومي بصحبة أبيه بهاء الدين محمد إلى بلاد سلاجقة الروم وطاب له المقام بمدينة قونية عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م ، وإثر وفاة أبيه في عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م خلفه في وظيفة التدريس بمدارس قونية لبعض الوقت ، ثم تحول إلى التصوف وأخذ علومه الأولى عن شيخيه : برهان الدين الترمذي ، وشمس الدين تبريزي ، وسرعان ما فاق التلميذ شيوخه وأصبح جلال الدين كعبة الزوار ومنتدى العلماء والمفكرين وقد ترك لنا جلال الدين آثارًا أدبية شعرية ونثرية مازالت تنطق ببراعته الفائقة وقدرته الفذة عبر العصور .

أما آثاره الشعرية فأشهرها على الإطلاق كتاب (المثنوى) ؛ والمثنوى كلمة ترادف كلمة المزدوج ، وهي اصطلاح عروضي فارسي يعتمد في التقفية على توحيد القافية بين شطري كل بيت من أبيات المنظومة ، وقد استغرق جلال الدين الرومي في تأليف هذا الكتاب حوالي أربعين عامًا (٥٢). وهو كتاب في التصوف يصور مذاهبه ويفسرها ، ويبين أسرار الوصول وسبله عن طريق سرد القصص ، وتفسير الآيات ، وإيراد الأحاديث وغير ذلك .

وهذا الكتاب الذي يعد موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقًا إلى شاطىء البحر المتوسط غربًا ، يقع في ستة أقسام ويضم بين دفتيه حوالي خمسة وعشرين ألفًا وستمائة واثنين وثلاثين بيتًا ، فيحتوى قسمه الأول على ٤٠٠٣ بيت ، والثاني على ٣٨١٠ ، والثالث على ٤٨١٠ ، والرابع على ٣٨٥٥ ، والخامس على ٤٢٣٨ ، والسادس على ٤٩١٦ ، ونظم الكتاب على بحر الرمل (٥٣).

وأما أشهر مصنفاته النثرية فهو كتابه (فيه ما فيه) ، وهو عبارة عن الأحاديث التي ألقاها جلال الدين على مريديه وزواره ، وما سجله المريدون الذين حضروا مجلسه وسمعوا إجاباته عما وجه إليه من أسئلة ، وجمع كلّ ذلك داخل هذا الكتاب الذي أشرنا إليه .

هذا بالإضافة إلى ما نسب إليه من أشعار قالها بالتركية تعد أول باكورة للشعر التركي في بلاد سلاجقة الروم نذكر منها قوله " أنا اصطفيك من دون الأنام حبيبًا كما قد تعلم ، والكمد لاشك قاتلي إن لم تجد بوصال منك يحييني . الله ما أسعدها لحظة تلك التي أراك فيها إلى جانبي ، سأتعلم لغة الترك ، وأكب على الشراب أرشفه رشفا " (٥٤).

ولاشك أن جلال الدين الرمى بأعماله الشعرية والنثرية التى كتبها باللغتين الفارسية والتركية ، قد أثرى الحياة الثقافية في بلاد سلاجقة الروم إثراء كبيراً . وإن جلال الدين قد توفى فى عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م بمدينة قونية ، فإن ابنه سلطان ولد حمل مشعل الثقافة وكان رباناً للطريقة المولوية في بلاد سلاجقة الروم ، إذ أنه أعلم الناس بتعاليم أبيه ومراميه ، وأقدرهم على تفسير المبهم من أفكاره ومعانيه ، فكان خير خلف لخير سلف ، ولنا وقفة مع ذلك العالم الكبير .

٥ – سلطان ولد ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م :

هو أحمد بن جلال الدين الرومى المعروف بسلطان ولد ، وقد ولد "سلطان ولد" هذا فى مدينة لارندة إحدى مدن سلاجقة الروم قبيل أن تنتقل أسرة أبيه من تلك المدينة إلى قونية العاصمة(٥٥)، وكان لمولد سلطان ولد فى تلك البيئة الثقافية أثر كبير فى تشكيل فكره وثقافته ، إذ شب منذ نعومة أظفاره على سماع العلم ، وما أن غدا طفلاً حتى أصبح من مريدى مجالس السماع التى كان يديرها والده جلال الدين زعيم المولوية . فتثقف فكره وسمت روحه ، وصفا وجدانه وأصبح من كبار الشعراء الصوفيين بدولة سلاجقة الروم ، وما أن توفى والده جلال الدين حتى خلفه ابنه ذلك الشاعر الكبير في ريادة الطريقة المولوية فوجه أهدافها ، وقاد مجالس السماع بها ، فاستقطب العديد من سكان بلاد سلاجقة الروم الذين هرعوا إليه لأخذ الفكر الصوفى والعلم اللدنى .

وحرى بذلك الشاعر الكبير الذى نشأ فى تلك البيئة الثقافية أن يترك لنا آثاراً شعرية خالدة عالية القدر رفيعة الشأن بها مسحة من التطور ، وقد كان ذلك كما ينطق به كتابه (ولد نامه)، والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يضم بين دفتيه ثلاثة أقسام ابتداء نامه ورباب نامه وانتهاء نامه، وقد استخدم سلطان ولد في تأليفه لهذا الكتاب اللغات الثلاث (الفارسية واليونانية والتركية) إلى جانب العربية (٥٦).

وعلى الرغم من أن أشعار سلطان ولد كانت لاتدانى أشعار أبيه جلال الدين الرومى صاحب المثنوى ، إلا أن هذه الأشعار كانت لها قيمة كبرى : لأنها تعد نتاجًا فكريًا جديداً نتيجة امتزاج واختلاط الثقافات بدولة سلاجقة الروم . فالأشعار التى قرضها سلطان ولد باللغة اليونانية والمكتوبة بالحروف العربية كانت لها قيمة كبرى لا سيما لدى علماء اللغة " إذ أنها الذكرى الوحيدة للهجة الرومية فى منطقة قونية فى ذلك الوقت " . كما يقول بارتولد فى كتابه (تاريخ الترك فى آسيا الوسطى) (٥٧).

أما شعره التركى فيعد تثبيتًا وتقريراً للمحاولة التى بدأها أبوه - جلال الدين الذى كان أول من قرض الشعر بالتركية فى بلاد سلاجقة الروم - ومن أشهر ما أنتج سلطان ولد من الأشعار التركية منظومته السماة (رباب نامه) ، التى قال عنها حسين مجيب المصرى فى كتابه (تاريخ الأدب التركى) أنها " تعتبر أول محاولة جدية للنظم بالتركية العثمانية ، وأقدم أثر شعرى نملكه بهذه اللغة " (٥٨).

ومن أقوال سلطان ولد فى تلك المنظومة " اعلم أن مولانا جلال الدين الرومى قطب الأولياء، فالق السمع إلى قوله ، وألزم نفسك أن تعمل به ، فما كلماته الغر الحسان إلا رحمات من رب العالمين ، وفيها للعين العمياء نور ترى به معالم طريقها ، وإنى لأستلهم الله قدرة لى على أن أوفيه حقه من مدح وتمجيد " (٥٩). ويتضح لنا من تلك الكلمات أن سلطان ولد يمجد والده - جلال الدين - ويذكر مآثره ومحاسنه .

ومن أقواله أيضًا " أنا خالى الوفاض من نشب ولا أملك من حطام هذه الدنيا شيئًا فكيف أجود بما ليس عندى ! وما غناى إلا بتلك الكلمات التى تبصر من عمى وتهدى من ضلال ، وهى النفائس التى لا يرضى العاقل بديلاً بها " (٦٠). وكذلك قوله فى ذم الدنيا وترك زخرفها والتعلق بحب الله " زينة الدنيا وزخرفها إلى تراب ، أما الكلمات فإلى خلود واللفظ يبقى أبدًا ... فلتدع ربك فى صلاة باكية ، ولتضرع إليه أن يمد عليك جناحًا من رحمته ، وقل له : اللهم فتح عيونى لرؤيتك واجعلنى كالقطرة تسقط فى البحر اللجى وتمتزج بأمواجه وأمواهه ، فتخلد خلود البحر إلى آخر الدهر " (٦١).

ومن خلال ذلك يتضح لنا اعتناق سلطان ولد لفكرة الحلول والاتحاد التى قال بها من قبله والده جلال الدين الرومى ، وقال بها أيضًا قبل ذلك كل من السهروردى وابن عربى والقونوى.

وكذلك كان لسلطان ولد مقطوعة رمزية يصور فيها صلته بالله الذى يرمز له بالنور ولقبه بالدار كما يشبه نفسه الأمارة بالسوء باللص فيقول " إن نوراً يضىء الليلة دارك ، فكأن البدر يسكنها بضيائه ، ولن تعرف الظلام بعد اليوم ، فلا ظلام مع هذا البدر . أما ذلك المتلصص الذى يبعث فى ستر فسوف ينكشف أمره فى النور "(٦٢) . وهى دعوة لكى يراقب الإنسان ربه فى كل أعماله ، نلاحظ من خلالها قول سلطان ولد بالنور والظلمة كغيره من شعراء الصوفية السابقين .

وهكذا كان سلطان ولد مجدداً لدعوة أبيه ، سائراً على دربه ، معتنقًا لفكره وآرائه ، وقد توفى سلطان ولد بمدينة قونية فى عام ٧١٢هـ/١٣١٢م(٦٣) بعد إثرائه الحياة الثقافية بدولة سلاجقة الروم ، وتعبيره أصدق عن لغات سكانها من فرس وترك وبيزنطيين وغيرهم كما يعزى إليه وضع الشعر التركى على بداية الطريق .

ومما لاشك فيه أن جلال الدين الرومى وابنه سلطان ولد قد أسهما إسهامًا كبيرًا فى نشأة الأدب التركى فى بلاد سلاجقة الروم ؛ إذ كان لتجربتهما الأولى التى تمثلت فى قرضهما الشعر بالتركية إلى جانب العربية والفارسية أعظم الأثر فى ظهور لون خاص من الشعر معبر عن اللسان التركى داخل بلاد سلاجقة الروم ممثلاً آنذاك فى الشاعر يونس أمره ، وسوف نتوقف قليلاً عند هذا الشاعر الذى يعد شعره تطويرًا للفكرة التى بدأها جلال الدين وأرسى قواعدها ابنه سلطان ولد .

٦ – الشاعر الصوفى الكبير يونس أمره، ت بعد عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م :

ولد يونس أمره أى (يونس العاشق) بقرية تدعى (صارى كوى) إحدى قرى بلاد سلاجقة الروم فى جهتها الغربية ، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، ولاشك أن يونس أمره هذا كان قد وقف على آراء المتصوفة التى انتشرت فى ربوع آسيا الصغرى وقتذاك . فاستفاد منها الكثير وكون فكرًا خاصًا به يدل على ذوق معين إذ قرض الشعر بالتركية الخالصة ، مما يعد نتاجًا للتجربة التى بدأها جلال الدين وابنه سلطان ولد.

وإن كان شعر يونس أمره شعبيًا لا يرقى إلى الذوق الرفيع الذى اتسم به شعر سابقيه أمثال السهروردى المقتول ، ومحيى الدين بن عربى ، وصدر الدين القونوى ، وجلال الدين الرومى ، وسلطان ولد . فإنه قد عبر أصدق تعبير عن اللسان التركى آنذاك فى بلاد سلاجقة الروم ، فضلاً عن أن هذا الشعر لاقى قبولاً لدى الطبقات الشعبية أكثر ما لقيه شعر من سبقه من المتصوفة .

ومن أشعار يونس أمره التى قرضها بالتركية تلك المنظومة التى يدعو فيها إلى طريقته ، ويحبب الانتماء إلى مجلسه فيقول " تعال وامضى بنا إلي الحبيب ولنكن شريكين ، تعال وليكن منك دليلى ، ووجه الحبيب قبلتنا . تعال واطرح هموم قلبك ، فَهَمَّنَا لُقْيَا الحبيب وزايل معى هذه الدنيا فإنها إلى زوال . لا لا تفارقنى وإلى الحبيب سر بى . لا دوام للدنيا على حال فاصح من سباتك وانتبه من غفلتك ، وإلى الحبيب هيا بنا لنكن صفيين " (٦٤).

ويقول فى مناجاته لربه " إن سألتنى يا إلهى فهأنذا أجيبك ، أنا إن كسبت خطيئة فما ظلمت إلا نفسى ، ولا قصدت بشىء ذاتك العلية يا ربى ، الذنوب أرجاس ، وأهلها جيف دنسة، فهلا نزهت موازينك عن أن تزن أدناساً وأرجاسا ، فلو سترتها بفضل من رحمتك " . ويستطرد يونس أمره فى مناجاته لربه التى يكشف فيها أسراره ، ويبوح فيها بما فى نفسه فيقول " وإن كان الشرك إثماً كبيراً ففى يدك إنقاص الشر وزيادة الخير ، وإنقاص الخير فى يدك وزيادة الشر ، وإذا أردت لى النار فانظر إلىّ كيف احترق ! وحاشا لله أن يكون ذلك منك يا رب الأنام ، وإذا ما امتنى فصرت ترابا ، وامتلأت عينى ترابا ، فأنت عليم بنيتى نحوك لأنك عليم بذات الصدور ولا يخفى عليك ما ظهر ما بطن ، ولكن هل يستحق إنسان مثلى وهو حفنة من تراب كل هذا القيل والقال ، يا كريما ذا الجلال ، أنا لا أملك سوى ذلك من جواب ، وهذا كلامى والله أعلم بالصواب " (٦٥).

ومن خلال تلك الكلمات نرى أن يونس أمره يأمل فى غفران ربه ورضاه ، ويقول بأنه مهما ارتكب من أخطاء فإن هذه الأخطاء ظاهرة ولا تدل على حقيقته ، وما الأعمال إلا بالنيات . وعلى ذلك فإن شاعرنا هذا يقول أيضاً بالباطن كغيره من الشعراء الصوفية الذين ارتادوا بلاد سلاجقة الروم أمثال السهروردى ومحيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى ، مما يؤكد لنا استفادة يونس أمره من هؤلاء الشعراء .

وأما أشهر ما أنتج يونس أمره من الأشعار التركية على الإطلاق فهى تلك الأبيات التسعة الرمزية في السلوك التى اتسمت بالمنطق الإلهى وعرفت بإلهيات يونس أمره ، وقد أخفى يونس أمره قصده منها فكان ظاهرها لا يعبر عن باطنها ، وقد عدها دراويش البكتاشية الذين انتسبوا إليه دستوراً للسلوك .

يقول يونس أمره فى مطلع هذه الأبيات :

" طلعت على شجرة البرقوق وأكلت منها العنب

فنهرنى صاحب البستان قائلاً لم تأكل جوزى "(٦٦).

وهنا يعبر شاعرنا الصوفى عن الشريعة والطريقة الحقيقة : بالبرقوق والعنب والجوز ، فالبرقوق يؤكل ظاهره وما يشبه البرقوق فهو مثال لظاهر العمل ، والعنب يؤكل وتصنع منه بعض الصناعات فيعبر عن الباطن ولا يعبر عن الحقيقة لأن به قد من البذور ، أما الجوز فهو

الحقيقة لأنه يؤكل كله . ويشير شاعرنا فى ظاهر كلامه إلى أن من طلب البرقوق فعليه بشجره، ومن طلب العنب فعليه بكرمه ، ومن طلب الجوز فعليه بشجر الجوز ، وأما من طلب العنب من شجر البرقوق فهو أحمق سيبذل الكثير من الجهد والعناء دون أى طائل .

وأما فى باطن كلامه فيقصد شاعرنا أن من أراد معرفة صلاح علم الظاهر وفساده فعليه بكتب الفقه يقرؤها ويتعلمه منها ويعمل به ، ومن أراد معرفة صلاح علم الباطن وفساده فيرجع إلى التلقين وأصول أسماء الله والكتب التى تنير القلوب ثم يعرض ذلك على مرشده ويداوم العودة إليه حتى يسلك الطريق ، وأما من أراد معرفة ذوق علم الحقيقة وحاله ، وهو معرفة النفس التى هى معرفة الله فعليه بالرياضة الشافية بعناية المرشدين حتى تسمو روحه وتصفو نفسه . وأخيراً ينبه شاعرنا فى هذا البيت على أن من أراد أن يسلك الطريق الصحيح فعليه بالمرشد الذى يوضح له معالم الطريق ويقيه عثراته ، وقد أشار يونس أمره إلى المرشد فى هذا البيت بصاحب البستان . كما قال بذلك العالم الصوفى محمد نيازى الشهير بالمصرى الذى قام بشرح الأبيات التسعة ، وفك رموزها فى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى (٦٧).

وهكذا رأينا يونس أمره قد استخدم فى بيته السابق أشياء طبيعية ملموسة ومحسوسة للكثير من الناس ، كالبرقوق والعنب والجوز والبستان وغير ذلك . بينما كان قصده بتلك الأشياء كيفية سلوك الطريق ، فعلى الإنسان أن يأخذ كل شىء من مصدره ، والولى عنده هو الذى يقوم من سلوك المريد وبدون الولى لا يحصل المريد شيئًا ، والجدير بالذكر أن يونس أمره توفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، بعد أن أثرى الحياة الثقافية فى بلاد سلاجقة الروم .

وبتلك الدراسة نكون قد أمطنا اللثام عن فكر ونتاج الفلاسفة المتصوفة الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم وأثروا حياتها الثقافية ، كالسهروردى المقتول ومحيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى ، كما تعرفنا على أشهر طلابهم الذين نشأوا فى تلك البلاد كصدر الدين القونوى تلميذ ابن عربى ، وسلطان ولد بن جلال الدين الرومى ، وكذلك تعرفنا أيضًا على نتيجة التجربة الرائدة فى نشأة الأدب التركى التى وضع فكرتها جلال الدين ، وأقرها سلطان ولد ، وعبر عنها يونس أمره . والجدير بالذكر أن القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى قد شهد أيضًا ظهور بعض مصنفات الأدب التركى ، كقصة (الشيخ صنعان) وهى

منظومة لمؤلف مجهول ، و (صلصال نامه) وهي منظومة ومنثورة لشاعر يدعى شياد عيسى ، و (دانشمند نامه) التي ألفها ابن علا بأمر الأمير عز الدين كيكاوس الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى (٦٨). مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الأدب التركى فى هذا القرن بدأ يعبر عن نفسه ويخرج إلى حيز الوجود .

وبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من الفلاسفة المتصوفة الذين وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم ، نتوقف قليلاً عند الأطباء الذين ارتادوا تلك البلاد وأسهموا فى إثراء حياتها الثقافية ، كحسنون الرهاوى ، وابن كرابا ، وابن الخطاب .

٧ – حسنون الرهاوى ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م :

هو " حسنون النصرانى الرهاوى الطبيب ، قرأ الطب على أطباء الرها ورحل إلى ديار بكر فلقى من كان بها بآمد وميافارقين من الحكماء ، ثم خدم الناس بطبه ، وتنقل فى البلاد بصناعته ، ورحل إلى مملكة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق فخدم أمراء دولته ، ثم خرج عن تلك الديار إلى ديار بكر " (٦٩).

وقال عنه ابن العبرى(٧٠) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) " كان فاضلا فى فنه علمًا وعملاً ، ميمون المعالجة ، حسن المذاكرة بما شاهده من البلاد .. وكان شيخًا بدينًا بهيًا . دخل إلى مملكة قليج أرسلان ، وخدم أمراء دولته كأمير آخور(٧١) سيف الدين واختيار الدين حسن، واشتهر ذكره ، ثم خرج إلى ديار بكر " .

وبذلك يتأكد لنا زيارة حسنون الرهاوى لدولة سلاجقة الروم فى عهد السلطان قليج أرسلان الثانى بن مسعود الأول ، وتقديمه خدماته الطبية لبعض أمراء دولته . والجدير بالذكر أن حسنون الرهاوى توفى بحلب إحدى مدن الشام فى عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م كما أكد ذلك ابن العبرى (٧٢).

٨ – ابن كرابا ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م :

أما ابن كرابا فهو أبو سالم النصرانى اليعقوبى الملطى المعروف بابن كرابا ، خدم السلطان علاء الدين كيقباد الأول ، وكان من أهل مجلسه ، وعلى الرغم من عدم براعته فى الطب إلا أنه عوض ذلك بفصاحة لسانه ، ومعرفته بشيء من التاريخ . ويبدو أن هذا الطبيب كان له علاقة طيبة بالسلطان علاء الدين كيقباد الأول ، إذ كان يرافقه فى حملاته العسكرية ،

وعندما اعتقد ابن كرابا تغير سيده كيقباد الأول عليه فى عام ٦٢٢هـ شرب السم انتقاماً من نفسه (٧٣).

٩ – ابن الخطاب (كان فى عام ٦٤٦هـ) على قيد الحياة :

وأما ابن الخطاب فهو تقى الدين الرأس عينى المعروف بابن الخطاب – ورأس عين إحدى بلاد الجزيرة – قال عنه ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) أنه " طبيب مشهور الذكر متقن لصناعة الطب علمها وعملها غاية الاتقان " . وقد خدم هذا الطبيب كلاً من السلطان غياث الدين كيخسرو الثانى ، وابنه عز الدين كيكاوس الثانى ، ونال عندهما منزلة كبيرة حتى رفعاه إلى درجة المعاشرة والمسامرة وأقطعاه إقطاعات جزيلة والجدير بالذكر أن هذا الطبيب كان يتزيا بزى خاص وله الخدم والغلمان وبذلك تمتع بمركز مرموق فى بلاد سلاجقة الروم(٧٤).

وهكذا رأينا كيف نال الأطباء فى بلاد سلاجقة الروم مكانة مرموقة ، وكيف ارتقى هؤلاء الأطباء من مهنة الطب والاشتغال به إلى معاشرة السلاطين ومسامرتهم حتى كانوا من أهل مجلسهم .

وفضلاً عما تقدم ذكره من أن فلاسفة المتصوفة ، وعلماء الطب قد وفدوا إلى بلاد سلاجقة الروم ، هناك أيضاً بعض علماء المنطق وعلم الكلام الذين ارتادوا تلك البلاد وأثروا حياتها الثقافية نذكر منهم : تاج الدين الأرموى ، وسراج الدين الأرموى ، وصفى الدين الهندى الأرموى ، وسوف نعرض بالدراسة لهؤلاء العلماء حتى نقف على أشهر مصنفاتهم .

١٠ – تاج الدين الأرموى(٧٥) ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م :

أشار ابن العبرى(٧٦) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) إلى أن تاج الدين أبا عبد الله محمد الحسينى الأرموى الإمام الأصولى والفقيه الشافعى كان أحد تلامذة الإمام فخر الدين الرازى ، وقد تلقى تاج الدين العلم على أستاذه الرازى وبرع فيه ، ثم رحل بعد ذلك إلى بلاد سلاجقة الروم وعلى وجه الخصوص إلى مدينة قونية العاصمة حيث نشر فكره وثقافته بتلك المدينة وبغيرها من مدن آسيا الصغرى .

والأرموى نسبة إلى أرمية من أعمال أذربيجان ، وقد كان له بعض المصنفات فى المنطق والحكمة وأصول الفقه نذكر منها على سبيل المثال كتابه (الحاصل من المحصول فى أصول الفقه) وكانت وفاة هذا الشيخ فى عام ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م(٧٧).

١١ - سراج الدين الأرموى ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٢م :

هو محمود بن أبى بكر بن أحمد بن حامد الأرموى الآذربيجانى الشافعى المعروف بأبى الثناء سراج الدين الأرموى ، ولد بمدينة أرمية فى عام ٥٩٤هـ / ١١٩٨م وحصل العلم بمدينة الموصل ثم زار دمشق وغيرها من البلدان (٧٨). وقد ذكر ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) أن سراج الدين الأرموى كان من بين تلامذة الإمام فخر الدين الرازى أيضاً - شأن تاج الدين الأرموى - قرأ العلم عليه وحصل منه الكثير ، والجدير بالذكر أن سراج الدين الأرموى هذا بعد أن قرأ كتب أستاذه الرازى وعرف مصطلحاتها رحل إلى ملطية إحدى مدن سلاجقة الروم ، وهناك التقى بعلاء الدين كيقباد الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى ، ثم انتقل إلى مدينة قونية على أثر توليه منصب القضاء بها (٧٩).

وفى تلك الآونة صنف سراج الدين الأرموى كتاب (لطائف الحكمة) باسم السلطان عز الدين كيكاوس الثانى بن غياث الدين كيخسرو الثانى ، ثم لم يلبث أن دخل سراج الدين فى خدمة السلطان كيكاوس الثانى وارتقى على أثر ذلك فى وظيفته حتى أصبح قاضى قضاة قونية وذلك فى عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م(٨٠).

ومن أشهر مصنفات سراج الدين الأرموى فضلاً عن كتابه السالف الذكر لطائف الحكمة - كتبه (مطالع الأنوار وشروحه فى المنطق والحكمة) ، و (شروح الإشارات والتنبيهات لابن سينا فى المنطق والحكمة) أيضاً ، هذا بالإضافة إلى كتبه : (بيان الحق) ، (وشرح الوجيز للإمام الغزالى فى الفقه) ، (والتحصيل من المحصول) (٨١).

وهكذا يتضح لنا من خلال تلك الأعمال ما قدمه سراج الدين الأرموى للحياة الثقافية بمدينة قونية خاصة وبلاد سلاجقة الروم عامة ، وفى عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م توقف هذا العطاء أثر وفاة ذلك العالم الجليل ، لكن آثاره الخالدة مازالت تشع بنورها على تلك البقاع .

١٢ - وأما صفى الدين الأرموى ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م :

فهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد المعروف بالشيخ صفى الدين الهندى الأرموى ، ولد فى بلاد الهند عام ٦٤هـ / ١٢٣٦م ، ثم رحل إلى بلاد اليمن فى عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م ، ومنها توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وبعد أدائه شعائر الحج زار مصر ومنها رحل إلى بلاد سلاجقة الروم . والجدير بالذكر أن هذا الشيخ كان تلميذاً للقاضى سراج الدين الأرموى

بقونية قرأ العلم عليه وأخذ الكثير عنه ، وفى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٧م ترك بلاد سلاجقة الروم واتجه إلى بلاد الشام حيث أقام بدمشق ودرس فى مدارسها .

ومن أشهر مصنفاته فى علم الكلام (الزبدة) ، وفى أصول الفقه (النهاية والفائق والرسالة السيفية) ، وقد توفى هذا الشيخ بمدينة دمشق فى عام ٧١٥هـ / ١٣١٥م عن واحد وسبعين عاماً (٨٢).

وهكذا رأينا : كيف أسهم سلاطين سلاجقة الروم فى النهوض بالحياة الثقافية لبلادهم كتعبير حقيقى عن واقعهم الحضارى الإسلامى داخل آسيا الصغرى ذلك الإقليم البيزنطى ، فشيدوا المدارس ، وأكرموا وفادة العلماء وألانوا الجانب لهم ، ولم يكتفوا بذلك بل خالطوهم وكانوا من أهل مجلسهم ، ولا أدل على ذلك من الأميرين ناصر الدين بركياروق والى بيكسار ، وركن الدين سليمان شاه الثانى والى توقات اللذين كانا من تلامذة الشيخ شهاب الدين السهروردى المقتول . هذا بالإضافة إلى تحصيل بعض سلاطين سلاجقة الروم لعدد من العلوم وحبهم إياها ، فيذكر ابن الأثير(٨٣) فى كتابه (التاريخ الباهر) أن السلطان قليج أرسلان كان يعتقد مذهب الفلاسفة ، ويذكر ابن الأثير(٨٤) أيضاً فى كتابه (الكامل فى التاريخ) أن ركن الدين سليمان شاه الثانى بن قليج أرسلان الثانى كان يعتقد مذهب الفلاسفة كأبيه . وفضلاً عن ذلك كان يقرض الشعر بالفارسية السلطان : ركن الدين سليمان شاه الثانى وأخوه غياث الدين كيخسرو الأول ، وعز الدين كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول (٨٥). ولاشك أن كل ذلك أدى إلى تقدم الحياة الثقافية فى بلاد سلاجقة الروم كما أوضحنا .

٢٣ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ص ٥٥٤ ترجمة لحياة ابن عربى ؛ ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٩٠/٥؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٣٤ .

٢٤ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ٥٥٤ – ٥٥٥ ترجمة لحياة ابن عربى ؛ ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٩٠/٥ ؛ اسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ص ٥٦ ؛ بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٣٤ .

٢٥ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٥٥ – ٦٦ .

٢٦ – ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥ / ١٩٣ - ١٩٤ .

٢٧ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ص ٥٥٥ – ٥٥٦ ، ترجمة لحياة ابن عربى : أسين بلاثيوس: ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٦٦ – ٧٤ ؛ بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران ، ص ٣٢٥ .

٢٨ – د. أبو العلا عفيفى : تصدير كتاب فصوص الحكم لابن عربى ، ص ٧ .

٢٩ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن عربى .

٣٠ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ص ٢٨٨ .

٣١ – ابن عربى : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

٣٢ – ابن عربى : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

٣٣ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٣٠٦ .

٣٤ – ابن عربى : فصوص الحكم ٧٩/١ .

٣٥ – ابن عربى : الفتوحات الكية المجلد الرابع ، ص ٥٥٥ ترجمة لحياة ابن عربى ؛ د. أبو العلا عفيفى : تصدير كتاب فصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى ، ص٦؛ أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٥٣ ؛ دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن عربى .

٣٦ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٦٦ .

٣٧ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٦٦ – ٦٧ .

٣٨ – أسين بلاثيوس : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

٣٩ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٥٤٧ .

٤٠ – أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٧٠ .

٤١ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٥٤٧ .أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص٧١ .

٤٢ – ابن عربى : الفتوحات المكية المجلد الرابع ، ص ٥٤٧ ؛ أسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ٧١ .

٤٣ – ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٠٢/٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن عربي.

٤٤ – السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٤٥/٨ .

٤٥ – الزركلى : الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والإسلام والعصر الحاضر ٢٥٤/٦ .

٤٦ – ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٩٦/٥.

٤٧ – عبد الرحمن بدوى : الإنسان الكامل فى الإسلام ، ص ٦٤ .

٤٨ – د. عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٤٩ – الصفدى : الوافي بالوفيات ٢٠٠/٢ ؛ الزركلى : الأعلام ٢٥٤/٦ .

٥٠ – د. عبد الرحمن بدوى : الإنسان الكامل فى الإسلام ، ص ١٤٧ .

٥١ – الذهبى : دول الإسلام ١٧٤/٢ حوادث ٦٧٢هـ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ٢٠٠/٢.

٥٢ – بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٧ ؛ بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران ص ٣٣٠ ؛ دائرة المعارف الإسلامية : مادة جلال الدين الرومى ؛ د. السباعى محمد السباعى : جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه بحث لم ينشر ، ص ٢٦ .

٥٣ – جلال الدين الرومى : المثنوى (مخطوط) بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤م تصوف فارسى ؛ حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٤٠ ؛ د. السباعى محمد السباعى : جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه ، ص ٢٦ .

٥٤ – حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٤٥ .

٥٥ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة سلطان ولد .

٥٦ – سلطان ولد : ولد نامة (مخطوط) بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨م أدب فارسى ؛ بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١١٠ ؛ دائرة المعارف الإسلامية : مادة سلطان ولد ؛ د. رضا خسرو شاهى : شعر وأدب فارسى دكركشور هاى همساية أسيا صغير تاسدة دهم هجرى ص ٥٢ – ٥٣ .

٥٧ – بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١١٠ .

٥٨ – حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٤٦ .

٥٩ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٤٦ – ٤٧ .

٦٠ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

٦١ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق والصفحة .

٦٢ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٦٣ – د. رضا خسرو شاهى : شعر وأدب فارسى دركشور هاى همسايه آسيا صغير تاسده دهم هجرى ، ص ٥٢ .

٦٤ – حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٥٠ .

٦٥ – حسين مجيب المصرى : المرجع السابق ، ص ٥٠ – ٥١ .

٦٦ – حمزة طاهر : التصوف الشعبى فى الأدب التركى مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الثانى عشر ٢/ ١٢٠ ديسمبر ١٩٥٠م ، حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص ٥٢ – ٥٣ .

٦٧ – حمزة طاهر : التصوف الشعبى فى الأدب التركى مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول المجلد الثانى عشر –٢/١١٧ – ١٢٢ ، ديسمبر عام ١٩٥٠م.

٦٨ – دائرة المعارف الإسلامية : مادة الترك .

٦٩ – ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٢٢ .

٧٠ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٣ .

٧١ – أمير آخور : قال عنه القلقشندى فى كتابه (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) ٥/٤٦١ " وهو الذى يتحدث على اصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل فى حكم الاصطبلات ، وهو مركب من لفظين : أحدهما عربى وهو أمير ، والثانى فارسى وهو آخور بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المعلف والمعنى أمير المعلف " .

٧٢ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٣ .

٧٣ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٤ .

٧٤ – ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

٧٥ – لقب الأرموى : بضم الألف وسكون الراء وفتح الميم ، هذه النسبة إلى أرمية من بلاد آذربيجان ، راجع: ابن الأثير : اللباب فى تهذيب الأنساب ١/٣٥ ؛ والسيوطى : لب اللباب فى تحرير الأنساب ، ص١٠ .

٧٦ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٤ .

٧٧ – د. عبد السلام محمود أبو ناجى : الحاصل من المحصول فى أصول الفقه ، رسالة دكتوراة لم تنشر ، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر .

٧٨ – الزركلى : الأعلام ٨/٤١ – ٤٢ .

٧٩ – ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٤ ؛ د. عبد الحميد على أبو زنيد : التحصل من المحصول، رسالة دكتوراة لم تنشر ، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، ص ١٦ ، ٢٨ ، ٢٩ .

٨٠ – الزركلى : الأعلام ٨/٤٢ ؛ د. عبد الحميد أبو زنيد : التحصل من المحصول ، رسالة دكتوراة لم تنشر، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، ص ٣١ .

٨١ – الزركلى : الأعلام ٨/٤٢ ؛ د. عبد الحميد أبو زنيد : التحصل من المحصول ، رسالة دكتوراة لم تنشر، كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر ، ص ٣٠٢ .

٨٢ – الذهبى : دول الإسلام ٢ / ٢٢١ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٩/١٦٢ – ١٦٣ .

٨٣ – ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص ١٦٠ .

٨٤ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٢/٨٢ حوادث ٦٠٠ هـ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٣/١٠٥ حوادث ٦٠٠هـ .

٨٥ – كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ص ف . مقدمة بقلم الدكتور / أحمد السعيد سليمان .

د. راوية عبد الحميد حسانين شافع (*)

التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والإسبان فى الأندلس

مقدمة:

عاشت الحضارة الإسلامية على أرض الأندلس ما يزيد على ثمانية قرون ، شاركت فيها سكان إسبانيا المسيحيين حياتهم منذ لحظة الفتح وحتى النهاية ، حدث خلالها تبادل حضارى بين كل الجانبين . ولهذا كان الهدف الأساسى لهذا البحث ليس محاولة تغليب جانب حضارى على جانب حضارى آخر ، وإنما محاولة استخراج أوجه التعاون الحضارى بين حضارتين أو شعبين فُرض عليهما - سواء سلمًا أم حربًا - أن يظلا جنبًا إلى جنب فيما يزيد على ثمانية قرون . وقد آثرت أن أتناول جانبًا واحدًا ، وهو الجانب الاجتماعى الذى ارتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة الأشخاص اليومية فى المجتمع الأندلسى .

والحقيقة أن التأثيرات الاجتماعية المتبادلة فى الأندلس بين المسلمين والإسبان كانت من أبرز التأثيرات على كافة الأصعدة . وساعد كثيرًا فى انتقالها بين طوائف وجماعات المجتمع الأندلسى على اختلاف عقائده وأفراده ، تلك الحرية والتسامح الذى انتهجه ولاة وحكام الأندلس - منذ الفتح الإسلامى وحتى النهاية - تجاه تلك الطوائف من يهود ونصارى ومستعربين حيث كانوا يمارسون أنشطتهم وطقوسهم فى حرية تامة مما ساعد على امتزاج تلك الجماعات على أرض الأندلس (1) وسهل كثيرًا فى انتقال المؤثرات والعادات فى سهولة ويسر بين كافة الطوائف .

---

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة حلوان .

وكان طبيعيًا أن يحدث اختلاط وتداخل بين الشعبين فى العادات الاجتماعية بصفة خاصة، حيث توحدت أساليب الحياة بينهما إلى حد كبير ، علاوة على عدم تأفف المسلمين بسبب النقل عن الحضارات الأخرى ، وذلك بما يتناسب مع شريعتهم وعاداتهم ، فكان هذا الامتزاج الواسع الذى أفرز لنا هذا المزيج الفريد بين المسلمين والإسبان فى الأندلس كما سنوضح لاحقًا فى ثنايا البحث .

وفى البداية - مع أوائل الفتح - كان طبيعيًا أن تكون الغلبة للمسلمين . أما الإسبان كأمة مغلوبة فكان طبيعيًا أن تتطلع إلى الأمة الغازية التى كانت أعلى حضارة وأرقى حياة ، وأكثر تسامحًا مما سبقها من الأمم التى عاشت على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال). وفى هذا الصدد ينكر جوستاف لوبون قائلاً : " لم يكد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالتهم المعهودة فى بناء مجتمع جديد ، واستطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة فتية ، وأن ينشئوا المدن والقرى ، ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالدول الأخرى ، ثم شرعوا يتنافسون فى تحصيل العلوم والآداب ، وفى نقل كتب اليونان والرومان إلى اللغة العربية وينشئون المدارس والجامعات التى كانت وحدها مصدر للثقافة فى أوروبا كلها " (٢).

ورغم التفوق الحضارى للمسلمين فى القرون الأولى لدولتهم فى الأندلس إلا أن المسلمين بطبيعتهم فى هذه المرحلة كانوا مقبلين على الأخذ والعطاء من الشعوب التى اختلطوا بها بصفة عامة وفى إسبانيا بصفة خاصة ، ففى إسبانيا على سبيل المثال لم يفرضوا دينهم ولكن الأوضاع الاجتماعية الظالمة فى عهد القوط - وهم حكام إسبانيا قبل الفتح الإسلامى - دفعت بأفواج كثيرة إلى الإسلام .

ومن هنا بدأت فى الأندلس منذ اللحظة الأولى عملية امتزاج جماعى واسع النطاق بين مختلف العناصر التى أصبح الشعب الأندلسى يتألف منها مما أحدث معه تبادل حضارى واسع فى كافة المجالات . برزت منها التأثيرات الاجتماعية واضحة نتيجة لروح التسامح التى تحلى بها المسلمون تجاه أصحاب الديانات الأخرى فى شبه الجزيرة .

وهكذا نتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة ، وصلت إلى الفكر الأوروبى المجاور وأثرت فيه ، فقد تغلغل الفتح الإسلامى لإسبانيا فى الحياة الإسبانية وترك فيها آثاراً عميقة مازالت تتراءى لنا مظاهرها بوضوح إلى اليوم فى اللغة والمجتمع بل وبعض العادات والتقاليد، التى يستطع لم المجتمع الإسبانى رغم مرور تلك السنوات التخلص منها نهائيًا(٣) .

وسوف نرى من خلال البحث أن هذا المزيج قد أخرج لنا مجتمعًا فريدًا فى العالم الإسلامى علي عصره من حيث التداخل الاجتماعى الواضح بين كافة طوائف المجتمع الأندلسى .

أهم مجالات التبادل الحضارى الاجتماعى:

أولاً : الأعياد :

كانت الأعياد الإسلامية فى الأندلس حافلة بالنشاط ومن أهمها عيد الفطر وعيد الأضحى ، فضلاً عن الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وتقام فيها الاحتفالات الدينية وغير الدينية التى يحضرها الرجال والنساء والأطفال (٤). وخلاف الأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين هناك أعياد أخرى وطنية كان يشارك فيها أهل الأندلس مجتمعين رجالاً ونساءً مسلمين ومسيحين مثل عيد العصير ، ويكون عيد جنى محصول العنب فى جو يسوده الغناء والمرح والرقص ، حيث كانوا يرتدون فى هذا اليوم أبهى ثيابهم وأجملها (٥).

وكانت مناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى الأندلس مناسبة خاصة ، حيث يتبادل أهل الأندلس فيه الهدايا والحلوى ، وقد اقتبس أهل المغرب عن أهل الأندلس الاحتفال بهذا العيد وطوروا فيه بحيث أصبحت له صبغة أكثر رسمية وذلك فى وقت متأخر حوالى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) (٦).

أما عن مشاركة المسلمين لنصارى الأندلس فى أعيادهم فالثابت تاريخيًا أن المسلمين شاركوا النصارى المعاهدين والمستعربين الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسلامى فى أعيادهم واحتفالاتهم ، وهذا من دلائل سياسة التسامح التى اتبعها المسلمون نحو أهل الذمة بالأندلس(٧).

كذلك احتفل المسلمون والمسيحيون بأعياد النصارى وخاصة أن أعياد النصارى تأتى بصف منتظمة وفق التقويم الميلادى أى فى نفس الوقت من السنة الميلادية فكان لها ميعاد ثابت . ومن هذه الأعياد الاحتفال بيوم ميلاد السيد المسيح عليه السلام (عيد الميلاد) أو عيد رأس السنة الميلادية فى الأول من يناير ، وخميس إبريل(٨) (أو خميس العهد)(٩) .

وهناك أيضًا عيد العنصرة(١٠) أو عيد المهرجان أو عيد سان خوان (عيد ميلاد سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) وهو من التأثيرات الفارسية التى دخلت الأندلس(١١) وعنهم

أخذه النصارى والمسلمون ، مشاركين الفرس فى الاحتفال به ، وكان يحتفل به فى الأندلس فى الرابع والعشرين من يونية ، وكان الاحتفال به يتم عن طريق إشعال نار كبيرة وإيقاد بعض الشموع ، وكان المسلمون يذهبون لرؤية هذا المنظر ومشاركة النصارى فى احتفالاتهم(١٢).

وقد تمثلت التأثيرات المسيحية على المسلمين فى الأندلس فى اتخاذهم يوم الأحد يوم عطلة رسمية لهم وذلك تشبهًا بالنصارى والمعاهدين والمستعربين ، حيث كانت تتعطل فى هذا اليوم المصالح الحكومية ، وكان أول من سن هذا التقليد قومس بن انتنيان (كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) - (٨٥٢ - ٨٨٦م) وظل هذا التقليد متبعًا فى عهد المنصور بن أبى عامر (٣٢٨ - ٣٩٢هـ) (٩٤٠م - ١٠٠٢م) وطوال عصر الطوائف(١٣) وحتى دخول المرابطين إلى الأندلس .

ويذكر العزفى فى " الدر المنظوم " أن مسلمى الأندلس كانوا يقلدون النصارى فى الاهتمام بشراء الفاكهة وأنواع معينة من الأطعمة ويتبادلون الهدايا ، وأن أهم هذه التأثيرات المتبادلة بينهم كانت فى الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح وذلك بسبب ما انتشر واعتقده الأندلسيون وخاصة المسلمون بأن من يحتفل بهذا اليوم يكون عامه الجديد مليء برغد العيش وسعة فى الرزق وبلوغ الأمل(١٤). ولاشك فى أن اعتقاد مسلمى الأندلس فى هذه الأشياء جاء تبريرًا لمشاركتهم نصارى الأندلس فى احتفالاتهم بهذه المناسبة الكبيرة .

ويعلل العزفى فى موضع آخر مشاركة المسلمين للنصارى فى أعيادهم بتأثير الجوار لهم ومخالطتهم لتجارهم ، وعلاقات المودة والتسامح بينهم (١٥). ويضيف العزفى سببًا آخرًا لانتشار هذه العادة (أى مشاركة النصارى فى أعيادهم) بين المسلمين وهى ضغط نساء الأندلس على الرجال فى الاستعداد للاحتفال وتفخيم هذه الاستعدادات ورضوخ الرجال حتى أصبحت هذه العادات راسخة لدى المسلمون (١٦).

وقد أنكر بعض المؤرخين المسلمين بالأندلس مشاركة المسلمين للنصارى فى أعيادهم واعتبروها بدعة . وعلى رأس هؤلاء الطرطوشى فى كتابه " الحوادث والبدع " حيث يقول : "ومن البدع اجتماع النساء بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان (أى فى ليلة القدر) وكذلك على إقامة يناير (رأس السنة الميلادية المسيحية) بابتياع الفواكه كالعجم (أى نصارى إسبانيا) وإقامة العنصرة ، وخميس إبريل ، بشراء المجنبات(١٧)

والإسفنج وهى من الأطعمة المبتدعة وخروج الرجال جميعًا أو أشتاتًا مع النساء مختلطين للتفرج وكذلك يفعلون فى أيام العيد ويخرجون للمصلى ، ويقيمون فى الخيم للتفرج ، لا للصلاة، ودخول الحمام للنساء مع الكتابيات – أى المسيحيات واليهوديات – بغير مئزر ، والمسلمين مع الكفار فى الحمام ، والحمام من البدع ومن النعيم " (١٨).

ورغم اعتراض الفقيه والمؤرخ الأندلسى الطرطوشى على مشاركة المسلمين للمسيحيين وغيرهم فى أعيادهم واعتبارها نوعًا من البدع ، نرى عدم الاكتراث من جانب الأندلسيين ونراهم يأخذون كافة الاستعدادات لمشاركة إخوانهم النصارى فى أعيادهم . فقد أصبحت هذه الأعياد أعيادًا قومية تشارك فيها كافة طوائف الشعب أكثر منها أعيادًا دينية . والذى يشاهد الاحتفالات الإسبانية الحالية فى كثير من المناسبات الخاصة بهم لا يفرقها كثيرًا عما كان يحدث فى الماضى إبان دولة الإسلام هناك . فتتذكر المؤرخة الفرسية راشيل آريبه Rachil Aric عن الاحتفالات الغرناطية زمن المسلمين وتقول : " إن الاحتفالات الغرناطية زمن المسلمين كانت تستغرق زمنًا طويلاً من الليل ، فالساهرون فى شوارع غرناطة كانوا يجتمعون متجمهرين يتجولون فى طرقاتها ويتراشون بالماء المعطر ويتقاذفون بثمار البرتقال والليمون وباقات الأزهار ، وغنائهم وضجيجهم هذا كان يزعج النساك فى مضاجعهم ممن يسهرون للخلوة والتعبد (١٩). وما أشبه اليوم بالبارحة فما تذكره آريبه هنا يذكرنا بعيد إسبانى يحتفلون به كل عام فى وقتنا الحالي وهو أن يتقاذف الناس فى هذا العيد بثمار الطماطم .

ومازالت إسبانيا الحديثة متأثرة إلى اليوم بمصارعة الوحوش التى تعرف اليوم بمصارعة الثيران وهى من التأثيرات الأندلسية التى مازالت باقية إلى اليوم (٢٠). وتشير الرواية الإسبانية المسيحية إلى أن الموريسكيين (وهم المسلمون الذين ظلوا فى الأندلس بعد سقوطها تحت الحكم المسيحى الإسبانى ولكنهم ظلوا مسلمين متمسكين بعقيدتهم إلى أن أجبروا على التنصر فيما بعد) استمروا بعد سقوط الأندلس فى أيدى النصارى الإسبان يواصلون الاحتفال بيوم عاشرواء ، وكان يقومون بصومه (٢١).

ثانيًا : فن الغناء والموسيقى :

كان للموسيقى الأندلسية تأثير كبير على مسيحى إسبانيا ، كما كان للتراث الإسبانى الموسيقى تأثير واضح على الموسيقى الأندلسية كما سنوضح لاحقًا . وقد وضح هذا التأثير المتبادل بشكل كبير فى مجال فن الغناء والموسيقى ، حيث بدأ فى الأندلس هذا المجال

بتأثيرات مشرقية وردت إلى الأندلس ثم ما لبثت أن اتخذت صورة محلية تجلت بشكل كبير فى الموشحات الأندلسية .

فبعد ظهور الموشحات والأزجال ، أو ما يعرف بالشعر الشعبى الأندلسى أصبح للموسيقى الأندلسية تأثير واضح على الموسيقى الأوروبية بشكل عام وعلى الإسبان وخاصة فى الشمال الإسبانى المسيحى بشكل خاص (٢٢) . ويذكر بروفنسال Provencal أن فن الموسيقى والغناء وما يصاحبهما من حركات راقصة كان أكثر وسائل اللهو شيوعًا فى الأندلس ، فلم تكن تخلو منهم المجالس التى يعقدها علياء القوم بصفة خاصة بمدينة قرطبة Cordoba وغيرها (٢٣).

أما عن تأثير الشمال الإسبانى على فن الغناء والموسيقى الأندلسية ، فقد ساهمت النساء الجليقيات المجلويات من الشمال الإسبانى إلى الأندلس فى نقل كثير من المؤثرات الحضارية الأندلسية ، وعلى رأسها فن الغناء والموسيقى ، إذ ساهمن فى إثراء فن الموشحات رغم كونه منتجًا أندلسيًا صرفًا ، من حيث اعتماد مؤلف الموشحات الأندلسى على الأغانى الرومانثية القديمة ، التى أتى بهؤلاء النسوة الجليقيات من بلادهن ، حيث كن يعزفن تلك الأغانى القديمة ويتغنين بها مما حدا بالوشاح الأندلسى العمل على تطويرها واستخلاص فن جديد أندلسى قلبًا وقالبًا (٢٤). ويضيف بروفنسال حول امتداد هذه التأثيرات بين الأندلسيين والإسبان قائلاً:
" يخيل إلينا أن الراقصات الأندلسيات اللاتى نراهن اليوم ينشرن فى الآفاق الأدوار الغنائية المعروفة بإشبيلية ، ومالقة ، ورندة ... وغيرها ، على دقات الصنوج ، ما هن إلا سليلات لفتيات قادس Codiz (٢٥). اللاتى استطعن أن يحملن برقصهن وصلصلة صنوجهن الأغانى العذبة الأندلسية إلى آفاق بعيدة " (٢٦).

والأكثر من هذا هو أن بعض الفتيات من سبى نصارى شمال الأندلس كن يذهبن إلى المشرق الإسلامى ، ويتعلمن فن الغناء والموسيقى حتى يبرعن فيه ، ثم يعدن مرة أخرى إلى الأندلس ، وربما عدن أيضًا إلى بلاط ملوك نصارى شمال إسبانيا ، وهو شيء معقول إذا عرفنا أن كثيراً من المغنيين والموسيقيين المسلمين كانوا يذهبون إلى نبرة وقشتالة وليون وأرجون ابتداء من عصر دول الطوائف بعد أن تجزأت الدولة الأموية وأصبحت بدل قرطبة عدة قرطبات ، وتهافت ملوكها على الشعراء والموسيقيين والمغنيين الذين كان يوجد من بينهم بعض النصارى والمستعربين ، أن التأثير كان متبادلاً ، ولدينا شواهد كثيرة تدل على ميل نصارى الشمال إلى أغانى العرب وموسيقاهم(٢٧) سيلى ذكرها لاحقًا .

أما عن تأثير فن الغناء والموسيقى الأندلسى على نصارى إسبانيا فقد كان للأندلسيين فضلاً كبيراً فى انتشار هذا الفن بين طبقات الشعب الإسبانى وجميع طوائفه ، فيذكر ترند "أن العادات الإسلامية الموسيقية مازالت موجودة فى الموسيقى الإسبانية والأوروبية ، مثال طريقة العزف المعروفة باسم Zambra (أو بالعربية زُمرة) وكلمة Zaeta أى الصيت ، وتطلق على المغنى المنفرد فى أعياد الميلاد المسيحية ، وسلوك السامعين عند سماعهم الغناء والموسيقى لم يتغير حيث يقاطعون العازف أو المغنى معلنين إعجابهم بقولهم Ole Ole (أى الله الله) حتى أن كلمة يا ليل LeLi LeLi أخذها الإسبان عن مسلمى إسبانيا الأندلسيين(٢٨). ويضيف بروفنسال حول هذه الحفلات قائلاً : لقد كانت الحفلات الإسلامية مثار إعجاب شعوب وملوك الشمال الإسبان ، وكانت هذه الحفلات – كما سبق وأشرنا – تعرف باسم زمرة Zambra . وهى عبارة عن فرقة موسيقية يصحبها المغنى أو المغنية وعواد وزامر وطبال وصاجات وراقصون (٢٩). ويضيف أستاذى الدكتور / العبادى أن هذه الزمرات لازالت توجد إلى اليوم لدى غجر إسبانيا فى الشمال والمعروفون باسم Jitanos (٣٠).

ويذكر ابن بسام فى كتابه " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة " أن مسيحى الشمال الإسبانى اتخذوا بعضًا من العادات الإسلامية ، ومن بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقيات والمغنيات ، حيث يشير أبو محمد بن الحسن المعروف بابن الكنانى : أنه شهد بنفسه يومًا مجلس " لسيدة مسيحية إسبانية " وهى بنت شانجة ملك البشكنس ، وزوج شانجة بن غرسية الذين ترددوا عليه فى الفتنة التى حدثت عام ١١٣٢م – ٥٢٧هـ . وكان فى المجلس عدة فتيات مسلمات من اللاتى وهبهن له سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين (ت ٤٠٧هـ / ١٠١٦م) أيام إمارته بقرطبة ، وأشارت ابنة شانجة إلى إحدى الجوارى فى تلك الفرقة الموسيقية فأخذت العود وغنت وأحسنت (٣١).

ومن الأبيات الشعرية التى غنتها الجارية الأندلسية فى حضرة الأميرة الإسبانية هذه الأبيات التى أوردها ابن بسام ومنها :

خليلى ما للريح تأتى كأنما
يخالطها عن الهبوب حلوق
أم الريح جاء من بلاد أحبتى
فأحسبها ريح الحبيب تسوق

سقى الله أرضاً حلها الأغيد الذى

لتذكاره بين الضلوع حريق

أصار فؤادى فرقتين فعنده

فريق وعندى للسياق فريق (٣٢).

وتدعم تلك الأبيات الشعرية رأينا فهم مسيحى إسبانيا للشعر والموسيقى الأندلسية والاستمتاع بهما . ويؤكد هذا ما ذكره ابن بسام أيضاً فى معرض حديثه عن سقوط مدينة بربستر(٣٣) Barbastro الإسلامية . فقد كان نصارى الشمال الإسبانى يفهمون جيداً الغناء الأندلسى ، ويطربون له ، فبعد سقوط مدينة برشتر فى أيدى النصارى عام (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) طلب أحد قواد المدينة من إحدى الجوارى الأندلسيات المسلمات اللاتى تم سبيهن عقب سقوط المدينة بأن تمسك بعودها وتغنى ، وكان مع هذا القائد النصرانى ضيف من اليهود المستعربين ، جاء إلى هذا القائد ملتمساً فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهل المدينة ، ورغم أن اليهودى لم يفهم شيئًا من الأشعار التى غنتها الجارية – على حد تعبير ابن بسام – إلا أن النصرانى طَرِب وأظهر هذا الطرب لما سمعه من الموسيقى والأغانى الأندلسية(٣٤).

وفى كتاب أناشيد الفونسو العاشر Alfonso X صور يظهر فيها موسيقيون مدجنون ومسيحيون يمسكون بآلاتهم الموسيقية ، وبعض الآلات الوترية الممثلة فى الرسم ، تبدو محدثة وتختلف بعض الشىء عن الآلات الوترية الإسلامية المعروفة . وفى السقف الخشبى بكاتدرائية ترويل صوراً لأفراد يلبسون ثياباً مدجنة ومعهم آلة موسيقية . كما تظهر على صفحة من مخطوطة مسيحية يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) صورة امرأة ترتدى زى المدجنات تعزف على الجنك . وهناك نقش بارز مدجن الطابع يتمثل فى تابوت يرجع تاريخه إلى سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ . وكان محفوظاً فى دير نويسترا سنيورة ذى بيدرا يحمل صوراً تمثل موسيقيين (٣٥).

هذا قد أثر الشعر الغنائى الأندلسى والوشحات والأزجال الأندلسية على شعر التروبادور(٣٧) Trowbadours والتروفير والشعراء الأوروبيين المنشدين المعروفين فى اللغة القشتالية باسم Las Jughares (٣٧).

وقد تأثرت الموسيقى الأندلسية وخاصة موسيقى الصقالبة(٣٨) بالنصارى والرهبان المسيحيين وبتراتيلهم الموسيقية التى يؤدونها فى الكنائس ، فنفهم من نص أورده الطرطوشى عن الألحان والرقصات الخاصة بالصقالبة ، أنه كان لهم ألحان خاصة بهم ويقول الطرطوشى " ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعًا فقالوا : اللحن الصقلبى فإذا قرأوا قوله تعالى :{ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } (٣٩) يرقصون من هذه الآية الكريمة كرقص الصقالبة بأرجلها . وفيها الخلاجيل – الجلاجل – ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل ويرجعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى، ورقص الأرجل وكل ذلك على نغمات متوازنة (٤٠).

وقد كان الصقالبة ينظرون إلى كل موضع فى القرآن الكريم يأتى فيه ذكر النبى عيسى بن مريم عليه السلام كقوله تعالى "{إنما المسيح عيسى بن مريم }(٤١) وقوله تعالى { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}(٤٢) فيمثلون أصواتهم فى قراءة القرآن على أصوات النصارى والرهبان والأساقفة فى الكنائس بإيقاعات راقصة (٤٣).

وهكذا حتى قراءة القرآن دخلتها الألحان والموسيقى تأثراً بالتراتيل التى يغنيها المسيحيون فى كنائسهم حيث يضيف الطرطوشى بأن هذه البدع فى استحداث الألحان والرقصات فشت بصورة كبيرة ، حتى إن الجوارى كن يتعلمن قراءة القرآن الكريم بالألحان والموسيقى ويتعلمن ذلك كما يتعلمن غنائهن للقصائد والأشعار .

ويتعجب الطرطوشى بشدة متسائلاً : هل هذه القراءة هى التى يقرأها الرسول ﷺ (٤٤) وبالطبع ليست هى ولكنها التأثيرات الإسبانية المسيحية التى دخلت على المسلمين حتى فى أدق تفاصيل عباداتهم بحكم الجوار بين الطرفين .

ويضيف أستاذى الدكتور / أحمد مختار العبادى حول ألحان الصقالبة السابقة الذكر ويقول : ربما كانت هذه الألحان هى الإرهاصات الأولى لما يعرف اليوم بالرقص الإسبانى الحديث المشهور بالفلامنكو Flamenco(٤٥) ومن هنا يتضح أن هذا التأثير مازال واضحًا إلى اليوم فرقصات الفلامنكو الإسبانية الحديثة ما هى إلا طوراً من أطوار الموسيقى والرقصات الإسبانية الأندلسية (٤٦).

أما عن آلات الموسيقى فيعتبر الجيتار الأوروبى فى عصرنا الحالى متطورة ومشتقة فى الأصل من العود الأندلسى .

وهناك الكثير من الآلات الموسيقية التى مازالت تحمل اللغة الإسبانية أسمائها العربية إلى اليوم مثال الجيتار أو القيثارة Guitarra ، والرباب Rabal والنفير Anafil والبنذير Pan-dera والصنج Sanajas والطبل Tambal والدف أو المزهر Adufe والعـــود Aloud أو Lut(٤٧) وهذه الأسماء التى مازالت إلى اليوم فى اللغة الإسبانية خير شاهد على تأثير فن الغناء والموسيقى الأندلسية ، على إسبانيا قديماً وحديثاً . ومن هنا نقول أن الموسيقى الأندلسية الراقية ستظل النبع الذى لا ينضب على مر الأجيال ينهل منه عشاق الذوق الرفيع ، والطرب الأصيل ، فمازالت إلى اليوم الموشحات الأندلسية تمثل الذوق الراقى ، فهو تراث عريق تركته حضارة عريقة فى أزهى عصورها فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورغم أن الدول دالت واندثرت تظل الموسيقى الأندلسية واحدة من أبرز المؤثرات الحضارية التى خلفتها تلك الحضارة العريقة .

ثالثاً : الزى والحلى والأسماء واللغة وغيرها :

أ - الزى :

أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين بحكم الجوار والتداخل الحضارى ، أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها من الأقمشة والأثاث وأدوات الزينة والحلى ، ولقد قام المستعربون واليهود بدور الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس فى الجنوب (٤٨).

وفى البداية خاصة فى أوائل الفتح الإسلامى للأندلس كان للمسلمين زيهم الخاص بهم ، حيث كانوا يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ، ويتنكبون القسى ، وكاوا يلبسون العمائم ، ويمضى الوقت كما يذكر ابن الخطيب صاروا يتشبهون بالنصارى فى أزيائهم وأسلحتهم ، يلبسون الدروع ويغوصون فى الزرد ، ويقتنون سيوف بوردو - بلدة فى فرنسا - وقسى الأفرنجة ، التى كانوا يتدربون عليها طوال الوقت ، وتركوا العمائم ، وصاروا يلبسون الكمة الهندية .

أما أمراء المسلمين وشيوخهم وقضاتهم فكانوا يلبسون القلانس ، ويتجنبون العمائم ، ويلبسها إلا ما شذ منهم (٤٩).

ويذكر بروفنسال Provencal أن تأثير المسلمين على الإسبان فى مجال الزى كان واضحاً وذلك اعتباراً من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، حيث دخلت أزياء قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة وسرقسطة الإسلامية فى دور أمراء المسيحيين فى شمال البلاد ، وكانت سفارات

ملوك نبرة وليون وقشتالة وبرشلونة تفد إلى بلاط قرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م) . وخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) وابن أبى عامر (٣٢٨ - ٣٩٢هـ / ٩٤٠ - ١٠٠٢م) وابنة عبد الملك المظفر (ت٣٩٩هـ/١٠٠٩م) وتعود محملة بأفخر الملابس والأزياء والهدايا والتحف وغيرها (٥٠). وقد جاء فى النصوص التاريخية التى نقلت لتلك الفترة أن ملوك إسبانيا فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كانوا يرتدون من ثياب المسلمين ، ويقلدونهم فى اتخاذ الفُرش المستخدمة للجلوس ، وقد حدث عندما فُتح التابوت الذى كان يحتوى على رفات السيد القمبيطور ، بعد ذلك بمدة طويلة وفى أيام الإمبراطور شارلمان سنة ١٥٤١م / ٩٤٨هـ على وجه التحديد ، أن وجدت جثته ملفوفة في رداء عربي ومعها سيف ورمح ، وق عاش القمبيطور فى القرن الخامس الهجرى ، وكان يعيش مع المسلمين والنصارى ، فلا غرابة فى اتخاذه الملابس العربية عندما كان حيًا أو تكفينه بها بعد وفاته (٥١). وقد تأثرت الأزياء الإسبانية بالأزياء الأندلسية تأثرًا كبيرًا فيذكر هنرى بيرس Henere Pérès أن الكنابيش cam-bux(٥٢) مازالت تستخدم إلى اليوم فى الريف الإسبانى وبخاصة فى الريف الجنوبى "الاندلس" وفى شرق إسبانيا أيضًا حيث التأثير الإسلامى مازال باقيًا فى أزيائهم إلى يومنا هذا (٥٣).

وقد انتقل التأثير الإسلامى إلى داخل مقاطعة روسيليون Roussillon بجنوب فرنسا وهى من الحدود المشتركة بينها وبين إسبانيا ، حيث وجد هناك الزنار ، Zarion وهو الذى تحكم به السراويل Zaraguelles حيث تم نقله عن نساء المسلمين بالأندلس ومازال هذا التأثير أيضًا باقيًا إلى اليوم (٥٤).

ومن التأثيرات الإسلامية فى مجال الزى تأثر صناعة النسيج فى إسبانيا النصرانية بمثيلاتها فى الأندلس الإسلامية ، حيث تدل قطع النسيج التى عثر عليها فى الكنائس على ذلك، فهناك البطانة الموجودة فى صندوق العاج الذى أهداه الملك فرديناندو الأول لكنيسة سان أيسيدور لحفظ سان خوان باتستا ، وسان بلامون سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ، والنسيج عبارة عن قطعة به صور طيور وحيوانات ذات أصل عربى وعليه كتابة عربية لعل قراءاتها كالتالى :

" النفع ذخرًا لمن أراد العالم الآخر "

مما يدل على أنها نُسجت صراحة لغرض كنسى بأيدى خلفاء أولئك المستعربين من نساجى الملك الذين كان أواهم ألفونسو الخامس عام ٤١٦هـ / ١٠٢٤م(٥٥).

وهكذا نرى تأثر مسيحى إسبانيا بالأزياء العربية وخاصة فى أوج مجد الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، بل إن أوروبا المسيحية جميعها وليس إسبانيا فقط ، شغفت بتلك الملابس الأندلسية شغفًا شديداً ، حتى أن عظماء وملوك المسيحيين من كثرة إعجابهم بالمنسوجات الأندلسية ، وضعوا بعد موتهم فى أكفان نفيسة من صناعة نسيج المرية Alme-ria(٥٦) مثل الأمير دون فيليب وزوجته والمؤرخ دون رودريجو خيمنث دى رادا وغيرهم (٥٧).

أما مع نهايات الحكم الإسلامى فى مملكة غرناطة نجد أن التأثير المسيحى فى الزى بدأ يفرض نفسه ، ويتضح هذا مع دخول مصطلحات جديدة على الأزياء الأندلسية ، بوجه عام ، إلى أن اندثر الزى الإسلامى بصفة نهائية مع صدور القرارات المسيحية التى فرضت على المسلمين الموريسكيين(٥٨) نساءً ورجالاً الالتزام بارتداء الزى المسيحى والتخلى عن الزى الإسلامى الخاص بهم .

هذا وقد لاحظ ابن خلدون فى مقدمته أن الزى الأندلسى على أيامه قد تأثر بزى الشعوب المسيحية المجاورة ، حيث أن المغلوب دائمًا مولع بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائدهم وأحوالهم " (٥٩).

وقد برز هذا التأثير المسيحى بصورة واضحة فى زى أهل مدينة غرناطة ، فى نفورهم من العمامة التقليدية للخاصة والعامة وتفضيلهم للقلنسوة . كما يبدو من الصورة التى وجدت للأمير أبى عبد الله محمد الصغير آخر ملوك غرناطة ، حيث تصوره وهو يرتدى قلنسوة مسيحية عالية (٦٠).

ورغم تأثر المسلمين فى أواخر عهدهم بالأندلس بالأزياء المسيحية إلا أن الأقمشة الغرناطية التى كانت تنتجها مصانع غرناطة وتعرف باسم جرينادين Grenadine وعرفت واشتهرت بهذا الاسم فى المتاجر الأوروبية ظلت لوقت طويل تحمل اسم المدينة الإسلامية العريقة (٦١).

وقد كان من عادة سلاطين غرناطة تقديم هداياهم أيام دولتهم من منسوجات المدينة إلى ملوك أوروبا ، وكان هذا الإنتاج الغرناطى يحوز إعجاب وتقدير ملوك أوروبا وإسبانيا المسيحية(٦٢).

وفى نهاية هذه العجالة الخاصة بالزى نشير إلى بعض أسماء الملابس العربية التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية ومازال تستعمل حتى يومنا هذا ومنها كلمة جلابية Ghilaba وقميص Camisa وسروال Zaraguelle (٦٣) القطيفة Alcatifa (٦٤). وغيرها .

ب – الحُلى :

كان معظم المشتغلين بصناعة الحُلى فى مدينة قرطبة – حاضرة الخلافة الأموية – من اليهود ، وقد كانت الحلى تصاغ على طريقتين إما الأسلوب القوطى الذى ظل يحتفظ به النصارى الإسبان ، أو الأسلوب المشرقى وخاصة الطراز العراقى (٦٥).

ويضيف بروفنسال عن الحلى الأندلسية والتأثيرات التى طرأت عليها ويقول ، إنها فى البداية خضعت للتأثيرات الإسبانية القوطية القديمة ، إلى أن بدأ تدفق الطرق التجارية فظهرت عليها التأثيرات العراقية والإيرانية بصورة أكبر(٦٦) وهو ما يدعم ما تنادى به من خلال هذا البحث فى عدم تركز الحضارة فى موطن معين ، بل تنقلها فى مشارق الأرض ومغاربها من قديم وإلى النهاية .

فلا توجد حضارة تقوم وتبتكر بذاتها لابد لها أن تتأثر بالحضارات السابقة عليها ثم تبدع وتبتكر الجديد تبعًا لقيام أهلها بها ، وهذا ما حدث مع الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى أخذت وأبدعت وأخرجت لنا خصائص جديدة تميزت بها فى سائر العصور .

ونتيجة لهذا التجديد والابتكار الذى تفردت به الحضارة الإسلامية فى الأندلس فى مجال الحُلى ، احتلت مدينة قرطبة مكانة عالية ، وتفوقت على بيزنطة فى صناعة الحلى والجواهر وذلك فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) (٦٧).

وقد كانت نساء الشمال الإسبانى يحرصن حرصًا كبيرًا على اقتناء بعض قطع الحُلى الإسلامية، ومن هذا ما حدث مع عقد الشفا أو الشبا المنسوب إلي السيدة زبيدة بنت جعفر زوجة الخليفة هارون الرشيد ، والذى دخل إلى الأندلس واشتراه الخليفة عبد الرحمن الأوسط لإحدى زوجاته . وكان هذا العقد من الأشياء التى نهبت من بغداد فى إبان الفتنة والحروب التى قامت بين الأمين والمأمون (٦٨) ويبدو أن هذا العقد الثمين حظى علي شهرة واسعة مما جعل إحدى ملكات إسبانيا المسيحية تحرص على اقتنائه (٦٩).

جـ – اللغة :

يذكر ترند تأثير اللغة العربية على اللغة الإسبانية وغيرها ويقول : إن المفردات العربية التى دخلت إلى اللغة الإسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الإسبانى ، بينما دخلت إلى البرتغال حوالى ثلاثة آلاف كلمة (٧٠). ويضيف ترند أن أسماء الجبال والتلال والجزر والشواطىء

الرملية والأنهار والبحيرات والينابيع الحارة ، والسهول والحقول ، والغابات والحدائق ، والأزهار والأشجار ، والكهوف والمناجم ... إلخ . كل هذه أصبحت أعلامًا جغرافية مأخوذة عن العربية (٧١).

ومن هنا نبرز تأثر مسيحى الأندلس باللغة العربية تأثراً كبيراً ، حيث دار صراع فكرى كبير بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت حركة الاستشهاد المسيحى فى قرطبة فى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، ما هى إلا رفضًا للثقافة الإسلامية الطاغية ، ويبرز ذلك فى شكوى القس الفارو – وهو من زعماء حركة الاستشهاد ومن كبار المحرضين عليها – وغيره من القسس من إقبال مسيحى الأندلس على الأدب والثقافة العربية وإهمالهم الثقافة والأدب اللاتينى ، حتى أن الواحد منهم كان لا يستطيع أن يكتب رسالة باللغة اللاتينية بينما كان يتبحر فى دراسة اللغة العربية وآدابها(٧٢). ولم تقتصر الشكوى من زحف اللغة العربية على المسيحيين بل امتدت إلى يهود الأندلس ، فقد أعلن ابن جيرِيول (٤١١ – ٤٦٢هـ / ١٠٢١–١٠٧٠م) شكواه ضد بنى نحلته من اليهود ، من أهل مدينة سرقسطة ، وأخذ يتحسر على انصرافهم عن لغتهم المقدسة (ويقصد هنا اللغة العبرية) إلى اللغة العربية ، وأطلق عليهم تسمية الجماعة العمياء ، إذ كان بعض اليهود يتكلمون – على حد تعبيره – لغة إيديوم Edom أى عجمية أهل الأندلس ، وبعضهم يستعمل لغة كيدار Kedar أى اللغة العربية ، وقد حاول بعض اليهود الذين أعلنوا سخطهم على اليهود المتكلمين باللغة العربية وتفضيلها على اللغة العبرية أن يثبتوا أن لغتهم العبرية لا تقل ثروة وجمالاً ، فاقبل بعضهم على ترجمة مقامات الحريرى إلى اللغة العبرية (٧٣). فى محاولة لجذب يهود الأندلس بعيداً عن اللغة العربية وإلحاقهم بلغة اليهود العبرية .

وعلى الجانب الآخر بين مسلمى الأندلس فقد كان كثير من أدباء قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس يعرفون اللغة اللاتينية أو لهجاتها الأخرى التى عرفت فى إسبانيا المسيحية باللهجات أو اللغات القشتالية والبرتغالية والقطالونية وجميعها مشتقة من اللغة اللاتينية (٧٤).

وقد تأثرت هذه اللهجات الإسبانية باللغة العربية حيث دخلت فيها آلاف آلاف من الكلمات العربية ، حيث كانت بلاد الأندلس وطنًا تتعايش على أرضه اللغة العربية واللاتينية وأصبح الناس هناك يتكلمون إلى جانب اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية للبلاد ، يتكلمون رطانة لاتينية دارجة يسميها ابن حزم باللطينية ، ويصفها البعض بعجمية أهل الأندلس ، وكانوا

يستخدمونها فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم ، بل إنها كانت شائعة فى بلاط الخلفاء أنفسهم (٧٥).

ومن التأثيرات الإسبانية الواضحة على اللغة العربية اقتصار استعمال اللغة العربية الفصحى على الأدب والمكاتبات الرسمية ، وتأثرت اللغة العربية العامة كثيراً بسبب المجاورة والمخالطة للإسبان ، فقد كان الأندلسيون يكثرون من الإمالة والترقيق والتفخيم ، وقد أشار ابن حزم إلى ذلك عندما تحدث عن أهل قبيلة " بلى " إلى الشمال من قرطبة وقال أنهم لا يحسنون الكلام باللطينية وكأن الكلام بعجمية أهل الأندلس شيئًا عاديًا ، وهو مد يعنى تأثر اللغة العربية باللغات المحلية الإسبانية كثيراً فى الأندلس .

ويعلل ابن حزم ذلك قائلاً : " وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل تلك البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً يخفى على من يأمله " (٧٦).

هذا وقد تأثرت الأسماء الأندلسية العربية باللغة الرومانسية الإسبانية حيث كان الاسم دائمًا ما ينتهى بالحرفين واو ونون مثل عمر (عمرون) وزيد (زيدون) وحفص (حفصون) ، ونزهة (نزهون) ... إلخ . وهو تأثير محلى إسبانى ، فمن المعروف أن حرفى on فى آخر الكلمة الإسبانية تدل على التعظيم والتضخيم والتكبير (٧٧).

وفى نهاية هذه النقطة ورغم التأثيرات الإسبانية الواضحة على اللغة العربية ظل مسلموا الأندلس متمسكين بلغتهم العربية فى محاولة أخيرة منهم للتمسك بهويتهم العربية الإسلامية إلى آخر لحظة لوجودهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، يبرز هذا من خلال وثائق الألخميادا وهى اللغة الرومانثية القشتالية القديمة Romana Castella (أى الإسبانية) ولكن مكتوبة بحروف عربية ولذا سميت أعجميات ، وقد ظهرت هذه اللغة بين مسلمى الأندلس أو الموريسكيين فى ظل حركة التنصير القسرى كمحاولة منهم للتمسك بماضيهم العريق (٧٨).

د – النظافة والذهاب إلى الحمامات :

وقد امتنع نصارى إسبانيا مشاركة منهم لجيرانهم مسلمى الأندلس عن كثير من العادات المسيحية واتخذوا فى عاداتهم الكثير من العادات الإسلامية ، فامتنعوا عن أكل لحوم الخنازير، وقاموا بختان أولادهم مثل المسلمين ، واتخذوا كثير من الأسماء العربية (٧٩). ومن العادات الإسلامية التى تأثر بها مسيحى إسبانيا من المسلمين عادة النظافة بالذهاب إلى

الحمامات العامة ، فتلك عادة إسلامية الأصل ، فقد كان النصارى الإسبان قبل دخول المسلمين الأندلس لا يغتسلون فى العام غير مرة واحدة أو مرتين بالماء البارد ولا يهتمون كثيراً بنظافة ثيابهم وغيرها من العادات (٨٠).

وقد كان المسلمون مع دخولهم الأندلس قد قاموا بإنشاء العديد من الحمامات العامة للرجال والنساء ، ولكن مع نهاية الحكم الإسلامى اندثرت هذه العادة مرة أخرى نتيجة لتشدد الكنيسة ورجال الدين المسيحيين ، ضد كل ما هو إسلامى ، وبخاصة عادة الاستحمام ، حتى تلاشت من إسبانيا بصفة نهائية فى القرن السادس عشر الميلادى ، بل أكثر من هذا صدر كتاب فى فرنسا يحذر الفتيات من اتباع هذه العادة الإسلامية إلا إذا أمر الطبيب بغير هذا ، على ألا يزيد عن مرة واحدة فى الشهر مع الحذر الشديد من تلك العادة الإسلامية (٨١).

وقيل أن الملكة الكاثوليكية إيزابيلا(٨٢) كانت لا تغتسل غير مرة واحدة فى الشهر (٨٣). وقد كانت الحمامات من أهم الآثار الإسلامية التى تركها العرب فى إسبانيا عقب سقوطها ولمحو هذه العادة الإسلامية كانت أوامر ملوك إسبانيا النصارى بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين ، والأكثر من هذا تشدداً أن هناك راهبة من راهبات إسبانيا المسيحية أخذت تفخر فى مذكراتها بأنها حتى بلغت سن الستين لم يمس الماء منها غير أناملها عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس (٨٣).

ورغم ما بالقصة من مبالغة إلا أنها توضح نبذ نصارى إسبانيا لهذه العادة الإسلامية الأصيلة .

هـ - عادات أخرى :

ومن العادات الأخرى التى أخذها نصارى إسبانيا عن المسلمين الكرم وحسن الخلق ، وتخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالمسلمين واقتباسهم منهم طباعهم النبيلة ، ومبادئ فروسيتهم التى منها مراعاة النساء والشيوخ والأطفال واحترام العهود والوفاء بالوعود ، ورقة العواطف ولين الطباع ، حتى قال بعض مؤرخى النصارى ومتدينيهم " أنه يشك فى أن المسيحية كانت تستطيع وحدها أن تأتى بمثل ذاك التأثير مهما بولغ فى كرمها وتأثيرها ، فلم يكن المسلم مدمراً أو مخرباً ، وإنما كان مبدعاً منشئاً للمدن والقصور والبساتين ، ورغم أصله البدوى القاسى ، إلا أنه كان يحب اللين والترف ويستطرف الجمال فى شتى صورة ويستطيب الحياة الناعمة "(٨٥) . وقد بلغ التسامح فى الأندلس إلى حد أن كان المسلمون يزورون كنائس

النصارى وكان النصارى يزورون قبور أولياء المسلمين لنيل البركة منهم (٨٦)، وكانت الكنائس أيضًا مفتحة الأبواب للمارة سواء من النصارى أوالمسلمين ، تغدق عليهم من كرمها وأطايب طعامها وشرابها حتى أن بعض المسلمين كانوا يبيتون فيها (٨٧) . وفى الخاتمة أود أن أذكر كلمة فرغم النهاية الفاجعة التى منى بها الإسلام والمسلمين فى الأندلس بعد ثمانية قرون ونيف من الوجود والتفاعل الإسلامى على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورغم محاولات حكام إسبانيا المسيحيين طمس هوية التأثيرات الإسلامية فى شبه الجزيرة مازالت هذه التأثيرات واضحة وضوح الشمس إلى اليوم فى كل مجالات الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فلم يكن من السهل محو هذه التأثيرات التى تشربت بها الحياة الإسبانية لأكثر من ثمانية قرون كاملة .

وقد بدأ هذا الدور فى الحفاظ على الحياة الإسلامية والعادات والتقاليد الخاصة بالمسلمين مع الموريسكيين الذين ظلوا على إسلامهم سرًا فى ظل الحكم المسيحى ، حيث احتفظوا بكثير من عاداتهم الإسلامية ، ومنها الاحتفال بمولد الطفل ، حيث ينبحون بتلك المناسبة ذبيحة تسمى العقيقة ، ويكتبون على جبهة المولود بعض الكلمات ، ويعلقون الأحجبة التى تتضمن بعض الآيات القرآنية ، ويسمى المولود باسم إسلامى ، كما يجرى له الختان فى اليوم التاسع لمولده ، ثم أصبح فيما بعد العام التاسع (٨٨).

ولم تذهب حضارة المسلمين فى شبه القارة الأيبيرية هباءً ، حيث شعر الإسبان بأهمية المسلمين الموجودين فى الأندلس ، حتى بعد سقوط مدينة غرناطة ١٤٩٢م/٨٩٧هـ حيث يوجد الكثيراً من المسلمين ومع الضغط الشديد وعمليات التنصير القسرى التى تعرضوا لها كانوا أمام أحد خيارين إما التنصير أو الهجرة . وبالفعل آثر البعض الهجرة فراراً بدينه فى المقام الأول، أما من بقى منهم وفى كثير من الأحيان تحت ضغط مصالحهم المرتبطة بالمكان فقد أجبروا على التنصر .

ورغم هذا شعر الإسبان بأهمية هؤلاء فى بعض الأعمال الضرورية التى لا يجيدها الإسبان . وتم دمجهم بالنصارى ، وأسند إلى القليل منهم أعمالاً ذات أهمية لعدم إتقان الإسبان النصارى مثل هذه الأعمال ، وهذا السبب جعل النصارى الإسبان يتمسكون بهؤلاء الأشخاص ، وإذا تذمر أحدهم فإن محاكم التفتيش كانت تنزل به أقسى العقوبات الجسدية ، ويضعونه تحت الإقامة الجبرية ، ليزاول لهم الأعمال المطلوبة (٨٩).

ففى غرناطة على سبيل المثال أجبر المسئولون على تسخير اثنى عشر شخصًا من الموريسكيين من صناع السواقى أن يعملوا فى أقنية الماء فى الحمراء ، وجنة العريف ،

والمجلس الملكى ، والبيوت الخاصة ، وهى أعمال فى غاية الدقة والفنية ، ويصعب على الإسبان إتقانها . كما طُلب من اثنى عشر شخصًا آخرين ممن يجيدون صناعة الجلود والحرير ، أن يقدموا الخدمات الإجبارية خاصة فى صناعة الحرير (٩٠).

وفى النهاية لا أود أن استطرد فى ذكر التأثيرات الإيجابية للحضارة الإسلامية فى الأندلس ، وإنما حاولت من خلال هذا البحث أن أوجد عوامل مشتركة بين كلا الجانبين الإسلامى والمسيحى على أرض شبه الجزيرة الأندلسية .

الهوامش

1 - Leve provencal : Histoire de L'Espagne musulmane, Tomo III, Paris 1967, 429.

٢ – جوستاف لوبون : حضارة العرب ، تعريب : محمد عادل زعيتر ، مصر ١٩٤٥م ، ص٢٩٢، ٢٩٣ .

Crow (John.A.) Spain: The root and the flowers, new York, 1963, p. 56.

٣ – أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ١١٠ .

٤ – أحمد مختار العبادى : الأعياد فى مملكة غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، المجلد الخامس عشر ، ١٩٧٠م ، ص ١٤٠ ومايليها .

Leve Provencal : Op.Cit, tomo III, p. 437.

Abbadi (Ahmad Mujtar Abbadi) : El reino de Granada en La Época de Muhammed V, Madrid 1973, pp. 157, 158.

٥ – العبادى : نفس المرجع والصفحة ؛ العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة الأوروبية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى سنة ١٩٨٤م ، ص ٣٩١ ؛ أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٧م ، ص ١١٩ .

R.Dozy: Supplément aux Dictionnairs Arabes, Leyden 1881, Tomo I, p. 621; Heneri pérès : La poésie Andalouse en Arabe classique au siécle x1, Paris, 1953, pp. 303 - 304.

٦ – العبادى : الأعياد فى مملكة غرناطة ، ص ١٤٨ .

٧ – العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ، ص ٣٩١ ؛ سحر عبد العزيز سالم : مظاهر الحضارة فى بطليوس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٥م ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

Fernando De La Granja : Fiestas Cristianas en Al-Andalus, Revista al-Andalus XXXIV, Madrid 1969, p.2.

٨ – خميس إبريل أو خميس العهد ، وهو من أعياد النصارى ومن طقوسه ملء إناء بالماء، ثم ترتيل بعض أجزاء من العهد الجديد عليه ، ثم يغسل البطريرك بهذا الماء أرجل بعض الناس كما فعل السيد المسيح عليه السلام مع تلاميذه فى هذا اليوم كى يعلمهم التواضع ، ويأخذ عليهم العهد بالتواضع وعدم التفريق ويعض النصارى على مذهب معين يسمونه خميس العدس ، حيث يطبخون فيه العدس على أشكال مختلفة وفى الأندلس يسمى خميس إبريل .

- سعيد سيد أحمد أبو زيد : الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، فى عصر دولتى المرابطين والموحدين (٤٨٤ - ٦٢٠هـ/١٠٩١-١٢٢٣م) كلية الآداب ، جامعة المنوفية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م ، ص ١٨٥ ، هامش ٤ .

٩ - كمال أبو مصطفى : مالقة الإسلامية فى عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣م ، ص ٨٧ .

١٠ - إقامة العنصرة ، أو عيد العنصرة ، أو عيد المهرجان ويسمى أيضًا عيد الخمسين أو حلول الروح القدس أو نزول السيد المسيح عليه السلام على تلاميذه الحواريين بعد انقضاء خمسين يومًا على رفعه أى قيامته مرة أخرى ، ويعرف فى أسبانيا بعيد القديس سان خوان San Juan ومازالوا يحتفلون به إلى الآن يوم ٢٤ يونيو من كل عام .

- للمزيد راجع : أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د/ حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٢١ ؛ أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس ، ص ١١٨ - ١١٩ .

Dozy : Op.Cit. Tomo II, p. 621 ; H Pérès : La Poésie, p. 304 .

١١ - ومن المؤثرات الفارسية المشرقية التى وصلت إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وأثرت فى شعبها مسلمين ومسيحيين عيد النيروز (أى عيد الربيع) وهو عيد أول السنة الشمسية عند الفرس ، وهو عيد قديم من أعياد الفرس ، ويوافق أول قدوم فصل الربيع ، ويذكر ليفى بروفنسال أن أهل الأندلس كانوا يحتفلون به أيضًا يوم الاعتدال الربيعى فى السابع عشر من مارس .

Leve Provencal : Histore, Tomo III, p. 438 .

- أما هنرى بيرس فيذكر أن عيد الربيع فى الأندلس كان يحتفل به أول شهر يناير .

H. Pérès : La poésie, p. 303 .

١٢ - المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثانى ، ١٩٨٦م ، ص ٢١٢ ؛ العبادى : الرسلام فى أرض الأندلس ، ص ٢٩١.

Leve Provencal : Histore, T III, p. 438 .

١٣ - ابن حيان : (أبو مروان بن حيان القرطبى) ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م ، المقتبس فى أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د/ محمود على مكى ، لبنان ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ١٣٨ ؛ العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ ؛ كمال أبو مصطفى : مالقة الإسلامية ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، هامش ٦ ؛ حمدى عبد المنعم حسين : مجتمع قرطبة فى عصر الدولة الأموية ، رسالة دكتوراه نوقشت بآداب الإسكندرية ، ١٩٨٤م ، ص ٥١٧ .

١٤ - العزفى : الدر المنظوم فى مولد النبى المعظم ، نشره : فرناندو دى لاجرانخا ، مجلة الأندلس ، ١٩٦٩م ، ص ٢١ .

١٥ – العزفي : نفس المصدر والصفحة .

١٦ – العزفي : نفس المصدر ، ص ٢٨ .

١٧ – المجبنات : نوع من الفطائر الأندلسية يصنع بالجبن ، وقد يضاف إليه العسل ، وكان الأندلسيون ذوى غرام بها حتى قالوا فيها شعراً ، وقد اشتهرت مدينة شريش Jerez وهي من أعمال مدينة أشبيلية Sivlla بحسن الصنعة لأنواع كثيرة من هذه الأجبان ، حتى قيل فيها مثلاً : " من دخل شريش ولم يأكل المجبنات فهوم محروم " .

– ابن الآبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) ٥٩٥-٦٥٨هـ/١١٩٩-١٢٦٠م ، الحلة السيراء ، تحقيق د/ حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب (٥٨) دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م ، جـ٢ ، ص ٢٩١ ؛ المقرى : (أحمد بن محمد التلمساني) ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د/ إحسان عباس ، ٨ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، جـ١ ، ص ١٨٤ .

١٨ – الطرطوشي : (أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي ، ت٥٢٠هـ/١١٢٦م، الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبي ، تونس ، ١٩٥٩م ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

Leve Provencal : Histoire, T. III, p. 438 .

– أحمد مختار العبادي : الإسلام في أرض الأندلس ، ص ١٠٧ ؛ عبادة عبد الرحمن كحيلة : تاريخ النصارى في الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص ١١١ .

19 - Rachil Arie : L'Espagne musulmane au temps de Nasrides, (1232-1492), paris 1973, Vol I, p. 401 ; Miguel La funte Al Cantara : Historia de Granada, Tomo III, Granada 1846, pp. 166 - 167 .

٢٠ – للمزيد عن الألعاب الإسلامية في الأندلس راجع : أحمد مختار العبادي : الأعياد في مملكة غرناطة ، ص ١٤١ وما يليها ؛ الطوخي : مظاهر الحضارة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

٢١ – هورتزويتث : الموريسكيون ، ترجمة عبد العال صالح ، دار الإشراق ، الدوحة ، ١٩٨٨م ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

٢٢ – للمزيد حول الموشحات الأندلسية والموسيقى الأندلسية وتأثيرهما على مسيحي إسبانيا ، راجع : عبد الرحمن الحجي : تاريخ الموسيقى الأندلسية أصولها وتطورها ، وأثرها على الموسيقى الأوروبية ، لبنان، بيروت ، ١٩٦٩م.؛ السيد عبد العزيز سالم : تأثير الأزجال الأندلسية في الشعر الغنائي الأوروبي ، كتاب الشعب ، العدد ٥٦٤ .

– ويعتقد الأستاذ رامون منندث بيدال Roman Menendez Pidal أن الزجل الأندلسي هو الذي كون حلقة الاتصال بين الموسيقى الإسبانية الحالية ، والموسيقى الأيبيرية في التراث ، اليوناني واللاتيني ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة د/ السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح

الدين حلمى ، مراجعة د. لطفى عبد البديع ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ١٩٥٦م. ويذكر Cruz Heman dez أن الموسيقى الأندلسية التى كانت فى المقام الأول موسيقى شرقية حملها زرياب إلى الأندلس وطورها تطويراً كبيراً ، تأثرت لها بمرور الزمن بالموسيقى المحلية والتى كانت شائعة على نطاق واسع عند المستعربين ، وأيضاً تأثرت بما أدخله البربر من موسيقاهم المغربية ، ومن هنا حدث امتزاج وتأثر بين هذه الأنواع الموسيقية فخرجت فى إطار أندلسى فريد

Miguel Cruz Hernandez : El Eslam de Al-Andalus, Historia y Estructura de Surealidad Social, Madrid 1992, p. 442 .

ويضيف Hernandez بأن شبه الجزيرة الأيبيرية كان لديها وقت دخول المسلمين الأندلس ، تراث قديم من الموسيقى الشعبية والمدنية ، وأن العرب كان لهم موسيقاهم الخاصة . Cruz Heranadez : Op. Cit., p. 438 .

– ومن هنا حدث التقاء للتراث الموسيقى فى كلا الجانبين على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية فخرج لنا مزيجاً خاصاً تميزت به أرض الأندلس وكان هذا المزيج هو موسيقى الفلامنكو

Hernandez : Op. Cit., p. 237 . PConto Jonda

23 - Leve Provencal : Histoire , Tomo II, p. 448 .

٢٤ – للمزيد عن فن الموشحات الأندلسية وأصولها العربية الأندلسية راجع : عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص ٢ ، ٣ وما يليها .

٢٥ – مدينة قادس Codiz هى مدينة إسبانية قديمة أسست زمن الفينيقيين وهى مدينة بحرية ، حيث تطل على البحر المتوسط جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد كانت فى العصر اليونانى القرطاجنى ، أهم مدينة فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، إلى أن انتزعها الرومان من القرطاجنيين سنة ٢٠٦ ق.م. ; للمزيد من التفاصيل عن مدينة قادس الإسبانية راجع : سحر السيد عبد العزيز سالم : مدينة قادس ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠م.

٢٦ – ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٨٧ .

٢٧ – ترند : إسبانيا والبرتغال ، من كتاب The leagcy of Eslam ، تعريب د/ حسين مؤنس ، طبع القاهرة ، ١٩٣٦م ، ص ٣١ ; رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، الناشرون دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى ، بدون تاريخ ، ص ٤٣٤ .

٢٨ – ترند : نفس المرجع ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

٢٩ – ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة عن أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د/ محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة أ/ عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٤٧–١٩٤٨م ، ص ٢٤ ، ٧٤ ; أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس ، ص ١٣٢ .

30 - Abbadi : El reino de Granada, p. 132 .

٣١ – ابن بسام : (أبو الحسن على بن بسام الشنتريني) ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، طبع القاهرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول ، ص ٣٨٨ ؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الأول ، ١٩٩٧م ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

٣٢ – ابن بسام : نفس المصدر والجزء والصفحة .

٣٣ – مدينة بربشتر Barbastro ، هى مدينة حصينة تقع على بعد ٦٠كم شمال مدينة سرقسطة Zargoza، وهى تقع على أحد فروع نهر الإبرو Ebro ما بين مدينتي لاردة وسرقسطة عمودى الثغر الأعلى ، وهى الآن مدينة ومركز إدارى فى مديرية وشقة Huesco وقد تعرضت بربشتر لمحنة دامية عندما استولى عليها النورمانديون فى سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا نساءها ونهبوها نهباً زريعاً.
– أحمد مختار العبادى : نصان جديدان لابن الكرديبس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ١٩٦٥–١٩٦٦م ، ص ٧٢ ، هامش (٦) ؛ للمزيد حول تفاصيل المحنة التى تعرضت لها مدينة بربشتر راجع : المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، من ص ٤٤٩ إلى ص ٤٥٣ .

٣٤ – راجع القصة كاملة فى : المقرى : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، تحقيق أ/ إبراهيم الإبيارى ، ومصطفى السقا ، القاهرة ، ١٩٤٠م ، ١٩٤٢م ، الجزء الثانى ، ص ٥٧٥ ؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٤٥٢ .

35 - Cruz Herna dez : El Eslam de Al-Andalus, p. 441 .

سحر سالم : بحوث مشرقية ومغربية ، جـ١ ، ص ٩٤ .

٣٦ – أشعار التروبادور Trowbadours : ظهر شعر التروبادور فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فى جنوب فرنسا فى إقليم بروفانس ، حيث نقلوه عن جذوره الأولى بالأندلس ، وقد تأثر أيضاً بالموشحات الأندلسية العربية من حيث الوزن والدقة والخيال والموضوعات التى غالباً ما تمجد الحب العذرى العفيف البعيد عن الأوصاف الحسية ، ولذلك كانت موضوعاته مفضلة لدى فرسان العصور الذهبية بأوروبا ، ووجدوا فى تلك الأشعار بغيتهم للارتقاء بالمرأة ، والتغنى بها فى أشعارهم ، وقد انتقلت هذه الأشعار من الأندلس إلى أوروبا فى العصور الوسطى .

للمزيد عن شعر وشعراء التروبادور راجع :

Lanson : Histoire de la literature Francaise, Paris, 1916, pp. 86 , 87 .

Ramon Menendez pidal : Espana Coma El ebon enter El Cristianismo el Eslam, madrid, 1953, pp. 7 - 10 .

٣٧ – ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، مقال الشعر العربى فى المغرب والأندلس ، مقال الشعر العربى فى إسبانيا وشعر أوروبا فى العصر الوسيط ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠م ، ص ٢٨٠ ، ٣٠٣ .

Heneri Pérès : La poésie arabe d'Andalousi et sus relations possibles avec la poésie des trowbadours, Paris, 1947, pp. 107 - 130 .

٣٨ – الصقالبة : كانوا رقيقًا أو عبيدًا من سبي الشعوب السلافية بالشمال الأوربي ، ثم بيعوا إلى عرب الأندلس ، ولذا أطلق عليهم اسم الصقالبة ، ثم توسع الأندلسيون في استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوهم من مختلف البلاد الأوروبية بما في ذلك شمال إسبانيا المسيحي ، وجيء بأغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً ومن الجنسين إلى مدينة قرطبة حاضرة الخلافة حيث ربى الذكور منهم تربية عسكرية إسلامية ، واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش ، وقد تدرجوا في الرقى بالمناصب حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة .

– للمزيد راجع : أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا ، لمحة عن زصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٥٣م.

٣٩ – سورة الجاثية : الآية ٣٢ .

٤٠ – الطرطوشي : نفس المصدر ، ص٥٩ .

٤١ – سورة النساء : آية ٧ .

٤٢ – سورة المائدة : آية ١١٦

٤٣ – الطرطوشي : نفس المصدر ، ص ٥٩ .

٤٤ – الطرطوشي : نفس المصدر ، ص ٥٧ .

٤٥ – أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢١٢ .

٤٦ – أحمد مختار الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص ١٣٢ .

Abbadi : El reino de Granada, p. 155 .

٤٧ – للمزيد عن أدوات الطرب وآلاته الخاصة بالأندلس ، راجع : ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٥م ، المقدمة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : فن الغناء والموسيقى ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦١) ، ١٩٥٩م ، ص ٩٩ – ١٠٥ ؛ ترند : إسبانيا والبرتغال ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

وهناك أيضًا كلمة البوق Albogue التي ذكرها دوزي في معجمه حول تأثيرات الآلات الموسيقية الأندلسية في اللغة الإسبانية فقد نقلت الكلمة بنطقها ومعناها .

Dozy : Supplément, Tomo I, p. 128, 129 .

٤٨ – هنري بيرس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية ، وقيمته التوثيقية ، ترجمة د/ الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٤٩١ .

٤٩ - ابن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب) ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق أ/ محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، مصر سلسلة ذخائر العرب ، رقم (١٧) ، الجزء الأول ، ص ١٤٢ .

50 - Leve Provencal : la civilisation arabe en Espana, Buenos Aires, 1953, pp. 127 - 129 .

٥١ - ابن بسام : الأخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ق١ ، جـ٢ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ رجب أحمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

Leve Provencal : Op.Cit., p. 130 - 137 .

٥٢ - الكنابيش مفردها كنبوش Cambux وهو نوع من الحجاب أو الستار تغطى به النساء وجوههن عند الخروج وقد دخلت الكلمة فى اللغة الإسبانية بنفس معناها واستخدامها .

Reinhart dozy : Dictionnare detaille des noms des vetmens ches les arabes amsterdam 1845, p. 390 .

٥٣ - هنرى بيرس : نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .

٥٤ - للمزيد عن الزنار وأصلة راجع : Dozy : Op.Cit., p. 196 - 198 .

٥٥ - للمزيد راجع : مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى إسبانيا ، ترجمة / لطفى عبد البديع ، طبع القاهرة ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

٥٦ - كانت مصانع مدينة المرية هى المنهل الذى يستخدمه المسلمين فى المغرب والأندلس لإنتاج منسوجاتهم الفاخرة .، وظلت كذلك إلى أن استولى عليها الملك القشتالى الفونسو السابع Alfonso, VII سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م ؛ الإدريسى : (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى) ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ليدن ١٨٦٨م ، ص ١٩٨ .

٥٧ - مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م ، ص ٨٣ ، ٨٤ : السيد عبد العزيز سالم : صناعة النسيج ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦٤) ، ١٩٤٩م ، ص ١٩٣ .

٥٨ - الموريسكيون Los Moriscos هم المسلمون الذين تخلفوا فى الأندلس بعد سقوط آخر الممالك الإسلامية بها وذلك بتسليم مدينة غرناطة فى يناير ١٤٩٢م ، وقد ظل هؤلاء المسلمون محافظون على دينهم وهويتهم الإسلامية ، من حيث عاداتهم وتقاليدهم وتمسكهم بطقوس دينهم فترة من الزمن إلى أن أجبروا فيما بعد على اعتناق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى وهو مذهب الملكين الكاثوليكيين ، وهناك من أعلن نصرانيته فى الظاهر مع عدم ردته عن الإسلام ، ولهذا شك فيهم الإسبان وقرروا طردهم نهائيًا من الأندلس سنة ١٦١٣م .

- لمزيد راجع : ترند : إسبانيا والبرتغال ، جـ١ ، ص ١٧ ، هامش (١) .

٥٩ – ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٥ – ١٥٦ .

٦٠ – محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، ص ٤٥٠ ؛ أحمد محمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص ٧٨ .

٦١ – هـ – أ. ر. جب : الأدب من كتاب تراث الإسلام ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، الجزء الأول ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، جـ٢ ، ص ٦٢ .

٦٢ – أحمد الطوخي : نفس المرجع ، ص ٣٠٥ .

63 - Valentin Beneitez Cantero : Vocabularia Espanol Arabe Marroqui, 1949, p. 130 .

٦٤ – للمزيد حول الكلمات الخاصة بالزى العربي في الإسبانية ، راجع : ترند : إسبانيا والبرتغال ، جـ١ ، من ص٣٦ إلى ص ٤٦ .

٦٥ – السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الثاني ، ١٩٨٤م ، ص ١٤٤ .

66 - Leve Provencal : Hist, Tomo 1 , p. 269 .

٦٧ – الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ذو الحجة ١٤٠١هـ / أكتوبر ١٩٨١م ، ص ٣٩ .

٦٨ – ابن عذارى : (أبو عبد الله محمد المراكشي) كان حيًا سنة ٧١٢هـ : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثاني ، بيروت ، ١٩٥٠م ، ص ٩١ ؛ عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، جـ٢ ، ص ١٤٤ ؛

- Leve Provencal : Hist, Tomo 1 , p. 264 .

- Leve Provencal : la civilization, p. 67 .

٦٩ – أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

٧٠ – ترند : إسبانيا والبرتغال ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ .

٧١ – للمزيد راجع ترند : نفس المرجع ، من ص ٤٧ إلى ص ٥٠ .

٧٢ – بالنثيا : تاريخ الفكرى الأندلسي ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

٧٣ – بالنثيا : نفس المرجع ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ : رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية، ص ٤٤٨ .

٧٤ – بالنثيا : تاريخ الفكر : ص ٥٩ .

٧٥ – ابن حزم ، (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٨م ، ص ٤١٥ ؛ بالنثيا : نفس المرجع ، ص ٥٩ .

٧٦ – ابن حزم : نفس المصدر ، ص ٤١٥ .

٧٧ – الشكعة : الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .

٧٨ – محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع ، ص ٤٩٤، هامش (١) .

٧٩ – ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس ، ص ٤٢٣ .

٨٠ – حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . من البداية إلى الحجاري ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلدان السابع والثامن ، مدريد ، ١٩٥٩/١٩٦٠م ، ص ٢٧٦ .

٨١ – ليوبولدو توريس بلباس : الأبنية الإسلامية الإسبانية ، ترجمة / علية الضاني ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٣م ، ص ١١٧ .

٨٢ – إيزابيلا الأولى Isabella the Catholic ملكة قشتالة ، ولدت سنة ١٤٥١م ، وهي ابنة خوان الثاني ملك قشتالة ، وقد تزوجت من فرديناند الرابع ملك أراجون سنة ١٤٩٦م . وتولت العرش بعد أن توفي شقيقها الأكبر أنريكي الرابع ، وقد أدمجت المملكتين بينها وبين زوجها وصارتا قوة هددت آخر الممالك الإسلامية التي استوليا عليها ، وعرفت هي وزوجها في التاريخ الأوربي الوسيط بملكي قشتالة ، وأراجون أو الملكين الكاثوليكيين . للمزيد راجع : محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤/١٥١٦م) الطبعة الأولى ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ١٤ .

٨٣ – ليوبولدو توريس بلباس : نفس المرجع والصفحة .

٨٤ – لين بول : قصة العرب في إسبانيا ، ص ١٢٠ ، ص ١٦٥ .

٨٥ – للمزيد راجع : جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٩٧ ؛ حسين مؤنس : فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، الطبعة الأولى ، ص ٤١٩ .

٨٦ – ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، جـ٢ ، ص ٣١١ ؛ ابن عذاري : البيان . جـ٢ ، ص ٢٣.

٨٧ – ابن بسام : نفس المصدر والجزء ، ص ١٩٠ ، ١٩٢ .

٨٨ – كمال أبو مصطفى : مالقة الإسلامية ، ص ٧٠ .

٨٩ – للمزيد راجع : محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، ص ١٠٩ .

٩٠ – محمد عبده حتاملة : نفس المرجع والصفحة .

٩١ – أحمد مختار العبادي : في تاريخ الحضارة العربية ، الإسلامية . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص٩ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ – ابن الآبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى القضاعى) ، (٥٩٥ –٦٥٨هـ /١١٩٩ –١٢٦٠م) الحلة السيراء ، تحقيق د/ حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب (٥٨) ، دار المعارف ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣م.

٢ – ابن بسام : (أبو الحسن على بن بسام الشنتريني) ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، طبع القاهرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول .

٣ – ابن حزم : (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٨م.

٤ – ابن حيان : (أبو مروان بن حيان القرطبي) ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م : المقتبس في أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د. محمود على مكي ، لبنان ، بيروت ، ١٩٧٣م.

٥ – ابن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب) ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق أ/محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب (١٧) ، الجزء الأول .

٦ – ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ت ٧٣٢–٨٠٨هـ/ ١٣٣٢–١٤٠٥م : المقدمة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٧ – الإدريسي : (محمد عبد العزيز الشريف الفاوى) ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ليدن ١٨٦٨م.

٨ – الطرطوشي : (أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م : الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبي ، تونس ، ١٩٥٩م ، وطبعة د. بشير محمد عيون ، مكتبة المؤيد ، ومكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٣هـ/١٩٩١م.

٩ – ابن عذارى : (أبو عبد الله محمد المراكشى) كان حياً سنة ٧١٢هـ : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثانى ، ١٩٥٠م.

١٠ – العزفى : الدر المنظوم فى مولد النبى المعظم ، نشره فرنانو دى لاجرانخا ، مجلة الأندلس ، ١٩٦٩م.

١١ – المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى ، ١٩٨٦م.

١٢ – المقرى : (أحمد بن محمد التلمسانى) ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

١٣ – المقرى : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، تحقيق أ/ إبراهيم الإبيارى ، ومصطفى السقا ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٤٠ – ١٩٤٢م .

ثانياً : المراجع :

١ – الأهوانى : (د/عبد العزيز الأهوانى) : الزجل فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات ، القاهرة ١٩٥٧م.

٢ – بالنثيا : (أنخل جنثالث بالنثيا) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د. حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥م.

٣ – بروفنسال : (ليفى بروفنسال) : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د/ السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمى ، مراجعة د/ لطفى عبد البديع ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ١٩٥٦م .

٤ – « « « : سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة أ. عبد الحميد العبادى ، القاهرة ٩١٤٧-١٩٤٨م.

٥ – « « « : الشعر العربى فى إسبانيا وشعر أوروبا فى العصور الوسطى ، مقال من كتاب الإسلام فى المغرب والأندلس ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠م .

٦ – بلباس : (ليوبولدو توريس بلباس) : الأبنية الإسلامية الإسبانية ، ترجمة علية الضانى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٣م.

٧ – بيرس : (هنرى بيرس) : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ، ملامحه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمته التوثيقية ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٨ – ترند : إسبانيا والبرتغال ، من كتاب The leagcy of Eslam ، تعريب ، د/ حسين مؤنس ، طبلع القهرة ، ١٩٣٦م.

٩ – جب : (هـ.أ.رجب) : الأدب من كتاب تراث الإسلام ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، الجزءان الأول والثاني ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٠ – حتاملة : (د. محمد عبده حتاملة) : التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤–١٥١٦م) الطبعة الأولى ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١١ – الحجى : (د. عبد الرحمن الحجى) : تاريخ الموسيقى الأندلسية أصولها ، تطورها ، وأثرها على الموسيقى الأوروبية ، لبنان ، بيروت ١٩٦٩م.

١٢ – حسين : (د.حمدى عبد المنعم حسين) : مجتمع قرطبة فى عصر الدولة الأموية ، رسالة دكتوراه نوقشت بآداب الإسكندرية ، سنة ١٩٨٤م.

١٣ – أبو زيد : (د. سعيد سيد أحمد أبو زيد) : الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين (٤٨٤–٦٢٠هـ/ ١٠٩١–١٢٢٣م) كلية الآداب ، جامعة المنوفية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.

١٤ – سالم : (د. السيد عبد العزيز سالم) : تأثير الأزجال الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوروبى ، كتاب الشعب ، العدد ٥٦٤ .

١٥ – « « « : فن الغناء والموسيقى ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦١) ، ١٩٥٩م.

١٦ – « « « : صناعة النسيج ، مقال بدائرة معارف الشعب ، العدد (٦٤) ، ١٩٤٩م.

١٧ - « « « : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، دراسة تاريخية عمرانية أثرية فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الثانى ، ١٩٨٤م.

١٨ - سحر : (د. سحر السيد عبد العزيز سالم) : مظاهر الحياة فى بطليوس الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٥م.

١٩ - « « « : مدينة قادس ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠م.

٢٠ - « « « : بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الجزء الأول ، ١٩٩٧م.

٢١ - الشكعة : (د. مصطفى الشكعة) : الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م.

٢٢ - الطوخى : (د. أحمد محمد الطوخى) : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٧م.

٢٣ - العبادى : (د. أحمد مختار العبادى) : فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .

٢٤ - « « « : فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م.

٢٥ - « « « : الأعياد فى مملكة غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، المجلد الخامس عشر ، ١٩٧٠م.

٢٦ - « « « : الإسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة الأوروبية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، سنة ١٩٨٤م.

٢٧ - « « « : نصان جديدان لابن الكردبوس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦م.

٢٨ - « « « : الصقالبة فى إسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٣م.

٢٩ - عبد الحليم : (د. رجب محمد عبد الحليم) : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، الناشرون دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى ، بدون تاريخ .

٣٠ - عنان : (أ محمد عبد الله عنان) : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الناشر مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٣١ - كُحيلة : (د. عبادة عبد الرحمن كُحيلة) : تاريخ النصارى فى الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

٣٢ - لوبون : (جوستاف لوبون) : حضارة العرب ، تعريب / محمد عادل زعيتر ، مصر ، ١٩٤٥م.

٣٣ - أبو مصطفى : (د. كمال أبو مصطفى) : مالقة الإسلامية فى عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣م.

٣٤ - مكى : (د. الطاهر أحمد مكى) : دراسات أندلسية عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ذو الحجة ، ١٤٠١هـ / أكتوبر ١٩٨١م.

٣٥ - مورينو : (مانويل جومث مورينو) : الفن الإسلامى فى إسبانيا ، ترجمة / لطفى عبد البديع ، طبع القاهرة .

٣٦ - مؤنس : (د. حسين مؤنس) : الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس من البداية إلى الحجارى ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد السابع والثامن ، مدريد ، ١٩٥٩م ، ١٩٦٠م.

٣٧ - فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٩م.

Third : References in foregin languages :

1 - Abbadi : (Ahmed Mujtar Abbadi) : El Reino de Granada en la Época de Muhammed V, Madrid 1973 .

2 - Arie : (Rachil Arie) : l'espagne musulmane au Temps de Nasrides (1232-1492) Paris 1973 .

3 - Al Cantara : (Miguel Lafunte Al Cantara) : Historia de Granada, Tomo III, Granada 1846 .

4 - Cantero : (Valentin Beneitez Cantero) : Vocubularia Espanol Arabe, Marroqui, 1949.

5 - Crow : (John.A.Crow) : Spain : The root and the flowers, Newyork, 1963.

6 - Dozy : (Reinhart Dozy) Supplément aux Dictionnires Arabes, leyden 1881 .

7 - " " " : Dictionnare Detaille des Noms des vetmentes ches les Arabes, Amsterdam 1845 .

8 - La Granja : (Fernando de la Granja) :Fiestas Cristianas en Al-Andaluse, Revista Al-Andalus XXXIV, Madrid, 1969 .

9 - Hernandez : (Miguel Cruz Hernandez) : El Eslam de Al-Andalus Historia y Estructura de Surealidad Social, Madrid, 1992 .

10 - Lanson : Historie de la literature Francaise, Paris, 1916 .

11 - Pérès : (Henri Pérès) : La Poésie arabe d'Andalousie et sus relations Possibles avec la Poésie des Trowbadours, Paris 1947 .

12 - " " " : :a Poésie Andalouse en Arabe Classique au siecle x1, Paris 1953 .

13 - Pidal : (Ramon Menedez Pidal) : Espana Coma El Ebon entre El Cristianismo El Eslam, Madrid, 1953 .

14 - Provencal : (Leve Provencal) : La Civilization Arabe en Espana, Buenos Aires, 1953 .

15 - " " " : Histoire de L'espagne musulmane, Tomo III, Paris, 1967 .

د. مصطفى على دويدار (*)

الطب المصرى فى العصر الفاطمى
وأثـره فـى الحضـارة الأوروبيـة

مقدمة :

فى الوقت الذى كان فيه الطب العربى (قبل الإسلام) بدائيًا ، يتناقله الناس شفهيًا فى غير نظام ، وهو فى الواقع طبًا شعبيًا ينحصر داخل حدود الجزيرة العربية ، كانت مصر تشهد تقدمًا كبيرًا فى هذا المجال ، وهو ما كشفت عنه البرديات الطبية القبطية مثل بردية زويجا الطبية Zoega Medical Papyrus المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان ، وبردية شاسيناه (بردية المشايخ) Chassinat Medical Papyrus التى تعتبر واحدة من أهم المراجع الخاصة بالأدوية والعلاج الطبى ، وبردية زينون Xenon Medical Papyrus وغيرها من البرديات المصرية المنتشرة فى متاحف باريس ولندن وتورينو وبرلين وبودابست والفاتيكان (١).

ولعل هذا ما يؤكد أثر الحضارة المصرية بوجه خاص والعربية بوجه عام ، فى مجال الطب ، فى الحضارة الأوروبية والعالمية ؛ ولاشك فى أن المصريين ظلوا يتوارثون هذا التراث جيلاً بعد جيل ، خلال العصر الإسلامى ، فنبغ منهم عدد لا بأس به من الأطباء كان لهم الفضل فى نقل هذا العلم وتطويره ، ولعل ذلك هو السبب الرئيسى فى أن أغلبهم كان من أهل الذمة ، أى من سكان مصر الأصليين الذين لاقوا رعاية كبيرة واهتمامًا بالغًا

---

* مدرس بكلية الآداب – جامعة طنطا .

من ولاة مـصـر المسلمين ، فكانوا يمارسـون الطب بالوراثة أو بقراءته فى كتب الأقدمين ثم يباشرونه بدون قيود (٢).

وقد شـهدت مـصر تطوراً هائلاً في مـجال الطب منذ الفتح الإسلامى وحتى قيام الدولة الفاطمية ، وذلك على يد عدد من العلماء من العرب وأهل الذمة ، ومن أشـهر الأطباء المسلمين المصريين والعرب ، الحسن بن زيرك (ت : ٢٦٩ هـ / ٨٨٢م) طبيب مصر فى عصر أحمد بن طولون ، حيث كان من جملة الأطباء المقربين لدى هذا الأمير " يصحبه فى الإقامة ، وكان حاذقًا فى صناعته مقدمًا فيها " (٣). ومنهم أيضًا خلف الطولونى ، أبو على (ت ٣٠٥هـ / ٩١٧م) الذى تخصص فى طب العيون وكان له فيه معرفة جيدة ، فوضع مؤلفًا طبيًا عن أمراض العيون ومداواتها ، عرف باسم " كتاب النهاية والكفاية فى تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما " ألفه بين سنتى ٢٦٤ و ٣٠٢ هـ (٤). وفى أيام كافور الإخشيدى اشتهر أحد الأطباء العرب ويعرف باسم البالسى (؟) وكان طبيبًا فاضلاً متميزًا فى معرفة الأدوية المفردة وأفعالها ، حيث ألف فيها كتابًا ، أهداه إلى كافور الإخشيدى عرف باسم " كتاب التكميل فى الأدوية المفردة " (٥).

أما الأطباء من أهل الذمة الذين ذاع صيتهم قبل العصر الفاطمى ، فمنهم بليطان الطبيب القبطى ، الذى كان بطريركًا بالإسكندرية ، أيام الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) ، كما أن هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) ، وهبه مالاً كثيراً لقاء قيامه بعلاج إحدى جواريه ، وكتب له منشوراً فى كل كنيسة استولى عليها اليعاقبة بردها إليه فاسترد كنائس كثيرة إلى أن توفى سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م(٦).

وفى أيام الطولونيين نبغ عدد كبير من الأقباط فى مجال الطب ، ولعل السبب الرئيسى فى ذيوع صيتهم ، نتج عن شغف أحمد بن طولون باصطحاب الأطباء فى حله وترحاله خاصة وأنه كان يعانى فى آخر أيامه من مرض عضال أدى فى النهاية إلى وفاته ، ومن هؤلاء الأطباء إبراهيم بن عيسى الذى ولد بمصر وسافر إلى بغداد حيث تتلمذ بها على يد الطبيب يوحنا بن ماسويه ، ولما عاد إلى مصر دخل فى خدمة أحمد بن طولون بصناعة الطب ، وأقام بمدينة الفسطاط حتى وفاته سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٥م (٧).

ومن أطباء أحمد بن طولون الأقباط ، اشتهر سعيد بن توفيل (ت ٢٧١هـ / ٨٨٤م) الذى كان متميزًا فى صناعة الطب ، يعد الدواء بنفسه فى داره ، ويساعده فى ذلك بعض غلمانه ،

الذين يقومون بسحق الأدوية ومزجها وإعدادها (٨). وكان له ابن نابغ في الطب أيضًا تميز بجمال الشكل وحسن المظهر ، فلما طلب الأمير أحمد بن طولون من سعيد بن توفل طبيبًا لحريمه ، أحضر إليه ابنه هذا ، فرفض الأمير استخدامه لجماله ، فاستبدله بغلام له يدعى هاشم كان يقوم بسحق الأدوية له في داره ، فتمكن هاشم هذا من إعداد الأدوية التي توافق الحريم وخاصة فيما يتعلق بالشحم والحمل ، وما يحسن اللون ويغزر الشعر ، حتى قدمته على سعيد بن توفيل (٩).

وتجدر الإشارة إلى أن عصر أحمد بن طولون شهد العديد من الأطباء المسلمين والأقباط واليهود حتى أنه في مرضه الأخير " أمر بجمع الأطباء فجمع له أطباء البلد الموصوفون في التقدم في الصناعة والحذق ، وكانوا إذ ذاك متوافرين ، فكانوا يحضرون في كل يوم بين يديه"(١٠). ومما يؤكد وجود أطباء يهود بينهم إشارة المسعودي إلى أنه كان لأحمد بن طولون طبيبًا يهوديًا يحضر مجالسه (١١).

ومن أشهر أطباء ذلك العصر إسحق بن سليمان الإسرائيلي (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) وهو مصري كحال ، لديه خبرة عظيمة بصناعة الطب (١٢). وقد استمرت الحركة الطبية في تطورها في زمن الإخشيديين مع نبوغ عدد من الأطباء الأقباط ، ومنهم نسطاس بن جريج النصراني الذي عاصر محمد بن طغج الإخشيد (٣٢١ – ٣٣٤هـ / ٩٣٣ – ٩٤٥م) وكانت له مراسلات مع طبيب آخر من أهل الأندلس هو خالد بن يزيد بن رومان حيث أرسل إليه رسالة في البول(١٣).

ومن أشهر أطباء الأقباط في العصر الإخشيدي ، البطرك افتشيوس سعيد بن البطريق (ت٣٢٨هـ / ٩٤٠م) ، فإلى جانب شغله كرسي البطركية ، واشتهاره كمؤرخ ، كان حاذقًا في ميدان الطب وكان أخوه عيسى بن البطريق عارفًا بصناعته ، وامتاز في جزيئات المداواة والعلاج ، وبرع فيها ، وألف كتابًا في الطب وكناشا في الأدوية المفردة والمركبة؛ كما كان بارعًا في التركيبات الصيدلية واستخداماتها في العلاج (١٤).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصر شهدت في هذه الفترة عددًا من الأطباء الأندلسيين الذين وفدوا إليها وأقاموا بها ومارسوا الطب ، ومن أمثلتهم أبي عبد الله محمد بن عبدون الجبلي العذري القرطبي ، الذي اتجه إلى المشرق في سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م ، ونزل مصر فتولى الإشراف على مارستان الفسطاط (١٥). ومنهم أيضًا الشيخ أبي الحسن علي بن صالح

الأندلسى ، الذى حضر إلى مصر وأقام بها حتى وفاته (؟) ودفن بالقرافة ، وكان يرتزق من الطب حيث تخصص فى أمراض العيون ولهذا اشتهر بالكحال ، وقد نجح فى علاج بعض الحالات ، حتى أن أحد مرضاه من أهل الذمة أسلم بعد أن شفى على يديه من رمد كاد يصيبه بالعمى (١٦). ولعل هذا الحضور والرسائل المتبادلة بين الأطباء المصريين والمغاربة والأندلسيين بل والمشارقة أيضاً ، مما يؤكد على وجود تأثيرات طبية بينهم .

ومما لاشك فيه أن أطباء مصر فى عصر الولاة ودولتى الطولونيين والإخشيديين تركوا تراثاً قيماً فى هذا التخصص أفاد منه الأطباء اللاحقون وخاصة فى عصر الفاطميين ، ومما يؤكد ذلك أن إسحق بن سليمان الإسرائيلى اعتمد فى كتابه " البول "(١٧) على ما ألفه المتقدمين ، أما كتابه " الحميات " فهو لا نظير له ، قال عنه على بن رضوان (ت ٤٣٥هـ / ١٠٦١م) رئيس الأطباء فى مصر الفاطمية : " إن هذا الكتاب نافع وجمع رجل فاضل ، وقد عملت بكثير مما فيه فوجدته لا مزيد عليه ... " (١٨).

اشهر اطباء مصر فى العصر الفاطمى :

لقد شهدت مصر فى العصر الفاطمى تطوراً هائلاً فى مجال الطب ، حيث أصبحت قبلة للأطباء الوافدين إليها من المشرق والمغرب ، وهو الأمر الذى ساعد على تنوع الأفكار الطبية وثرائها ، بالإضافة إلى إسهامات الأطباء المصريين ، على اختلاف معتقداتهم ودياناتهم ، فقد اشتهر عدد كبير من الأطباء المسلمين والأقباط واليهود فى هذا العصر ، بما لا يدع مجالاً للشك فى أن هذه الفترة التاريخية شهدت نهضة طبية كبيرة ، تزعمها رجال ذوى همم وقدرات خاصة أثروا المكتبة الطبية بالعديد من المؤلفات الهامة ؛ وذلك على الرغم من أنهم لم ينالوا من الشهرة مثلما نال غيرهم من الأطباء المعاصرين لهم فى أقطار أخرى من العالم الإسلامى ، أمثال ابن سينا والرازى والزهراوى وغيرهم من أولئك الأطباء الذين اشتهروا باكتشافاتهم وإنجازاتهم العلمية ، ولعل السبب فى عدم ذيوع شهرة الأطباء المصريين فى العصر الفاطمى أن الغالبية العظمى منهم كانوا يمثلون الأطباء الممارسين ، وبعضهم ممارس جيد لا أكثر ولا أقل (١٩).

١ - الأطباء المسلمون المصريون :

ومن بين هؤلاء الأطباء يبرز عدد من الأطباء من أهل مصر المسلمين ، وإن كانوا أقل شهرة من أقرانهم من أهل الذمة إذا ما استثنينا رئيس الأطباء فى مصر فى ذلك العصر وهو

الطبيب المصرى الأشهر أبو الحسن على بن رضوان ، وفى مقدمة هؤلاء الأطباء يبرز طبيب عاش فى أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ / ٩٦٦ - ١٠٢٠م) ، هو أبو بشر طبيب العظيمية ، وصفه ابن أبى أصيبعة[٢٠] بأنه كان " مشهورًا فى الدولة ، ويعد من الأفاضل فى صناعة الطب " ؛ ومنهم أيضًا على بن سليمان الذى ولد بالقاهرة وعاش فى خلافة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) وولده الحاكم بأمر الله ، كما لحق أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥م) ، ولم يكن نابغًا فى صناعة الطب فحسب بل كان من العلماء الموسوعيين ، " متقنًا للحكمة والعلوم الرياضية ، متميزًا فى صناعة الطب ، أوحد فى أحكام النجوم " ومن مؤلفاته فى مجال الطب : " اختصار كتاب الحاوى فى الطب " و " كتاب الأمثلة والتجارب والأخبار والنكت والخواص الطبية المنتزعة من كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما " (٢١).

ولا يخلو الأمر من اشتغال بعض الأمراء المصريين بصناعة الطب ، ومن أشهرهم المبشر بن فاتك وهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء الآمرى من أعيان أمراء مصر ، اشتهر ببراعته فى العلوم والطب ، وكان قد تتلمذ على يد الحسن بن الهيثم وعلى بن رضوان ، وألف كتابًا فى الطب (٢٢). أما أشهر أطباء عصره قاطبة ، فهو الطبيب المصرى أبو الحسن على بن رضوان ابن على بن جعفر ، الذى ولد فى الجيزة سنة (٣٨٣هـ / ٩٩٨م) فى أسرة فقيرة ، فكان والده فرانًا ، ولذلك بدأ حياته العلمية والعملية معًا منذ صباه فى تحصيل العلم بسبب ضائقته المالية فكان يتكسب من ممارسة التنجيم والطب تارة وبتدريسهما تارة أخرى حتى توفر لديه المال الكثير فاقتنى أملاكًا فى مدينة الفسطاط وأصبحت لديه مدخرات تعينه فى شيخوخته (٢٣).

ومن الواضح أن بن رضوان قد بلغ بعلمه فى الطب غايته ، الأمر الذى جعله يتميز على سائر أطباء مصر بل ومن وفد إليها من المشرق والمغرب ، فقربه الخليفة الحاكم بأمر الله إليه ، وجعله طبيبه الخاص ، وعينه رئيسًا للأطباء (٢٤).

وقد اعتمد ابن رضوان أسلوبًا فى معالجة مرضاه ، يقوم على المشاهدة والدلالات ، حيث ينقل عنه ابن أبى أصيبعة[٢٥] قوله : " إذا دعيت إلى مريض فاعطه ما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك ، ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف من أى خلط حدث أولاً ، ثم تعرف بعد ذلك فى أي عضو هو وعند ذلك تعالجه " . كما يوصى الأطباء عند الكشف على المريض بتوجيه الأسئلة إليه ، وكذا حس مواضع المرض ، حيث يقول : أما فيما يمكن ظهوره للحس

فلا تقنع فيه حتى تشاهده بالحس ، وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة ؛ وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة ؛ حتى تعتبر كل واحد من العيوب ، فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان أو متوقع أم الحال حال صحة وسلامة " ولذلك كان يوصى بفحص المريض فحصاً دقيقاً بالتفرس فى وجهه وملاحظة تنفسه ولون جلده والتأكد من سلامة عقله ، ثم التعرف على أحواله الخلقية والهمس فى أذنه لمعرفة قوة سمعه ، وأن يفحص قوة إبصاره ولسانه وقوته الجسدية ثم يفحص نبضه ومواضع كبده وكليته ثم برازه وبوله ، وعلى ذلك يقرر الدواء المناسب لحالته (٢٦).

وقد ألف ابن رضوان العديد من المصنفات الطبية ، وهى تزيد على المائة كتاب منها " كتاب شرف الطب "(٢٧) الذى يحتوى على شروط يجب أن تتوفر فى الأطباء ، رتبه ابن رضوان فى سبعة أبواب ضمنها بعض تعاليم الأوائل مثل " أبقراط " و " جالينوس " لممارسة تلك الصناعة(٢٨).

ومن اشتغل بالطب فى هذا العصر أيضاً بلمظفر بن معرف ، وهو بلمظفر نصر بن محمود ابن المعرف (٥٧١هـ / ١١٧٥م) ؛ على أنه فيما يبدو لم يتخذ من الطب مهنة أساسية له ، وربما كانت مجرد هواية لديه حيث يقول ابن أبى أصيبعة (٢٩): " كان ذكياً فطناً ، كثير الاجتهاد والعناية والحصر فى العلوم الحكمية ، وله نظر أيضاً فى صناعة الطب والأدب ويشعر". فهو يعد من الفلاسفة الذين " درسوا الطب على جزء من المعرفة لا غنى عنه ، وسعيهم إلي استكمال المعرفة هو الذى دفعهم إلى درس الطب " (٣٠). وعلى الرغم من ذلك فقد احتفظ فى داره بمجلس كبير مشحون بالكتب ، ضمت ألوفاً فى كل فن ، كان من بينها كتباً كثيرة من كتب الطب ، ومن مؤلفاته : تعاليق فى الكيمياء وكتاب فى علم النجوم ، أما كتابه فى الطب فيعرف باسم : " مختارات فى الطب " (٣١).

ومع قرب نهاية الخلافة الفاطمية فى مصر برز على الساحة الطبية عالم ذو فضل كبير فى هذا المجال هو شرف الدين عبد الله بن على المعروف باسم " الشيخ السديد " وقد حمل عدة ألقاب تدل على علو قدره وارتفاع شأنه ومنها " رئيس الطب " (٣٢) و " شيخ الطب بالديار المصرية " (٣٣)، كما كان يحمل لقب " القاضى الأجل " أما لقب " الشيخ السديد " فقد كان لقب أبيه غير أنه عرف به أيضاً ؛ وهو من بيت اشتهر بصناعة الطب ، فوالده كان " طبيباً للخلفاء الفاطميين ، مشهوراً فى أيامهم " ، وآخر من خدمهم الخليفة الآمر بأحكام الله ، حيث

يقول الابن : " ... إن أبى كان فى خدمت (الخليفة الآمر) وكان مكيناً عنده ... " ؛ وقد اصطحب الأب ابنه في إحدى زياراته للخليفة الآمر ، واطلع الخليفة على نجابة الصبى وقدرته فى صناعة الفصد ، فأصبح منذ ذلك اليوم طبيباً خاصاً للخليفة الآمر والخلفاء من بعده ، إلى أن زالت الخلافة الفاطمية ، فدخل فى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبى (٣٤).

٢ - الأطباء الأقباط :

كان الطب من أهم الميادين التى نبغ فيها الأقباط ، لما جبلوا عليه من اطلاع على ما صنفه الأقدمون من أجدادهم ، والوافدون على مصر فى عصور مبكرة من العلماء اليونانيين الذين قدموا إلى الإسكندرية فى عصر البطالمة والرومان أمثال أبقراط وجالينوس أشهر من عملوا بالطب وصنفوا فيه العديد من المؤلفات (٣٥).

وفى العصر الفاطمى اتسعت شهرة الأطباء الأقباط ، خاصة فى ظل سياسة التسامح الدينى التى انتهجها أغلب الخلفاء الفاطميين ، ومن أشهر الأطباء المسيحيين الذين خدموا الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٦٢ - ٣٦٥هـ / ٩٧١ - ٩٧٥م) وابنه الخليفة العزيز من بعده ، الطبيب أبو سهل كيسان بن عثمان بن كيسان ، كان ماهراً فى تشخيص الداء وتحضير الدواء (٣٧٨هـ / ٩٨٨م)(٣٦) وكان أخوه أبو الحسن سهلان بن عثمان بن كيسان أكثر شهرة منه ، فقد خدم الخليفة المعز وابنه العزيز أيضاً ، " وارتفع جاهه فى الأيام العزيزية" (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) ومن مؤلفاته كتاب : " مختصر فى الطب " صنفه للخليفة العزيز بالله ، وكتاب " مختصر فى الأدوية المركبة المستعملة فى أكثر الأمراض " (٣٧).

ومنهم أيضاً يوسف النصرانى الطبيب الذى " كان طبيباً عارفاً بصناعة الطب فاضلاً فى العلوم " عينه الخليفة العزيز بالله بطريركاً على بيت المقدس سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م ، ثم مرض وعاد إلى مصر وتوفى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م (٣٨).

أما أشهر أطباء القرير بالله ، فهو أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصرانى ، وقد وصف بأنه أشهر أطباء مصر وأحذقهم فى الطب والعلاج ، ولما توفى الخليفة العزيز وولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله دخل ابن مقشر فى خدمته وصار من خواص أطبائه (٣٩) ، وعلى الرغم من تقدمه فى علم الطب إلا أنه لم يترك مؤلفاً فى هذا المجال حيث يذكر القفطى أنه " ... لم يشتهر عنه علم فى هذا الشأن ولا يظهر له تصنيف " (٤٠). وبعد وفاة ابن مقشر استطب الحاكم بأمر الله أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم بن نسطاس النصرانى الذى توفى فى أيام

الحاكم بأمر الله أيضاً(٤١) غير أن ابن مقشر أعقب ولداً نبغ في الطب وأخذ مكانة لا تقل عن مكانة والده عند الخليفة الحاكم الذي أصبح يعتمد عليه في صناعة الطب (٤٢)، فقد وصف بأنه "كان طبيب وقته ، عارفًا بالطب ... " إلا إنه كان على ما يبدو شغوفًا بشرب الخمر ، الأمر الذي عجل بنهايته ، حيث لقي مصرعه غرقًا في بركة ماء وهو مخمور فاقد الوعي (٤٣).

ومن أطباء العصر الفاطمي برز اسم أبو سعيد بن قرقة الحكيم متولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح (٤٤)؛ وله دار وحمام اشتهرا به كانا قائمين بأول حارة زويلة بالقاهرة(٤٥)، وعرف عنه أنه كان ماهراً في علم الطب والهندسة وغيرهما من علوم الأوائل(٤٦)، انتهت حياته بالقتل على يد الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤هـ / ١١٣٠ - ١١٤٩م) ، فقد روت المصادر التاريخية ، أخبار الفتنة التي نتجت عن العداوة بين الأمير حسن بن الحافظ والأمراء والأجناد الذين تخوفوا منه بسبب عظم أمره وقوة شوكته ، واجتمعوا على خلع الخليفة الحافظ سنة ٥٢٩هـ ، وأمام عظم هذه الفتنة قرر الخليفة قتل ابنه إرضاء للجند الثائرين حتى تخمد فتنتهم ، فأمر طبيبه اليهودي أبى منصور ، أن يعد جرعة من السم لولده حسن ، فامتنع الطبيب أبو منصور اليهودي عن ذلك وأقسم أنه لا يعرف طريقة إعداد مثل هذه السقية ، فأحضر الخليفة الطبيب ابن قرقة النصراني وأطلعة على ما يريد عمله ، فأعد سماً أكره الخليفة ولده على شربه فمات في الحال (٤٧) . فلما قتل حسن وسكن الجند الثائرون قبض الحافظ على ابن قرقة وقتله بخزانة البنود ، واستولى على جميع أملاكه : وأنعم على أبي منصور اليهودي الطبيب وجعله رئيساً على اليهود (٤٨).

٣ - الأطباء اليهود :

يمثل اليهود الشرقيون الذين عاشوا في الأمصار الإسلامية ، جزء لا يتجزأ من الحضارة العربية الإسلامية ، حيث تأدبوا بآداب الإسلام ، وكتبوا باللغة العربية ، وساهموا في إثراء التراث الإسلامي ؛ " فهم ، وإن لم يكونوا مسلمين في الدين ، كانوا عربًا مسلمين في الثقافة والعلوم"(٤٩) ولم يكن اليهود في مصر بمعزل عن المجتمع أو يشكلون طائفة من غير المصريين، ولا ينظر إليهم باعتبارهم أبناء جالية ذات خصائص اجتماعة ثقافية متمايزة ، بل ينظر إليهم باعتبارهم جماعة مصرية تعتنق ديناً يختلف عن دين الأغلبية ، ولاشك أن المسلمين والمسيحيين واليهود في مصر ، شكلوا جسداً اجتماعيًا واحداً ، فقد شارك اليهود مشاركة فعالة في الأحداث التي جرت في مصر ، وكان لهم نصيبهم في جميع الأنشطة ، وخاصة في المجالات العلمية والثقافية (٥٠).

وقد تجلى دور اليهود فى الحياة العلمية والثقافية فى مصر الإسلامية فى العصر الفاطمى، وذلك تحت رعاية خلفاء اشتهروا بحسن معاملتهم لأهل الذمة بوجه عام واليهود بوجه خاص ، ففى مجال الطب لوحظ نبوغ أعداد كبيرة من الأطباء ، حتى أن أطباء الخلفاء الفاطميين من اليهود كانوا أكثر من أطبائهم من المسلمين والقبط ؛ وما من شك أنهم ساهموا بقدر وافر فى النهضة بالطب فى ذلك العصر ، سواء من ظل منهم على يهوديته ، أم من أسلم ، ونتيجة لنبوغ أكثرهم فى هذا المجال ، تولى البعض منهم رئاسة الأطباء فى مصر ، ودخلوا فى خدمة الخلفاء ، ورجال وحريم القصر الفاطمى ، وممن برز منهم فى عصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، الطبيب موسى بن إلعازار الإسرائيلى ، الذى اشتهر بالتقدم والحذق فى صناعة الطب ، وله العديد من المؤلفات الطبية منها : " الكتاب المعزى فى الطبيخ " الذى ألفه للخليفة المعز ، ومقالة فى السعال ، وكتاب " الأقربازين " ، وركب الكثير من الأدوية (٥١).

وامتداداً لهذا الطبيب اشتهر العديد من أسرته ، ما يدل على أن مهنة الطب كانت وراثية فى كثير من الأسر المصرية (مسلمين وأقباط ويهود) ، ومن هذه الأسرة اليهودية ، الطبيب إسحق بن موسى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م) وأخيه الطبيب إسماعيل بن موسى ، والحفيد يعقوب بن إسحق بن موسى ، كما كان لموسى ابن دخل الإسلام هو عون الله توفى قبل أخيه إسحق بيوم واحد ، بل إن جميعهم ماتوا فى حياة أبيهم موسى بن إلعازار (٥٢).

وبالرغم من أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد أصدر عدة تعليمات بشأن أهل الذمة (الأقباط واليهود) – ومنها أنه ألزم اليهود والنصارى سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م بشد الزنار ولبس الغيار وجعل شعارهم " شعار الغاصبين العباسيين " – إلا أنه سرعان ما أصدر عفواً شاملاً – بعد أن كثرت الشائعات – وكتب سجلاً من ثلاث نسخ للمسلمين والنصارى واليهود بالأمان والعفو عنهم (٥٣)، على أن ذلك لم يمنع من وجود الأطباء من أهل الذمة فى قصره ، فقد تقدم ذكر عدد كبير من الأطباء الأقباط الذين خدموا فى بلاطه ، أما أطباؤه من اليهود ، فقد ورد فى شعبان سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م أنه " خلع على صقر اليهودى وحمل على بغلة ، وقيد إليه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال وحمل معه عشرون سفط ثياب ، وأنزل فى دار فرشت وزينت ، وعلق على أبوابها وحجرها الستور ، وأعطى فيها جميع ما يحتاج إليه ، وقيل له هذه دارك ؛ فحصل له فى ساعة واحدة ما قيمته عشرة آلاف دينار ، واستقر طبيب الحاكم عوضاً عن ابن نسطاس " واستمر طبيبًا خاصًا للخليفة الحاكم إلى أن توفى فى ربيع الآخر سنة

٤٠٠هـ / ديمسبر ١٠٠٩م (٥٤). ولعل هذا التكريم الذى ناله صقر اليهودى الطبيب ما يؤكد أنه كان بارعًا فى مجال تخصصه ، وإن لم تذكر المصادر شيئًا عن إنتاجه العلمى .

وفى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله اشتهر طبيب يهودى آخر باسم غريب هو " الحقير النافع " ولعل ذلك لأنه كان يقوم بمداواة الجراح ، وهو فى غاية الخمول ؛ وتصادف أن عرض للخليفة الحاكم عقد فى رجله ، أخفق ابن مقشر وغيره من أطباء الخاص فى علاجه ، فأحضروا له هذا الطبيب اليهودى ، فقام بعلاجه حتى شفى فى ثلاثة أيام ، فأنعم عليه الخليفة وأعطاه ألف دينار وخلع عليه لقبه بالحقير النافع ، كما جعله من أطباء الخاص (٥٥).

ومن أشهر الأطباء اليهود الذين عاشوا فى هذا العصر الطبيب أبو كثير افرائيم بن الحسن بن إسحق بن إبراهيم بن يعقوب ، خدم الخلفاء الذين عاصرهم ومنهم الآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقد تلقى هذا الطبيب علومه فى الطب على يد رئيس أطباء مصر أبو الحسن على بن رضوان ، حيث أصبح من أجل تلاميذه(٥٦)، وفى هذا ما يدل على مدى الترابط بين أفراد المجتمع المصرى بشتى طوائفه واختلاف مذاهبه ومعتقداته الدينية حيث التزموا جميعًا بتعاليم واحدة وثقافة مشتقة من مبادىء وروح الإسلام .

وتجدر الإشارة إلى أن افرائيم بن الحسن اليهودى ، كان يمتلك مكتبة ضخمة ، تضم آلاف الكتب ، فقد قدم أحد العراقيين إلى مصر ، ليشترى كتبًا وينقلها إلى بغداد ، واتفق مع افرائيم على شراء عشرة آلاف مجلد من مكتبته الخاصة ، غير أن الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش الذى كان مولعًا باقتناء الكتب وتكوين المكتبات ، علم بهذا الاتفاق ، فأرسل إلى افرائيم جملة من المال الذى اتفق على دفعه ثمنًا لهذه الكتب ؛ ونقلت الكتب من مكتبة افرائيم إلى مكتبة الأفضل (٥٧). وعلى الرغم من بيع هذا العدد الضخم من الكتب ، إلا أنه عثر فى مكتبته بعد وفاته على عدد أكبر منه ، قدر بنحو عشرين ألف مجلد (٥٨). أما عن تراثه العلمى فقد ترك افرائيم عدد من المؤلفات الطبية منها : كناش(*) ضم تعاليق ومجربات ، كما استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها . وكتاب : التذكرة الطبية فى مصلحة الأحوال البدنية " ألفه لنصير الدولة أبى على الحسين بن أبى على الحسن بن حمدان ، حينما خرج ثائرًا إلى الإسكندرية والبحيرة وغيرها من الأعمال(٥٩) وله أيضًا مقالة فى التقرير القياسى على أن البلغم يكثر تولده فى الصيف ، والدم والمرار الأصفر فى الشتاء (٦٠).

ومن الأطباء اليهود فى العصر الفاطمى ، أبو الخير سلامة بن رحمون بن موسى ، وهو من تلاميذ افرائيم الطبيب اليهودى ، ولذلك كان " له اطلاع على كتب جالينوس والبحث عن غوامضها " حيث إنه اتبع مدرسة أصولية فى علوم الطب كان يتزعمها ابن رضوان الذى كان ينادى بضرورة الرجوع إلى الأصول ومنها كتب أبقراط وجالينوس . وإلى جانب الطب كان لابن رحمون اهتمام بدراسة المنطق والعلوم الحكمية وله فيها مؤلفات عديدة ؛ وكان شيخه فى هذه العلوم الأمير أبو الوفاء محمود الدولة المبشر بن فاتك ؛ أما عن مؤلفات ابن رحمون الطبية والفلسفية فمنها : " كتاب نظام الموجودات " ، ومقالة فى السبب الموجب لقلة المطر بمصر ، ومقالة فى خصب أبدان النساء بمصر عند تناهى الشباب (٦١).

وقد أعقب سلامة بن رحمون ولداً ، نبغ فى الطب أيضًا وصار من كبار الأطباء اليهود الذين اشتغلوا بالطب ، وصنفوا فيه ، هو مبارك الدولة بن رمون ، المصرى المولد والمنشأ ، ومن مؤلفاته : مقالة فى الجمرة المسماة بالشقفة والخزفة (٦٢).

أما فى عصر الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، فقد سبقت الإشارة إلى الطبيب أبو منصور اليهودى ، وما دار بينه وبين الخليفة والطبيب ابن قرقة النصرانى فى شأن حسن بن الحافظ ، وقد انتهت هذه الحادثة بقتل ابن قرقة ، وتعيين أبى منصور اليهودى رئيسًا لليهود ، ورئيسًا للأطباء فى قصر الخلافة .

كما شهدت فترة خلافة الآمر بأحكام الله نبوغ بعض الأطباء اليهود ومنهم الشيخ أبو الفضائل النسطورى المعروف بطبيب الطائفة العظيمية فى الخلافة الآمرية (٦٣). وقد ذكره المقريزى باسم الشيخ أبو الفضل ، وقد أنعم عليه الخليفة ببدلة حريرى (٦٤).

وقد شهد العقد الأخير من الخلافة الفاطمية العديد من الأطباء اليهود الذين خدموا فى بلاط الخلفاء ، وعاصروا أوائل الدولة الأيوبية ، وخدموا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ ومنهم أبو البيان بن المدور ، اليهودي القراء ، الملقب بالسديد الذى كان عالمًا بالطب (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) ، خدم الخلفاء الفاطميين فى آخر دولتهم ، ثم دخل فى خدمة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى وقد ظل يعمل بالطب حتى بعد أن تقدم به العمر وأصابه الضعف، فقرر له السلطان أربعة وعشرين ديناراً تصل إليه فى بيته ، واستمر على ذلك لمدة عشرين سنة، لا يبرح بيته بينما لم يتوقف عن ممارسة الطب ، كما ظل التلاميذ يترددون عليه

لدراسة الطب ، والمرضى يأتون إليه لتشخيص المرض وتوصيف الدواء ، غير أنه مع كبر سنه كان يخرج فى بعض الأحيان لتطبيب من يعز عليه جداً مثل القاضى الفاضل وابن سناء الملك وبعض الأمراء المقربين منه ، ومن كتبه " مجربات فى الطب " (٦٥).

ومنهم أيضًا الرئيس هبة الله الذى عاش فى آخر دولة الفاطميين وخدم من عاصرهم من الخلفاء بصناعة الطب ، فقرروا له الجامكية الوافرة والصلات المتوالية ، ولما انقرضت دولتهم عاش بعدهم فيما أنعموا عليه به إلى أن توفى سنة خمسمائة ونيف وثمانين من الهجرة (٦٦).

وهناك عدد من الأطباء اليهود الذين عاصروا الدولة الفاطمية ، ولكن المصادر لم تذكر أنهم دخلوا في خدمة الخلفاء الفاطميين ، بينما تذكر أنهم دخلوا فى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولعلهم لم يحظوا باهتمام الخلفاء الذين اعتمدوا أطباء غيرهم اختصوا بهم . وكان من بينهم الطبيب اليهودى ابن جميع وهو الشيخ الموفق شمس الرياسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن افرائيم ، من الأطباء المشهورين ، " وكان متقنًا فى العلوم جيد المعرفة بها ، كثير الاجتهاد فى صناعة الطب حسن المعالجة ، جيد التصنيف " : درس الطب على الشيخ الموفق أبى نصر عدنان بن العين زربى ولزمه مدة ؛ وقد ولد ابن جميع فى مدينة الفسطاط ونشأ بها ، وخدم السلطان صلاح الدين ، الذى اعتمد عليه فى صناعة الطب ، وركب له الدواء ؛ وكان لابن جم ع مجلس يجتمع فيه المشتغلون بصناعة الطب : وإلى جانب اهتماماته الطبية ، اهتم بدراسة اللغة العربية ، وألف الكثير من الكتب الطبية التى امتازت بأنها " جيدة التأليف ، كثيرة الفوائد، منتخبة العلاج " . ومنها : " كتاب الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد " وكتاب " التصريح بالمكنون في تنقيح القانون " ، ورسالة فى " طبع الإسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها " ، ومقالة فى الليمون وشرابه ومنافعه ، ومقالة فى الراوند ومنافعه ، ومقالة فى الحديد ، ومقالة فى علاج القولنج واسمها " الرسالة السيفية فى الأدوية الملوكية"(٦٧).

ومنهم أيضًا الموفق بن شوعة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) ، وهو من أفاضل العلماء والأطباء اليهود ، فقد اشتهر بسعة علمه فى الطب ، وتخصص فى طب العيون والجراحة ، وخدم الناصر صلاح الدين ، وبالإضافة إلى الطب اشتهر بأنه كان شاعراً يكتب الشعر ويعزف على القيثارة (٦٨).

أما المهذب أبو الفضائل بن الناقد ، فقد كان طبيباً مشهوراً ، تخصص فى طب العيون أيضاً ، وكان تلامذته يلازمونه فى أكثر أوقاته ، ويقرؤون عليه حتى فى أوقات سيره لتفقد مرضاه ، إلى أن توفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م ، وخلفه ابنه أبو الفرج الذى أسلم ، وكان مثل أبيه طبيباً وكحالاً (٦٩).

ويلاحظ مما تقدم أن غالبية الأطباء (فى مصر) كانوا من أهل الذمة (أقباط ويهود) ، فقد كان احتراف اليهود والنصارى لصناعة الطب يكاد يكون حكراً عليهم ، وهو ما لاحظه الرحالة والوافدون إليها ، فيقول أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الطبيب الأندلسى (ت ٥٢٨هـ / ٣٣ - ١١٣٤م) : " أكثر أطبائها المبرزين نصارى ويهود " (٧٠). أما الرحالة الأندلسى ابن سعيد الذى زار مصر سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٨م فى عهد السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨ - ٦٤٧هـ / ١٢٤١-١٢٤٩م) ، فقد رأى " أكثر ما يتعيش بها اليهود هى كتابة الخراج والطب " (٧١). وهو ذات الأمر الذى دفع أحدهم إلى القول :

أقـول للمسلمين طرا ... تبغـون فى طبنا اشتهـارا
هيهات حاولتم محالا ... كونوا إذن يهودا أو نصارى(٧٢)

٤ - أطباء وافدون :

أ - من المشرق :

شهد العصر الفاطمى حضوراً كبيراً لبعض الأطباء العرب المشارقة (من المسلمين وأهل الذمة) ، الذين توافدوا على مصر لأسباب مختلفة تعلقت فى مجملها بأهواء هؤلاء الأطباء ومآربهم ، فتباينت من طبيب إلى آخر ، فمنهم من جاء طلباً للمال ، لما عرف عن بذخ الفاطميين وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولاسيما من أرباب العلم والفضل (٧٣). وربما حضر الطبيب إلى مصر بدعوة من أحد الخلفاء الفاطميين ، لعلمه وتفوقه فى مجال تخصصه ؛ غير أن السبب الرئيسى فى تقديرى إنما يرجع إلى رغبة هؤلاء الأطباء فى الاطلاع على الأصول ، والاستزادة من تعاليم الأولين ، خاصة وأن مصر على مر تاريخها القديم والوسيط شهدت نهضة وتطوراً فى مجال الطب لم تشهده حضارات أخرى ، وقد تقدم أن مصر فى عصورها الفرعونية كانت فى مقدمة الأمم فى هذا المجال ، فالطب المصرى القديم يعتبر أقدم طب عرفه التاريخ المكتوب ، ويقول المؤرخ (جابين Gaben) : " إن المصريين كانوا منجماً اغترف منه الأقدمون بكل حرية وانطلاق دون أن يذكروا فضلاً لأصحابه الأصليين وأن العقاقير وأوصافها المذكورة فى أعمال ديسقوريدس وبلينى وغيرهما كان من الواضح جداً

أنها مأخوذة عن المصريين القدماء " (٧٤). ولما كان علماء مصر وأطباؤها هم ورثة هذا التراث، والأكثر معرفة بمصادره ومعابره التي تمثلت في الأطباء اليونانيين ، فقد حرص الأطباء من المشرق والمغرب على الالتقاء بهم والأخذ عنهم ، أو تبادل المعرفة بعلوم الطب بينهم ، حتى أن طبيباً كبيراً مثل المختار بن الحسن بن بطلان جاء إلى مصر خصيصاً للقاء رئيس أطبائها أبو الحسن على بن رضوان استجابة لما أملته عليه المنافسة (٧٥).

ومن الأطباء الذين جاءوا إلى مصر من المشرق الإسلامى فى العصر الفاطمى ، يبرز الطبيب أبو عبد الله محمد بن سعيد التميمى ، كان مقامه أولا بمدينة القدس ونواحيها ، تميز فى صناعة الطب والاطلاع على دقائقها ، وله خبرة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير وتركيبه : وكان جده طبيباً أيضاً ، أى أنه ورث عنه صناعة الطب ، غير أنه كان حريصاً على تحصيل علومه من أكثر من مصدر ، حيث تلقى أول علومه في موطنه الأصلى بيت المقدس ، وتنقل بين مدن الشام لمواصلة دراسته ، وفى مدينة الرملة دخل فى خدمة الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدى الذى كان مغرماً به ، وبما يعالجه به من الأدوية المركبة ، ثم انتقل التميمى إلى مصر وصحب الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز ، وصنف له كتاباً كبيراً فى عدة مجلدات سماه : " مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء وكل ذلك بالقاهرة المعزية " (٧٦).

وفى القاهرة أيضاً التقى التميمى بأطباء مصر ، ودارت بينه وبينهم مناظرات علمية ، كما التقى بالأطباء المغاربة الذين قدموا إلى مصر فى صحبة المعز لدين الله الفاطمى ، أما عن إنتاجه الفكرى والعلمى فيتمثل فى : " رسالة إلى ابنه على بن محمد فى صنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما فيه من أدوية ، ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها ، وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته " . وكتاب آخر فى الترياق ، " استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه " . وكتاب مختصر في الترياق ، ومقالة فى ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه ، وعلاجه . و "كتاب الفحص والأخبار " (٧٧). ويذكر ابن العبرى أنه كان بمصر فى حدود سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م ، وأنه " أحكم ما علمه من علم الطب غاية الإحكام ، وكان منصفاً فى مذكراته ، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة " (٧٨).

ومن الأطباء المشارقة أيضاً الطبيب عمار بن على الموصلى (ت ٤١١هـ / ١٠٢٠م) ، الذى اشتهر بطب العيون ، فقد " كان كحالاً مشهوراً ، معالجاً مذكوراً ، له خبرة بمداواة أمراض العيون " ، ويتضح من اسمه أنه عراقى ، ولد فى مدينة الموصل ، وقد سافر إلى مصر وأقام

بها ، حيث لم يشتهر في العراق مثلما اشتهر في مصر ، وخاصة في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ، حينما دخل في خدمته ، وألف له كتاب : " المنتخب في علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد " (٧٨).

ومن الملاحظ أن الفترة التي سبقت وصول عمار إلى مصر ، شهدت نبوغ طبيب مصرى متميز في طب العيون ، وهو الطبيب أعين بن أعين ، الذي عاش في خلافة العزيز بالله وتوفي سنة (٣٨٥هـ / ٩٩٥م) ؛ ومن مؤلفاته : كتاب في أمراض العين ومداواتها (٨٠). ولعل مجيء عمار بن علي إلى مصر قد ترتب على سماعه عن هذا الطبيب ، ومن المرجح أنه اطلع على كتابه في أمراض العيون وهو ما يفسر التشابه الكبير بين الكتابين .

ومن كبار مشاهير هذا العصر أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم المهندس البصري ، صاحب التصانيف في علم الهندسة : الذي ذاع صيته في بغداد ، وسمع به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وكان يميل إلى الحكمة ، فتاقت نفسه إلى رؤيته ، خاصة وقد نقل عنه أنه قال : " لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالاته من زيادة ونقص... " (٨١).

وقد كان ابن الهيثم إلى جانب نبوغه في علوم الرياضيات والهندسة ، خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينه وأموره الكلية ، وبالرغم من ذلك لم يباشر أعماله ، ولم تكن له دراية بالمداواة (٨٢). أما عن مؤلفاته في مجال الطب فهي قليلة جداً بالمقارنة بمؤلفاته في العلوم الرياضية والهندسية والطبيعة ، بالإضافة إلى علم المنطق والفلسفة والآداب : ففي مجال الطب لخص كثيراً من كتب جالينوس ، فكان أهم مؤلفاته الطبية ، كتاب في تقويم الصناعة الطبية ، قال عنه : " نظمته من جمل وجوامع ما نظرت فيه من كتب جالينوس وهو ثلاثون كتاباً : كتابه في البرهان ، كتابه في فرق الطب ، كتابه في الصناعة الصغيرة ، كتابه في التشريح ، كتابه في القوي الطبيعية ، كتابه في منافع الأعضاء ، كتابه في آراء أبقراط وأفلاطون ، كتابه في المني ، كتابه في الصوت ، كتابه في العلل والأعراض ، كتابه في أصناف الحميات ، كتابه في البحران ، كتابه في النبض الكبير ، كتابه في الاسطقسات على رأى أبقراط ، كتابه في المزاج، كتابه في قوى الأدوية المفردة ، كتابه في قوى الأدوية المركبة ، كتابه في مواضع الأعضاء الآلية ، كتابه في حيلة البرء ، كتابه في حفظ الصحة ، كتابه في جودة الكيموس ورداءته ، كلامه في أمراض العين ، كتابه في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، كتابه في

سوء المزاج المختلف ، كتابه فى أيام البحران ، كتابه فى الكثرة ، كتابه فى استعمال الفصد لشفاء الأمراض ، كتابه فى النبول ، كتابه في أفضل هيئات البدن ، جمع حنين بن اسحق من كلام جالينوس وكلام أبقراط فى الأغذية ، ثم شفعت جميع ما صنعته من علوم الأوائل برسالة بينت فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى نتائج العلوم الفلسفية . وكانت هذه الرسالة المتممة لعدد أقوالى فى هذه العلوم بالقول السبعين ، وذلك سوى رسائل ومصنفات عدة حصلت فى أيدى جماعة من الناس بالبصرة والأهواز وضاعت دساتيرها ، وقطع الشغل بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نسخها ، وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء . فقد سبق مثله لجالينوس حتى ذكر فى بعض كتبه ، فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة دفعت دساتيرها إلى جماعة من إخوانى ، وقطعنى الشغل والسفر عن نسخها حتى خرجت إلى الناس من جهتهم " (٨٣).

ولما كان ابن الهيثم مهتماً بعلم الطبيعة والبصريات ، فقد دفعه ذلك إلى دراسة العين دراسة تشريحية علمية ، ووضع الأسماء لأربعة أجزاء منها هى (القرنية والقزحية والسائل الزجاجى والسائل المائى) ، وعلل الرؤية بورود الصورة إلى كل عين على حدة ثم التحامهما فى المركز البصرى فى موضع متماثل تماماً حيث تنطبق الصورتان على بعضهما وتظهران فى شكل صورة واحدة (٨٤).

أما أشهر الأطباء المشارقة الذين حضروا إلى مصر فى هذا العصر وترك بها آثاراً علمية واضحة فهو الطبيب البغدادى أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان النصرانى ، المعاصر لرئيس أطباء مصر أبو الحسن على بن رضوان ، وقد دارت بينهما "المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ، ويسفه رأيه فيه " (٨٥).

وكان ابن بطلان قد سمع أثناء رحلته من بغداد إلى مصر عن الطبيب المصرى على بن رضوان ، فقرر الالتقاء به ، والتعرف عليه ، " فتمت بينهما صداقة سرعان ما تحولت إلى مناظرة ومشاجرة زادت نيرانها المغالبة فى المجادلات فافترقا " (٨٦).

دخل ابن بطلان مدينة الفسطاط فى مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٤١هـ / أول ديسمبر ١٠٤٩م وأقام بها ثلاث سنوات ، وذلك فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى(٨٧) على حد قول ابن أبى أصيبعة ، الذى عاد ليقول : " ونقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان أن الغلاء عرض بمصر سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، قال : ونقص النيل في السنة التى تليها ، وتزايد الغلاء وتبعه وباء عظيم ، واشتد وعظم فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة .. " (٨٨). ويتضح من

هذه الرواية أن ابن بطلان أقام بمصر أكثر من ست سنوات : وقد اختلفت المصادر أيضًا فى تحديد تاريخ وفاة ابن بطلان ، فقد ذكر كل من القفطى وابن العبرى أنه توفى سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م (٨٩)، بينما يذكر ابن أبى أصيبعة أن ابن بطلان انتهى من تأليف إحدى مقالاته فى إنطاكية سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م (٩٠). أى أنه توفى بعد هذا التاريخ : وهو ما يتفق مع الرأى القائل إنه عاش بعد سنة ٤٤٤هـ أكثر من عشر سنوات (٩١).

أما عن آثاره العلمية فى مجال الطب ، فهى عديدة ومتنوعة ، وتدل على أنه عالم بالمنطق والحكمة والطب ومنها : " كناش الأديرة والرهبان " ذكر فيه الأمراض العارضة لرهبان الأديرة، وكتاب " تقويم الصحة فى قوى الأغذية ودفع مضارها " ، ومقالة إلى على بن رضوان كتبها عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١هـ جوابًا عما كتبه إليه ، ونقلها كل من القفطى وابن العبري ، وقام بنشرها يوسف شاخت وماكس مايرهوف ، ضمن خمس رسائل لابن بطلان ، مطبوعات كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٧م (٩٢)، ومقالة فى " علة الأطباء المهرة تبيير أكثر الأمراض التى كانت تعالج قديمًا بالأدوية الحارة إلى التبيير المبرد ، كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، ومخالفتهم فى ذلك لسطور القدماء فى الكنانيش والأقربازينات وتدرجهم فى ذلك بالعراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧هـ إلى سنة ٤٥٥هـ " صنفها بإنطاكية ، ومقالة فى " الاعتراض على من قال إن الفرخ أحر من الفروج بطريق منطقية " ألفها بالقاهرة سنة ٤٤١هـ . وقد نشر أيضًا ضمن مجموع (خمس رسائل) ، وكتاب " دعوة الأطباء " ألفه على غرار (كليلة ودمنة) وأهداه للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر المتوفى سنة ٤٥٢هـ ، وقد نشر هذا الكتاب الدكتور بشارة زلزل بالمطبعة الخديوية بالإسكندرية سنة ١٩٠١م عن نسخة بمكتبته وقد تصرف فيها بعض التصرف بحذف " عبارات لا يألفها ذوق الأدباء من أبناء هذا العصر " كما ذكر فى مقدمته ؛ كما نشر فى بيروت وترجم للفرنسية ، وهو كتاب هام فى تاريخ الطب والصيدلة (٩٣). قال عنه ابن أبى أصيبعة : " ونقلت من خط ابن بطلان، وهو يقول فى آخرها : فرغت من نسخها أنا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية فى أواخر أيلول سنة ١٣٦٥م ، هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامى من سنة ٤٥٠هـ " ، ومن مؤلفاته أيضًا كتاب " وقعة الأطباء " ، وكتاب " دعوة القسوس " ، ومقالة فى " مداواة صبى عرضت له حصاة " (٩٤).

ومن بين الأطباء المسيحيين الذين زاروا مصر ، وأقاموا بها ذكر أبو الصلت طبيباً من أهل إنطاكية ، أدركه عند دخوله مصر سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م يسمى جرجس ، ويلقب بالفيلسوف ، جاء إلى مصر ، ومارس مهنة الطب بها ، وكانت بينه وبين ابن رحمون اليهودى خصومة ، فعمل على النيل منه والحط من قدره ، وهجاه شعراً بقوله :

إن أبا الخير على جهله ... يخف فى كفيه الفاضل

عليله المسكين من شؤمه ... فى بحر هُلك ماله ساحل

ثلاثة تدخل فى دفعه ... طلعته والنعش والغاسل (٩٥)

ومن أشهر الأطباء المسلمين الذين زاروا مصر ، ودخلوا فى خدمة خلفائها الفاطميين ، الشيخ موفق الدين أبو نصر عدنان بن منصور المعروف بابن العين زربى ، من أهل مدينة عين زربة ، مروراً ببغداد التى شهدت نبوغه فى صناعة الطب والعلوم الحكمية ، واشتهر على وجه الخصوص بعلم التنجيم ، وفى مصر حظى برعاية الخلفاء الفاطميين ، وتميز في دولتهم ، فصار من أجل المشايخ ، وأكثرهم علماً فى صناعة الطب والمنطق وغير ذلك من العلوم ؛ وتتلمذ على يديه العديد من الطلاب ، الذين تميزا جميعاً وبرعوا فى صناعة الطب (٩٦).

ومن المرجح أن دخول ابن العين زَرْبى مصر كان فى خلافة الآمر ، ولكنه استمر بعده وحظى برعاية الخليفة الظافر إلى أن توفى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أى قبل وفاة الخليفة الظافر بيوم واحد (٩٧).

أما عن تراثه العلمى فقد امتاز بكثرته وتنوعه ، حيث صنف بمصر كتباً عديدة فى مجال الطب (٩٨). ومنها كتاب " الكافى فى الطب " بدأ فى تأليفه بمصر سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م ، وأتمه فى ذى القعدة سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م . ومنها أيضاً : " شرح كتاب الصناعة الصغير لجالينوس " و " مجربات فى الطب " ألفه علي جهة الكناش ، وقام بجمعه وترتيبه ظافر بن تميم بعد وفاة ابن العين زَرْبى ، وله أيضاً " رسالة فى تعذر وجود الطبيب الفاضل ونفاق الجاهل " ومقالة فى " الحصى وعلاجه " (٩٩). وهناك مقالة أخرى عثر عليها الدكتور سامى حمارنه فى المكتبة الظهرية بدمشق سنة ١٩٦٤م بعنوان " مرض الشقة " وهى تدل على أن ابن العين زربى كان خبيراً بالأمراض الجلدية وعلاجها (١٠٠).

ومن الأطباء الذين جاءوا إلى مصر من بلاد الشام ، الطبيب العربى المهذب بن النقاش البغدادى المولد ، " وكان فاضلاً فى صناعة الطب " وجاءت زيارته إلى مصر بهدف الحصول

على المال ، بعد أن أقام مدة فى دمشق ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته ، وقد سمع عن كرم الخلفاء الفاطميين وإنعامهم وإحسانهم إلى من يقصدهم من أرباب العلم والفضل ، وما أن وصل إلى مصر حتى التقى الشيخ أبو منصور عبد الله بن الشيخ السديد رئيس أطباء مصر ، فتلقاه بما يليق بشخص مثله وأكرمه غاية الإكرام ، وقرر له راتبًا شهريًا خمسة عشر ديناراً مصريًا ، وخصص له قاعة قريبة منه لسكناه ، وأعطاه جارية حسناء وخلعة فاخرة ألبسه إياها ، كما أعطاه بغلة من أجود دوابه بالإضافة إلى جميع ما يحتاج إليه من الكتب وغيرها . فأقام بالقاهرة على هذا الحال ، إلى أن رجع إلى الشام ، واستقر بدمشق إلى حين وفاته(١٠١).

ب – من المغرب والأندلس :

تزايد عدد الأطباء الوافدين إلى مصر من المغاربة والأندلسيين ، مع دخول الفاطميين مصر وتأسيس دولتهم بها ، ومن الأسباب التى دفعت هؤلاء الأطباء للحضور إلى مصر ، إضافة إلي ذات الأسباب التى أدت إلى حضور الأطباء المشارقة ، إما طلبًا للعلم أو المال أو الجاه ، أو رغبة فى أداء فريضة الحج ، حيث يمكثون بمصر أثناء مرورهم بها : كما كان منهم من صحب الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عند قدومه إلى مصر ، فتذكر المصادر أنه اصطحب معه عدداً من أطباء الخاص الذين كانوا يعملون فى بلاطه بالمغرب ، وأنهم صاروا محوراً لنشاط علمى مع الأطباء المصريين الموجودين آنذاك ، أو النازحين إليها من بلاد الشام (١٠٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً من هؤلاء الأطباء استوطنوا مصر ، بعد أن طالت إقامتهم بها ، حتي صار الواحد منهم يعرف بالمصرى ، ومنهم أعين بن أعين المصرى (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٥م) الذى خدم الخليفة المعز فى القيروان وانتقل معه إلى مصر ، وتخصص فى طب العيون (الكحالة) (١٠٣). كذلك أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبى (ت ٤٩٦هـ / ٢-١١٠٣م) الذى استغل وجوده فى مصر لتعلم الطب ، وقد طالت إقامته بها حتي صار يعرف بالمصرى ؛ وتحقق له ما أراد ، وعند عودته للأندلس اشتهر وشاع ذكره عند ملوك الطوائف(١٠٤).

أما أشهر الأطباء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الشرق ومروا بمصر وأقاموا بها فترة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زُهر الأيادى الإشبيلى (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) ، دخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمنًا طويلاً ، ثم انتقل إلى بغداد وتولى رئاسة الطب بها ،

ثم بمصر ، ثم بالقيروان ، ثم عاد إلى الأندلس واستوطن مدينة دانية ، فاشتهر فى أقطار المغرب والأندلس بالتقدم فى علم الطب حتى بز أهل زمانه ، إلى أن توفى فى إشبيلية (١٠٥).

وخلف أبا مروان أبناء وأحفاد نبغوا فى مجال الطب ، حتى أن أسرة " بنى زهر " تربعت على عرش الطب فى الأندلس ، ويهمنا من هذه الأسرة الابن أبى العلاء زُهر بن عبد الملك بن زهر (ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م) الذى أخذ الطب عن أبيه ، وكان دقيقًا فى تشخيص الأمراض ، ومن أهم مؤلفاته كتاب " الإيضاح بشواهد الافتضاح فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق فى كتاب المدخل إلى الطب " ، وقد ذكر ابن أبى أصيبعة أن أحد شيوخه يدعى أبو العيناء المصرى (١٠٦)، ومن الواضح أن التواصل العلمى فى مجال الطب بين علماء مصر والمغرب والأندلس كان فى نشاط دائم .

ومن مشاهير الأطباء الأندلسيين الذين جاءوا إلى مصر الطبيب يوسف بن أحمد بن حسداى اليهودى (ت بعد ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) وهو أحد الفضلاء فى صناعة الطب ، كانت له عناية بالغة بالاطلاع على كتب أبقراط وجالينوس ، جاء إلى مصر قادمًا من الأندلس سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بدعوة من الخليفة الآمر بأحكام الله ، واعتنق الإسلام ، وأقام فى مصر تحوطه مظاهر التكريم ، حيث قرر له الآمر راتب جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم ، وخصصت له دار بالقاهرة للإقامة فيها ، وكتب له منشور أورده المقريزى ، يتضمن مظاهر عديدة للحفاوة والتكريم لهذا الطبيب ، أهمها اعتماده رئيسًا للأطباء فى مصر ، كما رسم له السياسة العامة للنهوض بصناعة الطب فى مصر ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٥١٦هـ / يناير ١١٢٣م (١٠٧).

وتعددت نشاطات ابن حسداى فى مصر ، فكان يلتقى بطلاب علم الطب ، ويقوم بالتدريس لهم ، كما كان يلتقى بأطباء القاهرة والفسطاط ، ولعل ذلك كان بغرض المناظرات العلمية ، وخصص يومين من كل أسبوع للتأليف العلمى ، واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه . وكانت هذه المؤلفات توضع فى خزائن الكتب بالقصر ودار العلم ، على شكل مراجع علمية (١٠٨).

وقد قام ابن حسداى بشرح بعض كتب أبقراط ، ومن مؤلفاته : " الشرح المأمونى لكتاب الإيمان لأبقراط المعروف بعهدة الأطباء " صنفه للمأمون أبى عبد الله محمد الآمرى ، " وقد أجاد فى شرحه لهذا الكتاب ، واستقصى ذكر معانيه وتبيينها على أتم ما يكون ، وأحسنه". وله أيضًا " شرح المقالة الأولى من كتاب الفصول لأبقراط " . وتعاليق وجدت بخطه كتبها عند

قدومه إلى الإسكندرية من الأندلس ، وفوائد مستخرجة ، واستخرجها وهذبها من شرح علي بن رضوان لكتاب جالينوس إلى اغلوقن ، من القول على أول الصناعة الصغيرة لجالينوس(١٠٩).

واستمرارًا لتوافد الأطباء الأندلسيين على مصر ، جاء في سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م الطبيب أبو الصلت أمية بن أبى الصلت الدانى ثم الإشبيلى (ت ٥٢٨هـ / ١١٣٤م) فى أيام الخليفة المستنصر بالله ، ووزارة الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى : طلبًا لبسطة العيش وثراء من المال(١١٠) من جهة ، ورغبة فى الاطلاع على تراث الأقدمين من علماء الطب ، كما عبر عن ذلك بقوله : " كنت فى أول جلوسى بها شديد العناية بكتب جالينوس وأبقراط ، باحثًا عن مشكلها ، فاحصًا عن مستغلقها ، فحرصت كل الحرص ، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من استفيد منه وأستزيد بمذكراته ، وأقدح خاطرى بمفاوضته " (١١١).

على أن ابن أبى أصيبعة(١١٢) يذكر أن دخوله مصر كان فى سنة ٥١٠هـ / ١١١٧م ، ثم عاد ليذكر أنه ألف " الرسالة المصرية " التى ذكر فيها ما رآه بمصر من هيئتها وآثارها ، ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء ، وغيرهم من أهل الأدب ، للأمير أبى طاهر بن باديس المتوفى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م وهذا ما جعل البعض يرى أنه زار مصر مرتين(١١٣). غير أن هناك ما يبعث على الشك فى هذه الرواية حيث ذكر ابن أبى الصلت(١١٤) أنه التقى فى مصر بالطبيب جرجس الأنطاكى ، وقد ذكر ابن العبرى(١١٥) أن هذا اللقاء تم سنة ٥١٠هـ مما يؤكد أن الرسالة كتبت بعد وفاة الأمير ابن باديس . أى فى زيارته الثانية لمصر التى بدأت سنة ٥١٠هـ ولم تكتب لابن باديس .

تعرض ابن أبى الصلت فى رحلته الثانية لحادثة عجيبة : فقد طلب منه الوزير الأفضل أن يعمل الحيلة فى رفع مركب غارق فى بحر الإسكندرية ، وسخر له كافة الإمكانات اللازمة ، فعمل كل حيلته ، واجتهد قدر طاقته ، غير أنه لم يوفق وهبط المركب ثانية إلى قاع البحر ، بعد أن كبد خزانة الدولة نفقات باهظة ، مما دفع الأفضل إلى سجنه (١١٦).

أما عن حياته العلمية فى مصر ، فقد عمد ابن أبى الصلت إلى لقاء الأطباء والعلماء والأدباء بها ، فغلبت عليه روح النقد خاصة للأطباء المصريين ، ولعل ما دفعه إلى ذلك إحساسه بالتفوق فى هذا المجال ، فجاء نقده لاذعًا لمن وجده من الأطباء وصار يردد فيهم مقوله القائل:

مــا خطر النبض على باله　　يومًـا ، ولا يعـرف مـا الماء

بـل ظـن أن الطـب دُرّاعة　　ولحـية كالقطن بيضـاء(١١٧)

غير أن ذلك لم يمنعه من إبداء إعجابه ، بطريقة العلاج التى كانت متبعة فى المارستان لعلاج المرضى وخاصة الحالات النفسية ، حيث كان يستدعي رجل ، فيدخل على المريض ، يحكي له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية ، ويعرض عليه صوراً لوجه مضحكة ، فينشرح صدر المريض وتعود إليه قوته ؛ فقد رأى ابن أبى الصلت فى ذلك تنشيط للنفس وتقوية للقوى الطبيعية والبدن على دفع الأخلاط المؤذية ؛ وتمنى أن تتبع هذه الوسيلة فى علاج الأمراض العضوية مع الاستظهار بحفظ الأصول (١١٨).

وقد صنف ابن أبى الصلت العديد من المؤلفات الطبية إلى جانب مؤلفاته فى مجالات أخرى، ومن أهم مؤلفاته الطبية ، كتاب " الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية " وهو مختصر رتبه أحسن ترتيب ، وكتاب " الانتصار لحنين بن اسحق على ابن رضوان فى تتبعه لمسائل حنين " (١١٩).

سياسة الخلفاء الفاطميين نحو الأطباء :

لاشك أن وجود هذا العدد الكبير من الأطباء المصريين وغير المصريين فى العصر الفاطمى، يبرهن على أنهم وجدوا فى مصر راحة للإبداع فى مجال تخصصاتهم ، فمنهم من تتلمذ على أيدى علمائها وكبار أطبائها ، ومنهم من وجد فى خزائن كتبها فرصة للاطلاع على الأصول التى صنفها الأوائل من قدماء المصريين والإغريق وغيرهم ، ومنهم من مارس صناعة الطب للارتزاق وكسب المال أو بحثًا عن الرياسة والجاه بين أطباء عصره ، ولاشك أن ذلك كله تم فى ظل خلفاء حرصوا كل الحرص على الاهتمام بالطب والأطباء ؛ ولعل ما يدعم هذا الرأى أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى كان شديد الاهتمام بأن يكون فى قصره فريق من الأطباء ، عرف باسم " أطباء الخاص " وذلك منذ أن كان مقيماً بالمغرب ، وقد اصطحب معه عدداً من هؤلاء الأطباء عند تحوله إلى مصر – كما تقدم – وقد صار خلفاؤه على هذا النهج ، وحافظوا على أطباء الخاص فى بلاطهم ، فكان هناك طبيب يعرف بطبيب الخاص ، يجلس على الدكة التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر ومعه أربعة أو ثلاثة أطباء أقل منه مرتبة لمعالجة المرضى من أقارب الخليفة وخواصه ، ويكتبون لهم تنكرة بما يلزمهم من أدوية الصيدلية الملحقة بقصر الخلافة (١٢٠).

وكان لهؤلاء الأطباء المنزلة السامية ، والمكانة المرموقة فى قصور الخلفاء ، وفى قصور وزرائهم والمسؤلين على السلطة ، ويلقون من مظاهر الاحترام والتكريم قدراً كبيراً ، بجانب ما كانوا يتقاضونه من مرتبات عالية مجزية ، فضلاً عن الهبات والصلات المتوافرة ، والدور الفخمة (١٢١).

ولم تختلف معاملة الأطباء الذميين عن نظرائهم المسلمين ، بل إن الفاطميين الذين اشتهروا بحسن معاملتهم لأهل الذمة والتسامح معهم ، اعتنوا عناية فائقة بالأطباء من أهل الذمة ، حتى أن أطباءهم من اليهود كانوا أكثر من أطبائهم المسلمين والأقباط ، وذلك منذ عهد الخليفة الأول فى مصر المعز لدين الله ، الذى حرص على الاهتمام بطبيبه اليهودى موسى بن إلعازار وأبنائه ، فلما توفى اسحق بن موسى سنة ٣٦٣هـ حزن عليه المعز حزنًا شديداً ، وذلك لما كان يتمتع به من منزلة ومكانة عنده ، بالإضافة إلى كفاءته فى تخصصه ، ثم جعل أخاه إسماعيل بن موسى فى موضعه رئيساً لأطباء الخاص (١٢٢).

وقد احتفظت المصادر العربية بالعديد من الأمثلة ، التى تدل اهتمام سائر الخلفاء الفاطميين بالأطباء ، وإكرامهم وتقديرهم المادى والمعنوى ، حتى أن الخليفة العزيز بالله ، كان يبالغ كثيراً فى حسن معاملة أطباء الخاص ، ومنهم الطبيب منصور بن مقشر ، أحد الأطباء الذميين ، وقد أصابه مرض وأراد العزيز أن يقوم بزيارته ، إلا أنه تأخر عنه ، ولما تماثل للشفاء ، كتب له العزيز رسالة شهيرة سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ، جاء نصها كالتالى : " بسم الله الرحمن الرحيم . طبيبنا سلمه الله . وأتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة فى جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدواً ولا حاسداً ، ورد كيد من يريد الكيد فى نحره ، وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك ، أقالك الله العثرة ، ورجوعك إلى أفضل ما عودتك من صحة الجسم وطيبة النفس ، وخفض العيش بحوله وقوته ، والسلام عليك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليماً " (١٢٣).

وإذا كانت هذه الرسالة تدل على ما كان يتمتع به بن مقشر من مكانة لدى الخليفة العزيز إلا أن ما قام به هذا الخليفة مع الأطباء الآخرين يؤكد أن هذه سياسة عامة اتخذها مع سائر الأطباء ، ومنهم الحسن بن سهلان بن عثمان بن كيسان ، الذى " ارتفع جاهه فى أيام العزيز، ولم يزل مرتفع الذكر ، محروس الجانب مقتنياً للمال الجزيل إلى أن توفي سنة ٣٨٠هـ " ؛ ولم يتعرض الخليفة العزيز لتركته بعد وفاته ، ولم يترك أحداً " يمد يده إليها على كثرتها"(١٢٤).

واستمراراً لهذه السياسة كان الخليفة الحاكم بأمر الله يحسن إلى أطباء الخاص ويجزل لهم العطاء ، فبعد وفاة الخليفة العزيز دخل ابن مقشر فى خدمة الخليفة الحاكم ، فزصبح طبيبه والحظى عنده ، وقد أعقب منصور بن مقشر ولدا عرف أيضًا بابن مقشر الطبيب ، وصار مثل أبيه من أطباء الخاص ، بعد أن دخل فى خدمة الخليفة الحاكم ، وأصبح " مكينًا فى الدولة حظيًا عند الحاكم ... وبلغ معه أعلى المنازل وأسناها وكان له منه الصلات الكثيرة والعطايا العظيمة " ، ولما مرض عاده الحاكم بنفسه ، وعند وفاته أطلق لأهله وأبنائه مالاً وافراً (١٢٥).

ومن الأطباء الذين حظوا برعاية الخليفة الحاكم الطبيب أبو يعقوب اسحق بن إبراهيم بن نسطاس النصراني فقد خلع عليه سنة ٣٩٤هـ ، وحمله علي بغلتين ، وأعطاه ثيابًا كثيرة وخصص له داراً بالقاهرة ، فرشت بأحسن الأثاث ؛ حتى أثرى وترك زيادة على عشرين ألف دينارًا عينًا ، سوى الثياب وغيرها (١٢٦).

وقد كان بن نسطاس يتمتع بعلاقة حسنة مع كبار رجال الدولة ، فكان يحضر مجالسهم ، ويزورهم فى قصورهم ، ويأكل على موائدهم ، وينادمهم ، وعند وفاته حزن عليه الخليفة الحاكم حزنًا شديداً ، وشق عليه خبر وفاته (١٢٧).

ولم تكن هذه السياسة من قبل الخليفة الحاكم مقتصرة على الأطباء الذميين ، فقد كانت سياسة عامة شملت جميع .لأطباء بشتى طوائفهم ، فعمت الأطباء المسلمين أيضًا ومنهم الشيخ السديد الأب الذى عمل فى خدمة عدد من الخلفاء من بينهم الحاكم وآخرهم الآمر بأحكام الله ، وقد أصبح هذا الطبيب " مكينًا عنده رفيع المنزلة فى أيامه " (١٢٨)، أما على ابن رضوان فقد جعله الخليفة الحاكم رئيسًا على سائر الأطباء (١٢٩). ونتيجة لهذه السياسة الإيجابية من جانب الخليفة الحاكم تجاه الأطباء نجد أحدهم وهو الطبيب عمار بن على الموصلى يؤلف له كتابًا فى أمراض العين على نحو ما تقدم .

لقد كان الخلفاء الفاطميون جميعًا شغوفين بالأطباء ، يتتبعون أخبارهم وكلما نبغ طبيب وعلموا به ، أرسلوا فى طلبه واهتموا بأمره ، ولو كان من الوافدين على مصر مثل ابن العين زربى ، فعندما علم أحد الوزراء الفاطميين بما كان يتمتع به هذا الطبيب من العلم والفضل والتقدم فى صناعة الطب ، اشتاق إلى رؤيته والاجتماع به ، وبعد أن تم له ما أراد ؛ أعجب به واستحسن ما سمع ، وتحقق فضله ومنزلته فى العلم ، وأخبر الخليفة (لعله الآمر) بذلك ،

فأكرمه وأنعم عليه ، وأطلق له ما يليق بمثله ، واستمر عطاء الخلفاء له حتى وفاته سنة ٥٤٨هـ(١٣٠).

وعندما جاء أبو جعفر يوسف بن حسداى إلى مصر ، قادمًا من الأندلس ، احتفى به الخليفة الآمر حفاوة بالغة وأجزل له العطاء ، ثم كتب له منشورًا جاء نصه بعد البسملة : " ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره ، وأنفس ما وشحت الدول بجميل أثره ، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها ، وإظهار المعارف وإيضاح سرها ، لاسيما صناعة الطب التى هى غاية الجدوى والنفع ، وورد الخبر بأنها قرينة إلى الشرع لقوله صلى الله عليه وسلم : " العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان " خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو همته من إنماء العلوم وإشهارها ، واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها ، ليبقى جمال ذلك شاهدًا لها على مر الأيام ، متسقًا بما أفشاه لها من المآثر الجمة ، والمفاخر الجسام ، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسدية ، أيده الله ، لصرف رعياته إلى شرح كتب أبقراط التى هى كتب الطب وأوفاها وأكثرها إغماضًا وأبقاها ، وإلى التصنيف فى غير ذلك من أنحاء العلوم ، مما يكون منسوبًا إلى الأوامر العالية ، ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له وحمل ما يكمل أولاً إلى خزائن الكتب ، وإقراء جميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة ، وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانيه ، فمن كملت عنده صناعته فليُجره على رسمه ، ومن كان مقصرًا فليستنهضه . واعتمدنا عليه فى ذلك لكونه مميزًا فى البراعة فى العلوم متصرفًا فى فنونها ، متقدمًا فى بسطها وإظهار مكنونها ، ولأنه يبلغ الغرض المقصود فى شرح هذه الكتب ويوفى عليه ، ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه ، وفى جميع ما شرع له . فليشرع فى ذلك مستعينًا بالله ، منفسح الأمل بإنهاضها له ، وجميل رأينا فيه ، بعد ثبوته فى الدواوين إن شاء الله تعالى . وكتب فى ذى القعدة سنة عشرة وخمسمائة " (١٣١).

وإذا كان هذا المنشور يتضمن تفويضًا من الخليفة الآمر لابن حسداى ، بشرح كتب أبقراط ، والتأليف فى مجال الطب ، بل والقيام بتدريسه لمن يرغبون فى العمل بصناعة الطب ، إلا أنه ينطوى على تقدير عظيم لشخص هذا الطبيب ، الذى أحل على مصر ضيفًا غير عادى، يستحق المبالغة فى الحفاوة به ، وكل التقدير من الخليفة الفاطمى نفسه .

وهناك أطباء نالوا تقدير كل من عاصرهم من الخلفاء ، مثل الشيخ السديد الابن الذى خدم خمسة خلفاء بدءًا من الخليفة الآمر الذى أنعم عليه بأنعام كثيرة وخلع فاخرة وجعل له راتبًا

يقوم بكفايته على أفضل الأحوال ، وتوالت عليه الهبات بعد ذلك حتى أنه حصل فى يوم واحد على ثلاثين ألف ديناراً ، لقاء قيامه بعلاج أحد الخلفاء ، كما حصل على نحو خمسين ألف ديناراً وأكثر بالإضافة إلى أوانى الذهب والفضة التى وهبها له الخليفة الحافظ لدين الله نظير قيامه بطهارة ولديه ؛ واستمر فى خدمة الخلفاء الفاطميين ونال فى أيامهم الكثير من العطايا السنية والمنن الوافرة ، " فنال من جهتهم من الأموال الوافرة والنعم الجسيمة ما لم ينله غيره من سائر الأطباء الذين كانوا فى زمانه ، وكانت له عندهم المنزلة العليا والجاه الذى لا مزيد عليه " (١٣٢).

وهكذا ، فإنه فى ظل هذه السياسة الرامية إلى احترام العلم والعلماء ، وجد الأطباء المصريون وغير المصريون ، مسلمون وذميون فى مصر الحرية المطلقة لمزاولة نشاطهم العلمى والعملى ، وسط مظاهر الحفاوة والتقدير ، فقد كان الخلفاء يجلونهم غاية الإجلال ويجزلون لهم العطاء ، وينفقون على ما يقومون به من نقل وتأليف وشرح لكتب الأوائل بسخاء ، مما دفع العديد من الأطباء المشارقة والمغاربة والأندلسيين ، إلى المجيء إلى مصر والمساهمة فى هذه الحركة الطبية النشطة ، فجعلوا من مصر مركزاً لدراسة الطب وممارسته طوال العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) .

المناظرات العلمية بين الأطباء :

كان من الطبيعى ، فى ظل هذا العدد الكبير من الأطباء المصريين والوافدين من المشرق والمغرب ، أن تحدث بينهم لقاءات ومناظرات علمية قد تصل فى بعض الأحيان إلى حد الخصومة ، خاصة وأنهم كانوا يتنافسون لإظهار مواهبهم فى صناعة الطب ، وتفوقهم فى علومه ، وذلك من أجل الوصول إلى الرئاسة والجاه ، وإثبات تفوقهم لدى الخلفاء الفاطميين حتى ينالوا جواز المرور إلى خدمتهم ، ويحظون بعطفهم ورعايتهم وينهلون من فيض كرمهم وعطائهم ، وذلك منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر ، فنجد طبيباً مثل محمد التميمى الذى توافق مقامه فى مصر مع دخول الفاطميين ، يلتقى بالأطباء المصريين ويناظرهم ويختلط بأطباء الخاص القادمين من المغرب ويبادلهم الحوار (١٣٣).

كذلك كان الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك يحب الاجتماع بأهل مصر وعلمائها والتباحث معهم ، والاقتباس منهم ، سواء كان ذلك فى العلوم الرياضية أو الحكمية أو فى علوم الطب ، الذى اشتهر بصناعته ، وتتلمذ على أكبر أطباء مصر ورئيسهم أبى الحسن

علی بن رضوان (١٣٤). ثم قام هو بالتدريس ، فقرأ عليه فضلاء زمانه ، الذين نبغوا فيما أخذوه عنه وأجادوا فيه (١٣٥)، واشتهر منهم الطبيب اليهودى أبو الخير سلامة بن رحمون الذى التقى به ، وتتلمذ عليه وخاصة فى علم المنطق الذى تميز فيه المبشر بن فاتك (١٣٦).

على أن أهم لقاء حدث فى هذا العصر كان بين رئيس أطباء مصر أبو الحسن على بن رضوان ، والطبيب البغدادى أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن بُطلان ، وهما من أساطين الطب العربى ، ويعدان من الظواهر الهامة فى تاريخ الطب ، وقد بلغت المناظرات بينهما حد الخصومة ، بعد أن دخلت فى نطاق المهاترات الشخصية التى اتضحت من خلال الرسائل والمساجلات المتبادلة بينهما ، ومن أهمها تلك الرسالة التى بعث بها ابن بُطلان إلى على بن رضوان ؛ وتضمنت مادار بين الرجلين من وقائع وحوادث ومحاورات : احتفظ بها القفطى(١٣٧) ونشرها يوسف شاخت وماكس مايرهوف ضمن خمس رسائل لابن بُطلان وابن رضوان وقد علق القفطى على هذه الرسالة قائلاً " ولما جرى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان ما جرى كتب ابن بطلان رسالة يقطعه فيها ويذكر معايبه ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم علوم الأوائل ... " (١٣٨).

وفى تقديرى أن هذا العداء الذى نشب بين الشيخين ، إنما يرجع إلى عدم قدرة ابن رضوان على إدارة الحوار مع ابن بطلان ، فقد عرف عنه ، أنه شديد البأس ، قوى الإرادة ، كثير الرد على معاصريه ، وعلى كثير ممن تقدمه . " وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته " (١٣٩). وقد ألمح ابن بطلان إلى ذلك فى رسالته ، إذ يقول : " ووجدت الشيخ فى فصل من المقالة قد حمى طبعه واحتد غضبه ، ونشف ريقه ، ودرت عروقه وصرح بسبى ، ولوح باسمى ، ولم يقص فى حق الصناعة ولا رعى فى حرمة الدراعة ، ونسبنى إلى الغباء ، وقطع بأننى لم أقرأ شيئًا من علوم القدماء ... " (١٤٠). ولعل هذا هو السبب الذى دفع ابن بطلان إلى النيل من شخص ابن رضوان الذى لم يكن جميل الصورة بل كان أسود اللون وقد ألف مقالة يرد بها على من عيره بقبح الخلقة ، بين فيها أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون وجهه جميلاً " . فانتهزها بن بطلان فرصة للنيل منه ، ولقبه " تمساح الجن " وقال فيه :

فلما تبدى للقوابل وجهه ... نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا ... ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم !(١٤١)

وقد دارت المساجلات والرسائل بينهما على هذا النحو ، تميز فيها ابن بطلان ، لا لأنه أكثر علمًا من ابن رضوان ولكن لأنه كان " أعذب ألفاظًا وأكثر ظرفًا وأميز في الأدب وما يتعلق به"(١٤٢) . غير أن هذه الرسائل ، وإن كانت تحتوي في مجملها على وقائع غريبة ونوادر ظريفة ومحاولات من كلا الشيخين للنيل من الآخر ، إلا أنها كشفت عن قمتين في صناعة الطب ، كان لهما الفضل في إثراء المكتبة الطبية بالمؤلفات القيمة ؛ ولو أن ابن رضوان أحسن استقبال ابن بطلان لكان لهما شأن آخر ، وإن اختلفا في الرأي ؛ وكان من مظاهر الخلاف أن ابن رضوان كان يرى أن تحصيل صناعة الطب من الكتب أوثق من المعلمين وذكر ذلك صراحة في مقدمة كتابه" النافع " بقوله : " ولما أردنا أن نتعلم هذه الصناعة التمسنا في مدينة مصر من رأينا أن المتعلمين يقصدونه في التعليم ... وغير المتعلمين يحمدونه ، فقصدناه وسألناه التعليم ، فأجابنا إلى ذلك ... ثم أمر أن نحفظ " مدخل حنين " وكنا نشاهد تدريسه المتعلمين قراءة ، لا يفسر مستغلقًا ، ولايزيد على أن يسمع قراءة من يقرأ حرفًا واحدًا ... لكن يصغي لقراءة المتعلم فقط ، فربما صحّف المتعلم أو زيف ، فلا يشعر هذا المعلم بذلك !! ثم رأينا المنظور إليه من أطباء هذه المدينة يجري أمرهم في تدريسهم هذا المجرى بعينه "(١٤٣) .

وكان رد ابن بطلان مخالفًا لما ذكره ابن رضوان ، مؤكدًا على ضرورة وجود معلم ، وقدم فصلاً في الأسباب التي تجعل المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف (١٤٤). وخصص الفصل الثاني من رسالته إلى ابن رضوان " في أن الذي علم المطالب من الكتب علمًا رديئًا شكوكه بحسب علمه يعسر حلها " (١٤٥).

ومن الخلافات التي جرت بينهما أيضًا ، ردود ابن رضوان على حنين بن اسحق الطبيب النصراني ، أبو زيد العبادي ، الذي اشتهر بالبصرة وتخصص في طب العيون ، وقام بترجمة العديد من كتب أبقراط وجالينوس في زمن الخليفة المتوكل على الله العباسي ؛ وقد رأى ابن بطلان في ردود ابن رضوان على آراء حنين نقدًا لاذعًا ، يتعارض مع مكانه حنين بن إسحق ، فتصدى له بقوله : إن " المؤيد حنين بن إسحق الذي منح الله البشر علوم القدماء على يده ، فالعقول في ضيافته إلى اليوم ، يمتارون من فضله ، ويعيشون في بره وبحسب هذا ، لم أؤثر للشيخ أن يدفع العيان ، ويخرق الإجماع ويكتب بما شهدت به الأذهان وصدق به البرهان من فضله ونور مطارح شعاعه ، ففي فعله هذا مخاز كثيرة ، منها نقض ميثاق أبقراط صاحب الصناعة الذي عهده إلى الأطباء ووصى فيه بإكرام العلماء ... " (١٤٦).

واستمراراً لهذا الخلاف الجدلي بين هذين الشيخين ، صنف ابن رضوان عدداً من الرسائل والمقالات للرد على ابن بُطلان ، وتفنيد آراءه ومنها : " مقالة في نقض مقالة ابن بُطلان في الفرخ والفروخ " و " مقالة فيما أورده ابن بُطلان من التحييرات " و " مقالة في أن ما جهله يقين وحكمة ، وما علمه ابن بُطلان غلط وسفسطة " و " مقالة في أن ابن بُطلان لا يعلم كلام نفسه فضلاً عن كلام غيره " و " رسالة إلى أطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بُطلان" وقول له في جملة الرد عليه و " مقالة في التنبيه على ما في كلام ابن بُطلان من الهذيان"(١٤٧) .

ويبدو أن ما دار بين هذين الطبيبين كان من أهم الظواهر في العصر الفاطمي ، فنالت اهتمام المؤرخين لهذا العصر ، القدامى منهم والمحدثين ، فسجلوا العديد من جوانب الخلاف والمناظرات التي دارت بينهما ، وشهد بعضهم بأن ابن رضوان كان أكثر علماً من ابن بطلان(١٤٨) ، وإنه " كان إماماً في الطب والحكمة ، كثير الرد على أرباب فنه ، وكان فيه سعة خلق عند بحثه ، وله مصنفات كثيرة " (١٤٩). بينما قلل البعض الآخر من شأن الطبيب المصري بالقول : إنه " قرأ شيئًا من الطب وشيئًا من المنطق ، وكان من المغلقين لا المحققين ... ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة"وأخذوا عنه ... وصنف كُتبًا لم تكن في غاية بابها ، بل هي مختلفة ملتقطة مبتكرة ، مستنبطة ... فأما تلاميذه فقد كانوا ينقلوا عنه من التعاليق الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه ... " (١٥٠).

ولم يتوقف على بن رضوان عند نقد معاصريه من الأطباء والحكماء ، بل انتقد جمع كبير من كبار الأطباء الذين سبقوه ، ومنهم أحمد بن إبراهيم الطبيب المغربي المعروف بابن الجزار (ت ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م) ، الذي ألف كتابًا عن أسباب انتشار الوباء في مصر ، هو " كتاب نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر ، وطريق الحيلة في دفع ذلك ، وعلاج ما يتخوف منه " وقد كان هذا الكتاب من الأسباب التي دفعت ابن رضوان إلى تأليف كتابه " دفع مضار الأبدان بأرض مصر " حيث قال في مقدمته : " وقد كان أحمد بن إبراهيم ، الطبيب المغربي المعروف بابن الجزار ، وضع في ذلك مقالة مفردة لم يستقص فيها ما يحتاج إليه من تلخيص القول واستيفاء الوصف ، في ذكر الأسباب البلدية ، وما يحدث عنها وما يُدفع به ضررها .. وخليق أن يكون عرض له النقصان من قبل أنه رجل من أهل المغرب ، لم يعاين مصر معاينة اختبار وامتحان ولكن سمع بها فقط ... بحسب ما تضمنه كلامه . وكتابنا هذا يزيد على

كتابه، بمقدار فضل قوتنا على قوته ، فى أنواع الفلسفة ، وبمقدار اختبار أرض مصر بالمشاهدة دون الخبر ، سنين كبيرة متوالية ... ومن أحب الإنصاف ، وآثر العدل ، فسيقف على صدق هذا القول ، إذا جمع بين الكتابين ، وتأملهما من غير ميل مع الهوى ... " (١٥١).

وهذا الاستهلال الذى بدأ به ابن رضوان كتابه يوضح موقفه المتشدد من الطبيب المغربى ، وإن التمس له العذر فى كونه من أهل المغرب ، لم يعاين أرض مصر ، ولم يدرس طبيعتها عن طريق المشاهدة والتجربة ، بل جاء حكمه نتيجة لسماعه بها ، مما يجعل هذا الحكم ناقصًا مغلوطًا ، وهذا الأمر يؤكد منهج ابن رضوان القائم على المشاهدة والمعاينة والتجربة ، منافيًا فى ذلك ما تقدم من قول القفطى : إنه كان من المغلقين ، لا المحققين ... " (١٥٢).

وقد خصص ابن رضوان الفصل الخامس من كتاب " دفع مضار الأبدان " لتفنيد آراء ابن الجزار حول أسباب وخم أرض مصر ، ومنها " أن العلة فى مرض النين وفدوا من المغرب إلى مصر هو كثرة اختلاف هواء مصر " ، وقد اتفق ابن رضوان معه فيما يتعلق بالمغاربة ، غير أنه نفى أن يعرض هذا لأهل مصر ، لأن أبدانهم ألفت ذلك ، ولأنهم لم ينهكهم السفر . ومن المسائل التى أخذها ابن رضوان على ابن الجزار قوله : " إن هواء أرض مصر ، فى أكثر أيام السنة ، مشاكل لهواء الخريف ، فى البرد واليبس ، والاختلاف " ، واعتبر ابن رضوان أن هذا خلاف ما عليه المحسوس فى السنة كلها ، فإن هواء مصر يرطب كثيرًا فى فصل الخريف ، فضلاً عن غيره .

ومن الأقوال التى أخذها عليه أيضًا قوله : " فأكثر أمراض أهل مصر خريفية " ، حيث أن هواء مصر كما يرى ابن رضوان ، ليس خريفيًا ، وإنما يتغير فى اليوم الواحد ، ليس إلى البرد والحر فقط ، وإلى اليبس ، وأكثر أوقاته رطب حتى أن الندى يوجد كثيرًا فى غدوات أيام الصيف ، أما قول ابن الجزار : " إن العلة فى الوباء بمصر ، هو الضباب الكائن فى الهواء " فهو أيضًا ليس صحيحًا ، حيث يرى ابن رضوان : " إن أكثر تولد هذا الضباب بأرض مصر عند صحة الأبدان فى آخر كهيك ثم طوبة وأشير ومن شأن الشتاء أن يكون كثير الرطوبة وإذا كان الفصل لازمًا لنظامه الطبيعى والبلد ، فليس يحدث مرضًا وكثرة الضباب فى الشتاء بأرض مصر ، مما يرطب الهواء عوضًا من ماء المطر" .

وقول ابن الجزار : " إن ماء النيل مضر بكل من سكن مصر ... ضررًا محسوسًا " أبعد ما يكون عن الحقيقة ، لأن النيل " هو السبب الأعظم فى سكنى هذه الأرض ، وأبدانهم قد ألفته،

فهواؤها غير مضر ، وإن كان بالحقيقة رديئًا " . ثم يختتم ابن رضوان ردوده على ابن الجزار بقوله : " وهذه الأشياء التى غلط فيها ابن الجزار ، هى التى اعتمد عليها فى كتابه ؛ ولو كان ما ذكره صادقًا ، لوجب ضرورة دوام الوباء بهذه الأرض ، لأن هذه الأشياء هى دائمة لا تنقطع ، فكانت هذه الأرض تخرب ويهلك جميع أهلها . فأقاويل ابن الجزار تخالف أقوال الأوائل ، ويلزمها هذا المحال ، وأيضًا فلسنا نجد ابن الجزار فى شىء من كتابه فرق بين الأمراض البلدية وبين الأمراض الوافدة ، ولكنه جعل جميعها شيئًا واحدًا . وهذا يضيع غرض كتابه . والذى أوقع ابن الجزار فى هذا الغلط ، إهماله فى أمر المشاكلة التى بين أبدان المصريين وبين هذه الأشياء (١٥٣).

ومن هذا النقاش يتضح رسوخ ابن رضوان فى علوم الطب ، وقدرته على فهم كتب الأوائل مثل أبقراط وجالينوس ، حيث اعتمد على أقوالهم فى ردوده ، ما يؤكد قدرته على ربط النصوص التى قرأها بالتجربة والمشاهدة ، مما أعطاه قدرة على فهم العلل والأسباب التى تؤدى إلى حدوث الظواهر المرضية ، والتفريق بينها من حيث النوع والكيف ، فهناك الأوبئة والطواعين ، التى تنتج عن ظواهر طبيعية وكونية ، وهناك أمراض بلدية ، لا تظهر إلا فى قطر واحد لما يعتريه من أحوال مناخية وجغرافية ، وهناك الأمراض الوافدة التى تأتى من خارج البلد أو المدينة ، وهذا يتضح من خلال مؤلفات ابن رضوان الطبية العديدة .

ولما كان ابن رضوان كثير الاطلاع على مؤلفات الأطباء المعاصرين له والسابقين ، فقد كثر نقده لهذه الكتب وما ورد فيها من آراء ، وذلك على الرغم من شهرتها وعلو شأن أصحابها فى مجال تخصصهم مثل حنين ابن اسحق وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، فألف عددًا من الكتب للرد عليهم ، وتفنيد آراءهم ، بطريقة علمية تعتمد على المنطق ، وذلك بما كان يتمتع به من روح منطقية علمية ، ومن هذه المؤلفات : " كتاب تتبع مسائل حنين " و " مقالة فى الرد على افرائيم وابن زرعة فى الاختلاف فى الملل " و " كتاب فى حل شكوك الرازى على كتب جالينوس" و " كتاب فى الرد على الرازى فى العلم الإلهى وإثبات الرسل " (١٥٤).

وإذا كانت روح النقد قد غلبت على ابن رضوان فى بعض مؤلفاته ، فإنه لم يسلم من نقد أطباء آخرين سواء كانوا معاصرين له أم مطلعين على مؤلفاته بعد وفاته . ومن أشهرهم الطبيب الأندلسى زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادى (ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م) الذى انبرى للرد على ابن رضوان ، فى كتاب بعنوان " الإيضاح بشواهد الافتضاح

فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحق فى كتاب المدخل إلى الطب " (١٥٥). وكذلك الطبيب أبو الصلت أمية بن أبى الصلت ، فى كتابه " الانتصار لحنين بن إسحق على ابن رضوان فى تتبعه لمسائل حنين " (١٥٦). ومن الواضح أنهم جميعًا وجدوا فى نقده لحنين بن إسحق فرصة للنيل منه .

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن ابن الصلت كان متحاملاً على جميع أطباء مصر وعلمائها، حيث يقول " فقد دثر منها كل علم وأمحى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبقى إلا رعاع وغثاء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رعانة ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، ... " كما قال " فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، وطمث أفهامهم ، وحال بين الحكمة وبينهم..." (١٥٧). ومن يطلع على مثل هذه الأقوال يدرك عدم موضوعية صاحبها فى نقد الآخرين ، ويعتبر ابن أبى الصلت محظوظًا لأنه لم يلتقى بطبيب مصر على ابن رضوان الذى عرف عنه القسوة فى الرد على منافسيه ، فسلم من نقده اللاذع . غير أنه التقى عددًا من الأطباء ومنهم ابن رحمون ، حيث انتقده بقوله : " وأشبه من رأيته منهم وأدخله فى عداد الأباء، رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة ابن رحمون ... لم يكن بذلك فى تحقيقه واستقصائه عن لطيف العلم ودقيقه ، بل كان يكثر كلامه فيضل ، ويسرع جوابه فيزل " . وكان ذلك بعد أن التقى به ودارت بينهما مناظرة علمية ، وطرح على ابن رحمون عدة مسائل ، فجاء جوابه غير مقنع له ، فوصفه بأنه " أبان عن تقصيره ، ونطق بعجزه ، وأعرب عن سوء تصوره وفهمه " وزاد فى هجائه بقوله : " وكان يزور فصولاً طبية وفلسفة يبرزها فى معارض ألفاظ القوم ، وهى محال لا معنى لها ، وفارغة لا فائدة منها ، ثم ينفذها إلى من يسأله عن معانيها ، يستوضحه أغراضها ، فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ ، بل باسترسال واستعجال ، وقلة اكتراث وسوء اهتبال ، فيؤخذ منه ما يُضحك منه ويشرح الضّد " (١٥٨).

ومما لاشك فيه أن العصر الفاطمى قد شهد نضوجًا فكريًا ، نمت فيه العلوم وأساليب الجدل المنطقى الذى صاحبه تطوراً فى صناعة الطب وعلومه ، ويرجع ذلك إلى وجود خلفاء أحبوا العلم والعلماء ، وفتحوا لهم أبواب قصورهم ، وخير دليل على ذلك ما حدث مع الطبيب الأندلسى ابن حسداى الذى لاقى ترحيبًا واهتمامًا كبيرًا - على نحو ما تقدم - بل إن الخليفة الحافظ طلب منه أن يلتقى بأطباء مصر لتبادل الآراء والأفكار ، فدارت بينه وبينهم العديد من المناظرات العلمية (١٥٩).

أماكن العلاج ودور الاستشفاء :

كان البيمارستان من أهم مراكز الطب في العصر الإسلامى ، فقد اشتمل على مدارس الطب والمستشفيات معًا ، حيث كان الطب يدرس فيها إلى جانب علاج المرضى (١٦٠).

وقد شهدت مصر فى عصر الولاة والدول المستقلة بناء عدد من البيمارستانات ، ففى عصر الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦٢م) بنى الفتح بن خاقان مارستانًا فى خطة المعافر عرف بها ، وأصبح يقال " مارستان المعافر " (١٦١)، ثم أنشأ أحمد بن طولون مارستانه الشهير سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م الذى عرف بالمارستان الأعلى أو البيمارستان العتيق بمصر (١٦٢). وفى ولاية أبو القاسم أنوجور بن محمد بن طغج الإخشيد ، بنى كافور الإخشيدى مارستانًا سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٩م عرف باسمه (١٦٣).

ومن الواضح أن كافور الإخشيدى كلف ببنائه محمد بن عبد الله الخازن (١٦٤). الذى قام بالعديد من الإنشاءات المعمارية ، وقد ذكر ابن دقماق أن الخازن بنى هذا المارستان ، وأوقف عليه الإخشيد أمير مصر جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت وغيرها ، وأن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار والبرانى والقدور النحاس والطشوت وغير ذلك ما يساوى ثلاثة آلاف دينار ، وقد عرف بالمارستان الأسفل تمييزًا له عن مارستان أحمد بن طولون (١٦٥). كما أن هذا المارستان قد استمر عامرًا زمنًا طويلاً ، فى الوقت الذى ضعف فيه شأن المارستان الطولونى " الأعلى " حيث نقل إلى المارستان الأسفل معظم المعدات والموجودات التى كانت بالمارستان الأعلى (١٦٦). ومن المرجح أن يكون المارستان الأسفل هو الذى عمل به الطبيب محمد بن عبدون الجبلي الذى وفد إلى مصر بعد سنة ٣٤٧هـ / ٩٦٠م ونزل فى مدينة الفسطاط ودبر مارستانها (١٦٧). كما زاره أبو الصلت أمية ابن أبى الصلت ، وأثنى عليه وعلى طريقة العلاج به وخاصة فيما يتعلق بالأمراض النفسية(١٦٨)، مما يؤكد أنه كان يوجد به قسم خاص بالأمراض العصبية والنفسية إلى جانب الأقسام الأخرى المتعلقة بالجراحة وغيرها .

ومن الواضح أن مصر قد اقتصرت على هذا البيمارستان فى العصر الفاطمى ولم يكن هناك اهتمام ببناء مارستانًا جديدًا ، وربما كان السبب فى ذلك أن الخلفاء جعلوا قصورهم مقرًا لأطباء الخاص ، بينما اقتصر البيمارستان على علاج العامة والفقراء ؛ فيذكر القلقشندى أن الأطباء كانوا يجلسون بقاعة الذهب بالقصر ، فيخرج الأستاذون ويستدعون من يجدونه منهم للدخول على المرضى من أقارب الخليفة وخواصه بالقصر (١٦٩). كما كان الأطباء

يجعلون من بيوتهم " عيادات " لاستقبال المرضى وعلاجهم ، فيذكر الشيخ السديد أنه كان فى صباه ، يجلس عند باب داره ، ويقوم بعمليات الفصد لجماعة من الناس فى كل نهار (١٧٠). كذلك جعل أبو البيان بن المدور من داره مقراً لعلاج مرضاه ، وتدريس الطب لتلاميذه (١٧١). ومع ذلك فإن الأمر لم يخل من قيام الأطباء بعيادة مرضاهم فى بيوتهم ، فقد ظل أبو البيان ابن المدور يعاود مرضاه حتى تقدم به السن وضعف عن الحركة فلازم بيته وكان لا يمض إلى أحد لمعالجته في تلك المدة إلا من يعز عليه جداً (١٧٢). كما كان أبو الفضل بن الناقد الذى اشتهر بالكحالة وطب العيون ، يركب ويدور على المرضى ، والذين يكحلهم (١٧٣).

اثر الطب الفاطمى فى الحضارة الأوروبية :

اتضح مما تقدم أن مصر شهدت نهضة طبية كبيرة ، شارك فيها كبار الأطباء المصريين والعرب ، وخاصة أولئك الذين وفدوا إليها من المشرق والمغرب والأندلس وساهموا بقسط وافر ، فى ظل خلفاء أيقنوا أهمية الطب وعلمائه ، فقدموا لهم العون والدعم ، وفتحوا لهم أبواب قصورهم ، وهيئوا أجواء مناسبة للمزيد من الإبداع ، مما أدى إلى ثراء فكرى وعلمى وعملى ، فترك أطباء ذلك العصر تراثاً ضخماً تمثل فى عدد كبير جداً من المخطوطات والمؤلفات الطبية يمكن أن يحصى بالمئات .

ولاشك أن هذه المؤلفات كان لها دورها فى التأثير فى مدارس الطب الغربى ، التى اعترف كثير من المستشرقين المنصفين بأنها مدينة إلى الحضارة العربية ، والطب العربى ، الذى بدأ يؤثر فى أوروبا منذ القرن العاشر الميلادى ، ثم اتضح أثره بعد القرن الثالث عشر ، " حيث أصبح الطب العربى قدوة انبثق منها شعاع الفكر الأوروبى فى الدراسات الطبية ، وأصبح المادة التى اعتمد عليها الأساتذة والطلاب فى كليات الطب بالجامعات التى بدأت آنذاك تظهر فى بادوا ، وبولونيا " (١٧٤). وكان من بين الأطباء العرب الذين لاقوا شهرة واسعة فى أوروبا ، الطبيبين العظيمين ابن سينا والرازى ، ومما يدل على تقدير أوروبا لهما أن كلية الطب بجامعة باريس لا تزال تحتفظ بصورتين كبيرتين لهما فى أعظم أبهائها (١٧٥).

أما الأطباء المصريين ، فقد كان لهم النصيب الوافر فى انتقال إنتاجهم الفكرى إلى أوروبا، بفضل بعض الأطباء الرحالة الذين زاروا مصر ونقلوا مؤلفات أطبائها إلى المدن الأوروبية التى رحلوا إليها ، بعد قيامهم بترجمتها ، وعلى رأسهم قسطنطين الإفريقى أحد الأطباء المسلمين التونسيين ، الذى تعلم فى بغداد ثم عاد إلى تونس ، غير أنه تنصر وهرب إلى إيطاليا ، ودخل

سلك الرهبنة ؛ وكان قد استغل معرفته للعربية واللاتينية واليونانية ، ونقل العديد من مؤلفات العرب الطبية إلى اللاتينية ، دون أن يذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين ، ناسبًا تأليفها لنفسه ؛ وعلى الرغم من ذلك فإن اليقظة الأوروبية بدأت بشرارة أرسلتها ترجماته فى حقل الطب ، وقد ظل أثر كتبه لفترة طويلة من الزمن فى أوروبا مما حدا بالكثيرين إلى تسميته برائد الطب العربى فى أوروبا (١٧٦). فقد نقل علم العرب فى الطب والمداواة ، فى سيل عرم ، إلى سالرنو، فغمرها وأخصب أرضها ، فكان الأوروبيون يحجون إليها ليتعلموا هذا التراث ، ويتلقون علاجهم بها أيضًا ، وسرعان ما انتقل هذا السيل العرم من طب العرب ، وامتد إلى جميع أنحاء أوروبا (١٧٧).

وكان قسطنطين الإفريقى قد التقى الطبيب ابن بطلان فى بغداد وحلب وإنطاكية ، وتعرف على أخبار الطبيب المصرى ابن رضوان ، ووصلت إليه مؤلفاته ، ونقلها إلى سالرنوا ، واتصل بشقيق أميرها الذى كان طبيبًا ، ودار بينهما حديثًا عن الطب والعقاقير الطبية ، فتطرق معه إلى معجزات الطب العربى وعقاقيره التى تشفى العليل فى لمح البصر وتعيد الشيخ إلى شبابه، ووعده بأن يجلب له من الشرق فى أسفاره القادمة كنوزًا من الطب العربى : ثم عاد إلى مصر، ودخل مدارس الطب بها وأمضى فيها سنوات ، رجع بعدها إلى سالرنو حاملاً معه رزمة من الكتب ، دأب على ترجمتها بمساعدة بعض الرهبان ، كان من بينها كتاب حنين بن إسحق فى علم أمراض العيون ، وكتاب " زاد المسافرين " لابن الجزار ، وبعض مؤلفات إسحق الإسرائيلى ، وغيرهم ؛ ولم يعد هناك طبيب فى السرنوا إلا واستقى علومه ومعارفه من مؤلفات العرب الطبية ، كما لم يكن هناك كتاب فى العلوم وخاصة الطب إلا اتضح فيه تأثير الفكر العربى (١٧٨).

ومن أهم معابر الطب المصرى فى العصر الفاطمى إلى أوروبا ، أولئك الأطباء الرحالة الذين زاروا مصر وتعرفوا على أطبائها ، ثم رحلوا إلى أوروبا ، وقد سبقت الإشارة إلى الطبيب جرجس الإنطاكى ، الذى حضر إلى مصر عقب وفاة ابن رضوان والتقى العديد من أطباء مصر المشهورين ومنهم الطبيب سلامة بن رحمون ، وإن كان قد هجاه بعد أن وقعت بينهما خصومة ، ثم عاد إلى إنطاكية حاملاً معه نخائر هذا العصر من المؤلفات الطبية ، خاصة وأنه دأب على تعلم الطب فى مصر واشتغل به أيضًا (١٧٩). ولا شك أن إنطاكية كانت إحدى معابر الحضارة العربية إلى أوروبا ، وخاصة فى زمن الحروب الصليبية .

على أن أهم هؤلاء الأطباء قاطبة الطبيب البغدادى الشهير ابن بطلان ، وقد سبقت الإشارة إلى انتقاله من مصر إلى القسطنطينية وإنطاكية ، ولا شك أنه أخذ معه إلى جانب مؤلفاته التى حررها بمصر ، بعض مؤلفات الأطباء المصريين وخاصة غريمه على بن رضوان ، وقد انتقلت هذه المؤلفات من القسطنطينية وإنطاكية إلى جميع أنحاء أوروبا ، حتى أن مؤلفات ابن بُطلان نفسه انتشرت فى مكتبات أوروبا ، نذكر منها: " كناش الأديرة والرهبان ... " الذى توجد منه نسخة بمكتبة الفاتيكان ؛ وكتاب " تقويم الصحة ، فى قوى الأغذية ودفع مضارها " الذى نشر فى عدة ترجمات ومنه نسخة ترجمت إلى اللاتينية فى استراسبورج سنة ١٩٣١م ، ونسخة ترجمت إلى الألمانية فى استراسبورج أيضًا سنة ١٩٣٢م ، ومنه نسخة بالمتحف البريطانى وأخرى بالفاتيكان (١٨٠). وقد اعتبرت زيغريد هونكه ، كتاب ابن بُطلان " تقويم الصحاح " أنفع كتب الطب قاطبة ، عن التأثيرات المفيدة أو المضرة للمناخ والتغذية والعوارض الخارجية ، والحركة والراحة والنوم واليقظة وعن الوسائط لمكافحة شرورها (١٨١).

ولما كانت مصر قبلة للأطباء المغاربة والأندلسيين ، فقد كان لهؤلاء الأطباء نشاطهم فى نقل علوم الطب المصرى إلى الأندلس ، ومن أشهرهم ابن زهر وابن أبى الصلت ، وغيرهم من الأطباء الذين سبق حصرهم فيما تقدم ، بالإضافة إلى الأطباء الذين وفدوا إلى مصر فى العصر الأيوبى واطلعوا على ما بها من ذخائر فى علوم الطب ، ومنهم من عادوا إلى بلادهم يصطحبون معهم نسخًا من أهم المخطوطات فى الطب المصرى ، ومن أشهر الأطباء الذين وفدوا إلى مصر زمن الأيوبيين الطبيب الشهير موسى بن ميمون (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م) ، ولما كانت الأندلس من أهم معابر الحضارة العربية إلى الغرب ، فلاشك أن هناك العديد من النماذج الطبية الأندلسية التى تأثرت بالطب المصرى فى العصر الفاطمى قد انتقلت إلى أوروبا من خلالها ؛ حتى أن معظم مؤلفات موسى بن ميمون ترجمت إلى عدة لغات ومنها " مقالة فى تدبير الصحة " التى ترجمت إلى العبرية واللاتينية فى مونبيلييه سنة ١٢٩٠م ، وكان معروفًا جداً فى الغرب حيث طبع قبل عام ١٤٨٤م بفلورنسا وفى البندقية عام ١٥١٤م و ١٥٢١م وفى ليون بفرنسا عام ١٥٣٥م ؛ ومقالة فى الربو ترجمت إلى العبرية واللاتينية أيضًا (١٨٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك عدد من الأطباء اليهود ، ساهموا فى نقل الطب العربى بوجه عام ، والطب المصرى على وجه الخصوص إلى أوروبا ، وذلك باعتبارهم وسطاء بين العالمين الإسلامى والمسيحى انطلاقًا من جنوب أوروبا ، وكذلك عن طريق الأندلس ، فكانوا من

المعلمين الأوائل في مونبيلييه وبولونيا ، ومنها وصلوا إلى فرانكفورت وفلاندر وموسكو وغيرها من المدن الأوروبية (١٨٣).

وقد عمل هؤلاء الأطباء على نقل مؤلفات أقرانهم المقيمين في العالم الإسلامى إلى أوروبا ، مما أدى إلى اشتهار عدد كبير من الأطباء المصريين ، ومنهم إسحق بن سليمان الإسرائيلى ، الذى تخصص فى طب العيون ، وانتقلت مؤلفاته إلى أوروبا بعد أن ترجمت إلى العبرية واللاتينية ، فزصبحت من أهم المصادر الطبية في أوروبا بأجمعها ، واستعملت كتبًا للدراسة في سالرنو وباريس ونقل عنها بعض أطباء أوروبا (١٨٤). وكان ألدو براند السينى " الطبيب التوسكاني لدى بياترس سافوى " من أوائل المترجمين من اللاتينية إلى الفرنسية ، وكتب رسالة طبية ، جاء للقسم الثالث منها على غرار كتاب الأدوية المفردة والأغذية لإسحق الإسرائيلى (١٨٥). ومن بين الأطباء اليهود المصريين الذين اشتهروا في أوروبا أيضًا ابن المدور وابن الناقد وغيرهما (١٨٦).

أما عن المجالات الطبية التى نبغ فيها الأطباء المصريون ، وكان لها أثرها فى الحضارة الأوروبية ، فهى عديدة ، من بينها طب العيون ، الذى كان شائعًا فى مصر " بلد أمراض العيون" وقد اشتهر عمار الموصلى فى أوروبا ، وكان كتابه فى طب العيون يعد من المصادر الرئيسية حتى القرن الثامن عشر (١٨٧). وهو فى الواقع نتاج مجهودات عربية سبقته فى هذا المجال ويرجع هذا التفوق الذى أحرزه العرب ، إلى خبرتهم فى معالجة الأمراض المستوطنة للعين مثل الرمد والتراخوما الناتجة عن الغبراء الساخنة المنتشرة فى سهول الشرق الأوسط . فمن خلال الممارسات اليومية والتقنيات والإنجازات التى كانت تتطور مع مرور الزمن ، بلغ الأطباء العرب فى طب العيون مستوى من الكفاءة لم يبلغه غيرهم حتى من الحكماء الأوائل(١٨٨).

كما استفاد الأوروبيون من الدراسات العربية فى استنباط الدواء اللازم لعلاج أنواع التسمم وتسهيل الهضم ، وكان من أبرز الأطباء الذين عاشوا فى مصر فى ظل الخلافة الفاطمية وكان له أثره فى الطب الأوروبى فى هذا المجال الطبيب محمد التميمى المقدسى الذى بذل مجهودات كبيرة فى استنباط دواء عام ضد كل أنواع التسمم ، وأوجد دواء سائغًا لستيهل الهضم برفق وفاعلية فى آن واحد ، وضمنها كتابه المسمى " مفتاح الفرج والتخفيف عن الروح " (١٨٩).

وإلى جانب المؤلفات العربية فى الطب ، نجح الأطباء المصريون فى شرح وتفسير كتب الأوائل أمثال أبقراط وجالينوس وغيرهما ، وكان رائد هذه الحركة فى مصر ، عميد أطبائها أبو الحسن على بن رضوان ، الذى اشتهر عند علماء اللاتين باسم " هالى ردوام " بسبب تعليقاته على كتاب جالينوس (١٩٠). وقد قام جيرارد الكريمونى (أحد المترجمين الإيطاليين الذين أقاموا فى طليطلة لترجمة المخطوطات الطبية العربية) بترجمة كتاب على بن رضوان : " شرح جالينوس " ثم طُبع هذا الكتاب فى فنيسيا سنة ١٤٩٥م (١٩١). والملاحظ دومًا فى كل ما كتبه ابن رضوان أنه يجعل من أبقراط وجالينوس معلمين يحترمهما ، ويعتقد أن ما كتباه هو الحقيقة ، وكل ما فعلاه عظيم وممتاز ، وكل من جاء من بعدهما لا قيمة له (١٩٢). وذلك فى الوقت الذى وجد الأوروبيون فيه صعوبة فى فهم مؤلفاتهم ، وقد شهد بذلك أحد المستشرقين فى قوله : " إن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث القدماء الذى طالما اكتنفه الغموض وتقصه التسلسل ، ومكان النقل الآلى للفقرات وتجميع المعلومات واضطراب المخطوطات الكثيرة لدى البيزنطيين ، مكان كل هذا ، صنف العرب كتبًا مختصرة جامعة عظيمة التماسك ، صبوا فيها كل المواد الدراسية الخاصة ، وعرفوا كيف يقدمون العلوم فى أشكال سهلة ، وصاغوا فى لغتهم الحية التى لم تمت فيها كلمة ، تعابير علمية مثالية " (١٩٣).

ومن الأمور التى وقف أمامها الأوروبيون مشدوهين بما أحرزه أطباء العرب من تقدم فى مجالات الطب ، طرق العلاج وكيفية معاملة المرضى ، وكان لتعليمات على ابن رضوان آثارها فى تعميق دهشة الغرب ، ومنها قوله : " من واجب الطبيب أن يعالج أعداءه بالروح نفسه والإخلاص ذاته ، والاستعداد عينه الذى عالج به من أحبهم " (١٩٤). وهذا بلا شك من المظاهر الأخلاقية السائدة لدى الأطباء العرب ، وهى مستمدة من سماحة الدين الإسلامى التى شكلت فكر ووجدان وثقافة المجتمع العربى بأكمله .

كما أن ابن رضوان ، وضع تصورًا لطريقة الكشف على المرضى ، على نحو ما تقدم ، أصابت المستشرقين بمزيد من الدهشة ، حتى قالت عنه زيغريد هونكه : " ويخيل إلينا ونحن نسمع ذلك أننا أمام أستاذ فى الطب فى عصرنا الحاضر ، أنه لأمر يدعو إلى الدهشة والعجب حين نرى ما توصل إليه الأطباء العرب من معلومات قيمة فى جسهم للنبض ، وفيما استخلصوه من نتائج وأسرار لدى تحليلهم للبول " (١٩٥).

وأخيراً ؛ فإنه ما من شك أن الطب المصرى فى العصر الفاطمى ، كان له دوره فى الحضارة العربية ، فهو جزء من الطب الذى مثل جانباً مضيئاً فى هذه الحضارة التى كانت بمثابة الشعلة التى أضاءت مصابيح العلم فى شتى أنحاء العالم ، وقد كان الطب العربى ، هو الأساس الذى قام عليه الطب الأوروبى جملة وتفصيلاً ، فقد قام الأطباء العرب بوجه عام والمصريون بوجه خاص بنقل مصنفات الأوائل وشرحها والإضافة إليها ، وهذه الإنجازات العربية انتقلت بدورها إلى أوروبا ، فوجد فيها علماؤها منهلاً خصباً ، أفادوا منها كثيراً فى إطار نهضتهم الحديثة .

الهوامش

١ – سمير يحيى الجمال : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ٢ ، (فى العصر الإسلامى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص ٣٩ ، ٢١٦ – ٢١٨ . وللمزيد من التفاصيل عن الطب المصرى القديم والبرديات الطبية مثل بردية " إدوين سميث " التى يرجع تاريخها إلى سنة ١٥٥٠ق.م، ولاتزال محفوظة بالجمعية التاريخية بنيويورك " وهى من البرديات الشهيرة فى الطب المصرى ، قال عنها العالم " برستد " إنها أقدم كتاب للجراحة فى العالم ، وهى منقولة عن مؤلف أصلى يرجع إلى سنة ٣٠٠٠ق.م. انظر " بول غليونجى وزينب الدواخلى : الحضارة الطبية فى مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٦٥م ؛ محمد دياب : الطب والأطباء فى مختلف العهود الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م ؛ مختار وسمى ناشد : فضل الحضارة المصرية على العلوم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ٩٧ ومابعدها ؛ محمد شاكر مشعل : الدور العربى فى التراث العلمى ، جـ١ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ١٢١ – ١٢٥ .

٢ – أحمد عيسى : معجم الأطباء ، القاهرة ، ١٣٦١هـ / ١٩٤١م ، ص ٣٧ ؛ صفى على محمد : الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط من الفتح العربى إلى نهاية الدولة الإخشيدية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٦١٤ .

٣ – البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩م ، ص ٣٢١ ؛ ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ١ ، القسم الخاص بمصر ، تحقيق زكى محمد حسن، سيدة إسماعيل كاشف ، شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣م ، ص ١٢٣ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١م ، ص ١٣٦ ؛ صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٣ – ٦٠٤ .

٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٠ – ١٤١ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٧ .

٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٧ ؛ صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ .

٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٣٥ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢١ ؛ فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى) ، جـ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

٧ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٣٦ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢١ .

٨ – البلوى : المصدر السابق ، ص ٣٢٣ – ٣٢٥ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

٩ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٣٩ .

١٠ - البلوى : المصدر السابق ، ص ٣٢٣ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ .

١١ - المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٢م ، جـ١ ، ص ٣٩٢ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٨ .

١٢ - ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٨٧ - ٨٨ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ . وقد كان إسحق بن سليمان الإسرائيلي من أهل مصر، ثم سكن القيروان ، تتلمذ على إسحق بن عمران عندما التقى به في القيروان ، ثم أصبح طبيب الإمام أبي محمد عبيد الله المهدى صاحب إفريقية : وكان دخوله القيروان في عهد زيادة الله بن الأغلب ، وتوفي في حدود سنة (٣٢٠هـ / ٩٣٢م) . ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٥٨ - ٥٩ ؛ محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، دراسة تراجم ونصوص ، جـ١ ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م ، ص ٤١ ؛ محمود الحاج قاسم محمد : انتقال الطب العربي إلى الغرب، معابره وتأثيره ، ط١ ، دار النفائس ، دمشق ، ١٩٩٩م ، ص ٦٨؛ جان شارل سورنيا : تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص ، ترجمة إبراهيم البجلاتي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مايو ٢٠٠٢م ، ص ٨١ .

١٣ - ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٩٦ ؛ القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تحقيق جوليوس لايبرت ، ليبزج ، ١٩٠٣م ، ص ٢٣٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ؛ محمد العربي الخطابي : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٠ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفي : الدور السياسي والحضاري للجاليات المغربية في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٨٧م ، ص ٤٩٣ .

١٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ،ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جـ١ ، تحقيق خليل المنصور ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧م، ص ٤٤٢ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ صفي علي محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ .

١٥ - ابن جلجل : المصدر السابق ص ١١٥ ؛ المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٤٩م ، جـ٢ ، ص ٣١٥ ، جـ٣ ، ص ١٣ ؛ أحمد عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٤٩٤ ؛ أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٤٦١ .

١٦ - ابن الزيات : الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى ، مكتبة المثنى ، بغداد (د.ت) ، ص ١١٩ ؛ أحمد عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .

١٧ – توجد نسخة مخطوطة من كتاب " البول " لإسحق بن سليمان الإسرائيلى بدار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، رقم ٣١١ طب .

١٨ – ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٨٧ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦٠٨ . وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب " الحميات " لإسحق بن سليمان ، على ميكروفيلم ، بمعهد المخطوطات العربية ، مكتبة أحمد الثالث ، رقم ١٠٩ طب .

١٩ – على بن رضوان : كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، تحقيق عبد المجيد دياب ، مكتبة ابن قتيبة، الكويت ، ١٩٩٥م ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٥ .

٢٠ – عيون الأنباء ، جـ٢ ، ص ١٤٨؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٨ .

٢١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ .

٢٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٢ – ١٦٣ ؛ السيوطى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٢ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

٢٣ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٤٤٣ – ٤٤٤ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ص ٩٦ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٣٠ .

٢٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ ، ١٦٦ ؛ على بن رضوان : المصدر السابق ، مقدمة التحقيق ، (د.عبد الحميد دياب) ، ص ٣١ ؛ صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦١٤ – ٦١٥ .

٢٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧١ .

٢٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٠ – ١٧١ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق، جـ٣ ، ص ٣٣٠ .

٢٧ – توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٠ طب .

٢٨ – صفى على محمد : المرجع السابق ، ص ٦٣٦ . وقد ذكر ابن أبى أصيبعة : ١٠٢ مؤلفًا من مؤلفات على بن رضوان الطبية ، غير أن ماكس مايرهوف يرى أن ما ذكره ابن أبى أصيبعة أقل مما صنفه ابن رضوان ، وأضاف إليها ثلاثة كتب أخرى هى : " شرح كتاب المربعة لبطليموس " الذى ذكره القفطى عند ترجمته لابن رضوان ، وكتاب " كفاية الطبيب فيما صح لدىَّ من التجاريب " . وهو مخطوط بمكتبة الغوطا ، تحت رقم ١٩٥٢ – ١ ؛ وكتاب " فيما يجب على الرئيس الفاضل من مصالح بدنه وأدب لبيبه وقهرمانه " وهو مخطوط بمكتبة الغوطا أيضًا تحت رقم ٢٠١٥ – ٣ . ماكس مايرهوف وجوزيف شاخت: خمس رسائل لابن بطلان وابن رضوان ، القاهرة ، ١٩٣٧م ، ص ٥٠ ؛ ابن رضوان : المصدر السابق ، مقدمة التحقيق ، ص ٤٨ ؛ وعن مؤلفات ابن رضوان انظر أيضًا ؛ القفطى : المصدر السابق ، ص ٤٤٣ – ٤٤٤ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٧ – ١٧٤ .

٢٩ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ .

٣٠ - ابن رضوان : المصدر السابق ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٦ .

٣١ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

٣٢ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٠ .

٣٣ - السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ٤٤٢ .

٣٤ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

٣٥ - عن أبقراط وجالينوس انظر : القفطى : المصدر السابق ، ص ٩٠ - ٩٤ ، ١٣٢ - ١٤٢ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٤١ - ٥٦ ، ١٠٨ - ١٥٤ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق، ص ١٢١ - ١٢٣ ؛ جان شارل سورنيا : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٥٦ ، ٦٢ - ٦٤ .

٣٦ - القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٨٢ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ .

٣٧ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق، جـ٣ ، ص ٣٢٤ . وقد اعتقدت إحدى الباحثات أنه ابن الطبيب كيسان بن عثمان بن كيسان ، والواضح من الاسم أنه أخيه ، ويقول ابن أبى أصيبعة : إن جثمانه انتقل إلى دير القصير " فدفن هناك عند قبر أخيه كيسان بن عثمان بن كيسان ... " انظر ما ذكرته فاطمة مصطفى : تاريخ أهل الذمة ، جـ٢ ، ص ٢٥١ .

٣٨ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٢ ؛ سلام شافعى : المرجع السابق ، ص ٨٢ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٥ .

٣٩ - القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطوان صلحانى اليسوعى ، دار المشرق ، ط٣ ، ١٩٩٢م ، ص ١٨١ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ .

٤٠ - القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

٤١ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٤٨ .

٤٢ - ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ ؛ المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٨ ، ٧٠ .

٤٣ - المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٠ ؛ سلام شافعى : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

٤٤ – المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٨٠ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ . لعل المقصود بالاستعمالات هنا التركيبات الكيميائية ، ويبدو أن ابن قرقة كان متخصصًا فيها ، وهى من متطلبات دور الديباج والسلاح والسروج ، وهو ما جعل ابن تغرى بردى يقول : " وكان ابن قرقة خبيراً بالاستعمالات ذكيا " ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٢ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، تحقيق محمد حلمى ، ص ١٥٤ ، هامش ٢ .

٤٥ – ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط١ ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ١٠٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

٤٦ – المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

٤٧ – ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ، انتقاه المقريزى ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، (د.ت) ، ص ١٢٢ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٨ ، ٦٣ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٥٣ – ١٥٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ . وقد ذكر ابن تغرى بردى أن الطبيبين كانا يهوديين ، بينما أورد ابن الأثير رواية مقتل حسن بن الحافظ وذكر أن أحد الطبيبين كان يهوديًا وهو الذى رفض عمل السم ، بينما كان الآخر مسلمًا وهو الذى قام بإعداده ، ولم يذكر اسميهما . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٢٢ – ٢٣ .

٤٨ – ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ، المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٢٣ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٨ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٥٥ ؛ ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، دار المعرفة، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ١٠١ .

- Mourice Fargon : Les Juifs En Egypte Sepuis Les Origines Jusquace Jour, Le Caire, 1936, pp. 120 - 121 .

ويذكر ابن عبد الظاهر أن أبو سعيد بن قرقة باع الدار والحمام إلى جهة علم السعداء ثم سكنها الكامل بن شاور ؛ ولعل الأملاك التى استولى عليها الخليفة وأمر بإرجاعها إلى الديوان ، منشآت أخرى غيرهما، كما يستفاد من ما ذكره ابن عبد الظاهر أن ابن قرقة أدرك موقف الخليفة منه وتخلص من بعض أملاكه بالبيع . ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٣ .

٤٩ – سعيد الديوة جى : الموجز فى الطب الإسلامى ، ط١ ، الكويت ١٩٨٩م ، ص ٥٣ ؛ سليمان قاطنة : الطب العربى ، مجلة عالم الفكر ، جـ١٠ ، ع٢ ، يوليو – أغسطس – سبتمبر ، الكويت ١٩٧٩م ، ص ٢٧٨ . يقول مارتن بلسنر : إن الاشتغال بالعلوم الإسلامية ، لم يقتصر على المسلمين ، إذ استمر النصارى واليهود يسهمون فى هذه العلوم إسهامًا نشطًا ، لدرجة أن كتاب " ينبوع الحياة " لابن جبرول

(سليمان بن يحيى ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) كان يظن حتى القرن التاسع عشر أنه من تأليف عالم مسلم ، حتى كشف سالومون مونك (S.Munk) المستشرق الألماني عن هوية هذا المؤلف اليهودي الأندلسي ؛ كذلك فإن المؤلفات التي وضعها إسحق بن سليمان الإسرائيلي ، وموسى بن ميمون (ت ٦٠١هـ / ١٢٠٤م) لا تختلف عن أعمال الأطباء المسلمين . ويعزو بلسنر هذا التشابه إلى وجود تفاعل بين الأديان في العلم الإسلامي لا تقل عما كان في ذلك العلم من تفاعل بين القوميات ، على حد قوله ، ويرى أن العلم ربما كان أقل الميادين الثقافية خضوعًا لعملية " الصبغ بالصبغة الإسلامية " . كما يدعى أن هناك عداء من جانب المذهب السني الرسمي لعلوم الأوائل ، وأن هذا العداء ظل صفة مميزة للإسلام، فقد كان أهل السنة المسلمون يرون أن كل علم لا ينبع من القرآن ، لا يعتبر عقيمًا فحسب ، بل يعتبر أيضًا الخطوة الأولى على الطريق المفضى إلى الزندقة . (جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد ، ط٣ ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، يونيو ، ١٩٩٨م ، ص ١٤٢) . والواقع أن هذه الادعاءات أبعد ما تكون عن الصواب ، فإن الإسلام يحث على الاستزادة من كل علم يفيد المجتمع ، ومن أي مصدر كان ، " خذ الحكمة ولا تضرك من أي وعاء خرجت " ، ولقد كان المسلمون يقبلون على النقل من الأوائل على الرغم من اختلاف الأمم والنحل ، وما كان ذلك إلا نتيجة لمرونة الفكر العربي ، وتعطشه الشديد للعلم والمعرفة ، وكثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض المؤمنين على العلم ، فجعلت من العرب محرقًا تجتمع فيه أنوار العلم والمعرفة من كل البلاد والعقليات ، فأصبحت العقلية العربية نتاج تفاعل كل هذه العقليات والمعارف؛ وهناك أمثلة عديدة لتسامح الخلفاء العباسيين السنيين مع الأباء والعلماء النصارى والصابئة والبراهمة واليهود والمجوس وغيرهم ، ولهم مطلق الحرية في الاعتقاد والرأي ، وفي تأدية شعائرهم الدينية . انظر تفاصيل ذلك : سعيد الديوه جي : الموجز في الطب الإسلامي ، ص٥٣ ، والملحق الثالث في نفس المرجع بعنوان " سماحة المسلمين مع الأطباء غير المسلمين " ، ص ١١٧ - ١٢٠ : سليمان قطانه : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ . وهناك دراسة قيمة قدم فيها الدكتور رشيد الجميلي رؤية واضحة لحركة الترجمة والنقل التي قام بها العرب في العصر الأموي ونشطت نشاطًا ملحوظًا في العصر العباسي ، مبينًا مراحل هذه الحركة وعوامل ازدهارها وتطورها ، وأهم أعلامها ، ومراكزها ومدارسها. رشيد الجميلي: حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الأول والثاني للهجرة ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي (د.ت) .

٥٠ - قاسم عبده قاسم : اليهود في مصر ، دار الشرق ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ٩ ، ٨٧ .

٥١ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص٩٢ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ص ٨٢ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ .

٥٢ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٢ .

٥٣ - المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٤٢ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٥٣ ، ٥٥ .

٥٤ – المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٧٣ ، ٨٣ ؛ سلام شافعى محمود : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

٥٥ – القفطى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٨١ – ١٨٢ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

٥٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٤ .

٥٧ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٢٥٢ .

٥٨ – فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٥٢ ؛

The Jewish Encyclopedia, Vol. V, New York, London, 1903, p. 62 .

* – كناش وتجمع على كنانيش ، وهو ما لم يتعدد أسفاره من المصنفات ؛ والكناش فى الطب يطلق على سفر يضم معلومات تتعلق بعلاج شتى العلل ، يرجع إليه الطبيب عند الحاجة على سبيل التذكرة ، ويطلق الكناش أيضاً فى بلاد الغرب الإسلامى على سجل يقيد فيه صاحبه فوائد ومعلومات وتواريخ وغيرها ينقلها من هنا وهناك . محمد العربى الخطابى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٥ هامش ٤ .

٥٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٥ . الحسن بن الحسين بن حمدان ، الملقب بالأمير أبو محمد ناصر الدولة التغلبى ذو المجدين ، دخل مصر فى عصر الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) قادماً من حلب ، وقوى أمره ، فاستولى عليها ولقب نفسه بسلطان الجيوش، قتل سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م . (ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢١ – ٢٢ ، ٩٠ – ٩١) . وعن تلك الأحداث التى وقعت فى عصر الخليفة المستنصر ، انظر : ابن ميسر : المصدر السابق، ص ٣٨ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٣٠٦ ؛ مصطفى على دويدار : جزيرة الروضة منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية حكم المماليك ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ٢٠٠١ م ، ص ١٠٥ – ١٠٨ .

٦٠ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٥ .

٦١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٥ – ١٧٦ ؛ القفطى : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

٦٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٧ .

٦٣ – أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبى صالح ، المطبعة المدرسية ، أكسفورد ، ١٨٩٤م ، ص ٥٤ .

٦٤ – المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٤١١ .

٦٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٠ – ١٩١ ؛ عطية القوصى : صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٤ ، ١٩٧٧ ، ص ٤٤ – ٤٥ .

٦٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٢ .

٦٧ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٦ – ١٩٠ ؛ عطية القوصى : المرجع السابق ، ص٤٤.

٦٨ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩٤ .

٦٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩١ .

٧٠ – ابن أبى الصلت : الرسالة المصرية ، ضمن كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠١ م ، ص٤٠ .

٧١ – ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، جـ١ ، الخاص بمصر ، ص ٢٨ .

٧٢ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤١ .

٧٣ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٢ .

٧٤ – محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٦ – ٩١ .

٧٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٣٩ ؛ ابن بطلان : رسالة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة نوادر المخطوطات ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ٢٠٠١م ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٧٣ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٥٢ .

٧٦ – القفطى : المصدر السابق ، ص ١٠٥ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ ؛ السيوطى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٢ .

٧٧ – القفطى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ .

٧٨ – ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٧٤ – ١٧٥ . وانظر أيضًا ، القفطى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

٧٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٧ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ .

٨٠ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٣ ؛ سمير يحيى الجمال : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٣٢٧ .

٨١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٩ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٨٢ ؛ عبد المنعم ماجد : امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٤ ، ١٩٧٧ ، ص ٣٤ ؛ عبد الحميد إ. صبرا : أبو على الحسن بن الحسين بن الهيثم الخازن ، مقالة ضمن كتاب (عبقرية الحضارة العربية ، منبع النهضة الأوروبية) ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، ط١ ، الدار الجماهيرية ، للنشر والتوزيع والإعلان ، بنغازى ، ١٩٩٠م ، ص ٢٣٣ .

٨٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٩ .

٨٣ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٥٨ .

٨٤ – محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٩٨ .

٨٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

٨٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٠ ؛ سامى حمارنه : الصناعة الطبية فى العصر الإسلامى الذهبى ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٠ ،

ع٢، يوليـو – أغسطس – سبتمبر ، ١٩٧٩م ، الكويت ، ص ٥٩٥ ؛ أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، ط١ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٤٧.

٨٧ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

٨٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٠ ؛ جـ٣ ، ص ١٦٧ .

٨٩ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

٩٠ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ .

٩١ – ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٧٥ .

٩٢ - القفطي : المصدر السابق ، ص ١٩٥ – ٢٠٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٩٠ – ١٩٢ .

٩٣ – ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧؛ سامي حمارنه : المرجع السابق ، ص ٣١١ – ٣١٣ .

٩٤ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ .

٩٥ – ابن أبي الصلت : الرسالة المصرية ، ص٤٢ – ٤٣ ؛ القفطي : المصدر السابق ، ص ١٥٧ – ١٥٨ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٦ – ١٧٧ ؛ سلام شافعي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

٩٦ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٨ . عين زربة : وردت في معجم البلدان " عين زربى " ، ويجوز أنها من زرب الغنم ، وهو مأواها – هو بلد بالثغر من نواحي المصيصة إحدى المدن الواقعة على شاطيء جيحان من ثغور الشام ، بين إنطاكية وبلاد الروم، بالقرب من طرسوس . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٣ ، طبعة ويستنفلد ، ليبتسيك ، ١٨٦٦م ، ص ٧٦١ .

٩٧ – سامي حمارنه : الطبيب العربي ابن العين زربي وأبحاثه في العلل والعلاج ، بحث ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ علوم العرب ، جـ١ ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٩٧٧م ، ص ٦٤٢؛ الصناعة الطبية ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

٩٨ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ . وهناك عدد من الدراسات القيمة حول " كتاب الكافي في الطب " انظر : سامي حمارنه : الطبيب العربي ابن العين زربي ، مرجع سابق ، ص ٦٤١ – ٦٨٠ ؛ الصناعة الطبية ، ص ٣١٥ ؛ محمد شاكر مشعل : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٥٥ – ١٥٦ .

٩٩ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٩ .

١٠٠ – سامي حمارنه : الطبيب العربي ابن العين زربي ، مرجع سابق ، ص ٦٤٢ .

١٠١ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٢ .

١٠٢ – القفطي : المصدر السابق ، ص ٧٤ – ٧٥ ؛ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفي : المرجع السابق ، ص ٥٩٠ .

١٠٣ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العربي إلى الغرب ، ص ٩٥ .

١٠٤ – ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ١ ، تحقيق شوقى ضيف ، ص ١٢٨ – ١٣٠ .

١٠٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٣ – ١٠٤ ؛ محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص ٧٤ – ٧٥ ، ٨٨ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفى : المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

١٠٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٤ – ١٠٦ ؛ محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

١٠٧ – المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٩٤ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفى : المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

١٠٨ – المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

١٠٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٨٣ – ٨٤ .

١١٠ – ابن أبى الصلت : الرسالة المصرية ، تحقيق عبد السلام هارون ، مقدمة التحقيق ، ص ١٢ .

١١١ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

١١٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٨٦ ؛ مقدمة تحقيق الرسالة المصرية ، ص ١٢ ؛ أحمد عبد اللطيف حنفى : المرجع السابق ، ص ٥٩٦ .

١١٣ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٠ .

١١٤ – مقدمة تحقيق الرسالة المصرية ، ص ١٢ .

١١٥ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

١١٦ – ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

١١٧ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

١١٨ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ أحمد عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص ٥٩١ .

١١٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٠ .

١٢٠ – القلشقندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ٣ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥٦٩ .

١٢١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ – ١٨٢ ، ١٨٣ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، ٩٨ .

١٢٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤١ – ١٤٢ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص ١٩٩ ؛ فاطمة مصطفى عامر : المرجع السابق ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

١٢٣ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ ؛ ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١٨١ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص ٣١ .

١٢٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٦ – ١٤٧ .

١٢٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ .

١٢٦ – المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٤٨ ، ٧٠ ؛ سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص ٨٣ .

١٢٧ – ابن حجر العسقلانى : رفع الأصر عن قضاة مصر ، القسم الثانى ، تحقيق حامد عبد المجيد ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ٣٦٢ – ٣٦٣ ؛ سلام شافعى : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

١٢٨ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨١ .

١٢٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٦ .

١٣٠ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٧٨ .

١٣١ – المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٩٤ – ٩٥ ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية (دراسة نصوص) ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

١٣٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨٠ – ١٨١ ، ١٨٣ .

١٣٣ – القفطى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٤ .

١٣٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٣

١٣٥ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .

١٣٦ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤١

١٣٧ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ – ٣١٥ .

١٣٨ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

١٣٩ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٧ .

١٤٠ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

١٤١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

١٤٢ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

١٤٣ – ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٣ .

١٤٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٦٧ – ١٦٩ .

١٤٥ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

١٤٦ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٠٢ .

١٤٧ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ . ذكرت زيغريد هونكه ، أن ابن رضوان كان يحلو له أن يهاجم غريمه فى كل آن وحين ، فكتب مرة " جهل ابن رضوان معرفة بالنسبة إلى ابن بطلان ومرة أخرى " ابن بطلان يعجز عن قراءة مخطوطاته ذاتها " أو " رسالة إلى أطباء القاهرة عن الجديد لابن بطلان " وهكذا دواليك . زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب " أثر

الحضارة العربية فى أوروبة " ، نقله عن الألمانية ، فاروق بيضون وكمال دسوقى ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٨٧ .

١٤٨ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

١٤٩ – ابن فكرى براى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٦٩ .

١٥٠ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ .

١٥١ – ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ، ص ١٠١ – ١٠٢ .

١٥٢ – القفطى : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ .

١٥٣ – ابن رضوان : المصدر السابق ، ص ١٤٣ – ١٥١ .

١٥٤ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

١٥٥ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٦ .

١٥٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٠٠ .

١٥٧ – ابن أبى الصلت : الرسالة المصرية ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

١٥٨ – ابن أبى الصلت : المصدر السابق ، ص ٤١ – ٤٢ ؛ القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ – ٢١١ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٧٦ .

١٥٩ – راجع ما تقدم عن ابن حسداى فى هذا البحث .

١٦٠ – جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ٣ ، دار الهلال ، القاهرة (د.ت) ، ص ٢٠٨ .

١٦١ – ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٤ ، تحقيق لجنة إحياء التراث ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٩٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ .

١٦٢ – ابن دقماق : المصدر السابق ، الجزء والصفحة ؛ المقريزى . المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

١٦٣ – المقريزى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ .

١٦٤ – ابن دقماق : المصدر السابق ، الجزء والصفحة . كانت وظيفة الخازن من وظائف البلاط فى العصر الإخشيدى ، وصاحبها يتولى أمر خزانة الأمير ويشرف على ما فى قصره ، بالإضافة إلى إدارة ممتلكاته الخاصة وهو يشبه صاحب بيت المال فى العصر الفاطمى والخازندار فى العصر المملوكى ، وقد شغل أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن هذه الوظيفة فى عهد الإخشيد نفسه ، وكان له عدد من الأعوان والمساعدين ، وذكر الشيخ أبو صالح الأرمنى أن محمد الخازن فتح إبريم من بلاد النوبة فى أيام كافور ، وكانت وفاته سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م . أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبى صالح ، ص ١٢٢ ؛ ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٥١ ؛ مصطفى دويدار : جزيرة الروضة ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

١٦٥ – ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٩٩ .

١٦٦ – ابن دقماق : المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

١٦٧ – ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١٥ .

١٦٨ – ابن أبى الصلت : الرسالة المصرية ، ص ٤٠ .

١٦٩ – القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٥٦٩ .

١٧٠ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨١ .

١٧١ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٩١ .

١٧٢ – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

١٧٣ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، الجزء والصفحة .

١٧٤ – رشيد الجميلى : الحضارة الإسلامية وآثارها فى الحضارة الأوروبية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، (د.ت) ، ص ١٦٤ .

١٧٥ – سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٥٣ ؛ رشيد الجميلى : المرجع السابق ، ص ١٦٤ ؛ زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

١٧٦ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العربى إلى الغرب ، ص ٥٠ – ٥١ ، ١٠٢ – ١٠٣ ؛ كمال السامرائى : مختصر تاريخ الطب ، ط١ ، الدار الوطنية للتوزيع ، بغداد ، ١٩٨٤م ، جـ١ ، ص ٦٤٧ – ٦٤٩ ، جـ٢ ، ص ٢١٩ – ٢٢١ ؛ زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ؛ غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ص ٤٩٣ .

١٧٧ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ ؛ جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٦٥ .

١٧٨ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٩٤ – ٢٩٩ .

١٧٩ – انظر ما تقدم من هذا البحث ، هامش ٩٥ .

١٨٠ – مقدمة تحقيق رسالة بن بطلان فى شرى الرقيق ، ص ٣٧٦ ؛ كمال السامرائى : المرجع السابق، جـ١ ، ص ٥٧٦ .

١٨١ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

١٨٢ – السامرائى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٩ ؛ محمود الحاج قاسم : المرجع السابق ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

١٨٣ – جان شارل سورنيا : تاريخ الطب ، ص ٨٢ – ٨٣ .

١٨٤ – ول ديورانت : قصة الحضارة ، مج٤ ، جـ٣ ، (عصر الإيمان) ، ترجمة محمد بدران ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ١٠٩ .

١٨٥ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العربي ، ص ٤٣ .

١٨٦ – جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٤٢٥ .

١٨٧ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

١٨٨ – سامي حمارنه : علوم الحياة ، بحث ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية ، ص ٢٥٦ .

١٨٩ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٣٢١ . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١٤٦ ؛ هذا الكتاب باسم " مفتاح السرور من كل الهموم ، ومفرح النفس " وقد ألفه التميمي بمصر ، وأهداه لبعض إخوانه بها .

١٩٠ – سمير يحيى الجمال : الطب والصيدلة ، جـ٣ ، ص ٣٣٢ .

١٩١ – محمود الحاج قاسم : انتقال الطب العرى ، ص ١٥٧ ؛ زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

١٩٢ – علي بن رضوان : دفع مضار الأبدان ، مقدمة التحقيق ، ص ٣٨ – ٣٩ .

١٩٣ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

١٩٤ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

١٩٥ – زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ - ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدى الخزرجى (ت٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ثلاثة أجزاء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨١م.

٢ - ابن أبى الصلت : أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى (٥٢٨هـ / ٣٣-١١٣٤م) : الرسالة المصرية ، ضمن كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠١م.

٣ - ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد الشيبانى الجزرى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، الجزء الحادى عشر ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩م.

٤ - ابن بُطلان : أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون البغدادى (ت : بعد سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) : رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، ضمن كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ،٢٠٠١م .

٥ - ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (٨٧٤هـ / ١٤٦٥م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الخامس ، تحقيق محمد بك رمزى ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٣٦م.

٦ - ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان (ت : بعد سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

٧ - ابن حجر العسقلانى : القاضى شهاب الدين أحمد بن على الحافظ العسقلانى (ت٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) : رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الثانى ، تحقيق حامد عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٦١م.

٨ - ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء الرابع ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، (د.ت) .

٩ - ابن رضوان : أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر المصرى (٤٥٣هـ / ١٠٦١م) : كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، تحقيق عبد الحميد دياب، مكتبة ابن قتيبة ، الكويت ، ١٩٩٥م.

١٠ - ابن الزيات : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الأنصارى (٨١٤هـ / ١٤١١م) : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى ، مكتبة المثنى بغداد (د.ت) .

١١ - ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الأندلسى (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : المُغرب فى حلى المغرب ، القسم الخاص بمصر (الفسطاط) ، تحقيق زكى محمد حسن ، وشوقى شيف ، وسيدة كاشف ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣م.

- المُغرب فى حلى المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م.

١٢ - ابن ظهيرة : أحد علماء القرن التاسع أو العاشر الهجرى : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩م.

١٣ - ابن عبد الظاهر : محى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان السعدى المصرى (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩١م) : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٤ - ابن العبرى : أبو الفرج جمال الدين جريجوريوس بن هارون الطبيب الملطى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الأب أنطوان صلحانى اليسوعى ، دار المشرق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢م.

١٥ – ابن ميسر : تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب بن راغب (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) : المنتقى من أخبار مصر ، (انتقاه المقريزى) ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى ، للدراسات الشرقية ، القاهرة ، (د.ت) .

١٦ – أبو صالح الأرمنى : أبو المكام جرجس بن مسعود (ت : أوائل ق ٧هـ / ١٣م) : تاريخ الشيخ أبو صالح المعروف بـ : كنائس وأديرة مصر ، المطبعة المدرسية ، أوكسفورد ، ١٨٩٤م .

١٧ – البلوى : أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى البلوى (ت : بعد نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة / ق ١٠م) : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، سلسلة الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

١٨ – السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر بن حمد الشافعى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق خليل منصور، الجزء الأول ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٧م.

١٩ – القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن عبد الواحد (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، نشر جوليوس ليبرت ، ليبزج ، ١٩٠٣م.

٢٠ – القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الثالث ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٧م.

٢١ – المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين على المسعودى (ت ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ أو ٩٥٧م) : مروج الذهب ومعدن الجوهر ، الجزء الأول ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨١م.

٢٢ – المقرى : أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيش بن محمد المقرى التلمسانى (١٠٤١هـ / ١٦٣١م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر

وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الجزءان الثاني والثالث ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٩م.

٢٣ – المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جزءان، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) .

– اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ثلاثة أجزاء : الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨م. الجزءان الثاني والثالث ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ١٩٧٣م.

٢٤ – ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، طبعة وستنفلد ، ليبتسيك ، ١٨٦٦م.

ثانيًا : المراجع :

١ – أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

٢ – أحمد عبد اللطيف حنفى محمد (دكتور) : الدور السياسى والحضارى للجاليات المغربية فى مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٨٧م.

٣ – أحمد عيسى (بك) : معجم الأطباء ، القاهرة ، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م .

٤ – أندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٤م.

٥ – بول غليونجي وزينب الدواخلى : الحضارة الطبية فى مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٦٥م.

٦ – جان شارل سورنيا : تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص ، ترجمة إبراهيم البجلاتى ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مايو ٢٠٠٢م.

٧ – جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، الجزء الثالث ، دار الهلال ، القاهرة ، (د.ت).

٨ – جوستاف جورينباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

٩ – رشيد الجميلي (دكتور) : حركة الترجمة والنقل فى المشرق الإسلامي فى القرنين الأول والثاني للهجرة ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، (د.ت) .

– الحضارة العربية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، (د.ت) .

١٠ – زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب " أثر الحضارة العربية فى الأوروبية "، نقله عن الألمانية ، فاروق بيضون وكمال دسوقى ، بيروت ، ٢٠٠٠م.

١١ – سامي حمارنه (دكتور) : الطبيب العربى ابن العين زربى ورأبحاثه فى العلل والعلاج، بحث ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ علوم العرب ، الجزء الأول ، معهد التراث العلمى العربى ، حلب ١٩٧٩م.

– الصناعة الطبية فى العصر الإسلامى الذهبى ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، يوليو – أغسطس – سبتمبر ، الكويت ، ١٩٧٩م.

– علوم الحياة ، مقالة ضمن كتاب (عبقرية الحضارة العربية ، منبع النهضة الأوروبية) ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ، بنغازى ، ١٩٩٠م.

١٢ – سعيد الديوة جى (دكتور) : الموجز فى الطب الإسلامى ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٩٨٩م.

١٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣م.

١٤ – سلام شافعى محمود (دكتور) : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م.

– أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

١٥ - سليمان قطانة (دكتور) : الطب العربي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ، يوليو - أغسطس سبتمبر ، الكويت ١٩٧٩م.

١٦ - سمير يحيى الجمال (دكتور) : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث ، (فى العصر الإسلامى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩م.

١٧ - سيدة إسماعيل كاشف (دكتور) : مصر فى عصر الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩م.

١٨ - صفى على محمد (دكتور) : الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط ، منذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الإخشيدية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٩ - عبد الحميد أ. صبرا (دكتور) : أبو على الحسن بن الحسين بن الهيثم " الخازن " ، مقالة ضمن كتاب (عبقرية الحضارة العربية ، منبع النهضة الأوروبية) ، ترجمة عبد الكريم محفوظ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الأولى ، بنغازى ، ١٩٩٠م.

٢٠ - عبد المنعم ماجد (دكتور) : امرأة مصر تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٤ ، القاهرة ١٩٧٧م.

٢١ - عطية القوصى (دكتور) : صلاح الدين واليهود ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٤ ، القاهرة ١٩٧٧م.

٢٢ - غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٢٣ - فاطمة مصطفى عامر (دكتور) : تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى) ، الجزء الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

٢٤ - قاسم عبده قاسم (دكتور) : اليهود فى مصر ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣م.

٢٥ - كمال السامرائى (دكتور) : مختصر تاريخ الطب ، جزءان ، الدار الوطنية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ١٩٨٤م.

٢٦ – ماكس مايرهوف وجوزيف شاخت : خمس رسائل لابن بطلان وابن رضوان ، القاهرة ١٩٣٧م.

٢٧ – محمد دياب (دكتور) : الطب والأطباء فى مختلف العهود الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م.

٢٨ – محمد شاكر مشعل (دكتور) : الدور العربي فى التراث العلمى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٣م.

٢٩ – محمد العربي الخطابى (دكتور) : الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية ، (دراسة تراجم ونصوص) ، جزءان ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٨م.

٣٠ – محمد ماهر حمادة (دكتور) : الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، (دراسة نصوص) ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٠م.

٣١ – محمود الحاج قاسم (دكتور) : انتقال الطب العربي إلى الغرب ، معابره وتأثيره ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٩٩م .

٣٢ – مختار رسمى ناشد (دكتور) : فضل الحضارة المصرية على العلوم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م.

٣٣ – مصطفى على دويدار (دكتور) : جزيرة الروضة منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية حكم المماليك ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ٢٠٠١م.

٣٤ – ول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع الجزء الثالث عشر (عصر الإيمان) ، ترجمة محمد بدران ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥م

35 - Mourice Fargon : Les Juifs En Egypte Depuis Les Origines Jusqu'ace Jour, Le Cairo, 1936 .

36 - " " " : The Jewish Encyclopedia, Vol. V, New York, London, 1903 .

د. محمد فهمى إمبابى (*)

مكانة علم الفلك فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية

مقدمة :

عرف العرب قبل الإسلام النجوم والكواكب السيارة ، وكانت هذه المعرفة نابعة من ملاحظتهم الدقيقة ، وخبرتهم الطويلة الناتجة عن تنقلهم المستمر وضربهم فى الصحارى سعياً وراء أماكن صالحة للإقامة فيها ، الأمر الذى يتطلب منهم معرفة بالنجوم كى يهتدوا بها في الليل ، أو اتخذونها علامات تدل على تساقط المطر ، وعلى أوقات الحر والبرد والجفاف ومهاب الرياح (١). ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن صاعد الأندلسى بقوله : " ... وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم فى معرفة ذلك من أسباب المعيشة" (٢). ويذكر الجاحظ أن العرب عرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء " .. لأن كل من كان بالصحاح الأماليس .. مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضمه بالحياة ، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث " (٣).

ولم تكن معرفة العرب بالنجوم والكواكب قائمة على قاعدة أو على نظر عقلى أو علمى مستمد من مصنفات وضعوها لهذا الغرض ، بل إنها – كما سبق القول – قائمة على مجرد الملاحظة الدقيقة والخبرة الطويلة التى تطلبتها ظروف معيشتهم فى الصحراء (٤). وعلى رغم ذلك إلا أن العرب قد تأثروا فى هذا المجال بغيرهم من الشعوب المجاورة لهم

* مدرس بكلية الآداب – جامعة طنطا .

– الذين تعاملوا معهم – فاقتبسوا منهم الشيء الكثير ، وخاصة من الهنود واليونان والفرس والكلدان ، الشيء الذى أثرى معرفتهم بالإضافة إلى ما عرفوه بأنفسهم من ملاحظتهم وخبرتهم (٥). ومما يدلل على ذلك ، التأثير الكلداني – على سبيل المثال – فى معرفة العرب بالنجوم ، الألفاظ العربية الفلكية ذات الأصل الكلدانى مثل لفظ " المريخ " التى تقابل لفظة "مرداخ " فى الكلدانية ، ولفظ " زحل " التى تقابل " كادن " وألفاظ " ثور " و " السرطان " و "العقرب " و " الدلو " وهم يقابلون " ثورا " و " العقرب " و " دولا " فى الكلدانية (٦). ونقل العرب عن أهل اليونان معارفهم فى الفلك ، وذلك عن طريق أو بواسطة السريان – الذين كانوا الأكثر إلمامًا بعلوم اليونان – ومن هذا التراث اليونانى – على سبيل المثال – نقل سرجيس الرسعينى السريانى (ت٥٣٦م) رسالة فى تأثير القمر وفى حركة القمر ، وعنه أخذها العرب(٧).

وعلى الرغم مما نقله العرب عن الشعوب المجاورة لهم من معلومات فلكية هامة ، إلا أن العرب كانوا على معرفة كبيرة ووثيقة بالفلك ، حتى إن ابن صاعد الأندلسى يذكر أن ملوك حمير كانت لهم " ... مذهب فى آثار أحكام النجوم وميل إلى معرفة طبائعها " (٨). بل إنه يذكر أن الهمذانى صاحب كتاب " الإكليل فى أخبار حمير " يذكر أن معرفتهم الدقيقة بالفلك مكنتهم أن لا يستعملون أحد من قوادهم إلا بعد أن يـ " ... عرفوا مولده ووجدوا أولته من البروج والكواكب (وأنهم) ... إذا أرادوا غزو أمة من الأمم تخيروا لذلك الأوقات السعيدة والطوالع المشاكلة لمواليدهم والملائمة لنصب دولتهم ومكثوا فى ارتيادها الأزمان الطويلة حتى تمكنهم على اختيارهم ، فكانوا يبلغون بهذا حيث شاءوا من المراتب العالية " (٩). ويذكر ابن قتيبة فى فضل العرب علي غيرهم ، إنهم كانوا على علم وتفرد بعلم النجوم وأسمائها وأنوائها ومطالعها ومساقطها والاهتداء بها ، ويدل علي بقوله " ... وللعرب أسجاع فى طلوع النجوم تدل على علم جم كثير كقولهم إذا طلع سهيل برد الليل ، وضيف السقم ، وكان للحوار الويل ، فإذا طلع النجم اتقى اللحم ، وخيف السقم ، وهم أيضًا أعلم الناس بمخايل السحاب ، ومناطرة ومخلفة " (١٠).

وكانت العرب فى جاهليتها تعبد النجوم والكواكب ، فكانت حمير تعبد " الشمس "(١١) وكنانة تعبد " القمر " ، وجذام " المشترى " ، وقيس " الشعرى " ، وأسد " عطارد "(١٢) وكان العرب يعتقدون أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية ناطقة

وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله ، وأن كل ما يحدث فى قدرهم إنما هو على قدر ما كانت تجرى به الكواكب عن أمر الله ، فعظموها وقدموا إليها القرابين (١٣).

ونظراً للمعرفة الوثيقة للعرب بالفلك والنجوم ، حاجهم الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بذلك ، فقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدعوا الناس إلى النظر فى هذا الكون وتدبر آياته ، ومعرفة أنه من صنع الله سبحانه وتعالى ، ومن هذه الآيات قوله تعالى " والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون " (١٣). وأيضاً قوله تعالى " فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " (١٥).

ومثلما اهتم العرب بالفلك قبل الإسلام ، جاء اهتمامهم به فى الإسلام ، وإن كان بصورة أكبر ، حتى أن نزعتهم العلمية فى الفلك – التى لازمت العرب منذ انتشار الإسلام – كانت تقوى مع الأيام (١٦). وجاء هذا الاهتمام الشديد بالفلك نتيجة لحاجة المسلمين الماسة إليه ، فبعض الأحكام الشرعية الإسلامية ترتبط بالظواهر الفلكية ، مثل اتجاه القبلة وأوقات الصلاة واختلافها حسب المواقع والفصول تقتضى معرفة المواقع والفصول ومعرفة الموقع الجغرافى لكل بلد من البلدان وأيضاً حركة الشمس فى البروج (١٧)، إلى جانب حث الله سبحانه وتعالى للمسلمين على أنه التدبر فى أمر السماء وفى الشمس والنجوم والكواكب ، وهناك آيات كثيرة تحث المسلمين على ذلك ، ومنها على سبيل المثال ، قوله سبحانه وتعالى " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " (١٨).

ومن هنا جاء اهتمام المسلمين بهذا العلم ، فعملوا على إثراء تجربتهم الشخصية وتراثهم المتوارث فى هذا المجال بالنقل عن التراث العلمى للأمم المجاورة لهم ، فنهل العرب من التراث الهندى(١٩) عند نقلهم عن الثقافة الفارسية(٢٠) بالإضافة إلى التراث اليونانى (٢١). وقد أولى العباسيون – منذ قيام دولتهم – اهتماماً كبيراً بالفلك وبمؤلفاته ، وعملوا على ترجمتها إلى اللغة العربية ، فيذكر ابن صاعد الأندلسى أنه فى عام ١٥٦هـ / ٧٧٢م وفد على الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فى بغداد رجل فلكى من أهل الهند – لم يسميه – عالم بالحساب المعروف بالسند هند فى حركات النجوم ، وإنه التقى مع الفلكيين العاملين فى بلاد المنصور ،

فأمر الخليفة المنصور عالمه الفلكى محمد بن إبراهيم الفزارى(٢٢) أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية (٢٣).

ولم يكتف الخليفة المنصور بهذا ، بل أرسل إلى إمبراطور الروم يطلب منه إرسال بعض الكتب الفلكية اليونانية ، وطلب من علماء الفلك فى بلاطه أن يقوموا بترجمتها إلى اللغة العربية. وسار الخلفاء العباسيون من بعد على منهجه فى الاهتمام بالفلك وترجمه مؤلفاته إلى اللغة العربية ، وكان هذا واضحًا بشدة فى عصرى الرشيد والمأمون . ففى عهد الخليفة المأمون(٢٤) (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) ظهر عدد كبير من علماء الفلك ، ومنهم أحمد بن محمد النهاوندى ، ويحيى بن أبى منصور ، وسند بن على الذى ألف مع يحيى بن أبى منصور زيجا فلكيًا (٢٥)، وغيرهم الكثير من العلماء .

وتطور علم الفلك فى المشرق تطورًا كبيرًا بعد ترجمة أمهات الكتب الفارسية واليونانية فى هذا المجال ، وقد درسها العلماء المسلمون المتمون بعلم الفلك ، ثم أصلحوا أخطائها ، وأضافوا إليها الكثير مما أثرى هذا العلم وظهرت بصمات العلماء والعرب والمسلمون عليه بصورة واضحة وجلية .

علم الفلك فى الاندلس فى عصر الدولة الأموية (١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣٠م):

حرص المسلمون بعد فتحهم للأندلس على الاهتمام بالعلوم المختلفة ، للعمل على النهضة بهذا الإقليم البعيد ، الذى لم يعرف عن أهله قبل الإسلام اهتمام بالعلم على حسب وصف ابن صاعد الأندلسى (٢٦) . وتمثل اهتمام المسلمين هذا بالعلوم الدينية واللسانية فقد دون العلوم العقلية ، حيث يذكر أحد الباحثين المحدثين أن اهتمام الفقهاء الأندلسيين اقتصر على معرفتهم باتجاه القبلة وتعين مواقيت الليل والنهار على مدار العام للتعرف على أوقات الصلوات ، والتأكد من مواقيت الأهلة لتعيين بدايات الشهور العربية فقط (٢٧) . وكانوا لا يحتاجون إلى أكثر من ذلك ، ولهذا كانوا يصفون من يتعمق فى دراسة علم الفلك بالزندقة على حسب وصف ابن حزم (٢٨).

استمر تجاهل المسلمون فى الأندلس لعلم الفلك ودراسته فترة عصر الولاة (٩٥ - ١٣٨هـ/ ٧١٣ - ٧٥٥م) ولكن مع بداية حكم الأمويين (١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠م) تحركت نوازع العلماء الأندلسيون لدراسته والاستفادة من معارفه فى حياتهم اليومية(٢٩) .
ومن هنا نستطيع أن نحدد بداية الاهتمام بعلم الفلك فى الأندلس ببداية حكم الدولة الأموية فى

الأندلس (١٣٨هـ / ٧٥٥م) حيث رحل كثير من طلاب العلم إلى المشرق بغرض الحج وطلب العلم فيه ، فأخذوا ينهلون من العلوم فى المشرق – ومنها الفلك – ونقلوا ذلك إلى الأندلس عند عودتهم (٣٠).

تجمع المصادر والدراسات التاريخية الحديثة على أن البدايات الحقيقية لظهور علم الفلك فى الأندلس تبدأ فى منتصف القرن الثالث الهجرى / الثامن الميلادى ، وتحديداً فى عصر الأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٢هـ/٨٥٢-٨٨٥م)(٣١) ، حيث يذكر ابن صاعد الأندلسى أنه فى عهد ظهر العالم العالم أبو عبيده مسلم بن أحمد بن أبى عبيده البلنسى (ت٢٩٥هـ/٩٠٧م) المعروف بصاحب القبلة(٣٢) الذى كان عالمًا بـ ... حركات الكواكب وأحكامها "(٣٣). ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن اشتغال الناس بالعلوم الرياضية والفلكية يكاد يكون نادراً حتى زمن الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) (٣٤).

وبالعودة إلى المصادر التاريخية المتعددة ، توصل الباحث إلى أن أول ظهور لعالم أندلسى فى علم الفلك كان قبل ذلك وتحديداً فى عصر الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ – ١٧٢هـ / ٧٥٥ – ٧٨٨م) حيث يذكر المقرى أن الأمير هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ – ١٨٠هـ / ٧٨٨ – ٧٩٦م) استدعى من الجزيرة الخضراء(٣٥) المنجم المعروف عبد الواحد بن إسحاق المعروف بالضبى(٣٦) عندما تولى الحكم لكى ينبئه بما ظهر له فى طالعه(٣٧) . وكان الضبى مشهوراً بمعرفته بعلم النجوم والاطلاع على الحركات العلوية المنسوب إلى بطليموس ، وقد ذاعت شهرته فى مناطق واسعة فى الأندلس نتيجة لمهارته فى هذا المجال . مما يدل على أن هذا العلم – معرفة النجوم –(٣٨) كان معروفًا أيام الأمير عبد الرحمن الداخل بدليل استدعاء الأمير هشام الرضا للضبى فور توليه الحكم . ويعتبر الضبى أول منجم أندلسى ، وقد ترك لنا أرجوزة تنجيمه فى هذا المجال ، لم يبق منها إلا تسع وثلاثون بيتًا فقط!(٣٩).

يذكر المقرى أن أمراء الأندلس كانوا مهتمين بالتنجيم ، ولكنهم كانوا يتظاهرون بتجاهله خوفًا من العامة ، ولكنهم كانوا حريصين على الاطلاع عليه وتقريب العالمين به إليهم ، ومن هنا كان هذا العلم قاصراً على أهل الحكم فقط دون عامة الناس ، وذلك لأن العامة كانوا يطلقون على من يشتغل بالتنجيم لفظ " زنديق " (٤٠).

وفى عهد الأمير الأندلسى الحكم الربضى بن هشام الرضا (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦- ٨٢١م) ظهر عدد من الفلكيين الأندلسيين ، ومنهم سهل بن عثمان بن أبى حبيب المالقى (٤١)، وحسن بن محمد المالقى(٤٢) اللذان أرسل إليهما الأمير الحكم - عند وصوله إلى مالقة - رسول من قبله هو أحمد بن فارس ليعرف مطلع الكواكب المسمى " سهيل " فـ " ... وصفًا له وصفه (سهيل) وقت طلوعه " (٤٣). مما يدل على معرفته بالكواكب ، وسعيه إلى الاستزادة من هذا المجال . وفى عهده أيضًا ظهر العالم الفلكى والفيلسوف الأندلسى الشهير عباس بن فرناس(٤٤) الذى وصفه ابن سعيد المغربى بأنه كان ... فيلسوفًا حاذقًا ، وشاعرًا مفلقًا ، مع علم التنجيم " (٤٥).

وهو أول فلكى أندلسى ينسب إليه اختراع آلة فلكية ، حيث ذكر أنه صنع للأمير عبد الرحمن الأوسط آلة تسمى " ذات الحلق "(٤٦) لقياس الكواكب والنجوم ، كما تبين من الأبيات التى رفقها معها إلى الأمير الأوسط (٤٧). ثم اخترع عباس له أيضًا آلة أخرى لقياس الوقت سماها ابن سعيد باسم المنقانة Manqana (٤٨). فى حين يذكر أحد الباحثين المحدثين أن اسمها الميقاتة(٤٩) ويميل الباحث إلى الأخذ بالاسم الأخير لأنه الأنسب لوظيفتها . وقد صنع عباس فى أحد حجرات منزله هيكلاً للأجرام السماوية(٥٠) وهو أول نموذج للأجرام السماوية يصنع فى الأندلس .

تميز الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى المشهور بعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ/ ٨٢١ - ٨٥٢م) بحبه الشديد للعلم وتشجيعه للعلماء ، فيذكر ابن حزم أنه أرسل عباس بن ناصح الجزيرى(٥١) إلى العراق ليحضر له الكتب العلمية من هناك ، فأحضر له نسخة من كتاب " السند هند " فى الحساب والفلك ، وكانت أول نسخة من هذا المصنف تدخل الأندلس (٥٢). وهذا أول معلومة تذكر عن كتاب فلكى يدخل الأندلس . وكان للأمير عبد الرحمن الأوسط مترجمًا خاصًا به هو عبد الله بن الشمر بن نمير القرطبى(٥٣) الذى بشره بأن الإمارة ستصير إليه عن طريق التنجيم ، ولذلك أحسن إليه عندما تولى الإمارة ، وقربه منه وجعله منجمه ونديمه (٥٤).

كانت للمنجم عبد الله بن الشمر القرطبى مكانة هامة عند الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حتى أن الأمير لم يكن عنده من المنجمين مثله - على حسب وصف ابن سعيد "(٥٥) حتى أنه عندما غضب عليه ، ورفض التنجيم والمنجمين واعتبره " مخرفة ورجم بالغيب " ، استطاع عبد الله بن الشمر أن يعيد ثقة الأمير فيه وفى التنجيم (٥٦).

وفى أعقاب انتهاء حالة الاضطراب التى سادت الأندلس من جراء الثورات التى قام بها الخارجون على طاعة الأمويين فى قرطبة ، وهى ما تعرف بعصر الطوائف الأول (٥٧)، عادت حالة الهدوء إلى الأندلس نتيجة لجهود الأمير عبد الرحمن الناصر ، فأعاد للبلاد النظام والرخاء فى الداخل ، والاحترام والهيبة فى الخارج ، وزادت موارد الثروة ، وشجع الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم . ولذلك كان طبيعيًا أن يحدث تطور فى مجالات العلم ، وظهرت بوادر هذا فى الاهتمام الكبير بالفلك - مجال دراستنا - فظهر فى عهده عدد من العلماء الفلكيين المشهورين ، ومنهم ابن السمينة يحيى بن يحيى القرطبى (٥٨). الذى كان مشهورًا بحساب النجوم ومتصرفًا فى مختلف أنواع العلوم ، وتوفى سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م(٥٩)، وظهر العالم أحمد بن نصر(٦٠) (ت ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) صاحب كتاب " المساحة المجهولة " ، والعالم أبو القاسم مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن حاتم القرطبى (٢٩٣-٣٥٣هـ / ٩٠٥ - ٩٦٤م)(٦١) الذى كان مهتمًا بالتنجيم والفلك . ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن ما قام به أحمد بن نصر ومسلمة بن القاسم كان أمر مميزًا فى مجال الفلك فى الأندلس ، وإنه كان باكورة زرع أينع وأثمر فى عهد الخليفة الحكم المستنصر(٦٢) .

وفى عهد الخليفة الناصر ظهر أيضًا العالم الفلكى والطبيب الأندلسى الشهير عريب بن سعد(٦٣) الذى وضع مؤلفًا شهيرًا هو " تقويم قرطبة سنة " ٣٥٠هـ / ٩٦١م "(٦٤) وضعه سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠ - ٩٦١م ، ويعد هذا التقويم من أشهر التقاويم العربية ، حيث يذكر فيه أوقات السنة وفصولها ، وعدد الشهور وأيامها ومجارى الشمس ، بالإضافة إلى أخبار الزراعة وأوقات الفراسة ومطالع النجوم والأمطار والسنة الشمسية والأبراج ، بالإضافة إلى معلومات هامة عن أعياد النصارى (٦٥).

وفى عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ظهرت شخصية هامة من نصارى الأندلس(٦٦) كان له اهتمام بالفلك ، وهو ربيع بن زيد(٦٧) أسقف البيرة(٦٨) الذى ألف كتابًا فى التنجيم للحكم المستنصر فى " تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان" وفيه ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه(٦٩) وأثبتت الدراسة التى قام بها أحد المستشرقين المحدثين أن هذا الكتاب ما هو إلا ترجمة لتقويم قرطبة لعريب بن سعد ، أضاف إليه ربيع بن زيد إضافات يسيرة (٧٠).

ورغم ما تميز به الخليفة عبد الرحمن الناصر من حب لمجالسة العلماء والفلاسفة والعناية بالكتب ، إلا أن ابنه الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) قد فاقه فى

ذلك ، منذ نعومة أظفاره اطلع على العديد من العلوم - ومنها العلوم التى منع الخلفاء على عامة الناس دراستها وتدارسوها هم فى بيوتهم وقصورهم - مثل الفلسفة والتنجيم(٧١) ولذلك شب الحكم المستنصر على حب العلم والعلماء ودراسة مختلف أنواع العلوم ومنها الفلك .

وكان الخليفة الحكم يعتمد على تثقيف نفسه بنفسه ، إذ كان يحضر المصنفات من الأقاليم والمناطق النائية باذلاً فيها ما عظم من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه (٧٢).

وقد شجع الحكم المستنصر أبناء الأندلس على طلب العلم بعدد من الإجراءات التى قام بها، ومنها إقراره مبدأ إلزامية التعليم ، وخاصة فى مرحلة الكتاتيب وجعله مجانيًا ، ورفع مستوى التعليم فى المساجد ، وعمله على مكافأة المتفوقين من الطلاب ، بالإضافة إلى تشجيعه العلماء على التأليف ، مقدمًا لهم كل عون ومساعدة علمية وموجهًا إياهم إلى طبيعة العلوم التى تفتقر إليها خزائن الكتب فى الأندلس . وبالإضافة إلى بث روح التعاون بين العلماء فى التأليف(٧٣) ونتيجة لحب الحكم المستنصر للفلك والتنجيم وفد عليه أحد المنجمين المشهورين فى المشرق ، وهو المنجم أحمد بن فارس البصرى(٧٤) وكانت له مكانة هامة عند الحكم المستنصر ، حت إنه أصبح كبير المنجمين على عهده كما ذكر ابن بسام (٧٥). وقد أثمرت النهضة العلمية فى الأندلس فى عهد الخليفة الحكم المستنصر فى ازدهار علم الفلك ، وأصبحت المعلومات الفلكية تنا ش علنًا فى مجالس الخلافة بعد ما كانت تناقش همسًا وخيفة بعيداً عن أعين الفقهاء (٧٦). فظهر فى عهده عدد من أشهر الفلكيين الأندلسيين ومنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن أبى عيسى الأنصارى ، الذى وصفه ابن صاعد بأنه كان مقدمًا فى العدد والهندسة والنجوم (٧٧)، وينسب لهذا العالم الفلكى أنه - نتيجة لسياسة الحكم المستنصر العلمية - كانت له مجلس يعلم الطلاب فيه علم الفلك ، وهذه أول مرة يرد فيها ذكر ظهور مجلس يعلم الفلك للطلاب فى الأندلس .

وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر ظهر أول فلكى أندلسى ذو شأن - على حسب وصف أحد الباحثين المحدثين(٧٨) فظهر العالم الأندلسى الشهير أبو القاسم مسلمة بن أحمد الفرضى المجريطى (٧٩) القرطبى (ت٣٩٨هـ / ١٠٠٧م)(٨٠) وهو صاحب أول مدرسة فلكية هامة فى الأندلس ، جمع حوله عدد من الطلاب الذين أخذوا عنه علم الفلك ونقلوها عنه إلى طلابتهم ، حتى أن ابن صاعد يذكر أنه " ... أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينجب عالم بالأندلس مثلهم "(٨١) . وعرف مسلمة المجريطى بلقب إقليدس(٨٢) الأندلس(٨٣) . وحازت مدرسته

الفلكية من بعده شهرة واسعة ، حتى إن ابن حزم عدها من جملة فضائل أهل الأندلس (٨٤). ويعتبره أحد الباحثين المحدثين " إمام الرياضيين الأندلسيين " وذلك لأنه أول من بدأ النهضة الرياضية والفلكية فى الأندلس (٨٥).

وتنبع شهرة المجريطى من إنجازاته المتعددة فى مجال علم الفلك ، التى تمثلت فى رسالته المشهورة فى " الاسطرلاب "(٨٦) بعنوان " أبواب لا يستغنى من يروم عمل الاسطرلاب عنها "(٨٧). وكتاب له فى شرح كتاب بطليموس(٨٨) فى تسطيح الأرض (٨٩). وينسب إليه أيضًا شروح نظرية مينا لاوس(٩٠) ، وكتاب بعنوان " تمام علم العدد " أو " ثمار العدد " ، يذكر ابن صاعد الأندلسى أنه فى المعاملات (٩١). وله كتاب بعنوان " إصلاح رسالة الشكل الملقب بالقطاع "(٩٢) وله أيضًا ملخص لزيج البتانى(٩٣) سماه " تعديل الكواكب " (٩٤).

وأما أشهر أعمال مسلمة المجريطى فهو إصلاحه لزيج الخوارزمى(٩٥) إذ اهتم به اهتمامًا كبيرًا - كما يقول ابن صاعد - وحول تاريخه من التاريخ الفارسى إلى التاريخ العربى ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة(٩٦) وتوفى أعظم فلكى أندلسى فى القرون الثلاثة للهجرة سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٢م(٩٧) وينسب إلى مسلمة المجريطى مصنفات عدة فى الرياضة والكيمياء والفلسفة(٩٨) .

وقد ترك مسلمة المجريطى عدداً كبيراً من التلاميذ النجباء فى علم الفلك ، الذين حملوا رايته من بعده(٩٩) من أشهرهم أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن على الكرمانى (٣٦٨ - ٤٥٨هـ / ٩٧٨ - ١٠٦٥م) من أهل قرطبة ، وقد عاش فيها عمره ، ثم فر منها أثناء الفتنة إلى سرقسطة(١٠٠) وتوفى فيها سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥-١٠٦٦م)(١٠١) وأيضًا أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) المولود فى قرطبة ، وتعلم بها على يد أستاذه المجريطى ، ثم رحل عن قرطبة عند اندلاع الفتنة إلى تونس(١٠٢) وتوفى بها ، وهو فلكى منجم مشهور ، له عد مؤلفات منها كتاب " البارع فى أحكام النجوم " ، وعدة كتب فى المواليد والاختيارات ودلالات النجوم والمنبات والطب بالتنجيم وغيرها من المصنفات المنسوبة إليه (١٠٣).

ومن تلاميذ المجريطى أيضًا ابن الصفار ، أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقى (٣٧٠ - ٤٢٦هـ / ٩٨٠-١٠٣٤م) من أهل قرطبة ، وقام بالتدريس فيها فى علم العدد والحساب والنجوم ، ثم خرج من قرطبة فاراً عند اندلاع الفتنة إلى دانية(١٠٤) وعاش بها إلى

أن توفى سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م[١٠٥] وينسب لابن الصفار زيج مشهور مختصر على مذهب السند هند وكتاب موجز فى العمل بالاستطرلاب[١٠٦] ولابن الصفار أخ يسمى محمد كان مشهوراً بالاهتمام بالفلك أيضًا ، وله اسطرلاب مشهور " ... لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعًا لها منه" [١٠٧].

ومما يدلل على علو مكانة ابن الصفار فى علم الفلك أنه ترك عدداً من تلامذته فى الأندلس[١٠٨]، الذين ذاع صيتهم من بعده فى علم الفلك ، ومنهم ابن البرغوث [١٠٩]، والوسطى [١١٠]، وابن شهر [١١١]، والقرشى[١١٢] والأمطش المروانى[١١٣] ، وابن العطار[١١٤] .

ومن تلاميذ المجريطى المشهورين أيضًا ، ابن السمح ، أبو القاسم اصبغ بن محمد المهدى (٣٦٩ - ٤٣٦هـ / ٩٧٩ - ١٠٣٥م) كان من أهل غرناطة ، عاش فى رعاية الأمير الزيرى حبوس بن ماكس بن زيرى الصنهاجى (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)[١١٥] وكان مشهوراً فى الرياضة وفى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وكانت له أيضًا اهتمامات بالطب وبالهندسة[١١٦] وينسب إليه العديد من المؤلفات الفلكية الهامة ، ومنها كتابان فى الاسطرلاب، الأول فى التعريف - بطريقة صنعه ، وهو ينقسم إلى قسمين ، والكتاب الثانى فى طريقة استخدام الاسطرلاب والتعرف بجوامع ثمارها . وينسب إليه أيضًا زيج مشهور ، ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند ، وهو كتابكبير مقسم إلى جزئين ، الأول فى الجداول ، والثانى فى وسائل الجداول ، وله كتاب أيضًا فى تعديل الكواكب ، وقد توفى ابن السمح فى غرناطة فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من رجب سنة ٤٢٦هـ / ٢٩ مايو ١٠٣٥م[١١٧] وترك ابن السمح عدداً من التلاميذ منهم ما انفرد بذكره ابن صاعد ، وهو أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى الناشىء المهندس[١١٨] وابن الصفار المتطبب أبو جعفر أحمد بن عبد الله[١١٩] وللمجريطى تلاميذ آخرون منهم أبو الحسن على بن سليمان الزهرآوى[١٢٠] الذى كان عالمًا بالعدد والهندسة ومهتمًا بالطب إلى جانب الفلك الذى أخذه عن أستاذه المجريطى ، وينسب إليه كتاب فى المعاملات على طريق البرهان[١٢١] وهناك أيضًا أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمى الإشبيلى (ت ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م) وقد وصفه ابن صاعد بأنه كان من أشراف إشبيلية ، وبها ذاع صيته فى الفلسفة والهندسة والطب والنجوم [١٢٢] ومنهم أيضًا ابن الخياط أبو بكر يحيى بن أحمد (٣٦٧ - ٤٤٧هـ / ٩٧٧ - ١٠٥٥م) الذى كان أحد

المشهورين – أيام الأمويين وحتى فى عصر الطوائف – فى علم العدد والهندسة ، ثم مال إلى أحكام النجوم فبرع فيها واشتهر بها ، ودخل فى خدمة الخليفة الأموى سليمان بن الحكم بن الناصر (٣٥٤ – ٤٠٧هـ / ٩٦٥ – ١٠١٦م)(١٢٣) الملقب بالمستعين بالله أثناء الفتنة ، ثم دخل فى خدمة الأمير المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون(١٢٤) وتوفى بطليطلة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وقد قارب على الثمانين من العمر (١٢٥).

ومن العلماء الذين برزوا فى الأندلس فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجرى / العاشر والحادى عشر الميلادى ، عبد الله بن أحمد السرقسطى (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) الذى كان مشهوراً فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، وقد نقل ابن صاعد عن أحد تلامذته – الذى التقى به – أنه مالقى وأنه لا أحد أحسن تصرفًا فى الهندسة منه ولا أضبط (١٢٦). وقد اهتم السرقسطى بعلم النجوم وبدراسة حركات الكواكب ، وتوصل إلى أن هناك خطأ فى رصد تحركاتها ورد فى كتاب السند هند ، فعمل على تعديل حركات النجوم ، وقد أرسل بذلك إلى أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الإشبيلى – تلميذ مسلمة المجريطى – وتوفى السرقسطى فى بلنسية سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م(١٢٧).

ومن هؤلاء العلماء أيضًا برز العالم محمد بن أحمد بن الليث ، قاضى بلدة شريون(١٢٨) وكان متحققًا بعلم الحساب والهندسة ، عارفًا بحركات الكواكب وإرصادها ، بصيراً بالنجوم، وتوفى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م(١٢٩) وابن الليث يمثل صورة صادقة لمناخ العلم بمختلف أنواعه وفروعه الذى كان سائداً فى عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ، فمنصب القضاء لم يمنع صاحبه من الاشتغال بالفلك ورصد الكواكب والنجوم ، على عكس ما سيحدث بعد ذلك .

وفى عهد الخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ، اضطهد حاجبه القوى المنصور بن أبى عامر (٣٦٦ – ٣٩٢هـ / ٩٧٦ – ١٠٠١م)(١٣٠) اضطهد علماء الفلك والتنجيم والرياضيات ، حتى أنه منع تدريسها ولم يستثن سوى الحساب والطب . وكان تصرفه هذا راجعًا إلى رغبته فى أن يتقرب إلى عوام الأندلس ، كما يذكر المقرى (١٣١). ويذكر ابن عذارى ذلك ، فيذكر أن المنصور اشتهر بأنه " ... أشد الناس فى التغير على علم عنده شىء من الفلسفة والجدل فى الاعتقاد ، والتكلم فى شىء من قضايا النجوم (١٣٢). وكان المنصور بن أبى عامر يهدف إلى التقرب إلى العامة واستخدامهم فى أثناء صراعاته المختلفة داخل الدولة(١٣٣).

ولم يكتف المنصور بن أبى عامر بتحريم دراسة الفلك ، بل إنه أقدم على إتلاف وحرق ذخائر مكتبة الحكم المستنصر !(١٣٤) ومما لاشك فيه أن الكتب والمصنفات العلمية الخاصة بالفلك والتنجيم قد حرقت من جراء هذا الدمار الذى أصاب المكتبة نتيجة لكراهية المنصور للفلك والتنجيم ، وتحريمه لتدريسها . وكان هذا التصرف تقرباً للعامة ، وذلك لأن " ... كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة لقب زنديق ، وقيدت أنفاسه ، فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة "(١٣٥) . ولهذا لم يبرز عالم فى الفلك فى هذا الوقت حتى من كان مهتماً به أخفى اهتمامه ، ونبغ فى مجالات أخرى ، مثل أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بالكتانى (٣٤٠ - ٤٢٠هـ / ٩٥١ - ١٠٢٩م) (١٣٦). الذى اشتهر بالطب ودخل فى خدمة المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر من بعده ، وكان " ... ذا حظ من المنطق والنجوم " (١٣٧). ولكن الغالب أنه أخفى ذلك ، ثم هاجر إلى سرقسطة مع اندلاع الفتنة فى قرطبة ، واستقر بها حتى مات فيها سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م(١٣٨).

ويذكر المقرى - نقلاً عن الحجارى - أن المنصور بن أبى عامر كان يميل إلى الفلسفة والتنجيم والفلك ، ولكنه كان يظهر عكس ذلك تقرباً للعامة ، وذلك بقوله " ... وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجازى " (١٣٩). ويرى الباحث أنه لم يرد فى أى من المصادر التاريخية التى ترجمت لحياة المنصور بن أبى عامر ما يدل على اهتمامه بالفلسفة والفلك والتنجيم ، ويرى الباحث أنه حرم دراسة الفلك والتنجيم تقرباً من العامة لكسب ولائهم فى صراعاته وحروبه سواء الداخلية أم الخارجية .

وخلف عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، الملقب بالمظفر (٣٩٢ - ٣٩٩هـ / ١٠٠١ - ١٠٠٨م)(١٤٠) أباه فى إدارة الأندلس نيابة عن الخليفة هشام المؤيد ، وكان منجم الحكم المستنصر - أحمد بن فارس البصرى قد تنبأ له عند مولده بأنه " ... لم يولد قط بالأندلس مولود أسعد منه على أبيه وعلى نفسه ، وعلى حاشيته ، نعم وعلى أهل الأندلس " (١٤١) . وقد سار المظفر على نفس سياسة أبيه المنصور فى تحريم دراسة الفلك والتنجيم ، حتى أن المصادر الأندلسية لاتذكر ظهور أى من الفلكيين أو المنجمين المشهورين فى عهده . وخلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الملقب بشنجول (ت٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) (١٤٢) .

الذى لم يدم حكمه أو حجابته لهشام المؤيد طويلاً ، إذ سرعان ما قام عليه الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار ، الملقب بالمهدى(١٤٣) ونازعه الحكم ، مما كان سبباً في اندلاع الفتنة في قرطبة(١٤٤) ومنها انتقلت شراره الفتنة إلى باقى أرجاء الأندلس ، لتدخل الأندلس فى النفق المظلم الذى أدى إلى تفتت وحدة الأندلس ، وظهور دويلات صغيرة ، ومن ثم ظهور عصر الطوائف (٤٢٢ – ٤٤٨هـ / ١٠٣٠ – ١٠٩٥م) .

أثر علم الفلك فى الأندلس فى النهضة الأوروبية :

عمل الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى على الاقتباس من الحضارة الإسلامية والاستفادة مما وصلت إليه من تقدم ورقى فى مختلف العلوم والمعارف ، وذلك بترجمة هذا التراث العلمى الفريد ، وخاصة أن العلماء المسلمون نقلوا تراث العالم القديم ، سواء الفارسى أو الهندى أو اليونانى ، وقاموا على دراسته وتصحيح أخطاؤه ثم الإضافة إليه ، حتى أصبح عربياً خالصاً ، يحمل بصمات العرب وعبقريتهم .

ومن هنا بدأ عصر ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية ، وظهرت فى القرن السابع الهجرى / الثالث الميلادى الجامعات فى أوروبا ، التى ألهبت حماس الشباب الأوروبى التواق إلى المعرفة والعلم للاغتراف من بحار المعرفة المتمثلة فى المؤلفات العربية ، وذلك بترجمتها ثم دراستها .

ونال التراث العلمى الفلكى الأندلسى فى القرون الوسطى نصيباً كبيراً من الاهتمام العلمى الأوروبى به ، فالتراث العلمى الأندلسى فى الفلك والتنجيم منذ الفتح وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى كل محل دراسة واهتمام من الغرب الأوروبى فعملوا على ترجمته من العربية إلى اللاتينية ودراسته .

وكانت مؤلفات الفلكى الأندلسى الشهير أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) من أوائل المصنفات العلمية الفلكية التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية ، فقد نقل الغرب كتابه " إصلاح زيج الخوارزمى " إلى اللاتينية ، وترجع أهمية هذا الكتاب فى أنه عرف الغرب الأوروبى بزيج الخوارزمى مع تعديلات المجريطى للأخطاء التى وقع فيها الخوارزمى(١٤٥) . ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن اعتماد المجريطى على زيج الخوارزمى هو الذى أذاع صيت الخوارزمى فى الغرب المسيحى فى العصور الوسطى عندما بدأ الغرب يعمل على نقل الفكر والمعارف العربية إلى اللاتينية(١٤٦) .

وترجم أيضًا للمجريطي كتابه " شرح كتاب بطليموس فى تسطيح الكرة " من العربية إلى اللاتينية والعبرية وفقد أصله العربى ، فحفظت لنا الترجمة اللاتينية النص العربى سليمًا (١٤٧) وله أيضًا ترجم كتابه " غاية الحكيم "(١٤٨) إلى اللاتينية سنة ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ بأمر من الملك القشتالي الفونسو العاشر الملقب " بالعالم "(١٤٩) وانتشر في أوروبا باسم بكتريس picatrix وهو لاسم أبيو قراطيس وقد طبعت هذه الترجمة فى لايبزج سنة ١٩٣٣م / ١٣٥٢م مع ترجمته إلى الألمانية (١٥٠) .

وترجم كتاب " تعديل الكواكب " لأبى القاسم أصبغ بن محمد المهدى (٣٦٩ - ٤٢٦هـ / ٩٧٩ - ١٠٣٤م) تلميذ المجريطى إلى اللاتينية ومنها ترجم إلى سائر اللغات ، وضاع أصله العربى ولكنه وصل إلينا عن طريق ترجمته الإسبانية (١٥١). وكذلك ترجم الغرب الأوروبى كتاب " الاسطرلاب " لأبى القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقى ، المشهور بابن الصفار - تمليذ المجريطى - إلى اللغة اللاتينية ، ووصل إلينا عن طريق ترجمته من الإسبانية إلى العربية، والتى قام بها العالم الإسبانى الشهير مياس بيا كروزا Millas Vallicrosa(١٥٢).

وترجمت كتب كثيرة منها " كتاب البارع فى أحكام النجوم " و " كتب فى المواليد والاختيارات ودلالات النجوم والمذنبات والطب بالتنجيم " إلى اللاتينية ، وهى كلها تنسب إلى تلميذ المجريطى ، العالم الفلكى الأندلسى الشهير أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) (١٥٣).

كما قام الأسقف ربيع بن زيد القرطبى بترجمة تقويم عريب بن سعد " تقويم قرطبة سنة ٣٤٩هـ / ٩٦١م " إلى اللاتينية مع إضافات تهم نصارى الأندلس (١٥٤)، وقد حفظت لنا هذه الترجمة تقويم عريب بن سعد بعد ما ضاع أصله العربى ، وقام أحد المستشرقين المحدثين بترجمته إلى العربية بسنة ١٨٧٣م(١٥٥).

هكذا اهتم الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى بترجمة مؤلفات علماء الفلك الأندلسيون فى الفترة محل الدراسة ، وعلى قدر ما أفادت هذه الترجمات الغرب الأوروبى فى الاطلاع على أهم ما توصل إليه العلماء الأندلسيون فى مجال الفلك ، فقد أفادتنا هذه الترجمات فى حفظ أصول هذا التراث الفلكى الأندلسى - وحتى فى لغات متعددة - بعد ما ضاع أو فقد أصله العربى . الأمر الذى جعلنا نقف على مدى ما توصل إليه العلماء المسلمون من تقدم ورقى فى هذا الجزء الغالى من دولة الإسلام .

الهوامش

١ – يحيى عبد الأمير شامي : النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م ، ص ٣٦ – ٣٧ .

٢ – ابن صاعد الأندلسي : كتاب طبقات الأمم ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط١ ، ١٩١٢م ، ص ٤٥ .

٣ – الجاحظ : كتاب الحيوان ، جـ٦ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سلسلة الذخائر رقم (٧٩) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، ص ٣٠ ومما يدلل على معرفة العرب الكبيرة بالنجوم ما ذكره الجاحظ بقوله أن أعرابية سئلت هل تعرفين النجوم ؟ ، فقالت : سبحان الله أما أعرف أشباحًا وقوفًا على كل ليلة . الجاحظ : المصدر السابق ، ٢ ، ص ٣١ .

٤ – ترى المستشرقة زيجرد هونكه أن تأثير النجوم على حياة العرب بالصحراء كان أكبر من تأثيرها على حياة الإغريق أو الجرمان أو إي شعب آخر ، لأن العرب قوم رحل في فضاء فسيح لا نهاية له ، وأنهم اعتبروا أن قبة السماء هي خيمتهم ، قبة زاد تألقها هواء الصحراء الجاف ، وزينتها النجوم اللوامع ، فظهرت في حلة لا أروع ولا أجمل منها . زيجرد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩ ، ص ١١٥ ، عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د.ت ، ص ٧٢ –٧٣ .

٥ – يحي عبد الأمير : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٦ – يحيي عبد الأمير : نفسه ، ص ٣٧ .

٧ – أحمد أمين : فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص ٤٨ .

٨ – ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٢ .

٩ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

١٠ – ابن قتيبة : فضل العرب والتنبيه على علومها ، تحقيق ولين محمود خالص ، منشورات المجمع الثقافي بأبوظبي ، أبو ظبي ، ط١ ، ١٩٩٨ ، ص ١٢٧ – ١٣١ . ويذكر ابن صاعد الأندلسي أن لأبي حنيفة الدينوري كتاب هام في الأنواء يتضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح وتفضيل الأزمات وغير ذلك . ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٥ .

١١ – كان للشمس مكانة عظيمة عند عرب الجنوب ، حتى أنهم عبدوها ، وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم في سورة النمل في قوله تعالى : { إني وجدت امرأة تملكهم أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله } القرآن الكريم : سورة النمل ، آية رقم (٢٣ ، ٢٤) . ويذكر يحيي عبد الأمير أن العرب كان يعتبرون الشمس ملاك ذو نفس عاقلة ، وهي أصل النور في

القمر والكواكب ، وأقاموا تمثالاً يمثل الشمس عبارة عن صنم يحمل بيده جوهراً على لون النار ، وبنوا لها بيتاً كان له سدنة وحجبة ، وكانوا يقيمون فيه يصلون ويصومون ويتبركون ويشفعون وفاءً لنذرهم . عبد الأمير : النجوم في الشعر العربي ، ص ٥٧ – ٥٨ .

١٢ – ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٣ .

١٣ – المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١٢ ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت، ط١ ، ١٩٨١م ، ص ٤٦١ ؛ محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ، مطبعة الوادي الجديد ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٥٢ .

١٤ – القرآن الكريم : سورة ياسين ، الآيات ٣٨ – ٣٩ – ٤٠ .

١٥ – القرآن الكريم : سورة الواقعة ، الآية ٧٥ ، ٧٦ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن الآيات حول الفلك وحركته وعظمة الله سبحانه وتعالى ، انظر : ابن رستة : الأعلاق النفسية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ٥ – ٧ .

١٦ – زيجريد هونكة : شمس العرب ، ص ١٩٥ ، هامش (٥٦) .

١٧ – محمد أحمد أبو الفضل : أضواء على النشاط العلمي في الأندلس ، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص ٣٧٠ .

١٨ – القرآن الكريم : سورة البقرة الآية (١٧٤) .

١٩ – يذكر ابن النديم في الفهرست أن رجلاً هندياً يدعى كنكه الهندي وصل إلى بغداد سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م وإنه التقى بالخليفة المنصور ، وإنه اتصل أيضاً بالفلكيين العاملين في بلاط المنصور ، وهذه هي أولى الإشارات إلى التأثير الهندي في علم الفلك عند المسلمين . ابن النديم : الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ ، ص ٤٢ ، في حين يذكر ابن صاعد أنه وصل إلى بغداد سنة ١٥٦هـ / ٧٧٣م . ابن صاعد : طبقات ، ص ٥١ ؛ جوان فيرنيه : الرياضيات والفلك والبصريات مقال نشر في كتاب تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم (١٢) ، الكويت ، ط٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ ، وعن كنكه الهندي انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ٧ ، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازي جامعة الملك سعود ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، ص ١٣١ – ١٣٢ .

٢٠ – يذكر جوان فيرنيه أنه من الصعب علينا الفصل بين الثقافة الهندية والثقافة الفارسية في بيان تأثير الثقافة الفارسية على علم الفلك عند المسلمين ، ويضرب مثالاً على ذلك في زيج الشاه Zij-Shah ولمزيد من التفاصيل انظر : جوان فيرنيه : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

٢١ – يذكر جوان فيرنيه أن التراث الأكثر تأثيراً في معرفة العرب بعلم الفلك هو التراث اليوناني ، حيث نقل العلماء العرب كتب يونانية فلكية شهيرة مثل كتاب " المجسطي Al Magest " ومؤلفات ميطن Meton، واقطين Eucteman ، وكتاب الكرة المتحركة أو كتاب " الطلوع والغروب " لـ أوطولوكس Autolycus ،

وكتاب المدخل إلى علم الفلك لجيمنيوس الروديسى Geminus of Rhodes وغيرهم من العلماء اليونانيين جوان فيرنيه : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ ، ولمزيد من التفاصيل انظر : القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، د.ت، ص ٩٥ - ٩٧ ، فتحية النبراوى : النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ص ٩ ، ١٩٩٩م ، ص ١٩٣ ، فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ، مج ٧ ، ص ٤١ - ١٢١ ، زيجريد هونكه : شمس العرب ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
Sabra (Abd El-hamid) : The Genius of Arah Civilization, second ed., England, 1983, p. 154 - 155.

٢٢ - عنه انظر فؤاد سزكين : المرجع السابق ، جـ٧ ، ص ٤٥٨ .

٢٣ - يذكر ابن صاعد أن الفزارى ترجم هذا الكتاب ، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون باسم " السندهند الكبير " ، وظل هذا الكتاب مستخدماً حتى عصر المأمون ، حتى اختصره الخوارزمى وصنع منه زيجه المشهور . ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٤٩ - ٥٠ ؛ فتحية النبراوى . المرجع السابق ، ص ١٩٣ ؛ قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، دار العلم ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٣م، ص ١١٠ - ١١١ .

٢٤ - عنه انظر : خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم العمرى ، دار طيبة ، السعودية ، ط٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٤٦٧ - ٤٨٠ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، د.ت ، ص٤٤٤ - ٤٧٠ ؛ ابن طباطبا العلوى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، د.ت ، ص ٢١٦ - ٢٢٩ ، القضاعى ، تحقيق جميل عبد الله المصرى ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ص ٤٢٩ - ٤٤٠ ؛ ابن العمرانى : الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرانى ، دار العلوم ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م، ص ٩٦ - ١٠٤ ؛ ابن الساعى : تاريخ الخلفاء العباسيين ، تحقيق عبد الرحيم الجمل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ٤٧ - ٦٩ ؛ محمد مصطفى هدارة : المأمون الخليفة العالم ، سلسلة أعلام العرب رقم (٥٩) الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٦م ، ص ٢٢ - ١٤٤ .

٢٥ - الزيج وجمعها أزياج هى فرع من فروع علم الفلك ، وكلمة زيج هى ما تشبه اليوم جداول وهى تشبه فى الوقت الحاضر جداول اللوغريتمات ، وهى صناعة حسابية تعتمد على القوانين العددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته وما أدى إلى برهان الفلك فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك . ويمكن استخدام الزيج فى معرفة مواضع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرضى من قبل حسبات حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الفلك . لمزيد من التفاصيل ، انظر : ابن الأكفانى : إرشاد المقاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم ، تحقيق عبد المنعم محمد عمر ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٠٥ ؛ زين العابدين متولى : الفلك عن العرب والمسلمين ، جـ٢ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

٢٦ - ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٢ .

٢٧ – انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت ، ص ٤٤٧ .

٢٨ – المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ٤ ، تحقيق يوسف محمد البقاعى ، دار الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م ، ص ١٦٨ .

٢٩ – يذكر ابن صاعد ذلك بقوله " .... بعد أن توطد الملك لبنى أمية ... فتحرك ذوو الهم منهم لطلب العلم وتنبهوا لإشارة الحقائق " . ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

٣٠ – حول الرحلة فى طلب العلم ، انظر : عبد اللطيف مؤمن : رحلات الأندلسيون نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفى والأصالة الثقافية بالأندلس ، مقال نشره ضمن ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضارى ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس ، المغرب ، ١٩٩٣م ، ص ٢٧٣ – ٢٨٦ ؛ سعد عبد الله البشرى : الحياة العلمية فى عصر الخلافة فى الأندلس ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٩١ – ٩٨ .

٣١ – عنه انظر مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق محمد زينهم ، دار الفرجانى ، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٤م ، ص ١٢١ – ١٢٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٤ ، تحقيق أحمد أمين ، دار الكاتب العربى ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٤٩٣ – ٤٩٦ ؛ ابن الأبار: الحلة السيراء ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص ١١٩ – ١٢١ ؛ ابن سماك العاملى : الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ، تحقيق محمود على مكى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ١٠١ – ١٠٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م ، ص ٢٢٨ – ٢٤٢ .

٣٢ – هو أبو عبيده مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة البلنسي : المعروف بصاحب القبلة (ت٢٩٥هـ / ٩٠٧م) ، وكان نابغاً فى الحساب والفلك ، عنه انظر : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ١٢٦ ، ترجمة رقم (١٤٢٠) ، كمال أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية فى العصر الإسلامى ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، د.ت ، ص ٣٠٧.

٣٣ – ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٦٤ .

٣٤ – انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٤٤٧ .

٣٥ – عن الجزيرة الخضراء انظر : محمد فهمى إمبابى : تاريخ مدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية منذ سقوط الدولة العامرية وحتى استيلاء القشتاليين عليها ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، آداب طنطا ، ١٩٩٧م ، ص ٣٣ – ٤٦ .

٣٦ – المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٢١ .

٣٧ – يذكر المقرى أن الصبى إعفائه من هذا الأمر ، ولكن بعد إصرار هشام الرضا ، حدثه بأن طالع الأمير يخبره بأنه لن يعيش أكثر من ثمانية أعوام . المقرَى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢١ ، السيد سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٢١٩ .

٣٨ – التنجيم : هو معرفة أثر الكواكب فى أحوال الناس ومعيشتهم وأرزاقهم ، وقد رفض العلماء العرب التنجيم ودعوا إلى بطلانه وتسخيف المعتقدين فيه ، ومنهم الكندى في رسالته " العلة القريبة الفاعلة للكون والفساد " ، وكذلك الفارابى فى رسالته " النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم " ، وكذلك ابن سينا فى رسالته " رسالة فى أبطال أحكام النجوم " ؛ وكذلك ابن حزم الأندلسى الذى دعى إلى الأخذ بالعقل ومحاربة الخرافات ومحاربة الآراء والاقوال فى أثر النجوم فى حياة الناس . ورغم هذا الرفض لموضوع التنجيم ، إلا أن العلماء المسلمين لم يمنعهم هذا من الاشتغال بالفلك ولكن من الناحية العلمية .

٣٩ – يذكر خوليو ساسو : أن التنبؤات التنجيمية الموجودة فى هذه الأرجوزة تستند إلى نظام الصلب اللاتينى المتأخر (طريقة أحكام الصلوب) . خيوليو ساسو : العلوم الدقيقة فى الأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، جـ٢ ، تحرير سلمى الجيوشي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٣٢١ .

٤٠ – المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٠٨ .

٤١ – انفرد ابن عساكر وابن خميس : بالترجمة لهذا العالم المالقى ، حيث ذكراً إنه من أهل منطقة سهيل الواقعة غرب مالقة ، وإنه كان إمام مسجد أبى زيد . عنه انظر : ابن عساكر وابن خميس : إعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ص ٣٥١ ، ترجمة رقم (١٦٣).

٤٢ – لم أعثر على ترجمة له فى كتب الطبقات الأندلسية أو حتى كتب التاريخ باستثناء ابن عساكر وابن خميس فى أعلام مالقة ، ص ٣٥١ .

٤٣ – ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ٣٥١ .

٤٤ – هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس ، أصله من تاكرنا (كوره رنده) جنوب الأندلس ، ينتمى إلى أسرة بربرية وقد نشأ فى قرطبة فى أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ودرس بها ، وبرع منذ نعومة أظفاره فى الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك إلى جانب الشعر والأدب والموسيقى . وظهرت عبقريته منذ عهد الأمير الحكم الربضى ، وعاصر بعده ولده الأمير عبد الرحمن بن الحكم ثم حفيده الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد حظى بمكانة هامة لدى هؤلاء الأمراء ، وقد مدحهم بأشعاره وأدهشهم بمخترعاته . وتوفى فى أعقاب وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٧م. عنه انظر : بن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٤ ، ص ٤٩٢ ؛ ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل

الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ٥١١ ، هامش (٢٧٩) الحميدى : جزوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٣١٨م ، ترجمة (٧٣١) ، الضبي : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ٤٣٦ ؛ المغربي : ترجمة (١٢٤٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ١ ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٨م ، حتى ٣٣٣ ، ترجمة (٢٣٩) ، ابن سماك العاملي : الزهرات ، ص ١٣٢ ، الزهرة (٨٦) ، محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٦٦ - ٢٧٠؛ أندلسيات ، كتاب العربى رقم (٢٠) ، الكويت ، ١٩٨٨م ، ص ٢٤ ؛ الزركلى : الإعلام ، جـ٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٨٦م ، ص ٢٦٤ .

٤٥ - ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٣٣ .

٤٦ - ذات الحلق : هى عبارة عن عدة حلقات متداخلة ، فى وسطها كرة معلقة تمثل حركة الكواكب السماوية ، وهى التى تسمى فى اللغة الحديثة sphere Armillaire . عنان : المرجع السابق ، ص ٢٦٧، هامش (١) .

٤٧ - يذكر الأستاذ عنان أن عباس بن فرناس كتب أبيات شعرية أرفقها بهذه الآله - ذات الحلق - إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط موضحًا فيها وظيفتها بقوله :

قد تم ما حملتنى من آلـه ... أعيا الفلاسفة الجهابذة دونى
لو كان بطليموس ألهم صنعه ... لم يلشقل بجداول القانون
فإذا رأته الشمس فى آفاقها ... بعثت إليه بورهـا الموزون
ومنازل القمر التى حجبت معًا ... دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيها بالنهار كما بدت ... بالليل فى ظلماتهن الجون

عنان : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

٤٨ - ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٣٣٣ ، ترجمة (٢٣٩) ، يذكر جوان فيرنيه أن المنقانة Manqana تعتبر أول ساعة مائية صنعت فى الأندلس ، وأنها أصبحت النموذج الأصلى للساعات المائية التى صنعت بعد ذلك فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وكان بإمكانها تحديد أوقات الصلاة بصورة تقريبية ؛ جون فيرنيه : العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية فى الأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، جـ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٣٠٠ ، الزر كلى : الأعلام ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ .

٤٩ - عنان : نفسه ، ص ٢٦٧ .

٥٠ - جوان فيرنيه : المرجع السابق ، ص ١٣٠٠ .

٥١ - عنه انظر الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٤م ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ترجمة (٢٠٦) ؛ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ،

جـ٢ ، ص ٥٠٤ ، ترجمة (٨٧٩) ، ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٣٢٤ ، ترجمة (٢٣٢) ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص٤٨ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٦١ ؛ محمد فهمى : تاريخ مدينة الجزيرة الخضراء ، ص ٧٠ – ٧١ ، هامش (٤) .

٥٢ – ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٤٥ .

٥٣ – عنه انظر ابن الأبار : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١١٦ – ١١٨ ؛ ابن سعيد : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٢٤ – ١٢٧ ، ترجمة رقم (٥٩) .

٥٤ – ابن سعيد : نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

٥٥ – ابن سعيد : نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

٥٦ – ابن سعيد : نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

٥٧ – لمزيد من التفاصيل عنها انظر ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٢م ، ص ١١٥ – ١٢٤ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ، ط١ ، ١٩٨٣م ، ص ١٢٥ – ١٢٦ ؛ ابن حيان: المقتبس ، القطعة الخاصة بعصر الأمير عبد الله بن محمد ، تحقيق إسماعيل العربى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص ١٦-٤٦ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ١٢١ – ١٢٧ ؛ ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٤ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٦٨م، ص ٢٨٨ – ٢٩٢ .

٥٨ – عنه انظر ابن صاعد : طبقات الأمم ، ص ٦٥ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٤٤ .

٥٩ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

٦٠ – عنه انظر ابن البناء المراكشى : المقالات فى علم الحساب ، تحقيق أحمد سليم سعيدان ، دار الفرقان، الأردن ، ١٩٨٢م ، ص ١٥ ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ١٦٨ .

٦١ – عنه انظر ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ، ص ١٢٨ – ١٣٠ ، ترجمة (١٤٢٣) .

٦٢ – ابن البناء المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٥ – ١٦ .

٦٣ – عريب بن سعد القرطبى (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٩م) مؤرخ وطبيب وفلكى أندلسى ، من أصل إسبانى نصرانى أسلم أباؤه واستعربوا وعرفوا ببنى التركى ، استعمله الناصر على كورة أشونه سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م واستخدمه الحكم المستنصر أيضًا ، وارتفعت مكانته لدى المنصور بن أبى عامر ، وله مصنفات عدة منها تاريخه الذى اختصره من تاريخ الطبرى وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وله كتاب فى الطب بعنوان " كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين " . بالإضافة إلى تقويمه الشهير " تقويم قرطبة سنة ٣٤٩هـ / ٩٦١م" . عنه انظر ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، القسم الأول ، ص ١٤١ – ١٤٣ ، ترجمة رقم (٢٩١) ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢٠٦ ، الزركلى : الأعلام ، جـ٤ ، ص ٢٢٧ .

٦٤ – نشر دوزى R.Dozy هذا التقويم تحت عنوان :
La Calendrier de Codoue de L'annee 961, Leyde, 1873 .

٦٥ – لمزيد من التفاصيل انظر ابن عبد الملك : المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ١٤١ – ١٤٣ ، ترجمة رقم (٢٩١) ، عبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٣٤ ، بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ٤٨٧ – ٤٨٨ ، هامش (٤١) .
R.Dozy : op.cit., p. 2-99 .

٦٦ -عبادة كحيلة : المرجع السابق ، ص ١١٥ – ١٣٧ .

٦٧ – ربيع بن زيد : يعرف عنه نصارى الأندلس باسم ريثموندو Recemundo ، وكان سفيراً من قبل الخليفة الناصر إلى ملوك أوروبا ، فقام بعدد من السفارات وتخلي عن منصبه كأسقف للبيرة . عنه انظر المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ١٣٨ ؛ عبادة كحيلة : نفسه ، ص ١٣٣ .

٦٨ – عنها انظر البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبد الرحمن حجى ، دار الإرشاد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨م، ص ٦٤ ، ٨٤ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٩٩ ؛ الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٨ – ٢٩.

٦٩ – المقرى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٣٨ .

٧٠ – بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨ ، هامش (٤) ، عبادة كحيلة : نفسه ، ص ١٣٣ – ١٣٤ ؛ الزركلي : الأعلام ، جـ٤ ، ص ٢٢١ .

٧١ – وائل أبو صالح : جهود الحكم المستنصر فى تطور الحركة العلمية فى الأندلس ، مقال بمجلة دراسات أندلسية ، العدد السادس ، تونس ، ١٩٩١م ، ص ٢٩ .

٧٢ – يذكر تليد الخصى – متولى خزانة الكتب للحكم المستنصر – أن عدد الفهارس لهذه المكتبة بلغ أربع وأربعون فهرساً ، في كل فهرس عشرون ورقة ، وقد بلغ عدد هذه الكتب ما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ألف مجلد ، قل أن يوجد مجلد يخلو من قراءة أو تعليق أو تعقيب له على مادته . المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمى ، دار الكتاب ، المغرب ، ط٧ ، ١٣٧٨هـ ، ص ٤٣ ، هامش (٢) ؛ عبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٢١ . وقد ذكر القفطى أنه وقع فى يديه أحد الكتب التى علق عليها الحكم المستنصر بخط يديه . القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٩٥ .

٧٢ – لمزيد من التفاصيل انظر وائل أبو صالح : المرجع السابق ، ص ٣٢ – ٣٧ ، وقد وصف ابن صاعد ما جمعه الحكم المستنصر من مؤلفات بأنه يضاهى ما جمعه العباسيون فى الأزمان الطويلة . ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٧٤ – عنه انظر فؤاد سزكين : تاريخ التراث العلمي ، جـ٧ ، ص ٥١٥ .

٧٥ – ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، قسم ٤ ، جـ١ ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ص ٥٩ . ولابن فارس نبؤة لعبد الملك بن المنصور بن أبى عامر عند مولده ، عنها انظر ما تقدم .

٧٦ – ابن البناء المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

٧٧ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٨ .

٧٨ – ابن البناء المراكشي : نفسه ، ص ١٨ .

٧٩ – مجريط Madrid : مدينة أندلسية بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وهي على مقربة من طليطلة ، وكان بها قلعة كبيرة وبها مسجد جامع . عنها انظر الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٢٣ .

٨٠ – ولد فى مجريط وعاش فى قرطبة وبها مات سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م ، وتعلم على يد معلم يدعى عبد الغافر بن محمد ونبغ فى الهندسة . ويعتقد أنه زار المشرق بعد سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، وهناك درس زيج الخوارزمي ورسائل إخوان الصفا ، ثم عاد إلى الأندلس وساهم فى إثراء علم الفلك فى الأندلس بشكل كبير . عنه انظر ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ – ٧٠ ؛ القفطي : أخبار العلماء ، ص ٣٢٦ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار النهضة العربية، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٤٤ ؛ ابن البناء المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٨ – ٢٠ ؛ انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ ؛ أمين توفيق الطيبى : العلوم العربية فى الأندلس وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، مقال نشر فى كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامي ، الدار الأندلسية ، طرابلس ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص ٣٢٧ .

٨١ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

٨٢ – إقليدس : عالم رياضة يونانى نشأ فى الإسكندرية ، وأنشأ مدرسة مشهورة بها ، وقام بتنظيم علم الرياضة فى عصره وضمنه مؤلفه " الأصول " ، وترجم هذا الكتاب إلى العربية فى القرن الثامن الميلادى / الثاني الهجرى ، ثم نقل من العربية إلى اللغات الأوروبية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . القفطي : المصدر السابق ، ص ٦٢ – ٦٤ ؛ ابن المطران : بستان الأطباء وروضة الألباء ، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ٢٨٤ .

٨٣ – بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

٨٤ – يذكر بن حزم في رسالته فى فضل أهل الأندلس أن علم الهندسة والعدد لم يحقق فيه الأندلسيون شهرة واسعة إلا بوجود مسلمة المجريطي ، وذلك بقوله " ... وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا فى هذا العلم نفاذ ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا فى تمييز المحسن من المقصد فى المؤلفين فيه من أهل بلدنا ، إلا أننى سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول إنه لم يؤلف فى الأزياج مثل زيج مسلمة ، المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ١٧١ .

٨٥ – زين العابدين متولى : الفلك عند العرب والمسلمين ، جـ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ٦٠ ، وهناك ارتباط شديد بين الدراسات الرياضية والفلكية ، ولذلك نجد أن عدد كبير من العلماء جمعوا إلى جانب مهارتهم فى الرياضيات براعة فى الفلك ، وهذا راجع إلى حاجة الفلكى إلى الحساب والهندسة لمعرفة مواضع الكواكب ، فالزيج – الذى عن طريقه تتعرف على حركة كل كوكب وموضعه فى فلكه – عبارة عن عملية حسابية قائمة على قوانين عددية على حسب وصف ابن خلدون ، وبالتالى فهناك ارتباط وثيق بين الحساب والفلك . ابن خلدون : المقدمة ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦م ، ص ٣٠٦ ؛ سعد عبد الله صالح البشرى : الحياة العلمية فى عصر الخلافة فى الأندلس ، منشورات معهد البحوث العلمية ، السعودية ، ١٩٩٧م ، ص ٣٥٨ .

٨٦ – الإسطرلاب : كلمة الإسطرلاب كلمة يونانية الأصل هى " الإسطرلايون " وأطلقت على عدة آلات فلكية تنحصر فى ثلاثة أنواع رئيسية بحسب ما إذا كانت تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو أو مسقط هذا المسقط على خط مستقيم . وللاسطرلاب أنواع كثيرة منها التام والمسطح ، والطومارى ، والهلالى ، والزورقى والعقربى وغيرها من الأنواع . لمزيد من التفاصيل انظر نللينو Nallino : مادة إسطرلاب ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢ ، انتشارات جهان ، د.ت ، ص ١١٤ – ١١٨ ؛ زين العابدين متولى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٨٠ – ٨٧ ؛ أ. فايجرت ، هـ . تسمرمان : الموسوعة الفلكية ، ترجمة : عبد القوى عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢ ، ص ٤١ .

٨٧ – نشر العالمان الإسبانيان ج . فرنت ، وم أ. كاتالا J. Vernet & M.A. Catala هذه الرسالة فى مجلة الأندلس ، العدد (٣٠) سنة ١٩٦٥م : ابن البناء : المقالات ، ص ١٩ – ٢٠ .

٨٨ – عنه انظر ابن البناء : المصدر السابق ، ص ٥٧ – ٦٧ .

٨٩ – هذا الكتاب نقل إلى العربية عن طريق ترجمته من اللاتينية والعبرية ، لأن الأصل العربى فقد . ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ .

٩٠ – ابن البناء : نفسه ، ص ١٨ . وعن مينالاوس انظر : القفطى : أخبار العلماء ، ص ٣٢١ .

٩١ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ .

٩٢ – ابن البناء : نفسه ، ص ١٩ .

٩٣ – البتانى : هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتانى (٢٤٠ – ٣١٧هـ / ٨٥٤ – ٩٢٩م) أحد أعلام الفلك عند العرب وأعظم علماء عصره ، من نواحى حران على مقربة من نهر الفرات بالعراق ، ونشأ فى مناخ علمى واشتهر بزيجه المعروف ، بالزيج الصبانى " الذى يعتبر أحد الجداول العربية القليلة التى انتشرت فى أوروبا فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى بعد ترجمته إلى اللاتينية . وترجع أهمية هذه الجداول إلى أن حساباتها تمت بعد أرصاد دقيقة واسعة المدى . وله عدة مؤلفات فلكية هامة منها كتاب " معرفة مطالع البروج " . ورسالة فى تحقيق أقدار الاتصالات ، وشرح أربع مقالات لبطلميوس ، بالإضافة إلى زيجه المشهور . عنه انظر القفطى : أخبار العلماء ، ص ٩٧ –

٩٨ ، ١٥٣ ، ٢٨٠ ؛ إمام إبراهيم أحمد : تاريخ الفلك ، ص ٣٩ – ٤٠ ، زين العابدين متولى : الفلك عند العرب ، جـ١ ، ص ١١٦ – ١١٩ .

٩٤ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٤ .

٩٥ – أبدع الخوارزمى (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) فى علم الفلك ، وله أبحاث ومصنفات مبتكرة فيه وفى علم المثلثات وقد صنع زيجا – أ جداول فلكية – سماه " السند هند الصغير" جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند فى تعديل الميل ، فجعل تعديله على مذهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطلميوس . ولهذا الزيج أهمية كبيرة حيث كان له أكبر الأثر فى الأزياج الأخرى التى صنعها علماء العرب ، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه ، وهو ما يزال صالحًا للاستخدام حتى يومنا هذا . وللخوارزمى مؤلفات فلكية هامة منها كتاب " زيج الخوارزمى " ، وكتاب " تقويم البلدان " ، وكتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . والخوارزمى من أعظم العلماء الذين تركوا مآثر جليلة فى العلوم الرياضية والفلكية . عنه انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ، جـ٧ ، ص ١٨٤ ؛ زين العابدين متولى : الفلك ، ص ٥٤ – ٥٥ ؛ إمام إبراهيم أحمد : تاريخ علم الفلك ، ص ٣٥ – ٣٦ .

٩٦ – ابن صاعد : طبقات ، ص ٦٩ ؛ ابن البناء : المقالات ، ص ١٨ ؛ زين العابدين متولى : المرجع السابق، ص ٦٠ .

٩٧ – ابن صاعد : المصدر السابق ، ص ٦٩ ؛ ابن البناء : المصدر السابق ، ص ٢١ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر، ص ٤٤٨ .

٩٨ – عنها انظر ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٩ ؛ ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ – ٢١ .

٩٩ – يذكر د. عبد المجيد نعنعى : إنه مع نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى كانت مدرسة مسلمة المجريطى الفلكية قد تحولت إلى خلية نحل ناشطة فى مجال تطور الدراسات الرياضية والفلكية، ولكن جاء سقوط الخلافة فى قرطبة سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م ليضع حدًا لهذا النشاط العلمى ، ولذلك كان على تلاميذ المجريطى أن يتفرقوا فى أنحاء الأندلس بحثًا عن الأمان من أجل استكمال أبحاثهم . وقد استعادت الدراسات الرياضية والفلكية – منذ بداية عصر الطوائف – نشاطها فى سرقسطة بسبب رعاية أصحابها من بنو هود لهؤلاء العلماء . ولكن سرعان ما تقدم أصحاب طليطلة من بنو ذى النون ، وأخذوا منهم المبادرة فى مجال الرياضيات والفلك ، فجعلوا مدينتهم – طليطلة – القاعدة الأولى للأبحاث والمعارف ليس فى الأندلس فحسب ، بل فى أنحاء أوروبا فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . عبد المجيد نعنعى : الإسلام فى طليطلة ، دار النهضة العربية ، لبنان ، د.ح.، ص ٢٦٠ .

١٠٠ – سرقسطة Zaragoza مدينة كبيرة فى شمال شرقى الأندلس واسعة الشوارع ، حسنة الديار والمساكن ، متصلة الجنات والبساتين ، لها سور حصين بنى من الحجارة ، وهى على ضفة النهر الكبير المسمى إبرة ، وهى قاعدة الثغر الأعلى . عنها انظر : العذرى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، معهد الدراسات

الإسلامية، مدريد ، ١٩٦٥م ، ص ٢١ - ٢٥ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٣٦٧ .

١٠١ - كان الكرمانى أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، ولم يكن أحد يجاريه فى علم الهندسة والفلك، رحل إلى المشرق فزار أماكن عدة حتى انتهى به المطاف إلى حران ، ومنها عاد إلى الأندلس ، فاستقر في سرقسطة . وأدخل إلى الأندلس معه من المشرق رسائل إخوان الصفا ، وهو أول من أدخلها إلى الأندلس ، ولم تكن له همة كبيرة بتعليم علم التجوم بشكل عملي ، بل إنه كان يدرسه بشكل نظرى ، الأمر الذى أثار استغراب ابن صاعد الذى اطلع على هذه المعلومة من حسداى بن يوسف الإسرائيلى الذى التقى مع الكرمانى وذاكره فى علم النجوم . وتوفى الكرمانى سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م وقد بلغ تسعون عامًا . ابن صاعد : طبقات ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ القفطى : أخبار العلماء ، ص ٣٤٣ ؛ ابن البناء : المقالات ، ص ٢١ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٦ .

١٠٢ - عنها انظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

١٠٣ - ابن البناء : المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

١٠٤ - عنها انظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٦٣ ؛ الحميرى : نفسه ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

١٠٥ - عنه انظر : ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ ؛ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

١٠٦ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ ؛ زين العابدين متولي : الفلك ، جـ٢ ، ص ٢٨ ؛ جمال خير الله : الآلات الفلكية فى المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة الأندلسية ، آداب القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

١٠٧ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ .

١٠٨ - انفرد ابن صاعد بذكر هؤلاء التلاميذ لابن الصفار عن غيره من أصحاب المصنفات العلمية الأندلسية . ابن صاعد : طبقات ، ص ٧١ ، ويذكر بالنثيا أنهم جميعًا من قرطبة . انظر بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٥ .

١٠٩ - ابن البرغوث . هو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن البرغوث (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢م) كان مهتمًا بمختلف أنواع العلوم وخاصة النحو والقرآن ، والفقه والوثائق ، بالإضافة إلى اهتمام كبير بالعلوم الرياضية وخاصة ما يتعلق بعلم الأفلاك وهيئاتها وحركات الكواكب ورصدها . وله عدد من التلاميذ - ذكرهم ابن صاعد - وهم ابن الليث ، وابن الجلاب ، وابن حى . ابن صاعد : المصدر السابق، ص ٧١ ، ٧٣ .

١١٠ - الواسطى : هو أبو الأصبغ عيسى بن أحمد الوسطى القرطبى ، الذى قام بتدريس علم الفلك فى قرطبة ، وله اهتمام بهيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وكان حيًا ومعاصرًا لابن صاعد فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .

١١١ – ابن شهر : أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن مختار بن شهر الرعيني (ت ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) ، كان مشهوراً باللغة والنحو والحديث والفقه إلى جانب إلمامه الشديد بالهندسة في النجوم ، ونظراً لمكانته وعلمه عينه زهير العامري قاضياً في دولته سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م ، ثم رحل إلى قرطبة ، وتولى منصب القضاء بها حتى مات سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م . ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ . ونستدل من توليه القضاء في قرطبة على أن النبوغ في علم الفلك لم يكن ليمنع صاحبه من تولي المناصب الدينية في الأندلس .

١١٢ – بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٥ . ولم ترد له ترجمة في كتاب التراجم ، ولم يذكره ابن صاعد في سائر تراجمه لتلاميذ ابن الصفار . ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .

١١٣ – بالنثيا : نفسه ، ص ٤٥ . ولم يذكر ابن صاعد أيضاً ، ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ .

١١٤ – ابن العطار : محمد بن خيرة العطار مولى الكاتب محمد بن أبي هريرة ، عاش في طليطلة تحت رعاية أميرها الظافر إسماعيل بن ذي النون . يذكر ابن صاعد أنه من صغار تلاميذ ابن الصفار . وكان مشهوراً في علم العدد والهندسة والفرائض بالإضافة إلى اهتمام بعلم النجوم . ابن صاعد : نفسه، ص ٧٢ .

١١٥ – عنه انظر ابن عذاري : البيان ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، جـ١ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ٤٣٢ ، ٤٧٧ ، أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٣٤٦ ؛ مريم قاسم طويل : مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م ، ص ١٠٥ – ١١٧ .

١١٦ – يذكر بن صاعد له العديد من المصنفات في الهندسة ومنها كتاب " المدخل إلى الهندسة " في تفسير كتاب إقليدس ، وكتاب " ثمار العدد " المعروف " بالمعاملات " ، وكتاب " طبيعة العدد " ، بالإضافة إلى كتاب الكبير في الهندسة . ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٩ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٤٩ ؛ أمين توفيق الطيبي : لمحة تاريخية عن نشاط علماء العرب في مجال العلوم الرياضية والفلكية في الأندلس وصقلية (١٠٠٠ – ١٢٥٠م) ، مقال نشر في كتاب دراسات في التاريخ الإسلامي ، الدار الأندلسية ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

١١٧ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٦٩ – ٧٠ ؛ ابن البناء : المقالات ، ص٢١ ؛ ابن الخطيب : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٤٢٨ ، ويذكر بالنثيا أنه توفي سنة ٤٢٥هـ / ١٠٣٤م . بالنثيا : المصدر السابق ، ص ٤٤٩ ، في حين يذكر ابن صاعد أنه توفي سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م . ويأخذ الباحث بتاريخ ابن صاعد ، لأنه الأقرب إلى حياة المؤلف وإنه كان معاصراً له .

١١٨ – كان مشهوراً بعلم الهندسة والعدد ، ومهتماً بصناعة الطب في أحكام النجوم . عنه انظر ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ .

١١٩ – ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ .

١٢٠ – ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٤٥ .

١٢١ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٠ ، ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

١٢٢ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧١ ؛ القفطي : أخبار العلماء ، ص ٢٤٣ ؛ ابن أبي أصيبعة : نفسه ، ص ٤٤٦ .

١٢٣ - هو أبو أيوب سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، أمه أم ولد رومية ، اسمها ظبية ، لقب بالمستعين بالله ، ولد سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م وكان تام القامة ، أشم الأنف ، جميل الوجه ، حسن الأدب والشعر . عنه انظر : الحميدي : الجذوة ، قسم ١ ، ص ٤٩ - ٥٠ ؛ الضبي : البغية ، ص ٢٤ - ٢٦ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٦٥ ، مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٢٠٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٣ ، ص ٩١ . ويذكر ابن حزم معلومة طريفة عنه ، وهي أنه الوحيد من ولد الناصر الذى كان أسود اللون ، فكلهم فيما عداه يتميزون بالشقرة . ابن حزم : طوق الحمامة فى الإلفة والألاف ، تحقيق الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٣م ، ص ٤٨ ؛ محمد فهمي : تاريخ الجزيرة الخضراء ، ص ١١٦ ، هامش (٣) .

١٢٤ - عنه انظر ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ص ١١٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ص ١٧٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٣٤٨ ، جـ٦ ، ص ٣٨٢ ؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٤ ؛ عبد المجيد نعنعي : الإسلام فى طليطلة ، ص ٢٧١ - ٣٠٥ .

١٢٥ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٨٦ ؛ عبد المجيد نعنعي : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

١٢٦ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ .

١٢٧ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٢ - ٧٣ ؛ زين العابدين متولي : الفلك ، جـ٢ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

١٢٨ - شريون : حصن من حصون بلنسية ، ولم تحدد لنا المصادر الجغرافية موقعه بالتحديد ، ولم يرد ذكره سوى عند ياقوت في معجمه : عنه انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت، ص ٢٨٦ ؛ كمال أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية ، ص ٦٥ ، هامش (٢) .

١٢٩ - ابن صاعد : نفسه ، ص ٧٣ .

١٣٠ - عنه انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٤٨م ، ص ٣٩٣ ، طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، ص٩٥ ، هامش (٣) ؛ الحميدى : جذوة الاقتباس ، قسم ١ ، ص ١٣١ ، ترجمة (١٢١) الضبي : بغية الملتمس ، ص ١١٥ ، ترجمة (٢٤٢) ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ص ٥٩ .

Beladiez (Emilio) : Al-manzor, Un Cesar Andalus, Madrid, 1959, P. 31-35 .

١٣١ - المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ؛ بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٥٠.

١٣٢ - ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ أحمد الطاهرى : عامة قرطبة فى عصر الخلافة ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ٢٠٧ .

١٣٣ - أحمد الطاهرى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ - ٢١٢ .

١٣٤ – ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٩٢ .

١٣٥ – المقرى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٨ .

١٣٦ – ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٥١ .

١٣٧ – ابن أبى أصيبعة : نفسه ، ص ٤٥١ .

١٣٨ – ابن أبى أصيبعة : نفسه ، ص ٤٥١ .

١٣٩ – المقرى : نفسه ، جـ١ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

١٤٠ – عنه انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٩٣ ؛ مجهول : ذكر الأندلس ، ص ١٩٥ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٤٠٦ – ٤٠٧ ؛ ابن عذارى : نفسه ، جـ٣ ، ص ٣ .

١٤١ – ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

١٤٢ – عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر ، المعروف باسم شنجول SANCHUELO (أى سانشو العظيم) وذلك نسبة إلى أمه إبنة شانجة بن غريسة sancho Garces Ii Abarcax (٩٧٠ – ٩٩٥م / ٣٦٠ – ٣٨٥هـ) التى تزوجها المنصور بن أبى عامر وأسلمت وسمت نفسها عبده ، فأطلقت عليه لقب شنجول تدليلاً وتذكراً منا لأبيها ، ولأنه كان أشبه الناس بجده . عنه انظر ابن سعيد : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٢١٣ ؛ مجهول : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، جـ٤ ، ص ٣٢١ – ٣٢٣ .

١٤٣ – هو الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لقب بالمهدى ، ويكنى بأبو الوليد، وكان عمره ثلاث وثلاثون سنة عندما بويع بالخلافة . عنه انظر ابن حزم : نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق شوقى ضيف ، مقال نشر فى مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، مج ١٣ ، جـ٢ ، ١٩٥١م ، ص ٤٨ ؛ طوق الحمامة ، ص ٤٩ ، هامش (٥) ؛ المراكشى : المعجب ، ص ٦٤ – ٦٥ ؛ ابن عذارى : نفسه ، جـ٣ ، ص ٥١ .

١٤٤ – عن الفتنة فى قرطبة ، انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، مج٨ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م ، ص ٦٨٠ – ٦٨١ ؛ ابن عذارى : نفسه ، جـ٣ ، ص ١١٣ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، مج٤ ، ص ٣٢٥؛ إبراهيم سلامة : الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ١٢ – ١٢٩ .

١٤٥ – ابن البناء : المقالات ، ص ١٩ . ويذكر د. الطيبى أن الإنجليزى أديلارد الباثى (نسبة إلى مدينة باث الإنجليزية) هو الذى قام بالترجمة من العربية إلى اللاتينية سنة ١١٢٦م / ٥٢٠هـ ، وأن هذه الترجمة كانت بالغة الأهمية بالنسبة لتطور علم الفلك فى غرب أوروبا . أمين توفيق الطيبى : لمحة تاريخية، ص ١٩٩.

١٤٦ – ابن البناء : المصدر السابق ، ص ١٩ . ويذكر د. أحمد سليم سعيدان أن اعتماد المجريطي على زيج الخوارزمي – الذي ظهر بما يزيد على قرن ونصف قبل ميلاد المجريطي – في حين ظهرت أزياج عربية أكثر تطوراً من زيج الخوارزمي ، كان نتيجة جهل من المجريطي!، ويدلل على ذلك أن علماء المغرب قاموا بترجمة كتاب ديوسكريدس إلى العربية مع أنه ترجم في المشرق قبل ذلك بمائة عام . ابن البناء : نفسه، ص ١٩ (المقدمة) .

١٤٧ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ ؛ زين العابدين متولي : الفلك ، ص ٦٠ – ٦١ .

١٤٨ – يذكر د. سعد عبد الله البشري أنه لطول ارتباط المجريطي بالدراسات الفلكية ولكثرة اطلاعه على العديد من أسرار هذا العلم ، دفعه ذلك إلى تأليف كتابه " غاية الحكيم " وقد احتوى هذا الكتاب على شتى أنواع الخرافات والشعوذات التي كانت شائعة في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، بالإضافة إلى الكثير من المعلومات الفلكية . وقد اطلع د. البشري على هذه المخطوطة المحفوظة في المكتبة الملكية بالرباط ، وتوصل إلى أن المجريطي شرع في تأليف هذا الكتاب سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م ، وانتهى بالرباط ، انظر سعد عبد الله البشري : الحياة العلمية ، ص ٣٦٣ .

149 - Cronica de Alfonso X (el sabio) : Historia de espana, selecciones, Introduccion, R.Ayerbechaux y T.Porrue, Madrid, 1982, p. 11-19 .

١٥٠ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢٠ ؛ سعد عبد الله البشري : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ ، هامش (٣) ، إمام إبراهيم أحمد : تاريخ الفلك ، ص ٥٠ .

١٥١ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢١ .

١٥٢ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢١ . وعن هذه الترجمة انظر مياس بياكروزا : كتاب العمل بالإسطرلاب وذكر آلاته وأجزائه لابن الصفار ، مقال منشور بمجلة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، مج١ ، ١٩٥٥م ، ص ٤٧ – ٧٦ .

١٥٣ – ابن البناء : نفسه ، ص ٢٢ .

١٥٤ – بالنثيا : تاريخ الفكر ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨ ، هامش (٤) ؛ عبادة كحيلة : تاريخ النصارى ، ص ١٣٤ ، نشر دوزي تحت عنوان :

Dozy (R) : Le calendrier de Cordoue de L'Annee 961. leyde, 1873 .

١٥٥ – ترجم هذا الكتاب بعد ذلك إلى الفرنسية سنة ١٩٦١م على يد شارل بلا . انظر ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، القسم الأول ، ص ١٤٢ ، هامش (٣) .

قائمة المراجع

أولاً : المصادر العربية

١ – القرآن الكريم :

٢ – ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن بكر القضاعي البلنسي (ت٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) : الحلة السيراء ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ،، ١٩٨٥م.

– الحلة السيراء ، جـ٢ ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥م.

٣ – ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكريم محمد بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م.

٤ – ابن الأكفانى : محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى المعروف بابن الأكفانى (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) : إرشاد المقصاد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم ، تحقيق : عبد المنعم محمد عمر ، القاهرة ، د.ت .

٥ – ابن بسام : أبو الحسن على بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ / ١١٤٨م) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م .

٦ – البكرى : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى (ت٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : جغرافية الأندلس وأوروبا ، تحقيق عبد الرحمن حجى ، داز الإرشاد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨م .

٧ – ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٨ – ابن البناء المراكشى : المقالات فى علم الحساب ، تحقيق أحمد سليم سعيدان ، دار الفرقان ، الأردن ، ١٩٨٢م.

٩ - الجاحظ : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : كتاب الحيوان ، جـ٦ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سلسلة الذخائر رقم (٧٩) ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م .

١٠ - ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن حزم القرطبى الأندلسى الظاهرى (ت٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٨م.

- طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، تحقيق الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥، ١٩٩٣م.

- نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق شوقى ضيف ، مقال بمجلة كلية الأداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، مج١٣ ، جـ٢ ، ١٩٥١م.

١١ - الحميدى : أبى عبد الله محمد بن أبى نصر (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) : جنوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، المكتبة الأندلسية رقم (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦م.

١٢ - الحيمرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميدى السبتى (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠م.

١٣ - ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان القرطبى (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) :

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، قطعة خاصة بعصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، تحقيق محمود على مكى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ط١ ، ١٩٧٣م.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، قطعة خاصة بعصر الأمير عبد الله بن محمد ، تحقيق : إسماعيل العربى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠م.

١٤ – ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلمانى (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) :

– الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ط١، ١٩٧٤م.

– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثانى ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٥٦م.

١٥ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) :

– المقدمة ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦م.

– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦٨م.

١٦ – ابن خياط : خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٢ ، ١٩٨٥م.

١٧ – ابن رستة : أبو على أحمد بن عمر بن رستة (ت فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) الأعلاق النفسية ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ط١، ١٩٨٨م.

١٨ – الزبيدى : أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلى (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩م) : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٤م .

١٩ – ابن الساعى : على بن أنجب الشهير بابن الساعى (٥٩٣ – ٦٧٤ هـ / ١١٩٦ – ١٢٧٥م) : تاريخ الخلفاء العباسيين ، تحقيق عبد الرحيم يوسف الجمل ، مكتبة الأداب ، القاهرة ، ط. ١٩٩٣م .

٢٠ – ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربى (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٩٧٨م.

٢١ - ابن سماك العاملى : أبى القاسم محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك العاملى (ت النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) : الزهرات المنشورة فى نكت الأخبار المأثورة ، تحقيق محمود على مكى ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ط١ ، ١٩٨٤م .

٢٢ - ابن الصفار : أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقى (٣٧٠ - ٤٢٦هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٤م) : كتاب العمل بالإسطرلاب وذكر آلاته وأجزائه ، تحقيق مياس بياكروزا ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، مج٣ ، العدد (١) ، ١٩٥٥م.

٢٣ - ابن صاعد : أبى القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) : طبقات الأمم ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط١، ١٩١٢م.

٢٤ - الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة القرطبى (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربى، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٧م.

٢٥ - ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م): الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

٢٦ - ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبى (ت ٣٢٨هـ / ٩٣٩م) : العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين ، وإبراهيم الإبيارى ، وأحمد الزين ، دار الكاتب العربى ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٢٧ - ابن عبد الملك : أبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى (ت٧٠٣هـ / ١٣٠٤م) : الذيل والتكملة ، القسم الأول ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٥م.

٢٨ - ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى (ت بعد ٧١٢هـ/١٣١٢هـ) :- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢ ، تحقيق ج.س.كولان ، وليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

٢٩ – العذرى : أحمد بن عمر بن أنس العذرى المعروف بالدلائى (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٥م.

٣٠ – عريب بن سعد : أبو الحسن عريب بن سعد (ت ٣٦٦هـ / ٩٦٧م) : تقويم قرطبة ، نشره دوزى R.Dozy تحت عنوان :
Le Calendrier de Cordoue de l'annee 961, leyde, 1873 .

٣١ – ابن عساكر وابن خميس : أبو عبد الله بن على بن عبيد الله بن الخضر الغسانى ، المعروف بابن عساكر (ت ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) وأبو بكر محمد بن على بن خميس (ت بعد ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) : أعلام مالقة ، تحقيق عبد الله المرابط ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط١، ١٩٩٩م.

٣٢ – ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد المعروف بابن العمرانى (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) : الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، دار العلوم، ط١ ، ١٩٨٢م.

٣٣ – ابن الفرضى : أبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى الحافظ (ت ٤٠٣هـ / ١٠٦٢م) : تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣٤ – ابن قتيبة : أبى محمد عبد الله بن مسلم (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م) : فضل العرب والتنبيه على علومها ، تحقيق وليد محمود خالص ، منشورات المجمع الثقافى ، أبو ظبى ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٣٥ – القضاعى : القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر الشافعى القضاعى (ت ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) : عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف ، المعروف بتاريخ القضاعى ، تحقيق جميل عبد الله محمد المصرى ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١ ، ١٩٩٥م.

٣٦ - القفطى : جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت .

٣٧ - ابن القوطية : أبى بكر محمد بن عمر بن القوطية (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٢م.

٣٨ - مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ١٩٨٣م.

٣٩ - مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق محمد زينهم ، دار الفرجانى ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٤م.

٤٠ - المراكشى : عبد الواحد المراكشى (ت القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، دار الكتاب ، المغرب ، ط٧ ، ١٩٧٨م.

٤١ - المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٥هـ / ٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت ط١ ، ١٩٨١م.

٤٢ - ابن المطران : أبو نصر أسعد بن إلياس بن المطران (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) : بستان الأطباء وروضة الألباء ، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ، ط١ ، ١٩٩٣م.

٤٣ - المقرى : أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد المقرى التلمسانى (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٣م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق يوسف محمد البقاعى ، دار الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م.

٤٤ - ابن النديم : أبو عبد الله بن إسحاق بن النديم (ت ٣٨٣هـ / ٩٩٣م) : الفهرست ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

٤٥ – النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

٤٦ – ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم البلدان ، مج ٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

٤٧ – اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت بعد ٢٨٢هـ / ٨٩٥م): تاريخ اليعقوبى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.

ثانيًا : المراجع العربية الحديثة :

١ – إبراهيم عبد المنعم سلامة : الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الإسكندرية ، ١٩٩٣م.

٢ – أحمد أمين : فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م.

٣ – أحمد الطاهرى : عامة قرطبة فى عصر الخلافة ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ط١ ،١٩٨٨م.

٤ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، مؤسسة بشباب الجامعة، الإسكندرية ، ١٩٨٦م.

٥ – أمام إبراهيم أحمد : تاريخ الفلك عند العرب ، المكتبة الثقافة رقم (٢٥) ، دار القلم ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٠م.

٦ – أمين توفيق الطيبى : دراسات فى التاريخ الإسلامى ، الدار الأندلسية ، طرابلس ، ليبيا، ط١، ١٩٩٢م.

٧ – انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت .

٨ – جمال خير الله : الآلات الفلكية فى المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة الأندلسية ، آداب القاهرة ، ١٩٩٨م.

٩ – جوان فيرنيه : العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية فى الأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، جـ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ط١ ، ١٩٩٨م.

– الرياضيات والفلك والبصريات ، مقال نشر فى كتاب تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة حسين مؤنس ، وإحسان صدقى العمد ، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٢) ، الكويت ط٢ ، ١٩٨٨م.

١٠ – خوليو سامسو : العلوم الدقيقة في الأندلس ، مقال ضمن ندوة الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، جـ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١، ١٩٩٨م.

١١ – خير الدين الزركلى : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٩ ، ١٩٩٨م.

١٢ – زيجرد هونكه : شمس العرب تطلع على الغرب ، منشورات المكتب التجارى ، بيروت، ط٣ ، ١٩٧٩م.

١٣ – زين العابدين متولى : الفلك عند العرب والمسلمين ، جزءان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م.

١٤ – سعد عبد الله صالح البشرى : الحياة العلمية فى عصر الخلافة فى الأندلس ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط١، ١٩٩٧م.

١٥ – عبادة كحيلة : تاريخ النصارى فى الأندلس ، المطبعة الإسلامية الحديثة ، القاهرة ط١، ١٩٩٣م.

١٦ – عبد اللطيف مؤمن : رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفى والأصالة الثقافية بالأندلس ، مقال نشر ضمن ندوة آداب الرحلة والتواصل الحضارى ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس ، المغرب ، ١٩٩٣م.

١٧ – عبد المجيد نعنعى : الإسلام فى طليطلة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ت .

١٨ – عز الدين فراج : فضل علماء العرب على الحضارة الأوروبية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د.ت .

١٩ – فايجرت (أ) وقسمرمان (هـ) : الموسوعة الفلكية ، ترجمة عبد القوى عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢م.

٢٠ – فتحية النبراوى : النظم والحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط٩ ، ١٩٩٩م.

٢١ – فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ، جـ٧ ، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازى ، جامعة الملك سعود ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

٢٢ – قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، دا القلم ، ط٣ ، ١٩٦٣م.

٢٣ – كمال أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية فى العصر الإسلامى ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، ط١ ، د.ت .

٢٤ – محمد أحمد أبو الفضل : دراسات فى تاريخ وحضارة الأندلس ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٩٦م.

٢٥ – محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

٢٦ – محمد فهمى إمبابى : تاريخ مدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية منذ سقوط الدولة العامرية وحتى استيلاء القشتاليين عليها (٣٩٩ – ٧٤٤هـ / ١٠٨٨ – ١٣٤٤م) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب طنطا ، ١٩٩٧م.

٢٧ – محمد مصطفى هدارة " المأمون الخليفة العالم ، سلسلة أعلام العرب رقم (٥٩) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٦م.

٢٨ – محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ، مطبعة الوادى الجديد ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م.

٢٩ – مريم قاسم طويل : مملكة غرناطة فى عهد بنى زيرى البربر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م.

٣٠ – وائل أبو صالح : جهود الحكم المستنصر فى تطور الحركة العلمية فى الأندلس ، مقال بمجلة دراسات أندلسية ، العدد السادس ، تونس ، ١٩٩١م.

٣١ – يحيى عبد الأمير شامى : النجوم فى الشعر العربى القديم حتى أواخر العصر الأموى، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط١ ، ١٩٨٢م.

ثالثًا : المصادر الأجنبية :

32 - Cronica de Alfonso X (el sabio) : Historia de espana, selecciones, Introduccion, R.Ayerbechaux y Jose Porvua, Madrid, 1982.

رابعًا : المصادر الأجنبية الحديثة :

33 - Beladiez (Emilio) : Al-Manzor, Un Cesar Andalus, Escelicer , Madrid, 1959.

34 - Sabra (Abd El-hamid) : The Genius of Arah Civilization, second ed., England, 1983.

د. أحمد محمد إسماعيل الجمال (*)

دور الحضارة الإسلامية فى نهضة علم الفلك
فى عصر الدولة العباسية

مقدمة :

علم الفلك : هو علم مداره الأجرام العلوية أى الشموس والسيارات وتوابعها وذوات الأذناب ، وهو قسمان : نظرى وعملى ، فالأول يعنى تلك الأجرام ويعين لنا أبعادها عن الشمس وحركاتها وفصولها وهيئاتها ، والثانى يبحث فى كيفية رصد تلك الأجرام .

ويعتبر علم الفلك من أقدم العلوم ، فقد قيل إن الإنسان رصد الكواكب من يوم وجوده لاحتياجه إلى الاهتداء بها ، وقد ارتبط علم الفلك فى بداية نشأته بالتنجيم ، والتنجيم فى أساسه قائم على معتقدات دينية مأخوذة من حضارات مختلفة ، فقد مارسه البابليون والكلدانيون والمصريون والهنود والفرس واليونان(١) .

ورد فى كتاب " الفهرست " قال أبو سهل بن نوبخت فى كتاب النهمُطان : قد كثرت صنوف العلوم وأنواع الكتب ، ووجوه المسائل المواخذ التى اشتق منها ما يدل عليه النجوم مما هو كائن من الأمور قبل ظهور أسبابها ومعرفة الناس بها . على ما وصف أهل بابل فى كتبهم ، وتعلم أهل مصر منهم ، وعمل به أهل الهند فى بلادهم ، على مثال ما كان عليه أوئل الخلق ... " (٢).

---

* مدرس التاريخ والحضارة بكلية الآداب – فرع دمنهور – جامعة الإسكندرية .

وقد اصطلح المسلمون على تعريف التنجيم بأنه علم (أو صناعة) أحكام (أو قضايا) النجوم ، أو بتعبير أوجز علم (صناعة) الأحكام . واستعمل بعض كتاب العرب منذ القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى " علم النجامة " للدلالة على التنجيم ، إلا أن علم (أو صناعة) النجوم و " علم صناعة النجوم " و " التنجيم " تدل بوجه عام على التنجيم أو علم الفلك (علم الهيئة) أو على العلمين معًا . ويُعرف المشتغل بصناعة النجوم بالأحكامى أو المنجم ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى كذلك ، ولم يفرق بدقة بين " المنجم " و " الفلكى" إلا فى القرن السابع عشر الميلادى .

واتبع غالب الفلاسفة وأصحاب فهارس العلوم ، ومؤلفو الكتب الجامعة تصنيف العلوم الطبيعية السبعة أو التسعة ، ووضعوه مع الطب والفراسة والكيمياء وتفسير الأحلام .. إلخ . بيد أن الفلكيين والمنجمين وغيرهم من العلماء (مثل : الفرابى ، وإخوان الصفا ، وابن خلدون) نسجوا على منوال بطلميوس واعتبروا التنجيم فرعًا من فروع " علم النجوم " . وعلم النجوم قسم من الأقسام الأربعة الكبيرة التى تتقسم إليها العلوم الرياضية . ويجب ألا نغفل القول بأن القواعد الرياضية الفلكية للحسابات التى لا غنى عنها للمنجم لم تتعرض لها إلا الرسائل الفلكية .

ويقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يطرأ على العالم من التغيير ، يتصل اتصالاً وثيقًا بطبائع الأجرام السماوية وحركاتها ، والإنسان – من حيث هو عالم صغير بينه وبين العالم الكبير مشابهة قوية – خاضع لتأثيرات النجوم .

وعلى هذا الأساس يذكر المقريزى أن : " علم النجوم ثلاثة أقسام : (الأول) معرفة تراكيب الأفلاك ، وكمية الكواكب وأقسام البروج ، وأبعادها وعظمها وحركتها ويقال لهذا القسم : علم الهيئة . (والقسم الثانى) : علم الزيج [٣]، وعلم التقويم. (والقسم الثالث) معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج على الحوادث قبل كونها ، ويسمى هذا القسم علم الأحكام " [٤].

وعن علم الهيئة يذكر ابن خلدون فى مقدمته أن " علم الهيئة " ، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها ، وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها " [٥].

ويذكر في موضع آخر أنه " علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة ، ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك ، لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية " (٦).

علم الفلك في الحضارات القديمة :

علم الفلك عند البابليين والكلدانيين :

كان الفلك هو العلم الذي امتاز به البابليون ، وهو الذي اشتهروا به في العالم القديم كله ، إلا أن البابليين – في أول الأمر – لم يدرسوا النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على سير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين (٧). إلا أن البابليين بعد ذلك سرعان ما أقاموا الأسس الرياضية التي لايمكن أن يقوم فلك علمي بدونها ، وبدءوا سلسلة طويلة من الأرصاد الفلكية (٨). فصور العلماء مسارات الشمس والقمر ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا الخسوف والكسوف (٩)، وعينوا مسارات الكواكب ، وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزًا دقيقًا ، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتائي والصيفي ، وتاريخ الاعتدالين الربيعي والخريفي وساروا على النهج الذي سبقهم إليه السومريون ، فقسموا دائرة فلك البروج – أي مسار الأرض حول الشمس – إلى الأبراج الاثنى عشر . وبعد أن قسموا الدائرة إلى ٣٦٠° ، عادوا فقسموا الدرجة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، وكانوا يقدرون الزمن بالساعة المائية والمزولة (١٠). لهذا كان البابليون هم المؤسسون للفلك العلمي ، وأن النتائج التي حصل عليها الفلكيون الكلدانيون والإغريق من بعدهم أمكن تحقيقها بفضل استنادها إلى الأساس البابلي (١١).

فقد كان الكهنة الكلدان في معابد ما بين النهرين يقومون بتأليف أزياج فلكية للقمر والكواكب السيارة ، لكنهم لم يتموا نظامًا فلكيًا منسقًا بل نموا طريقة تجريبية قوامها تدوين مواقع القمر والكواكب السيارة ، والتنبؤ بتلك المواقع أيضًا ، فكانوا يعنون بجداول القمر بوجه خاص ، لأن تقويمهم كان قمريًا صرفًا ، وكان أكبر مهامهم تعيين الرؤية الأولى للهلال الجديد(١٢).

وقد حاول الكلدان على أساس أرصاد سابقة ، أن يعينوا سلفًا أزمنة الاقتران والاستقبال، وأزمنة الرؤية الأولى والأخيرة ، وأزمنة الخسوف والكسوف . وكانت طريقتهم حسابية لا هندسية ، وانتهجوا منهج البابليين القدامى ، فاستخدموا المتواليات الحسابية فى وصف الحوادث الدورية (١٣).

وابتكر الكلدان حساب الطوالع ، كما تقوم شهرتهم على مهارتهم الخارقة فى ممارسة التنجيم وضروب أخرى من العرافة كالسحر والمعارف الخفية (١٤).

وعلى هذا الأساس يقول صاعد الأندلسى : " وكان من الكلدانيين علماء جلة وحكماء فضلاء يتوسعون فى فنون المعارف من المهن التعليمية ، والعلوم الرياضية والإلهية ، وكانت لهم عناية بأرصاد الكواكب ، وتحقق بعلم أسرار الفلك ، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها ، وخواص المولدات وقواها ، وهم نهجوا لأهل الشق الغربى من معمور الأرض الطريق إلى تدبير الهياكل لاستجلاب قوى الكواكب وإظهار طبائعها وطرح شعاعاتها عليها بأنواع القرابين الموافقة لها ، وظروف التدابير المحفوظة لها . فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة والنتائج الشريفة من إنشاء الطلسمات وغيرها من صناعة السحر .. ولم يصل إلينا من مذاهب البابليون فى حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مستقصى ولا جملة كافية ، ولا عندنا من آرائهم فى ذلك ولا من أرصادهم غير الارصاد التى نقلها عنهم بطلميوس اليونانى القلودنى فى كتاب "المجسطى " فإنه اضطر إليها فى تصحيح حركات النجوم المتحيرة إذ لم يجد لأصحابه اليونانيين فى ذلك أرصاداً يثق بها " (١٥).

وقد ذكرت المصادر العربية بعضاً من أهم علماء الفلك الكلدان ، منهم هرمس البابلى ويبدو أنه شخصية أسطورية حيث تذكر بعض الأساطير أن هرمس ، وهو الذى يخلط بعض الناس بين اسمه واسم النبى إدريس الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، والمعروف باسم " أخنوخ " عند اليهود ، كان أول من تحدث عن الأجسام الفلكية ومداراتها ، وأول من عمل على تفسير حركاتها ، وكذلك أول من أنذر بالطوفان (١٦).

ويذكر القفطى " قيل أنه مصرى أو يونانى أو بابلى ، وهو أول من استخرج الحكمة ، وعلم النجوم ، فإن الله عز وجل أفهمه سر الفلك وتركيبه ونقطة اجتماع الكواكب فيه ، وأفهمه عدد السنين والحساب ، ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك " (١٧).

ويقول عنه صاعد الأندلسي : " وأشهر علمائها عندنا وأجلهم هرمس البابلي ، وكان في عهد سقراط الفيلسوف . وذكر أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي في كتاب الألوف أنه هو الذي صحح كثيراً من كتب الأوائل في علم النجوم ، وغيره من أصناف الفلسفة مما كان فسد، وأنه صنف كتباً كثيرة في علوم شتى .. " (١٨). وله من الكتب في النجوم ، كتاب عرض مفتاح النجوم الأول ، كتاب طول مفتاح النجوم الثاني ، كتاب تسيير الكواكب ، كتاب قسمة تحويل سني المواليد على درجة درجة ، كتاب المكتوم في أسرار النجوم ويسمى قضيب الذهب(١٩).

ومن علماء الفلك البابلي أيضاً تينكلوس (٢٠)، وطينقروس(٢١) وقيطورا وله كتاب صناعة النجوم (٢٢)، ومزايا منجم بخت نصر ، وله من الكتب كتاب الملوك والدول والقرانات والتحاويل(٢٣)، واصطفن البابلي " كان عند مبعث رسول الله - ، وكان عالماً بتسيير الكواكب ، وأحكام النجوم ، وله كتاب جليل في أحكام النجوم " (٢٤).

علم الفلك عند المصريين :

مما لاشك فيه أن حضارة وادي النيل كانت متقدمة في كثير من مجالات العلوم ومنها علم الفلك ، حيث ساعد جو مصر الصافي أثناء الليل على مراقبة السماء ، وتتبع حركات الكواكب والنجوم ، مما أدى إلى تكوين الكثير من المعلومات الفلكية التي سجلها المصري القديم ، ووصلت إلينا عن طريق النقوش والكتابات والآثار الباقية (٢٥).

كان علم الفلك المصري يحتكره الكهنة - مثلما كان في وادي الرافدين - وفي ذلك يقول ول ديورانت : " كان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التي لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس . وظلوا قروناً طوالاً متتالية يتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم في هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثابتة ، وذكروا في فهارسهم نجوماً من القدر الخامس (وهي لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجم السماء في مصائر البشر ، ومن هذه الملاحظات أنشأوا التقويم (الشمسي) الذي أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بني الإنسان (٢٦). فقد قسموا السنة الشمسية إلى ثلاثمائة وخمس وستين يوماً ، ولتدارك الصعوبات الناجمة عن استعمال السنتين القمرية والشمسية ، قسموا السنة إلى اثنى عشر

شهرًا ، وجزءوا كل شهر ثلاثين يومًا ، ثم أضافوا إلى آخر ذلك خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد (٢٧).

ورغم أن المصريين القدماء ككل أبناء الحضارات القديمة ، مزجوا بين الفلك الصحيح والأسطورة والآلهة ، إلا أن تاريخ الفلك المصرى القديم يتميز بظاهرة فلكية دينية رائعة فى تكوينها وهى أن المعابد المصرية بنيت على وفق مواصفات فلكية معينة ومحددة تحديداً دقيقًا ، وكذلك الهرم الأكبر الذى بنى بحيث اتجهت جوانبه بدقة إلى الجهات الأصلية الأربع مما يتماشى مع الآلات الهندسية الحديثة . ولاشك أن كثيرًا من هذه المعابد قد بنى بحيث يدل على شروق نجم معين أو غروبه (٢٨). ومع ذلك فإن الأرصاد الفلكية المصرية لم تجمع لوضع نظريات فلكية ، وإنما لأغراض عملية محدودة مثل تحديد أوقات العبادة وتقديم القرابين والاحتفالات الدينية (٢٩).

علم الفلك عند الصينيين :

الحضارة الصينية حضارة عريقة ، لهذا كان للفلك فيها تاريخ طويل عميق الجذور تشابك مع الخرافات والآلهة المتعددة ، شأنه شأن كل الفلك القديم (٣٠). والسماء فى الحضارة الصينية القديمة أمر مقدس ، اهتموا بها اهتمامًا كبيرًا ، وبنوا لها المعابد والهياكل ، وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة فى السماء ، فأعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر ، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية قام على منازل الكواكب السيارة والنجوم(٣١).

ولقد عبد الصينيون أيضًا عدداً من النجوم والكواكب ، ومظاهر الطبيعة ، يذكر ياقوت الحموى من معبوداتهم السماوية سهيلاً وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدى ، ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب (٣٢). وبالإضافة إلى النجوم عرفوا الكواكب الخمسة السيارة ، والشمس والقمر وتابعوا حركاتها ومواقعها بشكل دقيق ، كما تابعوا الظواهر الكونية الغريبة كالمذنبات والتى استند عليها التنجيم عند الصينيين (٣٣). كما حققوا الكسوف الشمسى الذى ورد فى السجلات القديمة(٣٤). وتبعًا للمتابعات الدقيقة التى قام بها الصينيون للظواهر المختلفة ، فقد اهتموا ببناء المراصد لدراسة النجوم وإصلاح التقويم ، على شكل معابد ترمز للسلطة الإمبراطورية الممنوحة من السماء (٣٥). وعرف الصينيون أدوات فلكية ، فصنعوا مزاول شمسية من نوع متطور (٣٦). وعرفوا أيضًا الساعة المائية ، وعدداً من الآلات الفلكية

كـذوات الحلق وأرباع الدائرة وآلة السـدس ، والكرات السمـاوية ، واخـتـرعـوا البـوصلة البحرية(٣٧). وهم أول من عرفوا أن السنة الشمسية هي بالضبط ٣٦٥,٢٥يوم ، وقسموا السنة إلى اثنى عشر شهرًا ، يبدأ كل منها بظهور الهلال . وكانوا يضيفون شهرًا آخر كل بضع سنين لكى يتفق التقويم القمرى مع الفصول الشمسية ، وقسموا اليوم إلى اثنتى عشر ساعة (٣٨).

علم الفلك عند الهنود :

جاء الفلك الهندى متأثرًا بالفلك البابلى والمصرى والصينى واليونانى ، وأقدم الرسائل الفلكية وهى " السندذانتا" حوالى ٤٢٥ ق.م، كانت قائمة على أساس العلم اليونانى ، وفى سماء الفلك الهندى يبرز اسم " آريابهاتا " وهو أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود ، وقد بحث هذا الفلكى فى قصائد منظومة موضوعات مثل المعادلات الرباعية والجيب فى حساب المثلثات، وقيمة النسبة التقريبية المستعملة فى استخراج مساحة الدائرة . كما علل الكسوف والخسوف، والاعتدالين والانقلابين (فى حركة الأرض حول الشمس) وأعلن عن كروية الأرض ، ودورتها اليومية حول محورها وقال أن عالم النجوم ثابت ، والأرض فى دورانها هى التى تحدث كل يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق واختفاءها فى الغرب " . وجاء بعده خلفه المشهور براهماجوبتا فنسق المعلومات الفلكية فى الهند (٣٩). ومن علماء الهند أيضًا فى الفلك كنكة الهندى (٤٠)، وجودر (٤١)، وصنجل (٤٢)، ونق(٤٣) بالإضافة إلى علماء آخرين .

وعلى هذا الأساس يذكر صاعد الأندلسى أن " للهند تحقق بعلم العدد والأحكام بصنعة الهندسة ، والخط الأوفى والقدح المعلى فى معرفة حركات النجوم وأسرار الفلك " (٤٤). وأن لهم فى علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم ، وهى مذهب السندهند ومعناه الدهر الداهر ، ومذهب الأرجبهر ، ومذهب الأركند " (٤٥).

علم الفلك عند الفرس :

كان الفرس مثل غيرهم من الشعوب القديمة لهم فى علم الفلك بداية ساذجة ، فقد عبدوا قوى الطبيعة والعناصر والأجرام السماوية (٤٦). ولكن بعد ما غزا الإسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٣ ق.م) ملك مقدونيا منطقة الشرق وبلاد فارس ، أثرت الثقافة الإغريقية فى البلاد وتكون لدى الفرس علم فلكى خليط (٤٧)، أدى إلى تطور علم الفلك لديهم . وعنهم يقول صاعد

الأندلسي : " أن لهم معرفة ثابتة بأحكام النجوم (أي التنجيم) وبأثرها فى العالم السفلى ، (يقصد الأرض) وكانت لهم أرصاد للكواكب قديمة ومذاهب في حركاتها مختلفة ، فمن ذلك المذهب الذى ألف عليه أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى تاريخه الكبير ، وذكر أنه مذهب العلماء المتقدمين من أهل فارس وكثير من علماء سائر النواحى ... وأثنى أبو معشر على هذا المذهب وقال ، أهل الحساب من فارس وبابل والهند والصين ، وأكثر الأمم ممن كان له معرفة بصناعة النجوم ، وخاصة كنكة الهندى المقدم عند جميع العلماء من أهل الهند فى سائر الدهور ، مجمعون على أن أصح الأدوار أدوار هذه الفرقة ، وكانوا يسمونها " سنى العالم " وبهذا الاسم كانت تسميها الأمم الخالية من أهل الصناعة على قديم الدهور : فأما أهل زماننا فإنهم يسمونها " سنى أهل فارس " . وللفرس كتب جليلة فى أحكام النجوم منها كتاب " صور درجات الفلك " ينسب إلى زرادشت و " كتاب التفسير " وكتاب " جاماسب " وهو جليل جداً " (٤٩).

علم الفلك عند اليونان :

إن الحضارة اليونانية هى امتداد طبيعى للحضارات السابقة ، فالأمم القديمة قدمت خلاصة تجاربها إلى اليونانيين ، وأحسن اليونانيون صنعًا بأن أعملوا عقولهم فيها فصاغوها بشكل جيد علمًا منظمًا . فعلوم اليونان الرياضية تدين بازدهارها والقوة الدافعة لها إلي مصر، ويدين الفلك اليونانى بازدهاره إلى بابل . ذلك أن استيلاء الإسكندر على بلاد الشرق أدى إلى عودة تبادل الأفكار وإلى اتساع ذلك التبادل (٥٠).

وقد تميز الفكر الإغريقى بمحاولة معرفة حقائق الأشياء الخارجية فنظروا فى الكون محاولين التعرف على نظامه المتناسق ، وما يجرى فيه ليضعوا ما يستطيعون من نظريات(٥١).

وقد أوردت كتب التراجم عدداً كبيراً من علماء اليونان فى ميدان الفلك مثل ميطن(٥٢) (Meton) وأقطيمن(٥٣) (Eucteman) الذين اجتمعا بالإسكندرية على أحكام الرصد ، ورصدا ما أحيا من الكواكب لتحقيق مواضعها على زمانهما (٥٤). وأطولوقوس (Autolucus) الرياضى اليونانى المشهور ، من تصانيفه كتاب الكرة المتحركة ، وكتاب الطلوع والغروب (٥٥). وثيودوسيوس الطرابلسى Teodosius of Tripoli وله من الكتب : كتاب الأكر ثلاث مقالات وكتاب المساكن مقالة وكتاب الليل والنهار مقالتان (٥٦). ومينيلاوس Menelaus ومن مؤلفاته كتاب أشكال الكرية ، وكتاب فى معرفة كيفية تمييز الأجرام المختلطة

وغيره (٥٧). ومنهم أيضاً أبسقلاؤس Hypsicles وله تصانيف مشهورة مثل كتاب الأجرام والأبعاد ، وكتاب المطالع ، وكتاب الطلوع والغروب مقالة (٥٨). وطيموخارس وطيمالاؤس كانا عالمين بهيئة الفلك وصناعة آلات الرصد ، رصدا الكواكب في زمانهما وحققا مواضعها ، وقد ذكر بطلميوس أرصادهما في كتابه المسمى المجسطي (٥٩). وأرسطرخس Aristarchus المنجم اليوناني السكندري وله كتاب جرم الشمس والقمر (٦٠). وثيون Teon الإسكندراني وهو من أشهر العلماء بالهندسة وعلم الأفلاك صاحب كتاب الأفلاك ، ذكر فيه هيئة الأفلاك وعددها ، وكيفية حركة الكواكب ذكر مرسلاً مجرداً من البرهان على ما ذهب إليه بطلميوس في كتاب المجسطي (٦١). ويذكر ابن النديم والقفطي أن " له من الكتب : كتاب العمل بذات الحلق ، كتاب جداول زيج بطلميوس المعروف بالقانون المسيرة ، كتاب العمل بالإسطرلاب ، كتاب المدخل إلى المجسطي بنقل قديم (٦٢).

ومن مشاهير هؤلاء العلماء أبرخس (هيبارخوس النيقي) Hipparchus العالم الرياضي العظيم الذي كان له آثار فلكية تضاهي بأهميتها آثاره الرياضية ، الذي يبدو أنه استخدم أجهزة أرصاد فلكية جيدة منها كرة سماوية تمكن من خلالها من إبداء ملاحظات على صور الكوكبات ، وعن توزيع النجوم فيها بدون إجراء عمليات حسابية ، وقد عمل أرصاداً عجيبة في وقتها ضمن إمكانيات أجهزته . وكان أول من قسم الأجهزة الدائرية إلى ٣٦٠° (٦٣). واستطاع بفضل دراساته الرياضية للعلاقة الفلكية أن يضع جداول جيوب الزوايا ، وأن يبتكر حساب المثلثات (٦٤). وكشف عن التبادر بين الاعتدالين(٦٥) وعين مقداره ، ولكنه لم يفهم علته، بل لم يحدث فيها ، ومع ذلك يمكن اعتبار الشف عن ظاهرة التبادر أجل مآثره ، لأنه يقيم الدليل على الدقة النسبية في أرصاده النجمية وعلى ثقة بأرصاده (٦٦).

كما أن معرفة هيبارخوس بالتبادر مكنته من التمييز بين السنة النجمية والسنة الشمسية (وهي الأقصر) . فالأولى هي الفترة الزمنية التي تستغرقها الشمس في دورتين متعاقبتين إلى موضع نجم معين . والثانية هي فترتها بين دورتين متعاقبتين إلى موضع الاعتدال والتبادر . كما قام برصد العديد من المشاهد الفلكية ، مما دفعه إلى تصنيف جداول بالنجوم الرئيسية اعتمد فيها على الأرصاد البابلية (أو الكلدانية)(٦٧) لهذا أوشك أن يكون أعظم أصحاب النظريات الفلكية وأعظم الراصدين بين علماء الفلك الأقدمين عن بكرة أبيهم (٦٨).

ونتيجة للجهود العلمية لهذا العالم الفلكي يقول عنه القفطي أنه : " كان حكيماً عالماً من حكماء الكلدانيين (٦٩)، وكان قيماً بعلم الأرصاد وعمل آلاتها ، ورصد الرصد الحقيقي ، وبحث

فيه المباحث الصحيحة ، وأقام الحجج والبراهين المحكمة ، وعمل الآلات الجليلة ، وعليه اعتمد بطلميوس اليونانى القلوذى فى أرصاده ، وكثيراً ما يذكره فى كتابه المجسطى ، وله من التصانيف : كتاب أسرار النجوم فى معرفة الدول والملل والملاحم ، وقد خرج هذا الكتاب إلى العربى ، ومن وقف عليه رأى كتاباً جليلاً فى معناه يشهد لمؤلفه بتبحر فى هذا النوع " (٧٠).

ولكن أهم فلكى هذا العصر بطلميوس القلوذى Ptolemaeus الذى ولد بمصر وعاش بالإسكندرية ، سيطر على علم الفلك والجغرافيا ، بل على العلوم التى تشمل الكون كله عند أهل الغرب وعند أهل الشرق (٧١). عنه يقول صاعد الأندلسى : " بطلميوس هذا انتهى إليه علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك ، وعنده اجتمع ما كان متفرقًا من هذه الصناعة بأيدى اليونانيين والروم وغيرهم من ساكنى أهل الشق المغربى من الأرض ، وبه انتظم شتيتها وتجلى غامضها " . فتحدث عن السماء ، ووصفها وصفًا دقيقًا لهذا يقول القزوينى عنه : "ومسح الأفلاك برجًا برجًا ، ودرجة درجة(٧٢) ، وثانية ثانية حتى يقول فى يوم كذا وفى ساعة كذا يكون الكسوف أو الخسوف ، ويقع كما قال ، وأعجب من هذا أنه بين بالبراهين الهندسية أن ما بين السماء والأرض من المسافة كم يكون ميلاً ، وأن كل فلك من الأفلاك تحتها كم يكون ميلاً ، ودورتها كم تكون ميلاً ، وقطرها كم يكون ميلاً . ومن أعجب الأشياء وضع الإسطرلاب والتقويم ، فسبحان من علّم الإنسان ما لم يعلم ! " (٧٤).

وقد صنف هذا العالم جهوده فى كتابه المعروف باسم " النظام الرياضى " Mathematki Syntaxis للنجوم . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليونانى Al-Megisté " الأعظم " وحرّف الناس فى العصور الوسطى هذا اللفظ الماجسطى Almagest وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ ، ولخصّ فى هذا الكتاب ما كان يعرفه الأقدمون (٧٥).

والمجسطى يشتمل على ثلاث عشرة مقالة : الأولى : فى المقدمات مثل البرهان على كروية السماء والأرض ، وعلى ثبوت الأرض فى مركز العالم ثم ميل فلك البروج (٧٦)، ومطالع درج البروج فى الفلك المستقيم . الثانية : فى المباحث فيما يختلف باختلاف عروض البلدان مثل طول النهار وارتفاع القطب والمطالع فى الأقاليم والزوايا الناشئة عن تقاطع دائرتين من دوائر الأفق ونصف النهار ، ومعدل النهار وفلك البروج وغيرها . الثالثة : فى تعيين أوقات نزول الشمس فى نقطتى الاعتدال ونقطتى الانقلاب ، ثم فى مقدار السنة الشمسية وحركتى الشمس المعتدلة والمختلفة والطريقة الهندسية لبيان اختلاف الحركة بفلك خارج المركز أو بفلك تدوير ،

ثم اختلاف الأيام بلياليها وتحويل الأيام الوسطى إلى المختلفة وبالعكس . الرابعة : فى حركات القمر المعتدلة فى الطول والعرض . الخامسة : فى بيان اختلاف حركات القمر وحسابها ، ثم فى حساب اختلاف المنظر فى الارتفاع والطول والعرض . السادسة : فى اجتماعات النيرين واستقبالاتهما وكسوفاتهما . السابعة : فى الكواكب الثابتة والأشكال العارضة لها مع الشمس. الثامنة : فى جريدة الكواكب الثابتة ومواضعها فى الطول والعرض . التاسعة والعاشرة والحادية عشر : فى بيان حركات الكواكب الخمسة المتحيرة فى الطول . الثانية عشر: فى الرجوع والاستقامة والمقامات العارضة للكواكب الخمسة المتحيرة . الثالثة عشرة : فى عروض الكواكب الخمسة المتحيرة وظهورها واختفائها (٧٧).

ولبيان مدى القيمة العلمية التى حظى بها كتاب المجسطى يقول صاعد الأندلسى والقفطى: " لا يعرف كتاب ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب أحدها كتاب المجسطى هذا فى علم هيئة الفلك وحركات النجوم ، والثانى كتاب أرسطوطاليس فى علم صناعة المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصرى فى علم النحو العربى " (٧٨). لهذا كان هذا الكتاب مرجعًا فلكيًا مهمًا فى العالم العربى والإسلامى والأوروبى حتى القرن السادس عشر وما فتئ التراجمة والعلماء أن أفاضوا فى ترجمته وتفسيره والتعليق عليه شرحًا ونقدًا(٧٩) .

وله أيضًا كتاب الجغرافيا وهو أول ما صنّف فيها ويعرف بـ " جغرافية بطلميوس " ثمان مقالات ، صنفه بعد أن صنف المجسطى ، وعين فيه الأماكن بالحسابات الفلكية ورسم الخرط على الحسابات الرياضية ، وضبط الأقسام الجغرافية ، وحقق أماكنها على ما بلغ إليه العلم فى عصره ، وذكر فيه عدد المدن والجبال وما فى بطونها من المعادن ، وما على الأرض من الخلائق (٨٠)، وله كتاب الأربع مقالات فى أحكام النجوم (٨١)، وكتاب الثمرة(٨٢). وغيره من الكتب التى ذكرها ابن النديم والقفطى (٨٣).

الفلك من خلال نظرة العرب قديمًا :

إن حظ العرب فى الجاهلية من المعارف والعلوم لم يكن وافرًا لضيق العيش ، ولبعدهم عن مراكز الحضارة ، ولشيوع الأمية ، اللهم إلا بعض ما عرفوه فى مجالات الشعر والكهانة(٨٤) والعرافة ، والقيافة(٨٥) والفراسة(٨٦) والإنسان والنجوم والأنواء(٨٧) لارتباطها الشديد بحياتهم ، وطرائق عيشهم . فقد كان أهل الوبر منهم – عرب الجاهلية – قُطّان الصحارى

وعمار الفلوات ، كانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، وكانوا زمان النجعة ، ووقت التبدى يراعون جهات إيماض البروق ، ومنشأ السحاب ، وجلجلة الرعد فيؤمونها منتجعين لمنابت الكلأ ومرتادين لمواقع القطر فيخيمون هناك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعى يقوضون لطلب العشب وابتغاء المياه ... " (٨٨).

يقول صاعد الأندلسى : " كان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواع الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوا بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم لمعرفة ذلك فى أسباب المعيشة ، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم " (٨٩).

لهذا كان للنجوم وأحاديثها وتنبؤاتها تأثير كبير على حياة عرب الصحراء أكثر بكثير مما كان لها فى حياة الإغريق والرومان أو أى شعب آخر . فالعرب فى صحرائهم ولنقاوة سمائهم وسطوع كواكبهم ، كانوا أعرف الناس بها وأجدرهم بملاحظتها ، لكثرة ترحالهم نظراً لظروف معيشتهم ، وواقع حياتهم البدوية ، فكانوا يتخذون الليل - فى أغلب الأحيان - جلباباً لطوّفوا فى طول البلاد وعرضها ، عبر البوادى المتشابهة المعالم ، متخذين من النجوم دليلاً ، إذ يعز كل دليل . يقول تعالى : { وَهُوَ الذى جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}(٩٠).

ولا ندعى القول أنهم عرفوا جميع العلوم ، وأنّى لهم ذلك ، وفى السماء بضعة آلاف من النجوم المرئية ، عرفوا منها ألفًا واثنين وعشرين نجمًا على الأقل (٩١). فأطلقوا على آحادها ومثانيها ، ومازاد على ذلك من مجموعات مميزة أسماء معروفة ، وحددوا لها أماكن ومطالع ومساقط ، لا لشىء ، إلا لحاجتهم الشديدة إليها ، والاهتداء بها فى معرفة أزمنتهم وأمكنتهم(٩٢).

ومما لا شك فيه أن العرب فى الجاهلية ، عبدوا فيما عبدوا ، كغيرهم من الأمم والشعوب ، بعض مظاهر الطبيعة ، ومن بينها الشمس والقمر وعدداً آخر من النجوم على أنها مستودع الأرواح الخفية وللقوى الفاعلة والمحركة لنشاط الإنسان (٩٣). لهذا قامت ديانة العرب على أساس تقديس النجوم (٩٤)، وكان الشمس والقمر محور الاعتقادات الفلكية والدينية الأولى عند البدوى لأهميتها بالنسبة إليه ، فأقام العرب لبعضها الأصنام والهياكل والبيوت ، وقربوا لها القرابين (٩٥). يقول صاعد الأندلسى : " كانت حمير تعبد الشمس ودليل ذلك حكاية الله تعالى فى كتابه العزيز عن الهدهد إذ قال لسليمان عليه السلام واصفًا حال بلقيس الحميرية : { وَجَدتُّها وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ... } (٩٦).. وقال هشام بن محمد الكلبى :

كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر ، وتميم الدبران (٩٧)، ولخم وجذام السهى ، وطيء سهيلاً ، وقيس العبور ، وأسد عطارد " (٩٨).

وفيما يتعلق بالتنجيم ، عرف العرب كغيرهم من الأمم التنجيم واستخدموه فى حياتهم ، وربطوا بين الظواهر الفلكية والحوادث الأرضية ، فقد جمعوا ومزجوا بين المعارف الفلكية الخالصة والتنجيم والخرافات ، وهو ضرب من ضروب الكهانة والاعتقاد بتأثير الفلك على حدثان العالم والدول (٩٩). على أسس من الأحكام الغيبية ، باعتقاد هؤلاء المنجمين بأن هناك ثمة نجوماً من طبعها السعادة ، ونجوماً أخرى من طبعها النحوسة . وهم يبنون آراءهم هذه على اجتهادات تقوم فى الأساس على حساب ، وتتبع دقيق لمواقع السيارات فى أفلاكها ، واقترانها بعضها بالبعض الآخر ، أو حلولها فى بروج معينة دون أخرى (١٠٠). مما يترك أثراً مباشراً وفاعلاً فى حياة البشر ، وسلوكهم وأرزاقهم ، ويقدر لهم ما يقدر من خير وشر ، ونفع وضرر ، وفأل ونحوسة ، وذلك فى أيام وليال معينة ، وساعات محددة (١٠١).

أى أن التنجيم كان رجماً بالغيب ، ونوع من الحدث والتخمين والمزاعم التى تناقض العلم ، ولذلك يكون مجافياً للعقل أن يطلق عليه لفظ علم ، والأحرى أن يطلق عليه " فن أو صناعة " كما يقول ابن خلدون (١٠٢). وصناعة التنجيم هذه تقترن جذورها الأولى بعبادة الكواكب عن الأمم السابقة (١٠٣).

موقف الإسلام من أفكار العرب حول النجوم :

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التى تتحدث عن النجوم والشمس والقمر والبروج ، لا على سبيل التنجيم والكهانة والعرافة ، بل على سبيل التفكير والعلم والهداية والاعتراف بقدرة الخالق وحكمته { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (١٠٤). { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } (١٠٥). { خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ }(١٠٦) ، { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (١٠٧). { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ } (١٠٨). { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...}(١٠٩). {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً } (١١٠). {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي

السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ] (١١١). [تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا] (١١٢). [وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ] (١١٣). [وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ] (١١٤).

وعلى هذا الأساس حارب الإسلام التنجيم بشدة ، واعتبر الإيمان به ، أو العمل فيه ضربًا من الزيغ والانحراف ، ومظهرًا من الشرك لأنه يقوم على أساس المشاركة لله في اطلاعه على الغيب (١١٥). وهذا ما خصَّ به الله سبحانه وتعالى نفسه بقوله [عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ...] (١١٦). [عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ] (١١٧). [قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ...] (١١٨). [وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (١١٩). [هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] (١٢٠). [عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا] (١٢١).

ويروى عن النبي ﷺ قوله : " أخاف على أمتي بعدي ثلاثًا : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكذيب بالقدر "(١٢٢) .. وفي شرح " نهج البلاغة " ورد قوله أيضًا : " أيها الناس، إياكم والتعلم للنجوم ، إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر ... إنما المنجم كالكاهن ، والكاهن كالكافر والكافر في النار ... " (١٢٣). وعلى الرغم من نهي الإسلام عن الإيمان بالنجوم والاعتقاد بفألها ونحوستها ، فقد استمر الأخذ بهذا الاعتقاد بعد ذلك .

الأنواء وعلاقتها بالنجوم:

ومن المعارف التي شاعت عند العرب وبرعوا فيها منذ فجر جاهليتهم ، الأنواء ، وهو نوع من المعرفة له صلة وثيقة بالنجوم ذات الأنواء ، فالعرب قديمًا نظروا إلى السماء ونجومها ولاحظوا تأثيرها على حياتهم على مدى السنين ، وتبدل المواسم والأمطار وأثر ذلك على حياتهم (١٢٤).

معنى لفظ النوء:

ورد في لسان العرب ، ناء بحمله ينوء نوءًا : " نهض بجهد ومشقة ... ويقال : نهض بالحمل إذ نهض به مثقلاً (١٢٥). والنوء إذا مال النجم إلى المغيب وراء الأفق عند الفجر وطلوع رقيبه، وهو نجم آخر يقابله ، من ساعته في المشرق . وسمي النوء نوءًا لأنه " إذا سقط الغارب ناء الطالع ، وذلك الطلوع هو النوء " (١٢٦). وقد يسمى النجم الطالع من المشرق رقيبًا ، كأنه يرقب سقوط الآخر في المغرب ، ويسمى الساقط في الغرب نوءًا من ناء أي سقط ومال والميل

هو النوء ، ومنه قوله تعالى : { مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } (١٢٧). ومعناها أن مفاتيحه تميلهم من ثقلها (١٢٨).

ونسب العرب إلى الأنواء عدة تأثيرات ، أعنى الأمطار والرياح والحر والبرد (١٢٩). من هنا نجد أن العرب منذ القدم من خلال تتبعهم لحركات النجوم المنتظمة ، والثابتة ، بالإضافة إلى ما اقتبسوه من الغير عن البابليين والهنود والفرس واليونان (١٣٠). أصبح لديهم نظام بدائى لحساب الزمن يتلخص فى أن الغروب مع مغرب الشمس لسلسلة من النجوم أو الكوكبات يحدد من ناحية بداية فترات تسمى النوء ، على أن مدة النوء نفسه خلالها تمتد من يوم إلى سبعة أيام ، وكانت النجوم نفسها هى التى تحدث المطر ويستسقى بها وكانت معرفة هذه الأنواء تمكن البدو والمدربين فى هذا العلم من التنبؤ بحالة الجو فى مدة معيّنة (١٣١).

وقد تعلم العرب من الهنود قبل الإسلام بمدة أن يميزوا منازل القمر وعددها ٢٨ منزلاً(١٣٢)، وقد أدركوا أن قائمة هذه المنازل تتفق بوجه عام مع قائمة الأنواء عندهم هم ، ومن ثم شرعوا فى الجمع بين الفكرتين ، وعدّلوا أنواءهم لتتفق مع المنازل ، وذلك بتقسيم دائرة البروج الشمسية ٢٨ قسمًا متساويًا ، ومن ثم فإن الأنواء الثمانية والعشرين التى تماثل المنازل الثمانية والعشرين ، يحددها ٢٨ نجمًا أو كوكبة من ١٤ زوج (الغروب من مغرب الشمس للواحد يقابل الشروق مع مشرق الشمس للآخر) ، وهى تحدد بداية ٢٧ فترة كل منها من ١٣ يومًا ، وفترة واحدة من ١٤ يومًا (١٣٣). ولقد قسمت هذه المنازل أو الأنواء إلى منازل ربيعية وصيفية وخريفية وشتوية (١٣٤).

خلاصة القول أنه تبين للعرب من خلال ملاحظاتهم وتتبعهم لتلك المنازل ، أن ثمة حوادث تمس حياتهم ومعالجة النخيل وهطول المطر (١٣٥)، وهبوب الرياح تحدث مع طلوع تلك النوء وسقوطها ، مما ترك عند البعض منهم انطباعًا أن هذه الحوادث ، وبخاصة المطر ، إنما هى من صنع الأنواء ذاتها ، أى من صنع النجوم الساقطة والطالعة معًا ، فى حين رأى البعض الآخر فيها مجرد علامة أو وقت ، يدلان على وقوعه (١٣٦).

ولقد وقف الإسلام من الفهم الأول للأنواء – أى الفهم القائم على الاعتقاد بأن النجوم هى علة الحر والبرد ، وسبب حدوث الأمطار والرياح – موقفًا معاديًا ، باعتباره مظهرًا من مظاهر الشرك ، وأثر من آثار الجاهلية وعبادة الكواكب فى القديم . قال تعالى : { تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ } (١٣٧)، أى تجعلون شكر ما ترزقون به من مطر ، تكذيبكم بنعمة الله ، فتقولون

مطرنا بنوء كذا ... وسقينا بنوء كذا ... (١٣٨)، قال أبو منصور ، معناه وتجعلون شكر رزقكم الذي رزقكموه الله ، التكذيب أنه من عند الرازق ، وتجعلون الرزق من عند غير الله ، وذلك كفر، فأما من جعل الرزق من عند الله عز وجل ، وجعل النجم وقتًا وقّته للغيث . ولم يجعله المغيث الرازق ، رجوت ألا يكون مكذبًا (١٣٩).

وقد أنكر الرسول ﷺ شأن النجوم وتأثيراتها في مثل قوله : إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، وفي قوله في الحديث الصحيح : أصبح عبادي مؤمن بي وكافر بي ، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب (١٤٠). لأن العرب كانت تزعم أن ذلك المطر الذي جاء بسقوط نجم هو فعل النجم ، وكانت تنسب المطر إليه ، ولايجعلونه سقيًا من الله ، وإن وافق ذلك النجم المطر يجعلون النجم هو الفاعل (١٤١).

أما الفهم الآخر للأنواء ، وهو الفهم القائم على اتخاذ طلوع نجم ما أو سقوطه ، دلالة على إمكان حدوث المطر والبرد أو الجفاف ، فمن المؤكد أن الإسلام لم يحاربه أو يعارضه وذلك لأنه مجرد ملاحظات فلكية ارتبطت بآثار لها في الطقس والجو ، قد تخطيء وتصيب ، وإن كانت أوجه الصواب أكثر ، لأنه يقوم على مراقبة صحيحة ودقيقة ومتعمقة لتلك الظواهر تتكرر دومًا بتعاقب الشهور والسنين .

لهذا يقول أبو إسحاق : وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا ، ولم يرد ذلك المعنى ، ومراده أنا مطرنا في هذا الوقت ، ولم يقصد إلى فعل النجم فذلك والله أعلم جائز . كما جاء عن عمر – رضي الله عنه – أنه استسقى بالمصلى ثم نادى العباس : كم بقي من نوء الثريا (١٤٢)؟ فقال : إن العلماء بها يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعًا بعد وقوعها ، فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس ، فإنما أراد عمر – رضي الله عنه – كم جرى من الوقت التي جرت به العادة أنه إذا تم أتى الله بالمطر (١٤٣).

مما تقدم يتبين أن علم الفلك يؤدي على معرفة الله . وفي هذا السياق يقول حبش الحاسب (ت حوالي ٨٦٥هـ) : " إني وجدت الماضين قبلي قد أودعهم الله من النعمة وجعل فيه من الهداية إلى معرفته ، ما أفادهم من الألباب التي يعرفون بها فصل الخطاب حتى (يتمكنوا بفضل ذلك من) النظر في حسن تقدير ما في طبقات السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، من ائتلاف أجزائه ، والتئامها ، فعلموا موارد أخباره ، وتعقبوا مصادر اعتباره ، وحكموا على من

يظن فيه بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، وأيقنوا أنه له باريًا هو أنشأه وابتداه وليس بعضه من بعض " (١٤٤).

وفي عصر الخلفاء الراشدين لم يختلف الأمر عن عصر الجاهلية فيما يتعلق بالعلوم العقلية ومنها علم الفلك ، فإنه كان زمن الفتن والحروب الداخلية وفتوح البلدان والجهاد لنشر الإسلام. فما اشتغل فيه المسلمون إلا بالسياسة والحروب والأمور الدينية مثل جمع القرآن الكريم والعلوم الشرعية ، والاهتمامات الثقافية التي دارت حوله بالإضافة إلى الشعر والأدب ، فكسدت أسواق العلم كل الكساد . ولم يزل الأمر كذلك بعد امتداد الدولة الأموية . ففي القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري ، كان المسلمون بعيدين عن علم الفلك وسائر العلوم الرياضية والطبيعية يدل على ذلك ما ورد في مؤلفاتهم من خرافات في ذلك العلم عن الشمس والقمر (١٤٥). وما نستثني من ذلك إلا الأمير خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م ، حفيد الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية – الذي اهتم بالعلوم وأعنى بإخراج كتب اليونان القدماء ، وأول من تُرجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء حتى سمي حكيم آل مروان (١٤٦).

وفي هذا السياق يقول صاعد الأندلسي : " كانت العرب في صدر الإسلام لا تُعنى بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاش صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًا إليها ... فلما أراد الله تبارك وتعالى الهاشمية – أي ظهور الدولة العباسية – ، وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها . فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ... فكان – رحمه الله – مع براعته في الفقه وتقدمه في علم السنن راغبًا في علوم الفلسفة وخاصة في صناعة النجوم ، فكان كلفًا بها محبًا لأهلها " (١٤٧).

نهضة علم الفلك في العصر العباسي وعوامل تطوره :

مما تقدم يتبين لنا أن العرب قبل العصر العباسي لم يعرفوا شيئًا يذكر عن علم الفلك ، اللهم إلا فيما يتعلق برصد الكواكب والنجوم الزاهرة وحركاتها وأحكامها بالنظر إلى الكسوف والخسوف وعلاقتها بحوادث العالم من حيث الخط والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية ، وكانوا يسمون هذا العلم الذي يبحث في مثل هذه الأمور علم التنجيم ، ومع أن الدين الإسلامي قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجري على الأرض ، ومع أن الدين

الإسلامى قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجرى على الأرض ، إلا أن ذلك لم يمنع الخلفاء ، ولاسيما العباسيين فى بادىء الأمر أن يعنوا به ، وأن يستشيروا المنجمين فى كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية ، فإذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ، ثم يسيرون على مقتضى ذلك . وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك (١٤٨)، ويراقبون النجوم ويعملون بأحاكمها قبل الشروع فى أى عمل حتى الطعام والزيارة ... (١٤٩). ومما لاشك فيه أن علم الفلك تقدم تقدمًا كبيرًا فى العصر العباسى كغيره من فروع المعرفة ، وقد كانت بعض مسائله مما يتطلب بمعرفتها المسلم : كأوقات الصلاة (علم الميقات) ومواقع البلدان المقدسة ، ووقت ظهور هلال رمضان ، وغيره من الأشهر ، أضف إلى ذلك شغف الناس بعلم التنجيم . كل هذا ساعد على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه تعمقًا أدى إلى الجمع بين مذاهب الكلدان والهنود والفرس والسريان واليونان ، وإلي إضافات هامة لولاها لما أصبح علم الفلك على ما هو عليه الآن(١٥٠).

العوامل التي أدت إلى نهوض علم الفلك :

كان الفلكيون عمومًا متحمسين لعلمهم ، وغالبًا ما لجأوا إلى البلاغة للإشادة بميدان بحثهم، ففى مستهل " الزيج الصابى " يصف البتانى (ت ٩٢٩هـ) علم الفلك بعبارات من بينها أنه من أشرف العلوم منزلة ، وأسناها مرتبة ... وأعلقها بالقلوب ، وألمعها بالنفوس . وينعت (البتانى علم الفلك بقوله أيضًا) أنه ميدان نشاط فيه إذكاء للذهن ، وشحذ لملكة التأمل. ولا يعترف البتاني – فى هذا الصدد – إلا بتقدم علم الشريعة وحده على علم الفلك . ثم يضيف بعد ذلك قائلاً : إن علم صناعة النجوم فيه نفع عظيم لأنه يتيح معرفة السنين والشهور ، والمواقيت ، وفصول الأزمان ، وزيادة النهار والليل ونقصانهما ، ومواضع النيرين وكسوفهما ، ومسير الكواكب فى استقامتها ورجوعها ، وتبدل أشكالها ، ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها . ويؤكد البتانى أن ذلك كله يؤدى بمن أمعن النظر وأدام الفكر فيه (إلى) إثبات التوحيد ، ومعرفة كنه الخالق ، وسعة حكمته وجليل قدرته ، ولطيف صنعه (١٥١). ويؤيد ذلك ما سبق أن أوردناه من آيات القرآن الكريم .

كما أن دراسة علم الفلك مطلوبة لارتباطها بعلم الميقات بالنسبة للعبادات ، لهذا كانت الجغرافية الرياضية أو الفلكية ميدانًا هامًا لتطبيقات علم الفلك نظرًا للحاجة إلى معرفة المواقع الجغرافية لأجل تحديد القبلة واتجاه محاريب المساجد فى كافة الأنحاء (١٥٢). ولعلم الفلك

فائدة فى ميدان الملاحة البحرية ، أو عند الضرب فى الأرض ولاسيما عبر الصحارى . فى قوله تعالى : {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ... } (١٥٣).

التنجيم والفلك فى عصر الخليفة ابى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) :

على الرغم من إجماع أغلب المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم (١٥٤). ومهاجمة ابن خلدون له بالتصريح بأنه غير نافع ، وأنه يسبب ضرراً روحياً ومادياً للإنسان"بما تبعث فى عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها فى بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل وتحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ، ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها وليس كذلك ، فيقع فى رد الأشياء إلى غير خالقها " (١٥٥). بالرغم من تلك المعارضة الصريحة نجد أن التنجيم وجد قبولاً فى ذلك العصر إلى جانب الاهتمام بعلم الفلك (أو علم الهيئة) حتى ألفت معاجم اقتصرت فى أغلبها على تراجم المنجمين (١٥٦).

كان الخليفة أبو جعفر المنصور هو أول من عُنى بالفلك وقرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وبلغ شغفه بالفلك درجة جعلته يصطحب معه دائماً نويخت الفارسى ، وكان حاذقاً باقتران الكواكب وحوادثها (١٥٧). ولهذا قبل أن يشرع الخليفة فى بناء مدينة بغداد ، طلب إليه نويخت أن يأذن له فى درس مواضع النجوم ، حتى يحول دون التأثيرات الشريرة ، ويحسب الوقت ليعرف أنسب ساعة للشروع فى البناء . وانصرف نويخت بالاشتراك مع يهودى فارسى كان قد دخل الإسلام وحمل اسم " ما شاء الله "(١٥٨) إلى استنطاق النجوم أسرارها وسؤالها عن الموعد المناسب ومعرفة الوقت الصحيح للقيام بالقياسات ومسح الأراضى وتخطيطها . فكان أن خرجت إلى الوجود مدينة بغداد (١٥٩).

يذكر اليعقوبى فى كتاب البلدان عند وصفه لمدينة بغداد وشوارعها أن المنصور ابتدأ بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ / ٧٦٣م ووضع أساس هذه المدينة فى وقت اختاره نويخت المنجم وما شاء الله . وأن الذين هندسوا المدينة فعلوا ذلك بحضرة نويخت وإبراهيم بن محمد الفزارى ، والطبرى (لعله عمر بن الفرخان الطبرى المنجم) المنجمين أصحاب الحساب(١٦٠).

ولما كبر نويخت وضعف عن خدمة الخليفة ، طلب منه أن يحضر ولده ويعده ليقوم مقامه ، فسير له ولده أبا سهل بن نويخت (١٦١). الذى حظى بمكانة أبيه ، فقد روى يوسف بن إبراهيم عن إسماعيل بن أبى سهل بن نويخت عن أبيه ، أن المنصور لما حج حجته التى توفى

فيها رافقه من الأطباء ابن اللجلاج ، ومن المنجمين أبو سهل بن نوبخت (١٦٢). ولأبي سهل الفضل بن نوبخت " نقل من الفارسى إلي العربى ومعوله فى علمه على كتب الفرس . وله من الكتب كتاب النهطان فى الموالبد ، وكتاب الفأل النجومى . كتاب المواليد ، مفرد . كتاب تحويل سنى المواليد ، كتاب المدخل ، كتاب التشبيه والتمثيل ، كتاب المنتحل من أقاويل المنجمين فى الأخبار والمسائل والمواليد وغيرها " (١٦٣).

وقد أثرت الفرس تأثيراً شديداً على ابتداء اعتناء المسلمين بالإحكاميات ، ومما يدل على ذلك أن بعض المنجمين الأقدمين مثل نوبخت وعمر بن الفرخان الطبرى وغيرهما كانوا من الفرس ، وأن اصطلاحات فارسية مثل الهيلاج والكدخداه والجابتختان كثيرة الوجود ى نفس كتب ماشاء الله (١٦٤).

وبما أن الأحكام النجومية لا تبنى إلا على معرفة المطالع وارتفاعات الكواكب عن الأفق فى الوقت المفروض مما يتطلب قياسات دقيقة ونظريات رياضية (هندسة ، حساب ، وحساب مثلثات) ، لذا كان الرصد الجيد سمة مميزة لأعمال التنجيم (١٦٥)، حيث لا يمكن إقامة الطالع وقياس الارتفاعات إلا بآلات رصدية أبسطها الاسطرلاب المسطح . لذا اعتنت العرب بعمله واستعماله فى عهد المنصور حتى قيل أن أول مسلم عمل اسطرلاباً وألف فيه كتاباً ، أبو إسحاق بن حبيب بن سليمان الفزارى (١٦٦) من فلكى المنصور . وفى هذا يقول ابن النديم عنه: " وهو أول من عمل فى الإسلام اسطرلاباً وعمل مبطحًا مسطحًا (١٦٧). وله من الكتب ، كتاب قصيدة فى علم النجوم ، كتاب المقياس للزوال ، كتاب الزيج على سنى العرب ، كتاب العمل بالاسطرلاب وهو ذات الحلق . كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح" (١٦٨).

وفى عصر المنصور العباسى ازداد الاهتمام بالترجمة ومنها كتب التنجيم ، وفى ذلك يقول المسعودى : " وهو (يقصد المنصور) أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ، ومنها كتاب " كليلة ودمنة " وكتاب " السند هند " وترجمت له كتب أرسطاطاليس ، من المنطقيات وغيرها ، وترجم له كتاب " المجسطى " لبطلميوس ، وكتاب " الأرثماطيقى " ، وكتاب " إقليدس " وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية ، والفهلوية ، والفارسية ، والسريانية ، وأخرجت إلى الناس ، فنظروا فيها ، وتعلقوا إلى علمها " (١٦٩).

إلا أن الكتاب الأكثر أهمية والذى دفع إلى إرساء قواعد علم الفلك العربى الإسلامى ومن ثم تطوره وازدهاره هو مؤلف جاء من الهند ، فكانت الترجمة العربية لهذا الكتاب الرياضى

الفلكي أكبر الأثر في تشجيع الفلكيين العرب والمسلمين على مواصلة أرصادهم وأبحاثهم الفلكية ، حيث يذكر صاعد الأندلسي نقلاً عن الحسين بن محمد بن حميد المعروف بابن الآدمي (١٧٠)، أنه " ذكر في زيجه الكبير المعروف بنظم العقد أنه قدم على الخليفة المنصور في سنة ست وخمسين ومائة (٧٧٣م) رجل من الهند بالحساب المعروف بالسندهند في حركات النجوم مع تعاديل معمولة على كردجات (١٧١)، محسوبة لنصف درجة من ضروب أعمال الفلك من الكسوف ، ومطالع البروج وغير ذلك في كتاب يحتوي على اثنى عشر بابًا . وذكر أنه اختصر من كردجات منسوبة إلى ملك من ملوك الهند يسمى قبغّر وكانت محسوبة لدقيقة دقيقة، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تجده العرب أصلاً في حركات الكواكب فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري ، وعمل منه كتابًا يسميه المنجمون " السند هند " . وتفسير السند هند باللغة الهندية " الدهر الداهر " . فكان أهل ذلك الزمان يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون " (١٧٢).

.ولم ينفرد الفزاري بالاشتغال بالسندهند ، ونشر تعاليمه في زمان المنصور ، لأن علامة آخر عني أيضًا بذلك الكتاب الهندي وهو يعقوب بن طارق . وعنه يقول صاحب الفهرست أنه "من أفاضل المنجمين . وله من الكتب ؛ كتاب تقطيع كردجات الجيب . كتاب ما ارتفع من قوس نصف النهار ، كتاب الزيج محلول في السند هند لدرجة درجة ، وهو كتابان ، الأول في علم الفلك والثاني ، في علم الدول "(١٧٣) .

ونظرًا لأنه ابتدأت في هذا العصر الخطوات العملية الصحيحة للفلك العربي الإسلامي ، كان لزامًا على علم الهيئة أن يسير بخطوات ثابتة وراسخة ، لذلك رسم لنفسه منهجًا علميًا واضحًا له خصائصه ومميزاته وله علماؤه ونظرياته وتطبيقاته العلمية . فقد كان من شروط التقدم في علم الهيئة كما يذكر نلينو اثنان ، الأول : التبحر في نظرياته مع بذل الجهد في نقدها ، واعتبار ما يستخرج من علوم رياضية وطبيعية وكيماوية . والثاني : المثابرة على الأرصاد وإتقانها ، لأن الحركات السماوية لا يحاط بها معرفة مستقاة حقيقة إلا بتمادي العصور والتدقيق في الرصد (١٧٤).

ولما كانت كتب الهند والفرس قاصرة عن مقتضيات العلم السامي سواء من حيث النظريات، أم من جهة الأرصاد ، فقد احتاج العرب وقت نهضتهم العلمية إلى ما يهديهم إلى طرق البحث المستقصي في المسائل الفلكية ، ويوضح لهم كيف تثبت أصولها بالقياس

والبراهين . وافتقروا على كتب تحثهم على التفكر القائم والاعتبار الدائم ، وتحرضهم على الوصول إلى معرفة علل الظواهر ، ويشوقهم إلى علم الفلك لمجرد جلالته السنية من دون الاهتمام بمنافعه المادية . فلحسن حظهم أنهم حصلوا على مثل تلك الكتب النفيسة ، أعنى حصلوا على كتب اليونان منها أصول أقليدس التى علمتهم الطريقة الحقيقة المدققة فى وضع البراهين الهندسية ، والمجسطى لبطلميوس الذى عرفهم بتطبيق تلك البراهين على بيان الحركات السماوية ، ووضح كيفية الأرصاد ووجوب المداومة عليها ، لأن بطلميوس كما قال البتانى (١٧٥)، قد اقصى علم الفلك " من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تُدفع صحته ولا يُشكُّ فى حقيقته ، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده وذكر أنه قد يجوز أن يستدرك عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إبرخس وغيره من نظرائه لجلال الصناعة ولأنها سمائية جسيمة ولا تُدرك إلا بالتقريب "(١٧٦).

لهذا عُنى العرب فى العصر الإسلامى بترجمة كتبه إلى العربية . ففى مدة خلافة المنصور نقل البطريق كتاب المقالات الأربع لبطلميوس فى صناعة أحكام النجوم (١٧٧). واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين أتوا بعده فى نشر العلوم وتشجيع المشتغلين فيها ، فلقد ترجم المشتغلون بالفلك ما عثروا عليه من كتب ومخطوطات الأمم التى سبقتهم ، وصححوا كثيراً من أغلاطها وأضافوا إليها ، وفى زمن المهدى والرشيد اشتهر فى الأرصاد علماء كثيرون أمثال "ما شاء الله " (١٧٨)، وهو واحد من أقدم الشخصيات التى اقترن اسمها ببداية الجهود المنظمة لاستيعاب التراث العلمى للحضارات ، منجمًا بكل ما فى الكلمة من معنى ، وكانت شهرته فى هذا الميدان عظيمة على امتداد قرون عديدة(١٧٩). وقد ألف الكتب فى الاسطرلاب المسطح وفي ذات الحلق(١٨٠)، ضاع أصل كتابيه العربى ، ولم تنج من التلف إلا ترجمة لاتينية لكتاب الإسطرلابات والعمل بها ، طبعت فى أوربا ثلاث مرات فى القرن السادس عشر الميلادى(١٨١).

وممن اشتهر فى هذا الوقت أبو حفص عمر بن الفرخان الطبرى (توفى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦م) أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها . والذى قال عنه أبو معشر البلخى . كان عمر بن الفرخان الطبرى عالمًا حكيمًا ، وكان منقطعًا إلى يحيى بن خالد بن برمك ، ثم انقطع إلى الفضل بن سهل(١٨٢) وزير المأمون الذى استدعاه من بلده ووصله بالمأمون فترجم له كتبًا كثيرة ، وحكم بأحكام موجودة إلى اليوم فى خزائن السلطان ، وألف له

كتبًا كثيرة فى النجوم وغير ذلك من فنون الفلسفة منها : كتاب تفسير الأربع مقالات لبطلميوس من نقل ابن يحيى البطريق وغيره (١٨٣).

وإبان حياة الوزير العباسى يحيى بن خالد البرمكى (ت ١٩١هـ / ٨٠٧م) أجريت عمليات رصد فلكية فى جند نيسابور(١٨٤) قام بها أحمد بن النهاوندى الذى ألف الزيج المشتمل(١٨٥). ومن جهود هذا الوزير العناية بترجمة كتاب المجسطى لبطلميوس ، يقول ابن النديم : " هذا الكتاب ثلاث عشرة مقالة ، وأول من عُنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره جماعة فلم يتقنوه - يقصد من قاموا بالترجمة قبله - ولم يرض ذلك ، فندب لتفسير أبا حسان ، وسلم صاحب بيت الحكمة (١٨٦). فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاختبر نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه "(١٨٧) .

ومن المحتمل أنه ترجم فى أيام هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) أو بعدها زيج بطلميوس ، حيث يذكر ابن النديم أن : " أيوب وسمعان فسرا زيج بطلميوس ، لمحمد بن خالد بن يحيى البرمكى (١٨٨).

كما اشتغل السريان أيضاً فى صناعة أحكام النجوم ، وممن اشتهر فيها منهم فى عهد الإسلام ثيوفيل (أو ثاوفيل) بن توما الرهاوى النصرانى رئيس منجمى الخليفة المهدى (١٥٨- ١٦٩هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥م) وكان خبيراً بحوادث النجوم ، وله فى أحكام النجوم إصابات عجيبة ، وقد مات قبل وفاة الخليفة بعشرين يوماً (١٨٩).

الفلك فى عصر المأمون :

بلغت رعاية الخلفاء العباسيين للعلم ذروتها فى عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨٠٩ - ٨١٣م) فقد أجمع المؤرخون على أنه لم يل الخلافة من بنى العباس أعلم من المأمون(١٩٠). فقد كان من أفاضل خلفائهم وعلمائهم وحكمائهم ، بل عده بعضهم من كبار العلماء حيث برع فى الفقه والعربية وأيام العرب والفلسفة وعلوم الأوائل(١٩١) ومهر بها . حيث يذكر المسعودى أن المأمون فى " بدء أمره .. كان يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها ، وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك (وغيره) واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها ، وواظب على قراءتها ، فافتن فى فهمها ، وبلغ درايتها " (١٩٤).

وعندما تولى الخلافة واستقر في بغداد ، شكل مجلسًا من أهل العلم والأدب ، للمناقشة والمناظرة ، وكان يعقد كل يوم ثلاثاء تحت رعاية الخليفة نفسه ومشاركته (١٩٣). وقد ضم المجلس علماء وأدباء من شتى الملل والنحل ، وكانوا يتناقشون في أهم القضايا الفكرية والعلمية(١٩٤).

وازدهر في عهد المأمون " بيت الحكمة " حتى غدا مجمعًا ثقافيًا وعلميًا متكاملاً ، حيث اشتمل على قاعات للترجمة والنسخ والبحث ، والمطالعة والمناظرة ، واجتمعت في هذا " البيت" كنوز الثقافة العربية والإسلامية مع كنوز الثقافات الأخرى ، لاسيما الفارسية والهندية واليونانية والسريانية (١٩٥). فقد تمكن المأمون من خلال مراسلاته مع أباطرة الروم من الحصول على عدد ضخم من مخطوطات التراث اليوناني . فقد بعث وفودًا عديدة من العلماء إلى أسيا الصغرى وقبرص وغيرها من بلاد الروم ، وكان من بين هؤلاء الحجاج بن مطر(١٩٦) وحنا بن البطريق(١٩٧) ويوحنا بن ماسويه(١٩٨) وغيرهم(١٩٩) . وقد اختاروا أحمالاً من تلك المخطوطات ، وجلبوها إلى بيت الحكمة في بغداد ، بعد أن تسلم الروم أموالاً طائلة ثمنًا لها . بالإضافة إلى ما تم الحصول عليه من غزوه لأنقرة وعموريه وسائر بلاد الروم، وكانت هذه المخطوطات تتعلق بالفلسفة والطب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم ، وتخير المأمون أمهر التراجمة لنقلها إلى العربية (٢٠٠).

وعكف علماء عصره على دراسة هذه الكتب ومن بينها " كتاب المجسطى ، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه ، ثم تقدم إلى علماء زمانه بإصلاح آلات الرصد ففعلوا " (٢٠١). وهكذا أضحى المأمون قدوة يحتذى بها عندما اختط سنة حميدة بإقامته المراصد في العهد الإسلامي ، حيث تشير المصادر التاريخية إلى عمليات الرصد التي تولى رعايتها في الشماسية(٢٠٢) بمدينة بغداد وعلى جبل قاسيون(٢٠٣) إحدى ضواحي دمشق . وكان سند بن على واحدًا من أعظم فلكي الشماسية ، واستنادًا إلى القفطي ، فإنه عندما أمر المأمون بإجراء عمليات الرصد ، وكل إلى سند مهمة الإشراف عليها وضبطها نظرًا لثقة المأمون في حدة بصر ذلك الفلكي ، كما يذكر المؤلف أن المأمون ندب سندًا لصنع أدوات فلكية في الشماسية ، ولإجراء عمليات رصد هناك (٢٠٤). بينما يقول صاحب الفهرست أن سندًا " عمل في جملة الراصدين ، بل كان على الأرصاد كلها (٢٠٥) . ولقد كان مرصد الشماسية جزءًا من بيت الحكمة (٢٠٦)، لهذا ارتبط بعض العلماء بهما مثل يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في

عصره (٢٠٧)، وواحداً من أبرز الشخصيات التى ارتبط اسمها بالشماسية وبيت الحكمة(٢٠٨). وقد اشترك يحيى هذا مع جماعة من المنجمين ممن لهم خبرة بعلم الفلك فى القيام ببعض عمليات الرصد مثل العباس بن سعيد الجوهرى(٢٠٩) وخالد بن عبد الملك المروزى(٢١٠) وابنه محمد ، وسند بن على(٢١١) ويحيى بن أكثم (٢١٢)، وعلى بن عيسى الاسطرلابى(٢١٣) ويبدو أن هؤلاء هم أعظم فلكى المأمون فى الشماسية .

ويذكر البيرونى أن يحيى بن أبى منصور قد رصد انقلابين شمسيين فى الشماسية فى سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م وذلك بحضور الخوارزمى أيضًا ، ثم جرى بعد ذلك رصد انقلابين شمسيين آخرين فى سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م ، حيث أبدى المأمون على إثرهما استياءه من عمليتى الرصد اللتين أجريتا فى سنة ٢١٣هـ . ولقد ترتب على ذلك بطلان عمليتى سنة ٢١٣هـ(٢١٤). ونتيجة لذلك يذكر حبش الحاسب(٢١٥) - أن المأمون - رضى الله عنه - سار بعد وفاة يحيى بن أبى منصور إلى دمشق فتقدم إلى يحيى بن أكثم والعباس بن سعيد الجوهرى فى اختيار رجل له معرفة ثاقبة بصناعة النجوم للرصد والمحنة ، فاختاروا له خالد بن عبد الملك (المرْورُّذى) فأمر باتخاذ آلات على أحكم ما يجد السبيل إليه منها ، وأن يختبر النجوم بدير مُرّان سنة كاملة ، ففعل ذلك خالد حتى أدرك حقيقة مواضع الشمس والقمر فى الفلك ، فلما صحّ ذلك أمر المأمون بأن يتخذ له قانون لمن أراد هذا العلم فأثبت ذلك على ما فى كتاب هذا (٢١٧).

وهناك أنشطة فلكية هامة أخرى جرى القيام بها بأمر من المأمون ، ومن بينها تحديد سمت القبلة . ولما كان السبيل إلى ذلك هو معرفة الموقع الجغرافى لمكة المكرمة فإن المأمون (أصدر أمره) الخاص بتحديد خطى العرض والطول لمكة المكرمة ، ولقد أمكن تحديد هذا الأخير من خلال رصدين لخسوف القمر جرى القيام بهما فى كل من بغداد ومكة المكرمة فى آن واحد(٢١٨).

وقام المأمون بإرسال بعثات لقياس قوس محيط الأرض الذى يُؤَثِّر زاوية قدرها درجة واحدة . وهذا القياس من أجل آثار العرب فى ميدان الفلك ، ولقد ورد ذكر هذا القياس الجليل فى العديد من المصادر العربية . يذكر سندْ بن على أن المأمون أمره هو وخالد بن عبد الملك المروزى أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض (أى ارتفاع القطب الشمالى) . قال فسرنا لذلك جميعًا ، وأمر على بن عيسى الاسطرلابى وعلى بن البحترى بمثل ذلك فسارا إلى ناحية أخرى . قال سند بن على فسرت أنا وخالد بن عبد الملك

إلى ما بين وامنة (رقة واسط)[٢١٩] . وتدمر وقسنا هنالك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بسطح كرة الأرض فكان سبعة وخمسين ميلاً ، وقاس على بن عيسى وعلى بن البحترى فوجدا مثل ذلك ، وورد الكتابان من الناحيتين فى وقت واحد بقياسين متفقين [٢٢٠].

وفى رواية أخرى يقول ابن خلكان فى ترجمة محمد بن موسى بن شاكر الرياضى لفلكى المشهور المتوفى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م : " أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربع وعشرين ألف ميل ، كل ثلاث أميال فرسخ ... فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى ، قال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا ، فسألوا عن الأرض المتساوية فى أى البلاد هى ؟ فقيل لهم : صحراء سنجار[٢٢١] فى غاية الاستواء، وكذلك وطآت الكوفة ، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون فى أقوالهم ، ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا إلى سنجار ، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة ، فوقفوا فى موضع منها وأخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات ، وضربوا فى ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً ، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان . فلما فرغ الحبل نصبوا فى الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ، ومشوا إلى جهة الشمال أيضًا كفعلهم الأول ؛ ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة ، فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الأرض بالحبل ، فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثى ميل ، فعملوا أن كل درجة من درج الفلك ، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان . ثم عادوا إلى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً ، وتوجهوا إلى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال : من نصب الأوتاد وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال التى استعملوها فى جهة الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك، وهذا إذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة وظهر له حقيقته . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلاثمائة وستون درجة ، فضربوا عدد دروج الفلك فى ستة وثلاثين ميلاً وثلثين – أى التى هى حصة كل درجة– فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل ... فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا، وكان موافقًا لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الأوائل ، طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر ، فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء فى ذلك [٢٢٢].

أما عن آلات الرصد ، فإنه يقال عن العباس بن سعيد الجوهرى وسند بن على ويحيى بن أبى منصور ، أنهم كانوا ذوى كفاية وهمّة فى تصميم الآلات ، فلقد وكل المأمون إلى الثانى والثالث صنع آلات الشماسية (٢٢٣). يذكر ابن النديم أنه غالبًا ما كانت الآلات الفلكية تصنع فى حران(٢٢٤) إبان زمن المأمون (٢٢٥).

من الواضح أن الهدف الأساسى من عمليات الرصد التى أجريت فى عهد المأمون ، قد استهدفت تحديث المعطيات البطلمية ، واستنادًا إلى ابن يونس ، فإن العمل فى الشماسية وقاسيون أسفر عن اكتشاف حركة الشمس فى أوجها ، بينما أسفر رصدهم للاعتدال الربيعى عن تقدير دقيق جدًا لطول السنة الشمسية ، وقياس ميل فلك البروج (٢٢٦). وقد تمخضت الأعمال التى أجريت فى الشماسية وقاسيون عن نتائج ضُمنت كتابًا اسمه " الزيج الممتحن " الذى ظهر على يد يحيى بن أبى منصور وخالد بن عبد الملك المروروذى وسند بن على والعباس بن سعيد الجوهرى (٢٢٧)، وحبش الحاسب المروروذى (٢٢٨).

من هنا يتبين أن أحد الأهداف الرئيسية لجهود المأمون فى بناء المراصد يتمثل فى إعداد زيج (أى قانون) تصبح الجداول الفلكية فيه أبرز معالمه (٢٢٩). ويذكر صاعد الأندلسى أن لحبش " ثلاثة أزياج أولها المؤلف على مذهب السندهند ... وكان تأليفه لهذا الزيج فى أول أمره أيام كان يعتقد حساب السندهند ، والثانى المعروف بالممتحن وهو أشهرها له ، ألفه بعد أن رجع من معاناة الرصد وضمنه حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان فى زمانه – كما ذكرنا سابقًا – والثالث الزيج المعروف بالشاه (الفارسى) (٢٣٠)، وله كتاب حسن فى العمل بالإسطرلاب " (٢٣١).

ومن مشاهير علم الفلك فى هذا العصر أيضًا ، أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى (٢٣٢)، أحد منجمى المأمون ، وصاحب المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وهو كتاب عظيم الفائدة ، يتضمن ثلاثين بابًا احتوت على جوامع كتاب المجسطى بأعذب لفظ وأبين عبارة(٢٣٣)، ولعل أهم إنجازات هذا العالم تعيين أبعاد الكواكب وأقطارها ، والمقاييس التى ذكرها لمسافات الكواكب وأحجامها ، عمل بها كثيرون دون تغيير حتى زمن كوبرنيكوس(٢٣٤).

وممن اشتهر أيضًا أولاد موسى بن شاكر أحمد ومحمد وحسن ، كانت لهم همم بتحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل كان والدهم فى صحبة الخليفة المأمون ، فلما مات الأب عهد الخليفة برعايتهم إلى إسحاق إبراهيم المصعبى . وقد أشارت بعض المصادر إلى أن بنى موسى قد أشرفوا على القياسات التى استهدفت تقسيم الأرض فى سنجار والكوفة (ناقشنا

ذلك فى الحاشية ٢٢٢) ، كما عنوا بضبط لم يكن معروفًا قبلهم مبادرة الاعتدالين ، ووضعوا تقاويم المكنة النجوم السيارة وقاسوا عرض بغداد ، وقيدوه ٢٣ْ درجة و ٢٠َ دقيقة أى برقم يصح بعشر ثوان تقريبًا . وتشير إليهم على أنهم منجمو المأمون (٢٣٥).

ومنهم محمد بن موسى الخوارزمى ، وهو عالم رياضى ، انقطع إلى بيت الحكمة ، منكبًا على الدراسة والبحث ، وله زيج مشهور لبلاد الإسلام " عول فيه على أوساط السندهند وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وميل الشمس على مذهب بطلميوس(٢٣٦). وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الأول والثانى ويعرف بالسندهند" (٢٣٧).

ومنهم محمد بن عمر بن الفرخان ، يذكر القفطى : " أنه كان له اليد الطولى فى زمانه فى علم الكواكب وصناعة التنجيم ، شهد له أهل صنعته بفضله ونبله ، وصنَّف فى ذلك كتبًا منها : كتاب المقياس . كتاب المواليد ، كتاب العمل بالاسطرلاب ، كتاب المسائل ، كتاب المدخل ، كتاب الاختيارات ، كتاب المسائل الصغير ، كتاب سنى المواليد ، كتاب التسييرات (٢٣٨)، كتاب الميالات ، كتاب تحويل سنى العالم " (٢٣٩).

وكذلك عبد الله بن سهل بن نوبخت كبير منجمى المأمون (٢٤٠)، ومحمد بن موسى الجليس(٢٤١)، وابن الطبرى اليهودى المنجم الذى قال عنه أبو معشر عندما سئل عن مطارح الشعاع " فذكرها وساق الحديث إلى أن قال إن المترجمين لنسخ المجسطى المخرجة من لغة اليونان ما ذكروا الشعاع ولا مطارحه ولا يوجد ذلك إلا فى النسخة التى ترجمها ابن المتطبب الطبرى ، ولم يوجد فى النسخ القديمة مطرح شعاع بطلميوس ، ولم يعرفه التراجمة " (٢٤٢). وعبيد الله بن الحسن أبو القاسم المعروف بغلام زحل المنجم مقيم ببغداد (ت ٣٧٦هـ) من أفاضل الحسّاب والمنجمين أصحاب الحجج والبراهين ، وله اليد الطولى فيما يعانيه من هذا الشأن ، له من التصانيف ، كتاب التسييرات مقالة ، كتاب الشعاعات مقالة ، كتاب أحكام النجوم ، كتاب التسييرات والشعاعات الكبير ، كتاب الاختيارات ، كتاب الجامع الكبير"(٢٤٣).

وفى تلك الفترة وبعدها ظهر علماء كثيرون فى علم الفلك لا يتسع المجال لذكرهم جميعًا – سوف نقتصر على ذكر أشهرهم – وهؤلاء جميعًا برعوا فى معرفة مسارات الكواكب ، وحساب الفلك والهندسة والمهارة فى صناعة آلات الرصد ، فعملوا أرصادًا أو أزياجًا أدت إلى تقدم علم الفلك أمثال ثابت بن قرة الحرانى الذى تولى الرصد ببغداد فى خلافة المأمون ، وقد أورد ابن

النديم والقفطى سرد بالعديد من الولفات تشهد له بتضلعه فى كثير من فنون العلم ولاسيما فى مجال الفلك الذى وضع فيه الكثير من المؤلفات خاصة الأرصاد ، وترجم وشرح الكثير من غوامض مسائلها ووضع أجوبة عليها (٢٤٤).

ولقد نبغ في هذا العلم أيضاً أبو عبد الله محمد بن جابر البتانى(٢٤٥) الذي صحح بعض الأخطاء التى وقع فيها بطلميوس ، ووصل إلى نتائج جديدة لم يصل إليها أحد قبله ، وفى ذلك يقول صاعد الأندلسى : " ولا أعلم فى الإسلام بلغ مبلغه فى تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها " (٢٤٦). فقد أقام مرصداً خاصاً فى الرقة ، حيث قام بعمليات رصد امتدت حوالى أربعين عاماً (٢٦٤ – ٣٠٦هـ / ٨٧١ – ٩١٨م) (٢٤٧).

وحدد البتانى فى كثير من الدقة ميل الدائرة الكسوفية ، وطول السنة المدارية والفصول ، والمدار الحقيقى والمتوسط للشمس مقيماً الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية ، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال . واستنبط نظرية جديدة تشف عن شىء كثير من الحذق وسعة الحيلة لبيان الأحوال التى يرى بها القمر عند ولادته . وضبط تقدير بطلميوس لحركة المبادرة الاعتدالية . وله أرصاد جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنثرون Dunthorne سنة ١٧٤٩م فى تحديد تسارع القمر فى حركته خلال قرن من الزمان(٢٤٨).

وهو مؤلف كتاب " الزيج الصابىء " الذى يعتبر من أهم مؤلفات الفلكيين السابقين ، نظراً لما كان لهذا الكتاب من أثر خطير فى العالمين الإسلامى والأوروبى جميعاً . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر للميلاد (٢٤٩).

كما راجع كثيراً من الكتب والأزياج وصحح بعضها حتى يصفه بعض الباحثين بطلميوس العرب ، وقال عنه سارطون : أنه أعظم علماء عصره ، وأنبغ علماء العرب فى الفلك والرياضيات ، مما كان له أثر كبير على علم الفلك فى أوروبا بعد ذلك (٢٥٠).

وكان معاصراً للبتانى عالم فلكى آخر هو أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى(٢٥١)، عنه يقول صاعد : " عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم ، وصاحب التواليف الشريفة والمصنفات المفيدة فى صناعة الأحكام وعلم التعديل ، ... ومن كتبه فى حركات النجوم زيجه الكبير ، والزيج الصغير " (٢٥٢).

ومن أبرز الراصدين أيضًا علي بن أماجور وأخيه أبو القاسم عبد الله بن أماجور وابنه أبو الحسن على والمملوك الذى أعتقه (أبو الحسن واسمه) مفلح بن يوسف ، فقد أجرى الوالد وابنه ومفلح عمليات رصد طويلة ما بين ٢٧٢هـ / ٨٨٥م وعام ٣٢١هـ / ٩٣٣م - أى ما يقرب من خمسين عامًا - تمخضت عن جداول فلكية عديدة (٢٥٣).

كما كانت رعاية عضد الدولة البويهى (٣٦٧ - ٣٧٢هـ / ٩٧٨ - ٩٨٣م) لعلم الفلك عظيمة جدًا ، حيث كان هو نفسه على دراية بعلم الفلك . فلقد دأب على أن يقول : " إن معلمى فى حل " الزيج الشريف " ابن الأعلم (٢٥٤)- ويبدو أنه مؤلف ذلك الزيج - ومعلمى فى الكواكب الثابتة وأماكنها وسيرها عبد الرحمن(٢٥٥) الصوفى "(٢٥٦) .

فقد كان الصوفى عالمًا فلكيًا شهيرًا اتصل بعضد الدولة البويهى وكان منجمه الخاص ، برع بشكل خاص فى معرفة صور الكواكب السماوية ، فألف كتابًا شهيرًا اسمه " صور الكواكب الثمانية والأربعين " وصف فيه كواكب السماء ، وقد بين فيه أماكن النجوم ، ومحل كل نجم بمفرده وموقعه فى الترتيب العام للكواكب الثمانية والأربعين (٢٥٧)، ولقد درس علماء الغرب نظريات الصوفى وقارنوا بينها وبين نظريات بطليموس ، فوجدوا أن آراء الصوفى أكثر دقة ، لهذا وصفه المستشرق الإيطالى الدوميلى بأنه من أعظم الفلكيين العرب الذين لهم سلسلة دقيقة من الملاحظات (٢٥٨).

وممن اختص بشرف الدولة بن عضد الدولة من الحكماء أبو حامد أحمد بن محمد الصاغانى (ت٣٧٩هـ) ، وكان فاضلاً فى الهندسة وعلم الهيئة ، وكان ببغداد يُحكم الآلات الرصدية غاية الإحكام . ولما بنى شرف الدولة بيت الرصد فى طرف بستان دار المملكة ، وتقدم برصد الكواكب السبعة واعتمد فى ذلك على ويجن الكوهى ، ورصد وكتب مختصرين بصورة الرصد ، كان من شاهد ذلك وكتب خطة بتصحيح نزول الشمس فى برجين أحمد بن محمد الصاغانى(٢٥٩).

أما أبو سهل ويجن بن رستم الكوهى المنجم فكان أيضًا حسن المعرفة بالهندسة وعلم الهيئة ، متقدمًا فيهما . وكان رصده لحلول الشمس برجى السلطان والميزان سنة ألف ومائتين وتسع وتسعين للإسكندر (٣٧٨هـ / ٩٨٨م) . وكان من جملة من حضر هذين الرصدين من العلماء إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابىء (٢٦٠) . وله مصنفات فى الهندسة والهيئة (٢٦١). وقد أجمع كل من حضر عملية الرصد من المنجمين والمهندسين - فى بستان شرف الدولة بن

عضد الدولة بالجانب الشرقي من بغداد – على دقة وسلامة الآلات المستخدمة في عملية الرصد ، وفي ذلك يقول القفطي : " سلم جميع من حضر من المنجمين والمهندسين وغيرهم ممن له تعلق بهذه الصناعة وخبرة بها تسليماً لا خلاف فيه بينهم ، إن هذه الآلة جليلة الخطر بديعة المعنى محكمة الصنعة ، واضحة الدلالة ، زائدة في التدقيق على جميع الآلات التي عرفت وعهدت ، وأنه قد وصل بها إلى أبعد الغايات في الأمر المرصود والغرض المقصود ... "(٢٦٢).

ومن هؤلاء العلماء أيضًا أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجاني(٢٦٣) (٣٢٨ – ٣٨٨هـ / ٩٤٠ – ٩٩٨م) وهو رياضي فلكي قال عنه ابن خلكان : "الحاسب المشهور أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وكان له فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها " (٢٦٤). وأجرى عمليات رصد استهدفت تحديد ميل تلك البروج ، وقام بقياس خط العرض لمدينة بغداد ، ورصد الانقلاب الخريفي في بغداد ، فضلاً عن قيامه بعمليات رصد أخرى أدت إلى تحديد الفصول (السنوية) واستخدم آلات متقنة ، فقد شاهد انحراف تمث الشمس بربع دائرة يبلغ نصف قطرها إحدى وعشرين قدمًا ، أي يبلغ من الاتساع ما يعد كبيرًا في المراصد الحديثة (٢٦٥).

أما خاتمة مشاهير ذلك العصر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ – ٤٤٨هـ / ٩٧٢ – ١٠٩٨م) ، كان ذو مواهب جديرة بالاعتبار ، فقد كان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية ، عدا العربية . اشتهر في كثير من العلوم وفاق علماء عصره وعلا عليهم وخاصة في علم الفلك ، ذهب إلى الهند في صحبة السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وأقام بها عدة سنين وعلمهم العلوم اليونانية وتعلم من حكمائهم فنونهم ، وعندما رجع من الهند ، واستقر في بلاط مسعود أخرج سفره العظيم في علوم الفلك والرياضيات " القانون المسعودي في علم الهيئة والنجوم " وسماه بذلك نسبة إلى السلطان مسعود وأهداه إليه (٢٦٦).

ويعد هذا المؤلف أهم مؤلفات البيروني في علم الفلك ، فهو موسوعة في علوم الفلك والجغرافيا والهندسة والرياضيات ، بل يعد أعظم تأليف في علم الهيئة يعفى على كل أثر كتاب صنف في تنجيم أو حساب (٢٦٧)، وهو كتاب مبسوط مطول مستوعب وضع على طريقة كتاب المجسطي لبطلميوس ، وأوفى عليه ما استقصى من مسائل العلم وبراهينها الطبيعية والهندسية وجداولها وأزياجها ، بحيث تولد فيه علم الهيئة العملي أكثر مسائل علم الهيئة النظري وطبائع الأجرام السماوية والحركات ، ويشتمل هذا المؤلف على إحدى عشر مقالة ،

ويلاحظ فى هذا الكتاب أن البيرونى لم يأخذ النظريات العلمية كحقائق مسلم بها ، بل أخذ ينقد ويناقش ويعيد النتائج التى ساوره الشك فى صحتها ، ويحذف ما يرى حذفه ، ويضيف من عنده ما يعتقد إضافته أو ما استنتجه من تجاربه واستوثق من صحته (٢٦٨).

ولم يكتف هذا العالم الفذ الدقيق فى أبحاثه بالرصد مرة واحدة ، بل يدفعه الحرص على دقة نتائجه إلى تكرار التجارب ، وقرر أن يصنع آلته الخاصة ليرصد بها أعماله الفلكية ، وليضع حداً لحيرته من تضارب نتائج أساطين علماء الفلك فى ذلك الوقت (٢٦٩). ولقد أفرد البيرونى باباً خاصاً فى المقالة الرابعة من القانون المسعودى لتعيين خط نصف النهار (اتجاه الشمال والجنوب) وذلك لأن الأرصاد الفلكية وما يتصل بها من تحديد الأوقات ، وتعيين اتجاهات أماكن العبادة تعتمد على معرفة الاتجاهات الأصلية ، وقد ذكر البيرونى سبعة طرق مختلفة لكيفية تعيين اتجاه الشمال والجنوب ، مبيناً مزايا ومساوىء كل منها ، وبين كيفية تعيين الوقت ومعرفة فصول السنة ، وحركة أوج الشمس ، وقياس طول السنة ، وسير القمر ، وشرح ظاهرة المد والجزر ، وأوضح الفرق بين الكسوف والخسوف ، والكواكب الثابتة والسيارة ، ومنازل القمر ، وحركات الكواكب ، وابتكر الإسطرلاب الأسطوانى ، وبسط عدة طرق لصناعة الاسطرلابات ، وابتكر كثيراً من الآلات المستعملة فى الرصد (٢٧٠).

ومن أشهر كتبه أيضاً وأغزرها مادة كتابه " الآثار الباقية من القرون الخالية " ، فهو يبحث فى اليوم والشهر والسنة عند مختلف الأمم القديمة ، وكذلك التقاويم ، وما أصاب ذلك من التعديل والتغيير (٢٧١). ووضع فى هذا الكتاب أصول الرسم على سطح الكرة ، حيث أورد فصلاً خاصاً فى تسطيح الكرة ، وبهذا ربط بين الجغرافيا الرياضية والفلكية (٢٧٢). كما شرح فى كتابه " تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن " جميع طرق الأرصاد وخطوات الحساب الممكن استعمالها فى هذا الشأن (٢٧٣).

وللبيرونى مؤلفات كثيرة جداً تفوق الحصر تبلغ فهرستها نحو ستين ورقة بخط مكتنز(٢٧٤).

مما تقدم يتبين لنا من خلال ثنايا هذا البحث أن البابليين امتازوا ببراعة فى العملية التجريبية كالرصد طويل المدى ، والحسابات الدقيقة على أسس رياضية ، وكان هذا شبه مجهول عند اليونانيين الذين كانوا يعمل معظمهم عملاً نظرياً بحتاً . وقد بقيت كذلك حتى عام ١٥٠ ق.م، حين جاء أبرخس الذى اعتمد على الأرصاد البابلية (أو الكلدانية) وقضى الليالى

فى استنطاق النجوم أسرارها بواسطة آلات صنعها بنفسه ، فأمد العالم ، بعد عمل ودأب طويلين ، بتلك المعارف والمعلومات الحسابية الفريدة التى كانت بمثابة حجر الأساس ، والطريق لعلم الفلك فيما بعد .

وقد قام بطلميوس بجمع كل هذه المعلومات فى كتابه الشهير " المجسطى " الذى دوَّن فيه جميع معارف عصره ، فأصبح المرجع الأول والأخير فى علم الفلك القديم وطغى على كل ما قد سبقه من المراجع ، فقد حوى كل شاردة وواردة فى هذا العلم . ولقد بقى " المجسطى " يعد أكبر تحقيق علمى فى الفلك على مر القرون .

وفى الواقع أنه لا الرومان ولا الهنود هم الذين ساهموا فى تطوير هذا العلم ، وإنما كان من دواعى فخر العرب أن يفعلوا ذلك وحدهم .

وفى ظل الإسلام ، كانت حاجة العرب إلى الاستناد إلى علم الفلك قد ازدادت كثيراً لما كانت تتطلبه ضرورات الدين من رصد دائم للنجوم والكواكب فى السماء لتحديد أوقات العبادة من صلاة وصوم وبداية الشهور مما دفعهم للقيام بعمليات حسابية دقيقة لمعرفة الوقت وتحديد اتجاه مكة المكرمة لمعرفة القبلة لكل ذلك اعتنوا برصد النجوم والكواكب وقاموا بحسابات وقياسات .

وبنى العرب المراصد وأشهرها مرصد المأمون فى بغداد ودمشق ومرصد شرف الدولة فى بغداد .

كما اهتم العرب اهتماماً بالغاً بالآلات الفلكية وما ورثوه عن اليونان كان بدائياً وأعجز من أن يساندهم فى سباقهم نحو الأمجاد التى رسموها لأنفسهم . فكان أن طوروها وزادوا عليها أشياء عديدة وقدموا اختراعات أخرى تشبه المعجزات ، مبتكرين بذلك آلات مختلفة للمراقبة والقياسات ، أخذها الغرب وبقى على استعماله لها أمداً طويلاً .

فلقد كانت آلة الإسطرلاب المسطح أفضل آلة قياسية عند العرب وأكثرها منفعة واستعمالاً . ففى حين كان اليونانيون لا يعرفون عنها إلا بضعة طرق للاستعمال ، كان العرب يعرفون أكثر من ثلاث وأربعين طريقة لاستعمالها وفى القرن العاشر الميلادى وما تلاه استعمل الأوروبيون الآلات العربية .

ولم يأخذ العرب العلوم التى ورثوها عن طريق الاقتباس ، كما أنهم أيضًا لم يأخذوا الآلات العلمية ومواد العلم القريب دون مناقشة أو تحقيق فمنذ البدء أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية والشجاعة العلمية اللتين استقبلوا بهما نتائج السلف وأقوالهم ليشبعوها نقدًا وتفنيدًا ، وتحقيقًا للأخطاء ودحضها ، وعملاً دائبًا فى الحقل الجديد ، دون أن تغشى بصرهم غاشية صيت ذائع ، ومن غير أن يدخل الوجل إلى قلبهم اسم كبير يرهبهم ، ولعل أبلغ برهان على هذا ما نراه من عناوين لمخطوطات كانت تسعى إلى نقد الكتب والتعليق عليها ، كالفروقات بين زيج بطلميوس والزيج الممتحن التى حققها ثابت بن قرة .

لقد كانت واقعيتهم – أى العرب – العملية الشديدة تدفعهم دفعًا ثابتًا إلى القيام بتجارب واختبارات شخصية عديدة من أجل الهدف العلمى نظرًا لاهتمامهم بالنتائج ومدى دقتها على خلاف الإغريق الذين كانوا يتساهلون غالبًا بالدقة . ويهملون عن رضى كثيرًا من الحسابات العويصة . إذ إن الأبحاث التى حققها العرب فى ميدان علم الهيئة والتنجيم تلبية لحاجاتهم اليومية ، تطورت تطورًا كبيرًا حتى أصبحت أسسًا جديدة لعلم الفلك .

لقد كان أهم الزيج التى دخل معظمها بلاد الغرب ، وعمل بها حتى أيام كوبرنيكوس Ko-pernikus ذاته دون قيد أو شرط لعدم توافر إمكانية القيام بعمليات رصد خاصة ، أو بتحقيق زيج خاصة كانت زيجة " الخوارزمى " و " المأمون " و " البتانى " و " ابن يونس المصرى " ، و"الزيجة الطليطلية " للزرقانى ، التى اعتمدت عليها الزيجة الألفونسية فيما بعد (٢٧٥).

يقول سيديو Sedillot : " لقد توصل فلكيو بغداد ، فى نهاية القرن العاشر ، إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه إنسان فى رصد السماء وما دار فيها من كواكب ونجوم بالعين المجردة ، دون اللجوء إلى عدسات مكبرة أو منظار " ... ومن بين العرب الذين وصلت آثارهم إلى مواطن العلم الغربى بطريق مباشر ، نجد العالم الفرغانى الذى قام بقياسات طول خط الأرض المستقيم ، وكان أول من أدرك أن مدار الشمس والكواكب على مر الزمن يجرى فى اتجاه خلفى ، وكتاب " جوامع علم النجوم " للفرغانى ترجم غير مرة إلى اللاتينية " .

وقام ثابت بن قرة بقياس علو الشمس ومدة السنة الشمسية ، وقام البتانى بإكمال النتائج التى توصل إليها بواسطة قياساته الدقيقة الصحيحة لمدد السنوات الاستوائية والقطبية المختلفة ، بعد أن قام بقياس دوران الأرض حول الشمس بطريقتين مختلفتين . ثم تحقيقات للخوارزمى ، حين شرع بأبحاث حول ظهور الهلال الجديد وحول كسوف الشمس وخسوف

القمر ، وحول اختلاف المنظر من الأرض هذا وأن مقدمته للزيجة الصابئية الشهيرة قد ترجمت إلى اللاتينية ثم صدرت بالإضافة على مؤلف الفرغاني عام ١٥٣٧م في مدينة نورنبرج ، ثم طبعت ثانية كمخطوطة مفردة في مدينة بولونيا بإيطاليا عام ١٦٤٥م.

كان العرب يعتمدون في رصدهم للسماء على العين المجردة فقط ، ومع ذلك فقد تمكنوا من رؤية نقاط العديد من النجوم . هذا وقد توصل من قبل ، أبرخس العظيم ، إلى اكتشاف أكثر من ألف نجم في السماء ، ومن تحديد مواقعها فيها . ولم يجرؤ أحد على تصحيح ما أورده أبرخس إلا عبد الرحمن الصوفي (٩٠٣ - ٩٨٦م) في بغداد حوال منتصف القرن العاشر ، إذ قام بتكليف من السلطان عضد الدولة الذي بنى له مرصداً فلكيًا في حدائق قصره ، ليلة بعد ليلة يرصد النجوم وعدها ، وحسب أبعادها أيضًا ، عرضًا وطولاً في السماء . فكان أن اكتشف نجومًا ثابتة عدة لم يلحظها بصر أبرخس قبله . ثم رسم خريطة للسماء بدقة كبيرة ، حسب فيها مواضع النجوم الثابتة وأحجامها من جديد .

لقد بدأعلم التنجيم بالانحسار إلى حد كبير بنفس السرعة والقوة التي أخذ فيها علم الفلك بالنمو والازدهار ، وشرع الفلكيون العرب يعتمدون في ذلك على أنفسهم منطلقين في رحاب واسعة فسيحة من التفكير الخلاق المبدع ، ولم يعد أمام التنجيم إلا الانزواء في دائرة ضيقة .

وبفضل الاعتماد على طرق رياضة متقدمة ، وخاصة علم المثلثات وبفضل العناية الفائقة في الحساب ، قدم علم التنجيم العربي زيجًا فاق كل تحقيقات علم التنجيم البابلي والهندي واليوناني في دقته وصحته .

فبواسطة العرب ، تعرفت أوروبا على أهم آثار القدامى ، وبفضل ترجماتهم للمخطوطات اليونانية وتعليقاتهم عليها ، وبفضل آثارهم الفكرية الخاصة أدخلت إلى العالم الأوروبي روح التفكير العلمي والبحث اللذين ما كانا بحاجة إلا إلى اليقظة والاهتمام حتى يظهر بالصورة التي ظهر عليها .

الهوامش

١ – دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى ، العشرين الميلادى ، تأليف محمد فريد وجّدى ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧١م ، المجلد السابع ، ص ٤٨١ .

٢ – ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحق المعروف بالوراق) ، كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجدد بن على بن زين العابدين الحائرى المازندارى ، الطبعة الثالثة ، دار المسيرة ، طهران ، ١٩٨٨م ، ص ٢٩٩ .

٣ – علم الزيج ، هو صناعة حسابية على قوانين عددية ، كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى إليه برهان الهيئة فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك ، يُعرف به موضع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها ، على تلك القوانين المستخدمة من كتب الهيئة .

ولهذه الصناعة قوانين : كالمقدمات والأصول ، لها فى معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية ، وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض ، والميول وأصناف الحركات ، واستخراج بعضها من بعض يضعونها فى جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين وتسمى الأزياج . ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً .

– ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٢م ، ص ٩٠٧ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، الكويت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص١١٢ ، وانظر : السيد أدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، الطبعة الثانية ، دار العربى البستانى ، القاهرة ١٩٨٧ – ١٩٨٨م ، ص ٨٢ ؛ وانظر أيضاً : رينهارت دوزى ، تكملة المعاجم العربية، ترجمة وتعليق د. محمد سليم النعيم ، جـ٥ ، بغداد ١٩٨٢م ، ص ٣٩٦ .

٤ – المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القادر العبيدى) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، وضع حواشيه خليل المنصور ، الجزء الأول ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨، ص ١٣ ؛ وانظر أيضاً : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، إعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد ، أحمد الشنتناوى ، عبد الحميد يونس ، ص ٦٩ ، ٧٤ .

٥ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٨٩ – ٨٩٠ .

٦ – ابن خلدون نفسه ، ص ٩٠٥ .

٧ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، ترجمة دكتور زكى نجيب محمود ، محمد بدران ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١م ، ص ٢٥٠ .

٨ – جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ترجمة محمد خلف الله ، مصطفى الأمير ، وطه الباقر ، ومحمد عبد الهادى أبو ريده ، ومحمد سليم سالم ، ورشيد الناضورى ، أحمد فؤاد الأهوانى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١م ، ص ١٧٤ .

٩ – الكسوف والخسوف : إذا مر القمر على العقدة عند الاقتران أى وقت ميلاده فلابد من توسطه بين الأرض والشمس لأن الثلاثة أجرام تقع على خط مستقيم وهذا يسبب كسوف الشمس . ويحدث خسوف القمر من مروره فى ظل الأرض ، وهذا لا يمكن حدوثه إلا عند الاستقبال ، ففى نصف طريقه يمر فى ظل الأرض وفى النصف الثانى تحته ، فالخسوف يحدث والقمر فى إحدى العقدتين أو يقرب أحدهما . (البلخى : أبى زيد أحمد بن سهل) : كتاب البدء والتاريخ ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، منشورات محمد على ، دار الكتب العلمية ببيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ١٢٣؛ دائرة المعارف ، القرن العشرين ، المجلد السابع ، ص ٥٠٢ – ٥٠٤ .

١٠ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، والمجلد الرابع ، الجزء السابع ، ص ١٧٥ .

١١ – سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

١٢ – سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الخامس ، ص ٢٠٩ .

١٣ – سارتون ، نفسه ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

١٤ – سارتون ، نفسه ، الجزء الخامس ، ٢١٢ ، ٢١٤ .

١٥ – ساعد الأندلسى (أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد) : طبقات الأمم ، تحقيق حياة بو علوان ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٦٧ ، ٦٩ – ٧٠ ؛ وانظر أيضًا : القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن الأقضى الأشرف يوسف) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٥٠ ، ٥١ ؛ ابن العبرى (العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المالطى) ، تاريخ مختصر الدول ، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، دار الرائد اللبنانى ، الحازمية ، لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ، ص ٧٢ – ٧٣.

١٦ – ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى) ، طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٥–٦ ؛ صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ؛ القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦ ،؛ ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق دكتور المنجى الكعبى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣م ، ص ٤٣٦ – ٤٧٧ ؛ نيلينو ، علم الفلك ، ص ١٤٢ ، حاشية ١١ ، أيدين صاييلى ، المراصد الفلكية فى العالم الإسلامى ، ترجمة دكتور عبد الله العمر ، مراجعة دكتور عبد الحميد صبره ، سلسلة الكتب المترجمة ، ط١ ، مؤسسة الكويت للتفوق العلمى ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الكويت، ١٩٩٥م ، ص ٩٦ .

١٧ – القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢–٣ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٩ ، وانظر أيضًا : الفهرست ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

١٨ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

١٩ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ، صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٦٨ – ٦٩ ؛ سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص ٢٤٢ .

٢٠ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٩ ، صاعد الأندلسى ، نفسه ، ص ٧٤ .

٢١ – الفهرست ، ص ٣٢٩ ، صاعد الأندلسى ، ص ١٤٨ .

٢ – الفهرست ، ص ٣٢٩ .

٢٣ – الفهرست ، ص ٣٣٠ .

٢٤ – صاعد الأندلسى ، ص ٦٩ ، القفطى ، ص ٥٠ .

٢٥ – المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٣٦٠ ؛ جيمس هنرى برستد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسى ، ترجمة حسين كمال ، مراجعة محمد حسنين الغمراوى ، الهيئة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م ، ص ١٠٥ .

٢٦ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء الثانى ، ص ١٢١ ، وانظر : سليم حسن ، مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، الجزء الأول ، فى عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الإهناسى ، ص ١٥٢ ، والجزء الثانى ، فى مدينة مصر وثقافتها فى الدولة القديمة والعهد الإهناسى ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

٢٧ – جيمس هنرى بريستد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسى ، ص ٣٤ ، ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ص ١٢١ .

٢٨ – جيرالد هوكنز ، بدائع السماء ، ترجمة عبد الرحيم بدر ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٧م ، ص ٦٥، جيمس هنرى برستد ، تاريخ مصر ، ص ١٠٥ .

٢٩ – رينيه تاتون وآخرون : تاريخ العلوم العام ، ترجمة دكتور على مقلد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص ٥٦ .

٣٠ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ٢٨ .

٣١ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ٢٥٣ ؛ وانظر أيضًا : جفرى بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة د. عبد الغفار مكاوى ، عالم المعرفة (١٧٣) سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ذو القعدة ١٤١٣هـ / مايو ١٩٩٣م ، ص ١٧٣ ، عبد الأمير المؤمن ، الفلك والفضاء من الخرافات والتنجيم إلى تلسكوب هابل، الطبعة الأولى ، الدار الثقافية النشر ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م ص ٣٢ .

٣٢ – ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى) ، معجم البلدان ، المجلد الثالث ، بدون تاريخ ، ص ٤٤١.

٣٣ – أوين جينكريتش ، علم الفلك الإسلامى ، مجلة العلوم الأمريكية للترجمة العربية ، المجلد الأول ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، تشرين الثانى ، ١٩٨٦م ، ص ١٧ .

٣٤ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ١٧ .

٣٥ – قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ١٥ ؛ نلينو ، علم الفلك ، ص ١٠٨ .

٣٦ – نلينو ، علم الفلك ، ص ١٠٢ .

٣٧ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ ، ص ٢٥١ . وعن ذات الحلق يقول حاجي خليفة : هي أعظم الآلات هيئة ومدلولاً ، وتركب من حلقة تقام مقام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقام مقام المارة بالأقطاب ، تركب إحداهما في الأخرى بالتصنيف والتقطيع ، وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الأولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها ، وحلقة نصف النهار قطرها مقعرها مسار لقطر محدب حلقة الطول الكبرى ، ومن حلقة العرض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى فتوضع هذه على كرسي .

– حاجي خليفة (مصطفى عبد الله القسطنطين الرومي الحنفي) ، كشف الظنون على أسامي الكتب والنون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ، الجزء الأول ، ص ١٤٦ .

٣٨ – نفسه ، ص ٢٥٣ .

٣٩ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

٤٠ – كنكه الهندي ، وله من الكتب كتاب النمو دار في الأعمار ، كتاب أسرار المواليد ، كتاب القرانات الكبير ، كتاب القرانات الصغير .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ؛ صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٦٣ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٨٤ ، ١٧٥ ؛ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٤٣٥ ؛ جوزيف شاخت ، كليفورد بوزوث ، تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ، د. إحسان صدقي العمد ، مراجعة فؤاد زكريا ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ، عالم المعرفة (٢٣٤) سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يناير ١٩٧٨م ، ص ١٨٧ .

٤١ – جودر الهندي ، وله من الكتب : كتاب المواليد ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ، ابن أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٣٦ .

٤٢ – صنجل الهندي ، كان من فضلاء علماء الهند ، وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب والنجوم ، وله من الكتب كتاب أسرار المسائل ، الفهرست ، ٣٣٠ ؛ ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٣٥ .

٤٣ – نق الهندي ، وله من الكتب ، كتاب المواليد الكبير ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ، أورده ابن أبي أصيبعة باسم (شاناق) وقال عنه أنه كان بارعًا في علم النجوم حسن الكلام متقدمًا عند ملوك الهند ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٣٦ .

٤٤ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٥٢ .

٤٥ – صاعد الأندلسي ، نفسه ، ص ٥٤ – ٥٥ ؛ القفطي ، أخبار العلماء ، ص ١٧٥ .

٤٦ – آرثر كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة دكتور يحيى الخشاب ، مراجعة دكتور عبد الوهاب عزام ، (الألف كتاب الثانى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، ص ١٩ .

٤٧ – القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٢٣٤ ، عبد الأمير المؤمن : الفلك والقضاء ، ص ٤١ .

٤٨ – عنه يقول القزوينى : هو وزير كشتاسف بن لهراسب ملك الفرس ، لم يعرف منجم مثله حكم على القرانات وأخبر بالحوادث التى تحدث ، وأخبر بخروج موسى وعيسى ، ونبينا عليه السلام ، وزوال الملة المجوسية وخروج الترك ونهبهم وقتلهم ، وخروج شخص يقهرهم وكثير من الحوادث بعدهم ، كل ذلك فى كتاب يسمى أحكام جاماسب العجيبة ؛ القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٣٤ ، ٥٧٢ ، نلينو ، علم الفلك ، ص ٢١٣ .

٤٩ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، وانظر أيضًا : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ – ٣٠٢ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٧٩ .

٥٠ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص ١٤٩ .

٥١ – عبد الأمير المؤمن : الفلك والقضاء ، ص ٤٥ .

٥٢ – " ميطن الإسكندرى ، كان هذا الرجل إمامًا فى علوم الفلك ، قيمًا بعلم الأرصاد ، وعمل آلاتها وأحكامها وأصولها ، وقد اجتمع هو وأقطيمن بالإسكندرية على أحكام الرصد ، ورصد ما أحبا من الكواكب لتحقيق مواضعها على زمانها ، ورصدا بالإسكندرية وكان زمانهما قبل زمن بطلميوس صاحب المجسطى بخمسمائة سنة وسبعين سنة " .

– القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١١ ؛ وانظر : صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ٨٨ .

٥٣ – أقطيمن حكيم رياضى من أهل الإسكندرية فى أيام اليونان ، كان عالمًا بالرياضة ، محققًا للأرصاد ، خبير بعمل آلاتها ، اجتمع هو وميطن للرصد بمدينة الإسكندرية ، ورصدا وأثبتا ما تحققاه وتداوله العلماء بعدهما إلى زمن بطلميوس القلوذى الراصد بعدهما بالإسكندرية وكان زمانهما قبل زمانه بخمسمائة وإحدى وسبعين سنة " . القفطى ، ص ٥٠ ؛ صاعد الأندلسى ، ص ٨٨ .

٥٤ – القفطى ، ص ٥٠ ، ٢١١ ؛ وانظر : صاعد الأندلسى ، ص ٨٨ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٨ .

٥٥ – راجع ترجمته فى ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٨ ؛ القفطى ، ص ٥٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣ – ٩ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٧٦ – ٧٧ ؛ وانظر : سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثالث ، ص ٢١٨ – ٢٢٠ ؛ جوزيف شاخت ، تراث الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٩٠ .

– وعن علم الأكر – يقول حاجى خليفة – هو علم يبحث فيه عن الأحوال العارضة للكرة من حيث أنها كرة من غير نظر إلى كونها بسيطة أو مركبة عصرية أو فلكية ، فموضوعه الكرة بما هو كرة وهى جسم

يحيط به سطح واحد مستدير في داخله نقطة يكون جميع الخطوط المستقيم الخارجة منها إليه متساوية في تلك النقطة ، مركز حجمها سواء كانت مركز ثقلها .

– حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، الجزء الأول ، ص ١٤٢ .

٥٦ – انظر ترجمة في : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٨ ؛ صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٨٨ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٧٦ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٠٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٧٧ .

٥٧ – انظر ترجمته في الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ صاعد الأندلسي ، ص ٨٨ ؛ القفطي ، ص ٢١١ .

٥٨ – انظر ترجمته في : الفهرست ، ص ٣٢٦ ؛ القفطي ، ص ٥٢ .

٥٩ – انظر ترجمته طيموخارس في : القفطي ، ص ١٤٨ ؛ ابن العبري ، ص ١٠٠ ؛ وترجمة طيمالاؤس في: صاعد الأندلسي ، ص ٨٧ .

٦٠ – الفهرست ، ص ٣٣٠ ؛ ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٣٦؛ ص ٣٧ ، حاشية رقم ١٢ ؛ القفطي ، ص ٥١ ؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٤ ، جـ٨ ، ص ١٤٩ .

٦١ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ١٠٩ ؛ الفهرست ، ص ٣٠٠ ؛ أورد القفطي نفس المعلومات تحت اسم " فنون السكندري " ، ص ١٧٢ .

٦٢ – الفهرست ، ص ٣٢٨ ؛ القفطي ، ص ٧٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

٦٣ – سارتون ، تاريخ العلم ، جـ٥ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

٦٤ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٤ ، جـ٨ ، ص ١٥١ .

٦٥ – الاعتدالان (الربيعي والخريفي) هما نقطتا التقاطع على الدائرة السماوية لدائرتين عظماوين : دائرة المعدل (الاستواء السماوي) ودائرة فلك البروج ، ويمكن الافتراض أن الأخيرة دائرة ثابتة ولكن الأولى ليست كذلك ، فهي تنزلق رويداً ، ولذا فالاعتدالان يتحركان ، وتكون حركاتهما بالقهقرى .

– سارتون ، تاريخ العلم ، جـ٥ ، ص ١٥٣ ؛ دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد ٧ ، ص ٤٩٠ .

٦٦ – سارتون ، نفسه ، ص ١٥٥ .

٦٧ – سارتون ، نفسه ، ص ١٥٥ ، ١٥٧ .

٦٨ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٤ ، جـ٨ ، ص ١٥٢ .

٦٩ – لعله يقصد عالم بحكماء الكلدانيين .

٧٠ – القفطي : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٥٠ –٥١ ؛ وانظر : صاعد الأندلسي ، ص ٦٩ – ٧٠ ، ٨٨ ؛ العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٠٤ .

٧١ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السابع ، ص ٣١٩ .

٧٢ – صاعد الأندلسي ، ص ٩٠ ؛ القفطي ، ص ٦٨ .

٧٣ – الدرجة : قدر ما تقطعه الشمس فى يوم وليلة من الفلك ، وفى مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخًا ، وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة ، والدقيقة إلى ستين ثانية ، والثانية إلى ستين ثالثة وترقى كذلك " . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٣٩ .

٧٤ – القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٧٢ .

٧٥ – انظر : الشهرزورى (شمس الدين محمد بن محمود) ، كتاب نزهة الأرواح وروضة الأفراح : تواريخ الحكماء ، راجعه وزشرف على تحقيقه دكتور محمد على أبو ريان ، منشورات مركز التراث القومى والمخطوطات ، الطبعة الأولى ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٤٣١ – ٤٣٢ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ ؛ ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م٦ ، جـ١١ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

– وعن اشتقاق لفظى المجسطى راجع : ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، والحاشية رقم ٩ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ، ص ٣٨٠ .

٧٦ – دائرة فلك البروج : هى دائرة عظيمة ترسمها الأرض بدوراتها السنوية حول الشمس سطحها يمر فى مركز الأرض ومركز الشمس وهى مائلة على خط الاستواء ، ٢٣ درجة ، ٢٨ دقيقة ، دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد السابع ، ص ٤٩٠ .

٧٧ – راجع : البلخى (أبى زيد أحمد بن سهل) ، كتاب البدء والتاريخ ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ١١٥ ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطى ، أخبار العلماء ، ص ٦٨ ، ٦٩ ؛ كشف الظنون ، جـ٢ / ١٥٩٤ – ١٥٩٦، نلينو ، علم الفلك ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

٧٨ – صاعد الأندلسى ، ص ٩١ ؛ القفطى ، ص ٦٩ .

٧٩ – صاعد الأندلسى ، نفسه ، ص ٩٠ – ٩١ . وانظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣١٨ ، ٣٢٧ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

٨٠ – نقل الكندى هذا الكتاب نقلاً رديئًا ، ثم نقله ثابت إلى العربى نقلاً جيداً . راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ؛ ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، حاشية رقم ١٠ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ ؛ كشف الظنون ، ٥٩٠/١ ؛ جرجى زيدان ، التمدن الإسلامى ، جـ٣ ، ٩٦ .

٨١ – كتبه إلى سورى تلميذه ، نقل هذا الكتاب إبراهيم بن الصلت ، وأصلحه حنين بن إسحق ، وفسر المقالة الأولى أوطوقيوس ، وجمع المقالة الأولى ثابت وأخرج معانيها ، وفسره عمر ابن فرخان ، وإبراهيم بن الصلت والنيريزى والبتانى " . الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطى ، ص ٦٩ ؛ وانظر : صاعد لأندلسى ، ص ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٣ .

٨٢ – هذا الكتاب فسره أحمد بن يوسف المصرى المهندس . الفهرست ، ص ٣٢٨ .

٨٣ – راجع : الفهرست ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ؛ ساعد الأندلسى ، ص ٨٨ ؛ القفطى ، ص ٦٨ – ٧٠ .

٨٤ – الكهانة : فى الحديث ، والكاهن هو الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار ، وقد كان فى العرب كهنة كشق وسطيح وغيرهما ، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن ورئياً يلقى إليه الأخبار ، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب ، يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهو يخصونه باسم العراف ، كالذى يدعى معرفة الشيء المسروق ، ومكان الضالة ونحوهما .

– قال الأزهرى : وكانت الكهانة قبل مبعث سيدنا رسول الله ﷺ ، فلما بعث نبينا ، بطل علم الكهانة .

– ابن منظور المصرى (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة)، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، المجلد الخامس ، ص ٣٩٥٠ ؛ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ، الجزء الثانى ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥؛ وانظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٤ ، ٥٨٨ ، ٥٩٤ .

٨٥ – عن القيافة : يقول أبو عبيد : هو يقفو ، ويقوف ، أى يتبع الأثر . ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٥ ، ص ٣٧٠٨ .

– فالقيافة : اسم مشتق من القفو ، وهو معنى استدلالى ، فالقائف يقارب بين الهيئات ، فيحكم للأقرب صورة ، لأن تشبيه النسل أقرب إلى تشبيه النوع . وكذلك تشبيه الشخص إلى النوع أقرب (الجنس) واحد فهو أصل القيافة ، وهو ضرب من ضروب البحث وإلحاق النظير فى الأغلب بنظيره . وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ، الحكم بالقيافة ، والدليل على فساد الحكم بها إلحاق النبى ﷺ الولد بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه . المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٦٦ – ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢١٣ – ٢١٤.

٨٦ – الفراسة ، بكسر الفاء : فى النظر والتثبت والتأمل للشيء والبصر به ، يقال إنه لفارس بهذا الأمر ، إذ كان عالمًا به . ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الخامس ، ص ٣٣٧٩ .

٨٧ – النجوم والأنواء سوف نتعرض لها فى حينها .

٨٨ – صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ١١٤ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٨ .

٨٩ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٩ .

٩٠ – سورة الأنعام ، الآية : ٩٧ .

٩١ – القزوينى (أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود القزوينى) : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، مطبوع على هامش حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، القاهرة ١٣٦٧هـ ، ص ٤٨ .

٩٢ – ابن منظور ، لسان العرب ، م٦ ، ص ٦٧ .

٩٣ – راجع : كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، جـ٤ ، الطبعة الحادية عشرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص ٢٦ ؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلية ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص ٢٩ ؛ محمود سليم الحوت ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م، ص٨٧ .

٩٤ – جواد على ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١م ، جـ٨ ، ص ٤٢٣ .

٩٥ – انظر : فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بالاشتراك مع إدوارد جورجي ، بيروت ، ١٩٦١م ، الجزء الأول، ص ١٣٤ .

٩٦ – سورة النمل ، آية : ٢٤ .

٩٧ – الدبران : هو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ، ويسمى " تابع النجم " و " تالى الثريا " والمقصود بالنجم الثريا ، وسمى " الدبران " لاستدباره الثريا . والدبران هذا كان من أشهر النجوم التي يتشاءم بها عند العرب .

– انظر : ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : الأنواء في مواسم العرب ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن ، الهند ١١٧٥هـ / ١٩٥٦م ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

٩٨ – صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، ص ١١٥ – ١١٦ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٩ .

٩٩ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص٥٩٥ ، ٦٠٠ – ٦٠١ ، ١٠٠٦ .

١٠٠ – ابن خلدون ، نفسه ، ص ١٩٥ ، ٩٠٨ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ .

١٠١ – ابن خلدون ، نفسه ، ص ٥٩٥ – ٦٠٢ .

١٠٢ – ابن خلدون ، نفسه ، ص ١٠٠٧ .

١٠٣ – يحيى عبد الأمير الشامي ، النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي ، الطبعة الأولى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٦٣ ؛ وانظر : نلينو ، علم الفلك ، ص ١٢٢ .

١٠٤ – سورة يونس ، آية : ٥ .

١٠٥ – سورة الصافات ، آية : ٦ .

١٠٦ – سورة الزمر ، آية : ٥ .

١٠٧ – سورة فصلت ، آية : ٣٧ .

١٠٨ – سورة الرحمن ، آية : ٥ .

١٠٩ – سورة الملك ، آية : ٥ .

١١٠ – سورة نوح ، آية : ١٦ .

١١١ – سورة الحجر ، آية : ١٦ .

١١٢ – سورة الفرقان ، آية : ٦١ .

١١٣ – سورة النجم ، آية : ٤٩ .

١١٤ – سورة البروج ، آية : ١ .

١١٥ – انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١١٠ .

١١٦ – سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

١١٧ – سورة الرعد ، آية : ٩ .

١١٨ – سورة النمل ، آية : ٦٥ .

١١٩ – سورة لقمان ، آية : ٣٤ .

١٢٠ – سورة الحشر ، آية : ٢٢ .

١٢١ – سورة الجن ، آية : ٢٦ .

– وانظر أيضًا : سورة آل عمران ، الآيتان : ٤٤ ، ١٧٩ ؛ سورة الأنعام ، الايتان : ٥٠ ، ٧٣ ؛ الأعراف / ١٨٨ ؛ التوبة / ٩٤ ، ١٠٥ ؛ يونس / ٢٠ ؛ هود / ٣١ ، ٤٩ ؛ يوسف / ١٠٢ ؛ مريم / ٧٨ ؛ المؤمنون / ٩٢ ؛ السجدة / ٦ ؛ سبأ / ٣ ، ١٤ ؛ المؤمنون / ٩٢ ؛ الزمر / ٤٦ ؛ الطور / ٤١ ؛ النجم / ٣٥ ؛ الحشر / ٢ ؛ الجمعة / ٨ ؛ التغابن / ١٨ ؛ القلم / ٤٧ ؛ التكوير / ٢٤ .

١٢٢ – الدميرى (كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى) : حياة الحيوان الكبرى ، نشره عبد الحميد أحمد حنفى بمصر ، المجلد الأول ، ص ١٣ .

١٢٣ – ابن أبى طالب (الإمام على) ، كتاب نهج البلاغة ، شرح ابن أبى الحديد ، دار المعرفة ، دار الكتاب العربى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، الجزء الأول ، ص ٢٠٣ ؛ يحيى عبد الأمير الشامى ، النجوم فى الشعر العربى القديم ، ص ٦٥ – ٦٦ .

١٢٤ – يحيى عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

١٢٥ – ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ٤٥٦٦ .

١٢٦ – ابن منظور ، نفسه ، ص ٤٥٦٧ .

١٢٧ – سورة القصص ، آية : ٧٦ .

١٢٨ – لسان العرب ، ص ٤٥٦٦ .

١٢٩ – لسان العرب ، ص ٤٥٦٧ ؛ وانظر : نلينو ، علم الفلك ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

١٣٠ – ابن منظور ، المصدر السابق ، م٦ ، ص ٤٥٦٧ ؛ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار التراث ، بيروت ، لبنان ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

١٣١ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص ١١٩ .

١٣٢ – قال شَمِرٌ : وقد رأيتها بالهندية والرومية والفارسية مترجمة . قال وهي بالعربية فيما أخبرني به ابن الأعرابي : ... قال ولا تستتئ العرب بها كلها وإنما تذكر بالأنواء بعضها وهي معروفة في أشعارهم وكلامهم . لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ٤٥٦٧

١٣٣ – ابن منظور ، المصدر السابق ، ص ٤٥٦٧ ؛ ابن قتيبة ، الأنواء في مواسم العرب ، ص ٩ ؛ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ١ ، ص ١٧٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص١١٩ – ١٢٠ .

١٣٤ – ابن منظور ، لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٧ – ٤٥٦٨ .

١٣٥ – ابن قتيبة : الأنواء ، مقدمة المصححين ، ص ح .

١٣٦ – لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ٤٥٦٨ ؛ يحيى عبد الأمير ، ص ٨٧ .

١٣٧ – سورة الواقعة ، آية : ٨٢ .

١٣٨ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ ؛ وانظر : الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد) ، مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١م، الجزء الثاني ، ص ٣٩٥ .

١٣٩ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ .

١٤٠ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٠٦ ؛ لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ ؛ وانظر : البلخي ، البدء والتاريخ ، ص ١٢٣ ؛ المبرد في اللغة والأدب ، جـ٢ ، ص ٣٥١ .

١٤١ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ .

١٤٢ – الثريا هي ستة كواكب متقاربة جداً ، ومعها سابع خافت ، سميت بهذا الاسم لما ينجم عن مطرها من الثروة والغنى . ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٢م ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، ص ٣٢٨ ؛ يحيى عبد الأمير ، النجوم في الشعر العربي القديم ، ص ٩٣ .

١٤٣ – لسان العرب ، م٦ ، ص ٤٥٦٨ .

١٤٤ – نقلاً عن : آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ٧٣ .

١٤٥ – نلينو ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

١٤٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٣ ، ٤١٩ ؛ صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ، نلينو ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

١٤٧ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٥ .

١٤٨ – انظر : أيدين صاييلى ، المراصد الفلكية ، ص ٦٩ .

١٤٩ – جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ٣ ، ص ٢١٠ .

١٥٠ – قدرى حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، ط٢ ، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٦٤ – ٦٥ ؛ حسين الحاج حسن ، حضارة العرب فى العصر العباسى ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ٩٧ .

١٥١ – نقلاً عن : أيدين صاييلى ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

١٥٢ – أيدين صاييلى ، نفسه ، ص ٦٩ ، ٧٩ ، ٨١ ،٨٣ .

١٥٣ – سورة الأنعام ، آية : ٩٧ .

١٥٤ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، ص ٧٤ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١١٠ .

١٥٥ – ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٠٠٦ .

١٥٦ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ؛ صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ؛ القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون وغيرها .

١٥٧ – ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٦ ؛ وانظر : المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٤.

١٥٨ – عنه انظر : الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ صاعد الأندلسى ، ص ١٥١ .

١٥٩ – راجع : اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر) ، البلدان ، مطبعة بريل ، بالأوفست ، بغداد ١٨٩٢م ، ص ٢٣٨ ؛ القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣١٤ ؛ زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية فى أوروبا ، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى ، الطبعة السادسة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٦٨ ؛ سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٤٥ .

١٦٠ – اليعقوبى ، البلدان ، ص ٢٤١ ؛ البيرونى (أبو الريحان محمد) ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزك ١٨٧٨م ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ؛ نلينو ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

١٦١ – قال أبو سهل : فلما دخلت على منصور ومثلت بين يديه قيل لى : تسم لأمير المؤمنين (أى قل اسمك) فقلت : اسمى خرشانماه طيماذاه ماباذاه خسرو أبهما شاذ . فقال لى المنصور : كل ما ذكرت

فهو اسمك (قال) قلت : نعم . فتبسم المنصور ثم قال ما صنع أبوك شيئًا فاختر منى خلتين إما أن اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماز ، وإما أن تجعل لك كنية فيقوم مقام الاسم وهو أبو سهل . قال أبو سهل : قد رضيت بالكنية . فبقيت كنيته وبطل اسمه . ابن أبي أصيبعة ، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ١٩٦ – ١٩٧ ؛ القفطي ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢١٦.

١٦٢ – ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ١٩٦ ؛ القفطي ، ص ٢٨٥ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، جـ٤ ، ص ٢٠٠ .

١٦٣ – الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ القفطي ، أخبار العلماء ، ص ١٦٨ – ١٦٩ .

١٦٤ – نلينو ، ص ١٤٦ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي جـ٤ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

١٦٥ – أيدين صاييلي ، ص ١٠٢ .

١٦٦ – أزرد القفطي مرة باسم إبراهيم بن حبيب الفزارى ، ص ٤٢ ؛ وباسم محمد بن إبراهيم الفزاري في مكان آخر من نفس المؤلف ، ص ١٧٧ ؛ وانظر : صاعد الأندلسي ، ص ١٣٠ . وعن ما ورد في ذكر الاختلافات حول اسم الفزارى وشخصيته راجع : نلينو ، ص ١٥٦ – ١٦٣ .

– وعن الفزارى هذا يقول القفطي : " فاضل في علم النجوم متكلم في حوادث الحدثان ، خبير ، بتسيير الكواكب ، وهو أول من عُنى في الملة الإسلامية ، وفي أوئل الدولة العباسية بهذا النوع " . القفطي ، أخبار العلماء ، ص ١٧٧ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

١٦٧ – وفي معنى كلمة اسطرلاب زعم بعضهم أن " أسطر " معناها تصنيف و " لاب " اسم حكيم اخترع الاسطرلاب ، وهو ابن هرمس الحكيم . كما حكى صاحب المقامات الحريرية عن أبي نصر الثمين ، أنه قال : إن لاب لما رسم من الدواير الفلكية في سطح مستو سئل عنه هرمس بأن يقول من سطر هذا أو يقول هو في جوابه سطره لاب ولهذا سمي اسطرلاب . راجع : سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٢٤٣ .

– يقول ابن النديم عند الكلام عن الآلات وصناعتها : " كانت الاسطرلابات في القديم مبطحة (مسطحة) . وأول من عملها بطلميوس . وقيل عملت قبله ، وهذا لا يدرك بالتحقيق . وأول من سطح الاسطرلاب أبيون البطريق ، وكانت الآلات تعمل بمدينة حران ، ثم نبشت وظهرت ، ولكنها زادت ، واتسع الصناع للعمل في الدولة العباسية " . ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

– وأبيون (أنيون) البطريق حكيم رياض مهندس عالم بصناعة الآلات الفلكية ، كان في حدود مبدأ الإسلام قبله أو بعده ، فمن تصنيفه كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح ") .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٠ ؛ القفطي ، ص ٥١ .

– ويستخدم الاسطرلاب أساسًا في تحديد ارتفاعات الكواكب عن الأفق ، وتعيين الزمن . وهو يتكون من قرص معدني مقسم إلى درجات ، ويدور على هذا القرص مؤشر ذو ثقبين في طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب

من حلقته رأسيًا مع توجيه المؤشر نحو الشمس ، وعندما تمر أشعة من هذين الثقبين ، يقرأ ارتفاع الكوكب من الحد الذى يقف عليه المؤشر .

– سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١٣ ، وانظر أيضًا : دوزى : تكملة المعاجم العربية ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ .

Arnaldez, in Arabica, Volume Spécial Publié à l'occasion du mille deux centi-aniversaire de la fondation de Bagdad, E.J. Brill, Leiden, 1962, p. 357 .

١٦٨ – الفهرست ، ص ٣٣٢ ؛ القفطى ، ص ٤٢ .

١٦٩ – المسعودى ، مروج الذهب ، الجزء الرابع ، ص ٣١٤ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م ، ص ٤٥٦ ؛ جرجي زيدان ، التمدن الإسلامى ، الجزء الثالث ، ص ١٦٢ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

١٧٠ – هو محمد بن الحسين بن حميد الشهير بابن الآدمى (كان حيًا قبل ٣٠٨ هـ / ٩٢٠م) عالم فى هيئة الأفلاك وحساب حركات النجوم ، صنف زيجه الكبير وأتمه بعد وفاته تلميذه القاسم بن محمد بن هاشم المدائنى العلوى ووسمه بكتاب " نظم العقد " وشهره سنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠م . وهو كتاب جامع لصناعة التعديل ويشتمل على أصول علم هيئة الأفلاك ، وحساب حركات النجوم على مذهب السندهند ، وذكر فيه من حركة إقبال الفلك وإدباره ما لم يذكر أحد قبله . (ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٩ ؛ صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٣١ والحاشية رقم ١١ ، ص ١٤٦ – ١٤٧ ؛ القفطى ، ص ١٨٥ ؛ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٩م ، المجلد التاسع ، ص ٢٣٩ .

١٧١ – مفردها كردجة : أجمع أكثر المستشرقين على أن كردجة لفظ دخيل أصله الهندى كرمجيا Krama-jiia أى الوتر المستوى . عن أصلها ومعناها راجع : نلينو ، ص ١٦٨ – ١٧١ .

١٧٢ – صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، ص ١٣٠ ، ١٣١ – ١٣٢ ؛ القفطى ، ص ١٧٥ ، ١٧٧ ؛ وانظر : المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٤ ؛ نلينو ، ص ١٤٩ – ١٥٠ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ٦٥ – ٦٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١٤ .

١٧٣ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٦ ؛ القفطى ، ص ٢٤٧ ؛ وانظر : صاعد الأندلسى ، ص ١٥١ .

١٧٤ – نلينو ، علم الفلك ، ص ٢١٤ .

١٧٥ – عن البتانى راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٨ ؛ صاعد الأندلسى ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ القفطى ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ؛ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨ – ١٩٧٨م ، المجلد الخامس ، ص ١٦٤ ؛ ترجمة رقم ٧٠٩ ؛ ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) ؛ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٣٠ – ١٣٣ .

١٧٦ – نلينو ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

١٧٧ – انظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٤ ؛ ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ٢٥٨ ؛ ابن القفطى ، ص ١٦٢ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ، ص ٤٩٣ ؛ طوقات ، العلوم عند العرب ، ص ٦٦ .

١٧٨ – عنه يقول ابن النديم : " ما شاء الله ، ابن أثرى ما شاء الله ميشى ، ومعناه يثرو ، وكان يهودياً فى أيام المنصور ، وإلى أيام المأمون . وكان فاضلاً أو حد زمانه فى علم الأحكام ، وله من الكتب ، كتاب المواليد الكبير ، ويحتوى على أربعة عشر كتاباً . كتاب الواحد والعشرين فى القرانات والأديان والملل ، كتاب مطرح الشعاع ، كتاب المعانى ، كتاب صنعة الاسطرلاب والعمل بها ، كتاب ذات الحلق ، كتاب الأمطار والرياح ، كتاب السهمين ، كتاب المعروف بالسابع والعشرين ، الكتاب الأول ابتداء الأعمال . الكتاب الثانى على الدفع والتدبير ، الكتاب الثالث فى المسائل ، الكتاب الرابع فى شهادات الكواكب ، الكتاب الخامس فى الحدوث ، الكتاب السادس فى تسيير النيرين وما يدلان عليه ، كتاب الحروف ، كتاب السلطان ، كتاب السفر ، كتاب الأسعار ، كتاب المواليد ، كتاب تحويل سنى المواليد ، كتاب الدول والملل ، كتاب الحكم على الاجتماعات والاستقبالات ، كتاب المرضى ، كتاب الصور والحكم عليها " . ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ وانظر : القفطى ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

١٧٩ – آيدين صاييلى ، المراصد الفلكية ، ص ١٠٩ .

١٨٠ – ذات الحلق : اسم آلة وردت فى كتاب المجسطى لبطلميوس ، وفى كتاب ألفه برفلس اليونانى من علماء القرن الخامس الميلادى ، وهى تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة مركبة فى بعضها ، يقاس بها كل ما يقاس بالاسطرلاب المسطح ، وتسمى بالفرنسية Sphére Armillaire – نلينو ، علم الفلك ، ص ١٤٨ ؛ دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد السابع ، ص ٤٨٤ – ٤٨٥ ؛ سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٥١ .

١٨١ – نفس المرجع والصفحة ، كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

– وانظر أيضاً : Dresdensi, Globus Coelestis, Arabicus, Hipseal, 1865 .

١٨٢ – من أحبار الناس فى علم النجوم وأكثرهم إصابة فى أحكامه ، ابن وادران ، ص ٢٠٦ ، ٢٨٢ ؛ نلينو ، ص ١٤٨ .

١٨٣ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٢ ؛ صاعد الأندلسى ، ص ١٤٢ ؛ القفطى ، ص ١٦١ – ١٦٢ ؛ عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ٧ ، ص ٣٠٤ .

١٨٤ – جنديسابور : بضم أوله ، وتسكين ثانيه ، وفتح الدال ، وياء ساكنة ، وسين مهملة ، وألف وباء موحدة مضمومة ، وواو ساكنة ، وراء ، مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير ، فنسبت إليه ، وأسكنها سبى الروم وطائفة من جنده . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الثانى ، ص ١٧٠ ؛ وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ١٩٩٢ ، ص ١٠٤ .

١٨٥ – آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ١١٣ .

١٨٦ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٤ .

١٨٧ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦٩ .

١٨٨ – الفهرست ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ؛ وانظر أيضاً : نلينو ، ص ٢٢٧ .

١٨٩ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ٧٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٩٩ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ ؛ نلينو ، ص ٢٢٠ .

١٩٠ – ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق دكتور المنجي الكعبي ، الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣م ، ص ٢٥٧ ، ٤٦٦ .

١٩١ – " الأوائل " : جمع " أول " ويستخدم اللفظ اصطلاحياً للدلالية على أفكار شتى ، مثل " المعلومات الأولية " للظواهر الفلسفية أو الطبيعية ، و " القدامي " الذين عاشوا في الجاهلية وصدر الإسلام و "المخترعين الأوائل " للأشياء . دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص ١٦٥ .

١٩٢ – المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٨ .

١٩٣ – السيوطى (جلال الدين) ، تاريخ الخلفاء ، حققه وقدم له الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ، الشيخ ، محمد العثماني ، الطبعة الأولى ، دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٦٩ ؛ ابن وادران ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ، ٤٦٧ .

١٩٤ – ابن وادران ، نفسه ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ ، ٤٨٥ .

١٩٥ – عادل زيتون ، العباسيون يرعون العلم والعلماء ، مقالة بمجلة العربي ، العدد ٥٠٩ ، محرم ١٤٢٢هـ / أبريل ٢٠٠١م ، ص ٧٦ ؛ مفتاح دياب ، مقدمة في تاريخ العلوم ، ص ٢٩ – ٣٠ .

– ويذكر André Miquel أن بيت الحكمة اشتهر على وجه الخصوص بأعمال المنجمين

André Miqruel, L'Islam et sa civilisation (VII-XXs), Armand Colin, 2em edition, Paris, 1977, p. 158 .

– عنه يقول ابن أبي أصيبعة الحجاج بن مطر : نقل للمأمون ومن نقله كتاب إقليدس ، ثم أصلحه ونقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني ابن ناعمة .. كان متوسط النقل وهو إلى الجودة أميل . ويذكر أنه قد قيل أن الحجاج بن مطر نقل كتاب المجسطي إلى العربية .

١٩٦ – ابن أبي أصيبعة ، ص ٢٥٧ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧ ؛ انظر : القفطي ، المصدر السابق ، ص ٤٦ – ٤٧ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية الدكتور السيد يعقوب بكر ، والدكتور رمضان عبد التواب ، الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ٩٢ – ٩٣ .

١٩٧ – " يوحنا البطريق : الترجمان ، مولى المأمون ، أمير المؤمنين كان أميناً على الترجمة ، حسن التأدية للمعاني ، ألكن اللسان في العربية ، ترجم كثيراً من كتب الأوائل .

- ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٧ ، ترجمة رقم (٢٣) ، القفطي ، ص ٢٤٨ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٩ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، جـ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

١٩٨ - كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانيًا . قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أمينًا على الترجمة ، ووضع له كتابًا حذاقًا يكتبون وخدم هارون والأمين والمأمون ، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل ،

- راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٥٤ ؛ ابن جلجل ، المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ترجمة رقم (٢٢) ؛ صاعد الأندلسي ، ص ١٠١ ؛ القفطي ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ؛ مفتاح محمد دياب ، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، الهيئة القومية للبحث العلمي ، دار الكتب الوطنية ، بنغازى ، ١٤٠١هـ / ١٩٩٢م ، ص ٦٦ .

١٩٩ - راجع : الفهرست ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

٢٠٠ - راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ؛ ابن جلجل ، المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٦٧ ؛ صاعد الأندلسي ، ص ١٠١ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ غوستان لوبون، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ ؛ عادل زيتون ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

F.E. Peters, Aristotle and the Arabs (New York : New York University Press, 1969; R. Walger, Greek into Arabic (Columbia, S.C. University of South Carolina Press, 1962); Max Mayerhof, Van Alexandria nach Baghdad, in Sitzungberichate der prüssiachen Almadenie der vrssnchaftene no. 23 (1930), pp. 389 - 429 .

٢٠١ - القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

٢٠٢ - الشماسية : بفتح أوله وتشديد ثانية ثم سين مهملة ، منسوبة إلى بعض شماسي النصارى . وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٣٦١ .

٢٠٣ - قاسيون : بالفتح ، وسين مهملة ، والياء من تحتها نقطتان مضمومة ، وآخره نون ، وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق ، وفيه عدة مغاور وفيه آثار الأنبياء وكهوف ... " ياقوت ، نفسه ، م٤ ، ص ٢٩٥ .

٢٠٤ - القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

٢٠٥ - ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٤ .

٢٠٦ - آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١١٦ .

٢٠٧ - صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ ؛ القفطي السابق ، ص ١٤٨ ، ٢٣٦ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٧ ؛ حاجي خليفة ، كشف الظنون .

– ويذكر ابن النديم في أخبار آل المنجم أن أبى منصور فارسي الأصل (كما يتضح من اسمه) أبان حسيس بن وريد بن كاد ... بن يزدجرد ، وكان يحيى ابنه مولى المأمون وكنيته أبو علي ، وكان أولاً متصلاً بالفضل بن سهل ، يعمل برأيه في أحكام النجوم . فلما حدثت على الفضل الحادثة (أي نكب) اجتباه المأمون ورغبه في الإسلام فأسلم على يده واختصه . ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٦٠ ؛ وانظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص ٧٩ في الترجمة رقم ٧٨٠ ؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، جـ٤ ، ص ٢٠٢ .

٢٠٨ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ١٦٢ ، ٢٣٤ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٢٠٩ – راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ؛ بروكلمان، المرجع السابق ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

٢١٠ – راجع نسبة إلى المروزيين نسبة إلى مرو ... وهي محلة كانت ببغداد ، متصلة بالحربية ، خربت الآن سكنها أهل مرو فنسبت إليهم . (ياقوت ، معجم البلدان ، م ٥ ، ص ٩٦) .

٢١١ – القفطي ، نفسه ، ص ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٨٧ .

٢١٢ – ابن النديم ، المصدر الابق ، ص ٢١٢ .

٢١٣ – ابن النديم ، نفسه ، ص ٣٤٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٤ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

٢١٤ – نقلاً عن آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ٣٣٦ .

٢١٥ – حبشي الحاسب المروروذي واسمه أحمد بن عبد الله بغدادي الدار كان في زمن المأمون والمعتصم بعده وله تقدم في حساب تسيير الكواكب وشهرة بهذا النوع ، وله من الكتب كتاب الزيج الدمشقي ، كتاب الزيج المأموني ، كتاب الأبعاد والأجرام ، كتاب عمل الاسطرلاب ، كتاب الرخائم والمقاييس ، كتاب الدوائر الثلاث المماسة وكيفية الأوصال ، كتاب عمل السطوح المبسوطة والقائمة والمائلة والمنحرفة . (انظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٤ ؛ القفطي ، ص ١١٧ ؛ وانظر : كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣) .

٢١٦ – دير مُران : بضم أوله " بلفظ تثنية المُرّ ... هذا الدير بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة ، وبناؤه بالجص ، وأكثر فرشه بالبلاط الملون ، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة... " (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، م٢ ، ص ٥٣٣ ، م٥ ، ص ٩٥ .

٢١٧ – حبش الحاسب ، نقلاً عن آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١٢٠ ؛ وانظر أيضاً : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

٢١٨ – آيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

٢١٩ – راجع : ياقوت ، معجم البلدان ، م٣ ، ص ٦٠ .

٢٢٠ – نلينو ، علم الفلك ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

٢٢١ – سنجار : بكسر أله وسكون ثانيه ثم جيم وآخره راء ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهي في لحف جبل عال ... وقال حمزة الأصبهاني : سنجار تعريب سنكار ، ولم يفسره ، وهي مدينة طيبة في وسط نهر جار ، وهي عامرة جداً ، وقدامها واد فيه بساتين ذات أشجار ونخل وترنج ونارنج ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام أيضاً .

– ياقوت ، معجم البلدان ، م٣ ، ص ٢٦٢ ؛ وانظر أيضاً : القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٩٣ .

٢٢٢ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، المجلد الخامس ، ص ١٦٢ – ١٦٣ في ترجمة ابن شاكر رقم ٧٠٨ .

– هذه الرواية صحيحة عدا الخلط الذي حدث في نسبة هذه الرواية إلى بني موسى بن شاكر ، حيث أجمع كل الفلكيين على نسبتها إلى المنجمين أصحاب الزيج الممتحن ، وليس إلى بني موسى الذين كانوا في هذا الوقت في عنفوان الشباب ولم ينالوا في العلوم والأرصاد شهرة إلا بعد موت المأمون ، كما يظهر من رواية القفطي ، فلا شك أنهم إن اشتركوا في ذلك القياس حقيقة إنما فعلوه معاونين لفلكي المأمون لا بمقام مديري الأعمال .

– راجع رواية القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ؛ وانظر : نلينو ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

٢٢٣ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ١٦٢ ، ٢٣٤ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٢٢٤ – حران : بتشديد الراء وآخره نون .. وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهي قصبة ديار مُضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ، وهي على الطريق للموصل والشام والروم ... وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل .

– ياقوت ، معجم البلدان ، م٢ ، ص ٢٣٥ ؛ انظر : وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص ١٠٥ .

٢٢٥ – ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

٢٢٦ – أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٥ ؛ غوستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ .

Bernard Goldstein, Theory and Observation in Medieval Astronomy, Isis 63 (1972); 39 - 47; and George Saliba, Theory and Observation in Islamic Astronomy, The Work of Ibn Al-Shair, Journal for the History of Astronomy 18 (1987); 35 - 43 .

٢٢٧ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣١ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ؛ القفطي، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٦٢ .

٢٢٨ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٤ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ؛ القفطي، المصدر السابق ، ص ١١٧ .

٢٢٩ – أيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

٢٣٠ – وقد انتشر زيج الشاه ومذاهبه بين عرب المشرق ، ولو لم يدرك عندهم قدر شهرة السندهند واعتمد "ماشاء الله" على ذلك الزيج ، وإن محمد بن موسى الخوارزمي جعله في زيجه تعاديل الكواكب على مذهب الفرس وأوساطها على تاريخ يزدجرد ، أما أبو معشر فقال صاعد الأندلسي وحاجي خليفة أن

زيجه الحساب من فارس وغيره أجمعوا على أن أصح الأدوار ، أدوار هذه الفرقة ويسمونها سنى العالم، وأما أهل زماننا يسمونها سنى أهل فارس .

- راجع : صاعد الأندلسى ، المصدر السابق ، ص٦٢-٦٣ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢ ؛ وانظر : الفهرست ، ص ٣٠٢ ؛ ابن العبرى ، ص ٧٩

٢٣١ - راجع : صاعد الأندلسى ، المصدر السابق ، ص١٤٠ - ١٤١؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، جـ٢؛ وانظر : الفهرست ، ص ٣٣٤ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية ، م١٣ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

٢٣٢ - كان أبوه محمد بن كثير الفرغانى منجمًا ، مقدمًا فى صناعته . وله من الكتب ، كتاب الفصول اختيار المجسطى ، كتاب عمل الرخامات .

- ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٧ ؛ القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٨٨ ؛ وانظر : كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

٢٣٣ - ابن صاعد الأندلسى ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ٥٦ .

٢٣٤ - الدوميلى ، العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ، نشر دار القلم ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ١٦٧ .

٢٣٥ - لمزيد من التفاصيل راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ؛ صاعد الأندلسى ، المصدر السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٨٦ - ٢٨٨ ؛ ابن الكان، وفيات الأعيان ، المجلد الخامس ، ص ١٦١ - ١٦٣ ، ترجمة رقم ٧٠٨ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٨ ؛ غوستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ ؛ وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، ص ١٣٠ .

٢٣٦ - صاعد الأندلسى ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٠٤ - ١١١ ؛ وانظر : كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٥ .

٢٣٧ - ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٣ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٢٣٨ - دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد التاسع ، ص ٣٠٧ .

- التسيير : ويعرف عند أهل الغرب بـ Directio, Athacir , Atacir, atazir عمل فى صناعة الأحكام محصلة أن أصحاب هذه الصناعة يفرضون كوكبًا سيارًا أو بيتًا أو موضعًا فى تلك البروج ثم يقيمون ما بينه وبين كوكب آخر أو شعاعه أو بيت آخر على وجه التشبيه والتمثيل ، وغرضهم من ذلك معرفة درجة ما بينهما بمطالع خط الاستواء للاستدلال بها على ما يحدث فى المستقبل من خير وشر ، وذلك بتحويل هذه الدرجة إلى جزء من أجزاء الزمان .

- دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد التاسع ، ص ٣٠٧ .

٢٣٩ – القفطى ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ ؛ وانظر أيضًا : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

٢٤٠ – القفطى ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

٢٤١ – القفطى ، نفسه ، ص ١٨٧ .

٢٤٢ – القفطى ، نفسه ، ص ١٢٨ .

٢٤٣ – ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ ؛ القفطى ، نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ؛ ابن العبرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ .

٢٤٤ – راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ٨٠ – ٨٤ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٢ ، ص ١٩٦ – ١٩٨ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٢٦ – ١٢٩ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية ، م١٠ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٧ .

٢٤٥ – نسبة إلى بتَّان : بفتح الباء الموحدة وتشديد التاء المثناة من فوقها ، وبعد الألف نون وهى ناحية من أعمال حران .

– ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٣٣٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م٥ ، ص ١٦٤ .

٢٤٦ – صاعد الأندلسى ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ وانظر أيضًا : ابن النديم ، المصدر السابق، ص ٣٣٨ ؛ القفطى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، م٥ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ، ترجمة رقم ٧٠٩ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ ابن العبرى، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

٢٤٧ – القفطى ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ ؛ آيدين صاييلى ، المراصد الفلكية ، ص ١٦٨ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

٢٤٨ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس ، ص ١٩٤ ؛ عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة السابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ٢٣٨ .

٢٤٩ – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس ، ص ١٩٤ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول ؛ العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١١ .

٢٥٠ – طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٣٠ – ١٣٣ .

٢٥١ – البلخى : بفتح الباء الموحدة وسكون اللام ، وبعدها خاء معجمة ، هذه النسبة إلى بلخ ، وهى مدينة عظيمة من بلاد خراسان . راجع : ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص ٤٧٩ – ٤٨٠ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م١ ، ص ٣٥٩ .

٢٥٢ – راجع باقي مؤلفاته في : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ – ٣٣٦ ؛ صاعد الأندلسي، المصدر السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٥ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ ؛ ابن خلكان ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ ، ترجمة رقم ١٣٦ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥ – ٢١٠ .

٢٥٣ – راجع : ابن النديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣٨ ؛ صاعد الأندلسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ؛ آيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٧ .

٢٥٤ – هو أبو القاسم علي بن الحسن العلوي المعروف بابن الأعلم ، وعنه يقول ابن القفطي : " صاحب الزيج رجل شريف عالم بالهيئة وصناعة التسيير ، مذكور مشهور في وقته ، وكان قد تقدم عند عضد الدولة .. " . القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

٢٥٥ – هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي ، من تصانيفه : كتاب الكواكب الثابتة مصوراً ، كتاب الأرجوزة في الكواكب الثابتة مصوراً ، كتاب التذكرة ومطارح الشعاع ، ولد سنة ٢٩١هـ / ٩٠٣م وتوفي سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م . القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ – ١٥٣ ؛ وانظر : الفهرست ، ص ٣٤٢ .

٢٥٦ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ ؛ ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٧ – ٢١٩ ؛ آيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

٢٥٧ – عبد الأمير المؤمن ، الفلك والقضاء ، ص ١١٨ .

٢٥٨ – الدوميلي ، العلوم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، ص ٢١٣ ؛ وانظر : عبد الرحمن الصوفي ، صور الكواكب الثمانية والأربعين ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ١٩ ؛ عبد الأمير ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

٢٥٩ – القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

٢٦٠ – عنه يقول القفطي : هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابيء ، أصله من حران ، نشأ ببغداد ، وتأدب بها ، وله اليد الطولى في علم الرياضة وخصوصاً الهندسة والهيئة ، ولما عزم شرف الدولة بن عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد واعتمد في ذلك على ويجن بن رستم القوهي ، كان في جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن إبراهيم بن هلال وكتب بخطه في المحضر الذي كتب بصورة الرصد ، وإدراك موضع الشمس من نزولها في الأبراج ، توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ . القفطي ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ، ٥٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الرابع عشر ، ص ٨٣ – ٨٥ .

٢٦١ – راجع : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤١ – ٣٤٢ ؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ – ٢٢٢ .

٢٦٢ – القفطي ، نفسه ، ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ؛ وانظر أيضاً : آيدين صاييلي ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

٢٦٣ – وبُوزجان : بضم الباء الموحدة ، وسكون الواو والزاي ، وفتح الجيم ، وبعد الألف نون ، وهي بليدة بخراسان بين هراة ونيسابور . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص ٥٠٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م٥ ، ص ١٦٧ .

٢٦٤ – ابن خلكان ، نفسه ، ص ١٦٧ ، ترجمة رقم ٧١٠ .

٢٦٥ – آيدين صاييلي ، المراصد الفلكية ، ص ١٨٣ ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٤٧ – ١٤٩ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٧ .

– ومن أهم مؤلفات أبي الوفا البوزجاني في علم الفلك : كتاب معرفة الدائرة من الفلك ، مقالة . كتاب الكامل، وهو ثلاث مقالات ، المقالة الأولى في الأمور التي ينبغي أن تعلم قبل حركات الكواكب ، المقالة الثانية في حركات الكواكب ، المقالة الثالثة في الأمور التي تعرض لحركات الكواكب ، كتاب الزيج الواضح ثلاث مقالات ، الأولى في الأشياء التي تنبغي أن تعلم قبل حركات الكواكب . الثانية في حركات الكواكب . الثالثة في الأشياء التي تعرض لحركات الكواكب .

– ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤١ ؛ انظر : القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

٢٦٦ – ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) : معجم الأدباء أو " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" ، المجلد الخامس ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ص ١٢٢ ، ١٢٦ ؛ ترجمة رقم (٧٩٢) ؛ وانظر أيضاً : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٢١ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، م٩ ، ص ٧؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ١٧٣ – ١٧٤ ؛ على أحمد الشحات ، أبو الريحان البيروني : حياته– مؤلفاته – أبحاثه العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٩٢م ، ص ٧٠ – ٧١ ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٨ ؛ بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م ، ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

٢٦٧ – ياقوت ، معجم الأدباء ، المجلد الخامس ، ص ١٢٦ .

٢٦٨ – طوقان ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ ؛ على أحمد الشحات ، المرجع السابق ، ص ٧٨ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية ، م ٩ ، ص ٧ – ٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، في العصور الوسطى ، ص ٢٣٩ .

٢٦٩ – على أحمد الشحات ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

٢٧٠ – على الشحات ، نفسه ، ص ١١٢ – ١١٧ .

٢٧١ – ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٢١ ؛ على الشحات ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٢٧٢ – ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٤٢١ ؛ على الشحات ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

٢٧٣ – على الشحات ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

٢٧٤ – ياقوت ، معجم الأدباء ، م٥ ، ص ١٢٦ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥.

275 - E.S. Kennedy and Victor Robert, The Planetary Theory of Ibn Al-Shair, Isis 50 (1959); 227-35; Kennedy, Late Medieval Plantary Theory, Isis 57 : 365 - 78; Noel Swenflow, The Derivation and First Draft of Copernicus's Planetary Theory, Proceedings of the American Philosophical Society 117 (1973); 423 - 512; and George Saliba, Arabic Astronomy and Copernicus; Zeitschriff für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften Band 1, 73 - 87; and Saliba, The Role of Marfägh in the Development of Islamic Astronomy A Scientific Revolution Before the Renaissance, Revue de Synthese 4 , no.4 (1987), pp. 361 - 373

قائمة المصادر المراجع

أولاً : المصادر العربية

- القرآن الكريم :

١ - ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم السعدى الخزرجى) ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

٢ - الأعرج الموصلى (أبى محمد عبد الله بن فخر الدين الحسينى) : سوانح القريحة فى شرح الصفيحة ، تحقيق وتعليق دكتور صباح محمود محمد ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، د.ت .

٣ - البلخى (أبى زيد أحمد بن سهل) ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م : كتاب البدء والتاريخ ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، جزءان فى مجلد ، الطبعة الأولى ، منشورات محمد على بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٤ - البيرونى (أبو الريحان محمد) : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزك ، ١٨٧٨م .

٥ - ابن جلجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) ت بعد ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥٥م .

٦ - حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الرومى الحنفى) ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٧ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م : العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، طبعة بيروت ، ١٩٨٢م .

٨ - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ - ١٩٧٨م .

٩ - الدميرى (كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٤م : حياة الحيوان الكبرى ، نشره عبد الحميد أحمد حنفى بمصر ، مجلدان .

١٠ - السيوطى (جلال الدين) ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م : تاريخ الخلفاء ، حققه وقدم له-الشيخ قاسم الشماعى الرفاعى ، الشيخ محمد العثمانى ، الطبعة الأولى ، دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١١ - الشهرزورى (شمس الدين محمد بن محمود) من أعيان القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى : كتاب نزهة الأرواح وروضة الأفراح " تواريخ الحكماء " راجعه وأشرف على تحقيقه دكتور محمد على أبو ريان ، منشورات مركز التراث القومى والمخطوطات ، الطبعة الأولى ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

١٢ - صاعد الأندلسى (أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد) ت ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م : طبقات الأمم ، تحقيق حياة بو علوان ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م.

١٣ - ابن أبى طالب (الإمام على) : كتاب نهج البلاغة ، شرح ابن أبى الحديد ، دار المعرفة ، دار الكتاب العربى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

١٤ - ابن العبرى (العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المالطى) : تاريخ مختصر الدول ، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، دار الرائد اللبنانى ، الحازمية ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- تاريخ الزمان ، المجموعة التاريخية ، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة ، وقدم له الأب الدكتور جان موريس فييه ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١م .

١٥ - ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) ت ١٠٨٩هـ / ١٦٨٠م : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ت .

١٦ - القزوينى (أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود) ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .

– عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، مطبوع على هامش حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ .

١٧ – القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف) ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، د.ت .

١٨ – القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، الجزء الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

١٩ – ابن قتيبة الدينورى (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م : الأنواء فى مواسم العرب ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.

٢٠ – المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القادر) : ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وضع حواشيه خليل المنصور ، أربعة أجزاء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٢١ – ابن منظور المصرى (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة) : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

٢٢ – المسعودى (أبى الحسن على بن الحسين بن على) ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

٢٣ – المرزوقى (أبو على) : كتاب الأزمنة والأمكنة ، طبع على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثان أمير قطر ، مجهول مكان الطبع ، ١٣٢٨هـ / ١٩٦٨م .

٢٤ – الميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمد) : مجمع الأمثال ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١م .

٢٥ – ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب إسحق المعروف بالوراق) ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م : كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجدد بن على بن زين العابدين الحائرى المازندارنى ، الطبعة الثالثة ، دار المسيرة ، طهران ، ١٩٨٨م.

٢٦ – ابن وادران : تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق دكتور المنجي الكعبي ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣م.

٢٧ – ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م : معجم البلدان ، طبعة بيروت ، د.ت ؟ معجم الأدباء ، أو : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

ثانيًا : المراجع :

٢٨ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الإسلام، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

٢٩ – أرثر كريستنسن ، إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة دكتور يحيى الخشاب ، مراجعة دكتور عبد الوهاب عزام ، (الألف كتاب الثانى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م.

٣٠ – أوين حينكريتش ، علم الفلك الإسلامى ، مجلة العلوم الأمريكية ، الترجمة العربية ، المجلد الأول ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، تشرين الثانى ، ١٩٨٦م.

٣١ – أيدين صاييلى ، المراصد الفلكية فى العالم الإسلامى ، ترجمة دكتور عبد الله العمر ، مراجعة دكتور عبد الحميد صبره ، سلسلة الكتب المترجمة ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت ، ١٩٩٥م.

٣٢ – بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

٣٣ – جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، دار التراث ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٣٤ – جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٠٢ – ١٩٠٦م.

٣٥ – جفرى بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة دكتور إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة دكتور عبد الغفار مكاوى ، عالم المعرفة (١٧٣) سلسلة كتب ثقافية

يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ذو القعدة ١٤١٣هـ / مايو ١٩٩٣م.

٣٦ – جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧١م .

٣٧ – جورج سارتون ، تاريخ العلم ، مترجم ، نشر دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١م.

٣٨ – جوزيف شاخت ، كليفور بوزورث ، تراث الإسلام ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، دكتور إحسان صدقى العمد ، مراجعة دكتور فؤاد زكريا ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، صفر ١٤١٩هـ / يونيو ١٩٩٨م.

٣٩ – جيرالد هوكنز ، بدائع السماء ، ترجمة دكتور عبد الرحيم بدر ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٧م.

٤٠ – جيمس هنرى برستد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسى ، ترجمة حسن كمال ، مراجعة محمد حسنين الغمراوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م.

٤١ – حسين الحاج حسن ، حضارة العرب في العصر العباسى ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٤٢ – الدوميلى ، العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ، ترجمة عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ، نشر دار القلم ، ١٩٦٢م.

٤٣ – رينهارت دوزى ، تكملة المعاجم الدينية ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ترجمة وتعليق دكتور محمد سليم النعيمى ، بغداد ، ١٩٧٨م.

٤٤ – رينيه تاتون وآخرون ، تاريخ العلوم العام ، ترجمة دكتور على مقلد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م.

٤٥ – زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية فى أوروبة ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون ، كمال الدسوقى ، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى ، الطبعة السادسة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٤٦ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، سعد زغلول عبد الحميد ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٤٧ – سليم حسن ، مصر القديمة ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ١٤ ، الجزء الأول : فى عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الإهناسى ، الجزء الثانى : فى مدنية مصر وثقافتها فى الدولة القديمة والعهد الإهناسى ، الجزء الرابع عشر : الإسكندر الأكبر وبداية عهد البطالمة فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م .

٤٨ – السيد أدى شير ، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، الطبعة الثانية ، دار العرب للبستاني، القاهرة ، ١٩٨٧ – ١٩٨٨م.

٤٩ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٩م.

٥٠ – شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى : العصر الجاهلى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٠م.

٥١ – عادل زيتون ، العباسيون يرعون العلم والعلماء ، مقالة بمجلة العربى ، العدد ٥٠٩ ، محرم ١٤٢٢هـ / أبريل ٢٠٠١م .

٥٢ – عبد الأمير المرتضى المؤمن ، الفلك والفضاء من الخرافات والتنجيم إلى تلسكوب هابل، الطبعة الأولي ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

٥٣ – عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة السابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

٥٤ – على أحمد الشحات ، أبو الريحان البيرونى : حياته – مؤلفاته – أبحاثه العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م.

٥٥ – عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٩م.

٥٦ – غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م.

٥٧ – فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بالاشتراك مع إدوارد جورجى ، بيروت ، ١٩٦١م.

٥٨ – قدرى حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطبع ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٥٩ – كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، نقله إلى العربية الدكتور السيد يعقوب بكر ، الدكتور رمضان عبد التواب ، الجزء الرابع ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م.

٦٠ – كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى ، الطبعة الحادية عشر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٨م.

٦١ – كارلو نلينو ، علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، ملخص المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت .

٦٢ – محمود سليم الحوت ، فى طريق الميثولوجيا عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٦٣ – مفتاح محمد دياب ، مقدمة فى تاريخ العلوم فى الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، الهيئة القومية للبحث العلمى ، دار الكتب الوطنية ، بنغازى ، ١٤٠١هـ / ١٩٩٢م.

٦٤ – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١م.

٦٥ – وليم الخازن ، الحضارة العباسية ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ١٩٩٢م.

٦٦ – يحيى عبد الأمير شامى ، النجوم فى الشعر العربى القديم حتى أواخر العصر الأموى، الطبعة الأولى ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

67 - André Miquel, L'Islam et sa Civilisation, (VII, XXs) Armand Colin, 2ém edition, Paris, 1977 .

68 - Bernard Goldstein, Theory and Observation in Medieval Astronomy, Isis 63(1972) .

69 - Dresdensi, Globus Coelestis, Arabicus, Hipseal, 1865 .

70 - E.S. Kennedy and Victor Robert, The Planetary Theory of Ibn Al-Shair, Isis 50 (1959) .

71 - F.E. Peters, Aristotle and the Arabs (New York : New York University Press, 1969; R. Walger, Greek into Arabic (Columbia, S.C. University of South Carolina Press, 1962); Max Mayerhof, Van Alexandria nach Baghdad, in Sitzungberichate der prüssiachen Almadenie der vrssnchaftene no. 23 (1930) .

72 - George Saliba, Theory and Observation in Islam Astronomy, The Work of Ibn Al-Shatir, Journal for the History of Astronomy 18 (1987) .

- Arabic Astronomy and Copernicus; Zeitschriff für Geschichte der Arabisch - Islamischen Wissenschaften Band 1 .

- The Role of Marfägh in the Development of Islamic Astronomy A Scientific Revolution Befor the Renaissance, Revue de Synthese 4 , no 4 (1987) .

73 - Kennedy, Late Medieval Planetary Thory, Isis 57 : 365-78; Nole Swenflow, The Derivation and First Draft of Copernicus's Planetary Theory, Proceedings of the American Philosophical Society 117 (1973) .

74 - Pralica, Volume Special Publié à l'occasion du mille deux centiéme anniversaire de la fondation de Baghdad, E.J. Brill, Leiden 1962 .

75 - Roger Arnaldez, in Arabica, Volume Spécial Publié à l'occasion du mille deux centiéme aniversaire de la fondation de Baghdad, E.J. Brill, Leiden, 1962 .

د. نادية مرسى السيد صالح (*)

علم الجغرافيا عند العرب وأثره فى غرب أوروبا

إن فضل العلماء العرب كبير فى مجال علم الجغرافيا ، فكانوا فيه روادًا ، وكثرت مصنفاتهم وكتبهم ، التى تمثل مرحلة بارزة فى تاريخ الفكر الجغرافى وتطوره ، واستمر الرحالة الأوروبيون يعتمدون كثيرًا على المصادر الإسلامية فى معلوماتهم . كما اخترع العرب أجهزة ووضعوا خرائط ساعدت المستكشفين على أن يطوفوا بالعالم من الشرق والغرب . كما كان العرب حلقة وصل بين القديم والحديث ، فحافظوا على التراث الحضارى القديم ، وأضافوا إليه ، وقاموا بتصحيح بعض المفاهيم والأخطاء التى وقع فيها الإغريق .

ويهدف موضوع البحث إلى توضيح أثر الفكر الجغرافى العربى على الفكر الأوروبى ، وكيف ساهمت كتابات العرب فى اتساع المعرفة الجغرافية لدى الغرب الأوروبى ، ودفع حركة الكشوف الجغرافية ، التى كانت أساسًا من الأسس التى قامت عليها النهضة الأوروبية فى العصر الحديث .

واللفظ اليونانى " جغرافيا " يستعمل للدلالة على صورة الأرض ، ويستخدم دون أداة التعريف ، نسبة إلى عنوان كتاب بطلميوس القلوذى Claudius Ptolomoeus ، وظل هذا المعنى شائعًا فى العصور الوسطى (١) .

---

* مدرس - كلية الآداب - فرع بنى سويف - جامعة القاهرة.

وعلى أرض مصر نشأ وتقدم علم الجغرافيا وما يتصل به من علوم الرياضة والفلك ، ففى الإسكندرية عاش فى عصر البطالمة مؤسس علم الجغرافيا ارتوستنيز Eratosthenes اليونانى (فى القرن الثانى قبل الميلاد) ، فألف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون أو رواه قواد الإسكندر وغيرهم ، وقدر محيط الكرة الأرضية تقديراً قريباً من الصواب . وبطلميوس القلوذى - الذى عاش فى الإسكندرية فى أواسط القرن الثانى للميلاد - وألف كتاباً وافياً فى الجغرافيا عين فيه الأماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الأقسام الجغرافية وحقق أماكنها على ما بلغ إليه العلم فى عصره (٢) .

وفى القرون الأولى من العصر المسيحى تعرضت أوروبا لغارات القبائل الجرمانية ، وما ترتب عليها من الفوضى والاضطراب ، وحلت بأوروبا نكسة حضارية وساد التأخر والجهل عدة قرون ، بسبب سيطرة الكنيسة ومحاربة العلم ، وتأثير التعاليم المسيحية على البحث الجغرافى، بالإضافة إلى صعوبة المواصلات ، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين يطلقون على المدة من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلادى فى أوروبا " العصور المظلمة " .

وفى أوروبا العصور الوسطى كانت الجغرافيا التى تدرس بين جدران الأديرة ، تعتمد على المراجع القديمة ، وعلى الأحكام النظرية (٣) ، وفقد انعدمت تماماً قواعد المنهج العلمى ، وأثقل العقل الأوروبى بالمفاهيم الجغرافية الزائفة التى ألقاها الآباء المسيحيون ، والأفكار العتيقة للجغرافيين اليونان والرومان من أمثال استرابو وبطلميوس . وأن أى شىء آخر يتعارض مع هذه الأفكار يكون من الصعب قبوله ، ويكون مآله الرفض والهجوم بعنف (٤) .

وكانت معرفة الناس بالعالم المحيط بهم معرفة ضئيلة لم تكن تتعدى السواحل الشمالية للقارة الإفريقية وجزء صغير من ساحلها الشمالى الغربى . وكان الناس فى ذلك الوقت يعتقدون أن حدود العالم لا تتجاوز الصحراء الكبرى ، وأن المحيط الأطلنطى يمتد إلى ما لا نهاية . وأن هذا المحيط مأوى للوحوش والشياطين ، وأنه لا يمكن للجنس البشرى أن يتوغل أو يخوض غماره . واعتقدوا أيضاً فى وجود صخور فى البحر تجذب إليها السفن إذا ما اقتربت منها ، وأن فى تلك الصخور قوة خارقة تمكنها من اقتلاع مسامير تلك السفن وإغراقها . واعتقدوا أيضاً فى استحالة عبور خط الاستواء لأنه من أبواب جهنم (٥).

فى الوقت الذى ساد التأخر العلمى فى أوروبا ، وسيطرت فيه الأوهام على الأوروبيين ، شهد الشرق الإسلامى نهضة حضارية ، فقد جاء الإسلام ، وقام المسلمون بحركة الفتوحات

الإسلامية ، وأصبحوا سادة كثير من المناطق التى كانت فى الماضى مهاد المدنية والحضارة . وأسس المسلمون زمن الخلفاء دولة مترامية الأطراف تمتد من منطقة جبال البرنية وحتى الهند.

وانكب العربَ فى العصور الوسطى على تحصيل العلم والتأليف فيه ، وبدءوا أولاً بترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها ، ثم عدلوها ورتبوا علومها ، وأضافوا إليها ما جاء به الإسلام وما حصلوا عليه بتجاريبهم وطبعوه بالطابع العربى ، وتميزت الحضارة الإسلامية بطابعها العالمى ، وقامت بدور بارز بين الحضارات القديمة وحضارات العصر الحديث ، والذى تمثل فى النقل والترجمة والإضافة والتفسير . وعمل المسلمون الأوائل على بعث الروح الإغريقية القديمة على طابع العمل الجغرافى ، وإغناء الفكر الجغرافى ، وربطوا بين العلم القديم والعلم الحديث (٦).

ونشطت حركة الترجمة إلى العربية وخاصة فى العصر العباسى ، وقام الخلفاء العباسيين بتشجيع البحوث العلمية ، وراحوا ينقلون إلى العربية أمهات الكتب المعروفة فى اللغات الأخرى، واستخدموا المترجمين من كل البلاد دون نظر إلى جنسياتهم أو عقائدهم ، وبلغت هذه النهضة العلمية أوجها فى عصر الخليفة أبو العباس عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) الذى أخذ يجمع الكتب من كل جهات العالم مهما بلغ ثمنها ، وكان المترجمون يتقاضون وزن الكتب ذهبًا (٧). وبفضل الترجمات التى وضعها العرب حفظت مخطوطات مفقودة . فإن أوروبا لم تطلع على جغرافية بطلميوس قبل انتقالها إليها عن طريق الثقافة العربية ، وأنها وصلت إلى الأوروبيين مزيدة منقحة بما أضافه إليها الجغرافيون المسلمون (٨).

ومن الكتب التى ترجمت إلى العربية كتاب الجغرافيا لمارينوس الصورى (حوالى ٧٠ - ١٣٠م) (٩). وكانت كتب بطلميوس السكندرى من أهم المصادر التى حرص العرب على الاستفادة منها ، وخاصة كتابه " جامع الرياضيات " He Mathematike Syntaxis ، الذى اشتهر بعد ذلك باسم Magiste وعربه العرب أيام المأمون إلى " المجسطى " (١٠)، ومعناها "الكتاب الأعظم" . وعنهم أخذ علماء أوروبا فى العصور الوسطى ذلك الكتاب باسمه العربى Almageste ، وقد جمع بطلميوس فيه كل النتائج التى وصل إليها سابقوه من الفلكيين الإغريق . وضاع الأصل اليونانى وبقيت الترجمة العربية ، فلم تعرف أوروبا الكتاب إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى من خلال الترجمات العربية ، حينما نقله إلى اللاتينية من العربية العالم الإيطالى خيرارد القرمونى Gerardo de Cremona (١١١٤ - ١١٧٨) فى عام ١١٧٥م(١١).

ولبطلميوس كتاب آخر " دليل الجغرافيا " Geographike Huphegesis " الذى عرفه العرب باسم " جغرافيا " فقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة فى العصر العباسى بواسطة ثابت بن قرة ثم ترجمه محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٢٣٦ هـ / ٨٥٠م) الذى استفاد منه فى وضع كتابه " صورة الأرض " . وترجم كتاب جغرافية بطلميوس إلى اللاتينية حوالى عام ١٤١٥م ، ثم نشر فى روما فى عام ١٤٧٨م ، ولم ينشر نصه الإغريقى إلا فى عام ١٥٣٣ فى مدينة بازل بسويسرا بتحقيق ارازموس ، أما قبل ذلك فقد كان عماد الناس فى الرجوع إليه على ترجمات لاتينية عملت مباشرة أو عن العربية (١٢).

وكان بطلميوس فلكياً ورياضياً أكثر منه جغرافياً ، ومن ثم فإن جغرافيته تمثل فى جوهرها جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المعمورة فى العالم ، ولكنه لا يعطى أى تفاصيل عن المناخ أو السكان أو النبات والحيوان ، وقد أكمل العرب ذلك بمعلوماتهم الواسعة عن نواحى المعمور ، ويبدو أن هدف بطلميوس كان رسم صورة الأرض لا وصفها (١٣). وزودت جغرافية بطلميوس بخرائط أعطت صورة مفصلة للعالم مثلما كان معروفًا لليونانيين . وقد جمع بطلميوس معلوماته من التجار والرحالة الذين وصلوا إلى الإسكندرية (١٤).

وقد أمر المأمون سبعين رجلاً من علماء الجغرافيا بوضع كتاب فى الجغرافيا ، فصنفوا كتاباً أفاد منه ولاة الأقاليم فى الدولة العباسية ، إذ كان أشبه بدليل أرشدهم إلى مختلف البلاد والأمم . وتضمنت مناظرات الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) مناقشات جغرافية هامة خاصة بالرياح وأنواعها واتجاهاتها ، والحرارة والبرودة ، وتأثرهما بالتضاريس من حيث الارتفاع والانخفاض والقرب أو البعد من البحر ، وفصول السنة (١٥).

ويعتبر بطلميوس معلم الجغرافية الأول فى العصور القديمة ، وتأثرت الجغرافيا العربية فى عهدها الأول بجغرافية اليونان ، وخاصة بمؤلفات بطلميوس ، واتخذ المسلمون منها مثالاً احتذوه فى كتاباتهم الجغرافية ، نذكر منهم أبو يوسف يعقوب الكندى (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) فى كتابه المسمى " رسم المعمور من أقطار الأرض " ، وكان الكندى من رؤساء حملة العلم اليونانى (١٦)؛ وجعفر بن أحمد المروزى (ت ٢٧٤هـ / ٨٨٧م) فى كتابه " المسالك والممالك "؛ وأبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله ابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٣م) فى كتابه " المسالك والممالك " ، ويعترف هذا المؤلف بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها وممالكها على ما كتبه بطلميوس فى ذلك (١٧)؛ وأحمد بن أبى يعقوب بن واضح اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)

فى كتابه " البلدان " ؛ وأحمد بن محمد بن الطيب السرخسى (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) فى كتابه " المسالك والممالك " ؛ ومحمد بن موسى الخوارزمى فى كتابه " صورة الأرض " الذى وضعه حوالى منتصف القرن التاسع للميلاد (١٨). وتناولت هذه الكتب وصف الأقاليم الإسلامية ومدنها ، وذكر مسالكها والطرق المؤدية إليها وحاصلاتها ومناخها .

وكان علم الجغرافيا عند العرب يقوم على أسس علمية ، وعلى الوصف العملى لسطح الأرض وطرق التجارة وطبوغرافية المدن والقرى ومواضع الجبال والأنهار والوديان والبحيرات والبحار والصحارى وما شابه ذلك (١٩).

ويرى بعض الباحثين الغربيين أن الإغريق سبقوا العرب فى وضع أساس علم الجغرافيا ، وأن دور العرب في ميدان العلوم دور نقل ولا زيادة ، نقلوا من اليونان وغيرهم ، ولم يزيدوا فيه شيئًا من عند أنفسهم . ولكن لم يكن العرب مجرد نقلة للتراث اليونانى بل أنهم أقبلوا عليه ناقدين فاحصين ، وخلقوه خلقًا جديداً ، فأضفوا عليه معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل ، ولم يكتفوا بالنقل والسماع ، ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الأقطار شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبيًا ، وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه وصححوا كثيراً من أخطاء بطلميوس (٢٠).

هذا إلى أن أوروبا مدينة للعرب بحفظ معلومات الإغريق الجغرافية ، وهذه المعلومات لم يعرفها الأوروبيون إلا من الكتب العربية فى أواخر العصور الوسطى ، ولكن إذا كان العرب اعتمدوا على معلومات الإغريق فى أول أمرهم ، إلا أنهم لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فصححوا ما وقع فيه جغرافيو الإغريق من أخطاء ، كمواقع المدن الكثيرة التى عينها الإغريق مخالفًا للواقع ، وأضاف العرب من عندهم الشيء الكثير إلى محصول المعرفة الجغرافية (٢١).

وكانت المؤلفات الجغرافية العربية مؤلفات شمولية ذات طابع مختلط أى تلك التى تحتوى قسمًا نظريًا مع معطيات خطوط الطول والعرض ، وقسمًا وصفيًا فى صيغة توصيف الجزء المأهول للكرة الأرضية . ويشيد الكاتب الروسى خالدوف بدور العرب فى تطوير علم الجغرافيا فيقول : " إن علماء الخلافة استطاعوا أن يقدموا مساهمة هائلة فيه ، وأن يطوروه ليس فى المجال النظرى بقدر ما طوروه فى المجال العلمى " (٢٢).

واهتم العرب بالمعارف الجغرافية والفلكية اهتمامًا خاصًا منذ أقدم العصور ، لارتباطها بحياتهم بحكم ظروف بيئتهم ، ليستعينوا بذلك على الترحال فى الصحراء المترامية الأطراف . وفى إسلامهم بحكم اتساع رقعة الدولة وضرورة الوقوف على أحوال البلاد ومعرفة الطرق

والمسافات ، وبحكم اعتماد بعض العبادات الشرعية على أحوال جغرافية وفلكية ، كأمر توجيه المساجد عند بنائها نحو مكة وتعيين القبلة عند الصلاة . ومن هنا جاء الاهتمام بعلمى الفلك والجغرافيا والربط بينهما مما أدى فى النهاية إلى تفوق العرب فى علم الجغرافيا (٢٣).

وكان الحج يهيىء للمسلمين المعرفة الجغرافية ، وكان له أثرًا كبيرًا فى دفع الكتاب الرحالة إلى تدوين ما لاحظوا أو رأوا كابن جبير وابن بطوطة ، وكان هناك أدلاء عارفون بالطرق ومسالكها بفضل التجربة والمشاهدة . وكانت الكتب التى وضعت عن المزارات الإسلامية أوفى كثيرًا من الكتب التى صنفت عن المزارات المسيحية . يضاف إلى ذلك أن الإسلام حث على طلب العلم ، فقد كان المسلمون ينتقلون في طلب العلم والمعرفة من قطر إلى آخر (٢٤).

وفوق هذا ، فإن التوسع السياسى للعرب قد أتاح لهم فرص جمع المعلومات والملاحظة وتسجيل تجاربهم فى البلاد المختلفة التى خضعت لهم أو كانت مجاورة للدولة العربية الإسلامية ، كما انتقلت المعرفة الجغرافية الهندية والفارسية واليونانية إلى العرب .

كما كان للتجارة أثر كبير فى التوغل الإسلامى والحصول على معلومات قيمة عن طريق التجار المسلمين . فقد جاب العرب البلاد من شرقى آسيا إلى مجاهل إفريقية ، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون بها فى العصور الوسطى . فإن التجار المسلمين كانوا قد بلغوا بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين بلاد الصين بحرًا وبرًا ، ووصلوا إلى جزيرة زنجبار وأقاصى شواطىء إفريقيا جنوبيًا ، وتوغلوا إلى روسيا شمالاً ، وإلى عمود هرقل وشواطىء الأطلنطى غربًا (٢٥).

وفى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، بلغت الجغرافيا العربية أوجها ، وقد ترك لنا الرحالة العرب وصفًا دقيقًا لمختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وشاركهم هذا الفضل الحجاج والتجار سواء وفدوا عن طريق البر أو البحر ، وتميزت جغرافية العرب فى تلك المرحلة بالجغرافيا الوصفية ، التى اهتمت بوصف الممالك والبلدان ، وقوامها المشاهدة والمقارنة والتحقيق .

وكان أبو إسحق إبراهيم بن محمد الأصطخرى أول ممثل لنمط المسالك والممالك بوضعه جغرافية شاملة لدار الإسلام فى مؤلفه الذى ظهر حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، والمعروف باسم " مسالك الممالك " ، ثم أبو القاسم محمد بن حوقل بوضعه

لكتابه " صورة الأرض " الذى ظهر حوالى عام ٣٧٨هـ / ٩٨٨م . وأبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) بوضعه لكتابه " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " ، وقد وضع المقدسى قوانين الرحالين وقواعد السفر فى كتابه .

وقد حقق العلامة الهولندى دى غويه De Goeje مؤلفات الأصطخرى وابن حوقل والمقدسى ثم ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر واليعقوبى وابن رستة وابن الفقيه ونشرها بالتعاقب فى السلسلة التى عرفت باسم " الخزانة الجغرافية العربية " فى ليدن بين عامى ١٨٧٠ - ١٨٧٧ . وتمثل هذه المدرسة درجة عالية فى البحث المبنى على الاختيار الشخصى والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل والتأليف الجغرافى الناضج الذى استمر ثلاثة قرون (٢٦).

ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس للهجرة تطورت الكتابة الجغرافية من وصف المشاهدات إلى عمل معاجم لوصف البلدان على حروف المعجم مثل كتاب أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) " معجم ما استعجم " ، وهو أول معجم جغرافى فى تاريخ التأليف الجغرافى عند العرب ؛ و " معجم البلدان " لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ؛ و " الروض المعطار فى خبر الأقطار " لابن عبد المنعم الحميرى ـ جمعه عام ٨٦٦هـ) شاملاً العالم الإسلامى كله ، ونشر المستشرق ليفى بروفنسال القسم الخاص بالأندلس بعنوان " صفة جزيرة الأندلس " .

ولم يفت الجغرافيون المسلمون أن يتحدثوا عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد التى عرفوها ، وطرقها ومسالكها ، ووصفوا المجتمعات الإسلامية ، ومراكز الاستقرار البشرى وعلاقتها بما حولها من الأرض ، ومصادر الثروة المعدنية من باطن الأرض . وقد تبغ فى جغرافية علم طبقات الأرض على بن سينا (ت ٩٨٠هـ / ١٠٣٦م) - ويشتهر فى الغرب باسم Avixenna - ، وظل كتابه عن المعادن هو المرجع الأول لأوروبا ودراستها لعلم طبقات الأرض حتى القرن الثامن عشر (٢٧) . وأبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (ت بعد سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) وقد تناول فى مؤلفاته مثل " الهند " و " كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر " عدة موضوعات مثل علم المعادن ، وعلم طبقات الأرض (٢٨).

كما تناول الجغرافيون العرب فى مؤلفاتهم أيضاً الجغرافية الطبيعية والفلكية مثل زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) فى كتابه " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " . ويتحدث فى الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ، فوصف المعالم البارزة من

جزر وجبال وبحار وأنهار وينابيع . وكان يقصد بالعلويات ما يتعلق بالسماء وأبراجها ، والكواكب ومداراتها ، والشمس والقمر ، وما يتصل بذلك من علم الفلك . وأشار القزويني في كتابه إلى المد والجزر وعلاقة ذلك بالقمر ، وتحدث عن الأيام والشهور والسنوات والفصول والفوارق بينها . أما المخلوقات السفلية في نظر القزويني فهي الأشياء الأرضية فتحدث عن النار والهواء والماء والتراب ، كما تحدث عن الرياح (٢٩).

واتسعت المعلومات الجغرافية لدى العرب ، فعرفوا أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا ، كما عرفوا إفريقيا الشمالية وساحل إفريقيا الشرقي إلى قرب مدار الجدي . ولم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت حدود العالم كما عرفه اليونان (٣٠).

واكتسب العرب معارف الإغريق والرومان عن الأراضي والبحار ، وفاقوهم إذ كانوا أكثر تعرفًا على مناطق أخرى كانت المعلومات عنها لا تزال محفوفة بالغموض . فمعلومات استرابو وبطلميوس عن الأقاليم الواقعة حول بحر قزوين والجهات التي تمتد إلى الشمال الشرقي من البحر الأسود كانت ضئيلة للغاية . بينما الجغرافيين العرب كان عندهم معلومات صحيحة عن هذه المناطق الشمالية في روسيا وشمال أوروبا بسبب التبادل التجاري ، والدليل على ذلك هو وجود عملات عربية هناك (٣١). فالتجار العرب صعدوا نهر الفولجا بسفنهم حتى بلاد البلغار . وقد وجدت كميات من النقود الفضية العربية في الأقاليم الواقعة في قلب روسيا ، على المجرى الأعلى والأسفل لنهر الفلوجا وروافده الجنوبية ، وفي أقاليم البلطيق وأن هذه النقود تحمل تاريخ صنعها ، ويرجع أقدم هذه النقود إلى القرن السابع . وأوفدت بعثات كثيرة من بغداد إلى هذه المنطقة ، وفي عام ٣١٠هـ / ٩٢١م ذهب ابن فضلان (أحمد بن عباس بن رشيد بن حماد) مبعوثًا من الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى بلاط البلغار بالفلوجا ، وكانت كتابته عن أقاليم الفلوجا – قزوين أول مصدر موثوق به عن تلك الأصقاع ، وهو أقدم نص عربي عن روسيا في العصور الوسطى ، وأورد هذا الوصف ياقوت الحموي في معجمه في مادة "بلغار"(٣٢).

وفيما يتعلق بإفريقيا فقد أعطى العرب وصف مفصل عن داخل إفريقيا في مؤلفاتهم وقد أفادت معلوماتهم الرحالة والمستكشفين الجغرافيين الأوروبيين في عصر النهضة . فقد اقتصرت معرفة الإغريق والرومان على الجزء الساحلي من إفريقيا ، ولم تعرف أوروبا داخل

إفريقيا إلا عن طريق الكتابات العربية ، فقد وقفت الظروف الطبيعية لسطح القارة حائلاً أمام توغل الأوروبيين فيها ، فاقتصر علمهم على سواحلها ، في حين كان الجزء الأكبر من النصف الشمالي للقارة معروفاً للعرب نتيجة النشاط التجاري مع تلك الجهات ، وظلت كتاباتهم هي المرجع الوحيد عن جغرافية هذه المناطق ، ومن هذه المصادر ما كتبه الحسن بن أحمد المهلبي صاحب الكتاب الجغرافي المتعلق بالسودان " المسالك والممالك " كما سمي " بالعزيزي " نسبة إلى الخليفة الذي أهداه إليه (٣٣)، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً ، وقد ألفه عام (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ؛ للخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) . كما توصل البيروني إلى معلومات قيمة عن إفريقيا الجنوبية وموزبيق (سفالة الزنج) عن طريق التجار المسلمين . وقد أمدنا الإدريسي بعد ذلك في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بمعلومات عن النيجر في الجزء الواقع أعلى تمبكتو وعن إقليم منابع النيل في كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " (٣٤).

وتوغل الرحالة المغربي محمد بن عبد الله بن بطوطة (ت ١٣٧٨م / ٧٧٩هـ) في قلب الصحراء الكبرى ، وفي أعماق السودان ووصل في تجواله جنوباً حتى مدينة مالي ، وعرج في طريقه على مدينة تنبكتو وكوجو على نهر النيجر ، وقد ظن أنه نهر النيل الأكبر أو هو فرع من فروعه ، وظل هذا القول مأخوذاً به حتى استكشفت منابع النيل . ويعتبر ابن بطوطة صاحب الفضل الأول في استكشاف هذه المنطقة بطريقة مفصلة ، وهو يقدم لنا معلومات عن ممالكها وأحوالها هي في الواقع أوفى معلومات وصلتنا عنها في ذلك العصر المبكر . وإن الرواد الأوروبيون لم يستطيعوا النفاذ إلى تلك المنطقة واستكشافها قبل أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وبالرغم مما تذكره التواريخ الأوروبية من أن الرحالة الإنجليزي منجو بارك ، والرحالة الفرنسي رينيه كابيه ، هما أول من اكتشف أعالي نهر النيجر وقبائله وشعوبه ، فإن الحقيقة هي أن الفضل الأول في هذا الاكتشاف يجب أن ينسب إلى ابن بطوطة(٣٥).

ووضع الحسن بن محمد الوزان الزياتي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٢٧م)(٣٦) - الذي عرف في أوروبا باسم ليو الإفريقي Leo Africanus - كتاباً باسم وصف إفريقيا عالج فيه بالدراسة المفصلة جغرافية النصف الشمالي من القارة . عني فيه بالأخص بوصف أنحاء المغرب وبلاد السودان وممالك إفريقية السوداء في منطقة النيجر ، وقد كان لليو الإفريقي تأثير قوي على

العلم الأوروبى . وغدا مصنفه المشهور " وصف إفريقيا " إلى جانب رحلة ابن بطوطة ، وثيقة نفيسة أخرى تلقى أضواء جديدة على جغرافية هذه المناطق وتاريخها وأحوالها الاجتماعية(٣٧).

وعلى هذا النحو نرى أن كشف النقاب عن كثير من أنحاء إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء أمام أنظار أوروبا عن طريق المصادر الإسلامية قد أدى بالباباوات إلى إيفاد الرهبان الذين تعلموا العربية إلى تلك الوجهة . كما أدى إلى تطلع البرتغال إلى بلوغ مياه الشرق الأقصى لتحقيق كسب عاجل من التجارة ومن ذهب ساحل غينيا وفقًا لما صورته المعرفة الناشئة عن وصف المسلمين لهذه المناطق (٣٨).

أما بالنسبة لآسيا ، لم تكن لدى اليونان أية فكرة عن السأحل الشرقى لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا بينما كانت أعمال الجغرافيين والرحالة المسلمين قد كشفت عن الكثير من قلب القارة الآسيوية وسواحلها حتى أرخبيل الملايو ، وكانت المعلومات التى جمعها العرب قد أفادت الرحالة الأوروبيين فى عصر النهضة . وقد دون سليمان التاجر – وأصله من سيراف الواقعة على الخليج الفارسى – عام ٢٣٧هـ / ٨٥١م وصف رحلاته إلى الصين وسواحل الهند، وقد نشرت عام ٣٠٦هـ / ٩٢٠م ، على يد أبى الحسن السيرافى فى كتاب " سلسلة التواريخ " . وهذا الكتاب أقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند ، فقد كتب سليمان المدن بأسمائها العربية (٣٩). وعالج الجغرافيون أمثال ابن خرداذبة والأصطخرى والمقدسى بمزيد من المعلومات عن الهند . وعرف العرب الطريق البرى الذى يخترق آسيا الوسطى – بلاد الترك المعروفة بتركستان – إلى الصين . وقد وصف ابن خرداذبة الطريق إلى الهند والصين . ثم فى منتصف القرن السادس الهجرى يقدم لنا الإدريسى وصفًا دقيقًا فى تلخيصه لأقاليم بلاد الترك فى كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " . وتشير الدكتورة سيجريد هونكه إلى فضل العرب فى معرفة القارة الآسيوية فتقول : " إن عالم الإسلام كان قد كشف عن مجاهل القارة العظيمة " (٤٠).

وما كادت تتوارد أنباء ظهور التتار على مسرح التاريخ فى مراعى آسيا الوسطى – حتى أوفدت البابوية المبعوثين إلى هناك لتحويل هؤلاء الوثنيين إلى المسيحية ، وتوجيه حماستهم للقضاء على الإسلام ، مثل رحلات كاربينى عام ١٢٤٥م ورويروك عام ١٢٥٣م ثم رحلات ماركو بولو عام ١٢٧١م . ومعظم هؤلاء الرحالة الرهبان الذين ساروا إلى مجاهل آسيا

كمبشرين أو سفراء من قبل البابوية أو ملوك أوروبا ، كانوا أكثر شغفًا بمهمتهم الدينية منهم بالمعلومات الجغرافية . فلم يضيفوا شيئًا إلى المعرفة الجغرافية من الوجهة العملية (٤١).

ومن الرحالة الذين وصفوا المجتمعات الآسيوية فى العصور الوسطى ، ماركو بولو البندقى، وابن بطوطة ، ويكمل كل منهما الآخر فى معرفة الشرق الأقصى . وكانت رحلات ابن بطوطة الواسعة أطول بكثير مما سافره الرحالة البندقى ماركو بولو ويرجع الفضل إلى ابن بطوطة فى تعريف الأمم الشرقية والإسلامية بعضها بأحوال بعض . وتعتبر رحلته من أهم المصادر الجغرافية لأنحاء آسيا الوسطى والصين . وبدأ ابن بطوطة رحلته من مغرب الأرض إلى مشرقها واجتاز مجاهل إفريقيا الشرقية وكثيراً من الأقطار والجزائر الآسيوية الجنوبية . وقد وصل ابن بطوطة الهند عام ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م ، وشغل منصب القضاء فى مدينة دلهى ، ثم ذهب إلى الصين ووصل إلى جزر ملديف Maldive ومنها عبر إلى سيلان وزار البنغال والهند الشمالية ، ومن هناك اتجه إلى كانتون بالصين (٤٢).

وكانت رحلات ابن بطوطة التى أطلق عليها " تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار " من أهم المصادر التى اعتمد عليها البحث الغرى فى دراسة الأقطار والأمم الإفريقية والآسيوية ، وأحوالها الاجتماعية ؛ فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس .

كذلك عنى العرب فى الأندلس والمغرب عناية كبيرة بالجغرافيا وما يتصل بها من علوم الرياضة والفلك . وظهر بينهم جغرافيون لا يقلون شأنًا عن جغرافى المشرق . وقد أفادت إسبانيا والبرتغال من علم العرب وخبراتهم . واشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بالرحلة والأسفار ، وظهر من بينهم عدد من الرحالة الذين زاروا كثيراً من نواحى المعمورة ، وسجلوا ما شاهدوه وعاينوه ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية وفيرة عن العالم المعروف فى ذلك الوقت. وكان وصف وطنهم جزيرة الأندلس يحتل مكانًا بارزًا فى مؤلفاتهم . وبينما تميز الجغرافيين المشارقة بالدقة فى وصف الطرق والبلاد وتقدير المسافات ، فالجغرافيين الأندلسيين قد تحدثوا بالتفصيل عن خطط الأندلس ومسالكها ومدنها وكورها وأنهارها وجبالها ، وأشاروا إلى الزروع والمحاصيل والمنتجات والصناعات والمتاجر . كذلك اهتموا بضبط أسماء الأماكن الجغرافية ضبطًا صحيحاً بحيث يتفق نطقها العربى مع نطقها الإسبانى . لأن معظم أصول هذه التسميات الجغرافية إسبانية وليست عربية . ومن أمثلة ذلك قولهم طليطلة بضم الطاء

الأولى والثانية ، ونهر تاجه بضم الجيم وسكون الهاء وإشبيلية بكسر الهمزة واللام وتخفيف الياء ثم هاء تأنيث ، ولبله بكسر اللام أو فتحها ، وغرناطة بفتح الغين ، وكورة بضم الكاف ومَعناها الناحية . ولم تقتصر دقة الأندلسيين على رسم الأعلام والتثبت من نطقها ، بل تتجلى دقتهم أيضًا فى محاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الإغريقية ، لتفسير معناها حسبما هو موجود لديهم فى كتابات الإغريق والرومان (٤٣).

فقد تحرى البكرى فى كتابه المسالك والممالك الدقة فى رسم الأعلام الجغرافية وتفسير بعض أصولها اللاتينية مثل قوله : " واسم طليطلة باللاتينى تولاطو ومعناها فرح ساكنها لحصانتها " . وقد ثبت أن من مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل المنكب وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى . وقوله عند الكلام عن إشبيلية : " ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى إسبالى ومعناها المدينة المنبسطة " (٤٤).

وقد نشطت حركة الكتابة الجغرافية فى المغرب والأندلس فى عصر مبكر ، ولاشك أن الجغرافيين الأندلسيين قد استفادوا من الكتب الجغرافية القديمة فى وصف تلك البلاد ، إذ نجد اسم هروشيش Horosius – وهو راهب إسبانى المولد والنشأة عاش أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادى – فى مؤلفاتهم وخاصة عند العذرى والبكرى وابن خلدون ، والذى عرف كتابه باسم Adversus Paganos Historiarum Libri Septem أى " كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين " ، الذى يبدأ بمقدمة جغرافية وافية يوجز فيها وصف المعمور على أيامه ، وهو مع إيجازه أصبح فيما بعد أساسًا من أسس الوصف الجغرافى لشبه الجزيرة الأندلسية (٤٥).

وقد أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن هروشيش هذه الآراء المتصلة بهيئة شبه الجزيرة الأيبيرية ، ثم أضافوا ما تجمع لهم من مادة جغرافية دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة . ونجد عنده نفس الخلط بين الصحيح وغير الصحيح الذى وجدناه عند استرابون وبطلميوس ، فقال مثلاً أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب تقريبًا . كذلك يذهب دوزى وسيمونيت إلى القول بأن الجغرافيين الأندلسيين كانوا على معرفة بكتاب " أصول الكلمات " للقديس أيزيدورو الإشبيلى (ت ٦٢٦م) ، وأن البكرى نقل عنه أوصاف بعض النواحى مثل الجزء الخاص بوصف جزائر فرطناطش المسماة بالسعادات أو الخالدات أو جزر كناريا (٤٦).

وقد ازدهرت المدرسة الجغرافية فى الأندلس أيام الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) برعايته وتشجيعه ، فكان يستجلب كتب اليونان واللاتين ويأمر بترجمتها . ومن الكتب التى ترجمت فى عهده كتاب هروشيش ، وقام بترجمته قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ (ت ٩٥١م / ٣٤٠هـ) (٤٧).

وقد كتب أحمد بن محمد الرازى (ت ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) المشهور فى أوروبا باسم Elrasis - وهو من تلاميذ قاسم بن أصبغ - كتابه " أخبار ملوك الأندلس " على غرار كتاب هروشيش، ووسعه وأضاف إليه (٤٨)، تناول فيه وصف جغرافي مختصر للأندلس الإسلامى . وق اعتمد الأسبان على جغرافية الرازى حتى القرن الثالث عشر فى حل الكثير من مشاكل التنظيم الإدارى التى اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين . ومما يؤيد ذلك أن الرازى أورد فى جغرافيته هذه بعد ذكر الأنهار والجبال تقسيمها الكنسى ، وهو المعروف بقسمة قسطنطين(٤٩) . وقد أخذ الرازى ما يخص إسبانيا منه عن إحدى القوائم التى تبين ذلك التقسيم ، والتى كانت متداولة فى إسبانيا على أيام العرب . وإن هذه القوائم اللاتينية كلها كانت قد شاعت قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . فعندما استولى الملك خايمه الغازى Jaime el Cònquistador على بلنسيه عام ١٢٣٩م ثار النزاع بين أسقفيتى طليطلة وطركونة حول تبعية إقليم بلنسية لأيهما ، ولم ينحسم النزاع إلا بعد الرجوع إلى عدة كتب وأحدها كتاب الرازى ، وتبين منه أنه فى تقسيم قسطنطين لإسبانيا إلى ست مناطق (كنسية) يتبع إقليم بلنسية أسقفية طليطلة (٥٠).

ومن أشهر جغرافى الأندلس الشريف الإدريسى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) الذى يمثل قمة علم الجغرافيا عند المسلمين . استدعاه الملك روجار الثانى النورماندى ملك جزيرة صقلية (١١٠١ - ١١٥٤م) ، وأغدق عليه هباته وعطاياه ، وأنزله فى أحسن منزل ، وكلفه بوضع مصور جغرافى للمعمورة . وكون لجنة كبيرة من جغرافى صقلية لتكون فى خدمة الإدريسى . فوجه الإدريسى كثيراً من أعضاء هذه اللجنة لزيارة أماكن من العالم عينها لهم ، لجمع معلومات جغرافية . ووضع نموذجًا للأرض على شكل كرة من الفضة ، ونقش فيها صور الأقاليم السبعة التى هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى فوق الكرة الفضية خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ (٥١). وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوروبيين فى العصور الوسطى ، ولاسيما العلامة البندقى مارينو سانوتو (١٢٦٠ - ١٣٣٨) ، الذى استرشد بها فى معظم خرائطه.

وألف الإدريسي كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ، وقد سمى كذلك " كتاب رجار" وأهداه إلى ملك صقلية روجر الثاني ، شرح فيه ما رسمه على الكرة الفضية من أشكال فلكية وما رسمه من معالم جغرافية بالمصور الجغرافي الذى وضعه للمعمورة ، من بلدان وبحار وجبال وأنهار ... إلخ . واستغرق هذا العمل الجغرافي نحو خمس عشرة سنة . وقد سجل الإدريسي فيه ما شاهده ، وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطلميوس ، ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين مثل اليعقوبي وابن خرداذبه والمسعودى وابن حوقل ، واعتمد فضلاً عن ذلك على تقارير الرسل والمبعوثين ، الذين أوفدهم الملك رجار إلى مختلف البلدان الأوروبية (٥٢). وكان هذا الكتاب الذى صنفه الإدريسي عونًا للجغرافيين الغربيين فى توسيع معارفهم العامة ، كما كان عونًا للمستكشفين البرتغاليين فى القرن الخامس عشر على ارتياد الأماكن المجهولة ، وهو مزود بأكثر من أربعين خريطة ، وترجم إلى اللاتينية فى أوروبا حيث اعتمد عليه الأوروبيون أكثر من ثلاثة قرون (٥٣).

ويمثل الإدريسي مدى تفوق العرب فى علم الجغرافيا ، فيقول كراتشكوفسكى : " وتكليف روجر عالمًا عربيًا بالذات وضع وصف للعالم المعروف آنذاك ، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية فى ذلك العهد ، وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق " (٥٤).

وكان منهج الإدريسي منهج مشاهدة وقياس ومقارنة ، ويعتبر الإدريسي أول من تصدى لعمل جغرافية كاملة للكرة الأرضية معتمداً على أساس علمي تجريبي ، ووفق فى ذلك إلى حد كبير . وقد بنى جغرافيته على مفهومات علمية صحيحة مثل كروية الأرض وخط الاستواء والأقاليم المناخية التى تتدرج من ذلك الخط إلى القطب واستطراق بحار العالم الكبرى بعضها إلى بعض (٥٥).

بالإضافة إلى ذلك ، أن الجزء الذى كتبه الإدريسي عن إسبانيا الشمالية وبقية نواحى أوروبا، فقد وصفها وصفًا دقيقًا ، وخاصة الطرق المؤدية إلى شنب ياقب ، حتى لقد فاق فى وصفه لهذه الطرق أدلة الرحلات التى كانت معتمد حجاج المسيحية إلى ذلك المزار الكبير ، فقد حدد بدقة الطرق المؤدية من جنوب فرنسا إلى شنب ياقب عبر ممرات جبال الألب (٥٦).

وهناك عدد كبير من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين أسهموا فى بناء علم الجغرافيا أو فى زيادة المعلومات الجغرافية فى العصور الوسطى . وظلت كتبهم أساسًا لدراسة ذلك العلم فى أوروبا عدة قرون . وكانت أساسًا من الأسس التى قامت عليها النهضة

الأوروبيــة فى العـصـر الحـديث (٥٧). ولكن على الرغم من هذا النفـور فـقـد تأثرت المؤلفـات الجغرافية الأوروبية بالمعرفة المستقاة من المصادر العربية .

ـ ويعتبر فن الخرائط مكملاً لعلم الجغرافيا ، وقد ارتبط علم الخرائط العربى منذ القدم باسم بطلميوس ، وقد جمع بطلميوس كل المعلومات الجغرافية فى عصره ، وبنى عليها خريطته التى ظلت مرجعًا يرجع إليها الرحالة والجغرافيون عدة قرون . ومع أن العرب لم يتقدموا فى فن عمل الخرائط تقدمهم فى وضع المؤلفات الجغرافية ، فقد كانوا أصحاب الفضل فى الحفاظ على تراث الأقدمين .

ورغم أن خـرائط اليـونـان والرومـان كـانت هى الأسـاس الذى اعـتـمـد عليـه العـرب لرسم الخرائط فى العصور الوسطى إلا أنهم أضـافوا إليها وأصلحـوا فيـها كثيراً . ولقد طرحـوا الرأى البطلميوسى القائل بقيام اتصال بين إفريقيا وجنوب شـرقى آسيا وباعتبار المحيط الهندى بحراً مقفلاً تحيط به الأرض من جميع الجهات (٥٨).

وأصلح الجغرافيون العرب جداول بطلميوس للمدن وأضافوا إليها أسماء أجزاء من العالم لم تكن معروفة فى العهدين اليونانى والرومانى . ومن الإضافات التى أضافها العرب إلى هذا العلم أنهم أظهروا فى خـرائطهم لأول مـرة العلامـات الأرضيـة التى تمثل الجبـال والغـابات والأنهار وغيرها من مظاهر السطح ، وهى عناصر تعتبر متممة للخريطة . وأدخل العرب فى العصور الوسطى التحسينات على رسم الخرائط بإدخـال الأسلوب الرياضى عليهـا ووضع خطوط الطول والعرض . فجاءت خرائط العرب أرقى من خرائط بطلميوس ، كما استخدم العرب الخرائط فى تعليم الجغرافية بالمدارس كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية (٥٩).

وبمضى الوقت أخذت خرائط العرب طابعًا يختلف عن خرائط القدامى ، وأصبحت ذات طابع إسلامى محض بعيد عن التأثير بخرائط اليونانى والرومان ، وساعدهم على هذا اتساع رقعة أملاكهم . وكان محمد بن موسى الخوارزمى - الذى عاش فى عصر المأمون - من أول صانعى الخرائط ، ألف كتابه " صورة الأرض " موضحًا بالخرائط ، وهو أول مصور جغرافى عربى للدولة العربية بأقاليمها فى القرن التاسع الميلادى . وفى عهد الخليفة المأمون جمع علماء عصره ، وأمرهم بوضع خريطة للعالم ، فوضعوا له خريطة دقيقة كانت أفضل مما تقدم من دراسات فى جغرافية العالم على عهد بطلميوس وغيره من علماء اليونان ، ويسميها المسعودى "الصورة المأمونية" . ويذكر أن الأرض قد صورت فيها على طريقة بطلميوس ، صور فيها

العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهى أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس وغيرهما (٦٠).

ووضع أبى زيد أحمد البلخى (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) أول أطلس عربى ألحقه بكتابه " صور الأقاليم " الذى لم يصل إلينا نصه الأصلى ، ولكن وصل إلينا برواية أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الأصطخرى فى كتابه " المسالك والممالك " ، الذى اعتمد اعتماداً كثيراً على كتاب البلخى . وتتميز هذه الفترة (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) بأن الخرط التى رسمها هؤلاء الجغرافيون – البلخى والأصطخرى وابن حوقل والمقدسى – كانت إنتاجاً عربياً خالصاً ، وقد أطلق كونراد ميلر K.Miller فى كتابه Mappae Arabicae عليها " أطلس الإسلام " (٦١). الذى يمثل قمة الكارتوغرافيا Cartography عند العرب ، أى فن رسم المصورات الجغرافية أو الخارطات .

ورسم الإدريسى خريطة للعالم المعروف فى عصره ، أكثر دقة من خريطة بطلميوس ، وهى محتوية على منابع النيل والبحيرات الاستوائية التى لم يكتشفها الأوروبيون إلا فى العصر الحاضر . وقد اعتمد الإدريسى على خريطة بطلميوس ، لأنها تشمل الأرض كلها ، وأخذ بنظرية الأقاليم السبعة . ولكن بطلميوس كان يتصور الأرض مسطحة ، وقد رسم خريطته على هذا الأساس ، بينما بنى الإدريسى جغرافيته على أسس علمية صحيحة فرسم خريطته على أساس كروية الأرض وخط الاستواء والأقاليم المناخية التى تتدرج من ذلك الخط إلى القطب(٦٢).

وكان بطلميوس يكتفى بتقسيم الأرض إلى أقاليم أى مناطق عرضية ، والمنطقة الواحدة تدور حول الكرة كلها دون حدود ، مما يصعب معه توقيع الأماكن والأعلام الجغرافية بالدقة ، بينما قسم الإدريسى محيط الكرة طولاً إلى عشرة أجزاء متساوية بخطوط تبدأ من قطب الكرة الأعلى وتنتهى عند قطبها الأسفل ، على طريقة خطوط الطول اليوم ، وبهذا حصل على مستطيلات ، كل منهم يضم مساحة معينة من الأرض وما يقع فيها من الأقطار والمعالم الجغرافية . وقد اتخذ الخط الرئيسى ذلك الخط المار بالجزائر الخالدات فى المحيط الأطلنطى متابعاً فى ذلك بطلميوس . وقد كانت الأطوال قبل الإدريسى أطوالاً فلكية لا جغرافية ، وتصور الفلكيين أن خطوط الطول مستقيمة متوازية (٦٣).

أما بالنسبة لتوزيع البلاد على خطوط العرض ، فقد تبين للإدريسي أن بطلميوس لم يستوف نواحي المعمورة من ناحية ، وأخطأ في وضع نواح في غير أقاليمها من ناحية أخرى، وينتهي في الشمال إلى الجزر البريطانية ، في آخر الإقليم السادس ، واعتبرها أقصى المعمورة ، ولا يضع بعد ذلك شيئًا على الخريطة ، لأنها بحسب ما انتهى إليه علمه بلاد شديدة البرودة لا تسكن . فأكمل الإدريسي الجزر البريطانية وبلاد شمال أوروبا حتى فنلاندا وشمال الروسيا وبلاد اللاب Lappland ووضع ذلك كله في الإقليم السابع . وفيما يتصل بجنوب خط الاستواء ، نجد جغرافية بطلميوس لا تذكر شيئًا جنوب خط الاستواء ، قائلاً أن وراء ذلك بلاداً غير مسكونة بسبب شدة الحرارة، فصوب الإدريسي ذلك ، ومد العمران إلى جنوب خط الاستواء ، ليضع فيه جزيرة سرنديب وما وصل إلى علمه من جزائر بحر الهند ، ثم منابع النيل ومنابع نهر النيجر ، وهو عنده نيل السودان (٦٤).

وفي الوقت الذي كان فيه فن الخرائط عند العرب يقوم على أسس علمية ، كانت الأساطير ذات الطابع الديني من الملامح الأساسية في رسم الخرائط في أوروبا العصور الوسطى . وكان معروفًا في كثير من الأديرة حسب رواية الكتاب المقدس أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة (٦٥) . وكانت المدارس الكنسية في أوروبا التي تعلم الجغرافيا ، دائمًا ما تعارض ما يأتي به العلم ، وبدت الخرائط بعيدة كل البعد عن الحقيقة مثل خرائط بزالتر Psalter (نحو ١٢٠٠م) ، هتيرفورد Heterford (نحو ١٢٨٠م) ، مارينو سانوتو Marino Sanoto (١٣٢١م) ، خريطة بورجيا للعالم Borgian (١٤٥٠م) ، وخريطة إست Este (١٤٥٠م) ، خريطة فرامورا لإفريقيا Fara Maura (١٤٥٩م) (٦٦).

ولكن على الرغم من الأغلال اللاهوتية التي تعرقل رسامي الخرائط في أوروبا ، فإنهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا الخطوات الواسعة ألتي خطاها جيرانهم المسلمون في مجال المعرفة الجغرافية . وقد ظهر أثر الجغرافيا العربية في رسم الخرائط على التفكير الأوروبي ، ويبدو هذا واضحًا في خريطة العالم التي قام بإعدادها مارينو سانوتو في كتابه " الأرض المقدسة " Opus Terrae Santae بين عامي ١٣٠٠ و ١٣٢١م ، وكان مقصده الأساسي من ورائها استثارة حرب صليبية جديدة ، ومحاصرة العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً (٦٧)، ويرى كراتشكوفسكي أن الخريطة ليست سوى تكرار لجميع الخطوط الرئيسية المميزة لخارطة العالم

فى " أطلس الإسلام " مع اختلاف بسيط هو أن مركز الأخير مكة أما الأخرى فكان مركزها بيت المقدس (٦٨). كما أن خريطة إست يبدو فيها تأثير العرب واضحًا ولا تدين بشىء إلى "بطلميوس " (٦٩).

وقد بحث الدكتور حسين مؤنس فى كتابه " تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس " حقيقة الخرائط المنسوبة إلى بطلميوس ، وتوصل إلى أن هذه الخرائط التى تنسب إلى بطلميوس والمتداولة الآن بين الناس ليست أصيلة ، وإنها فى الغالب منقولة عن خرائط الإدريسى ، وأن خرائط بطلميوس ضاعت ولم يعثر عليها ، كما توصل إلى أن الخرائط التى نشرها إيرازموس ومن جاء بعده من الذين تولوا نشر جغرافية بطلميوس وخرائطها ابتكروا هذه الخرائط ورسموها على أساس من خرائط الإدريسى (٧٠).

ومن الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيل أن الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة ترتفع قمتها فى الهند وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها فى مكان آخر يشبه إقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه . وكانت الخريطة التى أوحت إليه هذه الفكرة مباشرة خريطة الكردينال بطرس الإيلى التى سماها صورة الدنيا Imago mundi واعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها فى أوائل القرن الخامس عشر قبل رحلة كولمبس بنحو ثمانين سنة ، وهو فضل يحسب للعرب فى كشف العالم الجديد (٧١).

ومما سبق يتضح أن الخرائط العربية كانت أفضل كثيرًا من خرائط أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى ، إذ أن الخرائط العربية قامت على أساس علمى تجريبى ، بينما كانت خرائط أوروبا تعبر عن الأساطير ذات الطابع الدينى .

وقد عرف ربابنة البحر والملاحين من العرب الخرائط العلمية الملاحية التى كان أهل البحر يستعملونها ويسيرون بمقتضاها ، والمعروفة باسم بورتلانى Portolani ، وأصل هذه الرسوم البحرية يرتبط فى العالم العربى بتلك الرحلات البحرية التى أوغلت فى المياه المفتوحة للمحيط الهندى والشرق الأقصى (٧٢). وذكر المقدسى أن هذه الخرائط كانت تستعمل فى الملاحة فى المحيط الهندى فيقول : " وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشؤا ، من ربانيين واشاتمة – أى ملاحيها – ورياضيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره .... ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها " (٧٣).

وكان ملاحو المحيط الهندى في أواسط القرن العاشر يسافرون اعتماداً على كتب المسالك والخرائط البحرية ، التى كانت وقتئذ بدائية ناقصة ثم تحسنت بعد ذلك في عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م بواسطة المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى (الإفريقى) ، الذى وضع أصول المصورات البحرية العربية ، بعد أن قام برحلة - حوالى عام ٤٠٠هـ - فى مركب الهندى دبوكره Dabawkarah وطاف بسواحل أفريقيا الجنوبية . وستسمى خرائط المسالك البحرية فى مصطلح الملاحين فيما بعد رحمناش أو (رهمانيات) Rahmanach التى عملت فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى (٧٤).

ولم تقتصر معرفة الخرائط البحرية واستعمالها على ملاحى المشرق من المسلمين ، بل عرفها ملاحوهم فى البحر المتوسط ، وهناك خبر عن ملاح أندلسى يعرف بالشيخ القادسى ، كان ماهراً فى هذه الشئون وله بها معرفة واسعة . ويبدو أن الإدريسى رجع إلى أمثال هذه الخرائط البحرية فيما يتصل بحوض البحر المتوسط ، وذلك عندما يتتبع شواطىء إفريقية الشمالية أو ساحل المحيط الأطلنطى فى أوروبا (٧٥).

ومنذ أوائل القرن الرابع عشر بدأ ظهور الرسوم البورتولانية وتداولها فى الموانى الإيطالية، وكانت تتميز بالدقة ، وينسب فضلها إلى الملاحين الإيطاليين والقطلونيين ، وأقدم نموذج منها وهو كارت بيزا Carte Pisan (حوالى عام ١٣٠٠م) ، ثم عرفها القطلان ومن أحسن نماذجها: الأطلس القطلونى سنة ١٣٧٥ Catalan Atlas ، وجاء فيه لأول مرة الوضع الصحيح للصين، بجانب رسم شبه جزيرة الهند على شىء من التقريب . كما صارت ميورقة مركزاً مشهوراً لفن رسم الخرائط ، وكان بعض رسام الخرائط من اليهود ، الذين استفادوا من الخبرة الفنية للمسلمين ، وصوروا بالرسم على خرائطهم الجزر الأطلنطية وخاصة جزر كناريا التى اكتشفها الإيطاليين فى القرن الرابع عشر . ويبدو أن الخرائط البورتولانية الأوروبية متأثرة إلى حد كبير بالرسوم الملاحية العربية التى سبقتها وكانت تستعمل فى الملاحة العربية فى المحيط الهندى على نطاق واسع ، كما يبدو فيها أثر الكتابات الجغرافية العربية واضحاً أيضاً(٧٦)، مما يؤكد أن أصلها عربى ، وأن الملاحون الإيطاليون والقطالونيون قد انتفعوا بما رسمه الإدريسى فى القرن الثانى عشر .

وقد استمر استعمال هذه الرسوم البحرية الإسلامية ، وأقر ماركو بولو (ت ١٣٢٤م) أنه استقى معرفته بساحل سيلان والمياه المجاورة من الرسوم البحرية لملاحى هذه البحار ،

واستخدم كثيراً من أسماء المواضع والجهات برسمها العربى والفارسى (٧٧). كما أن فاسكو دى جاما أخذته الدهشة حينما أطلعه الريان العربى – ابن ماجد – على خارطة ملاحية عربية للساحل الهندى بكامله ، المرسومة بشكل عام كما عند المغاربة ، بخطوط الطول والعرض (٧٨). ويقول سير توماس رو Sir Thomas Roe فى سنة ١٦١٥ : أنه قابل فى مدغشقر المعلم إبراهيم الذى أصلح له لوحة رسمه (٧٩).

وبرغم وضوح الأثر العربى فى الخرائط الأوروبية ، فإن الأوروبيين بعد مطلع عصر الكشوف قد تنكروا لفضل العرب عليهم فى علم الجغرافيا ، وتجاهلوا ذكر أية معلومات مستقاة من مصادر عربية (٨٠).

وقد انتقلت الكتب المخطوطة العربية إلى غرب أوروبا ، وذلك عبر التجار والرهبان الجوالين والدبلوماسيين والمغامرين (٨١)، كما نشطت حركة الترجمة فى أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الكتب العربية ، وانتقلت معارف المسلمين إلى العبرية واللاتينية ثم إلى كثير من لغات أوروبا القومية . وأدى ذلك إلى تأثير الفكر الجغرافى الإسلامى على جغرافية عصر النهضة .

وغزت العلوم العربية من الأندلس إلى أوروبا الغربية ، فقد كانت الأندلس من أهم مراكز التقاء الحضارتين العربية والغربية ، حيث اتصل عالم الإسلام بأوروبا ، وكانت جامعاتها مقصد طلاب العلم من أنحاء أوروبا لقربها من الغرب . وصارت طليطلة مركزاً للثقافة الإسلامية فى القرن الحادى عشر ، واستمر لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى عام ١٠٨٥م ، فكان بلاط ألفونسو السادس مصطبغاً بالثقافة الإسلامية ، وازدهرت حركة الترجمة فى مدرسة طليطلة ، وترجمت إلى اللاتينية عدداً كبيراً من مؤلفات العرب فى العلم والفلسفة (٨٢).

وكانت صقلية أيضاً من المسالك التى نفذت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب ، وقد ارتفع شأن بالرمو بالجغرافيين ، وعمل ملوك النورمان على الإفادة من علوم العرب فاجتذبوا إلى بلاطهم أشهر العلماء العرب ، وقامت صلات ودية بين المسيحيين والمسلمين خلال القرن الثانى عشر أدت إلى اتصال الثقافتين الإسلامية والغربية ، وذيوع المعرفة الجغرافية على نطاق واسع . كما أسس ملوك النورمان جامعة نابلى لنشر الكتب العربية فى العالم الغربى بعد ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وانكب الأوروبيون على دراسة علوم العرب وفنونهم والإفادة منها ، وأدى ذلك إلى تمهيد الطريق إلى النهضة الأوروبية (٨٣).

كما اتصلت أوروبا بالعلم العربي في بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية ، التي كانت ميدانًا للقاء الغرب والشرق . فقد كان للحروب الصليبية نتيجة هامة من ناحية ازدياد حصيلة المعلومات الجغرافية في الغرب الأوروبي ، وأن ذلك قد تم عن طريق التجارب العملية لا عن طريق الاطلاع على كتب الجغرافيين من العرب التي كان يجهلها الغرب إبان العصور الوسطى(٨٤). ووضعت كتابات تضمنت كثيرًا من المعارف عن الشرق ، وكان وصف الطرق المتعددة بين بيت المقدس والغرب الأوروبي هو المحور الأول لتلك الكتابات التي وضعت في ذلك العصر . وظهرت خرائط جغرافية مفصلة لمعالم حوض البحر المتوسط منذ أواخر القرن الثالث عشر – مثل خريطة العالم Mappa Mundi التي وضعت في دير هيرفورد Hereford سنة ١٢٨٠م – والتي تتصف بعدم الدقة (٨٥).

وهكذا تواردت آراء الجغرافيين العرب من هنا وهناك وبطرق عدة على أوروبا دون انقطاع، وتأثرت المؤلفات الجغرافية الأوروبية بالمعرفة المستقاة من المصادر العربية . وهذا يوضح ما كان للفكر العربي من أثر في الغرب الأوروبي ، ودور العرب في الحفاظ على التراث الحضاري القديم ، وفي نقل العلوم القديمة من المشرق والمغرب إلى الغرب الأوروبي . وبدون أفكار الإغريق والرومان القديمة ، وبدون أفكار العرب في العصور الوسطى ، ما كان يمكن للنهضة الأوروبية أن تضع أصول الحضارة الحديثة .

وإلى جانب الجغرافية الوصفية ، تفوق العرب في الجغرافية الفلكية Gosmography وكانت تسمى وقتذاك Astronomical Geography ، وصححوا الكثير من المعلومات الإغريقية ، كما أن العرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينًا مضبوطًا في الخرائط فصححوا بذلك أخطاء علماء اليونان ، كما قاموا بقياس محيط الأرض في عهد الخليفة المأمون في برية سنجار بشمالي العراق وتوصلوا إلى أن مقدار درجة واحدة من وجه الأرض ستة وخمسون ميلاً (٨٦). وتشهد الدكتورة سيجريد هونكه بتفوق العرب في الجغرافيا الفلكية ، فتقول بأنهم نجحوا في قياس أطوال وأعراض كثير من المدن قياسًا دقيقًا ، وإن أخطأت مقاييس بطلميوس في تقدير الدرجات فإن العرب لم يختلفوا إلا في دقيقة أو اثنتين(٨٧).

ولاشك أن تقدم العرب في العلوم الرياضية ساعد على تفوقهم في علم الفلك الذي عنوا به عناية كبيرة ، ووضع في عهد المأمون الجداول الفلكية المسماة " الزيج الممتحن " (٨٨) قد

أعدتها مجموعة من الفلكيين . والزيج هي جداول فلكية وضعها العرب يستدل بها على حركة الكواكب السيارة . وهذا الخلط بين مفهوم الزيج والجغرافية ناشئ عن ارتباط موضوعي الفلك والجغرافية عند المسلمين في أوائل اشتغالهم بالعلم الجغرافي ، وهو ناتج أيضاً عن أخذ الكثيرين منهم بآراء الهنود والفرس في علم الفلك وعن الخلط بين موضوعي كتابي بطلميوس في الفلك " المجسطي " وفي الجغرافية (٨٩).

ومن فلكي العرب كثيرون مثل محمد البتّاني (٣١٩هـ / ٩٢٩م) وقد ذاع صيته في أوروبا تحت اسم Albategnius الذي صحح بعض أخطاء بطلميوس السكندري ووصل إلى نتائج جديدة في المباحث الفلكية ، على أن أهم مؤلفاته هو كتاب " الزيج الصابي " الذي كان له أثر كبير في علم الفلك عند العرب ، وفي تقدم هذا العلم في أوروبا في العصور الوسطى ومستهل الحديثة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية أكثر من مرة في القرن الثاني عشر ، كما أمر ألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) بترجمته من العربية إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر ، ثم نشر في أوروبا عدة مرات في القرنين السادس عشر والسابع عشر وما بعدهما . وكان هذا الكتاب دائرة معارف ضخمة حدد فيها البتاني تقسيم دائرة الفلك وارتفاع القطب الشمالي ومعرفة زيادة النهار ومعرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الأفق ومعرفة عروض البلدان ، ومعرفة ارتفاع الشمس وقت انتصاف النهار ، ومعرفة ارتفاع الكواكب ، وطول السنة الشمسية ، كل ذلك جاء في كتاب البتاني مزوداً بالجداول التوضيحية(٩٠).

ومحمد الفرغاني - الذي عاش في القرن التاسع - من أهم مصنفاته " كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم " ، وقد أرفق بكتابه هذا جدولاً يبين الأماكن الهامة موزعة وفقاً للأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مع تحديد مواقعها الجغرافية . وقد ترجم كتاب الفرغاني إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ، كما ترجم في القرن الثالث عشر إلى لغات أوروبية أخرى (٩١).

وكان البيروني فلكياً مرموقاً وعالماً جليلاً ، زار الهند وأقام بها ودرس علومها وأتقن لغتها . وألف عدة كتب مثل كتاب " القانون المسعودي في الهيئة والنجوم " و " الآثار الباقية عن القرون الخالية " ، وكتب في عدة موضوعات فلكية مثل قياس وتحديد خطوط الطول والعرض ومسافات البلدان ، ودوران الأرض حول محورها ، وأنه سلم بحركة الشمس حول الأرض. كما ابتكر الاصطرلاب الأسطواني الذي لم يقتصر استعماله على رصد الكواكب والنجوم ، وإنما

كان يستخدم كذلك في تحديد أبعاد الأجسام البعيدة وارتفاعاتها عن سطح الأرض (٩٢). وكانت آراء البيروني ومروياته في علمي الجغرافية والفلك شائعة بين الأوروبيين (٩٣).

وكان الملك ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون ، قد شغف بعلم الفلك الذي اتقنه العرب ونبغوا فيه بينما كانت أوروبا حتى ذلك الوقت تجهل هذا العلم تمامًا ، فقد جمع فريقًا من العلماء العرب فأصدروا " الزيج الألفونسي " أي الجداول الفلكية الخاصة بمنازل الشمس والقمر والكواكب والنجوم . وهي مجموعة ملاحظات أخذت في طليطلة ، وقد نسخت منها صور لمساعدة الملاحين الإسبان ، وكثر استعمالها في أوروبا بضعة قرون (٩٤).

وجداول ألفونسو هي في الواقع من وضع الفلكي العربي أبو إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالي الذي اشتهر في الدوائر العلمية بنسبته " الزرقالي " وفي أوروبا الوسيطة باسم Arzchal . عاش في طليطلة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي تقريبًا ، وكان للزرقالي دورًا رئيسيًا في وضع " جداول طليطلة " . وقد ترجم الطبيب الملكي دون إبراهام كتابه إلى اللغة القشتالية فأخذ منه جميع فلكي أوروبا في دراساتهم (٩٥).

ومن بين أعمال الزرقالي العلمية حسابه لطول البحر المتوسط إلى ما يقرب من الواقع . وكان بطلميوس قدره باثنين وستين درجة ، ثم اختزلها محمد بن موسى الخوارزمي إلى ٥٢ درجة ، فاختزلها الزرقالي في " جداول طليطلة " إلى ٤٢ درجة أي ما يعادل طوله الحقيقي بالتقريب(٩٦).

وكان الرأي منقسمًا في أوروبا العصور الوسطى بشأن كروية الأرض ، فهناك آراء شتى تتراوح في تصنيفها بين تصورات الراهب الرحالة كوزماس Comas وبين تردد العقل المسيحي في قبول وجهات النظر الوثنية . فكوزماس في كتابه " الطبوغرافيا المسيحية " ، يصور هيئة الأرض مسطحة مستطيلة ذات زوايا قائمة ، يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ضعف عرضها من الشمال إلى الجنوب ، ويكتنفها المحيط ، وأن هناك جبلاً شاهقًا في الشمال، تلعب الشمس الصغيرة من خلفه لأجل أن يتعاقب الليل والنهار بانتظام ، ومن وراء المحيطات الشاسعة ينبسط الفردوس العظيم . كانت هذه هي الأفكار السائدة قبل المسيحية عن الأرض(٩٧). وقد اعتبر القديس أوغسطس استدارة الأرض مسألة لا يمكن التسليم بها . وكان الفكر الأوروبي غير مستعد لقبول فكرة كروية الأرض ، نتيجة الجهل الناشئ عن الجمود الديني (٩٨)، هذا في الوقت الذي يُجمع فيه العرب على حقيقة كروية الأرض .

وسبحانه الذى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، والذى يناسب تكور كل من الليل والنهار على الآخر كروية الأرض لا تسطحها . وقد أجمع الجغرافيون العرب على أن الأرض كرة سابحة فى الفضاء مثل ابن خرداذبة وابن رستة والمسعودى ، فيكتب ابن خرداذبة " أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة فى جوف الفلك كالمُحَّة فى جوف البيضة"(٩٩).

وابن رسته الذى صنف كتاب " الأعلاق النفيسة " عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م ، أشار إلى دوران الأرض حول محورها ، فيكتب ابن رسته " أن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة ، أجوف دوراً ، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة ، مصمتة فى جوف الفلك ، قائمة فى الهواء يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها ، فهى فى وسطها كالمح فى البيضة " (١٠٠).

وأتى ابن رسته بالبراهين على كروية الأرض فقال : " وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الأرض ، قبل طوعها على المواضع المغربية، وغيبوبتها عن المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التى تعرض فى العلو ، فإنه يرى وقت للحدث الواحد مختلفاً فى نواحى الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رصد بين بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجد وقت كسوفه فى البلد الشرقى منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً ، أقول وجد ذلك الوقت فى البلد الغربى على أقل من ثلاث ساعات ، بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات فى البلد الشرقى على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربى " (١٠١).

ويذكر المسعودى (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٦م) فى كتابه مروج الذهب : " أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك " ، وأثبت كرويتها من دورانها حول الشمس ، فالشمس تشرق من المشرق ، ويعم الضوء نصف الكرة الشمالى ، ويعم الظلام نصف الكرة الجنوبى ، وهى تغرب من الغرب ، حيث يشمل ضوؤها نصف الكرة الجنوبى ، ويظلم النصف الشمالى (١٠٢).

ويذكر المسعودى أيضاً فى كتابه " التنبيه والإشراف " ، أن مغيب الشمس يختلف بحسب اختلاف البلدان فيكون مغيبها فى بلاد المشرق قبل مغيبها فى بلدان المغرب . كما كان طلوعها فى المشرق قبل طلوعها فى المغرب (١٠٣).

فإن آراء المسلمين عن كروية الأرض قد هيأت لعقولهم تصور بلوغ جنوب شرقى آسيا وبلاد الصين عن طريق الإبحار غرباً (١٠٤)، قبل إبحار الأوروبيين غرباً فى المحيط الأطلنطى فى القرن الخامس عشر .

ولو بقى الرأى الغالب على أهل أوروبا عن تسطيح الأرض كما كان قبل شيوع كتب الجغرافيين من العرب – مع إنكار الكنيسة للقول باستدارتها ودورانها – لكان من المتعذر أن يسنح فى فكر كولمبس خاطر السفر إلى الغرب للوصول إلى الأقطار الآسيوية ، ولكن العرب أشاعوا هذه الحقيقة فى الكتب الجغرافية التى كتبوها (١٠٥).

وكان الرأى السائد فى أوروبا يعتبر أن الأرض كوكب ثابت فى مركز العالم ، أخذاً بالنظام البطلميوسى ، وقد تابعهم فى ذلك الجغرافيون العرب الأوائل ، ولكن الشك فى سكون الأرض أخذ يخامر فيما بعد بعض الجغرافيين المسلمين من أمثال أبى سعيد السنجاوى وقطب الدين الشيرازى (١٢٣٦ – ١٣١١م) وأبى الفرج الشامى ، وألمحوا إلى دورة الأرض اليومية ، وقالوا بإمكان حدوث حركة الأرض حول الشمس . وبذلك سبق التفكير العربى الإسلامى التفكير الأوروبى بعدة قرون ، وفتح الطريق أمام إصلاح كوبرنيكوس فى عام ١٥٤٣م (١٠٦).

لقد توفر للعرب الآلات الدقيقة التى اخترعوها أو نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا فيها أو عولجت بمزيد من التحسينات . ومن أهم أدوات القياس التى استخدمها العرب البوصلة أو الإبرة المغناطيسية ، وقد استخدموها فى أسفارهم قبل أن يستخدمها الأوروبيون ، ويصف المقريزى (ت عام ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) فى كتابه الخطط الإبرة بأنها قطعة رقيقة من الحديد الممغطس مجوفة علي شكل سمكة ، فإذا وضعت فى الماء ، تطفو فوق سطحه ، ودارت السمكة تستقبل القطب الجنوبى بفمها . ويذكر المقريزى أن الملاحين فى بحر الهند كانوا يستدلون على الجهات الأصلية عندما لا يرون النجوم ليلاً باستخدام البوصلة . فإذا عرفوا جهتى الجنوب والشمال ، تبين منهما المشرق والمغرب ، وللإشارة إلى القطب الجنوبى دلالة خاصة بالنسبة للملاحة فى المحيط الجنوبى ، فإن من استقبل الجنوب صار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره . فيقصدون حينئذ جهة الناحية التى يريدونها " (١٠٧).

واستخدمت البوصلة بواسطة الصينيين والعرب لمدة طويلة ، ولم تستخدم فى أوروبا قبل القرن الرابع عشر (١٠٨). وتعددت الآراء حول مخترعيها ، فمنهم من يقول بأنها من مخترعات الصين ، وفى ذلك يقول شوموفسكى " ونقلت الملاحة العربية من الخبرة البحرية الصينية

البوصلة (الحقة) ، وطورتها ، واستخدم العرب البوصلة مثلهم مثل الربابنة من السكان الأصليين في الشرق الأقصى ، فى ظروف السماء الغائمة " (١٠٩)؛ وأرجعها بعضهم إلى اليونان ، ويرجع البعض الآخر اختراع العرب لها ، فقال جوستاف لوبون فى كتابه عن الحضارة العربية بأنها اختراع عربى أصيل وهو قول له قيمته ، فإن أعوزته أدلة الجزم القاطع لم تعوزه أدلة الترجيح (١١٠). إن الأقوال التى ترجع بها إلى مخترعات الصين يشوبها كثير من الشك ، ومثلها الأقوال التى ترددها بين الرومان واليونان ، ولم يكن باب الاقتباس مغلقًا بين الصين والعرب فى فنون الملاحة ، إذ كانت السفن تغدو وتروح زمنًا طويلاً قبل الإسلام بين الحيرة العربية وموانئ الصين (١١١).

ويرجع خوان بيرنيث خينيس أن العرب عرفوا البوصلة فى القرن الحادى عشر ، ولكنهم احتفظوا بسر تركيبها الذى كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحرية دون منافسيهم ، إلا أنه من الثابت أن النصوص لم تشر إلى البوصلة حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر ، وذلك عندما أشار " محمد الوافى " فى كتابه " جوامع الحكايات " إلى أن ربانًا ضل طريقه فى الخليج الفارسى أثناء عاصفة هوجاء ، ولم يهده إلى الطريق إلا إبرة على شكل سمكة ؛ وهناك بيلق القبشاقى (ت حوالى عام ١٢٨٢) الذى يروى في كتابه " كنز التجار فى معرفة البحار " - كتبه عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م - أنه فى أثناء الرحلة التى قام بها فى شرق البحر المتوسط ، لاحظ أن الملاحين يستعملون البوصلة أداة للتوجيه ، كما كانوا يجعلون مكة فى الجنوب المغناطيسى ، بمعنى أنه إذا اتجهت الإبرة نحو الجنوب فإنها تسمى القبلة " الجنوب " (١١٢).

ولما كان الإدريسى قد استخدم خرائط الملاحة التى قامت على أساس من استعمال البوصلة فلابد أنه عرف البوصلة واستخدمها فى تحديد الاتجاه فى رسوم هذه الخرائط البحرية . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الفكرة التى تنسب اختراع البوصلة فى أوروبا إلى رجل إيطالى اسمه " فلافيو جيويا" فى القرن الرابع عشر إنما هى فكرة خاطئة ؛ لأنه من الثابت أن أوروبا عرفت البوصلة فى أواخر القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ؛ وأنها عرفتها عن طريق العرب الذين استعملوها قبل ذلك وذكرها الإدريسى فى مؤلفاته . ويكفى أن البوصلة احتفظت باسمها العربى فى كثير من اللغات الأوروبية(١١٣) .

وإذا كان الثابت أن البوصلة اختراع صينى ، إلا أن فضل العرب يتركز فى نقطتين : الأولى أنهم كانوا أول من استخدم البوصلة على نطاق واسع فى الملاحة ، والثانية أنهم هم

الذين نقلوا ذلك الاختراع إلى أوروبا وعلموا الأوروبيين استعمال البوصلة . ذلك أن الصينيين كانوا ضعافًا فى الملاحة ولم نسمع عن قيامهم برحلات بحرية بعيدة عن شواطئهم ، ولذلك لم يستخدموا البوصلة فى الملاحة . وذلك بخلاف العرب الذين أثبتوا أنهم ملاحين مهرة فأسرعوا إلى التفكير فى استغلال البوصلة فى الملاحة (١١٤).

ولما كانت البوصلة لا توضح سوى الاتجاه ، فقد استخدم العرب الاسطرلاب فهو دليل الملاحين فى عرض البحار والمحيطات . والاسطرلاب آلة فلكية أخذها العرب عن الإغريق ، وأدخلوا عليها كثيراً من التحسينات ، تستعمل فى تعيين ارتفاع الشمس والنجوم ، ثم أمكن استخدامه فى حساب الوقت وكذلك البعد عن خط الاستواء . وقد استخدمه كثير من البحارة فى عرض البحار لمعرفة المكان وخط الطول والعرض ، واستمر استخدامه فى تلك العهود حتى اكتشاف " آلة السدس " . وهو يتألف من قرص معدنى مقسم إلى درجات تعين زاوية ارتفاع النجم أو الشمس ، ويدور على هذا القرص مؤشر ذو ثقبين فى طرفيه ويعلق الاسطرلاب من حافته رأسيًا مع توجيه المؤشر نحو الشمس . وعندما تمر أشعة الشمس من هذين الثقبين يقرأ ارتفاع النجم من الحد الذى يقف عليه المؤشر . وظلت قيمة الاسطرلاب عظيمة للملاحين أيضًا حتى حلت محله اختراعات حديثة فى القرن السابع عشر الميلادى (١١٥).

وقد مهر العرب فى صناعة الاسطرلاب ، وحفظ التاريخ اسم الفزارى (ت ٧٩٦م) مخترع هذا الجهاز فى القرن الثامن . ويقال أن الفزارى كان أول من صنع اسطرلابًا من العرب ، وقد عمل فى هذا الميدان أيضًا النيرزى (ت ٩٢٢م) ، والزرقالى (ت ١٠٨٨م) ، وقد كان لصفيحة الزرقالى أبعد الأثر فى أوروبا (١١٦) .

وقد صنع الخوقندى (ت ٣٨٢هـ / ٩٩٢م) الذى عاش فى بلاط فخر الدولة البويهى جهازًا عرف باسم " سداسى الفخرى " يستخدم فى معرفة ارتفاعات الأماكن ، وكان هذا أساس الجهاز الحديث المعروف باسم جهاز السداسى أو " صندوق سكستان " . وكان فى مرصد شرف الدولة فى بغداد (حوالى ألف ميلادية) كثير من مهرة صناع الأجهزة العلمية الدقيقة اشتهر منهم الصاغانى ورستم الكوهى . وقد عرف الأوروبيون الاسطرلاب من المصادر العربية(١١٧).

وبوصول هذه المعلومات والنتائج التى توصل إليها العرب فى علم الفلك إلى أوروبا أخذ اهتمام الأوروبيين يزداد بذلك العلم . وبفضل هذه الأدوات والخبرات والمعلومات التى قدمها

العرب ، أصبح الأوروبيون فى أوائل العصور الحديثة مزودين بجميع المؤهلات البحرية اللازمة لتحقيق مشروعاتهم الكشفية منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد شاهد الرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما هذه الأجهزة التى أدهشته بدقتها ، عندما دار حول رأس الرجاء الصالح ، عام ١٤٩٨ ، وقابل شمال موزمبيق سفنًا عربية تحدث عنها قائلاً " إن ربابنتها يملكون بواصل لتوجيه السفن ، وأجهزة للمراقبة ، وخرائط بحرية " (١١٨).

وقد أدى تقدم فن الملاحة البحرية العربية إلى دفع حركة الكشوف الجغرافية ، ويعتقد بعض المؤرخين أن الكشوف الجغرافية بدأت من القرن الخامس عشر ، وأن الفضل فى هذه الكشوف يرجع إلى الأوروبيين فقط . والواقع أن الأوروبيين وإن كانوا قد قاموا بكشوف جغرافية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فإنما أتموا جهوداً سابقة لشعوب الشرق ، واستفادوا من جهود وخبرة هذه الشعوب فى نشاطهم الكشفى .

فقام المصريون القدماء بمحاولات كشفية فى حوض النيل ، وفى البحر المتوسط حيث وصلوا إلى كريت ، وفى البحر الأحمر حيث وصلوا إلى الصومال . كما قام الفينيقيون بكشوف واسعة ، إذ ارتادوا الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، ثم امتد نشاطهم إلى الجزء الغربى ، وأنشأوا المستعمرات على سواحله ، ومنها مستعمرة قرطاجنة بشمال إفريقية ، بل إنهم جاوزوا البحر المتوسط ، ونفذوا إلى المحيط الأطلنطى . فقد قام الفينيقيون بتكليف من نخاو (٦٠٩ - ٥٩٤ ق.م) فرعون مصر برحلة استكشافية سارت حول إفريقيا ، وأبحر الفينيقيون وساروا جنوباً مارين ببلاد الصومال وكينيا إلى ساحل ناتال الحالية ، ثم أقلعوا إلى رأس الرجاء الصالح ، وساروا حول الساحل الجنوبى ، وواصلوا العودة متجهين شمالاً فى محاذاة ساحل إفريقيا الغربى حتى مضيق جبل طارق ، ومن ثم ساروا فى البحر المتوسط فى محاذاة الساحل الإفريقى حتى وصلوا إلى الدلتا (١١٩). وقد دفع النشاط التجارى اليمنيين إلى معرفة الطرق البحرية الموصلة إلى الهند وماوراءها .

وبعد أن كون العرب الدولة العربية الإسلامية ، جابوا كثيراً من جهات البر والبحر فى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وسجلوا أخبارهم ومعارفهم عنها للإفادة منها . ففي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، بلغ التجار والرحالة المسلمون بلاد الهند والصين براً وبحراً ، وسجل لنا بعضهم وصفًا عن هذه البلاد . وقد كتب الرحالة ابن خرداذبة فى عام ٨٤٦م دليلاً للتجارة والمسافرين ، للاسترشاد به فى رحلاتهم البحرية من بلاد العرب إلى الهند والصين . واستقرت جماعات إسلامية فى بعض موانى الصين ومنها " كانتون " قبل أن يصل إليها البرتغاليون

بأكثر من أربعة قرون . وعرف العرب كذلك جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) والملايو ، ونزلوا أراضيها للتجارة ، واستقرت بها جاليات من العرب قبل وصول البرتغاليين والهولنديين إليها بثلاثة قرون.

كذلك وصل التجار العرب إلى سواحل إفريقيا الشرقية حتى أقصى الجنوب قبل أن يصل إليها البرتغاليون بعدة قرون ، بل إن فاسكو دى جاما قام برحلته الطويلة حول إفريقيا فى آخر القرن الخامس عشر ، واستعان بأحد البحارة العرب المقيمين فى ساحل إفريقيا ليرشده إلى الهند .

ومن شمال إفريقيا وصل العرب إلى السودان ، وعرفوا طرق القوافل الهامة عبر الصحراء الكبرى ، ووصلوا إلى حوض السنغال وحوض النيجر ومشارف ساحل غانة . وقد سجل لنا ابن بطوطة بعض مشاهداته فى تلك الجهات فى القرن الرابع عشر الميلادى .

إن البحارة العرب فى القرون الوسطى لم يكونوا جميعهم من أصل عربى ، ولم يكونوا مسلمين فقط ، فكان فى عداد نوتية السفن البربر والأقباط والفرس وحتى الهنود (١٢٠) . وقد أشاد بفضل العرب فى فنون البحر والملاحة فى العصور الوسطى بعض المستشرقين ، ويقول الجغرافى الألمانى تيوفيل فريدريخ إيرمان (ق ١٨) عن الإبحار العربى " فى تلك الأزمان عندما كانت كل أوروبا ما تزال غارقة فى سباتها ، عندها اعتبر العرب أمة المهارة المحبة المتمرسة بالتجارة البحرية " (١٢١).

كان المحيط الهندى قد صار سبيلاً مطروقًا لدى البحارة العرب ، وكان إقلاع السفن يتأثر مباشرة بتغير الفصول ، فالرياح الموسمية تجلب معها فصل الأمطار بما فيه من زوابع عاتية وطقس ردىء ، كما كانت هناك أعاصير متتالية تتبع اتجاه الرياح الموسمية ، ومن أجل ذلك كان إبحار السفن فى مياه بحر العرب وما جاورها – سواء صوب الشمال أو الجنوب – يعتمد على اتجاه الرياح الموسمية . وكان العرب أعلم الناس وأخبرهم بالأنواء ومهاب الريح والمد والجزر ، ويتحدث المسعودى مثلاً عن الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ومواعيد هبوبها وأثرها فى الملاحة ، فيقول : " ولكل من يركب البحار – بحر الصين والهند وفارس وعمان – من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون فيها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها إبان هيجانه وأحوال ركوده " (١٢٢).

وكان الربابنة العرب يعرفون جيداً حوض البحر الأحمر ، الذى مخروه بسفنهم المحملة بالبضائع والحجاج بموانى اليمن والحجاز ، واتسعت هذه الممارسة إلى حد كبير فى عهد الخلافة وهناك خارطة تفصيلية دقيقة للبحر الأحمر مرسومة فى المخطوطة الأساسية لأحمد بن ماجد (١٢٣).

ومن الربابنة المهرة الذين قادوا السفن بين شبه الجزيرة العربية وإفريقيا برزت شخصيات محمد بن عمر ، ماجد بن محمد وأحمد بن ماجد (١٢٤)، وهم يمثلون ثلاثة أجيال من أصل الإرشاد البحرى النجدى ، الذى يعود فى نسبه إلى مركز شبه الجزيرة العربية .

واستخدم العرب البوصلة التى كانت دليل الملاحين الذين يقصدون سيلان أو بحار الصين ، كما استعملوا الاصطرلاب فى ركوب البحر ، وآلات فلكية دقيقة لرصد حركات الكواكب والنجوم ، وتوصلوا إلي استحالة قياس حركات النجوم من على المركب ، نظراً لحركة الأمواج والرياح ، واستخدموا مواقع النجوم للتعرف على الجهات الأصلية في عرض البحر (١٢٥). فعندما يكون الجو صحواً ، فإن الاتجاه بالنظر إلى النجوم ليلاً أو إلى الشمس نهاراً ، ولكن عندما يغيم الجو يستعين الربابنة بالإبرة التى تشير إلى الجنوب ، كما عرف العرب دلائل الاقتراب من اليابس (١٢٦).

ونقل الأوروبيون إلى لغاتهم كثيراً من أسماء النجوم العربية ، كما انتقلت كثير من المصطلحات البحرية والتجارية إلى اللغات الأوروبية بنطقها العربى . فمن المصطلحات البحرية admiral من أمير البحر ، Tare من طرح السفينة ، arsenal من دار الصناعة ، felouque من الفلك ، Calfate هو الجلفطة ، Risk من كلمة رزق (١٢٧) . فرياح الموسم يسميها الفرنسيون Musson ، والإيطاليون Mousone . والنواتية يسميهم الفرنسيون Nauton-niers . والملاحون العرب يسمون ضجيج البحر بالهول ، فقال الفرنسيون – قياساً على ذلك – Houle . وربط العرب مراكبهم بالحبال أو الأمراس أو المرار (جمع مر) ، فسمى الإيطاليون الحبل Amarrage كما قالوا Amaner وتوسع الفرنسيون فقالوا Amarra (١٢٨).

ومن المؤلفات الجغرافية عن الملاحة البحرية العربية هناك مغامرات التاجر سليمان التى قام بها إلى الهند والصين فى القرن التاسع ، والمعلومات التى أمدنا بها أبو زيد السيرافى عن الهند وإفريقيا فى بداية القرن العاشر فى كتاب " سلسلة التواريخ " (١٢٩).

وهناك أيضًا سليمان بن أحمد بن سليمان المهرى ، وكان معاصرًا لابن ماجد ، وله كذلك بعض المؤلفات فى الملاحة كتبت فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، منها كتاب " العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية " ، وفى هذا الكتاب تناول فصول من علم الفلك البحرى ، والطرق البحرية فى بحر العرب ومياه شرقى إفريقيا وسواحل خليج البنغال والملايو والهند الصينية ، والطرق خلال كثير من جزر المحيط الهندى ، والرياح الموسمية فى المحيط الهندى . وقام بترجمة كتاب المهرى سيدى على بن الحسين المتوفى عام ١٥٦٢م وهو من أمراء البحر الأتراك (١٣٠).

وقد ترك ابن ماجد وثائق هامة للملاحة فى البحار الشرقية ، أهمها كتاب " الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد " . وفرغ من كتابته عام ١٤٩٠م / ٨٩٥هـ ، وهو مؤلف فنى ضخم يتناول أصول الملاحة ، وقد جمع فيه خبراته الواسعة التى اكتسبها عن هذه البحار من تجاربه الشخصية وممن سبقوه . ونشره المستشرق الفرنسى جبرائيل فران عام (١٩٢١ - ١٩٢٣م)، ويشمل الكتاب اثنى عشر فصلاً ، يتحدث فيها ابن ماجد عن نشأة الملاحة والإبرة المغناطيسية ، وصفات الربان والمتطلبات المهنية والأخلاقية للمرشد البحرى ، والمحطات القمرية (النجوم والبروج ودائرتها القمرية) ، وجهات دائرة الرياح ، ويتحدث الجغرافيين والفلكيين القدماء ، والطرق البحرية فى المحيط الهندى ، ورصد النجوم ، وخطوط عرض عدد من الموانى فى المحيط وبحر الصين الغربى ، وعلم العلائم أى حساب دلائل الاقتراب من اليابس ، وسواحل إفريقيا وآسيا ، وأهم عشر جزر فى العالم ، والرياح الموسمية ، ودليل البحر الأحمر ويذكر بالتفصيل مراسيه وشطآنه وشعابه . وقد قيم غبرائيل فران كتاب " الفوائد " بأنه عمل إبداعى متقن لمجموعة معارف عن البحر فى العصور الوسطى ، ومؤلفه وصف البحر الأحمر بدقة وتفصيل لا يفوقه أى عمل أوروبى فى مجال الملاحة (١٣١).

وكانت الكتب العربية البحرية دليل الإبحار البعيد المدى وليس إبحار المساحلة ، تتضمن جدولاً للمرافئ الصغيرة والكبيرة المنتشرة على مختلف سواحل المحيط الهندى مع تثبيت أبعاد المسافات عنها وارتفاع الكوكب المحدد فوقها . وتتناول كتب الإرشاد البحرى الوصف التفصيلى للمجرى مع التنويهات الضرورية لنقاط تبديل المسار ، وذكر أنواع من الرياح الموسمية الإقليمية ، وفترات الإبحار التقويمية المتعلقة بها . وحددت الملاحة تواريخها على أساس أيام السنة الشمسية (النيروز) ، على خلاف مجال الحياة السياسية والمدنية ، التى كانت جميع أحداثها تؤرخ وفقًا للتقويم القمرى (١٣٢).

وكـان للعـرب في المغـرب والأندلس نشـاط بحـرى فى المحـيط الأطلنطى الذى اقتـرن فى أذهانهـم " ببـحـر الظلمـات " . وارتادت سـفنهم جـزر المحـيط الأطلنطى القـريبـة من شـواطىء إفريقية الغربية . وقام المسلمون بمحاولات عديدة للكشف فيه أكسبتهم معرفة بجزر آزور وكناريا . كل هذا قبل أن يصل الأوروبيون إلى تلك الجهات فى العصر الحديث .

وهناك نصوصاً كثيرة تدل على أن خروج المسلمين من إسبانيا فى اتجاه الغرب أو الجنوب بمحاذاة إفريقية كان أمـراً كثير الحدوث ، قال خوان بيرنيت فى مقالة عن الأصل العربى للخرائط الملاحية : " بأن معلومات ملاحى المحيط الهندى عن السواحل الإفريقية الأطلنطية لا ترجع فقط إلى المعلومات التى أمدهم بهـا البـرتغـال بعد رحلة فاسكو دى جاما ، وإنما من الممكن أن يكون مـلاحو الأندلس والمغرب فى الزمن القديم كما يقول ابن ماجد ، قد وصلوا المحيط الهندى بعد أن طافوا بإفريقية ووصلوا رأس الرجاء الصالح ، وزارت سفنهم بعد ذلك سفالة فى بلاد الزنج وهى تقع على خط عرض ٢٠ جنوبياً ، أى أنها قريبة نسبياً من الطرف الجنوبى لإفريقيا . وكانت سفن المسلمين المشارقة تفد على هذا الميناء ابتداء من القرن التاسع الميلادى (٣هـ) على الأقل ، وهناك كانوا يلتقون بإخوانهم المقبلين من الأندلس والمغرب(١٣٣).

ويروى لنا المسعودى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا منهم ، ومن تلف وما شاهدوا منه ، ومـا رأوا . وإن منهم رجلاً من أهل الأندلس يقـال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها ، فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم فى مراكب استعدها فى هذا البحر المحيط . فغاب فيه مدة ثم عاد بغنائم واسعة . وخبرة مشهورة عند أهل الأندلس(١٣٤).

ورحلة سليم الأسوانى (حوالى ٣٦٤ هـ / ٩٧٥م) الذى وصل إلى قلب إفريقيا عن طريق المحيط الأطلنطى (١٣٥).

وقد أمدنا الإدريسى بالخبر المشـهـور الذى رواه عن هذا النفر من أهل مدينة الحمَـة الأندلسية ، الذين خرجوا من ثغر أشبونة (حوالى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) فى مـركب كبـيـر مشـحـون بالزاد والماء يكفى لأشـهـر . وساروا فى بحـر الظلمـات (المحيط الأطلنطى) ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ، ولهم بأشبونة موضع بقرب الحمة منسوب إليهم، يعرف بدرب المغـررين . ووصلوا إلى جـزيرة الغنم ، ثم سـاروا بعـد ذلك جنوباً حتى وصلوا جزيرة أخرى بعد اثنى عشر يوماً ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفاف البحر ، فأنزلوا بها ، فرأوا فيها رجالاً شقراً زعراً شعورهم سبطة ، فاعتقلوا فى بيت ثلاثة أيام ، ثم

دخل عليهم رجل يتكلم باللسان العربى وأعلمهم أنه ترجمان الملك . وقد أخبروا الملك أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار ويقفوا على نهايته ، واستمروا فى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الرياح الغربية ، فمر بهم زورق وجرى بهم فى البحر ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى البر عند مدينة أسفى فى أقصى المغرب ، ثم عادوا إلى أشبونة (١٣٦). ويرجح الدكتور حسين مؤنس أن الجزيرة الأولى التى وصلوا إليها هى إحدى جزر أزور (أى الجزائر الزرقاء) ، وأن الجزيرة الأخرى هى إحدى جزر كناريا ، أى جزر السعادات (١٣٧).

وهناك أيضًا رحلة ابن فاطمة (ت ٧٣١ هـ / ١٣٣١م) التى وصل فيها إلى ما بعد الجبل الأبيض (رأس برانكو Branco) بمحاذاة ساحل إفريقيا الغربى (١٣٨).

كانت هذه محاولات العرب لاستطلاع المحيط الأطلنطى ، ولكنهم لم يصلوا منه إلى نهاية ، وانتهوا إلى جزائر الأزور وكشفوا سواحله إلى أقصى الجنوب ، وتؤكد أن العرب كانوا أسبق من البرتغاليين فى اقتحام المحيط الأطلنطى .

واتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن العرب عرفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كولمبس ، واشهر من قال بذلك الأب أنستاس مارى الكرملى صاحب البحوث الطويلة فى مشتقات الألفاظ وتواريخها ، وأشار إلى أن العرب سبقوا سائر الأمم فى معرفة تيار الخليج الحار فى المحيط الأطلنطى ، وأن كولمبس عاد من أمريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذى يخلط به أهل غانة الإفريقية ، وأن لغات الهنود الحمر تشتمل على كلمات عربية . ولكن القول بوصول العرب إلى العالم الجديد يحتاج إلى أدلة أقوى من هذه الدلائل . ويذكر الأب أنستاس الكرملى أن كولمبس كان مدينًا بالفضل فى معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس الميلادى ، وبذلك ينكر فضل العرب فى الكشوف الجغرافية (١٣٩).

وكان تقدم فن الملاحة البحرية ورسم الخرائط فى إيطاليا نتيجة اتصال الإيطاليين بالعرب ، قد أفادت منه إسبانيا والبرتغال فى نشاطهما فى ميدان الكشوف الجغرافية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فقد تقدمت فنون الملاحة وأدواتها ، وتحسنت صناعة السفن فى أوروبا ، واستخدم البحارة البوصلة والاسطرلاب ، والخبرة بالرياح وتيارات مياه المحيط ، وشجاعة ومهارة القواد والملاحين ، وجشع رجال الدولة والتجار من أجل الذهب والسيادة ، ورغبة رجال الكنيسة والعلمانيين لنشر العقيدة المسيحية . كل هذه العوامل دفعت المخاطرين مبكرًا فى مياه الأطلنطى (١٤٠). بالإضافة إلى اتساع المعرفة الجغرافية ، وانتشار بعض

الأفكار الجديدة مثل كروية الأرض ، كما أن المغامرات البحرية السابقة للعرب في المحيط الأطلنطي ، كانت ضمن الحوافز التي شجعت البحارة البرتغاليين ، وفي مقدمتهم الأمير هنري الملاح ، على القيام برحلاتهم البحرية في المحيط الأطلنطي منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

وكان بلاط الأمير هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) - ابن حنا ملك البرتغال - قد صار مركزًا لدراسة الملاحة والجغرافية (١٤١). وقام البرتغاليون بعدة محاولات للوصول إلى الهند ، ولكنهم واجهوا صعوبات كثيرة في الوصول إليها . ففي عام ١٤٤٦م سار البرتغاليون بقيادة الأمير هنري بمحاذاة ساحل إفريقيا الغربي ، ووصلوا إلى مصب السنغال وساحل غانا (١٤٢).

وفي عام ١٤٨٨م سار بارثلميوديياز Bartholmeu Dias في محاذاة الساحل الإفريقي الغربي إلى جنوب إفريقيا وإلى منطقة أطلق عليها اسم رأس العواصف C.Offtormentoso، ولكنه أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح ، ولاحظ دياز أن ساحل القارة ينحرف في اتجاه الشمال الشرقي فعاد إلى أشبونة (١٤٣).

وفي عام ١٤٩٧ خرج فاسكو دي جاما من أشبونة قاصدًا الهند ، ووصل إلى رأس الرجاء الصالح ودار حوله ، ثم اتجه شمالاً في محاذاة شاطيء إفريقيا الشرقي ، حتى بلغ ماليندي Malindi في مملكة كامبيا (كينيا الحالية) . وطلب من ملك ماليندي ربانا يقوده إلى الهند ، ونصحه ملك ماليندا بالاستعانة بربان عربي خبير بالمحيط والملاحة فيه . ويروي المؤرخ البرتغالي جواو دا باروش (من القرن السادس عشر) - مؤرخ رحلة فاسكو دي جاما - أن فاسكو دي جاما قد سر أثناء حديثه مع الملاح العربي ، الذي أطلق عليه باروش اسم المعلم فانا أو قانا Malemo Cana - أي أستاذ الملاحة التنجيمية - من سعة معلومات مرشده ، وخاصة عندما أطلعه هذا الملاح على خريطة الساحل الهندي بكامله ، مرسومة على غرار خرائط المسلمين المبين بها درجات الطول والعرض مفصلة غاية التفصيل . وعرض فاسكو دي جاما على الملاح العربي الإسطرلاب الخشبي الكبير الذي أحضره معه وغيره من الإسطرلابات المعدنية التي يقاس بها ارتفاع الشمس . ولم يبد المسلم أية دهشة لدى رؤية هذه الأدوات ، وأخبره أن الربابنة العرب في البحر الأحمر يستخدمون أجهزة من النحاس مثلثة الشكل ومزاول لقياس ارتفاع الشمس والنجم القطبي الذي يسترشدون به كثيرًا في الملاحة ، كما يهتدون بعدد من النجوم . ولهذا الغرض يستخدمون جهازًا آخر أطلعه عليه وهو مؤلف من ثلاثة ألواح (١٤٤).

وبعد هذا الحوار وغيره مع المرشد العربي ، أمر فاسكو دى جاما بالإبحار إلى الهند على الفور ، مصطحباً معه الملاح العربي ، ليعاونه فى عبور مياه المحيط الهندى ، وكان ذلك فى الرابع والعشرين من أبريل ١٤٩٨م ، ووصل ساحل الهند الغربي فى اليوم السادس والعشرين للإبحار من ماليندا ، أى فى العشرين من مايو ، ونزل مدينة قاليقوط الهندية (١٤٥).

ويختلف الكتاب حول اسم الربان العربي المسلم الذى أرشد فاسكو دى جاما إلى الهند ، ولكنهم يجمعون على أنه عربياً . ولاشك أن ماليمو كانا هو نفسه أحمد بن ماجد . ويؤيد هذه الرواية نص عربى ورد فى كتاب " البرق اليماني في الفتح العثمانى " لقطب الدين النهروانى (١٥١١ - ١٥٨٢م) ، وذكر اسم الربان هو أحمد بن ماجد ، الذى وضع خبرته تحت تصرف البرتغاليين ، ونصحهم قائلاً : لا تقربوا الشاطىء عند هذا الجزء (الشاطىء الشرقى لإفريقيا إلى الشمال من مالندى) بل أديروا الدفة رأساً صوب البحر المفتوح فتبلغوا الشاطىء (شاطىء الهند) وتكونوا فى حمى من الأمواج . فلما اتبعوا هذه الإرشادات نجا كثير من السفن إلى بحر الهند الغربية (١٤٦).

وهذا دليل على أن العرب لم يقتصروا على المساحلة فى إبحارهم ، وأن الملاح العربى ابن ماجد هو صاحب الفضل فى وصول البرتغاليين إلى الهند . وكانت نتيجة هذه المعاونة فرض السيطرة البرتغالية على المحيط الهندى ، وتحطيم الإبحار العربى ، وانتزاع التجارة من أيدى العرب ، والتى كانت الهدف الأساسى للكشوف البرتغالية .

ونقلت عبر البحر من الشرق إلى أوروبا بضائع الهند وأهمها الأحجار الكريمة والذهب والتوابل ، بالإضافة إلى المخطوطات العربية وكان من ضمنها كتب الإرشاد الملاحية والخارطات البحرية . واعتماداً على معطياتها تم تصميم الخارطة البرتغالية الجغرافية للمحيط الهندى فى القرن السادس عشر ، وكذلك توصيفات المرشدين المزامنة لها لهذا الحوض (١٤٧).

ويعود الفضل فى نجاح حملات الأمير البرتغالى فاتح سواحل الخليج العربى المعروف ألفونسو البوكيركى Alfonso de Albuquerque ، إلى الخارطة البحرية التى صممها الربان البحرى عمر ، والتى انتقلت إلى أيدى البرتغاليين عن طريق ربان عربى آخر وقع أسيراً فى شواطىء سوقطرة ، وقد أرسل البوكيركى مع تقريره لبلاط أشبونة (لملك البرتغال) فى عام ١٥١٢م نسخة عن الخارطة الأخرى للطرق البحرية فى المحيط الهندى ، التى نفذها أحد البحارة من جاوة موضح عليها رأس الأمنية الطيبة (الرجاء الصالح) ، والبرتغال والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر ملوقة Matacca (ملوك) فالممرات الملاحية إلى الصين (١٤٨).

وبينما كان البرتغاليون يتلمسون سبيلهم إلى الهند ، أواخر القرن الخامس عشر ، عن طريق الدوران حول إفريقيا ، تقدم البحار الإيطالى كريستوفر كولمبس إلى ملكى إسبانيا إيزابيلا وفرديناند ، بفكرة إمكان الوصول إلى الشرق بالإبحار غرباً . وكان كولمبس يؤمن بكروية الأرض ، ولكنه كان يعتقد - معتمداً على خريطة بطلميوس - أن المسافة بين إسبانيا والهند ، من ناحية الغرب قصيرة ، فقد حدد بطلميوس محيط الأرض أصغر من الحجم الحقيقى (١٤٩) . وأدرك كريستوفر كولمبس أن البلاد التى زارها ماركو يمكن الوصول إليها بالإبحار ناحية الغرب (١٥٠).

ويمكننا القول أنه كان لبطلميوس وللعرب فضل كبير فى الكشف الذى حققه كولمبس. فكان خطأ بطلميوس فى تحديد محيط الأرض ، قد أعان كولمبس على تدعيم اعتقاده فى الوصول إلى آسيا فى أيام قلائل . واستمد كولمبس فكره عن كروية الأرض من الفكر العربي ، ومن المؤلفات العربية وخاصة فى الجغرافية والفلك ، وأثبت صحة النظرية العربية بكروية الأرض . ولكن الأوروبيين سجلوا قصة الكشوف الجغرافية دون أن يشيروا إلي فضل العرب عليهم .

ثم أكدت رحلة ماجلان عام ١٥١٩م على أن الأرض كروية ، وأن حجم الكرة الأرضية أكبر بكثير مما تصور الناس (١٥١).

ويمكن القول بأن هذه الحملات الصليبية البحرية المتأخرة والتى يطلق عليها اسم الكشوف الجغرافية أدت إلى سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندى واحتكارهم تجارة الشرق ، وتقويض مركز العرب التجارى ، كما أتاحت للأوروبيين فرصة تكوين المستعمرات ، وانتعاش الحالة الاقتصادية فى أوروبا .

وبعد هذا العرض المتقدم فى الصفحات السابقة ، يتضح أن فضل العرب على العلم الجغرافى فى العصور الوسطى يفوق فى الحقيقة كل ما كتب أو قيل إلى يومنا هذا ، وقد تخصص عدد من المستشرقين فى دراسة الجغرافية العربية ، واعترفوا بجهود العرب فى اتساع المعارف الجغرافية فى العصور الوسطى ، واعترف بعضهم بتأثير الفكر العربى على الفكر الأوروبى فى هذا المجال . ففى الوقت الذى حلت فيه الخرافات والأوهام على الفكر الأوروبى ، كان العرب يجوبون البحار ، ويترجمون كتب الجغرافيين القدماء ، ويضيفون إليها ، ويصنفون فى علم الجغرافيا .

وكان العرب والمسلمون فى العصور الوسطى هم حلقة الوصل بين القديم والحديث ، فحافظوا على التراث القديم وأضافوا إليه ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية ، واستمرت جهودهم فى تطوير الفكر الجغرافى حتى عصر النهضة والكشوف الجغرافية . وقامت الحضارة الإسلامية بدور هام بين الحضارات القديمة وحضارة العصر الحديث والربط بين القديم والحديث . واستمدت الحضارة الأوروبية الحديثة أصولها من الحضارة الإغريقية والرومانية القديمة ، والحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى .

كان للعرب دور ملحوظ فى الجغرافيا الوصفية التى تتناول وصف البلاد والمدن والأنهار والجبال وحالة السكان ، كما كتبوا فى المسالك والممالك أو كتب تقويم البلدان . وقد ربط العرب بين الجغرافية والفلك ، وكانت لهم محاولات فى الجغرافيا الرياضية الفلكية ، وخاصة فى تحديد الطول والعرض ومسافات البلدان ، وأصلحوا جداول بطلميوس للمدن وأضافوا إليها بأسماء أجزاء من العالم لم تكن معروفة فى العهدين اليونانى والرومانى مثل اتصال الهند بالصين . أما عن فن الخرائط ، فقد حفظ العرب التراث القديم ، وأسهموا فيه أيضاً بنصيب ملحوظ ، على أن مسألة تصميم الخرائط لم تكن يسيرة .

لقد أعطى العرب وصفاً كاملاً لجميع البلدان من إسبانيا وحتى تركستان ومداخل الهند ، وتعداداً دقيقاً للمراكز السكانية مع توصيفات للمساحات الزراعية والصحارى ، وأماكن تواجد الثروات الباطنية ، وتجاوزت معلوماتهم بشكل واسع حدود العالم المعروف من قبل اليونانيين . ويقيم علم الاستشراق المعاصر المؤلفات الجغرافية العربية بأنها " غنية ومتنوعة ، علمية حيناً وشعبية وتقنية حيناً آخر ، وخرافية ومسلية ووعظية ، أنها تعطى تجمعاً للمواد يصعب أن نجد مثلاً له فى ذلك العصر " (١٥٢).

ولايزال كثير من المؤلفات العربية المرجع الوحيد الذى يمكن أن يستمد منه أوصاف كثير من بقاع الأرض التى كان للعرب الفضل الأول فى ارتيادها . ومن هذه المراجع كتاب البيرونى " وصف الهند " ، وكتاب ياقوت الحموى " معجم البلدان " ، وكتاب رحلة ابن بطوطة . كما تأثرت الكتابات الغربية بما كتبه العرب مما يؤكد وصول دروس العلم العربى إلى الغرب .

فقد كان هناك اتصال مثمر بين أوروبا وعالم الإسلام فى العصور الوسطى . فكان هناك الصراع والقتال الذى استمر قروناً عديدة ، ولكن أيضاً ترتب عليه الاتصال التجارى ، والذى يسر مرور البضائع وكذلك الآراء والمعارف والمعلومات عن العالم المعروف وقتذاك . فيقول فيشر

اتسعت معلومات الصليبيين في الجغرافيا سواء بسبب الحروب الصليبية نفسها أو نتيجة للرحلات التبشيرية التى أعقبتها (١٥٣).

أما عن فضل العرب فى ميدان الكشف الجغرافى ، فقد سبق العرب الأوروبيين فى كشف مجاهل القارة الإفريقية ، ومعرفة منابع النيل ، كما اكتشف العرب أسرار الملاحة فى المحيط الهندى وجزر الهند الشرقية وشواطىء الصين ، وقاموا بعدة محاولات للكشف فى المحيط الأطلنطى . ولاشك أن ما كتبه الجغرافيون العرب فى صقلية والأندلس قد أفاد المكتشفون الأوروبيون ، وقد ظهر أثر الفكر العربى واضحًا فى خرائط الملاحة الأوروبية ، وبرغم ذلك ينكر بعض الكتاب الغربيين جهود المسلمين فى البعث الجغرافى فى أوروبا .

ولما ارتبطت الملاحة بالتجارة ، كما ارتبطت التجارة بحركة الكشوف ، فقد سارت التجارة وراء كشف طريق رأس الرجاء الصالح . فى الوقت الذى كان نجم العرب قد أخذ فى الأفول ، بسبب ما دب فى صفوفهم من الانقسام المذهبى والسياسى ، وبسبب العزلة التى فرضها الأتراك العثمانيون منذ القرن السادس عشر . " وتلك الأيام نداولها بين الناس " .

الهوامش

١ – كرامرز ، دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ، مركز الشارقة ، ١٩٩٨م ، جـ١ ، مادة جغرافيا ، ص ٣٠٢١ .

٢ – جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، دار الهلال ١٩٥٨م ، ص ١١٢ .

٣ – هونكه ، شمس الله على الغرب ، فضل العرب على أوروبا ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

٤ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان ، دار القلم بالقاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٣٦ .

٥ – محمد محمود السروجي ، معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، الإسكندرية ١٩٦٧م ، ص ٥٠ .

٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ٢٢ – ٢٤ .

٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٤ – ٢٥ .

٨ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة ١٩٦٩م ، ص ٤٩ .

٩ – مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جغرافيا ، جـ١٠ ، ص ٣٠٧٠ .

١٠ – قام بترجمة المجسطي الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب (ت ٢٢٠هـ) ، وقيل في رواية أخرى أن سهل بن ربان الطبري (ت٢٣٦هـ) هو الذي قام بترجمته ، وراجعه الحجاج ، ثم تولى مراجعته بعد ذلك حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ) ثم ثابت بن قرة (ت ٢٨٩هـ) ومن بعدهما محمد بن جابر بن سنان القباني . نفيس أحمد ، المرجع نفسه ، هـ١ ، ص ٢٦ .

11 - Newton, Travel and Travellers of the Middle Ages, London, 1930, p. 4 ;

– كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة من الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، ١٩٦٣م ، ص ٧٩ .

١٢ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٧٩ – ٨٠ ؛ Newton, op. cit., p. 4 .

١٣ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٨٠ .

14 - Newton, op. cit., p.3 - 4 .

١٥ – المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التحرير للطبع والنشر ، ١٩٦٦م ، جـ٢ ، ص ٢٨٦ – ٢٨٨ .

١٦ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص٥ .

١٧ – ابن خرداذبة (أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله) ، المسالك والممالك ، السلسلة الجغرافية ، تحقيق محمد مخزوم ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٨م ، ص ١٣ .

18 - Mieli, A., La Science Arabe, Leiden, 1938, p. 79 .

١٩ – خالدوف ، الثقافة الكتبية ، دراسات فى تاريخ الثقافة العربية ، ترجمة أيمن أبو شعر ، معهد الاستشراق ، موسكو ١٩٨٩م ، ص ٣٢٠ .

٢٠ – جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، ص ٥ ، ١١٢ ؛ هونكه ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

٢١ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م ، ص ٤٣ – ٤٤ .

٢٢ – خالدوف ، الثقافة الكتبية ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

٢٣ – زكريا هاشم ، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٥٢٥ .

٢٤ – نفيس أحمد ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

25 - Newton, op. cit., pp. 89 - 90 .

٢٦ – المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه محمد مخزوم ، بيروت ١٩٨٧م ، المقدمة ص ٧ – ٨ .

٢٧ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

٢٨ – كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ص ٢٥٦ .

٢٩ – كراتشكوفسكى ، نفسه ، ص ٣٦١ .

٣٠ – كراتشكوفسكى ، المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

31 - Newton, op. cit., p. 112 .

٣٢ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٣١ – ٣٣ ؛ هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥م ، جـ١ ، ص ٧٤– ٧٥ – ٧٧ – ٧٨ .

٣٣ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ١٠ ، هـ ٦ .

٣٤ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٣٤ – ٣٦ .

٣٥ – صمويل نيستسون ووليام دى ويت ، سير ملهمة من الشرق والغرب ، ترجمة إسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٤ ؛ محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧م، ص ٣٢٨ ، ٣٥٥ – ٣٥٦ .

٣٦ – الحسن بن محمد الوزان الزياتى : نشأ فى غرناطة قبل سقوطها عام ١٤٩٢م ، وتنقل مع أهله إلى مراكش . وأثناء عودته من الإسكندرية إلى بلاده عام ١٥٢٠م ، وفى خليج قابس ، أسره بعض

القراصنة من جزيرة صقلية ، وسلموه إلى البابا ليون العاشر فى روما ، وأدرك البابا قيمته العلمية ، فبادر بعتقه وشمله بعطفه ورعايته ، واضطر تحت ضغط البابا إلى اعتناق المسيحية ، وحمل اسمه ، وأطلق عليه جوفانى ليونى أو يوحنا الأسد . وسمح البابا لليون الإفريقى بأن يدرس اللغة العربية وعلوم الشرق فى روما وبولونيا ، فقام بنفسه بترجمة كتابه " إفريقيا " إلى اللغة الإيطالية أثناء إقامته بالفاتيكان فى خدمة البابا ليو العاشر . ولم يلبث الوزان أن ضاق ذرعاً بمعيشته فى أوروبا ، وعاد إلى إفريقيا عام ١٥٢٨م ، وعاد إلى دينه ، وتوفى بتونس . محمد عبد الله عنان ، تراجم إسلامية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٣٥٤ - ٣٧٢ .

٣٧ - كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ص ٤٥٠ - ٤٥٤ .

٣٨ - نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٠٨ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ .

39 - Mieli, A., of. Cit. pp. 79 - 80 , 115 ;

- مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جغرافيا ، ملحق ، جـ١٠ ، ص ٢٠٨٩ - ٢٠٩٠ .

٤٠ - فضل العرب على أوروبا ، ص ٢٩٥ .

٤١ - نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .

٤٢ - كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

٤٣ - أحمد مختار العبادى ، الإسلام فى أرض الأندلس ، عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٤م ، ص ١١٣ .

٤٤ - أحمد مختار العبادى ، المرجع نفسه ، ص ١١٤ .

٤٥ - حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ١٨ - ٢٠ .

٤٦ - أحمد مختار العبادى ، نفسه ، ص ١١٤ .

٤٧ - حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

٤٨ - حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٤٩ - قسمة قسطنطين ، المراد به تقسيم إسبانيا إلى مناطق كنسية تتبع كل منها لأسقفية على رأسها أسقف ، وهو تقسيم عام للعالم المسيحى كله وضعه رجال الدين من النصارى بعد صدور منشور ميلان ٣١٣م . وهذا التقسيم الكنسى هو الذى أصبح فيما بعد أساساً للتقسيم الإدارى للدول التى قامت فى أوروبا بعد انتهاء الغارات الجرمانية واستقرار كل جماعة من الجرمان فى ناحية وإنشائهم دولة فيها . وقد حافظ العرب فى الأندلس على هذا التقسيم ولم يدخلوا عليه تعديلاً إلا بالقدر الذى اقتضته الظروف الخاصة بنظام دولتهم . حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٨٤ .

٥٠ - حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٧١ - ٧٢ .

٥١ - كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ص ٢٨١ .

٥٢ – كراتشكوفسكي ، نفسه ، ص ٢٨١ – ٢٨٣ .

٥٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، ص ٤٤ .

٥٤ – تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٢٨٣ .

٥٥ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٢٠٥ .

٥٦ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٧٤ .

٥٧ – لمزيد من التفاصيل انظر ، حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي .

٥٨ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

٥٩ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ١٤٠ .

٦٠ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٨٦ .

٦١ – كرامرز ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٠ ، مادة جغرافيا ، ص ٣٠٣٢ – ٣٠٣٣ .

٦٢ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

٦٣ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

٦٤ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

٦٥ – هونكه ، نفسه ، ص ٢٩٥ .

٦٦ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

٦٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

٦٨ – كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٢٦ .

٦٩ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

٧٠ – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ٢٣٣ – ٢٣٥ ، ٦٠٦ .

٧١ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ٥١ .

٧٢ – نفيس أحمد ، نفسه ، ٢٢٤ .

٧٣ – المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٢٤ .

٧٤ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ص ١٠ .

٧٥ – مؤنس ، تاريخ الجغرافية ، ص ٢٦٩ ، ٢٧١ .

٧٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ؛
Abulafia, Abulafia, The Westeren Mediterranean Kingdoms, London, 1997. pp. 129 - 130 .

٧٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٥ .

٧٨ – شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ص ٤٠٢ .

٧٩ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٢٦ .

٨٠ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ٢٣١ .

٨١ – خالدوف ، دراسات فى تاريخ الثقافة العربية ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

٨٢ – ج . ب . ترند ، إسبانيا والبرتغال ، فصل فى كتاب تراث الإسلام ، عربه حسين مؤنس ، جـ١ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٥٤ – ٥٥ .

٨٣ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

٨٤ – إيرنست باركر ، الحروب الصليبية ، فصل فى كتاب تراث الإسلام ، عربه على أحمد عيسى ، جـ١ ، ص ١٢٤ – ١٢٥ ، ١٤٢ .

٨٥ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، الطبعة السادسة ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ١٠١٣ – ١٠١٤ .

٨٦ – المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٦٦ .

٨٧ – فضل العرب على أوروبا ، ص ٢٩٣ .

٨٨ – لفظ زيج جمعه أزياج وزيجات ، وهو لفظ فارسى يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية ، وهى تتضمن أطوال وعروض المواضع الجغرافية . كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ص ٧٥ ، ١٠٥ .

٨٩ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٤٨ ؛ حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٣٦٢ .

٩٠ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، ص ٣٩ – ٤٠ .

٩١ – كراتشكوفسكى ، نفسه ، ص ٨٥ – ٨٦ .

٩٢ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٦٠ ، ١٩٤ .

٩٣ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، ص ٥١ .

٩٤ – ج . ب . ترند ، إسبانيا والبرتغال ، جـ١ ، ص ٦٠ – ٦١ .

٩٥ – كراتشكوفسكى ، نفسه ، ص ١١١ ؛ هونكه ، فضل العرب على أوروبا ، ص ١٠٦ ، ١١١ .

٩٦ – كراتشكوفسكى ، نفسه ، ص ٨٥ .

٩٧ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ٢٠ – ٢٢ .

٩٨ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

٩٩ – ابن خردانبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥ .

١٠٠ – ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، بيروت ١٩٨٨م ، الطبعة الأولى ، ص ١١ .

١٠١ – ابن رسته ، نفسه ، ص ١٥ .

١٠٢ – المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٦٥ .

١٠٣ – المسعودى ، التنبيه والإشراف ، طبع فى ليدن ١٨٩٣م ، ص ٤٦ .

١٠٤ – نفيس ، نفسه ، ص ٢٢٣ .

١٠٥ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، ص ٥٢ – ٥٣ .

١٠٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

١٠٧ – خطط المقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، دار التحرير للطبع والنشر ، جـ١٠ ، ص ٣٩٤ .

108 - John Steward Collid, Chridtopher Columbus, New York, 1977, pp. 25-26 .

١٠٩ – شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ترجمة أيمن أبو شعر ، أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى ، معهد الاستشراق ، موسكو ١٩٨٩م ، ص ٤٠٠ .

١١٠ – العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، ص ٥٠ .

١١١ – العقاد ، نفسه ، ص ٤٩ – ٥٠ .

١١٢ – خوان بيرنيت خينيس ، هل هناك أصل عربى لفن الخرائط البحرية ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الأول ١٩٥٣ نقلاً عن حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

١١٣ – جورج يعقوب ، أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ، ترجمة فؤاد حسين على ، القاهرة ١٩٤٦م ، ص ٢٩ – ٣٠ ؛ سعيد عاشور ، فضل العرب ، ص ٤٦ .

١١٤ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، فضل العرب على الحضارة الأوروبية ، ص ٤٦ .

١١٥ – كريستى ، تراث الإسلام ، جـ٢ ، ترجمة زكى محمد حسن ، ١٩٨٣م ، ص ١٩ – ٢٢ ؛ محمد جمال الدين الفندى ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٤٦ ، مادة الفلك ، ص ١٥٢ .

١١٦ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٨٢ – ١٨٣ ؛ شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ص ٤٠٠ .

١١٧ – نفيس أحمد ، نفسه ، ص ١٨٢ .

١١٨ – شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ص ٤٠٢ .

١١٩ – زكى على ، مصر فى العصور القديمة ، دار الكتاب العربى بمصر ، ١٩٥٣م ، ص ١٠٩ .

١٢٠ – شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ص ٣٩٥ .

١٢١ – نقلاً عن شوموفسكى ، نفسه ، ص ٣٦٤ .

١٢٢ – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١ ، ص ٨٤ – ٨٥ .

١٢٣ – شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ص ٣٨٤ – ٣٨٥ .

١٢٤ – ولد شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى عام ١٤٤٠ فى جولفار بإقليم عمان ، وهى مرفأ عربى لا يفصله عن هرمز سوى بغاز ، وينتسب لأسرة تشتهر برجال البحر والملاحة . وكان أبوه ربانا . ودرس ابن ماجد علوم الحساب العربى والهندى والزنجى ، وكتب مجموعات منوعة من كتب الإرشاد البحرى ، وتوفى بعد عام ١٥٠٠ بقليل . شوموفسكى ، نفسه ، ص ٣٩٧ .

١٢٥ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٣٣ .

١٢٦ – عصام الدين عبد الرؤوف ، تاريخ الفكر الإسلامى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

١٢٧ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب ، ٥٩ ؛ عاشور ، فضل العرب ، ص ٤٧ .

١٢٨ – جمال الدين الرمادى ، مادة فتوح العرب فى أوروبا ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ١٩٥٩م ، ص ٢٣١ .

١٢٩ – مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٠ ، مادة جغرافيا ، ص ٣٠٨٩ – ٣٠٩٠ .

١٣٠ – نفيس أحمد ، جهود المسلمين ، ص ١٣٧ .

١٣١ – جبرائيل فران ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢٠ ، مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد ، ص ٦٣١٤–٦٣٢٠ ؛ شوموفسكى ، الإبحار العربى ، ص ٣٩٨ .

١٣٢ – شوموفسكى ، نفسه ، ص ٤٠٠ – ٤٠١ .

١٣٣ – نقلاً عن حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ٢٧٨ .

١٣٤ – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ١ ، ص ٩٠ – ٩١ .

١٣٥ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٧٨ .

١٣٦ – الإدريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، بريل ، ليدن ١٨٦٤م ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ؛ بروفنسال ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ١٦ – ١٨ .

١٣٧ – حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

١٣٨ – مقبول أحمد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جغرافيا ، جـ١٠ ، ص ٣٠٩٩ .

١٣٩ – عباس محمود العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، ص ٥٤ – ٥٨ .

140 - Cantor, Norman F., Western Civilization, London, 1969, vol. 1. p. 513 .

141 - Collis, J., S., op. cit. p. 23 .

142 - Canto, op. cit., p. 514 .

١٤٣ – محمد محمود السروجى ، معالم التاريخ الأوروبى الحديث ، ص ٥٨ .

١٤٤ – جبرائيل فران ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ٢٠ ، مادة شهاب الدين أحمد بن ماجد ، ص ٦٣١٠ – ٦٣١١ .

١٤٥ – شوموفسكي ، الإبحار العربي ، ص ٤٠٦ .

١٤٦ – جبرائيل فران ، نفسه ، ص ٦٣٠٩ – ٦٣١٠ .

١٤٧ – شوموفسكي ، نفسه ، ص ٤٠٦ .

١٤٨ – شوموفسكي ، نفسه ، ص ٤٠٢ .

149 - Cantor, op. cit., Vol, 1, p. 518 .

١٥٠ – جون ولتن ، ستة من رواد الكشف الجغرافي ، ترجمة رمزي يسى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٦.

١٥١ – محمد محمود السروجي ، المرجع نفسه ، ص ٦٢ – ٦٤ .

١٥٢ – خالدوف ، دراسات في تاريخ الثقافة العربية ، ص ٢٧١ .

١٥٣ – فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ١٩٧٦م ، ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

رقم الإيداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

مطابع زمزم ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق